

بدأ صدورها في 2012م

الرقم الدولي: 2321-7928

مجلة الهند

مجلة فصلية محكمة

المجلد: 12 العدد: 4

أكتوبر-ديسمبر 2023م

العدد الخاص

بسيرة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي رَحِمَهُ اللهُ

(الجزء التاسع)

مدير التحرير

د. أورك زيب الأعظمي

المشارك في التحرير

د. هيفاء شاكري

نائب مدير التحرير

د. محمد معتصم الأعظمي

تصدر عن

مولانا آزاد آئيديل إيجوكيشنال ترست

بولفور، بنغال الغربية

المراسلات المتعلقة بالاشتراك في الطباعة والنشر توجه إلى:

عنوان البريد:

مولانا آزاد آئيديل إيجوكيشنال ترست، بولفور، بنغال الغربية رقم البريد: 731235

الهيئة الاستشارية

د. مثنى حارث الضاري (العراق)	د. سناء شعلان (الأردن)
د. صالح البلوشي (عمان)	السيد محمد دأنش الأعظمي (البحرين)

هيئة التحكيم

د. بشري زيدان (مصر)	د. حسن يشو (قطر)
د. عامر خليل الجراح (تركيا)	د. محمد فضل الله شريف (الهند)

هيئة التحرير

د. أورنك زيب الأعظمي (مدير التحرير)	د. هيفاء شاكري (المشارك في التحرير)
د. محمد معصم الأعظمي (نائب مدير التحرير)	د. محمد شفاء الرحمن المدني (عضو)

عنوان البريد الإلكتروني:

(1) aurang11zeb@yahoo.co.in

(2) azebazmi@gmail.com

موقع المجلة: www.azazmi.com

الاشتراك السنوي:

1000 روبية (للطلاب) 1500 روبية (للأساتذة والمكتبات)

قواعد النشر في المجلة

بالنسبة للبحوث التي ترسل للنشر في المجلة، يرجى مراعاة القواعد الآتية:

1. تقبل المجلة نشر البحوث باللغة العربية، إذا توافرت فيها الشروط التالية:
 - أ. أن يتسم البحث بالأصالة والابتكار، والجدة العلمية والمنهجية، وسلامة الاتجاه.
 - ب. أن يلتزم بالمنهج والأدوات والوسائل العلمية والمعتبرة في مجاله.
 - ج. أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخريج.
 - د. أن يتسم بالسلامة اللغوية.
 - هـ. الأفضل أن يتناول البحث موضوعاً جديداً ذا صلة بالعلوم العربية والإسلامية ومساهمة الهند في مختلف العلوم والفنون والآداب وما إليها.
 2. ألا يزيد البحث عن خمسين صفحة، والرجاء من الباحثين استخدام (Amiri) على حجم 11.5.
 3. ألا يكون البحث قد سبق نشره أو قدّم لأي جهة أخرى من أجل النشر.
 4. يرفق بالبحث ملخص له في حدود صفحة.
 5. أن يقر صاحب البحث بأن بحثه عمل أصيل له.
 6. تخضع البحوث إلى تحكيم لجان علمية أكاديمية متخصصة وفق المعايير المعتبرة.
 7. تحتفظ المجلة بحقوقها في حذف أو إعادة صياغة بعض الكلمات والعبارات التي لا تناسب مع أسلوبها في النشر.
- تعبر المقالات المنشورة عن آراء كاتبها واجتهاداتهم الشخصية.

في هذا العدد

الصفحة

9	- د. أورك زيب الأعظمي	الافتتاحية
		مقالات وبحوث:
11	- د. المختار شاكر	علم الأديان موردًا لتفسير مفردات القرآن، دراسة في تراث الإمام عبد الحميد الفراهي
41	- د. محمد عناية الله أسد سبحاني	موقف الفراهي من دراسة أقسام القرآن
60	- محمد يسلم المجود	منهج الفراهي في الكشف عن نظام القرآن الكريم: دراسة وصفية تحليلية
108	- د. سوسن حسانين المدهد	السياق وأثره في توضيح المعنى عند الإمام عبد الحميد الفراهي في تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"
180	- د. أبو سعد الأعظمي ترجمة: د. محمد شفاء الرحمن المدني	أخطاء المفسرين القدامى وموقف الإمام الفراهي منها
203	- د. حسين بن مصطفى	أصول التفسير بين الفراهي والطاهر بن عاشور، دراسة مقارنة
234	- د. عامر خليل الجراح	دلالة الإيحاء الصوتي للكلمات أو الأنوماتوبيا عند الفراهي

245	د. محيي الدين غازي ترجمة: أ.د. محمد قطب الدين	وجهة نظر الإمام الفراهي عن العقل
266	- د. عبد الوحيد شيخ المدني	منهج عبد الحميد الفراهي في بيان المسائل الخلافية من خلال كتابه: "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح"
272	- د. أورنك زيب الأعظمي	"هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ"
282	- د. محمد معتمد الأعظمي	لمحات عن محاسن أخلاق الإمام عبد الحميد الفراهي
		كتابات الإمام الفراهي:
292	- الإمام عبد الحميد الفراهي ترجمة: د. هيفاء شاكري	رفع الإنجيل
302	- الإمام عبد الحميد الفراهي ترجمة: د. هيفاء شاكري	المسيح (عليه السلام) يبشّر
307	- الإمام عبد الحميد الفراهي تحقيق وتقديم: د. أورنك زيب الأعظمي	التلخيص
312	- الإمام عبد الحميد الفراهي تحقيق وتقديم: د. أورنك زيب الأعظمي	كفر
326	- د. أورنك زيب الأعظمي	"وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ"
		تحليل أعمال الإمام الفراهي:
338	- د. عظمت الله	أضواء على جهود الإمام عبد الحميد الفراهي في مجال الدراسات القرآنية

358	نظرات في مؤلفات الإمام عبد الحميد الفراهي - 3	- د. جمشيد أحمد الندوي
459	كتاب "أساليب القرآن" للأستاذ الفراهي	- أ. د. أبو سفيان الإصلاحي
475	كتاب "أسباق النحو وتحفة الإعراب" للإمام عبد الحميد الفراهي، دراسة تحليلية	- د. منظر عالم
	دراسات تحليلية ونقدية:	
486	القسم في القرآن الكريم	- الشيخ وحيد الدين خان ترجمة: د. مجيب أختر
494	صلوات الأفعال في كتابات الإمام الفراهي (دراسة نقدية للمختار منها)	- د. أورنك زيب الأعظمي
602	العرب ولغتهم عند إمام الهند الفراهي	- بشري الجمودي
621	أضواء على تعقيبات الشيخ المعلّي على العلامة الفراهي في تفسير سورة الفيل	- د. محمد فضل الله شريف
	شعر الإمام الفراهي:	
648	انعكاس القيم الأخلاقية والروحية في شعر الإمام الفراهي	- يوسف متقيان نيا
666	أثر القرآن الكريم في شعر الفراهي	- د. عامر الجراح ود. محمد خالد الرهاوي
682	موقف الإمام الفراهي من الاستعمار الطلياني- قراءة في ديوان الإمام الفراهي	- يوسف متقيان نيا
	رجال أحيوا أعمال الإمام الفراهي:	
693	الشيخ بدر الدين الإصلاحي أحد ناشري مدرسة الفراهي	- محمد أكل الفلاحي

مجلة الهند في هذا العدد

701	البروفيسور عبيد الله الفراهي - نظرة على خدماته العلمية
	قراءة في رسالة دكتوراة:
712	أصول التفسير عند العلامة الفراهي - د. محمد أجمل وعامة المفسرين دراسة ومقارنة

الافتتاحية

أعزائي القراء،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يسرنا كثيراً أن نقدم إليكم الجزء التاسع الخاص بسيرة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي الذي يرجع إليه فضل إصلاح العلوم القديمة وتطهير العلوم الجديدة في الهند ومن ثم في البلاد الإسلامية. كان الإمام الفراهي شخصية تجمع بين العلم والتقوى بل كما قال المولانا آزاد: صعب لزاره أن يفرق بين علمه وتقواه أيهما أزيد. رحمه الله رحمة واسعة وتقبل جهوده في خدمة علوم القرآن والحديث واللغة العربية.

وهذا الجزء، كدأب الأجزاء السابقة، يحتوي على ثلاثين مقالة وبحثاً علمياً تناول فيها الباحثون والمترجمون مختلف جوانب سيرة الإمام الفراهي وأعماله بالبحث والتحقيق فتحدثوا عن حياته وما تحلّى به كما ناقشوا أفكاره عن القرآن والسنة والأدب، وكذا تناولوا مؤلفاته بالدراسة والنقد. وهكذا كتبوا عن أشياء تريبهم والقراء.

في هذا الجزء وزّعنا المقالات في أقسام ففي قسم "المقالات والبحوث" وضعنا المقالات التي تشرح أفكار الإمام الفراهي من أهمية المفردات في فهم آيات القرآن ودور النظام في تحديد معانيها كما جعلنا فيها مقالات عن الإيحاء الصوتي والحجاج في القرآن وشرح فقرة قرآنية في ضوء أصوله، وختمنا هذه المقالات بلمحة عن محاسن أخلاقه لتنفيذ أن الشخصية التي كانت على درجة عليا من العلم كانت أيضاً تتحلّى بأخلاق عظيمة وهكذا بكل العلامة الفراهي خلقاً وعلماً. وأما قسم "كتابات الإمام الفراهي" فوضعنا فيها كتابات الإمام مترجمة ومحققة كما ضمنا

إلى قسم "تحليل أعمال الإمام الفراهي" مقالاتٍ تحلّل أعمالَ الفراهي أفراداً وجماعة وكذا جعلنا في قسم "دراسات تحليلية ونقدية" بحثاً تناولت كتابات وأفكار الإمام الفراهي بالتحليل والنقد. وهكذا جعلنا في قسم "شعر الإمام الفراهي" مقالات تلقي الضوء على شعر الإمام الفراهي في اللغات. هذه مقالات تناقش شعر الفراهي العربي ونضمٌ إليها مقالات تتناول شعره الفارسي والأردوي... وقد أوجدنا قسمين جديدين وهما "رجالٌ أحيوا أعمال الإمام الفراهي" و"قراءة في رسالة دكتوراة" ففي الأول وضعنا ونضع مقالات عن شخصيات اجتهدوا في إحياء أعمال الفراهي ونشر أفكاره وفي الثاني نعرف أطروحات ماجستير وماجستير في الفلسفة والدكتوراة عن سيرة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي. هذا الجزء التاسع وسنصدر الجزء العاشر في شهر ديسمبر 2024م فنوجه الدعوة إلى الكّتاب والباحثين أن يسهموا فيه بكتاباتهم البناءة.

وأخيراً نشكر كلّ من ساهم في إعداد هذا الجزء الخاص من الباحثين والمترجمين وأعضاء هيئة التحرير، وكلّ من كانت له جهود مضيئة في إخراجه في صورته الحالية وتقديمه إليكم.

نسأل الله تعالى أن يجعله في ميزان حسناتنا يوم نلقاه.

د. أورك زيب الأعظمي

علم الأديان مورداً لتفسير مفردات القرآن (دراسة في تراث الإمام عبد الحميد الفراهي)

- د. المختار شاكر¹

مقدمة

لا يخفى أنّ القرآن الكريم إنما أنزل لتفهيم مقاصده الكلامية، وتستوعب رسالته الربانية للبشرية جمعاء؛ ليتأسس على هذا الفهم ما به يصلح حالُ الناس في الدين والدنيا، وهو الأمر الذي لا يتم إلا بالتدبر المستعين بمفاتيح الفهم وأدوات التأويل؛ المتمثلة في جملة من العلوم المعينة على استيعاب سياقات المعاني ومقاصد المباني، وقد استطاع (علم الأديان) أن يثبت أحقيته للانضمام للعلوم التي يحتاج إليها المفسرون، بما يوفره من أدوات الفهم لبعض مقاصد القرآن الكامنة وراء ورود القصص وأخبار الأمم السابقة في العديد من آي القرآن وسوره، مما له صلة بتاريخ هذه الأديان العقدي والتشريعي. وقد سلك هذا المنهج نخبة من علماء الأمة ممن استصحب نصوص أهل الكتاب لتفسير اللفظ القرآني، معتبرين أنّ الاهتمام بعلم الأديان بالنسبة للمفسر- والذي تدرج في تخصصاته دراسة النصوص الدينية لأهل الكتاب بلغاتها القديمة، وتاريخ عقائدهم وأصول تشريعاتهم- ليس من باب الترف الفكري والمعرفي، وإنما هو من صميم العلوم التي يحتاج إليها المفسرون في ممارستهم للتدبر في النص القرآني، مفردات وتراكيب.

لقد أكد أبو الحسن الندوي (ت. 1420هـ) هذه الحقيقة بقوله: "وكلما يتسع العلم بديانتهم، وتيسر وسائلُ، وإمكانيات دراسة كتبهم- التي تنشر الآن وتصدر بكثرة-

¹ أستاذ محاضر، معهد محمد السادس للقراءات والدراسات القرآنية، جامعة القرويين، الرباط- المملكة المغربية

دراسة عميقة، يظهر للناس صدق بيانات القرآن- وهو الكتاب المحكم- ودقتها، وتكشف حقائق ومعلومات خطيرة، ويتجلى لكل ذي عينين، أن القرآن الكريم، لم يستخدم كلمة واحدة في حقهم، إلا وهي من الضرورة بمكان، ولولاها، خلفت علينا معانٍ، وأن تنويعه للتعبير والبيان، عندما يذكرهم، ليس إلا لغرض مقصود كبير".¹

وقد ذكر الندوي جملة من أمثلة شارحة لما قرره في هذه الفقرة من وجوب استصحاب علم الأديان مصدراً لتفسير ألفاظ القرآن المستعملة في سياقات ذات صلة بأهل الكتاب؛ مبيناً أن من مظاهر الإعجاز البياني للقرآن الكريم التي تخفى على من ليس له إلمام بعلم الأديان، دقة اختياره لمفردات لا يستوعب مدلولها إلا من تملك ناصية هذا العلم.

ويعتبر الإمام عبد الحميد الفراهي رائد هذه النخبة المباركة من المفسرين الداعين إلى وجوب الانفتاح على علم الأديان والاشتغال على نصوص أهل الكتاب؛ بعد أن أسس موقفه في ذلك على رأي نخبة من علماء الأمة ممن يرى أن في هذا النص قدراً غير قليل من الوحي، وأن ما مسّه التحريف فيه أمر يسير، معظمه مرتبط بمسألة التأويل، تتكشف مواطنه بمجرد عرضه على أسس ومبادئ قرآنية.

ولذلك، فتطبيقاً منه لمنهجه المعتمد في نقد متن النص الديني لليهود والنصارى، استصحب عبد الحميد الفراهي نصوص العهدين في تضاعيف كتبه في التفسير والدراسات القرآنية، ونبه في ثناياها إلى أهمية هذا المسلك في استنباط معانٍ جديدة من الكتاب المكنون، واستنكر على المفسرين عدم اهتمامهم بدراسة النص الديني لليهود والنصارى، والإفادة من مضامينه لتفسير الكثير من مفردات القرآن، وفهم سياقات قصصه ذات الصلة بأهل الكتاب، بل ربط سبب وقوع المفسرين في سوء فهم بعض الآيات القرآنية بجهلهم بمعارف الكتاب المقدس وبلغاتها الأصلية.

¹ كتاب: من تراث العلامة الندوي: دراسات قرآنية، لأبي الحسن علي الندوي، إعداد: سيد عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير، ط2، 2010م، ص 95.

وقبل الحديث عن منهج عبد الحميد الفراهي في استثمار نصوص أهل الأديان الكتابية في تفسير الألفاظ القرآنية، سنتبين موقفه من نصوص العهدين.

أولاً: موقف الإمام عبد الحميد الفراهي من الكتاب المقدس

1. نقد الفراهي للكتاب المقدس؛ محاولة لتأسيس منهج جديد: ¹ إنَّ ما يجب التنبيه إليه أنَّ منهج الفراهي في نقد الكتاب المقدس يختلف، من جهة أهدافه، عما كان مألوفاً عند النقاد المسلمين لهذا النص؛ ذلك أنَّ النظائر المسلمين بشبه القارة الهندية، الذين تناولوا نصوص العهد القديم اليهودي، والجديد المسيحي بالنقد والتحريض، قد طغى على أسلوبهم السمة الهجومية النابعة من ردة فعل لما تقوم به الحركة التبشيرية لتشكيك المسلمين من صحة القرآن الكريم ونبوة محمد ﷺ، الأمر الذي جعل هؤلاء الأعلام يرومون تحقيق هدف واحد في تقديم نصوص أهل الكتاب؛ ألا وهو إثبات تحريفها والتدليل على انقطاع سندها؛ فتكون النتيجة الحتمية ضرورة إلغاء هذا النص جملةً وتفصيلاً، والدعوة إلى تحريم النظر في مضامينه والاشتغال بدراسته.

وقد أبجمل لنا أبو الحسن الندوي أهمَّ السمات الأسلوبية والمنهجية التي تطغى على جلَّ المؤلفات الإسلامية المفردة لنقد الكتاب المقدس بالقطر الهندي وغيره، إذ يقول في معرض سرده لمميزات منهج رحمة الله الهندي في كتابه (إظهار الحق):

"المؤلف أثر خطة الهجوم على الدفاع التي لا تزال أقوى وأكثر تأثيراً في النفس، فإنها تلجئ الخصم إلى أن يتخذ موقف الدفاع وأن يقف في قفص الاتهام، ويدافع عن نفسه وينفي التهمة (....). وقد كان شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية، موفقاً كلَّ التوفيق في إثارة خطة الهجوم في كتابه (الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح)،

¹ تفاصيل أوفى عن هذا الموضوع في كتابنا: المنحى التجديدي لنقد الكتاب المقدس عند عبد الحميد الفراهي، منشورات مركز روافد للدراسات والبحاث، ط1، 2018م.

مع أنّ قيمة الصحف الأربع للإنجيل لا تعدو عند المحققين قيمة كتب السيرة والحديث من الطبقة الثانية أو الثالثة، ليس لها سند متصل صحيح، وقد ألفت بعد رفع المسيح في فترات مختلفة¹.

فإذا كان هذا هو الدافع الأبرز عند أغلب العلماء المسلمين المشتغلين بنقد الكتاب المقدس، أعني حرصهم على هدم أسسه، وتقويض أركانه، فإنّ الفراهي له نظرة مغايرة لهذا المسلك في تعامله مع نقد مضامين أسفار العهدين، ذلك أنّ الغرض الأسمى عنده هو النقد البناء لهذا النص، ودراسته دراسة تستصحب الاعتراف الأولي بمقتضاياته، وتتغنى تحديد مواضع التحريف ومواطن الصحة فيه، وذلك بعرضها على معايير قرآنية وأسس عقلية، قصدًا لاستثمار بعض مضامين هذا النص فيما له علاقة بترائنا الشرعي، وخصوصًا التراث التفسيري.

ولذلك، فالفراهي تجاوز مرحلة النقد الخارجي للكتاب المقدس، والتي غالبًا ما يُناقش فيها انقطاع سنده، باعتبار ذلك نقطة مفصلية يتكئ عليها النقاد لطرح كل مضامين هذا النص، والحكم على وجوب نبذه وعدم صحة اعتماد نصوصه، أما الفراهي فقد حسم الخلاف في هذه المسألة في كلمات رشيقة الصياغة في المبنى، دقيقة الدلالة في المعنى، فعبر عن رأيه في هذه المسألة بالقول:

"قد علمنا، وقد اعترف علماء المسيحية بأنّ أصل الإنجيل مفقود، وإنّما في أيدينا تراجمٌ اختلط فيها أقوال المسيح وأقوال الرواة، والروايات مختلفة، ربما يضاد بعضها بعضًا، مع اضطراب المتون وعدم السند، فضلًا عن الاتصال والصحة، فالالتفات

¹ تنظر مقدمته لكتاب: إظهار الحق، لمحمد رحمت الله الهندي، إخراج وتحقيق: عمر الدسوقي، طبعة الشؤون الدينية، قطر، (د.ت.ط)، 14/1. وينظر أيضًا: كتاب، مقدمات الإمام العلامة الداعية المفكر الإسلامي، للشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي، جمع وترتيب: محمد منتظر عبد الحفيظ، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط1، 2004م، ص 218.

إليها والتعرض لها ليس إلا على تقدير التسليم وعلى سبيل التنزل".¹

ومن هنا فإنّ الفراهي سلك لنفسه منهجاً فريداً، امتاز به عن غيره من علماء الأُمَّة المشتغلين بنقد الكتاب المقدس، حيث أظهر قبولاً منقطع النظير لنصوص العهدين، ولا يخفى ما لهذا الأمر من أهمية بالغة في التحلي بالموضوعية العلمية، ذلك أنه متى تمّ تجاوز مرحلة القبول والاعتراف بنصّ ما، فإنّ الجهد سينصبّ على تقويم اعوجاجه، عوض تقويض أسسه ومجّه، ولهذا حرص صاحبُ (الإكليل في شرح الإنجيل)² أن يبين رأيه الوسطي في هذه المسألة، فقال في كتابه (إمعان في أقسام القرآن):

"وفي ما مرّ من الفصول السابقة كفايةً إن شاء الله تعالى لمن أراد جواب الشُّبُهات، فإنّ فيما ذكرنا توفيقاً بين النّقل والعقل، وتصديقاً بالتّوراة والإنجيل والقرآن. ومهما كان من اختلاف، فإنما هو من جهة الإتمام والتفصيل، وإقامة الوسط بين الإفراط والتّفريط، ورعاية التمييز بين دقائق الأحكام عند تشابك النّفع والضرر".³

لا يحتاج الناظر في تراث الفراهي إلى جهد كبير ليتأكّد عنده أنّ له موقفاً إيجابياً من الكتاب المقدس ولغاته الأصلية، كيف لا وقد وصل به الأمر إلى اعتبار بعض نصوصه في مرتبة القرآن نفسه، وأنّ اللغة العربية شقيةٌ العبرية، يجمع بينهما جدرٌ مشترك، وتساوَقٌ معرفيٌّ، وقد فصل ذلك بقوله:

"فاعلم أنّ كلام المسيح المروي باللغة اليونانية أصله عبراني، فلغة الإنجيل وكتب العهد العتيق واحدة، ولا شكّ أنّ العربي والعبراني؛ وهما لغتا الكتب المنزلة، صنوان. إذا كان

¹ إمعان في أقسام القرآن، لعبد الحميد الفراهي، المكتبة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1349هـ، ص 58.

² مخطوط كتاب: الإكليل في شرح الإنجيل، يوجد بحوزتنا، ونشتغل الآن على تحقيقه، وسيصدر قريباً بحول الله. وأغتنم هذه المناسبة لأوجه شكرى الخاص إلى صديقي العزيز؛ الباحث عبد الرحيم إيران الذي أمدّني بخبّة من كتب الفراهي، ومنها مخطوط الإكليل، وقد سافر الباحث إلى الهند خصيصاً لجمع تراث الفراهي في إطار أطروحته بمؤسسة دار الحديث الحسنية بالرباط.

³ إمعان في أقسام القرآن، ص 64.

الأمر هكذا، لا بدَّ أن تشبه بعضها بعضاً، أو تهدي أحدهما إلى معنى الأخرى (أولاً)، ثم لما كانت مطالب هذه الكتب متقاربة (ثانياً)، ونبتت كلُّها من ضمئى الوحي (ثالثاً)، فجدير بها أن تتساق، ولما أنَّ القرآن وعدنا تفصيل بعض أمور التَّبَسُّت على أهل الكتاب، ينبغي لنا أن نفهم ما يفصله القرآن لنا (رابعاً)، ولما أنه يصدِّق الكتب المنزلة ازدادنا اطمئناناً إنَّ علنا توافقهما، وسبيل تأويل بعضها إلى بعض (خامساً)، ولما أنَّ القرآن قولٌ فصل وقرآن مبین، وأكثر الكتب المنزلة شعر وتخييل، يلزم على مَنْ أراد فهمها أن يلتصم من القرآن (سادساً)،¹ ولما أنَّ لغة كتب العهد العتيق صارت معضلة، فغاب أدبها وغاض مشربها، فلا بدَّ أن يفهم كلامها من لغة القرآن (سابعاً).²

إنَّ نظرة الفراهي تجاه الكتاب المقدس ولغاتها القديمة أبيض وأوضح في هذا النص، ذلك أنَّ الإمام اقتنع أنَّ بين القرآن والكتب المقدسة تساوقاً في المضمون، وبين اللغة العبرية والعربية تشابهاً في الدلالة،³ ومن ثمَّ فإنَّ من المسلم به عنده، أنَّ التوراة والإنجيل والقرآن

¹ يقول الفراهي عن هذا الموضوع تحت عنوان: وجه الاستشهاد على الديونة بالتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين، أتى الفراهي بتحليل شيق لتوافق بين مضامين القرآن والكتب السابقة في هذا الموضوع، شغل أكثر من خمس عشرة صفحة. ينظر: نظام القرآن، (تفسير سورة التين)، تنظر تفاصيل شيقة عن هذا الموضوع في الصفحات؛ من ص 349 إلى ص 367.

² تنظر: مقدمة تفسيره نظام القرآن، ص 38. وعن هذا يقول: "وهذان الاسمان يوجدان في العبرانية بتغيير يسير، والعربية أحفظ وأقرب إلى الأصل أن لم تكن هي الأصل"، ينظر: نظام القرآن، (تفسير سورة البقرة)، الدائرة الحميدية، ط 1، 2008م، ص 200.

³ يقول محمد كرد علي متحدثاً عن اليهود ولغتهم العبرية وعلاقتها باللغة العربية: "ولغتهم هذه هي شقيقة اللغة العربية؛ فإنَّ الصرفين العرب لا يتعذر عليهم معرفة دقائق الصرف العبراني، وكذلك العبرانيون لا يصعب عليهم تعلم اللغة العربية والتعمق في دقائقها. وهي كما قلنا لغة سامية تكتب كالعربية من اليمين إلى الشمال، وأغلب كلماتها هي كشقيقتها لفظاً ومعنى. وعدد حروفها 22 حرفاً، وهي: أ ب ج د هـ و ز ح ط ي ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت، أي: (أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت)". ينظر كتابه: خطط الشام، مكتبة النور، دمشق، ط 2، 213/6.

وقالت أنا ماري شميل: "لم يكن العلماء يعتبرون دراسة العربية إلا امتداداً لدراسة العبرانية واللاهوت لا غير". ينظر كتاب: المستشرقون الألمان؛ تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية، دراسات جمعها: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط 1، 1978م، 27/1.

هي على وزن واحد؛ مادام أنها تؤول كلها إلى مشكاة الوحي، يفسر بعضه بعضاً، بفضل اكتسابها لخصائص عدة، تجعلها لا يفهم بعض نصوص أحدها إلا باستحضار سياقات ودلالات نصوص الكتب الأخرى، وأهم هذه الخصائص المساعدة في تحقيق هذا الغرض، اشتراك لغات هذه الكتب في الجذر والأصل السامي.¹

وهكذا، تجده على امتداد كتبه التي أفردتها لخدمة القرآن وعلومه، وتدير ألفاظه ومعانيه، لا يفتر من التنبيه إلى أهمية الاستعانة بنصوص التوراة والإنجيل في فهم وتأويل الكثير من نصوص القرآن الكريم، وذلك عندما تعرض له آية لا يمكن فهم سياقها إلا باستحضار تلك النصوص، وقد فصل الكلام في هذا الأمر إذ يقول:

"إنَّ القرآنَ أحدُ الكتبِ المنزَّلةِ، ونبيُّنا واحدٌ من الأنبياء، ونحن مسلمون مع كثرة الرسل أمة واحدة، لا بدَّ أن ننظر فيما سبق لنعرف قدر القرآن الحكيم، ونشكر فضل الله الجسم، ويظهر لنا تأويل تلميحات القرآن التي خفيت عن الخلف من المفسرين، فلم يهتدوا لوجه الكلام في غير موضع، وتبين لنا سبل إخماد أهل الكتاب. وأما أهل التفسير فمع أنهم أكثرنا من الإسرائيليات، لكنهم تركوا الكتب المقدسة، إلا قليلاً من العلماء الذين أظهروا الحق على أهل الكتاب، وأقاموا عليهم الحجة كابن تيمية، فنعم ما فعلوا، فكأنني على أثرهم".²

نص آخر يغني عن غيره في تبين موقف الفراهي من نصوص العهد القديم والجديد، المتسم بقدر غير قليل من التسامح والاعتراف، مادام أنَّ فيها ما يعين على تبين المراد من نصوص قرآنية لها اعتلاق بمعارف أهل الكتاب، قد لا يفهم المراد منها إلا باستصحاب مضامين العهدين، مذكراً أنَّ له في ذلك سلفاً اقتفى أثره، واستنار بهديه.

¹ "أول من أطلق على لغات الجنس السامي اسم اللغات السامية، هو المستشرق الألماني شلوتزر (Schloetzer) في أبحاثه وتحقيقاته في تاريخ الأمم الغائرة سنة 1781م، لأن معظم الشعوب والأمم التي تكلمت أو تتكلم هذه اللغات من أولاد سام بن نوح". ينظر: المعجم الحديث عبري-عربي، ص 5.

² تنظر المقدمة الثامنة من تفسيره: نظام القرآن، ص 48.

إلا أنه، ورغم كلِّ ما ذكر، فإنَّ الفراهي لم يقع أسيراً لكل نصوص أهل الكتاب، ولم ينهر بعلومها، ولا استسلم لسلطة معارفها، كما أنَّ أحكامه المزكيَّة لصحَّتها، لم تأت معمَّمةً وشاملة، بل له في ذلك منهجٌ منضبط، ورؤية فاحصة؛ تتخذ القرآن الكريم معياراً لها، يستصحب مبادئه أثناء تقليبه النَّظر في أسفارهما، ليصفها بما يليق بها إن إيجاباً أو سلباً، فكما أنَّه وصفها بالقول: "ثم للقرآن خصائص من جهة كونه وحياً ورسالة من الله تعالى، فمن جهة المضمون يفارق القرآن سائر كلام العرب، ويشبه الكتب السابقة المرسله".¹

فكذلك لا يجد غضاضةً في وسعها بالقول: "كما ترى ذلك في أمر اليهود والنصارى في أمر صحفهم، فإنهم بدَّلوها ولم يمنعهم عن ذلك، وأمَّا القرآن فحفظه عن أيدي الزائغين، مع حرصهم على التحريف والتغيير، وله الحمد والمنة"،² وأكَّده في موضع آخر استحضره الدائم، لما لحق هذه النصوص من تحريف، قائلاً: "ولا آمن بعض التحريف والزيادة فيما نقلوا".³

2. القواعد المنهجية لاستثمار نصوص الكتاب المقدس عند الإمام الفراهي: لقد تقدم الكلام على أنَّ عبد الحميد الفراهي تبني رؤيةً مغايرة للموقف المشاع عند نخبة واسعة من علماء الأمة بخصوص نصوص التوراة والإنجيل؛ والقاضي بوجوب النبذ المطلق لهذا النص، وتحريم الاشتغال والانشغال بمضامينه؛ لعله قاذحة في صحة سنده ومتمته؛ ذلك أنَّ الفراهي لم يسلم بهذا الرأي القائل بالتحريف الكامل لنصوص العهدين؛ نتيجةً للخطأ الهجومية التي وسمت الأعمال النقدية المفردة لهذا النص، وخصوصاً عند علماء الهند، بل حرص الإمام أن يتخذ دعامةً أساسية من الدعائم

¹ الإمام الفراهي، أساليب القرآن، ضمن: رسائل في علوم القرآن، الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح- أعظم كره، الهند، ط2، 1991م، ص 149.

² الفراهي: نظام القرآن، ص 437.

³ نفسه، ص 498.

التي أقام عليها مشروعه العلمي المنصب على تفسير القرآن الكريم وتدبر نظمه. فاستصحبه في كل مراحل تأسيسه وتنزيله لنظرية النظم القرآني في ثانياً تفسيره (نظام القرآن)، وفي مختلف كتبه، وبخاصة تلك المفردة للدراسات القرآنية.

ولكي يكتسب هذا العنصر قوةً ومثانةً، أخضعه الفراهي لاختبار دقيق، تمّ خلاله عرض نصوص الكتاب المقدس على عملية نقدية شاملة، يحسن بنا أن نعرض هنا باقتضاب لأهم أسسها:

- اعتبار القرآن الكريم المنطلق الأسلم لتفسير ونقد الكتاب المقدس: إنّ تطبيق الفراهي لهذا المبدأ في ثانياً كتبه، أفرز لنا جملةً من الأمثلة حاول من خلالها التدليل على وجاهة جعل القرآن الكريم المعيار الذي به يتم فحص نصوص الكتاب المقدس، وشرح مضامينه التي خفيت على أهل الكتاب من جهة، وعلى بعض العلماء المسلمين من جهة ثانية، وقد ألمح إلى هذا الأمر بقوله: "نلتمس تصحيح الكتب السابقة وتأويلها بعرضها على القرآن؛ ليتضح الحقُّ على أهل الكتاب".¹

وهذا الأمر كان معروفاً عند أساطين علماء الإسلام منذ القرون الأولى؛ حيث حملت لنا بطون الكتب صفحات مشرقة عن ذلكم الاهتمام البالغ الذي أولاه علماء الأمة لدراسة وتدريس نصوص التوراة والإنجيل في مجالسهم العلمية، فقد نقل إلينا شمس الدين بن خلكان (ت. 681هـ) في تاريخه، كلاماً نفيساً عن أحد فقهاء الشافعية؛ ويتعلق الأمر بأبي الفتح موسى بن يونس؛ الملقب بكال الدين (ت. 639هـ)، يقول عنه ابن خلكان؛ وهو بصدد التعريف به:

"الفقيه الشافعي، تفقه بالموصل على والده، ثم توجه إلى بغداد سنة إحدى وسبعين وخمسمائة (١٠٠٠)، ولما اشتهر فضله، انثال عليه الفقهاء، وتبحر في جمع الفنون، وجمع

¹ تنظر مقدمة تفسيره: نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، الدائرة الجديدة، ط1، 2008م، ص 50.

من العلوم ما لم يجمعه أحد، وتفرد بعلم الرياضة (...) وكان الفقهاء يقولون: إنه يدري أربعة وعشرين فناً دراية متقنة؛ فن ذلك المذهب، وكان فيه أوحـد الزمان، وكان جماعة من الطائفة الحنفية يشتغلون عليه بمذهبهم، ويحل لهم مسائل الجامع الكبير أحسن حل؛ مع ما هي عليه من الإشكال المشهور (...) وكان أهل الذمة يقرءون عليه التوراة والإنجيل، ويشرح لهما هذين الكتابين شرحاً، يعترفون أنهم لا يجدون من يوضحهما لهم مثله".¹

ومن المفيد أن نذكر هنا أنَّ أبا عثمان الجاحظ (ت. 255هـ) سبق الفراهي إلى التنبيه إلى مسألة جهل أهل الكتاب بالتأويل، مما نجم عنه تبنيهم لاعتقادات باطلة في حق الله تعالى، يقول الجاحظ؛ وهو يصف مسالكهم في فهم نصوصهم بأنَّها: "أمور عجيبة، ومذاهب شنيعة، يدل على سوء عبادة اليهود، وسوء تأويل أصحاب الكتب، وجهلهم مجازات الكلام، وتصاريـف اللغات، ونقل لغة إلى لغة، وما يجوز على الله، وما لا يجوز. وسبب هذا التأويل كله الغي والتقليد، واعتقاد التشبيه".²

¹ وفیات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لشمس الدين أحمد بن خلکان، تحقیق: إحسان عباس، دار صادر، بیروت، 1977م، 311/5، بتصرف.

وقد أورده السبكي في طبقات الشافعية، 378/8، بتحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي، دار حياء الكتب العربية، ط1، 1964م.

وذكر الإمام شمس الدين الذهبي في كتابه العبر في خبر من غير، أنَّ "محدث مرو علي بن الحسن بن سفيان كان حافظاً كثير العلم (..) كتب الكثير حتى كتب التوراة والإنجيل وجادل اليهود"، ينظر بتحقيق: محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، ط1، 1985م، 290/1.

² المختار في الرد على النصارى، لعمر بن بحر الجاحظ، تحقيق: محمد عبد الله الشرقاوي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991م، ص 73. كما تطرق نجم الدين سليمان بن عبد القوي الطوفي (716هـ) إلى هذه المسألة في معرض رده على قول النصارى بالتثليث، فقال: "ما ورد في أناجيلهم من كلام عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، على زعمهم من قوله: (الأب، والابن، وأبي، ويا أباه، وإن أبي وآباءك، ونحوها)، والجواب عنه من وجهين:

- أحدهما: منع كون هذا كله من كلام المسيح، وإنما هذا شيء دلس على النصارى، وهم قوم

كما أنّ رجال الدين المسيحيين أنفسهم، اعترفوا بهذا الأمر؛ حيث أورد صاحب كتاب (علم اللاهوت)، في سياق بيانه أهمية استحضار التقاليد الشفوية لفهم معاني نصوص العهدين قائلًا:

"لمعرفة المعاني الصحيحة لآيات الكتاب المقدس التي لا تخلو من الإبهام والإشكال، مما يرتج على القارئ فهمه، ويحتاج إلى بيان واف يقيه شر تعويج كلام الله وتحريفه، حيث أثبت الاختبار أنّه ما من ضلال إلا بناه صاحبه على آية من الكتاب أساء تفسيرها واستعمالها، وعلق عليها ما شاء من المعاني غير الصحيحة. وذلك لأنّ الأسفار الإلهية؛ ولا سيما أقدمها، قد ألّفها كتبةٌ بعيدون عن أيامنا أجيالاً كثيرة. وتختلف عنا وطنًا، وأدبًا، ولغة، وإنشاء. فلا غرو أن تشتبه علينا في تلك الأسفار أمور كثيرة وتلتبس، قال القديس أغسطينوس: لم يكن مخرج الهرطقات إلّا من جهة فهم الكتب الصالحة فهمًا فاسدًا، وتأويل ما كان منها غامضًا بخلاف ما يمكن تأويله".¹

كما دعا الإمام الفراهي المسلمين إلى وجوب استصحاب مقتضيات القرآن لفهم

جهال، ينطلي عليهم المحال..

- الثاني: بتقدير أنّ ما في هذه الأناجيل من كلام المسيح، إلا أنه محمول على مجاز ظاهر شائع، وحمله على المجاز أولى من حمله المحال، وتقرير ذلك أنّ قول قوله: (الأب، والابن) بمعنى قولنا: الرب والعبد، وسيأتي تصريحه في الإنجيل بأنّ الله سبحانه إلهه. ووجهة التجوز أنّ بين الرب والأب قدرًا مشتركًا، وهو رحمة الرب عبده، والأب ولده، وبين الابن والعبد قدرًا مشتركًا، وهو إعظام العبد سيده، والابن والده، خصوصًا والمسيح صلوات الله عليه، لم يكن له أب من البشر، فتولى الله من تربيته والقيام بأمره ما يتولى الأب من ولده، فتأكد وجود المجوزة. ومن حكم المجاز: اقتران قرينة به تدل عليه، وتمنع حمله على الحقيقة. قال بعض فضلائنا: وليس في الإنجيل ذكر الأبوة والبنوة، بين الله سبحانه وعيسى، إلا ومعه قرينه تدل على أنّ المراد المجاز. وسأستقره إن شاء الله سبحانه موضعًا موضعًا، من فصل فصل، من الأناجيل الأربعة، مع ذكر كل ما فيها مما يقدر في مذهب النصارى".

ينظر كتابه، التعليق على الأناجيل الأربعة، وكتب الاثنى عشر والتوراة، بتحقيق: موسى بن محمد الزهراني، مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث، قطر، ط1، 2016م ص 72.

¹ علم اللاهوت، لميخائيل مينا، مطبعة الأمانة، مصر، 1939م، 394/3.

وتصحيح مضامين نصوص العهدين، وأرجع الإمام السبب الأبرز الذي أوقع بعض المسلمين في سوء فهم نصوص التوراة والإنجيل، والجزم بتخريف مضامينه، إلى جهلهم بمباحث التأويل، وعدم استحضارهم لمسألة رد متشابه العهدين إلى القرآن، فقال:

"وكذلك نرى بعض المسلمين يسخرون من بعض عبارات الإنجيل، ولو أولوها إلى تعليم القرآن لكان أجدر بهم، وأمرنا في القرآن بالإيمان بما تشابه في القرآن، ولا نرى علّة لانطواء هذا الحكم عن سائر الكتب المقدسة، والتكذيب ممن جهل التأويل ذنبٌ عليه: كما قال تعالى: "بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابٌ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾". [سورة يونس: 39]، وكذلك يأمرنا قول النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن "لا تصدقوا أهل الكتاب (يعني فيما روي عن الكتب المقدسة فإنهم لم يحفظوه)، ولا تكذبوهم" ¹ (فإنه يمكن أننا لم يأتنا تأويله) ².

• ضبط معارف الكتاب المقدس باعتبارها أوثق مسلك للرد على مطاعن أهل الكتاب: إنّ من أبرز الأسس التي حرص الإمام الفراهي أن يقيم عليها منهجه في نقد الكتاب المقدس وردّ شبهات أهل الكتاب على القرآن والنبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هو الإمام بعلوم الكتاب المقدس وضبط معارفه وتاريخه، وفي ذلك مزيد عون لفهم جذور مطاعين المنتقدين لنبي الإسلام وكتابه، وقد أسعفه هذا الأمر للرد على الشبهة التي نسجوها في ورود كلمة (هادوا) في القرآن الكريم، فاعتبروا ذلك من المواضع التي أخطأ فيها القرآن مادام أنّ اليهود ليس أصلها من مادة "هود"، فقال رحمه الله: "وزعم الطاعنون في القرآن أنّ هذه الكلمة خطأ، فإنّ اسم اليهود ليس مأخوذاً من مادة (هود) بل هو للنسبة إلى يهوذا. فنبين اشتقاق هذا الاسم لتعلم أنّ طعنهم من

¹ أخرجه البخاري، الحديث رقم: 5585.

² - تنظر: مقدمة تفسيره نظام القرآن، ص 37. وقد أورد ما يشبه الفاتحة من الإنجيل وشرحه في تفسيره، ص 109.

سوء فهمهم القرآن وصحفهم¹، فردّ عليهم هذه الشبهة مستعملاً حججاً من اللغة العبرية وتاريخهم التشريعي، ونصوصاً من الكتاب المقدس.

وهناك مواطن أخرى استحضر فيها الفراهي معارفه بالكتاب المقدس قصد كشف شبهات أهل الكتاب، وخصوصاً ادعائهم أنّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما اعتمد على الكتاب المقدس لتأليف القرآن الكريم، وقد بين الفراهي أنّ من بين أغراضه في سلكه لهذا المنهج هو أنّ "يتضح على أهل الكتاب أنّ القرآن لا يأخذ من كتبهم، بل يقوم عوجهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور".²

• اعتماد معارف الكتاب المقدس وعلوم اللسان العبري مفتاحين لفهم المصطلح القرآني: استعان الفراهي في الكثير من المواطن في كتبه، وخصوصاً في كتابه (مفردات القرآن)، باللغة العبرية لتحديد معنى بعض المفردات القرآنية، مرجحاً بها بين المعاني التي وقع فيها إشكال بين بعض المفسرين واللغويين، ومثال ذلك قوله وهو يبين المراد من كلمة (الأب) الواردة في قوله تعالى في سورة عبس، الآية: 31 "وَفَكَهَةً وَأَبًّا" والتي فسرها الفراهي بالمرعى فقال:

"وإنما سمّي المرعى (أباً) لنشئه أولاً بعد المطر. ومنه إبان النبات، لأوّل خروجه

¹ نظام القرآن، للفراهي (تفسير سورة البقرة)، ص 255

² نظام القرآن (تفسير سورة البقرة)، ص 50، قال جيفري لانغ: "أنّ أيّ شخص عنده بعض المعرفة بالكتاب المقدس (The Bible)، يلاحظ أنّ العديد من نصوص السرد في القرآن لها ما يماثلها في الكتاب المقدس. وفي الماضي كان المستشرقون يزعمون أنّ محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي قام بتأليف القرآن، ويتمونه بانتحال أو استعارة مواد من مصادر يهودية ومسيحية، ولكن هذا الرأي لم يعد شائعاً بين العالمين بالإسلام في الغرب، والسبب في ذلك هو أنه حيثما وجد تماثل مع الكتاب المقدس، فإننا نجد أنّ السرد القرآني يشتمل، وعلى نحو شبه دائم، على نقاط خلاف رئيسية من حيث التفاصيل والمعنى (...). من هنا فإنّ التصور القائل بأنّ القرآن استعار مادته من الكتاب المقدس إنما هو تصور غير ملائم".

ينظر كتابه: حتى الملائكة تسأل، بترجمة: منذر العبيسي، دار الفكر، دمشق، ط2، 2005م، ص 37.

(...) وتوهم الجوهري¹ وغيره فجعل الإبان فعلاً من مادة (أبن) ولا مناسبة بينهما، فإنَّ أبنه بشيء: اتهمه به، من الأبنة: وهي العقدة في العود.

وإنما هو فعلان من (أب) لما يدل عليه المناسبة بينهما، ولما تجد هذه المادة بهذا المعنى في العبرانية- وهي أخت العربية- אבב (أ ب ب) אב (أ ب): الخضرة والثمره. אביב² (أبيب): السنبلة الخضراء، وأول شهرهم- وهو الربيع- لظهور النبات فيه أولاً³.

إنَّ من المسائل المنهجية التي امتاز بها الفراهي في طريقة استثماره لنصوص العهدين أنَّه يعتمد إلى ضم بعض تلك نصوص إلى بعضها كلها دعت الضرورة إلى ذلك، وخصوصاً عندما يتعلق الأمر بنصوص الأناجيل، حيث يقوم بإكمال بعض العبارات التي لم ترد في أحد نصوص تلك الأناجيل بنص من إنجيل آخر يحمل تفاصيل أكثر عن القضية التي يريد بيانها، وعن هذا يقول:

"ولهذه الواقعة العظيمة ذكر في مرقس ومتى، وفي البعض ما لم يذكر في الآخر، فنجمع لك ما يتم به أطراف هذه القصة، ولا تملن إطناب الكلام، فإنَّ الواقعة مهمة جداً"⁴.

لقد كانت هذه إذن، أهم الأسس التي استخلصتها من منهج الفراهي لنقد الكتاب المقدس المبثوث في مصنفاته، وكان في وسعنا أن نظفر بمشروع أعتبره سيحقق طفرة نوعية في حقل نقد الكتاب المقدس؛ لما يستجمعه من خصائص منهجية لا تجدها متوفرة في مختلف الاتجاهات والمدارس المشتغلة بهذا التقليد العلمي المفرد لنقد نصوص العهدين، لكن شاءت الأقدار أن ينتقل الفراهي إلى دار البقاء قبل إتمام

¹ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1979م، 86/1.

² المعجم الحديث، عربي-عربي، لربحي كمال، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1992م، ص 29.

³ ينظر: مفردات القرآن، نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية، لعبد الحميد الفراهي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2002م، ص 5.

⁴ نظام القرآن، ص 352.

صرح هذا البناء والذي وضع لبناته الأولى متمثلةً في كتابين هامّين: الأول هو كتابه (الإكليل في شرح الإنجيل)¹، والثاني كتابه: (الطريف في التحريف)²، ولكن الأسف كل الأسف أن لم يتيسر للإمام أن يكملهما، وذلك ما خسرت به الأمة.

وهذان الكتابان- لا يزالان مخطوطين- كان الفراهي يروم من تأليفهما نقد الكتاب المقدس وشرح أهم نصوصه وبيان أبرز مواطن التحريف فيه، لكن خسرتنا الشيء الكثير في عدم إتمامهما، بيد أن عزاءنا فيما بثّه في هذا الجانب في مختلف تصانيفه، إذ في ذلك كفاية لتكوين صورة أوضح عن بنیان مدرسته في نقد الكتاب المقدس، وهذا ما سنقف على بعض ملاحظه في العنصر الموالي، بعد أن نعطي بعض الأمثلة عن تحريفات الكتاب المقدس التي أفرزها المنهج النقدي عند الفراهي.

ثانياً: استثمار الفراهي لعلم الأديان في تفسير مفردات القرآن

إنّ من أكثر الحقول المعرفية التي استثمر فيها الفراهي منهجه الفريد في نقد الكتاب المقدس هو التفسير والدراسات القرآنية، وذلك راجع إلى اهتمامه بهذا المجال أكثر من غيره، بل إنّ اشتغاله بتدبر القرآن وانشغاله بنظمه وتناسب آيه وسوره، هو الذي أفضى به إلى تأسيس هذا المنهج لنقد نصوص العهدين بغرض استثمار مضامينهما، لما اكتشف أنّ الكثير من مفردات القرآن ومعظم آياته وسياقاتها، قد يعين تقليبُ النظر في نصوص التوراة والإنجيل في إدراك بعض معانيها، واستنباط دلالاتها، سنقف فيما يلي على بعض المواطن التي استحضر فيها نصوص العهدين لتناول قضايا ذات صلة بالتفسير والدراسات القرآنية من جهة، ونقد مضامين النص الديني لأهل الكتاب من جهة أخرى.

1. الإمام بمعارف أهل الكتاب مورداً لفهم تليحات القرآن: إننا لو أردنا أن

¹ الرأي الصحيح في من هو الديبح، للفراهي، دار القلم، دمشق، (د.ت.ط)، ص 27.

² ينظر كتاب: مفردات القرآن، ص 25.

نبرز ميزة منهج الإمام الفراهي في استثمار نصوص الكتاب المقدس، بغرض اتخاذها منطلقاً لدراسة وفهم جملة من القضايا ذات الصلة بالفكر الإسلامي، ونبين وجهة ورصانة ما انفرد به في تلك القضايا، فلا مسلك أدلّ من إيراد بعض الأمثلة من كتب الفراهي التي كان له فيها اعتماد على نصوص العهدين لتبين المراد من لفظة من مفردات القرآن الكريم، ولتوجيه معنى في تفسير بعض معانيه، كما استحضر مضامين نصوص التوراة والإنجيل لحسم خلاف في مسائل وقع فيها اختلاف بين العلماء المسلمين، بل وترددٌ وحيرة عند بعضهم.

وأفضل مثال يحسن إirاده هنا، هو ما وقع في مسألة تعيين الذبيح من ولدي إبراهيم، أهو إسماعيل أم إسحاق - على الجميع أفضل الصلاة، وأزكى السلام -؛ ذلك أنّ هذه المسألة، مما وقع فيه اختلاف مشهور بين عامة علماء الأمة، وخاصة بين المفسرين، وهو اختلاف نجم عنه ظهور طائفتين؛ إحداهما ترى أنّ المفدي، هو إسماعيل، بينما الأخرى - وأصحابها هم الأكثر¹ - تذهب إلى أنه إسحاق، عليهما السّلام²، ولكل طائفة مستنداتها من روايات عن السلف تؤيد به موقفها.

والذي يلاحظ، أنّ آراء أكثر المفسرين في هذه المسألة، غير كاشفة عن المقصود، ولا حاسمة لما وقع فيها من تردد، وهذا ما جعل الإمام السيوطي (ت. 911هـ)، يقول: "وكنّت ملت إليه - يقصد أن الذبيح هو إسحاق - في علم التفسير، وأنا الآن

¹ يقول الإمام أبو عبد الله القرطبي (ت. 671هـ): "اختلف العلماء في المأمور بذبحه، فقال أكثرهم: الذبيح إسحاق. وممن قال بذلك العباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله وهو الصحيح عنه، روى الثوري وابن جرير يرفعانه إلى ابن عباس قال: الذبيح إسحاق..."

ينظر في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن" أقوال الفريقين في المسألة، 61/18.

² ومنهم ابن جرير الطبري (ت. 310هـ) الذي أورد في تفسيره، بعد ذكر أقوال كل فريق، أنّ: "أولى القولين بالصواب في المفدي من ابني إبراهيم خليل الرحمن على ظاهر التنزيل، قول من قال هو إسحاق". ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير الطبري، بتحقيق: بشار عواد معروف وعصام فارس الحرستاني، 318/6.

متوقف في ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم".¹

والظاهر أنّ الذي استند إلى نصوص أهل الكتاب، مسترشداً بتليحات الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، تجد في كلامه حججاً مقنعة البيان، وأدلة متماسكة البنيان، ومنهم ابن قيم الجوزية (ت. 751هـ)، القائل في زاد المعاد، مختصراً كلام شيخه ابن تيمية:

"وأما القول بأنه إسحاق، فباطل بأكثر من عشرين وجهاً، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه: إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره، وفي لفظ: وحيد،² ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين، أنّ إسماعيل هو بكر أولاده، والذي غر أصحاب هذا القول، أنّ في التوراة التي بأيديهم: "اذبح ابنك إسحاق"، قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنها تناقض قوله: اذبح بكرك ووحيدك، ولكن اليهود، حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويحتازوه لأنفسهم دون العرب، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله".³

وسبب هذا الاختلاف الكبير، وذلكم التردد الواضح بين علماء الأمة، المائل فيما ذكر، وجد الفراهي نفسه ملزماً على تحرير كلام علمي في الموضوع؛ مستعيناً بمعرفته في علم الأديان، ومسترشداً بنصوصها المعتمدة؛ قصد رفع الخلاف الواقع في تعيين الذبيح،

¹ ينظر عن هذه الرسالة كتابه: الحاوي للفتاوى، لجلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، ط1، 1998م، 322/1.

ولقد بين عبد الله بن الصديق أنّ الأحاديث التي اعتمدها السيوطي لتقرير هذه المسألة وتأييد الفريقين، كلها واهية ولا تساوي سماعها، على حد قوله. ينظر كتابه: بدع التفاسير، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط2، 1986م، ص 155.

² ينظر سفر التكوين (2/22).

³ ينظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرئؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3، 1998م، 71/1.

سواءً بين أهل الملة الإسلامية فيما بينهم، أو بين المسلمين واليهود خاصة، فألف الإمام الفراهي كتابه (الرأي الصحيح في من هو الذبيح)¹ لتحقيق جملة من الأغراض، منها:

- بيان المكانة العظمى التي تحتلها مسألة الذبيح في الملة الإسلامية.
- أن في القرآن آيات كثيرة، يتوقف فهم تأويلها ونظامها، على معرفة هذه المسألة،² وما يتعلق بهذا الذبيح (....)، واستيفاء البيان، في كتابنا نظام القرآن، تحت كل آية تشتمل على ذلك الأمر، يُفضي إلى تكرار وإطناب، فأفردت له كتاباً هذا، وجعلناه من مقدمة تفسيرنا،³ لكي نحول إليه عند الحاجة.
- أن اليهود لم يبالغوا في كتمان أمر، مثل مبالغتهم في ذلك، فإنهم قد ارتكبوا تحريفات وأكاذيب صريحة، في أمر إسماعيل والكعبة.⁴

لقد اجتهد الإمام الفراهي في هذا المصنف الفريد، أن يحسم الخلاف الملازم لآراء المفسرين بخصوص مسألة الذبيح، وفق أسس علمية ومعرفية تجديدية، استمدت مقوماتها: من استيعاب الفراهي للموروث التفسيري المتراكم عبر القرون عن هذه

¹ قال عنه أبو الحسن الندوي: "ويدخل في هذا الطراز من المؤلفين العلامة حميد الدين الفراهي المعروف بالمعلم عبد الحميد الفراهي (ت. 1349هـ)، الذي هو صاحب منهج خاص في التفسير، يعنى بنسق الآيات وربطها بصفة خاصة، له نظام الفرقان، وهو صاحب كتاب إمعان في أقسام القرآن، والرأي الصحيح في من هو الذبيح، وهو خير ما ألف في هذا الموضوع".

ينظر كتابه: الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، ص 63.

² يقول: "ولولا في القرآن من الدلائل الواضحة على تعيين الذبيح - كما ستعلم - لسكتنا عما لم يصرح به، ولقلنا كما قال بعض علمائنا: (والله أعلم أيهما كان، وكلُّ قد كان طاهراً طيباً مطيعاً لله عز وجل). فإنه ليس لنا معشر المسلمين أن نتعصب لنبي من الأنبياء عليهم السلام، ولكن الله تعالى أمرنا أن ندير فيما أودعه كتابه، لنعلم تأويل ما دل عليه بآياته"، ص 78.

³ وقال في مكان آخر: "فهذا كتاب من مقدمة نظام القرآن، أفردته لتعيين من قربه إبراهيم عليه السلام من ولديه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام"، ص 31.

⁴ ينظر: الرأي الصحيح في من هو الذبيح، لعبد الحميد الفراهي، دار القلم، دمشق، (د.ت.ط)، ص 34، بتصرف.

الجزئية، من جهة، ومن ضبطه للمعارف الكتابية المعتمدة عند أهل الأديان الأخرى، من مباحث تاريخية، وقضايا عقيدة، ونظم تشريعية، ودقائق لغوية، من جهة أخرى. فبفضل (المقوم الأول)، استطاع الفراهي أن يحرر محل النزاع الحاصل بين نظار المفسرين في مسألة الذبيح، فقرر أنّ السبب الأصل في هذا الاختلاف، راجع إلى ما اكتنف هذا الموضوع من سوء الفهم، حتى عدّه بعضهم مما لا طائل تحته، يقول: "ومع أنّ الناقلين من علماء المسلمين، من أهل العلم والنظر - كما ستعلم - قد استدلو بنصوص التوراة أنفسهم على كون إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذبيح، فإنّ اختلاف كلمتنا، جعل هذا الأمر العظيم، من الأمور التي لا يعد بها، بل عدم اعتدادهم به، أمكن اختلافهم فيه، فإنهم لو علموا ما لهذا الذبح، من المكانة في ملتنا، لتحذروا من الغفلة في أمره".¹

وفي هذا الكلام استدراك ورد ضمنى من الإمام عبد الحميد الفراهي، على بعض علماء الأمة؛ ممن يرى أنّ مسألة الذبيح لا تدخل في مهمات أمور الدين، وليس لها شأن كبير، يستوجب العناية بها، ومن هؤلاء، الإمام أبو بكر بن العربي (ت. 543هـ) القائل في كتابه (أحكام القرآن):

"اختلف في الذبيح، هل هو إسحاق، أو إسماعيل؟ وقد اختلف الناس فيه اختلافاً كثيراً، قد يَبْنَاهُ في مسألة (تبيين الصحيح في تعيين الذبيح)،² وليست المسألة من الأحكام، ولا من أصول الدين؛ وإنما هي من محاسن الشريعة وتوابعها ومتمماتها، لا أمهاتها".³

لم يستسغ الإمام الفراهي مثل هذا الكلام، فتولى إخراج هذه المسألة من دائرة محاسن الشريعة وتوابعها - كما ذهب إلى ذلك الإمام أبو بكر بن العربي وغيره من

¹ ينظر: نفسه، للفراهي، ص 35.

² وهو كتاب أفرده الإمام لهذه المسألة، صدر في طبعته الأولى سنة 2008م، من دار ابن حزم بتحقيق: بدر العمراني الطنجي، ينظر فيه تصريحه وتأكيده على ما صرح به هنا في الصفحة: 58.

³ أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي، بتحقيق: علي محمد الجاوي، 1617/4.

أعلام الأمة- وتنصيبها ضمن مهمات هذا الدين، ومن أمهاته، فقال في كلام، تلخص فيه أهمية هذه المسألة في الدين الإسلامي، وخطورة اختلاف الأمة في تفاصيلها: "فن زعم أنّ هذا الابتلاء وقع في أورشليم (جبل بالقدس)، وقرب عليه إسحاق عليه السلام، كان في غطاء كثيف عن حقيقة هذه البعثة العظمى، وحقيقة هذا الذبح ومكانته في ملتنا".¹

وليس الإمام عبد الحميد الفراهي ممن يوغل في التأسيس دون التحقيق، ويغرق في التنظير دون التطبيق، ولذلك تصدى- رحمه الله- لحسم الخلاف الواقع في هذه المسألة، ليس بنصوص من الكتاب والسنة فحسب، بل بما هو مقرر عند اليهود والنصارى أنفسهم، (المقوم الثاني)، بالرغم من أنّ اليهود، حرّفوا موطن التصريح بالمقصود بالذبيح، والموطن الذي وقعت فيه قصة الذبح، بيد أنّ ذلك يستعلن من حيث يتعمدون إخفاءه، فاستدل عليهم من كتبهم بجملة من النصوص الكتابية، أوصلها إلى ثلاثة عشر نصاً ودليلاً، لم يسبق إليها، وهي بعدد سنّ إسماعيل عليه السلام، يوم تقديمه قرباناً لله عزّ وجلّ.²

فلنذكر الآن مثلاً واحداً من الأدلة الثلاثة عشر، التي استدلت بها الإمام الفراهي للدلالة على أنّ الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق -عليهما السلام-، وأصدق مثال يحسن إيرادها هنا؛ مما اجتمعت فيه الأسس الكبرى لمنهج الفراهي في استثمار نصوص العهدين في معاريف الوحي، عوض نقدها قصد إلغائها وطرحها. هو تحقيقه للتحريف الواقع في لفظة (مروّة)، الواردة في قوله تعالى في سورة البقرة: "إِنَّ الصَّفَا

¹ الرأي الصحيح في من هو الذبيح، لعبد الحميد الفراهي، ص 34.

² يقول رحمه الله في آخر هذه الأدلة: "وقد نبهناك بما ذكرنا على جماع الأدلة، ولو فصلناها لصارت أكثر عدداً، ولكن اخترنا الثلاثة عشر، كما اخترنا في القسط الأول، رعاية لسني عمر إسماعيل حين قدّمه إسماعيل عليه السلام قرباناً لربه..". ينظر: الرأي الصحيح، ص 105.

وَالْمَرْوَةُ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾. [سورة البقرة: 158]، حيث بين أن هذا المكان؛ رغبةً من اليهود في طمس معالمه، فقد حرفوه لفظاً ومعنى، فقال: "والمقصود من نقل هذه الأقوال، أن موضع الذبح، المسمى باسم مَرَوَه، صار موضعاً لاختلاف شديد فيما بينهم، فطائفة منهم، غيَّبوا هذا الاسم، وترجموه إما: ببلوطات عالية، وإما بأرض مستعلنة، وإما بأرض الرؤيا.¹

وطائفة منهم، أبقوا هذا الاسم، ولكن، حرفوه لفظاً، فجعلوه (مُورَه)² و(مُرياه)³ و(مُوريا)،⁴ وذلك ليلبسوا الحقَّ بالباطل،⁵ كما قال تعالى: "يَتَأَهَّلَ الْكَتِّبُ لِمَ

¹ يذكر هنا الاختلافات الواقعة في ترجمات التوراة للفظة: (موريا)، وقد فسرت هذه اللفظة في التوراة السامرية بالمرشدة، وذكرت فيها ترجمة هذا النص هكذا: "فقال خذ الآن ابنك خصيصك الذي أحببت إسحق، وسر ذاهباً إلى الأرض المرشدة وأصعده هناك صعيدة على أخص الجبال الذي قلت لك"، ينظر كتاب: التوراة السامرية، ترجمة: الكاهن أبو الحسن إسحاق الصوري، نشرها وعرف بها: أحمد حجازي السقا، دار الأنصار، ط1، 1968م، ص 62.

² (موره) كلمة عبرية كتبها بحرف عربي، وتكتب بالحرف العبري هكذا: מורה، ينظر معناها أسفله.
³ (مرياه) كلمة عبرية كتبها بحرف عربي وتكتب بالحرف العبري هكذا: מריה، ينظر معناها أسفله.
والنص من سفر التكوين (22: 2) أذكره هنا بلفظيه؛ العربي والعبري قصد المقارنة:
- فَقَالَ: "خُذْ ابْنَكَ وَحِيدَكَ الَّذِي تُحِبُّهُ، إِسْحَاقَ، وَأَذْهَبْ إِلَى أَرْضِ الْمُرِّيَّاءِ، وَأَصْعِدْهُ هُنَاكَ مُحَرَّقَةً عَلَى أَحَدِ الْجِبَالِ الَّذِي أَقُولُ لَكَ".
- וַיֹּאמֶר אֱלֹהִים-בְּנֵאֱמֶת-יְחִידְךָ אִשָּׁר-אֶהְבֶּתָּ, אֶת-יִצְחָק, וְלֶךְ-לְךָ, אֶל-אֶרֶץ מְרִיָּה; וְהַעֲלֵהוּ שָׁם, לְעֹלָה, עַל אֶחָד מֵהָרִים, אֲשֶׁר אֹמַרְאֵלֶיךָ.

والكلمة 'المريا' ومقابلها في اللسان العبري، قد تم وضع سطر تحتها.
⁴ (موريا) كلمة عبرية كتبها بحرف عربي وتكتب بالحرف العبري هكذا: מוריה، ينظر معناها أسفله.
⁵ بل أكثر من ذلك، فإننا وقفنا في كتبهم على التصريح والاعتراف بأنهم، يجهلون تحديد مكان الذبح، من ذلك قول أحدهم: "يطابق سفر الأخبار الثاني 1/3 بين موريا وبين الرابية التي سيثيد عليها هيكل أورسليم، وقد تبني التقليد هذا التحديد المكاني فيما بعد. غير أن النص يشير إلى أرض باسم موريا لا يأتي ذكرها في مكان آخر، ويبقى مكان الذبيحة مجهولاً" ينظر: الكتاب المقدس، (اليسوعي). دار المشرق، بيروت، ط3، 1994م، حاشية رقم: 2، ص.99.

تَكْفُرُونَ بِبَيِّاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٦﴾ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾. [سورة آل عمران: 71].¹

ولما كان مدار عمل المفسر، هو تحليل ألفاظ النص القرآني، وإدراك مدلولاتها على المعاني، والإحاطة بمواقع الكلام في نظمه، ومعرفة طرائق تحليله، واستخراج مضامينه، فإنّ الفراهي، لم يدخر جهداً لتأدية هذا المقصد في دراسته، وتفسيره للآية الواردة فيها هذه اللفظة، وبيان المواطن التي حرف فيها أهل الكتاب الكلام عن مواضعه، فكما استعان بنصوص العهدين في تفسير المصطلح القرآني، اتكأ على آي القرآن ونظمه لكشف مواطن التحريف في الكتاب المقدس عند أهل الكتاب.

فما أستنبطه من لفظة "المروة"، نقطة في بحر علوم هذا الرجل القذ رحمة الله، فلنتركه يتخفنا بدُرر المعاني ولطائف المباني، في تحليل لغوي شيق؛ ينمُّ عن تبحر هذا الرجل في اللسانين العبري والعربي، وضبط لنصوص اليهود والنصارى، وتاريخ الديانتين، برّ فيه أقرانه، حيث يقول: "والآن نكشف حقيقة الأمر؛ ليتضح ما هو هذا الاسم، وما هو مسماه:

أما الأول: فاعلم أنّ الاسم، هو (المروة) بالميم الأصلية، وتقديم الراء على الواو، والمروة معناها: الحجر الأملس الالامع، وقد جاء في كلام العرب كثيراً. ويستدل على ذلك بأنّ الذين ترجموه، جعلوا ترجمته (المستعلنة) أو (الرؤيا) أو (العالية)، وذلك لا يطابق بما بدّله المحرفون، وجعلوه مُورَه² وغيرها، فإنهم يقولون في اشتقاق مُورَه: إنّ أصل هذا الاسم، إمّا (يرا)³ أو (يره)⁴. فأما (يرا)، فهو الخوف والتعجب،

¹ ينظر: الرأي الصحيح، ص 56.

² يقصد اسم: ٨٦١٥، بمعنى: "خوف، رعب، رهبة"، ينظر، ربجي كال: المعجم الحديث، عبري-عربي، ص 253.

³ يقصد فعل: ٨٦٢، بمعنى: "خاف، رعب، تجلّ.."، ينظر، م، ضباحي: قاموس الأفعال العبرية، ل: مكتبة لبنان، بيروت، 1975م، ص 26.

⁴ - يقصد فعل: ٨٦٢، بمعنى: "أطلق، رمى، اطعن"، ينظر: قاموس الأفعال العبرية، ص 26.

وإنَّ مورده، معناه: الخوف، أو سبب الخوف، وأما (يره)، فهو الرمي والسقي، وإنَّ مورده¹ على هذا، يكون معناه: الرامي، وأول المطر، والأستاذ².

لقد حرص الفراهي- وأسعفه في ذلك إتقانه للغة العبرية وقواعدها- أن يربط وقوع التحريف في هذا الموطن بطبيعة اللغة العبرية، وما وقع في طرق كتابتها، وتغير حركاتها الإعرابية، من تطور عبر الأزمان، فقال:

"ولا شك أنهم وجدوا كلمة (مروه)، وإذ لا توجد مادتها في لغتهم، توهم المترجمون أنها (مرأه)³؛ لكثرة تبدل الواو بالألف في العبرانية، فاشتقوها من مادة: رأه⁴؛ وهي في لغتهم، بمعنى: الرؤية والنظر، وعلى هذا، يكون (مرأه)، حسب اشتقاقهم، هو النظر والمستعلن والرؤيا.

وإنما كثر الاختلاف، لأنَّ علامات الحركات، لم تكن في الأصل العبراني، وإنما أحدثها المتأخرون، ولم يكن فيهم الحفاظ، فيحافظوا على القراءة الصحيحة، ثم بعد ذلك، ربما وقع أنَّ ما كان حركةً في القديم، بدلوا بالحرف وبالعكس، فن هذه الوجوه، كثر التحريف والتبديل في صنفهم⁵."

ولكي يزيد الإمامُ شرحاً لما يدندن حوله في هذا المقام، ارتأى أن يأتي بجدول، بسَّط فيه ما وقع في كلمة مروة من تحريف، مبيناً الموارد التي أتاهم فيها التوهم، فأوقعهم في تخبط واضح، حيث يقول:

"فنكتب صور هذه الكلمة، معرأةً عن الحركات، مع بيان قراءتهم إياها، وترى

¹ يقصد اسم: 7777، بمعنى: "معلم، مدرس، أستاذ"، ينظر: المعجم الحديث، عبري-عربي، ص 253.

² ينظر: الرأي الصحيح، ص 57.

³ يقصد اسم: 7777، بمعنى: رؤية، منظر، مشهد.. ينظر: المعجم الحديث، عبري-عربي، ص 281.

⁴ يقصد فعل: 7777، بمعنى: "رأى، نظر، شاهد، أدرك، لاحظ.."، ينظر: قاموس الأفعال العبرية، ص 60، والمعجم الحديث، عبري-عربي، ص 436.

⁵ ينظر: الرأي الصحيح، ص 59.

غلوهم في التبديل، مما يزيدون بقراءتهم من المدِّ والشَّد؛ لكي يمهّدوا للمتأخرين سبيلاً لتبديلٍ بعد تبديل:¹

صورة أصل الكلمة	الصورة المبدلة	قراءتهم
مَرَوَه	(1) מריה (مريه)	مُريَّاه
	(2) מוריה (موريه)	مُورياه
	(3) מורה (موره)	مُوره

ثم أخذ الإمام في بيان المواطن التي أتت عليها يدُ المحرفين، من خلال هذه الصور الثلاث، شارحاً الأسباب التي جعلت أهل الكتاب يحرفون الكلام (عن، ومن) بعد مواضعه؛ إنَّ سهواً منهم أو تعمداً، فقال: "أما في الصورة الأولى: فالواو عندهم كثيراً ما تبدل بالياء، مثلاً: جُول (جُول) و جِيل (جِيل)، للجُولان.

وفي المواد العربية والعبرانية، كثيراً ما ترى ما هو واو في العربية، صار ياءً في العبرانية؛ مثلاً: دَلُو، ودِلِي،² وهذا كثير في أوائل الكلمات، مثل: وَلَد / يَلِدُ³ (....)، وَقَر / يَقَر،⁴ وذلك إمّا للتسهيل، أو للتشابه بين الحرفين؛ الواو والياء في الكتابة العبرانية، كما رأيت آنفاً.

وأما في الثانية، فالضمة التي توهموها على الميم، جعلوها حرفاً مستقلاً. وهذا كثير في

¹ ينظر: نفسه، ص 58.

² يقصد اسم: דל، بمعنى: دلو، ينظر: المعجم الحديث، عبري-عربي، ص 104.

³ يقصد فعل: דלל، بمعنى: وَلَدَ، ينظر: قاموس الأفعال العبرية، ص 24.

⁴ يقصد فعل: קרר، بمعنى: "وَقَرَّ، عزز، أكرم"، ينظر: قاموس الأفعال العبرية، ص 26

ألفاظهم، مثلاً: ٦٨٤ (يُور) ٦٨٤ (يُور)، للنيل، والنهر عموماً، وعلى هذا، فصار مره، موريه.

وأما في الثالثة: فقدموا الواو على الراء، وذلك إما لعموم قلبهم الكلمات العربية، مثلاً: جور¹ من جرو، فعلى هذا (موره)، إنما هي مقلوبة من (مروه).

وإما للتشابه الذي بين الحرفين (٦) و (٦)؛ أعني الواو والراء، فعلى هذا (موره)، تصحيف من (مروه)، التبس فيها الراء بالواو، وذلك غير بعيد، وسهل على من يحرف خطأ أو عمدًا. وترى لهذا الالتباس، بعض الأمثلة في لغتهم، مثلاً: لفظ (برص) جعلوه (بوص)، وليس ذلك، إلا لمشابهة الواو بالراء في كتابتهم.²

إنّ هذا التحليل اللغوي الشيق الذي أتحفنا به الإمام الفراهي، والذي قصد به أن يبين لنا أنّ اليهود، عمدوا إلى تحريف لفظة (المروة) الواردة في الآية، إمعاناً منهم في إخفاء ما يدل في كتبهم على أنّ الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق كما يدّعون، مستغلين بعض أساليب التحريف التي وجدوا في تراكيب ألفاظ لغتهم، ما يساعدهم على تنفيذها، وقد استطاع الإمام الفراهي أن يكشف تحريفهم في هذا الموطن الدقيق، بفضل تضلعه في لسانهم.

ولكي يفهم شرح الإمام لهذه الوجوه المتبعة في تحريفهم للفظ، أورد هنا نصاً فريداً، رغم طوله، إلا أنّ في ثناياه، ما يعين على استيعاب مراد كلام الفراهي، ويتعلق الأمر بنص لكامل الصليبي؛ أحد الباحثين المسيحيين المتخصصين في الدراسات التوراتية حيث يقول:

"ويقول القرآن الكريم إن هناك من اليهود من "يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ". [سورة

¹ يقصد اسم: ٦٨٤، بمعنى: جرو الكلب، شبل الأسد، ينظر: المعجم الحديث، عربي-عربي، ص 85.

² ينظر: الرأي الصحيح في من هو الذبيح، ص 59، بتصرف.

المائدة: 14]، وأنهم يفعلون ذلك "لَيَّا بِاللَّسِنَتِمْ" [سورة النساء: 45]، وفي هذه الآية إشارة واضحة وبالغة الدقة في الوصف إلى العمل الذي كانت تقوم به فئة دون غيرها من أحبار اليهود، وهم المعروفون بالمُسُورِيِّين (أي أهل التقليد)، ابتداءً بالقرن الميلادي السادس. وقد استمر المُسُوريون في عملهم هذا، حتى القرن العاشر.

وقد قام هؤلاء، بتحقيق دقيق للنصوص التوراتية، بالأحرف الساكنة، لكنهم أدخلوا الحركات والضوابط عليها، بصورة اعتباطية، في أحيان كثيرة، مما غيّر إعراب الجمل، وحوّل المعاني (...). وعلماء التوراة اليوم، بمن فيهم علماء اليهود، يعرفون تماماً، أنّ ضبط المُسُوريين للتوراة، لم يكن صحيحاً في مواقع كثيرة، وقد قامت عدة محاولات لإعادة النظر في هذا الضبط، خصوصاً من قبل العلماء، الذين حاولوا، وما زالوا يحاولون تصحيح ترجمة الأسفار التوراتية. لكن هذه المحاولات، لم تف بالمطلوب حتى الآن، لأنّ التحريف الذي أدخله الضبط المُسُوريّ على النص التوراتي، هو أضخم بكثير، مما يتصوره علماء التوراة. وبناءً على ذلك، فقد عمدتُ، في معالجاتي للنصوص التوراتية في هذه الدراسة، إلى إهمال الضبط المُسُوري لهذه النصوص، واجتهدتُ قدر الإمكان، في فهم المقصود منها، كما وردت أصلاً بالأحرف الساكنة. وقد نتج عن ذلك فهمٌ جديدٌ لمقاطع توراتية عديدة (...). ومن علماء التوراة، من يفترض بأنّ المُسُوريين، لم يكتفوا بتحريك النص التوراتي حسب ما ارتأوا، بل أنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فغيروا الأحرف الساكنة في بعض الأحيان. وربما حدث ذلك بالفعل، دون أن يمس بأسماء الأماكن. والدليل على ذلك، هو أنّ الأكثرية الساحقة من أسماء الأماكن التوراتية، ما زالت موجودة إلى اليوم، بشكل أو بآخر، في غرب الجزيرة العربية، وفي ذلك ما يثبت صحتها¹.

¹ التوراة جاءت من جزيرة العرب، لكّال الصليبي، ترجمة: عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، ط6، 1997م، ص 16.

2. استثمار نصوص العهدين، وفي لغاتها الأصلية، مصدراً لتفسير ألفاظ القرآن: تطبيقاً لما قرره الفراهي، كأساس من أسس مدرسته في دراسة نصوص العهدين، من أن اللغة العربية والعبرانية صنوان، بؤاً نصوص العهدين بلغاتها الأصلية، مكانة اكتسبت فيها بعض المشروعات لتكون ضمن ما يرجح به بين معاني بعض المفردات القرآنية التي وقع فيها اختلاف بين سلف الأمة من المفسرين واللغويين، من ذلك قوله عند تفسير قوله تعالى: "فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ" [سورة البقرة: 53]: "بَارِيكُمْ" (البرء)، يشبه الخلق من برأ يبرؤه. ومنه البرية، وترك همزها (...) وزعموا أن (البرا) بغير الهمز كلمة أخرى، ومعناها التراب، قال الجوهري: ¹ (البراء): التراب (...). والبرية: الخلق، وأصله الهمز، والجمع البرايا والبريات (...). وهذا قول مضطرب، فإن (البرا) حينئذ يكون فعلاً من التراب، وجعله بمعنى الخلق تكلف ظاهر مبني على أن الخلق إنما يكون من التراب (...). ثم الفعل من التراب، يكون بمعنى جعله تراباً لا خلقه من التراب. والأولى بالصواب أن المادة الواحدة اتخذت صورتين: (برأ) مهموزاً، و(برى) ناقصاً يائياً، فإننا نجد معناهما في غاية التشابه، نقول: برى القلم وبرى السهم برياً: لنحتما، والمبرة: الحديدية التي يرى بها السهام. فهذا هو أشبه بمعنى الخلق. وهذه المادة موجودة في العبرانية، ففي التوراة (برا إلهيم هاشميم)²، أي خلق الله السماوات³.

¹ ينظر: الصحاح، 36/1.

² هذا جزء من نص في بداية سفر التكوين: (1/1) بالعبرية كتبه بحرف عربي، والنص هو: "בְּרָא אֱלֹהִים אֶת הַשָּׁמַיִם וְאֶת הָאָרֶץ" وترجمته بالعربية: "في البدء خلق الله السماوات والأرض". أما علامة المفعولية في العبرية في النص، وهي אֶת، والتي استغنى عنها الإمام الفراهي فإن إيرادها من عدمه سيان، كما هو مقرر في القواعد النحوية للغة العبرية. ينظر على سبيل المثال كتاب: مدخل إلى اللغة العبرية، أحمد شحان، دار أبي رقيق، الرباط، ط3، 2007م، ص 127.

³ ينظر تفسيره: نظام القرآن وتأويل القرآن بالقرآن، سورة البقرة، ص 248. سأقتصر على هذا المثال روما للاختصار وإلا فهناك العديد من الأمثلة ماثلة في ثنايا تفسير.

فإدام أنَّ لهذه الكتب أصلاً متشابهاً في المضمون، وجذراً مشتركاً في الأصول اللغوية، فهي، وإنْ أصاب بعضها يدُ التحريف، فإنَّ الله تعالى، لحكمة يعلمها، أبقى فيها مواضع كثيرة في منأى عن سلطة المحرفين. ولذلك أشار الفراهي إلى إشكال قد يطرحه البعض هنا، وهو قوله: "فإنْ ظننت أنَّ الكتب المقدسة غير محفوظة، فإذا أولنا القرآن بها لم نأمن الخطأ".¹

إشكال عليّ وجيه، تولَّى الإجابة عنه قائلاً: "فاعلم أنَّ الأمر كما ظننت، ولكنا أولاً نفهم القرآن من نفسه ولغته؛ لغة العرب. ثم إذا رأيت في الكتب المقدسة ما يقاربه معنى، ويتعلق بأمر واحد، تأملنا في أسلوبهما فيتضح:

- بلاغة القرآن،
- وتزداد الثقة بما رأينا مرجحاً من بين المعاني،
- ويتبين لنا معنى بعض كلام الوحي القديم المشتبه المحال حسب الظاهر، فيكون دليلاً لأولي الفهم من أهل الكتاب إلى صحة القرآن، ولنا إلى صحة كتبهم، فيفتح باب الوفاق بيننا، وهو أقرب إلى الهداية،² (٠٠٠) فهذه الوجوه دعني إلى بحث ما في كتب العهد العتيق والجديد، فلم أُرِدْ إلاَّ خيراً، وكلُّه بيد الله، فنه أسأله هذا".³

واللافت للانتباه أنَّ الإمام الفراهي، إضافةً إلى تنبيهه إلى احتياج بعض المواطن في القرآن الكريم لاستحضار نصوص العهدين لفهمها وتفسير معانيها، فهو يبدي تسامحاً، أكثر من غيره، مع نصوص أهل الكتاب، ويحرص أنْ تُعامل بما تستحقه من قدسية واحترام، ومصدق هذا ما قرره بقوله:

¹ تنظر: مقدمة تفسيره نظام القرآن، ص 38.

² تنظر: نفسها، ص 38.

³ نفسها.

"وأنت ترى بعض المسلمين يسخرون بآيات الإنجيل، وإلى الله المشتكى ممن يسخر بالمسيح نفسه، وقد نهينا عن الجدل إلا بالتي هي أحسن، وعن سبّ أربابهم، فلم يزدتهم إلا تنفراً وتباعداً، فخرموا قبول الحق، واتسع بيننا الشق. ولما أنّ الحق يعلو على الباطل، والنور يحو الظلمة، لا حجة أبلغ من أن نضعهما معاً، ليصطفي العاقل منهما خيراً، كما ذكر القرآن في صفة المهتدين: "الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ" [سورة الزمر: 18].¹

مثالاً آخر لمزيد بيان لمنهج الفراهي، وهو قوله عند تفسيره للفظ الجلالة (الله) في البسملة، تحت عنوان: "مفهوم اسم الله تعالى وأنه من أعظم بقايا الدين الصحيح"، قال: "وزعم بعض الكتاب المسيحيين أنّ هذا الاسم أصله (إيل) كما جاء في العبرانية في أكثر من تركيب، مثل إسرائيل (عبد الله) وإسماعيل (سمع الله) وعمّا نويل (الله معنا) واشتقوه من بعل، وطنوا أنه من أسماء الشمس، وهذا ظنٌ باطل، وهو ممن يحدد بالنبوات ويزعم أنّ دين العبرانيين إنما هو مأخوذ من دين الوثنيين. والحق أنّ العبرانية أضاعت حرفاً واحداً من أكثر الثلاثي، والمحققون يطلبون صحة ألفاظ العبرانية من ردها إلى العربية، فإنها أكلت الألسنة السامية وأقربها إلى الأصل، أو هي الأصل كما ثبت عند علماء هذه اللغات، واعترف به المستشرقون من المسيحيين، وقد بقي في العبرانية أينا هذه الكلمة على أصلها، فإنّ أول كلمة تبتدئ بها التوراة هي كلمة (إلوهيم) وهي مستعملة كثيراً في التوراة".²

على سبيل الختم: إنّ مجرد إلقاء نظرة خاطفة في تراث الإمام عبد الحميد الفراهي كفيل بإدراك محورية "التوراة والإنجيل" في المنهجية التأويلية لنصوص القرآن عند الفراهي، وقد نبّه البحث إلى أهمية الانفتاح على نصوص أهل الكتاب، وفي لغاتها القديمة، ووجوب الإمام بعلم الأديان، لما يوفره من معارف تجعله ينضمّ باستحقاق

¹ نفسها، ص 38.

² نظام القرآن (تفسير بسم الله الرحمن الرحيم)، لعبد الحميد الفراهي، ص 79.

إلى العلوم التي لا يسع المفسرين جهلها، تأكّد ذلك من خلال الأمثلة المدروسة في البحث؛ والتي اتكأ فيها الفراهي على معرفته بعلم الأديان، وتضلعه من اللسان العبري لاستنباط معانٍ جديدة للمصطلح القرآني، أو لرفع اختلاف واقع بين المفسرين، أو لحل إشكال حاصل في قضية من مهمات الدين؛ كتحريره محل النزاع بين علماء الأمة الإسلامية أنفسهم، وبينهم وبين أتباع الدين اليهودي حول قضية الذبيح.

وهذه الأمور لا تكتسب إلا في الدرس الأكاديمي المخصص لعلم الأديان وتخصصاته، من تاريخ تشريعاتها الدينية، وأصول عقائدها المختلفة، ومباحث لغاتها القديمة، وهذا ما يروم مشروع الإمام الفراهي التنبيه إليه، ما دام أنّ هذا العلم (علم الأديان) توقّر مفرداته كل المقومات التي يحتاج إليها المفسر؛ من استنباط لمعانٍ جديدة للفظ القرآني، واكتشاف أوجه بديعة لإعجازه البياني، واستخراج مواطن أخرى للنظم والتناسب القرآني، دون أن ننسى ما يوفره هذا العلم من إمكانيات معرفية لرفع الاختلاف بين المفسرين في تفسير مفردات القرآن وتأويل تعابيره البليغة.

موقف الفراهي من دراسة أقسام القرآن

- د. محمد عناية الله أسد سبحاني¹

هناك مجموعة من سور القرآن، استهلّت بالأقسام، وهي أقسام متنوعة أقسم الله بها، فأحياناً تستهلّ السورة بقسم واحد فرد، مثل قوله تعالى: "وَالْعَصْرِ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢". وقوله تعالى: "وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ٢".

وأحياناً أخرى تجتمع أقسام متعددة يتلو بعضها بعضاً مثل قوله تعالى: "وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّلَهَا ٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَلَهَا ٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَلَهَا ٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ٨".

وتارة يأتي القسم بأسماء العين، مثلها رأينا في تلك الآيات.

وتارة أخرى يأتي القسم بأسماء الصفة، مثل قوله تعالى: "وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ١ فَأَلْغَصَفَتِ عَصْفًا ٢ وَالنَّشِيرَاتِ نَشْرًا ٣ فَأَلْفَرَقَتِ فَرَقًا ٤ فَأَلْمُلِقَتِ ذِكْرًا ٥ عُدْرًا أَوْ نُذْرًا ٦".

ولا بد لمن يحرص على فهم القرآن، ويستحب أن يملأ يديه بكنوزه ومعارفه، لا بد له من إمعان النظر في تلك الأقسام، وإن مرّ بها مروراً سريعاً خاطفاً، من غير أن يطيل عندها الوقوف، ومن غير أن يمعن فيها النظر، فهيات أن يفهم تلك الأقسام، وهيات أن يفهم ما يتبعها من بليغ الكلام.

كلمة الشوكاني بخصوص القسم: ومن الغريب أن فحول المفسرين رحمهم الله لم يأخذوا أمر القسم مأخذ الجد، ومن هنا تحيروا في تأويله، فقال الشوكاني - مثلاً -

¹ علامة هندي له مؤلفات جلية منها "البرهان في نظام القرآن" و"التحرير والتحبير في أصول التفسير" و"إمعان النظر في نظام الآي والسور" و"عقد الجمان في تقويم تدبر القرآن".

وهو يتحدث عن أقسام سورة "التين":

قال أكثر المفسرين: هو التين الذي يأكله الناس "وَالزَّيْتُونِ" الذي يعصرون منه الزيت، وإنما أقسم بالتين، لأنه فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص، وفيها أعظم عبرة لدلائها على من هيأها لذلك، وجعلها على مقدار اللقمة.

قال كثير من أهل الطب: إنّ التين أنفع الفواكه للبدن، وأكثرها غذاء، وذكروا له فوائد، كما في كتب المفردات والمركبات، وأما الزيتون، فإنه يعصر منه الزيت الذي هو إدام غالب البلدان ودهنهم، ويدخل في كثير من الأدوية.

وقال الضحاك: التين المسجد الحرام، والزيتون المسجد الأقصى.

وقال ابن زيد: التين مسجد دمشق، والزيتون مسجد بيت المقدس.

وقال قتادة: التين الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس.

وقال عكرمة وكعب الأحبار: التين دمشق، والزيتون بيت المقدس.

وليت شعري ما الحامل لهؤلاء الأئمة على العدول عن المعنى الحقيقي في اللغة العربية، والعدول إلى هذه التفسيرات البعيدة عن المعنى، المبنية على خيالات لا ترجع إلى عقل ولا نقل. وأعجب من هذا اختيار ابن جرير للآخر منها مع طول بابه في علم الرواية والدراية.

قال الفراء: سمعت رجلاً يقول: التين جبال حلوان إلى همدان، والزيتون جبال الشام. قلت: هب أنك سمعت هذا الرجل، فكان ماذا؟ فليس بمثل هذا تثبت اللغة، ولا هو نقل عن الشارع.

وقال محمد بن كعب: التين مسجد أصحاب الكهف، والزيتون مسجد إيلياء.

وقيل: إنه على حذف مضاف، أي: ومنابت التين والزيتون. قال النحاس: لا دليل

على هذا من ظاهر التنزيل، ولا من قول مَنْ لا يجوز خلافه.¹

فالذي نلاحظه عند أئمة التفسير أنهم لا يرون في تلك الأقسام إلا جانب الشرف، أو جانب المنفعة، وإذاً، فالأشياء أو الأماكن التي أقسم بها ربنا سبحانه وتعالى في كتابه العزيز لم تخل من حالتين: إما أن كانت ذات شرف، أو كانت ذات منفعة.

وهنا يأتي سؤال: ماذا قصد ربنا حينما أقسم بتلك الأشياء، أو بتلك الأماكن؟ هل أقسم بها لكونها ذات شرف أو ذات منفعة فقط؟ وإن أقسم بها لشرفها ومنفعتها فقط، فهل الشرف والنفع محصور في تلك الأشياء، أو في تلك الأماكن دون غيرها؟ وما مناسبتها لتلك السور التي وردت فيها؟

رؤية السيوطي للموضوع: لقد حاول السيوطي أن يجيب عن مثل تلك التساؤلات، ولكنه لم يضرب إلا في حديد بارد، قال رحمه الله:

لا يكون القسم إلا باسم معظم وقد أقسم الله تعالى بنفسه في القرآن في سبعة مواضع.... والباقي كله قسم بخلوقاته كقوله تعالى: والتين والزيتون، والصفات، والشمس، والليل، والضحى، فلا أقسم بالخنس.

فإن قيل كيف أقسم بالخلق وقد ورد النهي عن القسم بغير الله؟ قلنا أجيب عنه بأوجه:

أحدها: أنه على حذف مضاف أي: ورب التين، ورب الشمس، وكذا الباقي.
والثاني: أن العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتقسم بها فنزل القرآن على ما يعرفون.
والثالث: أن الأقسام إنما تكون بما يعظمه المقسم أو يحلّه وهو فوقه، والله تعالى ليس شيء فوقه، فأقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته، لأنها تدلّ على باري وصانع.

¹ فتح القدير، ص 573-574

وقال ابن أبي الإصبع في أسرار الفوائد:

القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع لأنّ ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال إنّ الله يقسم بما شاء من خلقه وليس لأحد أن يقسم إلا بالله.

وقال العلماء أقسم الله تعالى بالنبي في قوله: "لعمرك" ليعرف الناس عظمته عند الله ومكانته لديه.¹

هذا ما نجده عند السيوطي بهذا الصدد، وهو، كما لا يخفى، شيء لا يشع ولا يغني من جوع، فهي آراء لا تستند إلى دليل، وهي أشبه بخواطر خطرت ببال أصحابها، ثم طارت في الآفاق، وراجت في الأسواق، وملأت ذلك الفراغ الذي كان يوجد في مجال التفسير بخصوص الأقسام في القرآن.

وكل ما قيل في شأن تلك الأقسام لا يفيد لماذا أقسم الله بما أقسم به دون غيره؟ وما مناسبة تلك الأقسام للسور التي استهلّت بها؟ وما صلتها بما يتبعها من قصص وأحاديث، أو إنذار وتبشير، أو تحريض وتحذير؟

نظرة الرازي إلى الأقسام: وهناك رأي آخر بخصوص القسم في القرآن، وهو ما ذهب إليه الفخر الرازي، حيث يقول في أول سورة "الذاريات":

"الأيمن التي حلف الله تعالى بها، كلها دلائل أخرجها في صورة الأيمان، مثاله قول القائل لمنعمه: "وحق نعمك الكثيرة إني لا أزال أشكرك"، فيذكر النعم وهي سبب مفيد لدوام الشكر ويسلك مسلك القسم، كذلك هذه الأشياء كلها دليل على قدرة الله تعالى على الإعادة فإن قيل: فلم أخرجها مخرج الأيمان؟ نقول: لأنّ المتكلم إذا

¹ الإتيان في علوم القرآن، النوع السابع والستون في أقسام القرآن، 350/2

شرح في أول كلامه بحلف يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم فيصغي إليه أكثر من أن يصغي إليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر فبدأ بالحلف، وأدرج الدليل في صورة اليمين حتى أقبل القوم على سماعه تفرج لهم البرهان المبين، والتبيان المتين في صورة اليمين".¹

فيرى الفخر الرازي أقسام سورة والذاريات من جنس الدلائل في صورة الأيمان، أي: هي لا تحمل معنى المنفعة، أو معنى الفضيلة والشرف، وإنما هي دلائل استدلل الله بها على ما أراد.

وقفه جادة للفراهي في الموضوع: ثم جاء بعده الفراهي، وزاد هذا المفهوم جلاءً، وأشبعه بحثاً وتحصيلاً، حيث وضع في موضوع القسم في القرآن سفيراً نفيساً، أسماه: (إمعان في أقسام القرآن)

وبرهن في سفره هذا على أن الأقسام في القرآن عن آخرها جاءت للاستدلال والاستشهاد، وليست من التعظيم في شيء، فكل ما أقسم الله به في كتابه، هو دليل على ما أراد إثباته، واقتضى المقام أن يساق هذا الدليل في صورة القسم، فجاء القسم. قال الفراهي في إمعانه، بعد ما ناقش آراء العلماء في القسم، وبعد ما وثق الموضوع حقه من البيان والإيضاح، قال رحمه الله:

"بعد ما تبين لك أن القسم أصله الاستشهاد، وأنه لا يراد به التعظيم، إلا إذا كان بالله تعالى وبشعائره، وعلمت أنه ربما يكون لمجرد الاستدلال، لا يخفى عليك أن أقسام القرآن ليست إلا للاستدلال والاستشهاد بالآيات الدالة".

وساق الفراهي في إمعانه عدداً من الشواهد من كلام العرب، على أن القسم كان شائعاً عندهم في موطن الاستدلال والاستشهاد.

¹ الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، سورة والذاريات، 160/28

فمنها قسم الهجرس حين قتل جساً قاتل أبيه، قال:
"وفري وأذنيه، ورخي ونصليه، وسيفي وغراريه لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه".¹
فأقسم بهذه الأشياء استدلالاً بها، كأنه قال: فكيف أترك قاتل أبي؟ وأنا قادر على
الكرّ والفرّ، والطعن والضرب.
فذكر في قسمه ما يصدق دعواه، واستدلّ به على وجوب ما أراد به.
ومنها قول عروة بن مرة الهذلي:
وقال أبو أمامة يال بكر فقلت ومَرخة دعوى كبير
يستهنئ الشاعر بأبي أمامة على استغاثته بقبيلة بكر. فقال:
هذه دعوى كبيرة، أي ما أصغر من يدعوه لنصره!!
فأقسم بشجرة صغيرة لا تؤوي مَنْ يلوذ بها، وضربها مثلاً لأضعف الأشياء ملاذاً.
ويتضح هذا المعنى مما قال أبو جندب الهذلي:
وكنّت إذا جاري دعا لمضوفة أشمر حتى ينصف الساق مئزري
فلا تحسبن جاري لدى ظل مرخة ولا تحسبنه فقّع قاع بقرق²
ومنها قول الحصين بن حماد يرثي نعيم بن الحارث خليله:
قتلنا خمسة ورموا نعيماً وكان القتل للفتيان زينا
لعمر البايات على نعيم لقد جلت رزيتة علينا³
فلم يقسم بالبايات إلا لأنّ حالتين تشهد بجلالة هذه الرزية.

¹ الكامل لابن الأثير، الأيام بين بكر وتغلب، 322/1

² أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، 267/3

³ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، 8/14

وبعد إيراد الشواهد من كلام العرب، وغير العرب على أنّ القسم بغرض الاستدلال والاستشهاد كان شائعاً معروفاً عند العرب، كما كان شائعاً معروفاً عند غيرهم، يعود الفراهي، فيقول:

"فإن قال قائل: هب أنّ أصل القسم هو الإشهاد، أو الاستشهاد، ولكنه لكثرة استعماله للتعظيم صار كالمنقول، وصار أصله كالمذهول. ولذلك نهى عن القسم بغیر الله تعالى، فلا يصار إلى الأصل إلا بدليل واضح بَيِّن.

قلنا: سلّمنا ولكننا لم نذهب إلى هذا المعنى الخاص لأقسام القرآن إلا بدلالة القرآن من وجوه كثيرة. ودونك بيانها".

ثم ساق الفراهي تلك الأدلة والقرائن التي تقود الباحث المتأمل إلى ما ذهب إليه في تأويل أقسام القرآن ألا وهو مفهوم الاستدلال والاستشهاد دون معنى التعظيم والتشريف.

وعدد الأدلة عنده بلغ ثمانية، وهي أدلة واضحة ساطعة، تشفي النفس، وتقنع العقل. دلائل في صورة الأيمان: ملخص القول أنّ القرائن والبراهين كلها متضافرة على رجحان الرأي القائل بأنّ أقسام القرآن كلها دلائل في صورة الأيمان، وإذا أقسم الله في كتابه ببعض مخلوقاته، فلا يكون فيه معنى التعظيم والتشريف البتّة، وإنما يكون فيه معنى الاستدلال والاستشهاد على أمرٍ يريده الله.

وقبل أن نقفل الموضوع نودّ أن نتناول بعض أقسام القرآن بالبحث والإيضاح حتى يتجلى فيه وجه الاستدلال والاستشهاد، فذلك أدنى أن يقتنع به من أراد القناعة.

وقفة عند أقسام سورة التين: قال تعالى: "وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ⑤ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑥ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالَّذِينَ ⑦ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ⑧".

فتلك السورة جاءت لإثبات الدين، وهو الديونة والمجازاة.

وجهة الاستدلال أنّ ربنا سبحانه وتعالى ليس غافلاً عن أفعال العباد، وقد خلقهم في أحسن تقويم، حيث سواهم وزودهم بكفاءات ومواهب تساعد في التسامي إلى الغاية العظيمة التي أرادها خالقهم لهم، فمنهم من تسمى إلى تلك الغاية، وذلك عن طريق الإيمان والعمل الصالح، ومنهم من أخلد إلى الأرض، ومال إلى السفلى، ورغب عن التسامي إلى سماء الإيمان والعمل الصالح، فردّه ربه أسفل سافلين، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات أكرمهم ربهم في الدنيا، ولهم أجر دائم غير مقطوع في الآخرة.

وأما من مال إلى السفلى، وانغمس في الكفر، ذاق وبال أمره في الدنيا، وله في الآخرة عذاب النار.

ذلك ما ترمي إليه السورة، وهو من الوضوح بحيث لا يخفى على من تأمل فيها، فلننظر إلى الأقسام كيف تشهد بما ترمي إليه السورة.

ما التين والزيتون؟ أول قسم أقسم الله به هو التين، ثم الزيتون، فما التين والزيتون؟ إذا رأينا إلى سياق الآيات، فالسياق يوحى إلينا أنّ المراد بالتين والزيتون ليس الفاكهة، فإنهما عطفا على طور سينين، والبلد الأمين، وهما ليسا من الفواكه، وإنما هما من الجبال، فإن كان من شأن المعطوف والمعطوف عليه أن توجد بينهما مناسبة، فالأولى أن يحمل التين والزيتون، على جبل التين وجبل الزيتون، دون فاكهة التين وفاكهة الزيتون. قال ابن قتيبة:

(التِّينُ) وَ(الزَّيْتُونُ) جبلان بالشام؛ يقال لهما: "طُورُ تَيْنَا، وَطُورُ زَيْتَا" بالسُّرْيَانِيَّةِ، سُمِّيَا بالتين والزيتون: لأنهما يُنبتانهما.¹

¹ غريب القرآن لابن قتيبة، 532/1

وجبال التين والزيتون كانت معروفة عند العرب، قال النابغة الذبياني، وهو يذكر التين:
وهبَّتِ الرِّيحُ من تلقاء ذي أرلٍ تُزجي مع اللَّيْلِ من صُرَّادها صرماً
صهب الظلال أتينَ التينَ عن عُرْضٍ يُزجِن غيمًا قليلاً ماؤه شيمًا¹
فأراد بالتين جبلاً في الشمال، يقال هو بين حلوان وهمدان.

قال الفرَّاء: سَمِعْتُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وكان صاحبَ تَفْسِيرٍ قال: التِّينُ جِبَالٌ ما بينَ
حُلُوانَ إلى هَمْدانَ والزَّيتونَ جَبَلٌ بالشَّامِ.²

فأما حلوان فهي، كما قال أبو زيد، مدينة عامرة ليس بأرض العراق بعد الكوفة
وبصرة وواسط وبغداد أكبر منها، وسُرَّ من رآها، وأكثر ثمارها التين، وهي بقرب
الجل، وليس للعراق مدينة بقرب الجبل غيرها، وربما يسقط بها الثلج. وأما أعلى
جبلها فإنَّ الثلج يسقط به دائماً، وبها رمان ليس في الدنيا مثله، وتين في غاية من
الجودة، ويسمونه لجودته (شاه إنجير) أي ملك التين.³

وأما همذان فقيل إنَّ سليمان بن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ اجتاز بموضع همذان فقال: ما بال
هذا الموضع مع عظم مسيل مائه وسعة ساحته لا تبني فيه مدينة؟ فقالوا: يا نبي الله
لا يثبت أحد فيه؛ لأنَّ البرد ينصبّ فيه صَبًّا، ويسقط الثلج قامة الرمح.⁴

قال الفراهي، وهو يشرح شعر النابغة:

"فإنه يصف الريح الباردة الشمالية التي تزجي السحب الصهب القليلة الماء التي مرّت
بجبل التين، فازدادت به برودة، والعرب تذكر كثيراً هبوبَ الريح الباردة من جهة

¹ ديوان النابغة الذبياني، 95/1

² الزبيدي، تاج العروس: تين

³ معجم البلدان، ياقوت الحموي، 291/2

⁴ معجم البلدان، 417/5

الشمال، وهكذا يذكرون الجودي بالبرودة.

قال أبو صعترة البولاني، وهو جاهلي:

فما نطفة من حب مزن تقاذفت به جنبنا الجودي والليل دامس
فلما أقرته اللصاب تنفست شمال لأعلى مائه فهو قارس¹
فلا شك أنّ النابغة أراد بالتين جبلاً في الشمال، ولعله هو الجودي، أو قريب منه.²
التين هو الجودي: والقرائن كلها تدل على أنّ التين هو الجودي، كما يراه الفراهي،
وكما يظهر مما ذكره ابن الجوزي، حيث ذكر الأقوال التي قيلت في تأويل التين، ومنها
قوله: "والثاني: أنّ التين: مسجد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي بنى على الجودي".³

وهو رواية عن سيدنا ابن عباس، حيث قال الإمام ابن جرير:

حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن
عباس، قوله: (وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ) يعني مسجد نوح الذي بنى على الجودي، والزيتون:
بيت المقدس.⁴

والشاهد في الرواية أنّ التين والجودي مكان واحد، سواء كان التين مسجد نوح على
الجودي، أو كان الجودي هو التين، وسمي بالتين لكونه منبتاً خصباً لأجود أنواع
التين، ثم بنى على الجودي مسجد باسم سيدنا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ تخليداً لذكرياته المجيدة،
حيث أنجاه الله وأنجى أصحابه من القوم الظالمين، وقد استوت سفينته على الجودي،
فالمسجد اشتهر بمسجد نوح، واشتهر بمسجد التين.

¹ معجم البلدان، باب الجيم والواو، 180/2، شرح ديوان الحماسة للهرزوقي، 393/1

² تفسير نظام القرآن، سورة والتين، 346/1

³ زاد المسير في علم التفسير، سورة والتين، الآية: 1

⁴ تفسير الطبري، سورة والتين، 503/24

أيًا كان الأمر، فالتين تحيط به ذكريات نوح وقوم نوح، وهو رمز للمكان الذي ظهر فيه قانون الدينونة والمجازاة في صورة واضحة سافرة مجلجلة!

فحينما أقسم الله بالتين، فقد استشهد به، أي: جعله شاهداً على أنه ليس غافلاً عما يعمل الظالمون، فهو يجازيهم، ولا محالة، ويذيقهم وبال أمرهم إن لم ينتهوا عن طغيانهم. فليعتبروا وليتّعظوا بما حلّ بقوم نوح، وليثوبوا إلى رشدهم.

هذا التين، فما الزيتون؟

الشهادة في الزيتون: قال الهمداني: قال كعب في قول الله عزّ وجلّ: وَالَّتَيْنِ، قال: الجبل الذي عليه دمشق، وَالزَّيْتُونِ، قال: الذي عليه بيت المقدس.¹

فالزيتون هو الجبل الذي عليه بيت المقدس.

قال الفراهي: ولا يخفى أنّ المراد به جبل الزيتون، الذي ذكر تضرعات المسيح عليه السلام، وكثر ذكر بكاؤه عليه، فقد جاء في لوقا (21:37):

"وكان في النهار يعلم في الهيكل، وفي الليل يخرج ويبست في الجبل، الذي يدعى جبل الزيتون".

وجاء في الإنجيل المنحول إلى لوقا (46-39/22):

"وخرج ومضى كالعادة إلى جبل الزيتون، وتبعه أيضاً تلاميذه. ولما صار إلى المكان، قال لهم: صلّوا ليلاً تدخلوا في الفتنة. فلما بلغوا المنتهى حقت عليهم كلمة اللعنة والطرده. وانفصل عنهم نحو رمية حجر، وجثا على ركبتيه وصلّى، قائلاً يا ربّ إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس. ولكن لتكن لا مشيئتي بل مشيئتك. وظهر ملك من السماء يقوّيه. وإذا كان في جهاد كان يصليّ بأشدّ لاجحة وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض. ثم قام من الصلاة وجاء إلى تلاميذه فوجدهم نياماً من

¹ البلدان لابن فقيه الهمداني، 1/155

الحزن. فقال لهم لماذا أنتم نيام؟ قوموا وصلوا، لئلا تدخلوا في تجربة".¹

وأسهب الفراهي في سرد تلك النقول من الأناجيل، إلى أن قال: "وما ذكرنا يتبين للهاطل ما وقع من الدينونة العظمى على بقعة الزيتون".²

وهنا يحضرنا قوله تعالى في سورة آل عمران: "وَمَكْرُواْ لِلّٰهِ وَاللّٰهُ خَيْرُ الْمَكْرِيْنَ ﴿٥٤﴾" (٥٤-٥٥)

فلعل تلك البشارات التي تحملها تلك الآية من رفع عيسى إلى ربه، وتطهيره من أعدائه الكفار الذين قد اجتمعوا لقتله، وكانوا له بالمرصاد، ثم من لعنهم وإخزائهم وتغليب أتباع عيسى عليهم، لعل تلك البشارات كلها ما جاءت إلى سيدنا عيسى إلا وهو على جبل الزيتون، الجبل الذي كان من عادته أن يبيت فيه، ويخلو فيه بربه، ويناجيه، ويتضرع إليه ويناديه.

وعلى هذا كان جبل الزيتون هو المكان الذي ظهرت فيه الدينونة العظمى في عهد سيدنا عيسى، حيث رُفِع قوم بإيمانهم، ووُضِع قوم من جراء طغيانهم.

فحينما أقسم الله سبحانه وتعالى بالزيتون، فقد استشهد به، بل جاء به كشاهد عيان على وقوع الدينونة والمجازاة، التي تدور حوله سورة التين.

الشهادة في طور سينين: وأما طور سينين فهو المكان الذي كان نقطة تحوّل في تاريخ بني إسرائيل، حيث نادى الله موسى من جانبه الأيمن، واختاره لرسالته، وأرسله إلى فرعون وقومه، فكذّبوه وعصوه، فدمّر الله بنيانهم وقطع دابرهم، حيث قال

¹ عبد الحميد الفراهي، تفسير نظام القرآن، سورة والتين، 352-347/1

² نفس المصدر، 356/1

تعالى: "فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾" ¹.

وهكذا كان طور سينين مكاناً يرتبط به تاريخ فرعون وآل فرعون، كما يرتبط به تاريخ بني إسرائيل، فقد قضى الله فيه بهلاك قوم بسبب كفرهم وتكذيبهم لنبيهم، كما قضى فيه بنجاة قوم بسبب صبرهم واستعانتهم بربهم.

وبذلك كان طور سينين مكاناً ظهرت فيه الدينونة العظمى في عهد سيدنا موسى، في صورة سافرة مجلجلة لا يمكن إنكارها.

فحينما أقسم الله بطور سينين، فكأنه أحضر شاهد عيان على وقوع الدينونة والمجازاة، الذي تدور حوله هذه السورة.

الشهادة في البلد الأمين: وأما البلد الأمين، فهو البلد الذي يحوي في جنباته البيت الحرام، والذي دعا له إبراهيم ربه أن يجعله آمناً، والذي سمي بكة، وكان آية واضحة ناطقة على ظهور سنة الدينونة والمجازاة في العباد والبلاد.

وأهل هذا البلد إن تجاهلوا التين والزيتون، وتجاهلوا طور سينين فلن يتجاهلوا بلدهم، البلد الأمين الذي ينعمون بخيراته، وينهلون من بركاته، فهم أنفسهم كانوا شهود عيان لما وقع فيه من وقائع الدينونة والمجازاة، حيث حماه الله من أصحاب الفيل، وجعل كيدهم في تضليل، فأصبحوا حديث الأمس، بل أصبحوا وكأن لم يغنوا بالأمس!

أقسام سورة والضحي: هذا، وبعد ما انتهينا بفضل الله وتوفيقه من بيان وجوه الشهادة في أقسام سورة (والتين) نأتي إلى سورة أخرى، ألا وهي سورة (الضحى)

¹ سورة الأعراف: 136-137

حتى تتدبر ما فيها من أقسام، قال تعالى: "وَالضُّحَى ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ٣ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ١١".

أقسم ربنا سبحانه وتعالى أولاً بالضحى، والضحى- فيما يقول الراغب- انبساط الشمس وامتداد النهار، وسُمِّي الوقت به.¹

وحي لفظ "الضحى": والضحى يوحى فيما يوحى، بمعنى الأذى، والشدة.

قال الليث: ضَحَّى الرجل يَضْحِي ضَحًا: إذا أَصَابَهُ حَرُّ الشمس. قال الله تعالى: "وَأَنَّا لَا تَتَّمُوا فِيهَا وَلَا تَضْحَى" قال: لا يُؤْذِيكَ حَرُّ الشمس.

وقال الفراء: لا تَضْحَى: لا تُصِيبُكَ شمسٌ مُؤْذِيَةٌ.

ومنه جاء فيه معنى الهجوم والغارة، يقال ضَحَّينا بني فلان، أي: أتيناهم ضَحَّى مُغِيرِينَ عليهم، قال:

أَرَانِي إِذَا نَاكَبْتُ قَوْمًا عَدَاوَةً فَضَحَّيْتُهُمْ إِنِّي عَلَى النَّاسِ قَادِرٌ

ومنه قول حسان بن ثابت يَرثِي سَيِّدَنَا عَثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ضَحَّوْا بِأَشْمَطِ عُنَاوُنِ السُّجُودِ بِهِ يَقْطَعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنًا²

مفهوم "إذا سَجَى": ثم أقسم سبحانه وتعالى بالليل إذا سَجَى، وسَجَى من السجود، وهو يحمل معنى السكون والهدوء، والراحة والاستقرار.

قال الفراء: سَجَا، إذا أَظْلَمَ وَرَكَدَ في طُولِهِ كما يقال بحرٌ سَاجٍ إذا رَكَدَ وَأَظْلَمَ ومعنى رَكَدَ

¹ الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، كتاب الضاد، 502/1

² ديوان حسان بن ثابت، 248/1، وانظر: ابن منظور، لسان العرب: ضحا

سكن، قال الأعشى:

فما ذُبْنَا أَنْ جَاشَ بَحْرُ ابْنِ عَمِّكُمْ وَبَحْرُكَ سَاجٍ لَا يُوَارِي الدَّعَامِصَاءَ
وفي حديث علي عليه السلام: ولا ليل داجٍ ولا بحر ساجٍ أي ساكن.

الزجاج: سَجَا: سَكَنَ، وأنشد للحارثي:

يا حَبْدًا الْقَمَرَاءُ وَاللَّيْلُ السَّاجُ وَطُرُقٌ مِثْلُ مُلَاءِ النَّسَاجِ
معمر: والليل إذا سَجَا: إذا سَكَنَ بالناسِ.

وسَجَا البحرُ وأَسْبَى إذا سَكَنَ.

وسَجَا اللَّيْلُ وَغَيْرُهُ يَسْجُو سَجْوًا وَسَجْوًا سَكَنَ وَدَامَ، وَلَيْلَةٌ سَاجِيَةٌ إِذَا كَانَتْ سَاكِنةَ الْبَرْدِ
والريح والسحاب غير مُظْلِمَةٍ.

وسَجَا الْبَحْرُ سَجْوًا: سَكَنَ تَمُوجُهُ.

وامرأةٌ سَاجِيَةٌ فَاتِرَةٌ الطَّرْفِ.

الليث: عَيْنٌ سَاجِيَةٌ فَاتِرَةٌ النَّظَرِ يَعْتَرِي الْحُسْنَ فِي النِّسَاءِ.¹

وجه الاستدلال بالقسمين: هذان قَسَمَانِ، أحدهما يحمل معنى الأذى والشدة،
ويحمل معنى الهجمات والغارات، والآخر يحمل معنى السكون والهدوء، ويحمل معنى
الراحة والاستقرار.

فكما أنَّ الضحى الصاحب المحرق الذي يتسم بالقيظ والحرّ، والذي يتسم بالضجاج
والهجاج، والصيحة والجلبة، يتبعه ليل نديّ هادئ ساكن مريح، فكذلك هذه
الظروف الحرجة القاسية الصاخبة ستتبعها ظروف كريمة ناعمة مفرحة.

هذه الظروف لا بد أن تتغير، وتلك الشدائد لا بد أن ترحل.

¹ ابن منظور، لسان العرب: سجا

وإذا كانت أيامك هذه أيام عناء وشدة، وأيام بلاء ومحنة، فلا يجدن اليأس سبيلاً إلى قلبك، ولا يخطرن ببالك أنّ ربك ودّعك، أو قلاك، فالبلاء والمحنة من طبيعة الدعوة، ومن طبيعة الرسالة. وعلى الرغم من هذه البلايا وتلك المحن فإن دعوتك ستتمو وتزدهر، والغد المقبل سيكون خيراً من الأمس الدابر، ويكون خيراً من الحاضر الكاسر. وللآخرة خير لك من الأولى.

وأما ربك فقد تولّاك بعطفه ورعايته، وأحاطك بودّه وكرمه منذ أن خلقك، فرحمته دائبة، وعنايته متواصلة في صغرك وفي كبرك، ومن قبل النبوة، ومن بعد النبوة، كنت يتيماً فأواك، وكنت ضالاً فهداك، وكنت عائلاً فأغناك. وشرح لك صدرك، ووضع عنك وزرك، ورفع لك ذكرك. فذلك قوله تعالى: "أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۖ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۖ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۝".

فهاتان السورتان- سورة والضحي، وسورة الشرح- كأنهما توأمان، أو كأنهما شقيقتان جاءتا لتثبتن فؤاد النبي عليه الصلاة والسلام، وتثبتن أقدامه، في ظروف حرجة مكفهرّة كانت تهدد بالخطر، وكادت تطفئ بارقة الأمل في نجاح الدعوة، وفي نموّها وازدهارها، واستوائها على سوقها.

تأويل صاحب "التبيان": وهناك نظرة أخرى تختلف عن هذه النظرة، في تأويل أقسام هذه السورة، قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

"فتأمل مطابقة هذا القسم، وهو نور الضحي الذي يوافي بعد ظلام الليل، للمقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودع محمداً ربه فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل، على ضوء الوحي ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه".¹

¹ ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، فصل القسم في سورة والضحي

نقول إنّ قصة احتباس الوحي ليست ثابتة حتى يبنى عليه تأويل الآية، فهي من بلاغات الزهري حيث قال فيما رواه البخاري:

"وَقَرَّ الوحي قَرَّةً حتى حزن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيما بلغنا، حزناً غداً منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواحق الجبال فكلمها أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدى له جبريل فقال يا محمد إنك رسول الله حقاً فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع فإذا طالت عليه فترة الوحي غداً لمثل ذلك فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك".¹

قال صاحب السيرة النبوية الصحيحة، في ضمن الكلام على هذه الرواية:

"ويوضح بلاغ الزهري الأزمة التي تعرض لها الرسول لانقطاع الوحي، وإنه كان يتردى من شواحق الجبال، وأنّ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يظهر له في كل مرة، ويبشره بأنه رسول الله، ولكن بلاغ الزهري لا يصلح لإثبات الحادث لتعارضه مع عصمة النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم إنه مرسل ضعيف، ولا يعلم على وجه التحديد كم دامت مدة انقطاع الوحي".²

ويقول العلامة محمد ناصر الدين الألباني: "وإذا عرفت عدم ثبوت هذه الزيادة، فلنا الحق أن نقول إنها زيادة منكّرة من حيث المعنى لأنه لا يليق بالنبي المعصوم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يحاول قتل نفسه بالتردي من الجبل، مهما كان الدافع له على ذلك".³

فالصحيح أنّ الوحي لم يحتبس، ولم يحتجب، ولم يهَيَّ الفرصة للأعداء قطّ، حتى يسخروا من رسول الله، ويقولوا: ودّعك ربك يا محمد! وفلاك!

وإنما كان يأتي الوحي بنظام حكيم وضعه الله، وما كان يأتي كل يوم، لا في أول

¹ صحيح البخاري، رقم الحديث: 6982

² الدكتور أكرم ضياء العمري-السيرة النبوية الصحيحة، 1/126-127

³ الألباني: دفاع عن الحديث والسيرة، 1/42

النبوة، ولا في آخر النبوة، بل كان يأتي كلما أنى أوانه في علم الله، وكلما اقتضى الأمر، واجتمعت دواعيه وأسبابه في تقدير الله. وقد يتأخر الوحي شهراً وأكثر من شهر، وهذا الذي ذكر في الرواية بلفظ "الفترة"، وتلك الفترة لم تكن مرة واحدة، كما توهم هذه الرواية، بل كانت مرّات ومرّات في فجر البعثة، وضحاها، وظهرها، وعشيّها.

ثم سياق الآيات لا يشجعنا على القول بما قال به صاحب "التبيان" فإن الليلة الساجية أدعى إلى السكينة والبهجة من الضحى الصახب، ولو كان المراد ما ذهب إليه صاحب "التبيان" لقليل مثلاً: والليل إذا دجا، أو والليل إذا أغشى، أو ما شابه ذلك.

جملة القول أنّ ربنا سبحانه وتعالى استشهد بالضحى والليل إذا سبى، على تغير الظروف والملابسات التي كانت تحيط برسول الله وأصحابه في ضحى الدعوة في مكة، وطمنهم أنهم سيتحولون من عسر إلى يسر، وسينتقلون مما يسوءهم إلى ما يسرهم، كما ورد في السورة التالية: "فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿١﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٢﴾".

فليواصلوا المسير، وليتوكّلوا على العليم القدير.

بلاغة أسلوب القسم: والجدير بالذكر أنّ القسم لا يفيد معنى الشهادة فقط، بل يتضمن معه معنى التصوير والتشخيص، فهو يصور المقسم به، ويجعله حاضراً شاخصاً أمام الأعين، وكأنّ السامع، أو القارئ يراه رأي العين!

فإنّ الشهادة لا تجل من بعيد، ولا تُقبل من وراء حجاب، وإنما الشاهد من شأنه أن يشهد موقع الشهادة، ويؤديها أمام الملاء.

فربّنا سبحانه وتعالى حينما أقسم بالتين، أو أقسم بالزيتون، أو أقسم بطور سينين، أو أقسم بالبلد الأمين، أو أقسم بالضحى، أو أقسم بالليل إذا سجا، فكأنه جاء بكل واحد من تلك الأشياء، وأحضره ليشهد أمام الناس بما عنده من أنباء، وبما عنده من أخبار. فحينما أقسم بالتين - مثلاً - فكأنه جاء بجبل التين ليشهد بما عنده من أخبار قوم نوح،

ومن أخبار الطوفان الذي أباد خضراءهم، وأسكت نأمتهم جزاء بما كسبوا.
وحينما أقسم بالزيتون- مثلاً- فكأنه جاء بجبل الزيتون ليشهد بما عنده من أنباء سيدنا
عيسى وأصحابه الخواريين، الذين كانوا يأوون إليه في ليلهم حذراً من مؤامرات
أعدائهم اليهود، وجاء به ليشهد بتضرعات عيسى في آناء الليل، ونداءاته الخفية،
وآهاته الشجية، حتى يشفع لأعدائه عند ربه، وحتى يردّ عنهم ما قدر لهم من خزي
وعذاب، ولكنه لم يستطع أن يخرجهم من شقائهم، إلى أن رفع عيسى إلى ربه،
وحقّت عليهم اللعنة!

وهكذا دواليك. فالأقسام كلها شهادات من هذا النوع، وكان لها وقع شديد في
النفوس، حتى هزّزت المشاعر، وزحزحت الحواجز، وجعلتهم يفكرون، ويفكرون
فيما تحمله تلك الأقسام من بصائر.

وتلك مزية من مزايا أسلوب القسم، نبّه إليها الفراهي في إمعانه حيث قال:
"ولا شيء من أساليب الكلام أصلح للتصوير من القسم؛ فإن الذي أقسمت به
دعوته كالشاهد، فأوقفته بين يدي المخاطب متمثلاً".¹

وتلك مزية نفيسة، من حقها أن يشدّ عليها الباحث يديه، ولأسلوب القسم مزايا
أخرى غيرها، نبّه إليها الفراهي في إمعانه، وليس هذا موضع تفصيلها.

ولعل هذا الحديث الوجيز المستفيض حول أقسام القرآن يكفي لإدراك ما لها من
أهمية كبيرة في فهم القرآن، وتذوقه، والحصول على كنوزه وفرائده، فالسور التي
وردت فيها تلك الأقسام لا يمكن تذوقها واستيعابها حتى نطيل الوقوف عند تلك
الأقسام، ونتبين دلالاتها وإيحائها، ونستوعب وجوه شهاداتها.

¹ الفراهي، إمعان في أقسام القرآن، ص 99

منهج الفراهي في الكشف عن نظام القرآن الكريم: دراسة وصفية تحليلية

- محمد يسلم المجود¹

الخلاصة

تهدف هذه الدراسة إلى بيان ماهية منهج الإمام عبد الحميد الفراهي في الكشف عن نظام القرآن الكريم، وأهميته في توحيد فهم المسلمين للقرآن الكريم أولاً، وفي إصلاح عطب مناهج التفسير القرآنية ثانياً، وفي إبطال دعاوى الطاعنين في نظم القرآن الكريم- بما قد يظهر فيه بادئ النظر من تشتت وعدم انسجام- ثالثاً.

وتأمل الدراسة أن تنجح في جمع المعالم الأساسية لمقاربة نظام القرآن الكريم عند الفراهي، ومصادرها، وأن تشرح أهم الأسس النظرية، والمنهجية التي تقوم عليها. إشكالية الدراسة وأسئلتها: المشكلة التي يدرسها هذا البحث هي: إلى أي مدى يمكن أن تسهم مقاربة الفراهي لنظام القرآن الكريم في ضبط تأويله، وإصلاح عطب مناهج تفسيره، وفي حل إشكالية نظم القرآن الكريم، وتجاوز الفرضيات الخاطئة بشأنه، وفي سبيل الإجابة عن هذه الإشكالية الهامة، ترد جملة أسئلة فرعية منها: ما مفهوم مقاربة نظام القرآن عند الفراهي؟ وما الإطار الذي تندرج فيه؟ وما أبرز الخطوات المنهجية والإجرائية التي تقوم عليها؟ وما ثمرتها في فهم القرآن الكريم وإصلاح مناهج تفسيره؟ أهمية الدراسة: أهمية هذه الدراسة تتجلى في كونها تحاول أن تجمع شتات مقاربة من أبرز

¹ باحث في الدراسات الإسلامية، كلية الشريعة الإسلامية، جامعة قطر

مجلة الهند - - منهج الفراهي في الكشف عن نظام القرآن الكريم

مقاربات نظام القرآن في القرن العشرين، وتبرز أهميتها في ضبط تأويل القرآن الكريم بالسياق، وفي حسم إشكال الخلاف حول نظمه، بعد أن أصبح هذا المبحث من أهم المباحث التي تشغل بال الباحثين المسلمين والغربيين في الدراسات القرآنية المعاصرة.

أهداف البحث: تهدف هذه المقاربة إلى بيان حقيقة مفهوم نظام القرآن الكريم عند الفراهي كأداة منهجية تضبط الفهم والتدبر لمعاني مفردات القرآن الكريم، وأساليبه، وطرائقه في النظم، والتركيب، والترتيب، كما تهدف كذلك إلى بسط خطوات هذا المنهج وأركانه الأساسية، وتبيان أهميته في فهم القرآن الكريم، وإصلاح مناهج التفسير.

منهج البحث: نروم من خلال هذا البحث تبيان مفهوم منهج نظام القرآن عند الفراهي وأركانه الأساسية، وفي سبيل ذلك سنقوم بتتبع ورصد الأفكار النظرية والمنهجية التي بنى عليها الفراهي نظريته، في مقاربة نظام القرآن الكريم من خلال استقراء كتبه ورسائله المتعددة.

وسنستعين في إعداد هذا البحث بالمنهج الوصفي التحليلي، من أجل استقراء الأسس النظرية، والضوابط الإجرائية، والثمرات المتوخاة من وراء منهج نظام القرآن الكريم عند الفراهي.

الدراسات السابقة: على الرغم من أن تراث الفراهي قد حظي بعدد متزايد من المؤلفات والدراسات،¹ التي تهتم بإبراز جوانب إضافته في التفسير وعلوم القرآن، إلا

¹ يوجد عدد من تلك البحوث التي اهتمت بدراسة تراث الفراهي في "مجلة الهند" المنشورة على الإنترنت؛ إذ تخصص العدد الأخير من أعدادها كل سنة لجهود الفراهي في القرآن وعلومه، كما اهتم بعرض بعض جهوده في نظام القرآن محمد أسد سيحاني في كتابه "إمعان النظر في نظام الآي والسور"، وغيره. ورغم أن الدراسات التي اطلعنا عليها لم تحصر نطاق بحثها في بيان المعالم الأساسية لنظام القرآن عند الفراهي، وتحليلها بنفس الطريقة التي اتبعنا في هذه الدراسة فإن لنا عليها بصفة عامة جملة ملاحظات حاولنا تجنبها في هذه الدراسة:

الملاحظة الأولى: أن معظمها يستعيد كتابات الفراهي كما هي ولا ينتبه إلى مسألة مهمة ومعروفة عند

مجلة الهند - - منهج الفراهي في الكشف عن نظام القرآن الكريم

أنّ موضوع دراسة الملاح الأساسية لمنهج في الكشف عن نظام القرآن الكريم لم تحظ بدراسة متخصصة تضمّ ما تفرق منها هنا وهناك، وتقارن ما اختلف بما اختلف. وهذا ما دعاني إلى دراسة هذا الموضوع دراسة وصفية تحليلية، على أمل أنّ أقدم دراسة تطبيقية للمنهج في بحث آخر.

خطة البحث: جاءت خطة هذا البحث في العناصر التالية:

- مقدمة: تستعرض الخلفية التاريخية لدراسة نظم القرآن الكريم.
- المبحث الأول: مدخل تمهيدي نتناول فيه نظام القرآن عند الفراهي، ومسوغات إعادة النظر في الدراسات السابقة له، وأهميته، ومصادر استمداده.
- المبحث الثاني: هو لبّ الدراسة وفيه نعرض أركان منهج نظام القرآن والأسس المنهجية التي يقوم عليها.
- خاتمة البحث: وفيها عرض لأهم نتائج توصيات بضرورة متابعة ومواكبة الأفاق التي يفتحها هذا المنهج في الدرس القرآني المعاصر.

القارئ لتراث الفراهي، وهي أنه لم يكمل أغلب كتبه، وإنما كان تنظيمها وترتيبها من قبل تلامذته، ولذلك لا يتأتى فهم تراثه حق الفهم إلا من خلال الدراسة المتأنية والمقارنة بينها والاختيار منها، وهو أمر لم يتوفر في هذه التي تكتفي بالاستعادة، وحتى في هذه الناحية فقد شابها بعض القصور. الملاحظة الثانية: أنّ أغلب الذين درسوا نظام القرآن عند الفراهي لم ينتبهوا إلى أنه أراد من خلاله أن يتجاوز ما توصل إليه الدارسون لعلم المناسبة وصرح هو نفسه بذلك، إلا أنّ بعض الكاتين عنه قد ظل ينظر إلى نظريته في نظام القرآن كما لو كانت إسهاماً في علم المناسبة فحسب!

وإذا كانت هذه الدراسة تتقاطع مع تلك الدراسات أو بعضها في محاولة استمداد تفصيل منهج الفراهي من خلال كتاباته، فإنّ مجال إضافتها يتجلى في كونها تحاول تلخيص وتبسيط معالم منهج الفراهي في دراسة نظام القرآن وتبحث أسسه، وتستشرف آفاقه، وفق خطة جديدة لم نجد من سار عليها وهي في اعتقادنا توضح أكثر من أيّ طريقة أخرى تسلسل أفكار الفراهي المتعلقة بنظام القرآن، وتفتح الباب لفهم أشمل لتراثه المتعلق بهذه المسألة، عسى أن يكون في ذلك إثراء للتفاعل مع طروحاته القيمة وتوظيفها في الدرس القرآني المعاصر.

مقدمة

نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، ولم يجد العرب الذي خاطبهم أول مرة سواء منهم من آمن به، ومن لم يؤمن إشكالاً في فهم لغته وأساليبه وطرائقه في النظم والتعبير، وكان النبي صلى عليه وسلم يتلوه على الناس، ويزكيهم به، ويعلمهم حكمته، بأقواله وأفعاله، حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى وترك الناس على المحجة البيضاء في تأويل القرآن. وما وجد الصحابة رضوان الله عليهم من بعده إشكالاً في فهم القرآن الكريم لأنه نزل بلغتهم وأساليبهم في التخاطب، وبما شهدوه من أحوال التنزيل وشؤونه.

بيد أنه لم يكد العرب يختلطون بالشعوب الأخرى التي حملوا إليها الإسلام رسالة رحمة وهداية، حتى بدأ فهم القرآن الكريم يتأثر شيئاً فشيئاً باختلاف لغات الشعوب، وخلفياتهم، وتجاربهم في تمثل الدين وموقفهم من الإسلام نفسه.

وقد حتمت هذه الوضعية الجديدة على علماء الإسلام الأوائل التأليف في الجوانب المشكلة في لغة القرآن الكريم؛ فأفردوا مباحث في معاني القرآن وغريبه، وإعرابه، وإعجازه، وفي وجوهه ونظائره، وغير ذلك من العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم.

وكان من بين القضايا التي أثرت- بعدما اختلط العرب بغيرهم- مسألة نظم القرآن الكريم إذ اعتبرها بعض الطاعنين في الإسلام مدخلاً للتشكيك في متانة لغة القرآن، وذريعة لنفي إعجازه، واقتضى ذلك من العلماء المسلمين التصدي لهذا الطعن ورده بالدليل والبرهان، نجد نماذج من ذلك في مؤلفات نظم القرآن وإعجازه مثل: النكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن الرماني (ت 384هـ)، وبيان إعجاز القرآن للخطابي (ت 388هـ) وإعجاز القرآن للباقلاني (ت 402هـ) والرسالة الشافية، ودلائل الإعجاز للبرجاني (ت 471هـ) وغيرها.

ولم يقتصر اهتمام العلماء بمعالجة مسألة النظم والترتيب في القرآن الكريم على ما ورد

مجلة الهند - - منهج الفراهي في الكشف عن نظام القرآن الكريم

في مؤلفات إعجاز القرآن من إشارات إلى نظم القرآن وأساليبه وطرائقه في النظم والتعبير، فأروا أنّ مسألة علاقة الآيات فيما بينها، وعلاقة السور بعضها ببعض، تحتاج إلى مزيد من الدراسة والتحصيل، ومن هنا بدأ البحث في وضع الأسس النظرية للعلاقات والصلات، بين السور والآيات، يتطور حتى أصبح فناً مستقلاً، عرف بعلم المناسبة، أفرد بالتصنيف وألفت تفاسير تعتني بتطبيقاته.¹

وفي العصر الحديث، ومع انفتاح العقل التفسيري على سؤال الإصلاح بدأ البحث عن مناهج تفسيرية جديدة للقرآن الكريم، تحلّ إشكالات وقصور المنهج التقليدي التجزيئي، وكان من نتائج ذلك أنّ برز عدد من المناهج التي أولت السياق النصي والموضوعي في القرآن الكريم عناية خاصة كما هو الحال مثلاً في منهج التفسير الموضوعي² الذي يقوم المفسر فيه بتقسيم السورة إلى عدد من الأقسام بناء على العلاقات الموضوعية والمقصدية بينها، ومنهج التفسير البياني،³ الذي يعنى بالجوانب

¹ من أبرز العلماء الذين اهتموا بعلم المناسبة قديماً: الإمام نضر الدين الرازي (ت 606هـ) في تفسيره: مفاتيح الغيب، وابن الزبير الغرناطي (ت 708هـ) في كتابه: البرهان في تناسب القرآن وبدر الدين الزركشي (ت 794هـ) في كتابه: البرهان في علوم القرآن وبرهان الدين البقاعي (ت 885هـ) في تفسيره: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور.

² "يطلق التفسير الموضوعي على نوعين جديدين من خدمة الكتاب العزيز: أولهما: تتبع قضية ما في القرآن كله وشرحها في ضوء الوحي النازل خلال ربع قرن تقريباً. والآخر: النظر المتغلل في السورة الواحدة لمعرفة المحور الذي تدور عليه، والخيوط الخفية التي تجعل أولها تمهيداً لآخرها، وآخرها تصديقاً لأولها أو بتعبير سريع تكوين صورة عاجلة لملاحم السورة كلها"، ينظر: الغزالي محمد، تراثما الفكري في ميزان الشرع والعقل ط4 (القاهرة: دار الشروق 2003م) ص 128.

ويعرف مصطفى مسلم التفسير الموضوعي بأنه "علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر"، ينظر: مسلم، مصطفى، مباحث في التفسير الموضوعي ط4 (بيروت: دار القلم 2005م) ص 16

³ بعد أمين الخولي من أبرز المؤسسين لهذا الاتجاه الأدبي في التفسير انظر: الخولي، أمين. دراسات إسلامية. (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1996م) ومن هدى القرآن. (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1996م). وقد تابعت عائشة عبد الرحمن وآخرين أعمال الخولي، ينظر: عائشة عبد الرحمن، القرآن وقضايا الإنسان. (القاهرة: دار المعارف، 1999م).

البلاغية كمدخل لتجديد مناهج تفسير القرآن الكريم.

وفي هذا السياق- ولكن قبله بعقود- كان الإمام عبد الحميد الفراهي¹ قد غاص في عمق واقع الدرس التفسيري بوعي، ورصد أعطابه المنهجية ببصيرة نافذة، ونظرة نقدية ثاقبة، تحلل أعراض الداء وتجتهد في اقتراح الدواء.

لقد اعتبر الفراهي أنّ واقع الدرس التفسيري المتردي يستدعي تصحيح المسار من خلال العودة إلى فهم القرآن الكريم كما كان يفهمه العرب الذين أنزل إليهم أول مرة، لا من أجل الوقوف عند فهمهم وإنما انطلاقاً منه إلى تنزيل الفهم الكلي للقرآن على واقع المخاطبين به اليوم.

وعلى الرغم من ثراء وطرافة مقارنة الإمام عبد الحميد الفراهي لنظام القرآن الكريم فإنها لم تحظ بعد بما تستحق من الدراسة والتحصيل والمتابعة، ولعل من الأسباب الرئيسية في ذلك أنّ الفراهي رَحِمَهُ اللهُ لم يكمل مشروعه في تجديد الدرس القرآني بنفسه، وأغلب ما وصل إلينا من تراثه إنما كان من جمع تلامذته، وقد شابه بعض

¹ عبد الحميد بن عبد الكريم الأنصاري الفراهي، ولد سنة 1863م في الهند. اشتغل بطلب العلم حفظ القرآن الكريم وبرع في اللغة العربية وآدابها، وتعلم اللغة الفارسية، والإنكليزية، والعبرية، وكان لإتقانه اللغة العبرية دور في اطلاعه على العهدين القديم والجديد وتاريخهما، واستفادته منهما في دراسته للقرآن الكريم.

عمل مديراً لمدرسة الإصلاح بالهند، واختير رئيساً لمؤسسة دار المصنفين في الهند، واشتغل أستاذاً للغة العربية، ثم انقطع في آخر حياته لتدبر القرآن الكريم، والتأليف في علومه، وقد اشتهر بمنهجه الفريد في التفسير ونظريته في نظام القرآن الكريم، توفي في الحادي عشر من نوفمبر سنة 1930م. وقد ترك الفراهي رَحِمَهُ اللهُ مصنفات عديدة في القرآن وعلومه وإن لم يكمل أكثرها، وقد اعتمدنا في هذه الدراسة أساساً على أربعة من كتبه، وهي: مفردات القرآن، ودلائل النظام، وأساليب القرآن، والتكميل في أصول التأويل، وبدرجة أقل على رسالته: جمهرة البلاغة وتفسيره: نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، الذي قدّم فيه الفراهي دراسة تطبيقية لمنهجه، وتوفي قبل أن يكمله.

ينظر للمزيد حول ترجمته ومصنفاته: الإمام عبد الحميد الفراهي، مفردات القرآن (تحقيق وشرح محمد أجمل أيوب الإصلاحي) ط2 (الدائرة الحميدية: الهند 2004م) ص 41-11.

مجلة الهند - - منهج الفراهي في الكشف عن نظام القرآن الكريم

القصور في التنظيم والترتيب، والفهم، ومن هذا المنطلق نحاول في هذه الدراسة أن نستدرك بعضاً من ذلك القصور من خلال جمع وعرض، أهم الأسس النظرية والمنهجية الكاشفة عن مقاربه لنظام القرآن الكريم، عسى أن يكون ذلك فاتحة لجمع شتات تراث الفراهي المفرق، واستثماره في الدرس القرآني المعاصر.

المبحث الأول: منهج نظام القرآن الكريم عند الفراهي

مفهومه ومسوغاته وأهميته ومصادره

نحاول في هذا المبحث التمهيدي أن نلقي بعض الضوء على مفهوم منهج نظام القرآن عند الفراهي، والإضافة التي يقدمها في ضوء مراجعته النقدية لمناهج التفسير القديمة والأسباب التي يؤسس عليها دعوته لتأسيس منهج جديد في مقارنة نظام القرآن الكريم، والمصادر التي يستند إليها، في النقاط التالية:

أولاً: مفهوم منهج نظام القرآن الكريم عند الفراهي:

أ. المنهج لغة واصطلاحاً: يقول ابن فارس عن دلالة المنهج في اللغة: "منهج: النون والهاء والجيم أصلان متباينان: الأول النهج الطريق، ونهج الأمر، أوضحه، وهو مستقيم المنهاج، والمنهج: الطريق أيضاً والجمع المناهج والآخر (الثاني)، الانقطاع، وأتانا فلان ينهج إذا أتى مبهوراً منقطع النفس".¹

ويعرف المنهج اصطلاحاً: بأنه: "فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين، أو من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين".²

¹ أبو الحسن ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون ط1 (بيروت: دار الجيل 1911) ج 5 ص 361

² بدوي عبد الرحمن، مناهج البحث العلمي (الكويت: وكالة المطبوعات 1977م) ص 3-4

كما يعرف أيضاً بأنه: "طريق البحث عن الحقيقة في أي علم من العلوم، أو في أي نطاق من نطاقات المعرفة الإنسانية".¹

ب. النظام لغة: النظم والنظام لغة: "التأليف ... ونظمت اللؤلؤ، أي جمعته في السلك ومنه نظم الشعر... وكل شيء قرنته بآخر، أو ضمنت بعضه إلى بعض، فقد نظمتة".² وجاء في كتاب العين: "النَّظْمُ نَظْمٌ خَزَا بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ فِي نِظَامٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى قِيلَ: لَيْسَ لِأَمْرِهِ نِظَامٌ، أَيْ لَا تَسْتَقِيمُ طَرِيقَتُهُ وَالنِّظَامُ: كُلُّ خَيْطٍ يُنْظَمُ بِهِ لَوْلُؤٌ أَوْ غَيْرُهُ فَهُوَ نِظَامٌ، وَالْجَمِيعُ نُظْمٌ... وَالْإِتِّظَامُ: الْإِتِّسَاقُ".³

ج. مفهوم نظام القرآن عند الفراهي: انتهى من تأملاته وأبحاثه في القرآن الكريم إلى أنَّ أزمة الأمة إنما تعود في جانب كبير منها إلى افتقارها إلى تجديد مناهج النظر في فهم القرآن الكريم، تجديداً ينقلها من دائرة تجزئة القرآن وتعصيته، ويسدّ دونها باب التأويلات المستندة إلى مصادر خارج السياق القرآني، يعتقد الفراهي أنها كانت السبب فيما وصل إليه المسلمون من شتات وتفرق حتى غدا القرآن مرتعاً لأصحاب المذاهب والتأويلات الفاسدة تلوي أعناق نصوصه لتقول ما يريد هذا المفسر أو ذلك.

وارتأى الفراهي أنَّ المخرج من هذه الأزمة إنما يتأتى إذا نحن فسرنا معاني آيات القرآن من خلال سياقاتها النصية، واستنبطنا نظام السورة من أعماقها وسياق العلاقة بين أجزائها، وبصفة مجملة فإنه لا مخرج لنا من الشقاق

¹ علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ط7 (القاهرة: دار المعارف 1977م) ج1 ص36

² ابن منظور أبو الفضل محمد بن مكرم الإفريقي، لسان العرب، (بيروت: دار صادر 1414هـ) مادة (نظم) ج3 ص79.

³ الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، مهدي الخزومي إبراهيم السامرائي (دار ومكتبة الهلال) ج8 ص166.

والتحزب في فهم القرآن الكريم، ما لم نفهم نظامه.

فما مفهوم نظام القرآن الكريم الذي يبني عليه الفراهي خطته في إصلاح الأمة وتسديد مناهج تأويلها لكتابها العزيز؟

يقصد الفراهي بمفهوم: "نظام القرآن" من الناحية الاصطلاحية: المعاني الحاصلة من إدراك الصورة التركيبية الكلية لآيات القرآن الكريم، وسوره، ومناسبات ترتيب أجزاء نصوصه المختلفة، ذلك أنّ "فهم الكلام متوقف على فهم صورته التركيبية الكلية، فإذا كان تركيب الكلمة بالكلمة يفيد معنى، فإنّ تركيب الجملة بالجملة يفيد معنى أشمل، و تركيب مجموعة من الجمل أو الوحدات النصية يتضمن تأليفاً آخر يفيد دلالة أعمق من دلالة أجزاء التأليف منفردة لأنّ "معاني الأجزاء لا يطلع على المراد منها إلا بعد الاطلاع على جهتها التأليفية".¹

ولأنّ "الكلام إنما هو بنظامه فإنه يحسن أو يبلغ أقصى البلاغة لا بمحض أجزائه، بل بنظمه وترتيبه على ما ينبغي، فمن أراد أن يطلع على حسن بيانه، وقوة استدلاله، وتأثيره في النفوس، ودلالته على مكنون الحكمة، لا بد أن يلتمس ذلك من معرفته بتركيب جمالاته، فإن ذلك حصل للكلام من مواقع معانيه وترتيبها".²

وقد خصّص الفراهي رسالته: دلائل النظام لهدفين رئيسيين: الأول: "ذكر ما يدل على وجود النظام في القرآن ويثبته" والثاني: "ما يهديك إلى معرفته وطريقه استنباطه، فهذان قسطان: الأول نظري والثاني عملي وكلاهما أصولي، يبحث فيه عن الأصول الكلية للنظام عموماً ولنظام القرآن الحكيم خصوصاً".³

¹ عبد الحميد الفراهي، دلائل النظام، ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن ط3 (الهند: الدائرة الحميدية 1991م) ص 28.

² الفراهي، دلائل النظام، ص 31

³ الفراهي، دلال النظام، ص 23.

مجلة الهند - - منهج الفراهي في الكشف عن نظام القرآن الكريم

ويتحدث الفراهي في رسالته: دلائل النظام عن أربعة مستويات من النظام في القرآن الكريم: المستوى الأول: نظام الآيات؛ ويعني أنّ: "الآية الواحدة تجمع أموراً وربما تتضمن جملاً ولا يسوغ لمسلم أن يظن بالآية الواحدة أنها غير منظمة، والتأمل اليسير يكشف عن نظامها، فهذا يصير مثلاً وأنموذجاً لأموّر تجمعها جملة آيات، ثم يصير مثلاً لما يذكر في جملات طويلة من السورة... فن أقرّ بوجود النظم في آية واحدة ولا بد، فلا بد أن يقرّ بما يماثله في آيات أو عدة سور".¹

المستوى الثاني: نظام السورة والمراد به: "أن تكون السورة كلاماً واحداً"، وأن تكون لكل سورة صورة مشخصة".²

أما المستوى الثالث: فنظام مجموعة من السور والمراد به: "أن تكون السورة كلاماً واحداً، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة أو بالتّي قبلها أو بعدها على بعد منها... فبما أنّ الآيات ربما تكون معترضة فكذلك ربما تكون السور معترضة".³ أما المستوى الرابع: فالنظام الكلي للقرآن الكريم: "بحيث يعلم أنّ القرآن كله، كما أنه مرتب الآيات فكذلك منظم السور فإن قدّمت وأخرت ذهب طرف من الحكمة كما لو بدّل ترتيب الآيات".⁴

وبناء "على هذا الأصل ترى القرآن كله كلاماً واحداً ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر".⁵

ثانياً: قصور النظر إلى نظام القرآن مسوغاً لتأسيس نظر جديد: يؤسّس الفراهي دعوته

¹ الفراهي، دلائل النظام، ص 40

² الفراهي، دلائل النظام، ص 87

³ الفراهي، دلائل النظام، ص 87.

⁴ الفراهي، دلائل النظام، ص 24.

⁵ الفراهي، دلائل النظام، ص 87.

إلى مقارنة جديدة لنظام القرآن الكريم، على ضرورة تدارك قصور الدراسات السابقة في معالجة مسألة نظم القرآن الكريم معالجة منهجية، ويرجع ذلك إلى سببين رئيسين: الأول داخلي يتعلق بقصور مناهج التفسير في الاعتناء بدراسة نظام القرآن الكريم، والثاني: خارجي يتعلق بأثر البلاغة اليونانية السليبي في هذه المسألة.

أ. قصور كتب التفسير وعلوم القرآن في دراسة نظام القرآن وأسبابه: يرى الفراهي -رَحْمَةُ اللَّهِ- أنَّ الصحابة رضوان الله عليهم ما سكتوا عن شرح نظام القرآن الكريم إلا لأنه كان واضحاً لهم "لأنَّ اللسان لسانهم والأسلوب أسلوبهم والأمور التي تكلم عنها القرآن أمورهم، فلا نشاركهم في ذلك"،¹ ولذلك "لما تشعب الناس من بعدهم فقدوا معرفة مواقع الآيات ومواردها إلى أن نشأت علوم التفسير فأصابها من ذلك ما أصابها".² ومن هنا يقدم الفراهي نقداً شاملاً لمناهج التفسير القديمة للقرآن الكريم، آخذاً عليها إغفالها لنظام القرآن الكريم وإسرافها في تعريضه، ومبالغتها في اختلاق أقوال كثيرة في التفسير لا تمتّ إلى سياق نظم القرآن الكريم بصلة. ولا يقتصر الفراهي في نقده لهذه المناهج على القول المجرد بل يعدد أسباب ومظاهر إغفال نظام القرآن الكريم في مناهج التفسير ويذكر منها:

1. التقصير في اعتبار السياق القرآني: تفسير القرآن بالقرآن

يرى الفراهي أنَّ من أهم أسباب التي حالت دون فهم نظام القرآن الكريم أنَّ المفسرين - أو معظمهم - قد قصروا في تفسير القرآن بالقرآن، فلم يطلبوا معاني الآيات القرآنية من سياقها الحافة، ولا من السياق العام لنظائرها في القرآن

¹ عبدالحمد الفراهي، فاتحة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان ط1 (الهند: الدائرة الحميدية 2008م) ص 22.

² الفراهي، فاتحة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 22.

الكريم، وقد ولد هذا الأمر نتيجتين خطيرتين: الأولى: أنهم يذكرون في تفسير الآيات من الأحاديث الضعيفة ومرويات أسباب النزول ما يهدم أصلها.¹ أما الثانية: فقد تمثلت في تكثير الأقوال التفسيرية والمبالغة في إيراد وجوه التأويل: فبعكس المفسرين من السلف الذين لم يجمعوا وجوهاً كثيرة وإنما ذهب كل واحد منهم إلى رأي واحد بالغ المتأخرون في كثرة وجوه التفسير فكانت حجاباً بينهم وبين فهم النظام.²

2. الجدل والتعصب المذهبي: يرى الفراهي أنّ الجدل والتعصب المذهبي قد أثر سلباً في توجيه نظم الآيات القرآنية لتأييد هذا الرأي المذهبي أو ذاك يقول الفراهي إن: "تحزب الأمة في فرق وشيع قد ألجأهم إلى التمسك بما يؤيدهم من الكتاب، فراق لهم تأويله الخاص سواء كان بظاهر القول أو بإحدى طرق حمل الكلام على بعض الاحتمالات".³

3. قصور الأدوات اللغوية الموظفة في فهم القرآن الكريم: يرجع الفراهي أحد أسباب القصور في فهم نظام القرآن الكريم إلى قصور الأدوات الموظفة في فهم لغة القرآن وأساليبه وطرائق نظمه مثل: كتب اللغة والبلاغة والمنطق والأصول. أما الكتب اللغوية فقد أدّت نشأتها التاريخية المتأخرة إلى التقصير في فهم نظام القرآن، ولذلك "فإنها كثيراً ما لا تأتي بحد تام، ولا تميز بين العربي القح والمولد، ولا تهديك إلى جرثومة المعنى فلا يدري ما الأصل؟، وما الفرع؟، وما

¹ الفراهي، فاتحة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان ط1 (الهند: الدائرة الحميدية 2008م) ص 28. وربما يجدر التنبيه هنا إلى أنّ الفراهي وإن كان لا يشك في أنّ الأحاديث الصحيحة لا يمكن أن تخالف القرآن فإنه لا يأتي به إلا كالتبع بعدما يفسّر الآيات بأمثالها، (ينظر: فاتحة تفسير نظام القرآن ص 24).

² الفراهي، دلائل النظام، ص 37

³ الفراهي، دلائل النظام، ص 37

الحقيقة وما المجاز؟ فن لم يمارس كلام العرب واقتصر على كتب اللغة ربما لم يهتد لفهم بعض معاني كتاب الله¹. "وأما باقي علوم اللسان كالنحو والمنطق والأصول والبيان والبلاغة والقافية فالكاتب المدونة فيها مع كثرة فوائدها أشدّ تقصيراً من كتب اللغة لفهم القرآن"².

4. قصور المعالجة النظرية في مؤلفات نظم القرآن ومناسباته: لا يقتصر نقد الفراهي لقصور معالجة نظم القرآن الكريم على كتب التفسير، وإنما يشمل مداخل علوم القرآن النظرية التي خصصت تحديداً لمسألة النظم والمناسبة في القرآن الكريم مثل: مؤلفات إعجاز القرآن، وكتب علم المناسبة.

أما مؤلفات إعجاز القرآن الكريم فقد حال تركيزها على مسألة إظهار مكامن الإعجاز في القرآن دون استكشاف طرائق نظمه المتعددة³، ويتجلى ذلك في اقتصرها على إبراز: "جودة السبك ورشاقة اللفظ والبديع"⁴، وغير ذلك من الظواهر الأسلوبية الشكلية، وقد نشأ بسبب ذلك أنّ أصحاب هذه المقاربات لم يفهموا من تبدل أساليب القرآن سوى الدلالة على إحكام نظمه، دون أن يتقدموا خطوة ليدركوا المعاني المحاجية الثاوية خلف هذه الأساليب، وقد فاتهم أن: "الغرض من اختلاف الأسلوب ليس إلا زيادة فائدة غير ما كان، لأجل ما ينبغي في الكلام من الحسن والصيانة عن التكرار، فإنّ الشيء الواحد إذا تراءى لك مراراً بأطوار

¹ الفراهي، فاتحة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان ط1 (الهند: الدائرة الحميدية 2008م) ص32

² الفراهي، فاتحة تفسير نظام القرآن ص 33. وقد فصل الفراهي في مآخذه على علوم اللسان وأسباب تقصيرها في فهم لغة القرآن الكريم في فاتحة تفسيره: نظام القرآن ص 32-35.

³ ويرى الفراهي أنّ "الإعجاز ليس من أغراض الكلام، إنما هو من لوازمه. ألا ترى في كل ما خلق الله تعالى من حبة خردل، بل من ذرة إلى السماوات العلى كلها معجزة، وليس أمر في خلقها لغرض الإعجاز بل لحكمة الله في خلقه. نعم عجز غيره عن الإتيان بمثلها دليل على كونها من الله تعالى" (ينظر: دلائل النظام ص 64).

⁴ الفراهي، دلال النظام، ص 31.

كثيرة، لا بد أن تفهمه تمامًا. فإن فائتك منه لحظة ستأخذ بك منه أخرى".¹
أما الذين آلفوا في علم المناسبة فقد "جعلوا التناسب علمًا شريفًا، ولكن لم يجعلوه علمًا عظيمًا من علوم القرآن ولذلك بقي متروكًا لإشكاله"،² ومن جهة ثانية فإنهم قد اقتصروا- كما يقول الفراهي- على الكشف عن المناسبة الموضوعية بين الآيات المتجاورة، والعلاقة بين السورة والسور السابقة واللاحقة لها، ولم يصلوا إلى الكشف عن المناسبة التي تنتظم الكلام من أوله إلى آخره حتى يصير جملة واحدة، والواقع أن "التناسب بين الآيات بعضها ببعض لا يكشف عن كون الكلام شيئًا واحدًا مستقلًا بنفسه، وطالب التناسب ربما يقنع بأي مناسبة، وربما يغفل عن المناسبة التي تنتظم الكلام فيصير شيئًا واحدًا، وربما يطلب المناسبة بين الآيات المتجاورة مع عدم اتصاليهما؛ فإن الآية التالية ربما تكون متصلة بالتي قبلها على بعد منها؛ فمن طلب مناسبتها بما يليها فكيف يهتدي إلى نظامها؟"³

5. دقة نظام القرآن وصعوبة فهمه: يضيف الفراهي إلى أسباب القصور السابقة أن صعوبة فهم نظام القرآن الكريم ودقة مسلكه، جعلت بعض العلماء يعدونه من الأسرار واللطائف ومن ملح العلم؛ والسبب في ذلك من وجهة نظر الفراهي أمران: الأول: أنه لما ظهرت لهم صعوبة إدراك النظام والترتيب في بعض الآيات مالوا إلى تنزيه كلام الله فنفوا مراعاة النظام في القرآن الكريم كله! وقالوا إنه جاء على أسلوب العرب في الإيجاز، دون أن يبحثوا عن النظام الذي يجعل ما ظاهره التشتت من القرآن وأساليب العرب واضح النظام.⁴

¹ الفراهي، فاتحة نظام القرآن ص 41.

² الفراهي، دلائل النظام، ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن ط3 (الهند: الدائرة الحميدية

1991م) ص 87

³ الفراهي، دلائل النظام، ص 86

⁴ الفراهي، دلائل النظام، ص 32

وأما السبب الثاني: فلاعتقاد بعضهم بأن: "علم النظم مع إشكاله وصعوبته وكونه من مزلات الأقدام ليس من مهمات الدين فلا بد أن يعتنى بما هو أهم وأنفع"،¹ وأن في تتبعه والاعتناء به تكلفاً بادياً ينزه عنه كلام الله.²

وقد رد الفراهي على ذلك بأنّ القول بأنّ الأصل في كلام العرب الإيجاز خاطئ، ومرد ذلك إلى أنّ العرب لم يتكلموا الشعر الذي يكثر فيه الاقتضاب فحسب، وإنما كانت لهم الخطب والحكم الطوال التي لا اقتضاب فيها، وأما التكلف فإنّ سببه أنّ الذين تكلموا في نظم القرآن لم يسلكوا الطريق الصحيح ولا يبرر صنيعهم نفي النظام عن القرآن، ويخلص من ثم إلى أنّ المنكر للنظام في القرآن الكريم: إما مقلد عاجز، وإما جاهل بمكانة النظام.³

ب. تأثير البلاغة اليونانية: بالإضافة إلى العوامل الداخلية فقد توقّف الفراهي عند عامل خارجي كان له أثر بالغ في التأثير السلبي على فهم نظام القرآن الكريم وإحكامه، وكان عاملاً رئيسياً في تعضية وتمزيق وحدته النظمية، إنها البلاغة اليونانية.

يقول الفراهي وهو يسرد الأخطاء التي دخلت على التفسير بعد عهد الصحابة والتابعين: "ثم تلاهم آخرون قد نفث اليونان في قلوبهم رقاها فسحرتهم زخارف

¹ الفراهي، دلائل النظام، ص 39

² الفراهي، دلائل النظام، ص 35.

والفراهي هنا يشير إلى ما ذهب إليه بغض العلماء القدامى مثل: عزّ الدين ابن عبدالسلام والشوكاني من القول بأنّ في البحث عن مناسبة آيات القرآن الكريم وسوره تكلف، يقول عزّ الدين ابن عبدالسلام: "المناسبة علم حسن، لكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا يربط ركيك، يصاب عن مثله حسن الحديث فضلاً عن أحسنه، فإنّ القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض". ينظر السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، مصدر سابق ص 471. ونجد الرأي نفسه عند الشوكاني: في تفسيره: فتح القدير ط 1 (دمشق: دار ابن كثير 1414هـ) ج 1 ص 87.

³ الفراهي، دلائل النظام، ص 34

أقوالها سحرًا، وراقهم ما يتعمق به الفلاسفة سفهاً وما يتشدد به المناطقة هذراً، فاختلفت بهم الآراء وعميت عليهم الأنباء، ففسّروا القرآن بالرأي فسراً، ورفع كل ذي رأي رأيه، وأخذ كل فريق آية وشجر الأمر بينهم شجراً¹.

ومن هنا ينتقد الفراهي العلماء الذين آلفوا في بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، لأنهم أغفلوا دراسة أساليب تركيب كلام العرب وانشغلوا بتطبيق قواعد البلاغة اليونانية على القرآن الكريم: "ولو أنهم استقصوا كلام العرب واقتفوا آثار المحاسن فيه وقيدوها بالحدود ونظموها في ترتيب حتى يصير لهم ميزان ومحك لمعرفة محاسن الكلام ثم نظروا في براعة القرآن ونظمه المعجز لكانوا أقرب إلى معرفته ولكنهم لم يأخذوا من العرب ولا من كلامهم فإنهم أثرت فيهم علوم العجم"². وانطلاقاً من إيمان الفراهي بأنّ السبب الرئيسي للخطأ في فهم القرآن الكريم إنما يعود أساساً إلى الخطأ في فهم اللسان العربي عمومًا، واستبداله بقواعد البلاغة اليونانية، فقد عمد في رسالته "جمهرة البلاغة" إلى محاولة تأسيس نظرية جديدة وفنّ مستقل في البلاغة العربية يتجاوز قصور علوم البلاغة الثلاثة في اقتصارها على حدود الجملة، والبيت الشعري الواحد إلى مستوى البنية الكلية للنص، أطلق عليه مصطلح: "النظام"³.

ثالثاً: أهمية التأسيس لمنهج جديد في دراسة نظام القرآن: بعد تحديد العوامل الأساسية التي أدّت إلى الإخفاق في تقديم منهج علمي متماسك في دراسة نظام القرآن الكريم إنّ على مستوى التنظير في علوم القرآن أو على مستوى التطبيق في كتب التفسير، أنّ يقترح الفراهي منهجاً جديداً يعتقد أنه مؤهل لدراسة نظم القرآن دراسة منهجية توحّد فهم المسلمين للقرآن الكريم، وترد دعاوى الطاعنين فيه من جهة النظم.

¹ الفراهي، نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان اعتنى به عبيد الله الفراهي ط 1 (تونس: دار الغرب 2012م) ص 11.

² الفراهي، جمهرة البلاغة، ط 1 (الهند: الدائرة الحميدية أعظم كره 1968م) ص 4.

³ عبد الحميد الفراهي، جمهرة البلاغة، ص، ودلائل النظام، ص 23-24.

وقد أسس الفراهي الحاجة لهذا المنهج على أسباب ثلاثة:

1. فهم القرآن الكريم: يشدد الفراهي على أنّ النظر في نظم القرآن الكريم سبيل إلى فهم الحكمة التي تنتظم العلاقة بين الشرائع، والعقائد، التي تنبني عليها الديانة كلها، وما هو أصل وأساس منها، وما ليس كذلك، وأنّ من تدبر نظم القرآن الكريم هدي إلى حكمة الدين وفهم نظام أموره،¹ ويضيف في تأكيد خطورة فهم نظام القرآن الكريم وأهميته البالغة: "فهم القرآن الكريم لا يمكن بدون معرفة النظام، وإنه هو السبيل الوحيد إلى فهمه".²
2. سد باب الخلاف في فهم القرآن الكريم: بالإضافة إلى ذلك يؤكد الفراهي على الدور البالغ لفهم نظام القرآن الكريم في الحد من التأويلات المذهبية التي تقطع آيات القرآن الكريم من سياقها النصي، وما جنته على الأمة من ويلات التحزب والانشقاق؛ إذ يرى أنّ التردد بين الوجوه الكثيرة في التأويل، وعدم التوصل إلى التأويل الصحيح الذي يسد باب الاحتمالات إنما نشأ من قلة العناية بنظام الآيات؛ فإنه الموصل إلى صحيح التأويل والمعتمد في دفع الحيرة والشكوك.³
3. الانتصار لنظم القرآن الكريم: من الأسباب التي يؤسس عليها الفراهي اشتغاله المنهجي بدراسة نظم القرآن الكريم كذلك: أنّ "من أجل ما تمسك به الطاعنون في القرآن أنه أسوء الكلام ترتيباً".⁴

¹ عبد الحمد الفراهي، دلائل النظام، ص 46.

² عبد الحمد الفراهي، دلائل النظام، ص 22.

³ الفراهي، دلائل النظام، حاشية ص 87.

⁴ الفراهي، فاتحة نظام القرآن ص 40.

والفراهي هنا يشير إلى ما دأب عليه كثير من المستشرقين من وصف القرآن الكريم بفقدان الوحدة النصية والانسجام؛ فقد ذهب على سبيل المثال تيودر نولدكه - شيخ المستشرقين، ورائد مدرسة الاتجاه الغربي في تطبيق منهج النقدي التاريخي على القرآن - إلى وصف القرآن بأنه مفكك البنية، ينتقل من موضوع، إلى موضوع آخر لا علاقة له به، وقد يعود إلى الموضوع الأول، وقد لا يعود، وقال إنه "غير متناسب الأجزاء" ينظر: تيودر نولدكه، تاريخ القرآن تعديل فريدريش شفالي، ترجمة جورج تامر (بيروت: مؤسسة كوزناد أدنارو 2004م) ص 443-444. ولا يختلف موقف كثير من المستشرقين عن هذا الموقف.

ومن هنا فإنّ فهم نظام القرآن الكريم من شأنه "تبرئة كلام الله من التفكك وعيوب النظم"¹، وإقامة الحجة على الطاعنين فيه من المستشرقين وغيرهم.

رابعاً: مصادر استمداد منهج نظام القرآن: لا يعتمد الفراهي في محاولته لاستكشاف نظام القرآن الكريم على كتب اللغة والبلاغة وحدها لقصورها، وتأثرها بالبلاغة اليونانية، وإنما يؤسس منهجه في دراسة نظام القرآن على عملية استقراء جديدة لمصادر ثلاثة هي: القرآن الكريم، وكلام العرب القديم بشعره ونثره، والاستشهاد بالكتب المنزلة التي تشترك مع لغة القرآن الكريم في الجذر السامي، كما نين على النحو التالي.

1. استقراء نظام القرآن من القرآن: المصدر الأول في فهم نظام القرآن الكريم هو القرآن نفسه، والدليل على أهمية استقراء نظام القرآن من القرآن نفسه أمران:

الأول: أنّ القرآن الكريم: "إنما نزل على لسان العرب... ولكن لم يصل إلينا من كلام العرب غير أشعارهم إلا نر يسير فالباحث عن خصائص لسان العرب يتخذ القرآن دليلاً" لأنّ القرآن الكريم قد نال من الرعاية والحفظ ما يؤهله لأن يكون: "أوثق ما يستند به على أساليب كلام العرب فإنه متواتر نقلاً ولا يساويه شيء من كلامهم حتى القصائد المشهورة فإنها قلما نجت من شوب الانتحال".²

الثاني: أنّ "كل متكلم له منهج خاص. وتأويل قول بعضه إلى بعض أقرب للصواب" وعلى هذا الأساس: "أجمع أهل التأويل من السلف إلى الخلف أنّ القرآن يفسر بعضه بعضاً، وأنه أوثق تعويلاً وأحسن تأويلاً".³

2. استقراء كلام العرب القديم: يذهب الفراهي إلى أنّ من أسباب أخطاء

¹ الفراهي، فاتحة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 18.

² الفراهي، أساليب القرآن ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن ط 3 (الهند: الدائرة الحميدية 1991م) ص 156.

³ الفراهي، دلائل النظام، ص 83.

المفسرين وتقصيرهم في فهم نظام القرآن الكريم اعتمادهم المفرط على كتب اللغة وحدها رغم كونها: "كثيراً ما لا تأتي بحد تام ولا تميز بين العربي القح والمولد، ولا تهديك إلى جرثومة المعنى ... فن لم يمارس كلام العرب واقتصر على كتب اللغة ربما لم يهتد لفهم بعض معاني كتاب الله".¹

ومن هذه الملاحظة يعدّ الفراهي ممارسة كلام العرب القديم واستقراء ما وصل إلينا من خطبهم وأشعارهم- رغم ما شابه من انتحال- مصدراً لا غنى عنه في استكشاف معاني مفردات القرآن، وفهم أساليبه، وطرائق نظامه.²

3. مقارنة نظام القرآن بنظام الكتب المنزلة: بالإضافة إلى استقراء نظام القرآن الكريم من القرآن نفسه، ومن كلام العرب القديم؛ يوظف الفراهي شهادة لغة الكتب السابقة في تعزيز فهم معاني مفردات القرآن وتراكيبه، وطرائق نظامه؛ وذلك لسببين: الأول: أنّ العبرية وهي لغة جل الكتب السابقة تشترك مع اللغة العربية في الجذر السامي فهما صنوان، والثاني: أنّ القرآن الكريم يشترك مع الكتب السابقة في بعض المضامين والمقاصد العامة يقول الفراهي: "وأما الكتب السابقة: فجّلّها في العبرانية وهي صنو لغة العرب، فهي أشبه بها ثم بين الكتب السابقة والقرآن مشاركة في المضمون".³

المبحث الثاني: الأسس المنهجية في الكشف عن نظام القرآن عند الفراهي

تناولنا في المبحث التمهيدي السابق مفهوم نظام القرآن الكريم عند الفراهي، ومسوغاته، ومصادر استمداده، وفي هذا المبحث الذي هو لب الدراسة نحاول أن نقدم الأسس المنهجية التي بنى عليها الفراهي مقارنته لنظام القرآن الكريم.

¹ الفراهي، ديباجة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 32

² الفراهي، أساليب القرآن، ص 156.

³ عبد الحميد الفراهي، أساليب القرآن ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن ط3 (الهند: الدائرة الحميدية 1991م) هامش ص 149.

مجلة الهند - - منهج الفراهي في الكشف عن نظام القرآن الكريم

وستقسم عرضنا لهذه المنهجية إلى ثلاثة محاور أو أركان يقوم عليها مدار مقارنة الفراهي لنظام القرآن. في الركن الأول: نتناول: البنية العمودية للسورة، وفي الركن الثاني: نتناول نظام السور، ونخصص الركن الثالث: لعرض المحددات المنهجية في دراسة النظم العمومي للقرآن الكريم.

وسنعرض لتفصيل هذه الأركان بالقدر الذي تسمح به مساحة البحث في المحاور التالية:

الركن الأول: البنية العمودية للسورة وطرق الكشف عنها: تقوم مقارنة الفراهي لنظم السورة في القرآن الكريم على فرضية مفادها أنّ لكل سورة من سور القرآن الكريم بنية عمودية تنتظم آياتها في سلكها، ولا يمكن لمن لم يكتشفها أن يفهم السورة حق الفهم ولا أن يحدد من بين المعاني التي سبقت لها أرجحها.

فما المقصود بالبنية العمودية للسورة عند الفراهي؟ ما أهميتها؟ وما هي طرق الكشف عنها؟ هذا من نحاول أن نستكشفه مع الفراهي في النقاط التالية:

أولاً: مفهوم البنية العمودية وأهميتها

أ- مفهوم البنية العمودية للسورة

1- تعريف العمود لغة: العمود في اللغة: كل ما يرفع به البيت والبناء، قال الأفوه الأودي: والبيت لا يبتنى إلا له عمد ولا عماد إذا لم ترس أركان¹ وعمود الصبح ما يتبلج من ضوئه، قال حاتم الطائي:

أبى طول ليلى إلا سهوداً فما إن تين لصبح عمود²

¹ عامر مقبل التام الأحمدي، شعراء مدح، أخبارهم وأشعارهم في الجاهلية، (صنعاء: مجمع العربية السعيدة 2014م) ص 372.

² يحيى بن مدرك الطائي ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره، تحقيق: عادل سليمان بن حماد المدني، القاهرة 1980م ص 206.

يتضح من خلال هذه التعاريف اللغوية، أنّ العمود يطلق إطلاقين: حقيقي يتضمن معنى الأساس الذي يقوم عليه الشيء، ومجازي مثل عمود الصبح الذي يتبلج شيئاً فشيئاً؛ ومن الجلي أنّ الفراهي كان يقصد هذين المعنيين؛ فعمود السورة عنده هو أساس نظامها الذي متى سقط يسقط معه فهم معناها، أو جزء منه، وعمود السورة في الخفاء كعمود الصبح يتبلج شيئاً فشيئاً، حتى إذا أشرقت شمس أضاءت حكمة السورة.

2- البنية العمودية للسورة في اصطلاح الفراهي: تعني البنية العمودية أو (النظام العمودي) للسورة في اصطلاح الفراهي أنه: مهما تعددت موضوعات السورة، واختلفت مقاصدها وتنوّعت أجزاؤها، فهي منظومة في سلك أو عمود واحد هو غايتها وغرضها الأساس، وأنّ من لم يظفر بالإمساك به فلا يمكن أن يفهم بنية السورة الكلية، ولا علاقة أجزائها وارتباط بعضها ببعض يقول الفراهي: "الكلام الصحيح النظام لا بد له من عمود يجري إليه الكلام فلا بد لطالب النظام أن يتأمل في مساق الكلام، فإنك ترى في السورة الواحدة مطالب شتى، ولا تعلم ما هو العمود الذي سيق إليه المعاني ولن تهتدي إلى معرفة اتصال الكلام بعضه ببعض دون معرفتك بمساق الكلام ووجهته التي تسلك إليها أجزاؤه حتى تراها منظومة في سلك واحد، وبالجملّة فالنظام هو الذي يعطي السورة وحدانيّتها التي بها صارت سورة كاملة مستقلة بنفسها ذات عمود تجري إليه أجزاؤها".¹

والعمود والنظام عند الفراهي شيان مختلفان: النظام مبنى السورة الذي تقوم عليه أجزاؤها الترتيبية، والعمود معناها الذي يسري في نظامها "كالروح والسر،

¹ عبد الحميد الفراهي، دلائل النظام ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن ط3 (الهند: الدائرة الحميدية 1991م) ص88.

والكلام شرحه وتفصيله وإنتاجه وتعليقه".

والمقصد من هذا أنّ النظام مرتبط بالعلاقات اللغوية بين أجزاء البنية المادية للسورة كحسن الترتيب والتناسب وقوة التماسك، أما العمود فمرتبط بالعلاقات الموضوعية والمقصدية للسورة وهو "الشيء الجامع الذي به رباط السورة بأسرها"¹ وبينها فرق آخر هو: أن وجوه النظام الصحيحة قد تكون متعددة يرحح السياق أصحها، أما عمود السورة فلا يكون إلا واحداً.²

3- أهمية معرفة عمود السورة: لمعرفة عمود السورة أهمية بالغة تتجلى في أمور منها:

أولاً: العمود مفتاح فهم نظام السورة: يذهب الفراهي إلى أنه من غير الممكن فهم نظام السورة والعلاقات النصية والموضوعية بين أجزائها المختلفة دون تحديد عمودها ذلك أنّ "تعيين عمود السورة إقليد لمعركة نظامها".³

وتجلى مركزية معرفة العمود في الكشف عن البنية النظامية للسورة في أمرين أساسيين: أولهما: أنّ العمود يرسم السورة صورة مشخصة، يقول الفراهي "اعلم أنّ مرادنا من النظام أن تكون لكل سورة صورة مشخصة، فإنّ معالي الكلام إذا ارتبط بعضها ببعض وجرت إلى عمود واحد، كان الكلام ذا وحدانية، فحينئذ لا يكون إلا وله صورة مشخصة، فإذا نظرت إلى الكلام من هذه الجهة رأيت ما فيه من الجمال والإتقان والوضاحة".⁴

ثانيهما: أنّ العمود يبين الدلالة الخاصة التي تربط بين أجزاء السورة ذلك أنّ

¹ الفراهي، دلائل النظام ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن ط3 (الهند: الدائرة الحميدية 1991م) ص85 و89

² الفراهي، دلائل النظام، ص91.

³ الفراهي، دلائل النظام، ص89

⁴ الفراهي، دلائل النظام، ص88

"لكل تأليف دلالة خاصة إلى حكمة خاصة فإذا وجدت الواحد على أشكال دعاك إلى التدبر في أوضاعها وسألت نفسك هل الترتيب خلاف ذاك والمعنى واحد؟ فهديت إلى دلالة خاصة فلها كان للترتيب دلالة على معنى خاص يههما البحث عن أنحائه ودلالته".¹

ثانياً: معرفة العمود تعصم من الزيغ في تأويل معاني السورة: الأهمية الكبرى لمعرفة عمود السورة تتمثل في كونه يجلي حكمة السورة، ويعصم من الزيغ في تأويلها "فإذا نظرت في نظم الآيات ومطالبها والصور وعمدها هديت إلى نظم الشرائع والأحكام".²

يظهر من هذا أنّ لمعرفة عمود السورة وظيفتين: أدبية تتجلى في إثبات إحكام نظم القرآن الكريم؛ وموضوعية حجاجية: تتمثل في فهم المقاصد الكبرى للسورة.

4- أسباب صعوبة الكشف عن البنية العمودية للسورة: يقول الفراهي: "عمود الكلام لا يظهر من الأول، ولكن إذا اقتفيت الكلام جاء بك بالسهولة إلى ما عمد إليه وكشف لك القناع".³

ولذلك يعدّ الفراهي استخراج عمود السورة، من أصعب المعارف إذ يتطلب الإمساك به "شدة التأمل والتمحيص، وترداد النظر في مطالب السورة المتماثلة والمتجاورة، حتى يلوح العمود كفلق الصبح، فتضيء به السورة كلّها، ويتبين نظامها، وتأخذ كل آية محلها الخاص، ويتعين من التأويلات المحتملة أرجحها".⁴

¹ الفراهي، دلائل النظام ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن ط3 (المند: الدائرة الحميدية 1991م) ص65

² الفراهي، دلائل النظام ص36

³ الفراهي، أساليب القرآن، ص201.

⁴ الفراهي، دلائل النظام، ص89

وقد أرجع الفراهي صعوبة الكشف عن عمود السورة إلى أسباب ثلاثة: الأول يتعلق بالعمود نفسه إذ "ربما يحسن إخفاؤه فلا يطلع عليه إلا بعد استيفاء الكلام والتدبر فيه"،¹ والثاني: يتعلق بالقرآن الكريم ذلك أنه "إنما نزل متشابهاً مثاني فترى سوراً متشابهة المطالب، مع اختلاف عمدتها، ومتحدة العمد مع اختلاف مطالبها".²

أما السبب الثالث: فيرجع إلى قصور المفسرين في العناية بالكشف عن عمود السورة إذ "كان همهم استنباط الأحكام للمسائل المستجدة من الآيات فلم يهتموا باحتواء الآيات على موضوع يقتضيه مساق الكلام".³

ثانياً: خطوات الكشف عن البنية العمودية للسورة: يعلّق الفراهي أهمية بالغة على الكشف عن عمود السورة في فهم بنيتها؛ ويعدّ هذه الخطوة من أعقد الخطوات التي تواجه دراس النظم القرآني وأهمها؛ ولذلك يحدّد الفراهي مرحلتين أساسيتين في الكشف عن عمود السورة: الأولى التدرج في دراسة النظام اللغوي للسورة، والثانية: دراسة بنية السورة الموضوعية والمقصدية، ولنبسّط القول في هاتين الخطوتين شيئاً فشيئاً:

أ- التدرج في دراسة بنية السورة اللغوية: يعتمد منهج الفراهي في الكشف عن البنية العمودية للسورة على التدرج في دراسة نظام السورة من مستوى المفردات، إلى مستوى التراكيب، وصولاً إلى نظام السورة وعلاقة أجزائها فيما بينها، على النحو الآتي.

1. دراسة المفردات : خصّص الفراهي كتابه: مفردات القرآن، لهذا الغرض وذكر فيه أنه: "لا يخفى أنّ المعرفة بالألفاظ المفردة هي الخطوة الأولى، في فهم

¹ الفراهي، دلائل النظام، ص 201.

² الفراهي، دلائل النظام، ص 68.

³ الفراهي، دلائل النظام، ص 78.

الكلام وبعض الجهل بالجزء يفضي إلى الجهل بالمجموع... فمن لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن أغلق عليه باب التدبر وأشكل عليه فهم الجملة، وخفي عليه نظم الآيات والسورة".¹

ومن الجدير بالذكر هنا أنّ دراسة الفراهي لمفردات القرآن الكريم، تختلف عن دراسة المفسرين السابقين عليه، فهو ينطلق في تحديد معاني مفردات القرآن، من استقراء القرآن نفسه وكلام العرب القديم، ثم اللغات التي تشترك مع اللغة العربية في الجذر السامي كالعبرية، ولذلك فإن دراسة المفردة القرآنية عنده تنبني على خطوات: أولها: دراسة السياق النصي القريب الذي ترد فيه المفردة ذلك أنّ "الكلمة الواحدة ربما تكون مشتركة بين المعاني المتعددة ولكن إذا وضعت في كلام منع موقعها وقرائنها من كثرة الاحتمالات وتعين منها ما وافق معنى الجملة والتأم به"² ثانيها: الدراسة المقارنة للمفردة بحيث تستوعب جميع السياقات التي وردت فيها المفردة في القرآن الكريم بالإيجاز وتلك التي وردت فيها بالتفصيل ويقارن بينها.³ ثالثها: مقارنة معنى المفردة باللغات التي تشترك مع اللغة العربية في الجذر السامي كالعبرية لأنها صنو اللغة العربية. رابعها: تقديم معنى المفردة المأخوذ من سياقات ووردها في المصادر الأولى (القرآن وكلام العرب القديم) على المعنى المأخوذ من كتب اللغة المتأخرة النشأة.⁴

¹ عبد الحميد الفراهي، مفردات القرآن، تحقيق محمد أجمل أيوب ط1 (بيروت: دار الغرب الإسلامي 2002م) ص 95.

² الفراهي، مفردات القرآن، ص 38.

³ الفراهي، مفردات القرآن، ص 96-114، ومن الأمثلة الكاشفة عن أهمية تفعيل هذه المحددات في دراسة المفردة القرآنية ما توصل إليه الفراهي من أنّ معنى مفردة الآلاء في القرآن: الفعال العجيبة كما في قوله تعالى: فبأي آلاء ربكما تكذبان، واستدلّ الفراهي على ترجيح هذا المعنى باستقراء القرآن وكلام العرب، واستبعد ما ذهب إليه المفسرون من تفسير الآلاء بالنعم. ينظر: مفردات القرآن، ص 25-33.

⁴ الفراهي، فاتحة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 18.

مجلة الهند - . - منهج الفراهي في الكشف عن نظام القرآن الكريم

2. دراسة الأجزاء التفصيلية: يقصد الفراهي بالأجزاء التفصيلية لنظام السورة تلك العلاقات التي تكون بين الجملة والجملة البسيطة، ذلك "أن الكلام الواحد إما جملة واحدة أو عدة جمل فيها موضوع واحد، والجملة تكون متصلة إما بموضوع الجملة السابقة، أو بجزء خاص من السابقة أو بموضوع يشملهما، وأما الجملة التابعة فتكون متصلة بالتي قبلها أو بالتي قبل تلك".¹

وبيّن الفراهي عدداً من أنواع العلاقة التي تربط بين الجمل البسيطة فيذكر منها: التعليل: إما لإثبات أو لدفع شبهة التفريع ببيان الفروع التأصيل ببيان الأصول والشرائع الاستدلال البرهاني التفصيل لمجمل والتمثيل إما للتوضيح أو للتدليل، ومنه القصص، وضرب الأمثال، وإيراد المتشابه، وإيراد المقابل والضد.²

3. دراسة أساليب القرآن: بعد مستوى دراسة المفردات والجمل يصل الفراهي إلى مرتبة دراسة أساليب القرآن أو "خصائص لسان القرآن".³

وإذا كان مآل دراسة المستويين السابقين يقتصر على فهم معاني مفردات الآية أو الآيات، وعلاقة جملها فيما بينها، فإن مقصود دراسة أساليب القرآن وخصائصه التركيبية هو: "الإحاطة حتى الوسع بدلالات الصور، والأساليب،

¹ الفراهي، دلائل النظام ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن ط3 (الهند: الدائرة الحميدية 1991م) هامش ص 62.

² عبد الحميد الفراهي، دلائل النظام ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، مصدر سابق، ص 84

³ يستخدم الفراهي مصطلحات متعددة للتعبير عن نظريته في نظام القرآن فمرة يسميها النظام، ومرة خصائص لسان القرآن، غير أنه وإن كان يعتقد أن مأخذ هذه النظرية إنما ينبغي أن يكون من خلال القرآن أساساً فإنه يرى أنها تصلح لكلام العرب عموماً إذ لا يختلف عنه القرآن ولا يتميز إلا من جهة كون مضامينه وحياً من الله، يقول الفراهي عن فن خصائص القرآن: "هذا الفن صنو اللغة العربية والفرق أن اللغة علم مادي خاص، وهذا علم صوري عام وموقعه بعد النحو فإنه تمام له"، الفراهي، أساليب القرآن، ص 154.

ومواقع استعمالها، فإن محض العلم بأسلوب خاص من دون تخصيص مواقعه، يفتح باباً عظيماً لسوء التأويل".¹

ويضيف الفراهي في ملاحظة قيمة لأهمية توسيع استثمار مفهوم اللسان العربي أن: "اللسان ليس الألفاظ المحض، بل هو يشمل أساليب كلامهم، وفهم إشاراتهم".²

وظاهر من هذا النص أنّ الفراهي - وإن لم يصرح بذلك - ينتقد قصور المفسرين في قصرهم توظيف معنى نزول القرآن الكريم باللسان العربي على الدراسة الجزئية لمفردات اللسان العربي وألفاظه، دون أن يتجاوزوا ذلك إلى توظيف هذا المفهوم في فهم أساليب القرآن وطرائق نظمه العامة.

ويورد الفراهي نماذج متعددة من الأساليب اللغوية والعقلية، التي تسهم في فهم بنية القرآن الكريم وتبدد بعض الاستشكالات التي قد تطرح إزاءها، ويقسمها إلى أساليب لغوية عقلية وأساليب نفسية.

أما الأساليب اللغوية فنّها: أسلوب "التكرار" و"الحذف" و"الاعتراض" و"الخطاب والالتفات" و"التفصيل بعد الإجمال" و"الاقتصار على بعض الشيء" واستعمال أسلوب عوض أسلوب "والتلخيص"³ ووجوه "القران والوصل" التي يعدها "أساس النظم وعليها تدور رحي الكلام فن لم يعرفها رأى نظم الكلام محتلاً ولم يفهم المراد وخفي عليه حسن النظام وبلاغته"،⁴ إضافة إلى: "حسن الاستدلال"، و"رباط المعاني"، و"ضرب الأمثال"، و"الاعتبار من

¹ الفراهي، أساليب القرآن ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن ط 3 (الهند: الدائرة الحميدية 1991م) ص 155

² الفراهي، أساليب القرآن، ص 149.

³ الفراهي، أساليب القرآن، ص 159-196.

⁴ الفراهي، أساليب القرآن، ص 149.

القصص"، و"جر الكلام ثم العود إلى عموده"¹.
وأما الأساليب النفسية فنمّا: "الوعد"، و"الزجر"، و"التأكيد بشدة يقين المتكلم"،
و"الإعراض": إعراض الترفع، و"الحسرة": حسرة المعلم الناصح.²
والملاحظ الأساسي الذي يجدر التنبيه عليه هنا أنّ الفراهي لا يدرس هذه
الأساليب باعتبارها أساليب بلاغية أو محسنات بديعية، وإنما يدرسها من جهة
وظيفتها المحاجية وعلاقتها بفهم البنية النظامية التركيبية للسورة، ولما يجره عدم
فهمها من سوء التأويل.

4. دراسة الأجزاء الإجمالية: الأجزاء الإجمالية عند الفراهي قريبة من مفهوم "نحو
النص" في اللسانيات الحديثة إذ هي المستوى الذي يتجاوز العلاقة بين المفردات
والجمل إلى العلاقات التي تحكم بيئة النص يقول الفراهي: "الجملة كما أنّ لها أجزاء
تركيبية من جهة النحو كالمبتدأ والخبر والفعل والفاعل... فكذلك للكلام وهو
مجموع الجمل أجزاء تركيبية فالأجزاء الإجمالية منها (1) العمود و(2) التمهيد
و(3) المنهج و(4) الخاتمة.

- أما العمود فهو: "جماع مطالب الخطاب فإليه مجرى الكلام وهو المحصول
والمقصود منه".³

- التمهيد: هو ما "يحتاج إلى تقديمه في الكلام إذا خوطب به من لعله يصعب
عليه، فيقدم بيان ليمهد للإلقاء ما هو المقصود، وهذا هو الأصل فيه... وملاك
أمره، ذكر كل ما له تأثير في قلب السامع وعقله، حتى يصغي ويستمع، ولا

¹ الفراهي، ديباجة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 34.

² الفراهي، ديباجة تفسير نظام القرآن، ص 34.

³ الفراهي، دلائل النظام ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن ط 3 (الهند: الدائرة الحميدية

1991م) ص 85

مجلة الهند - - منهج الفراهي في الكشف عن نظام القرآن الكريم

يستحسن إطالته حتى يصير أكثر أو قريباً من المقصود... وأنحاء الابتداءات لا تكاد تحصى، وربما يترك التمهيد حين يخاطب المطيع الفاهم المنقاد، أو يلقي الأمر بالقهر والغضب فيهجم على المخاطب كالصاعقة كما ترى في سورة النور والبراءة، وذكرنا من يتعلق بالتمهيد من جهة الترك لتعلم مقتضى الحكمة في الإتيان به والامتناع عنه".¹

- المنهج: هو "مساق الكلام. وهو إما خطاب إلى النبي أو إلى المؤمنين أو إلى المنكرين أو جامع".²

- الخاتمة: لم يحدد الفراهي المقصود بها ولكن تتبع بعض تطبيقاته يدل على أنها: غالباً ما تأتي في القرآن على أسلوب "العود على البدء"، أو يرد فيها تأكيد لما بدئ به النص، أو السورة، أو ربط له بما قبله، كما هو الحال مثلاً في علاقة الآية الأولى من سورة الممتحنة بالآية الأخيرة منها.³

¹ الفراهي، دلائل النظام، ص 85

² الفراهي، دلائل النظام، ص 86.

وقد فصل الفراهي القول في هذه المسألة في فاتحة تفسيره، لأنها تعتبر من مفاتيح فهم تأويل القرآن، ولأنها من أكثر الأمور التي اشتبهت على المفسرين فخطوا فيها وخطوا وقلبوا المعاني يقول الفراهي: "علم أن الخطاب (في القرآن) مصدرًا ومنتهى: فالمصدر إما هو الله تعالى، أو جبريل، أو الرسول، أو الناس، وأما المنتهى فهو الله تعالى، أو الرسول أو الناس، والناس إما المؤمنون وإما المنافقون، أو أهل الكذب، أو ذرية إسماعيل، أو اثنان منهم أو ثلاثة أو أجمعهم، وأهل الكذب إما اليهود، وإما النصارى أو كلاهما فهذه ظواهر الوجوه، ثم فيها ما يلبس الأمر. أما الالتباس في المصدر فهو بين الله تعالى والرسول وجبريل، فإنك إذا مررت على القرآن غير ذاكر ومتفكر لم تعلم من القائل؟ فإن النبي وجبريل رسولان من الله تعالى وربما يتكلمان بقول من أرسل، وربما يؤديان ما أجرى الله على لسانهما، ثم جبريل رسول من الله تعالى وربما هو يكلم النبي من حيث هو مبلغ قول الله، وربما يكلمه من حيث هو معلمه، قد أظهر الله تعالى أنه معلمه حيث قال: (عليه شديد القوى ذو مرة فاستوى، النجم 5-6) ثم هذه الحيليات تأتي بعضها مع بعض من غير تنبيه غير ما يعلم من السياق"، ينظر: الفراهي، فاتحة نظام القرآن، ص 65-66.

³ الفراهي، نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، مصدر سابق، ج 1 ص 104.

2. توظيف الدراسة الموضوعية في الكشف عن البنية العمودية للسورة: يقول الفراهي: "الكلام لا يلتزم بعضه إلا بجامع يشتمل على أشتات المطالب والجامع يكون أعلى وأوسع كما أنّ الإنسان يشمل الأفراد التي تحته وهكذا يعرج من الأخص إلى الأعم فن طلب النظم لا بد أن ينظر فوق ما يراه حتى يجد جامعاً عاماً".¹

ما فوق نظم السورة سوى عمودها الجامع لروحها وحكمتها، ومن هنا لم يكتف الفراهي في مسعاه إلى الكشف عنه بدراسة نظام السورة اللغوي فحسب، وإنما عزّزه بعدد من الوسائل الموضوعية التي تسهم في تبيانه ومنها:

1. النظر في مقاصد السورة: يستدعي العمل على الكشف عن عمود السورة عند الفراهي، "شدة التأمل والتحصيل، وترداد النظر في مطالب السورة المتماثلة والمتجاورة"،² ومعرفة أوجه المناسبة وعلاقات الارتباط بينها ذلك أن: "من نظر في مطالب الآيات على حدثها ولم يتأمل في مناسبة أجزاء السورة، عميت عليه الحكمة وحسن نظامها (الآيات) من جهة البلاغة والاستدلال".³
 2. النظر في معالم السورة: يذهب الفراهي إلى أنّ لكل سورة من سور القرآن الكريم معالم أو موضوعات "تجلب الالتفات من جهات مختلفة: فبعضها من جهة اللغة، وبعضها من جهة الإعراب، وبعضها من جهة البلاغة، وبعضها من جهة التاريخ، وبعضها من جهة الفقه، وبعضها من جهة الحكمة".⁴
- ومن هنا يشدد الفراهي على أهمية النظر في هذه المعالم من أجل الوصول إلى

¹ الفراهي، دلائل النظام ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن ط3 (الهند: الدائرة الحميدية 1991م) ص45.

² الفراهي، دلائل النظام ص89.

³ الفراهي، دلائل النظام ص80.

⁴ الفراهي، دلائل النظام ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن ط3 (الهند: الدائرة الحميدية 1991م) ص93.

العمود الجامع لفهم معاني السورة والعاصم من سوء تأويلها.

3. عمود السورة مرتبط بالقضايا الكلية: يميز الفراهي بين نوعين من الآيات في السورة القرآنية الواحدة: النوع الأول الآيات المرتبطة بالقضايا الكلية المتجاوزة للزمان، والنوع الثاني الآيات المرتبطة بالوقائع الخاصة التي اقتضاها تنجيم نزول القرآن الكريم، يقول الفراهي: "النظر في آيات السور، لا يدع شكاً في أنّ عمود الكلام ليس إلا الأمور الكلية التي لا تتعلق بوقت وزمان، وأما الأحكام الخاصة فجاءت عن عرض ووضعت تحت الكليات إلا قليلاً. ومع ذلك لم يقتصر عليها حتى خولطت بالكليات والحكم، كما ترى في سورة النور بدأت بالأحكام ولكن العظات والوصايا العالية ضمت بها، فلا بد للمفسر أن ينظر في القرآن من جهة الحكم، ويربط الأحكام بأصولها، وأما الوقائع الخاصة فجعلت مواقع للتنزيل، لتكون تقريباً إلى الاستماع والتوجه".¹

والفراهي هنا لا يتخذ هذه المسألة ذريعة للقول بتاريخية بعض آيات القرآن الكريم، بالمعنى الذي يروج لهم بعض المستشرقين والحدائثين العرب اليوم، إنما يوظفها وسيلة للإمسك بعمود السورة الذي لا يكون إلا أمراً كلياً، وللاستدلال على إحكام نظمها يقول الفراهي: "لا يخفى على أهل النظر والتمييز أن آيات السورة ليست كلها متساوية في الأهمية فإنك ترى بعضها ترتفع من بين أطرافها وذلك هو الأنسب من الحسن ومن جهة التعليم".²

4. التأرجح بين دراسة أجزاء السورة حتى ينكشف العمود: عمود السورة لا يظهر بادئ النظر،³ بل لا بد لظهوره من التأرجح والتردد بين مقاصد السورة، والنظر

¹ الفراهي، دلائل النظام ص74.

² الفراهي، دلائل النظام ص92.

³ الفراهي، دلائل النظام ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن ط3 (الهند: الدائرة الحميدية 1991م) ص201.

العميق في معالمها النظامية، والانتها من تحليلها، وربط أقسامها بعضها ببعض، وذلك لأن: "العمود كالحلقة المنطقية، لا يطلع عليه بالصحة إلا بعد رجوع النظر في النظم، وعلم روابط الجملات والإحاطة بالمطالب جملة، ثم إذا وجدت العمود المفروض أوفق بالنظم وأقرب إلى زيادة التوضيح وحسن التنظيم فقد أصبت وإلا فلا بد من طلب عمود آخر".¹

5. النظر في مقاصد وعمد السور المجاورة: من الوسائل المعينة على الكشف عن عمود السورة كذلك؛ النظر في مقاصد السور المجاورة للسورة، ومقارنة السورة بما قبلها وما بعدها، وذلك أن "القرآن إنما نزل متشابهاً مثاني، فترى سوراً متشابهة المطالب مع اختلاف عمدها ومتحدة العمد مع اختلاف المطالب، فن لم يقيم بإجالة النظر في مطالبها مرة بعد مرة وجمعها تحت عمد مختلفة- فإن الشيء الواحد يدخل تحت كليات مختلفة- حتى يتبين له من بينها ما هو الأرجح كان كسالك سبيل بلغ مجتمع الطرق، فضل فكها ذهب بعد عن مستقيمها".² ومن هنا يتعين على المفسر أن يجتهد في مقارنة مقاصد السورة المراد البحث عن عمودها، بمقاصد السور المجاورة لها وينظر في عمودها المفترض، وعمد السور المجاورة لها، حتى يتبين له العمود الصحيح، وحتى لا يظن عمود السورة ما ليس بعمود لها، بناء على ملاحظة متسعة.

6. النظر في شأن نزول السورة: ينتقد الفراهي ما يذهب إليه بعض العلماء من اعتبار "أسباب النزول" ما نزل الوحي بسببه لأنه هذا الفهم يحصر أسباب النزول في نطاق ضيق، ولذلك لا يستخدم الفراهي مصطلح أسباب النزول بل يفضل استعمال مصطلح "شأن النزول" الدال على السياق العام لنزول القرآن

¹ الفراهي، دلائل النظام حاشية، ص 85.

² الفراهي، دلائل النظام، ص 89-90.

الكريم يقول الفراهي: "ليس المراد من سبب النزول ما لأجله نزل الوحي. إنما هو شأن الناس وأمرهم والحالات والواقعات التي بينها وبين ما نزل نسبة وهذا هو معنى السبب الصحيح في كلام العرب".¹

وتجلى قيمة الانتباه لشأن النزول عند الفراهي في كونه يسهم في اكتشاف نظم السورة، وتحديد عمودها الذي سبقت له يقول الفراهي: "الوحي ينتظر الموقع المناسب دق أو جل لكيلا يذهب القول منسياً، ولكي يصغى إليه كل الإصغاء فإذا جاء الموقع المنتظر لم يكتف بذكر ما يتعلق بالموضوع بل عمد إلى أصل الأمر وفرعه، ووصل بحسن النظام أموراً متباعدة حسب الظاهر، ولذلك وجب التدبير في كتاب الله".²

فخلص من هذا إلى أنّ الفراهي يعتبر أنّ كل سورة من سور القرآن الكريم تقوم على عمود واحد حتى ولو تعددت مقاصدها، وأنّ العمود هو غايتها وهو المعنى الذي يجمع مقاصدها كلها، ولا بد أن يسلك المفسر في الكشف عنه طريقين: الأول الدراسة اللغوية لنظم السورة، والثاني الدراسة الموضوعية لمقاصد السورة.

ومن الأمثلة التي يقدمها الفراهي على عمود السورة: "ما عمدت إليه سورة الحجرات، فما هو إلا شيء واحد، وإن لم يكن له اسم في اللغة، وهبه التوبيخ على سوء الخلق ظناً وقولاً وعملاً. فنهى عن التقدم بين يدي الرسول، ورفع الصوت فوق صوته، والجهر له كجهر بعضكم لبعض، وندائه حين الصبر خير لهم، والثوب على قوم بقول كل فاسق، وأمر بالإصلاح بين طائفتي المؤمنين، وبالعمل على الباغي، ثم بالعدل بينهما. ثم النهي عن السخر من الناس ولمزهم والتنايز بالألقاب، وسوء الظن، والتجسس

¹ الفراهي، رسالة: أسباب النزول ضمن رسائل في علوم القرآن المجموعة الثانية (الهند: الدائرة الحميدية 2008م) ص 129.

² الفراهي، نظام القرآن نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ط 1 (تونس: دار الغرب الإسلامي 1433هـ) ج 2 ص 59

مجلة الهند - . - منهج الفراهي في الكشف عن نظام القرآن الكريم

والغنية، والفخر بالنسب. وتزكية النفس، وأقبحها أن يمين أحد على النبي بإسلامه، وما أردت هنا (يقول الفراهي) إلى تمثيلاً لكثرة في وحدة".¹

كل ما عمدت إليه سورة الحجرات من المقاصد في نظر الفراهي هو "التوبيخ على سوء الخلق ظناً وقولاً وعملاً"، وما التوجيهات التي ساقها السورة الكريمة سوى أمثلة ونماذج متعددة لسوء الخلق.

الركن الثاني: نظام السور المتعددة عند الفراهي: الركن الثاني من أركان المنهج في الكشف عن نظام القرآن الكريم عند الفراهي هو: تقسيم السور القرآنية إلى مجموعات، بناءً على الروابط والعلاقات النصية والموضوعية التي تجمعها؛ وهنا يبرز مرة أخرى تميز منهج الفراهي وتقدمه على كثير من المناهج التقليدية في التفسير التي تتبع طريقة خطية في تفسير آيات السورة الواحدة دون تقسيمها إلى عدد من الوحدات النصية المتشابهة فيما بينها، وتسرد تفسير السور من البقرة إلى الناس دون الوقوف عند شرح العلاقات التي تحكم نظامها.

فما مفهوم دراسة نظام السور عند الفراهي؟ ما أهدافه؟ وما الأسس التي يبنى عليها؟

1. مفهوم نظام السور: الظاهر من حديث الفراهي عن نظم السور بعضها مع بعض أنه يقصد به بذلك أنّ لكل مجموعة من سور القرآن الكريم سمات نصية وموضوعية تجمع بينها، وتجعل منها وحدة مستقلة، وتفصل - منهجياً - بينها وبين المجموعات السورية الأخرى.

2. الهدف من دراسة نظام السور: يهدف الفراهي من وراء تقسيم سور القرآن الكريم إلى مجموعات ذات وحدة نصية وموضوعية مستقلة إلى أمرين: الأول إثبات أنّ كل مجموعة من سور القرآن الكريم تتصف بلون من التجانس النصي

¹ الفراهي، فاتحة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 42.

والموضوعي يثبت الحكمة في ترتيبها، ويكشف جانباً مهماً من جوانب فهمها وتفسيرها، والثاني، الرد على الذين لم يستبينوا حكمة ترتيب السور فيما بينها أو أشكل عليهم ترتيبها.

الأسس المنهجية لتقسيم سور القرآن الكريم إلى مجموعات

أ- تقسيم سور القرآن الكريم إلى تسع مجموعات: ينطلق الفراهي في التقسيم المجموعاتي لسور القرآن من قاعدة أن: "أصل القرآن ما نزل بمكة وأما ما نزل بالمدينة فأدرج فيه وضم معه فصار كالجمان المفصل"¹. وبناء على هذه القاعدة يقسم سور القرآن الكريم إلى تسع مجموعات تتداخل فيها السور المكية والمدنية بحيث تبتدئ كل مجموعة بالسور المكية وتختتم بالسور المدنية، أو ترد بعض السور المدنية بين ثنايا السور المكية،² على النحو الآتي:

1. سورة الفاتحة وهي مكية، مع أربع مدنيات جملة واحدة، مع أن الفاتحة لها نسبة بمجموع القرآن (1-5).
2. سورة الأنعام والأعراف مكيتان، مع الأنفال والبراءة المدنيتين (6-9).
3. سورة يونس إلى سورة الأنبياء اثنتا عشرة سورة كلها مكية مع سورة الحج وهي عند الفراهي مدنية لما تتضمن من الجهاد والقتال والهجرة (10-22).
4. سورة المؤمنون المكية مع سورة النورة المدنية (23-24).

¹ الفراهي، دلائل النظام ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن ط3 (الهند: الدائرة الحميدية 1991م) ص96.

² الفراهي، دلائل النظام. ومن الواضح أنّ الفراهي هنا يخالف ما درج عليه المفسرون من تقسيم السور إلى سور نوعين فقط مكية ومدنية إذ إنه في تقسيمه المجموعاتي للسور ينحو منحى ثالثاً يجمع بين السور المكية والمدنية في مجموعة واحدة، ويشبه تداخل السور المكية مع المدنية بتداخل الآيات المكية والمدنية في السورة الواحدة.

5. سورة الفرقان إلى سورة ألم السجدة ثماني مكيات مع مدنية واحدة وهي سورة الأحزاب (25-33)
6. سورة سبأ إلى سورة الأحقاف ثلاث عشرة مكية، مع سورة محمد إلى سورة المجرات ثلاث مدنيات (34-49).
7. سورة ق إلى سورة الواقعة سبع مكيات، مع سورة الحديد إلى سورة التحريم مدنيات. (50-66).
8. سورة الملك إلى سورة الإخلاص جملة واحدة قد أدرج فيها سورة المطففين، وهي مكية، وسورة النصر المدنية، وسورة الذهب المكية التي نزلت قبيل الهجرة (67-112)
9. سورتا المعوذتين المدينتان، جملة خاتمة ذات اتصال بتمام القرآن وبما قبلها مثل سورة الفاتحة ذات نسبة بما بعدها وبجميع القرآن (113-114).¹

ب- معايير تقسيم سور القرآن الكريم: يذهب الفراهي إلى أن العلاقات بين السور تقوم على نظام معقد من التداخل لا يتأتى لمن لم يدركه أن يفهم العلاقات بينها حق الفهم، ومن هنا يتحتم على المفسر أن يكون قادراً على التمييز بين السورة المستقلة، والتابعة، وأن يكون على وعي بأنه ربما تكون التوابع متعددة، وربما تكون للتابعة تابعة أخرى، ثم بعد التابعة ترى الاتصال بين المستقلتين، سواء كان الاتصال بين التابعة والمستقلة التالية لها أو لم يكن، وربما تكون السورتان المتصلتان مستقلتين من جهة والمتبوعة والتابعة من جهة أخرى. ثم لا بد مع استقلال السورتين المتصلتين من كون المتقدمة منهما أولى بالتقدم.²

ومن هنا يبني الفراهي فرضيته في تقسيم سور القرآن الكريم إلى تسع مجموعات، على

¹ الفراهي، دلائل النظام ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، ط3 (الهند: الدائرة الحيدية

1991م) ص104-105

² الفراهي، دلائل النظام، ص96.

مجلة الهند - - منهج الفراهي في الكشف عن نظام القرآن الكريم

أسس ومقتضيات نصية وموضوعية، تسهم في فهم وضبط هذا التداخل الذي يحكم العلاقة بين السور، وتتمثل في الآتي:

- 1- العلاقات النصية في نظام السور: يذهب الفراهي إلى أن ترتيب بعض السور مع بعض يقوم على علاقات نصية بين السور منها:
 - التكرار النصي: على سبيل المثال توجد علاقات نصية بين آيات متعددة في سورة البقرة وآيات أخرى في سورة عمران منها أنه يتكرر في السورتين قول الله تعالى: "قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا.." في البقرة وفي سورة آل عمران: "قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا"، وكذلك قوله تعالى: "وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ" يتكرر في السورتين.
 - الاتحاد في الفواتح والأسماء: ومن ذلك أن سورة البقرة وآل عمران تبدآن بنفس الحروف المقطعة: ألم، وكذلك الحال في عدد من سور القرآن الكريم التي يتشابه فيها الافتتاح.
 - الاتحاد في اللون: ويعني عند الفراهي التركيز على موضوعات معينة في مجموعة ما من سور القرآن الكريم كما هو الحال على سبيل المثال في الحواميم والمسبحات والمفصل.¹
- 2- العلاقات الموضوعية: بالإضافة إلى مراعاة العلاقات النصية في نظام ترتيب السور يذكر الفراهي أيضاً أنواعاً من العلاقات الموضوعية التي تسهم في بيان الحكمة من ترتيب كل مجموعة من السور فيما بينها، وترتيبها مع ما قبلها وما بعدها من مجموعات، منها:
 - علاقة الإجمال والتفصيل: يقول الفراهي: "التفصيل بعد الإجمال هو الأسلوب الأوفق بالتعليم وهو المرعي في القرآن، كما قال تعالى: "كِتَبْنَا الْحِكْمَةَ آيَاتُهُ"

¹ انظر الفراهي، ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن ط3 (الهند: الدائرة الحميدية 1991م) ص 108-112

مجلة الهند - - منهج الفراهي في الكشف عن نظام القرآن الكريم

ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ" (سورة هود: 1) بل هو المرعي في تنزيل الكتب كلها. فإن المتأخر منها إنما جاء بتفصيل ما تقدم حتى جاء القرآن مفصلاً للكتب السابقة بأسرها".¹

ومن الأمثلة على علاقة الإجمال والتفصيل أنّ الفراهي يعد سورة البقرة "تفسيراً لفاتحة الكتاب وبياناً لكلمة التوحيد وشرحاً للصراط المستقيم".²

- علاقة التشييد والتأكيد: من العلاقة الموضوعية التي يبنى عليها ترتيب سور القرآن الكريم بالإضافة إلى علاقة الإجمال والتفصيل أن تكون السورة تأكيداً لمعاني السورة الواردة قبلها أو مرتبطة به من ناحية ما يقول الفراهي: "بعض السور ضمت ببعضها لمناسبة المتأخرة بالمتقدمة للتفصيل أو التشييد أو الموافقة في المعنى".³

- علاقة الاعتراض بين السور: من القضايا التي أخذ الفراهي على المشتغلين بدراسة المناسبة في القرآن الكريم أنهم كثيراً ما ينظرون إلى العلاقة بين آياته وسوره نظرة خطية ولا يدركون أنّ نظام القرآن الكريم متداخل ولذلك يقصرون علاقة الاعتراض على بحث العلاقة بين الآيات ولا ينتبهون إلى أنه: "كما أنّ الآيات ربما تكون معترضة فكذلك ربما تكون السور معترضة"،⁴ وقد يحول عدم إدراك موقع السورة الاعتراضي دون فهم علاقتها بما قبلها وما بعدها.

- علاقة الاستقلال: قد تكون بعض السور المتصلة مستقلة عما قبلها وما بعدها

¹ الفراهي، نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان ط1، (تونس: دار الغرب الإسلامي 2012م) ج1 ص 65.

² الفراهي، نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ج1 ص 65.

³ الفراهي، دلائل النظام ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن ط3 (الهند: الدائرة الحميدية 1991م) ص 95.

⁴ الفراهي، دلائل النظام، ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن ط3 (الهند: الدائرة الحميدية 1991م) ص 74

مجلة الهند - - منهج الفراهي في الكشف عن نظام القرآن الكريم

في مجموعتها، على أنه: "لا بد مع استقلال السورتين المتصلتين من كون المتقدمة أولى بالتقدم مثلاً سورة البقرة وسورة آل عمران مستقلتان ومع ذلك الأولى أولى بالتقدم لكون السابقة سورة الإيمان وجامعة تامة واللاحقة سورة الإسلام ولأن الأولى محاجة باليهود والثانية بالنصارى ولوجه أخر".¹

- تشابه المقاصد: من المعايير في تقسيم سور القرآن الكريم إلى مجموعات كذلك تشابه مقاصد كل مجموعة فيما بينها يقول الفراهي: "وبالجملة فالحكم بكون عدة سور جملة واحدة مبني على الاستدلال بالمطالب".²

الركن الثالث: النظام الكلي للقرآن الكريم: في المحورين السابقين كان القصد يتجه إلى محاولة الكشف عن العلل الثانوية خلف نظام السورة الواحدة، ومجموعة من السور المتعددة، أما البحث في هذا الركن فيتعلق بالموقف من النظم الكلي لبنية القرآن الكريم، وأسباب اختلاف الترتيب المصحفي عن ترتيب النزول فكيف عالج الفراهي هذه المسألة؟

أولاً: مفهوم النظم العمومي للقرآن الكريم: يطلق الفراهي على بيئة القرآن الكريم المادية كما هي مرتبة في المصحف الشريف مصطلح النظم العمومي أو (الكلي) للقرآن الكريم، ويوضح أن من أهداف كتابه "دلائل النظام": "بيان النظام الكلي بحيث يعلم أن القرآن كله، كما أنه مرتب الآيات فكذلك منظم السور فإن قدمت أو أخرت ذهب طرف من الحكمة كما لو بدل ترتيب الآيات فهذا البيان الكلي لا يوجد له موضع في تفسير بعض السور دون بعض".³

¹ الفراهي، دلائل النظام ص 96.

² الفراهي، دلائل النظام ص 104.

³ الفراهي، دلائل النظام ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن ط 3 (الهند: الدائرة الحميدية 1991م) ص 24.

ثانياً: إشكالية الاختلاف بين الترتيب المصحفي وترتيب النزول وموقف الفراهي منها: تتكون بنية القرآن الكريم المادية من 114 سورة، تبدأ بسورة البقرة، وتنتهي بسورة الناس، ومن المعلوم أنّ هذه السور غير مرتبة في المصحف وفق ترتيب نزولها، بل إنّ غالبية السور التي نزلت في المرحلة المكية توجد في الأجزاء الأخيرة من القرآن الكريم، وهي في معظمها سور قصيرة، في حين أنّ غالبية السور المدنية توجد في الأجزاء الأولى من القرآن الكريم وهي سور أطول من السور المكية.

وقد أقر العلماء المسلمون بأن الترتيب المصحفي للقرآن الكريم، يختلف عن الترتيب الزمني لنزوله، ثم أجمعوا على أن ترتيب الآيات في السور كان بتوقيف من النبي ﷺ، ولا مجال للرأي والاجتهاد فيه،¹ ولكنهم اختلفوا في الترتيب بين سور القرآن الكريم كما هي في المصحف - هل كان بتوقيف من النبي ﷺ أم باجتهاد من الصحابة - إلى ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: أنّ ترتيب السور في القرآن الكريم أمر توقيفي من النبي ﷺ، فهو الذي رتب السور كما هي عليه في المصحف، وعلى ذلك فإنّ "اتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي صلى الله عليه وسلم، فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن".²

المذهب الثاني: أنّ ترتيب السور في القرآن الكريم بعضه توقيفي من النبي ﷺ،

¹ السيوطي جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتيان في علوم القرآن ط7 (بيروت: دار الكتب العلمية 2019م) ص 96، والزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية) ج1 ص339.

² ينظر: السيوطي جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتيان في علوم القرآن ط7 (بيروت: دار الكتب العلمية 2019م) ص 96 ويقول الفراهي أيضاً: "الأمة بنعمة الله لم تختلف في ترتيب الآيات، وليس في أيدي جميع فرق المسلمين إلا القرآن بهذا الترتيب، والله يفعل ما يشاء فعال لما يريد"، فاتحة نظام القرآن، ص 20.

وبعضه من اجتهاد الصحابة رضوان الله عليهم.

المذهب الثالث: أنّ ترتيب السور كلها في القرآن الكريم، إنما كان أمراً اجتهادياً من الصحابة.¹ ويميل الفراهي إلى ترجيح القول الأول بدليل أن: "السور كانت متلوة في عهد النبي، وأمر الله النبي بالتلاوة حسب تلاوة جبريل كما صرح به القرآن. وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعلم الناس السورة بالتمام ويسمع منهم، فهذا القرآن المجموع في المصاحف ليس إلا على نسق ما جاء به جبريل عليه السلام، وقرأه على النبي في تلاوته الأخيرة، ولو صح ما زعم (من قال إنّ القرآن جمع بعد النبي من غير رعاية للترتيب والنظم) فلم أمر الله نبيه باتباع قراءة جبريل؟ ولم كان النبي يأمر بوضع الآيات بمواقعها الخاصة".² ومن هنا يفند الفراهي ما يذهب إليه من يتخذ تداخل النزول، ذريعة للقول بأنّ القرآن الكريم قد جُمع من غير رعاية للنظم والترتيب بين السور والآيات.³ ويعدّ

¹ السيوطي جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتيان في علوم القرآن ط7 (بيروت: دار الكتب العلمية 2019م) ص 96-98. وينظر في مناقشة الأقوال الثلاثة في الترتيب المصحفي للقرآن والترجيح بينها: سعيد بو عصاب، القرآن الكريم بين ترتيب المصحف وترتيب النزول: دراسة منهجية نقدية في الترتيب المصحفي والتاريخي للقرآن ط1 (الرباط: دار الأمان 2017م) ص 69-82.

² الفراهي، دلائل النظام، مصدر سابق، حاشية ص 52.

³ والظاهر أن الفراهي في هذا النص- وإن لم يقل ذلك صراحة- يفند مزاعم المستشرقين؛ إذ من المعلوم أنّ كثيراً منهم قد ذهب إلى أنّ الترتيب المصحفي للقرآن الكريم فاقد للانسجام ولا يقوم على تسلسل منطقي، وأنّ الصحابة قد جمعه على عجل، فلم يراعوا المنطق في ترتيبه! ولذلك ارتأوا أنه لا بد من إعادة ترتيبه حتى يتماشى مع المنطق بزعمهم، وما اكتفوا بذلك بل راحوا يقدمون محاولات في إعادة ترتيب القرآن الكريم تاريخياً استناداً إلى ما ورد من ترتيبات مختلفة لسور القرآن الكريم في بعض المصادر الإسلامية القديمة كترتيب النزول المنسوب للزهري، وما أورده ابن النديم في الفهرست والسيوطي في الإتيان من ترتيب للقرآن وفق النزول منسوب إلى علي وأبي بن كعب وغيرهم، إضافة إلى أنهم قد اعتمدوا معايير نصية في ترتيب سور القرآن زمنياً مثل: اللغة والأسلوب، والسجع واستعمال بعض الألفاظ أو المفردات.

ومن أبرز الذين قدّموا محاولات في إعادة ترتيب القرآن من المستشرقين غوستاف فايل وتيودر نولدكه، وريتشارد بيل وريجنس بلاشير وغيرهم. (ينظر: رضوان عمر بن ابراهيم، آراء المستشرقين

مجلة الهند - - منهج الفراهي في الكشف عن نظام القرآن الكريم

الفراهي هذا الرأي باطلاً ودليلاً على الجهل الفاحش بجمع القرآن وترتيبه، وبمواقع الآيات، ويخلص إلى أنّ الترتيب المصحفي للقرآن الكريم فضلاً عن كونه بتوقيف من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما علمه جبريل فهو يحتوي على وجوه وحكم، تدلّ على أنّ القرآن الكريم مرتّب على أحسن وجوه النظم فما هي؟

ثالثاً: حكم الترتيب المصحفي للقرآن الكريم: لا يكتفي الفراهي بالقول: إنّ الترتيب المصحفي للقرآن الكريم المخالف لترتيبه الزمني إنما كان توقيفاً من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل يتساءل عن العلل والحكم الثاوية خلف هذا الترتيب ويقدم حججاً نصية، وعقلية، وتاريخية، تدلّ على دقة وإحكام نظام ترتيب القرآن الكريم، من أهمها:

1- علاقة الإجمال والتفصيل: يقول الفراهي: "أكثر السور التي نزلت أولاً وُضِعَتْ في آخر القرآن حتى كأنّ ترتيب وضع السور على عكس ترتيب نزولها"¹ ويعلّل

حول القرآن الكريم وتفسيره، الرياض: دار طبعة للنشر والتوزيع، ص 497، وريجس بلاشير، القرآن: نزوله وتدوينه وترجمته وتأثيره، بيروت: دار الكتاب اللبناني ط 1 1974م، ص 23-44). ومن الجدير بالذكر هنا الإشارة إلى أنّ هذا الموقف الاستشراقي من وحدة النص القرآني والدعوة إلى إعادة ترتيبه قد تغير إلى حد ما منذ نهاية القرن المنصرم، إذ بدأ بعض الباحثين الغربيين يهتمون بدراسة بنية القرآن المادية، دراسة تزامنية (Synchronic) مستعنيين في ذلك ببعض المنهجيات الأدبية، والبلاغية، التي طبقت على العهدين القديم والجديد، وإلى ما وصلت إليه مدارس النقد الأدبي الحديث، من الاحتفاء بدراسة بنية الأعمال الأدبية في شكلها المادي، وقد توصل أغلب هؤلاء الباحثين إلى تأكيد القول بوحدة النص القرآني، وضرورة تجاوز الفرضيات الاستشراقية الخاطئة في وصمه بالثشتت وفقدان الانسجام.

ومن أبرز الذين ساروا في هذا الاتجاه: أنجليكا نويفرث (Angelika Neuwirth) ونيل ربنسون (Neal Robinson) وماتياس زاهنير (Mathias Zahniser) وريموند فارين (Raymond Farrin) وميشيل كويرس (Michel Cuypers) ينظر حول هذا الاتجاه وبالأخص حول مقارنة كويرس: المجود، محمد يسلم، منهج البلاغة السامية في تحليل بنية القرآن الكريم دراسة وصفية تحليلية على الرابط: <https://tafsir.net/research/41/mnhj-al-blaght-as-samy-yt-fy-> drast-bnyt-al-qr-aan-al-krym-drast-wsfyt-nqdyh

¹ الفراهي، دلائل النظام ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن ط 3 (الهند: الدائرة الحميدية 1991م) ص 96.

السّر وراء ذلك بعلاقة الإجمال والتفصيل بين السور المكية والمدنية إذ إنّ:
"أصل القرآن ما نزل بمكة وأما ما نزل بالمدينة فأدرج فيه وضمّ معه فصار
كالجمان المفصّل".¹

ويرى الفراهي أنّ السبب في وجازة السور المكية واشتمالها على معظم مقاصد
القرآن الكريم مرتبط بالتربية "إنما نزل القرآن حسب تربيته فنزل ما يبنى عليه
الأحكام ثم نزل ما فيه الأحكام مع الخلط بالترغيب والترهيب وتفصيل
الأحكام بعد الإجمال".²

2- التريب بناء على العلاقة بين الشريعة والأخلاق: يقول الفراهي: "في أوائل
التنزيل نظر إلى عامة الأخلاق الإنسانية؛ وفي أواخره إلى ما بين أيديهم من
الأقوام. فالأوائل كلية والأواخر جزئية. والأول إلى العقول والآخر إلى
الحواس. الأول حاد عميق والآخر بسيط ظاهر".³

ومن هنا فإنّ من الحكم الثاوية خلف ترتيب المصحف مراعاة العلاقة بين الشريعة
والأخلاق إذ: "يظهر أنّ القسم الذي فيه بيان للشريعة والقانون مقدّم على القسم
الذي فيه الإنذار... وفي ذلك إشارة إلى أنّ المقصود من الإنذار هو توجيه الناس
إلى الصراط المستقيم ولذلك لا بد أن يكون النظر إلى المقصود والغاية أولاً".⁴
والنتيجة أنّ العلاقة بين القسم الأول والأخير من القرآن الكريم كالعلاقة بين
البناء وأساسه ولا شك أنّ الأساس يكون مقدّمًا على البناء.⁵

3- مراعاة أحوال المخاطبين: يذهب الفراهي أنّ من بين أسباب الترتيب المصحفي

¹ الفراهي، دلائل النظام، ص 96.

² الفراهي، دلائل النظام، ص 98.

³ الفراهي، دلائل النظام، ص 98.

⁴ الفراهي، دلائل النظام، ص 70.

⁵ الفراهي، دلائل النظام ص 77.

للقرآن الكريم أنه كان مرآة لأحوال المسلمين الذين خاطبهم أول مرة حيث يقول: "نظم القرآن أعطي بأيدي المؤمنين فأعيد إلى ما كانوا فيه وروعي حالهم، ونزوله أعطي غير المؤمنين فالنظم يجري من الحاضر إلى الماضي كما تقرأه تاريخاً من زمانك إلى الأيام الخالية فيكون سيراً من المعلوم والأقرب، ونزوله كان يجري من الحال الحاضر إلى ما يستقبل. فالأصل في كليهما واحد أي الأقرب فالأقرب".¹

ويضيف الفراهي تقريباً لهذا الملحظ أن: "القرآن للقراءة والدرس، والقراءة عند تمام النزول أقرب حالاً بأوائل القرآن.. فلو قرأوه حسب ترتيب النزول بعدوا عما بين أيديهم وبدأوا بأبعد ما كان عنهم. وهذا يشبه بأن الرجل إذا رقى في السلم وبلغ رأسه ثم أراد العود إلى بدء رقيه، فلا يبدأ بأول الدرجات، فهذا سير دوري ليس فيه انقطاع ويسهل فيه التنقل، وهذا أهون".²

4- مراعاة نمط الترتيب في كلام العرب: في الترتيب المصحفي للقرآن الكريم كذلك مراعاة لطريقة العرب في ترتيب كلامهم يقول الفراهي: "الترتيب في كلام العرب هكذا (مثل ترتيب القرآن) فإذا كان لفّ ونشر، فهم يعودون من الآخر إلى الأول بالتدرّج، وهكذا في غير اللفّ والنشر إذا اجتمع سيران".³

5- وضع الطوال مع الطوال والقصار مع القصار: يرى الفراهي أن من حكم الترتيب المصحفي مراعاة وضع السور الطوال مع الطوال والقصار مع القصار، "لأن الإنسان يحبّ المناسبة في القدر كما يحبّ المناسبة في المعاني"،⁴ ومع ذلك

¹ الفراهي، دلائل النظام ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن ط3 (الهند: الدائرة الحميدية 1991م) ص96.

² الفراهي، دلائل النظام، ص97.

³ الفراهي، دلائل النظام، ص96.

⁴ الفراهي، دلائل النظام، ص 96.

فليس هذا هو السبب الوحيد للترتيب بدليل أنه غير مطرد، فإنك ترى بعض المتأخر أطول كثيراً من المتقدم،¹ وتجدر سوراً صغاراً وُضِعْنَ قبل سور أكبر منهن حجماً، فسورة الفاحة قبل سورة البقرة، وسورة إبراهيم قبل سورة النحل، وسورة الفرقان قبل سورة الشعراء، والسجدة قبل سورة الأحزاب وهكذا.²

6- مشابهة ترتيب التوراة: من الأدلة التي يعلّل بها الفراهي سبب الترتيب المصحفي للقرآن أيضاً أنّ ترتيب السور الطوال مع الطوال والقصار مع القصار المتبع في القرآن الكريم مشابه للترتيب في التوراة حيث وضعت الصحف الخمس قبل كتب الأنبياء.³

7- موافقة العقل: بالإضافة إلى الأدلة النصية والتاريخية، يستدل الفراهي على إحكام الترتيب المصحفي للقرآن الكريم، بدليل عقلي يتمثل في أنه: "لو رتب القرآن حسب نزوله لصارت السور القصار مفرقة بين الطوال مغمورة كالنجوم في ضوء النهار".⁴

8- مراعاة الجانب الجمالي في الترتيب: ولا يكتفي الفراهي بالأدلة النصية والتاريخية والعقلية في الاستدلال على إحكام ترتيب نظام القرآن بل يعزّزها بالقول أنّ في الترتيب المصحفي للقرآن الكريم جانباً جمالياً يتجلى في أنّ: "السور القصار أُلذ وأحلى وأسهل وأجلى، فالقارئ ينتظرها كالمسافر إلى منزل طيب مريع بهيج، أو كما يوضع على المائدة أحلى الأطعمة في الآخر، أو كما أنّ المرء يترقى من الأرض

¹ الفراهي، دلائل النظام، ص96.

² الفراهي، دلائل النظام، حاشية ص105.

³ الفراهي، دلائل النظام ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن ط3 (الهند: الدائرة الحميدية 1991م) ص96.

⁴ الفراهي، دلائل النظام، ص97.

إلى السماء فكلما قرب إلى آخر القرآن قرب إلى معالي الأمور وأصول الدين".¹

رابعاً: فرضية النظم الحلقائي للقرآن الكريم: ما اكتفى الفراهي بالاستدلال على إحكام نظام القرآن الكريم كما هو مرتّب في المصحف الشريف بل إنه قدّم تعليلاً أو فرضية عامة في النظم القرآني المعجز وعدّها مما فتح الله عليه به في فهم نظام القرآن الكريم يقول الفراهي: "إني رأيت في كتاب الله، والحمد لله على ما أراني، أنّ الكلام يجري من أمر إلى أمر وكله جدير بأن يكون مقصداً فيشفي الصدور ويجلو القلوب ثم يعود إلى البدء فيصير كالحلقة".²

¹ الفراهي، دلائل النظام، ص 98.

² الفراهي، دلائل النظام، ص 66

وربما تجدر الإشارة هنا إلى أنّ فرضية النظم الحلقائي للقرآن الكريم عند الفراهي تشبه ما توصل إليه مؤخراً بعض الباحثين الغربيين الدارسين لبنية القرآن الكريم من كونها تقوم على النظم الحلقّي، أو الدائري: (ring composition).

ويقصد بالنظم الدائري أن يرد في بداية النص أو القصيدة على سبيل المثال موضوع، ثم ينتقل النص إلى موضوع آخر، ثم يعود لاستكمال الموضوع الأول بالتوازي، في نظام نصي يتجه من الأجنحة إلى القلب، حتى تكتمل بنية النص أو القصيدة.

وتعد هذه النظريات من النظريات الأدبية في دراسة النصوص القديمة، ومن أشهر المنظرين لها، الباحثة الأمريكية ماري دوجلاس في رسالتها: Thinking in circles: An Essay on Ring Composition.

وقد قام بعض الباحثين الغربيين مؤخراً بتطبيقها على النص القرآن من أبرزهم البلجيكي ميشيل كويرس في كتابه المترجم إلى اللغة العربية بعنوان: نظم سورة المائدة: نظم آي القرآن في ضوء منهج التحليل البلاغي، وفي قراءته للسور الثلاثين الأخيرة من القرآن الكريم في كتابه المترجم إلى اللغة الإنجليزية بعنوان: A Qur'anic Apocalypse: A Reading of the. Thirty-Three Last Surahs of the Qur'an

وفي نفس المسار أيضاً سار الباحث الأمريكي ريموند فارين فبدأ أولاً بتطبيق هذه النظرية على الشعر العربي في كتابه: Abundance from the Desert: Classical Arabic Poetry، ومؤخراً على القرآن الكريم في كتابه: structure and qur'anic interpretation: a study of symmetry and coherence. (للبينات الكاملة للكتب المشار إليها انظر قائمة المصادر والمراجع في نهاية البحث).

وقد اعتبر الفراهي أنّ نظم القرآن الكلي يقوم على هذه البنية حيث يقول: "القرآن إذا رأيته وجدته يبتدئ بحمد الله تعالى، ثم تراه يكشف عن أصول الإسلام ظاهراً وباطناً، حتى ينتهي إلى كمال الفتح والنصرة وإهلاك المخالفين، وإتمام فرض النبوة، وجعل سورة التوحيد آخر العهد بالله تعالى، ثم ترى بعد تكميل هذه المدينة الإلهية وسورها، حارسين أو سورتين أو سيفين أو صارماً ذا شفرتين، وذلك سورتا المعوذتين، كأنّ القرآن جنة عدن يحرسها كروبيان بسيفين لامعين".¹

خاتمة الدراسة: نخلص بعون الله وتوفيقه إلى نهاية هذه الدراسة التي حاولنا فيها أن نقدّم المعالم الأساسية لمقاربة الفراهي في التأصيل المنهجي لدراسة لنظام القرآن وأهميتها في تأويل القرآن الكريم، وفي إصلاح مناهج تفسيره، وقد توصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

أولاً: يندرج منهج الفراهي في الكشف عن نظام القرآن الكريم في سياق المشاريع الإصلاحية الحديثة التي انطلقت من ضرورة إعادة النظر في مناهج فهم القرآن الكريم القديمة سبيلاً لإصلاح الأمة وتوحيد فهمها للقرآن الكريم.

وثانياً: امتازت مقاربة الفراهي لنظام القرآن الكريم عن غيرها من المقاربات الإسلامية التي تناولت نظم القرآن الكريم بميزتين أساسيتين: الأولى أنها لم تكتف كغيرها من الدراسات القديمة والحديثة بالتنويه بأهمية توظيف سياق النظم في تفسير القرآن بالقرآن، بل جعلته الأصل الأول الذي تأرّز إليه كل أصول التفسير الأخرى، وشرحت الأسس المنهجية والإجرائية التي تضبط توظيفه، وتجعل منه منهجاً متكاملًا في تأويل مفردات القرآن، وأساليبه، ونظامه التركيبي العام، والثانية: أنها لم تكتف بالجانب التنظيري بل قدّمت نماذج تطبيقية متعددة لهذا المنهج، وإن كانت مساحة البحث لم تسمح لنا بعرض موسع للجوانب التطبيقية، ولعلنا نستعرضها في بحث آخر.

¹ الفراهي، نظام القرآن وتاويل الفرقان بالفرقان ط1 (تونس: دار الغرب الإسلامي 2012م) ج1 ص 104.

مجلة الهند - - منهج الفراهي في الكشف عن نظام القرآن الكريم

وثالثاً: يمكن القول من خلال هذه الدراسة أنّ منهج نظام القرآن عند الفراهي بآلياته الإجرائية يقدّم إضافة متميزة في الدرس البنائي للقرآن الكريم لا تفصل بين أجزائه، وعامته، ويسهم إسهاماً قيماً في ضبط تفسيره وتأويله.

ورابعاً: أبانت هذه الدراسة أنّ مقارنة نظام القرآن عند الفراهي بآلياتها المنهجية تسهم في إثراء الدرس القرآني المعاصر من جهتين: الأولى أنها ترسخ مبدأ وحدة القرآن وإحكام نظام آياته وسوره، وبالتالي تبين خطأ المزاعم التي تصم نظمه بافتقاد الوحدة والانسجام، الثانية: أنها تسهم في ضبط عملية تأويل القرآن الكريم، وتحكيم سياقه في السياقات الخارجية التي يعتقد الفراهي أنّ تقديمها على سياق القرآن كان السبب الرئيسي فيما وصلت إليه الأمة من التحزب والشقاق، وأنه من سبيل إلى الخروج من هذه المعضلة سوى الاعتصام بنظم القرآن الكريم.

التوصيات:

أولاً: ضرورة متابعة التأصيل المنهجي لدراسة نظم القرآن الكريم، عند الإمام عبد الحميد الفراهي، وتخصيص مقارنته واختبارها في الجانب التطبيقي.

وثانياً: العمل على مقارنة جهود الفراهي في دراسة نظم القرآن الكريم وبنيته المادية بالمقاربة التزامنية للقرآن (Synchronic Approach) التي ظهرت في الدراسات الغربية الحديثة عند ميشيل كويبرس (Cuypers Michel)، وريموند فارين (Raymond Farrin) وغيرهما.

وثالثاً: العمل على إعادة قراءة مقارنة الفراهي الثرية لنظم القرآن في ضوء الأدوات النظرية والإجرائية التي توفرها مناهج اللسانيات الحديثة، وأهم ما توصلت إليه في دراسة بنية النصوص وتحليلها، إذ من شأن ذلك أن يثري هذه المقاربة، ويسهم في استدراك بعض جوانب القصور التي قد تظهر فيها.

السياق وأثره في توضيح المعنى عند الإمام عبد الحميد الفراهي في تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"

- د. سوسن حسانين المهدد¹

المستخلص

لا شك أنّ مراعاة السياق بنوعيه اللغوي (الداخلي) وغير اللغوي (الخارجي) يساعد على فهم المعنى المراد من النص فهماً جيداً؛ لأنّ العلم بخلفيات النص وملابساته والظروف المحيطة به وأسباب النزول ينفي احتمالية غير المراد، ويساعد على التأويل الصحيح.

ويهدف البحث إلى الوقوف على أثر السياق بنوعيه اللغوي وغير اللغوي في فهم المراد من كلام الله عزّ وجلّ في تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان للإمام عبد الحميد الفراهي.

وقد التزم البحث المنهج الوصفي التحليلي، ومن أهم النتائج التي توصّل اليها:

1. اعتمد الإمام الفراهي في تفسيره للقرآن الكريم على السياق بنوعيه اللغوي والخارجي.
2. جاء اهتمام الإمام الفراهي بالسياق اللغوي بصورة كبيرة وهذا جزء من منهجه الذي يتمثل في تأويل الفرقان بالفرقان.

3. كانت للفراهي انفرادات موفقة في توضيح أثر السياق في فهم المراد من كتاب الله عزّ وجلّ.

الكلمات المفتاحية: عبد الحميد الفراهي، السياق، الدلالة، تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان.

¹ أستاذ مساعد، قسم أصول اللغة، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات، جامعة الأزهر، القاهرة، مصر

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

كان لعلماء العربية فضل السبق في الاعتراف بفكرة السياق وأهميته في فهم المراد، فقد أشار الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ إلى ذلك في باب من أبواب رسالته وهو: "باب الصنف الذي يبين سياقه معناه".¹ ونقل الإمام الزركشي عن الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام قوله: السياق يرشد إلى تبين المجملات، وترجيح المحتملات، وتقرير الواضحات، وكل ذلك بعرف الاستعمال....² وإهمال السياق يؤدي إلى الوقوع في الغلط والمغالطة، قال الإمام ابن القيم الجوزية: "السياق يرشد إلى تبين المجمل، وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقديد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله تعالى: "ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ" [سورة الدخان: 49] كيف تجد سياقه يدلّ على أنه الدليل الحقيق".³

كما أشار ابن جني إلى أهمية سياق الحال في فهم المراد.⁴

ثم يأتي الإمام عبد الحميد الفراهي العالم اللغوي الهندي (ت 1349هـ) ليوضح أثر السياق بنوعيه اللغوي وغير اللغوي في فهم المراد من كلام الله عزَّجَلَّ في تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"، ومما لا شك فيه أنّ مراعاة السياق بنوعيه

¹ الرسالة للإمام الشافعي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط الأولى، 1938م، ص 62

² البحر المحیط في أصول الفقه للزركشي، مراجعة: عبد القادر عبد الله العاني، دار الصفوة للطبع والنشر والتوزيع، ط الثانية، 1992م، 52/6

³ بدائع الفوائد لابن القيم الجوزية، تحقيق على بن محمد العمران دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، 1314/4
⁴ انحصائص ابن جني، تحقيق: محمد علي التجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 3، 1986م، 247-246/1

اللغوي (الداخلي) وغير اللغوي (الخارجي) يساعد في فهم المعنى المراد فهماً جيداً؛ لأنّ العلم بخلفيات النص والظروف المحيطة به وأسباب النزول ينفي احتمالية غير المراد ويساعد على التأويل الصحيح، وهذا ما راعاه الفراهي في تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"¹ الذي ركّز فيه على تفسير القرآن بالقرآن وجعله الأصل عنده، ثم الرجوع إلى السنة النبوية المشرفة ثم الرجوع إلى أقوال الصحابة، فضلاً عن مراعاة أساليب كلام العرب واستعمالاتهم، وأسباب النزول.

وكانت للفراهي وقفات موفقة في توضيح أثر السياق في فهم المراد من كلام الله عزَّ وجلَّ تتم عن حس لغوي مستوعب لمقتضيات الخطاب التي تتطلب النظر في كل العناصر اللغوية وغير اللغوية التي تحيط بالنص.

وما دفعني إلى دراسة هذا الموضوع عدم وجود بحث أو رسالة تناولت أثر السياق في توضيح المعنى في تفسير "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"، ولا في أيِّ مؤلف من مؤلفات الفراهي التي أشار فيها إلى أهمية السياق في فهم المعنى المراد،² ولكن ما تناولته الدراسات السابقة³ فيما يخص الإمام عبد الحميد الفراهي تمثلت في الحديث عن حياته وجهوده في النحو والبلاغة، فضلاً عن جهوده اللغوية التي تمثلت في توضيح معاني بعض الألفاظ كالكتاب، والصلاة، والهدي.⁴

¹ اقتصر فيه الإمام الفراهي على تفسير سورة الفاتحة - الذاريات - التحريم القيامة - المرسلات - عبس - الشمس - التين - العصر - الفيل - الكوثر - الكافرون اللهب.

² على سبيل المثال: مفردات القرآن - نظام القرآن - أساليب القرآن - التكميل في أصول التأويل.

³ الدراسات السابقة نشرت عدة أبحاث في مجلة الهند، بعنوان (عن حياة) وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي رحمه الله تعالى مج 1، الأعداد 1-4، منها: الإمام حميد الدين الفراهي حياته، وأعماله الشيخ أمين أحسن الإصلاح (ترجمة: محمود عاصم)، وملاحم التجديد في تفسير القرآن الكريم عند عبد الحميد الفراهي (د. محمد إقبال أحمد فرحات).

⁴ مساهمة الإمام عبد الحميد الفراهي في اللغة العربية وآدابها، أبو ذر متين أحمد، جامعة على كره الإسلامية الهندية، رسالة دكتوراه، 2006م.

مجلة الهند — — السياق وأثره في توضيح المعنى عند الإمام عبد الحميد الفراهي

والتزم البحث المنهج الوصفي التحليلي، ويقع البحث في مقدمة وتمهيد وخمسة مباحث وخاتمة.

أما المقدمة فهي لأهمية الموضوع والدافع إليه والدراسات السابقة حوله، وأما التمهيد فللتعريف بالفراهي والسياق.

المبحث الأول: السياق وأثره في توضيح المعنى المراد من الصيغ.

المبحث الثاني: السياق وأثره في توضيح المعنى المراد من التركيب.

المبحث الثالث: السياق وأثره في تحديد المعنى المراد من اللفظ المشترك.

المبحث الرابع: السياق وأثره في تعيين المخاطب.

المبحث الخامس: السياق وأثره في تخصيص المعنى العام.

ثم الخاتمة وفيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

تمهيد وعنوانه: التعريف بالفراهي والسياق

يجدر بي قبل الخوض في غمار هذا البحث أن أتحدث عن عدة أمور بإيجاز:

أولاً: التعريف بالفراهي وعصره ومنهجه

أ- التعريف بالفراهي: اسمه - نسبه: عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان قنبر بن تاج علي الأنصاري، حميد الدين أبو أحمد الفراهي نسبة إلى قرية (فريها) من قرى مديرية (أعظم كره التابعة حالياً لولاية (أترا براديش) (U.P) في الهند. ورد اسمه في بعض المواضع (عبد الحميد) وفي مواضع أخرى (حميد الدين)، ولكنه رأى أنّ (حميد الدين) تمدحاً وتعظماً فأثر (عبد الحميد).

ولد رَحِمَهُ اللهُ سنة 1280هـ-1863م في فريها من عائلة شريفة فهو ابن خال علامة الهند الشيخ شبلي النعماني (ت 1332هـ).¹

¹ ينظر: مفردات القرآن نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية للإمام حميد الدين الفراهي، مقدمة المحقق ص 13، تحقيق د. أحمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، ط الأولى، 2002م.

نشأته وطلبه للعلم: نشأ الفراهي في بيئة دينية، وتربى في أسرة شغوفة بالعلوم الإسلامية والدنيوية، فقد طلب العلم منذ صغره، حفظ القرآن الكريم صغيراً، ثم قرأ اللغة الفارسية وأجادها، واشتغل بطلب العربية وساعده ابن عمته الشيخ شبلي النعماني الذي كان يكبره بست سنوات فأخذ منه علوم العربية كلها من نحو وصرف ولغة وأدب ومنطق وفلسفة، ورحل إلى عدة مدن في الهند وباكستان لطلب العلم، فسافر إلى (لكنؤ) في الهند، وجلس في حلقة الشيخ الفقيه المحدث أبي الحسنات اللكنوي (ت 1304هـ)، ثم ارتحل إلى لاهور لطلب الأدب العربي من إمام اللغة العربية الشيخ الأديب فيض الحسن الشهارنفوري (1304هـ) فبرع في الأدب العربي، وفاق أقرانه في الشعر والإنشاء.

ثم لجأ إلى الإنجليزية وهو ابن عشرين سنة، ودخل كلية علي كره الإسلامية ونال بعد سنين شهادة الليسانس (A.B) من جامعة الله آباد، وبهذا فقد جمع بين العلوم الدينية والعصرية.¹

أخلاقه وصفاته: وصف الإمام الفراهي -رَحِمَهُ اللهُ- بالزهد، وعلو النفس عن الدنيا والبعد عن الرياء والتواضع، كان مثلاً للتعق والورع، طويل السكوت فكه الحديث إذا تكلم عابداً لله، زاهداً في الدنيا، بعيداً عن لذاتها.² وقد كان له باع في العلوم الإسلامية والعربية والأدبية والثقافات العصرية، وكان متضللاً في لغات متعددة مثل: العربية والفرنسية والإنجليزية والأوردية على السواء، وكان عالماً في الفلسفة

¹ ينظر: مفردات القرآن ص 16، وإمعان في أقسام القرآن لعبد الحميد الفراهي، مقدمة المحقق سليمان الندوي، ص 19- والإمام حميد الدين الفراهي حياته، وأعماله الشيخ أمين أحسن الإصلاحي، ص 11-15، ترجمة محمود عاصم، مجلة الهند عدد خاص عن حياة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي) مج، أعداد من 1-1.

² ينظر تفصيل ذلك في بحث: الإمام حميد الدين الفراهي للشيخ شير محمد الإصلاحي، مجلة الهند عدد خاص عن حياة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي مج 6، ع5، 2017م، ص 41

مجلة الهند — . — السياق وأثره في توضيح المعنى عند الإمام عبد الحميد الفراهي

القديمة والحديثة، وفي التفسير رائداً في اللغة والبلاغة والنحو، قال عنه الدكتور تقي الدين الهلالي: "فصيح في التكلم لغاية نادر في علماء العرب فضلاً عن علماء الهند".¹ المناصب التي تقلدها: عين معلماً للعلوم العربية بمدرسة الإسلام بكراتشي عاصمة السند فدرس فيها سنتين، وفي عام 1907م انتخب معلماً للغة العربية بكلية علي كره الإسلامية، وكان بها يومئذ أستاذ اللغة العربية المستشرق الألماني يوسف هارويز الذي استكمل تعلم العربية على يد الفراهي مقابل أن يعلمه العبرية، ثم عين أستاذ اللغة العربية بجامعة الله آباد.

عمل على تأسيس جامعة تدرس العلوم الدينية بالعربية والعلوم العصرية بالأوردية، سميت الجامعة العثمانية، وقد ساهمت بدور كبير في إقامة نهضة تعليمية في بلاد الهند. أسهم في تأسيس دار المصنفين، وأصبحت أعظم مجمع علمي في الهند نشرت فيه مؤلفات علمية، ثم لزم بيته، وانقطع إلى العلم، وكان قد أسس قرب قريته مدرسة عربية دينية هي مدرسة الإصلاح وكان من أهم أهدافها تحسين طرق تعليم العربية، والعكوف على طلب علوم القرآن والبحث في معانيه ونظمه.²

شيوخه: كان لبعض شيوخ الفراهي تأثير كبير على شخصيته العلمية لا سيما ابن عمته الشيخ شبلي النعماني (ت 1332هـ)، والشيخ فيض الحسن السهارنفوري (1304هـ) والمحدث الفقيه الشيخ عبد الحي اللكنوي (ت 1304هـ)، والشيخ نعمة الله اللكنوي (ت 1312هـ).³

¹ مفردات القرآن الفراهي، مقدمة المحقق، ص 41.

² المعلم عبد الحميد الفراهي (العلامة سيد سليمان الندوي)، مجلة الهند عدد خاص عن حياة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي، مج، أعداد من 1-4، ص 33، والإمام حميد الدين الفراهي للشيخ شير محمد الإصلاحي، ص 40.

³ ينظر: الإمام عبد الحميد الفراهي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن، ص 41-43.

تلاميذه: ممن حضروا مجالس الفراهي وتأثروا به واستفادوا من دروسه ومحاضراته في تفسير القرآن وغيره العلامة أبو الكلام آزاد (ت 1377هـ)، والعلامة السيد سليمان الندوي (ت 1373هـ)، والأستاذ عبد الله العمادي (ت 1366هـ)، والأستاذ عبد الماجد الدرايبادي (ت 1397هـ)، وأما تلامذته الذين قاموا بنشر كتبه ومؤلفاته بعد وفاته ترجمتها إلى الأوردية، فهما صاحبا الشيخ اختر أحسن الإصلاحي (ت 1378هـ) والشيخ أمين أحسن الإصلاحي (ت 1418هـ).¹

نتاجه العلمي: يتنوع النتاج العلمي للفراهي ما بين المطبوع والمخطوط كما يلي:

القسم الأول: المطبوع، منه:

أساليب القرآن، وأسباق النحو (جزءان) بالأوردية لتعليم النحو والصرف لغير الناطقين بالعربية، وأمثال آصف الحكيم، وإمعان في أقسام القرآن وتحفة الإعراب قصيدة رائية في النحو بالأوردية، والتكميل في أصول التأويل، وجمهرة البلاغة، ودلائل النظام والرأي الصحيح في من هو الذبيح، وفتحة نظام القرآن (مقدمة) تفسيره، ومفردات القرآن، نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان وهو تفسيره الكبير الذي أصبح يعرف به، ولم يكمله، ركز في تفسيره على التماس الروابط والعلاقات بين آيات القرآن الكريم، وربط بعضها ببعض.

القسم الثاني: المخطوط، منه:

إحكام الأصول بأحكام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في علم أصول الفقه، الأزمان والأديان، وأسباب النزول، والإكليل في شرح الإنجيل، وأوصاف القرآن، وتزكية الروح، وتاريخ القرآن وجمع القرآن، حكمة القرآن وفلسفة البلاغة وغيرها كثير.²

¹ ينظر: الإمام عبد الحميد الفراهي وتلاميذه البارزون للدكتور أشفاق ظفر الإصلاحي، مجلة الهند عدد

خاص عن حياة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي مج 2، ع 5، 2017م، ص 80-72 وما بعدها

² ينظر: الإمام عبد الحميد الفراهي حياته وأعماله للشيخ أمين أحسن الإصلاحي، ص 30-26

وفاته: توفي رَحْمَةُ اللَّهِ فِي التاسع عشر من جمادي الثانية سنة 1349هـ، الحادي عشر من نوفمبر سنة 1930م إثر عملية جراحية أجراها طبيب له في بلدة (مثورا) ودفن هناك.¹

ب. عصر الفراهي: ولد الفراهي حين كانت الخلافة العثمانية تلفظ أنفاسها الأخيرة حتى سقطت سنة 1924م، أما الهند التي كان يحكمها المسلمون منذ ثمانية قرون سقطت بين الاستعمار البريطاني سنة 1858م وانتقلت إلى الحكم البريطاني الذي عاصره الفراهي حتى توفي في عهده، وقد ذاق الفراهي وغيره من العلماء مرارة هذا الحكم، وعانوا كثيراً، إلا أنهم قاوموه بكل ما أوتوا من وسائل مادية وعلمية.

وفي أثناء الحكم البريطاني، تفرق المسلمون، وقلّ الوازع الديني مما أدّى إلى انتشار التعصب المذهبي، والفرقة بين أفراد الأمة، فانتشر الجهل، وظهرت البدع والانحرافات، وضعفت القيم الأخلاقية في المجتمع بسبب معايشة المسلمين مع الإنجليز المستعمرين للبلاد، وفي ظل هذه الظروف كان للفراهي وأمثاله من العلماء دور فعال في توجيه المجتمع الإسلام إلى تعاليم الكتاب والسنة.²

ج- منهج الفراهي: اعتمد الفراهي على منهج معين في تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان تمثل في:

1. مراعاة النظم أو النظام: ركز الفراهي على جانب مهم هو مراعاة النظم، ويعني

¹ ينظر: مفردات القرآن للفراهي (مقدمة المحقق ص 39) والإمام عبد الحميد الفراهي حياته، وأعماله للشيخ أمين أحسن الإصلاحي، ص 17.

² ينظر: الإمام عبد الحميد افراهي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن للدكتور محمد فريد راوي، دار الشاكر سلاّنجر- ماليزيا، ط الأولى 2015م، ص: 33-34، وتوسع ينظر: كتاب المسلمون في الهند تحت عنوان "الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند، لأبي الحسن علي الحسيني الندوي، دار ابن كثير، بيروت، ط الأولى، 1420هـ - 1999م، ص: 176-198، وحركة التعليم الإسلامي في الهند وتطور المنهج لمحمد واضح رشيد الحسن الندوي، ط الأولى، المجمع الإسلامي العلمي - لكنؤ، 1427هـ - 2006م، ص: 79-90

به الوحدة الموضوعية للسورة، فكل سورة لها موضوع معين سَمَّاهُ (عمود السورة تدور عليه بأجزائها المترابطة فيما بينها ترابطاً معنوياً محكماً وتعدّ نظرية النظام إحدى أهم النظريات التي اشتهر بها الإمام الفراهي، ومما لا شك فيه أنّ معرفة المناسبات بين الآيات مظهر من مظاهر مراعاة السياق في الفهم والتفسير، وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها مرتبطاً ببعض² وفرّق الفراهي بين المناسبة والنظام، قال: "والفرق بينهما أنّ التناسب إنما هو جزء من النظام، فإنّ التناسب بين الآيات بعضها مع بعض لا يكشف عن كون الكلام شيئاً واحداً مستقلاً بنفسه، وطالب التناسب ربما يقنع بمناسبة ما، فربما يغفل عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام فيصير شيئاً واحداً، وربما يطلب المناسبة بين الآيات المتجاورة مع عدم اتصالهما، فإنّ الآية التالية ربما تكون متصلة بالتي قبلها على بعد منها ... فإنّ عدم الاتصال بين آيات متجاورة يوجد كثيراً، ومنها ما نرى فيه اقتضاباً بيناً، وذلك إذا كانت الآية أو جملة من الآيات متصلة بالتي على بعد منها،³ ثم صرح الفراهي بأنّ مقصده من النظام هو أن تكون السورة كلاماً واحداً، قال: وبالجملة فرادنا بالنظام أن تكون السورة كلاماً واحداً، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة، أو بالتي قبلها أو بعدها على بعد منها، ... فكما أنّ الآيات ربما تكون معترضة، فكذلك ربما تكون السور معترضة وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلاماً واحداً ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر".⁴

¹ الإمام عبد الحميد الفراهي ومنهجه في تفسيره نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان للدكتور محمد يوسف الشريحي، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية مج 20، ع 2، 2004م، ص 471

² أثر السياق في فهم النص القرآني للدكتور عبد الرحمن بو درع، مجلة الإحياء - المملكة المغربية ع 25 يوليو 2007م، ص 79

³ دلائل النظام لعبد الحميد الفراهي الهندي، المطبعة الحميدية، ط الأولى، 1388هـ، ص 74.

⁴ المرجع السابق ص 75.

وعلى هذا فن ينظر في الآيات على حدة ولم يتأمل في مناسبة أجزاء السورة فقد فاتته فهم المراد.

2- تفسير القرآن بالقرآن: أكد الفراهي على أنّ أول شيء يفسّر القرآن هو القرآن نفسه وهو الأصل عنده.

3- التفسير بالحديث الشريف وأقوال الصحابة: أولى الفراهي حديث الرسول وآثار الصحابة ما أولاه الأئمة والمفسرون، قال: أول شيء يفسّر القرآن هو القرآن، ثم بعد ذلك فهم النبي والذين معه، ولعمري أحب التفسير عندي ما جاء عن النبي وأصحابه.¹

4- الإسرائيليات: أكد الإمام الفراهي على أنه قد تسرّب إلى كتب التفسير والحديث كثير مما روي عن أهل الكتاب، فقال: وكذلك تاريخ أهل الكتاب أقرب من الأخبار المنقولة عندنا، فإنّ المفسرين أخذوها من أفواه العامة والذين قلّ عليهم بالكتب التاريخية في قصص الأنبياء وبني إسرائيل، فالصواب أن نأخذ من كتبهم المعتبرة... فحيث يختلف عن القرآن نتركه، فإنهم كتبوا الشهادة² فقد وضع الفراهي معياراً معيناً في الأخذ عن كتب أهل الكتاب، وهو ترك كل ما خالف القرآن الكريم، وقد ساعدته دراسته للديانات ومعرفته باللغة العبرانية على النقد ودراسة الأخبار الواردة عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

5. الاستشهاد بكلام العرب: استشهد الفراهي بكلام العرب كثيراً مع استفادته من كتب اللغة يقول:

"فأما في سائر الألفاظ وأساليب حقيقتها ومجازها فالأخذ فيه كلام العرب القديم والقرآن نفسه، وأما كتب اللغة فإنها كثيراً ما لا تأتي بجيد تام ولا تميز بين العربي

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 23.

² المرجع السابق ص 29

القح والمولد، ولا تهديك إلى جرثومة المعنى، فلا يدري ما الأصل وما الفرع؟ وما الحقيقة وما المجاز؟ فن لم يمارس كلام العرب واقتصر على كتب اللغة ربما لم يهتد لفهم بعض المعاني من كتاب الله، ومن كلام العرب القديم الذي وصل إلينا ما هو منحول وما هو شاذّ، ولكن لا يصعب التمييز بين المنحول والصحيح على الماهر الناقذ فينبغي لنا أن لا نأخذ معنى القرآن إلا مما ثبت¹.

وعلى هذا يتضح أنّ الفراهي كان يستشهد على توضيح المعنى المراد بالشعر خاصة الجاهلي، ورأى أنّ جزءاً منه منحول لكنه لا يخفى على النقاذ، لذا أكد على عدم الاعتماد في توضيح الألفاظ القرآنية إلا على ما ثبت.

6- عدم الاعتماد بالمعنى الشاذ: ذهب الفراهي إلى أنه لا يلتفت في تفسير ألفاظ القرآن إلى المعنى الشاذ من اللغة كما قيل في معنى التني أنه هو التلاوة، وما فزعوا إلى هذا المعنى الشاذ الذي لم يثبت إلا فراراً من بعض الإشكالات، وهذا أفتح لأبواب الفتنة واختلاف الأمة.²

7- التزام اللغة العربية الفصحى: التزم الإمام الفراهي اللغة الفصيحة الجزلة القوية في كتاباته رغم أنه أعجمي، وكان يناقش آراء العلماء، ويصحح بعض المفاهيم، ويدعم كلامه بالأدلة، ويستشهد بالشعر الجاهلي ويشرحه، وبفضل عشقه للقرآن الكريم ولغته وصل إلى هذه المكانة في اللغة العربية، وخير مثال على ذلك فاتحة نظام القرآن.³

ثانياً: السياق (مفهومه - أنواعه)⁴

أ- مفهوم السياق: في اللغة: لفظة السياق مأخوذة من مادة (س و ق) التي يدور

¹ المرجع السابق، ص 32.

² المرجع السابق ص 32.

³ ينظر فاتحة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 15 وما بعدها.

⁴ تحدثت بإيجاز عن السياق وأنواعه لأن هناك رسائل وبحوثاً عديدة تناولت ذلك.

معناها حول: الحدو والدفع والتتابع.¹ وقد ذكر الزمخشري سياق الكلام ضمن المعاني المجازية التي يستخدم فيها اللفظ.²

وفي الاصطلاح: للسياق تعريفات عديدة، فقد ذهب أحد العلماء المحدثين إلى أنّ اللفظ (context) الذي يعني السياق يتكون من السابقة اللاتينية (con) بمعنى (مع) + (text) التي تعني (النسيج) في الأصل، ثم صارت تستعمل في معنى النص، أي مجموعة الجمل المترابطة مكتوبة كانت أو مقروءة، ثم أصبح للمصطلح بعد التركيب المعاني الآتية:

1. ما يحيط بالوحدة اللغوية المستعملة في النص.
2. قيود التوارد (المعجمي) التي تراعى عند استعمال أكثر من وحدة لغوية كاستعمال كلمة الأشهب للخيّل، والأملح للغنم عند إرادة التعبير عن بياض اللون.
3. نص لغوي يتسم بسعة نسبية ويؤدي معنى متكاملًا سواء أكان ذلك النص مكتوبًا أم متكلّمًا به.
4. الأحوال والمواقف الخارجية ذات العلاقة بالكلام.³

وقيل في تعريفه إنه إطار عام تنتظم فيه عناصر النص ووحداته اللغوية، ومقياس تتصل بوساطته الجمل فيما بينها وتترابط، وبيئة لغوية وتداولية ترعى مجموع العناصر

¹ ينظر في التعريف اللغوي للسياق مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون دار الفكر للطباعة والنشر، دت، 117/3 والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين-بيروت، ط الرابعة 1990م، 1499/4 ولسان العرب لابن منظور، دار المعارف - القاهرة مج 3، ص 2153-2154، مادة (س و ق) في المعجمات الثلاثة.

² أساس البلاغة للزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط الأولى، 1419هـ - 1998م، 484/1

³ دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث للدكتور عبد الفتاح البركاوي، دار المنار، القاهرة، ط الأولى 1411هـ، 1991م. يتصرف. ص 45

المعرفية التي يقدمها النص للقارئ.¹

والتعريفان يشملمان العناصر اللغوية وغير اللغوية. ويعدّ (جون فيرث) رائد النظرية السياقية، حيث أكد الوظيفة الاجتماعية للغة، وصرح بأنّ المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة.² ولا شك أنّ جذور هذه النظرية ممتدة إلى علماء القدامى أمثال ابن جني والجاحظ وابن قتيبة وغيرهم.

أ- أنواع السياق: قسّم فيرث السياق إلى نوعين، هما:

1- السياق الداخلي للحدث اللغوي، ويتمثل في العلاقات النحوية والصرفية، والصوتية، والدلالية بين الكلمات داخل تركيب معين من الكلمات.

2- السياق الخارجي وهو الذي يشكّل الإطار الخارجي للحدث الكلامي ويتمثل في السياق الاجتماعي أو سياق الحال بما يحتويه.³

وقد ذكر العلماء المحدثون للسياق أنواعاً كثيرة، منها:

1. السياق اللغوي وهو النص المكتوب أو المنطوق الذي يتحدد المعنى من خلاله⁴ أو هو دراسة النص من خلال علاقات ألفاظه بعضها ببعض، والأدوات المستعملة للربط بين هذه الألفاظ وما يترتب على تلك العلائق من دلالات كلية وجزئية،⁵ ويشمل عناصر أساسية تتمثل في:

أ- السياق الصوتي: ويهتم بدراسة الصوت داخل سياقه بالسياق الصرفي ويهتم

¹ أثر السياق في فهم النص القرآني للدكتور عبد الرحمن بو درع، ص 73.

² ينظر: علم الدلالة للدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط الخامسة 1998م، ص 68

³ ينظر: علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط الخامسة، 1998م، ص 68

⁴ علم الدلالة بين النظرية والتطبيق للدكتور عبد الفتاح أبو الفتوح، ص 90.

⁵ أثر السياق في فهم النص القرآني، ص 73.

- بدراسة المورفيمات حرة كانت أو مقيدة داخل سياق تركيبى معين.¹
- ب- السياق التركيبى: ويعنى بالبنية النحوية، وعلاقات الكلمات ووظائفها، ومواقعها من الترتيب.²
- ت- السياق المعجمى: ويهتم بدراسة المعنى الوضعى للمفردات.³
- 2- السياق العاطفى: وهو الذى يحدّد درجة القوة والضعف فى الانفعال فى العاطفة مما يقتضى تأكيداً أو مبالغة أو اعتدالاً، مثل استخدام كلمة الحب أو العشق أو الهوى وإن كانت تدور فى فلك واحد إلا أنّ استخدام كل كلمة يحتمه موقف معين.⁴
- 3- سياق الموقف: يعنى الموقف الخارجى الذى يمكن أن تقع فيه الكلمة، ويدل سياق الموقف على العلاقات الزمانية والمكانية التى يجري فيها الكلام، وقد عبر البلاغيون عن هذا السياق بمصطلح (المقام) وغدت كلمتهم: (لكل مقام مقال) مثلاً مشهوراً،⁵ ويشمل كل الأحوال والظروف والملابسات التى تصاحب النص، وتحيط به نطقاً وكتابة⁶ ويبدو فى أقوال الصحابة فى التفسير لأنهم شاهدوا القرائن والأحوال، وتمثل هذه القرائن فى أسباب النزول والمكي والمدني.
- 4- السياق الثقافى: يقتضى تحديد المحيط الثقافى أو الاجتماعى الذى على أساسه

¹ ينظر: مبادئ اللسانيات للدكتور أحمد محمد قدور، دار الفكر، دمشق، ط الثالثة، 2008م، ص 355

وعلم اللسانيات الحديثة للدكتور عبد القادر عبد الجليل، دار الصفاء للنشر، عمان، 2008م، ص 542

² السياق أنماطه وتطبيقاته فى التعبير القرآنى للدكتور خليل خلف بشير العامري، مجلة القادسية فى

الآداب والعلوم التربوية، مج 9، ع 2، 2010م، ص 42

³ دلالة السياق للدكتور ردة الله الطلحي، رسالة دكتوراه فى كلية اللغة العربية جامعة أم القرى،

1418هـ، 42/1

⁴ علم الدلالة للدكتور أحمد مختار عمر، ص 70.

⁵ ينظر: علم الدلالة للدكتور أحمد مختار عمر، ص 71 ومبادئ اللسانيات، ص 257.

⁶ علم اللغة للدكتور محمود السعران، ص 338-339.

يكون اختيار الكلمة المناسبة في التركيب المناسب.¹

وزاد بعضهم السياق التاريخي الذي يهتم برصد الحقائق التاريخية ذات الصلة الوثيقة بحياة العرب، فقد ذكر القرآن وقائع وأخبار خارجة عن محيطهم، فلم يخاطبهم إلا بما يفهمونه ويعهدونه لا سيما أنّ للعرب أسفاراً واتصالات وتجاراً تربطهم بالعالم الخارجي، ففي هذا السياق لا بد من الإحاطة بالجوانب التاريخية والوقوف على تفاصيلها الحقيقية² ويرى بعض العلماء أنّ للسياق التاريخي معنيين عام وخاص، فالعام هو سياق الأحداث القديمة والمعاصرة لزمان التنزيل، والخاص هو أسباب النزول.³

وكل هذه الأقسام تندرج تحت قسمين:

- 1- السياق الداخلي أو اللغوي، وهو الاستفادة من عناصر مقالية داخل النص.
- 2- السياق الخارجي أو غير اللغوي، وهو الاستفادة من العناصر غير اللغوية التي تصاحب النص.⁴

وهناك نوع آخر من السياق يسمّى بالسياق الذهني أو الصفري،⁵ وفيه تكون المعاني المحتملة كلها مرادة للقائل، ولا توجد قرينة ترح أحد هذه المعاني.

¹ ينظر: علم الدلالة للدكتور أحمد مختار عمر، ص 70 وما بعدها وعلم اللغة الاجتماعي لهدسون، ترجمة:

محمد عبد الغني عياد، دار الشؤون الثقافية بـغداد، 1987م، ص 38

² ينظر: دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم لعبد الوهاب أبو صفية الحارثي، ط الأولى، عمان، الأردن، 1989م، ص 113- والسياق وأنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني، ص 50.

³ ينظر: أثر السياق في فهم النص القرآني، ص 73.

⁴ ينظر: دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، ص 30.

⁵ ينظر: دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، ص 172-173 - والمشارك الأسلوب في الخبر والاستخبار في ضوء ما ورد في القرآن- دراسة تحليلية، ص 9، سوسن حسنين الهدهد. رسالة دكتوراه مخطوط في كلية الدراسات الإسلامية والعربية فرع البنات بالقاهرة جامعة الأزهر، 2009م.

ثالثاً: أنواع السياق عند الفراهي

عني الشيخ الفراهي بالسياق وأنواعه عناية كبيرة في تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"، وقد صرح بذلك في قوله: "ثم نرجع إلى سياق الكلام وغايته، فنأخذ بعض المعاني ونترك البواقي¹ وجاءت أنماط السياق عنده على النحو التالي:

1 - السياق اللغوي: أوضح الفراهي أنّ أول شيء اعتمد عليه في تفسير القرآن هو القرآن نفسه، قال: أول شيء يفسّر القرآن هو القرآن نفسه.²

ويسمى السياق اللغوي بالسياق المقالي أو اللفظي وهو نوعان:

النوع الأول: السياق المقالي الخاص أو الجزئي ويقصد به النصوص السابقة أو اللاحقة للنص المراد بيانه، أو جملة النصوص المترابطة مع هذا النص،³ نحو قوله تعالى: "إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ" (سورة الذاريات: ٥)

الموعود في الآية البحث بدلالة السياق اللغوي الجزئي المتمثل في الآية اللاحقة، قوله تعالى: "وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْفَعُوا" (سورة الذاريات: 6) لأن الجزء هو المقصود من البحث بعد الموت.⁴

النوع الثاني: السياق المقالي العام أو الكلي ويقصد به النصوص من القرآن الكريم من مواضع أخرى غير المراد بيانها، نحو قوله تعالى: "صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ" (سورة الفاتحة: 5) المنعم عليهم في آية الفاتحة هم النبي، والصديق والشهيد، والصالح، بدلالة السياق اللغوي الكلي الذي يتمثل في قوله

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 65.

² المرجع السابق، ص 23

³ السياق عند الأصوليين- المصطلح والمفهوم للدكتور فاطمة بو سلامة، مجلة الإحياء، ع 25، يوليو

2007م، ص 47

⁴ ينظر تفصيل هذا الموضوع، ص 43 وما بعدها من البحث.

تعالى في سورة النساء: "وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا" [سورة النساء].¹

2- السياق الخارجي: راعى الفراهي السياق الخارجي في الأنماط الآتية:

أ- تفسير القرآن بالسنة النبوية الشريفة: أوضح الفراهي أنّ أول شيء يفسر به القرآن هو القرآن نفسه ثم السنة النبوية، قال: إنّ أول شيء يفسر القرآن هو القرآن نفسه، ثم بعد ذلك فهم النبي والذين معه، ولعمري أحب التفسير عندي ما جاء من النبي وأصحابه - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.²

مثاله ما أخرجه الشيخان عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قوله: "وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ" (سورة يس: 38) قال: مستقرها تحت العرش، وأخرجنا عنه قال: كنت مع النبي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المسجد عند غروب الشمس، فقال يا أبا ذر- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أتدري أين تغرب الشمس، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله: "وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا....." (سورة يس: 38).³

ب- أسباب النزول: اهتمّ الفراهي بأسباب النزول، وأوضح أهميتها في فهم المراد من النص وأوضح أنّ المراد من سبب النزول هو شأن الناس وأمرهم الذي كان محلاً للكلام، فما من سورة إلا ولها أمر أو أمور جعلتها نصب العين وذلك تحت عمود السورة، فلك أنّ تلتبس شأن النزول من نفس السورة فإنّ الكلام لا بد أن يكون مطابقاً لموضعه ... فإذا كان سوق الكلام لموضوع تناسب هذا الكلام والموضوع

¹ ينظر تفصيل هذا الموضوع، ص 40 وما بعدها من البحث.

² تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 23.

³ صحيح البخاري- كتاب التفسير، باب قوله: وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا حديث رقم 4802، 4803 - وينظر: تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 70.

..... وما جاء في الآثار أنّ كذا وكذا من الأمور كان موجوداً حين نزول السورة، لكي يعلم أنّ الآيات كانت لها دواج ومواقع.¹

مثاله: أشار الفراهي إلى سبب نزول قوله تعالى: "إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا" [سورة التحريم:4]² قال: كان بين أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنس ونصح لا سيما بين أمّتي المؤمنين حفصة وعائشة كرمهما الله والحب لا يدع السر مكتوماً، فباحث به إحداهما إلى الأخرى فوبخهما الله على هذه الذلة³

وكذا ذكر سبب نزول الآيتين الأولى والثانية من سورة التحريم.⁴

ج- عادات العرب في أقوالها وأفعالها: اعتمد الفراهي في معرفة السياق على عادات العرب في أقوالها وأفعالها حال التنزيل، مثاله: قوله تعالى: "وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ" ^٥ وَطُورِ سَيْنِينَ ^٦ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ" (سورة التين: 1-3)⁵

ذهب الفراهي إلى أنّ التين والزيتون موضعان، التين: جبل في الشمال هو الجودي أو قريب منه، والزيتون الجبل الذي ناجى عليه سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبّه، واستدل على ذلك بالسياق الخارجي (الاجتماعي) الذي يتمثل في العادات والتقاليد التي كانت سائدة عند العرب، قال: "لا يخفى عليك أنه كان من عادة العرب التذكر برؤية الديار وآثارها، وكثر ذلك في كلامهم جداً، فذكر المواضع للتنبية على ما وقع فيها هو أقرب إلى أذهانهم وأوقع في نفوسهم."⁶

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 25.

² ينظر تفصيل ذلك في موضعه في البحث في السياق وأثره في تحديد المراد من الفعل المتعدى واللازم) ص 49-54.

³ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 192-193

⁴ المرجع السابق، ص 190-191.

⁵ ينظر تفصيل هذا الموضع، ص 7775 من البحث

⁶ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 344.

وكان ذكر هذه المواضع للتنبيه على الأحداث التي وقعت فيها، وكان هذا ديدن العرب وطريقتهم.

د- كلام العرب: اهتمّ الفراهي بالاستدلال بكلام العرب، قال: "فن لم يمارس كلام العرب واقتصر على كتب اللغة ربما لم يهتد لفهم بعض المعاني من كتاب الله ومن كلام العرب القديم،¹ حيث استشهد بأشعار عديدة لا سيما الشعر الجاهلي.

هـ- السياق التاريخي: قال تعالى: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ" (سورة الفيل:1) أشار القرآن إلى حقائق تاريخية لها صلة وثيقة بحياة العرب مثل: قصة أصحاب الفيل التي اشتهرت عند الجميع لتعلقها بأمر مقدس عند العرب وهذا جزء من ثقافتهم، وقد خاطب القرآن الكريم العرب بما يفهمونه ولا يمكن فهم المراد في مثل هذا إلا من خلال الإحاطة بالجوانب التاريخية.²

ذهب الفراهي إلى أنّ المخاطب بقوله: (أَلَمْ تَرَ) جميع من شهد هذه الواقعة، أو أيقن بها من طريق تواتر الحكاية ممن رآها، ويدل على ذلك:

السياق الخارجي الذي يتثل في شيوع واقعة أصحاب الفيل في المجتمع في ذلك العصر، وفي مجتمع أهل مكة؛ لذا أشار القرآن إليها ولم يفصل فيها لأنها كانت في غاية الاشتهار،³ حتى إنّ العرب اتخذتها مبدءاً لتاريخهم، وذكروها في أشعارهم.⁴

وهذا يعني أنه لما كانت الواقعة مشهورة عند الجميع، ناسب الخطاب بقوله: (أَلَمْ تَرَ) وللعموم؛ لأنّ واقعة أصحاب الفيل لا تخفى على أحد.

¹ المرجع السابق، ص 344.

² ينظر: السياق غير اللغوي في النص القرآني لتحليل خلف العامري مجلة جامعة بابل العلوم الإسلامية، مج 15، ع 4، 2008م، ص 1295

³ ينظر تفصيل هذا الموضوع، ص 83 وما بعدها من البحث.

⁴ ينظر: تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 438.

3- السياق الذهني أو الصفري: كان الفراهي في بعض الأحيان يجوز احتمال التأويلين، مثل قوله تعالى: "وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ" (سورة القيامة: 27)

الاستفهام في الآية "يحتمل أن يكون على حقيقته بمعنى الطلب، كأنهم طلبوا له طبيباً يشفيه وراقياً يرقيه، ويحتمل أن يكون بمعنى الإنكار والاستبعاد، كما يقول القائل عند اليأس من ذا الذي يقدر أن يرقى هذا الإنسان المشرف على الموت.¹

لا توجد قرينة واضحة تعين المعنى المراد من هذين المعنيين، فيكون المعنيان مرادين للقائل، قال الفراهي: "فوضعت المعنيين بين يديك نخذ بأيهما شئت ولا حرج إذا كان المآل واحداً.²

من كل ماسبق يتضح أن الفراهي راعى السياق بنوعيه الداخلي والخارجي في تفسير آيات القرآن الكريم.

المبحث الأول: السياق وأثره في توضيح المعنى المراد من الصيغ

- صيغتا: (فاعلة فعلة): قال تعالى: "فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّلَافَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ" (سورة الذاريات: 44)

تحكي هذه الآية حال قوم ثمود وعاقبتهم، حيث أعرضوا عما أمرهم الله تعالى به على لسان صالح عَلَيْهِ السَّلَام قال الفراهي: "(الصاعقة) القراءة بالألف هي الصيحة، ويؤيدها ما جاء من ذكرهم في سورة هود، قال تعالى: "وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ" (سورة هود: 67) ومن قرأ بغير الألف فأراد التفسير لما أنهم صعقوا لشدة الصيحة كما بينه بعد ذلك".³

¹ المرجع السابق، ص 239

² المرجع السابق - الصفحة نفسها.

³ المرجع السابق، ص 151.

التوجيه: اشتمل قول الفراهي على عدة أمور:

أولاً: أوضح الفراهي أنّ في (الصاعقة) قراءتين، قراءة بالألف (الصاعقة) على وزن فاعلة، وقراءة من غير ألف مع إسكان العين (الصعقة) (فعلة) قال ابن الجزري: اختلفوا في (الصاعقة) فقرأ الكسائي: (الصعقة) بإسكان العين من غير ألف، وقرأ الباقون بكسر العين وألف قبلها.¹

ثانياً: أكد الفراهي على اختلاف المعنى بين القراءتين، فالقراءة بالألف على (فاعلة) بمعنى الصيحة، والقراءة من دون ألف (الصعقة) على (فعلة) تشير إلى أنهم صعقوا لشدة الصيحة.

وقد اختلف اللغويون والمفسرون وعلماء التوجيه في القراءتين قال أبو زيد (الصاعقة): نار تسقط من السماء في رعد شديد، يقال: صعقتهم السماء: إذا ألقت عليهم الصاعقة،² ونقل ابن منظور عن ابن بري أنّ (الصعقة): الصوت الذي يكون عن الصاعقة³ وكأنّ الصعقة هي الصوت الذي يصحب الصاعقة وهي النار التي تسقط من السماء وذهب بعض اللغويين إلى أنّ الصاعقة والصعقة بمعنى "الصيحة" يغشى منها على من يسمعها أو يموت⁴ كما اختلف المفسرون- أيضاً- في معنى القراءتين، فذهب الزنجشيري إلى أنه قرئ الصعقة وهي المرة من مصدر صعقتهم

¹ النشر في القراءات العشر لابن الجزري، مراجعة: الشيخ على محمد الصباغ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 377/2

² الصحاح، 1506/4 مادة (ص ع ق).

³ لسان العرب مج 4، ص 2450، مادة (ص) ع (ق) - ينظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: د. محي الدين رمضان مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1974هـ، 289/2، واتحاف فضلاء البشر، ص 517.

⁴ لسان العرب، مج 4، ص 2450، مادة (ص) ع (ق) - والكشف عن وجوه القراءات السبع، 288-289/2.

الصاعقة والصاعقة: النازلة نفسها.¹

وذهب الرازي إلى أنّ (الصاعقة) يحتمل أن تكون الواقعة، ويحتمل أن تكون الصوت الشديد،² وذهب البقاعي إلى أنّ الصاعقة هي الصيحة العظيمة التي حملتها الرياح فأوصلتها إلى مسامعهم.....³ وقال ابن عاشور: الصيحة: الصاعقة أصابتهم.⁴ يتضح مما سبق: اتفاق البقاعي وابن عاشور والفراهي على أنّ معنى الصاعقة هو الصيحة. ثالثاً: الاحتجاج للقراءتين بذكر السياق: نحا الفراهي منحى علماء التوجيه في الاحتجاج للقراءتين، فنراه يذكر الحجة لكل قراءة مستدلاً بالسياق:

فقد ذهب كثير من علماء التوجيه للقراءات أنّ حجة من قرأ بألف (صاعقة) فإنه يريد العذاب أو الواقعة، أي: الاسم، وحجة من قرأ من دون ألف، فإنه يريد المرة الواحدة من الصعق،⁵ قال أبو زرعة: الصعقة هي المرة الواحدة بدلالة قوله تعالى: "فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ" (سورة الأعراف: 78) ولم يقل: الراجفة، وقوله: "وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ" (سورة العنكبوت: 40) يعني المرة الواحدة، فلما كان المعنى في الصيحة المرة الواحدة؛ ردّ ما اختلف فيه إلى ما أجمع عليه، وقرأ الباقر الصاعقة بالألف، وحجّتهم أنّ جميع ما في القرآن من ذكر الصاعقة جاء على هذا الوزن مثل: (الراجفة، والرادفة والطامة، والصاخة)، فردّوا ما اختلفوا

¹ الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري، شرح وضبط: يوسف

الحمادي، دار مصر للطباعة، مكتبة مصر، د.ت، 285/4

² تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب للإمام الرازي، دار الفكر، ط1،

1981م، 225/28

³ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت، 472/18

⁴ التحرير والتنوير ابن عاشور، دار سخون للنشر والتوزيع، تونس، 115/12

⁵ ينظر الحجة في القراءات السبع لابن خالوية، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، ط

الرابعة، 1981م، ص 332

فيه إلى ما أجمع عليه¹ كذا قال مكي بن أبي طالب.²

ويفهم من قول أبي زرعة أنّ الصعقة هي المرة الواحدة من الصعق والصعق هو أنّ يغشى على الإنسان من صوت شديد يسمعه، وربما مات منه،³ والصاعقة تشير إلى العذاب أو النازلة من كل ما سبق يتضح أنه قد اختلف علماء اللغة والتفسير وعلماء التوجيه في معنى القراءتين، ويلجأ الفراهي إلى الاستدلال بالسياق اللغوي الكلي والجزئي على المعنى المراد من القراءتين، فقد ذهب إلى أنّ (الصاعقة) بالألف هي الصيحة، واستدل على ذلك بالسياق:

أ- السياق اللغوي الكلي في سورة هود، والذي ورد في القصة نفسها، قال تعالى: "وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ..." (سورة هود: 67)

ب- السياق اللغوي الكلي في سورة القمر، قال الفراهي: "كان هلاك ثمود بمحض الصاعقة كما جاء في سورة القمر: "إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ" [سورة القمر: 31]، قال ابن عاشور: "الصيحة: الصاعقة وهي المعبر عنها بالطاغية في سورة الحاقة، وفي سورة الأعراف بالراجفة، وهي صاعقة عظيمة خارقة للعادة أهلكتهم، ولذلك وصفت بـ(واحدة) للدلالة على أنها خارقة للعادة إذ أنت على قبيلة كاملة وهم أصحاب الحجر".⁴

وذهب الفراهي إلى أنّ الصعقة تشير إلى أنّ سبب صعق ثمود هو شدة الصيحة، واستدل على ذلك بالسياق اللغوي الجزئي الذي يتثل في الآية اللاحقة لهذه الآية، قال تعالى: "فَمَا اسْتَظَلُّوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ" (سورة الذاريات: 45)

¹ حجة القراءات الإمام لأبي زرعة عبد الرحمن بن زنجلة، تحقيق: سعيد الأفغاني مؤسسة الرسالة، ط الثالثة، 1982م، ص 68

² الكشف عن وجوه القراءات السبع، 289-288/2

³ لسان العرب، مج 4، ص 2450 (ص ع ق).

⁴ التحرير والتنوير، 202/27

المبحث الثاني: السياق وأثره في توضيح المعنى المراد من التركيب

1- السياق وأثره في تعيين الموصوف وصفته: قال تعالى: "فَالْحَمَلَتْ وَفَرًا" ①
فَالْجَرِيَتْ يُسْرًا ② فَاَلْمُقَسِّمَتِ أَمْرًا" (سورة الذاريات: 2-4)

هذه صفات للرياح، وقد عطفت بالفاء. ذهب الفراهي إلى أن الفاء في هذه الآيات عاطفة تفيد الترتيب، قال: "عطفت الصفات بالفاء دليل على ترتيب في الصفات، وذلك يدل على أنها صفات شيء واحد، بل ربما يعطف بالواو مع كون القسم بشيء واحد كما ترى في أول سورة المرسلات، فالقول بأن هذه الصفات لأشياء مختلفة يخالف النظائر وكلام العرب مثلاً: "وَالْعَدِيدَتِ صُبْحًا ③ فَاَلْمُورِيَّتِ قَدَحًا ④ فَاَلْمُعِيرَتِ صُبْحًا ⑤ فَأَثَرَنَ بِهِ نَقْعًا ⑥ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا". [سورة العاديات: 1-5]

وقال ابن زبابة التيمي:

يا لهف زبابة للبحارث الصباح فالغانم فالآيب¹

ثم لا حاجة إلى جعل هذه الصفات لأشياء متعددة، فإنها كلها مناسبة بالموصوف الواحد.²
التوجيه: اختلف العلماء في الموصوف بالصفات في هذه الآيات، فذهب بعضهم إلى أن الموصوف واحد وهو الرياح، بينما ذهب بعض آخر إلى أنها صفات لأكثر من موصوف. وتتعدد معاني الفاء الوظيفية، فهي إما أن تكون عاطفة وإما أن تكون للتعقيب، وإما أن تكون للسببية.

ذهب ابن هشام إلى أن الفاء ترد على ثلاثة أوجه أحدها: أن تكون عاطفة، وتفيد ثلاثة أمور أحدها الترتيب وهو نوعان معنوي كما في (قام زيد فعمر)، وذكرى وهو

¹ البيت من بحر الرجز، وهو في ديوان الحماسة لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي، تحقيق: عبد الله بن

عبد الرحمن عسيلان، جامعة الإمام المجلس العلمي، 1981م، 92/1

² نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 121-122

عطف مفصل على مجمل نحو: "فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا..." (سورة البقرة: 36)..... الأمر الثاني: ... التعقيب.... والأمر الثالث: السببية وذلك غالب في العاطفة جملة أو وقد تجيء في ذلك لمجرد الترتيب صفة وقد تجيء في ذلك لمجرد الترتيب نحو "فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا ۖ فَالتَّلِيلِ ذِكْرًا" [سورة الصافات: 2-3].¹

فقد أشار ابن هشام إلى أنَّ الفاء تعطف جملة أو صفة وتفيد الترتيب وهذا ما أوضحه الفراهي، حيث قال: عطف الصفات بالفاء دليل على ترتيب في الصفات² فالفاء هنا عاطفة تفيد الترتيب، وذلك دلالة على أن الموصوف بهذه الصفات شيء واحد وهو (الرياح). وهذا ما أكدّه الرازي،³ وذهب أبو حيان إلى أنه يحتمل أن يكون الموصوف متغيراً، ويحتمل أن يكون واحداً وهو من عطف الصفات.⁴

وذهب الألوسي إلى أنه إذا حملت الصفات على أمور مختلفة متغيرة فالفاء للترتيب في الأقسام ذكراً ورتبة وإن حملت على واحد وهو (الرياح) فهي لترتيب الأفعال والصفات، إذ الريح تذر الأبنجرة إلى الجو أولاً حتى تتعقد سخاباً، فتحمله ثانياً، وتجري به ثالثاً ناشرة وسائقة له حيث أمرها الله تعالى.⁵

وذهب ابن عاشور إلى جواز أن تكون الصفات لموصوف واحد وهو الغالب في عطف الصفات بالفاء،⁶ وأسلوب العرب في عطف الصفات وعطف الأمكنة

¹ مغني اللبيب لجمال الدين بن هشام الأنصاري، مطبعة مصطفى محمد، مصر، 1356هـ، 1/139-140

² تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 121.

³ تفسير الفخر الرازي، 28/196 وينظر: الكشف، 4/278.

⁴ البحر المحيط لأبي حيان التوحيدي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب

العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 2007م، 8/133

⁵ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي،

بيروت، لبنان، 3/27

⁶ التحرير والتنوير، 26/337.

يكون بالفاء.¹

من كل ما سبق، يتضح:

أن الصفات في الآيات الثلاث لموصوف واحد وهو الرياح، وهذا ما ذهب إليه كثير من العلماء، وأكدّه الفراهي، واستدل على ذلك بالسياق اللغوي الذي يمثّل في الفاء التي عطف بها والتي أفادت الترتيب، والفاء وحدة نحوية إفرادية، كما أن أسلوب العرب في عطف الصفات يكون بالفاء، كما في قوله تعالى: "وَالْعَدِيدَاتِ صَبَحًا ① فَأَلْمُورِيَّتِ قَدَحًا ② فَأَلْمُغِيرَتِ صُبْحًا ③ فَأَتَزَنَ بِهِ نَقْعًا ④ فَوَسَطَنَ بِهِ جَمْعًا ⑤" (سورة العاديات: 1-5) فالموصوف هنا واحد؛ لذا عطف الصفات بالفاء.

2- السياق وأثره في تعيين المراد من أدوات المعاني: قال تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ" (سورة المرسلات: 48) توضح هذه الآية أن من صفة الكفار أنهم إذا دعوا للصلاة لا يصلّون.² ذهب الفراهي إلى أن (إذا) كثيراً ما تجيء للاستقبال،³ وقد جاء في القرآن أن الناس إذا حشروا دعوا للسجود لربهم، فالذين لم يسجدوا لله في الدنيا لم يستطيعوه ذلك اليوم، كما قال تعالى: "يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ① خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ②" (سورة القلم: 42-43)، وعلى هذا يكون التأويل: أنهم لا يركعون يوم الفصل وأيضاً كلمة (إذا) تكون لبيان العادة،⁴ وعلى هذا يكون التأويل أنهم لا يركعون في الدنيا، وحينئذ يفهم من آية "وَيُلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ" (المرسلات: 47) أنهم إذا لم يركعوا في الدنيا لا يستطيعونه يوم الفصل، وحينئذ يتضح جرمهم،

¹ المرجع السابق، 501/30.

² ينظر: تفسير الفخر الرازي، 284/30.

³ تكون ظرفاً للمستقبل متضمنة معنى الشرط، وتختص بالدخول على الجملة الفعلية. ينظر: مغني اللبيب لابن هشام، 84/1

⁴ لم أجد هذا المعنى فيما اطلعت عليه من مصادر، ولعله استشف هذا المعنى من هذا الموضع.

وهذا سبب ويلهم، فال التأويلين واحد.¹

التوجيه: يتضح مما قاله الفراهي أنّ (إذا) تفيد الاستقبال، وهذا كثير،² ويكون المعنى: أنهم لا يستطيعون الركوع يوم القيامة، كما أنها أفادت بيان العادة في هذه الآية والمعنى: أنهم لم يعتادوا الركوع في الدنيا.

ومآل التأويلين واحد وهو: أنهم لم يعتادوا الركوع في الدنيا لذا لا يستطيعونه يوم القيامة. بينما ذهب كثير من العلماء إلى أن معنى الآية: أنّ هؤلاء الكفار إذا أمروا بالصلاة أو بالركوع لا يفعلون،³ وذهب الألوسي إلى أنّ المعنى: أطيعوا الله تعالى واخشعوا وتواضعوا له عزَّجَلَّ بقبول وحيه واتباع دينه سبحانه، ورفضوا هذا الاستكبار،⁴ وقال ابن كثير: إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلّين مع الجماعة امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه⁵ والمعنى واحد عند العلماء وهو أنّ هؤلاء الكفار إذا أمروا بالصلاة والركوع في الدنيا لا يركعون.

أما الفراهي فقد أوضح أنّ قوله تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ" (سورة المرسلات: 48) بيان لقوله: "إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ" (سورة المرسلات: 46) على كلا التأويلين لقوله: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ"، فإنّ مَنْ لم يركع لله في الدنيا فقد

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 266-267.

² تأتي إذا على وجهين للمفاجأة وتكون للحال، ولغير المفاجأة وتكون ظرفاً للمستقبل متضمنة مع الشرط، وقد تخرج عن معنى الظرفية، وقد تخرج عن الاستقبال فتجيء للماضي أو للحال ينظر في معاني (إذا) مغني اللبيب لابن هشام، 79/1 وما بعدها- وحروف المعاني لأبي القاسم بن إسحاق الزجاجي، تحقيق: د. علي توفيق الحمد مؤسسة الرسالة، دار الأمل، ص 63 القسم الثاني.

³ ينظر: الكشاف، 528/4- وتفسير الفخر الرازي، 283/30- والبحر المحيط، 399/8- ونظم الدرر، 187-189/21- والتحرير والتنوير، 447-446/29.

⁴ روح المعاني، 178/29

⁵ تفسير القرآن العظيم لابن كثير، مكتبة الصفا، ط الأولى، 2004م، 191/8

ارتكب جرماً عظيماً، فإنَّ أول الفرائض الخشوع لله تعالى وأكبر الكجائر الاستكبار عنه وذلك لازم التكذيب... وأما على التأويل الثاني فبأنكم مجرمون الآن ثم ذكر أنَّ جرهم يتبين يوم القيامة إذا دعوا إلى الركوع وعجزوا عنه، ومفاد آية الويل ههنا بيان كون الويل نتيجة لعدم ركوعهم على كلا التأويلين.¹

فقد أوضح الفراهي أنَّ المعنى: إذا طلب من هؤلاء الكفار الركوع يوم القيامة لا يركعون لأنهم لم يركعوا في الدنيا ولم يعتادوا عليه، وذلك مستفاد من معنى إذا: (الاستقبال- وبيان العادة)، وقد استدل على ذلك:

أ- بالسياق اللغوي الذي يتمثل في قوله تعالى: "يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾" [سورة القلم: 42-43].

ب- السياق الخارجي (سياق الحال أو المقام) الذي يتمثل في ما رواه ابن عباس -رضي الله عنه- قال: هذا يوم القيامة يدعون إلى السجود فلا يستطيعون السجود من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون في الدنيا.²

3- السياق وأثره في توضيح المراد من الموصول وصلته وضمير الصلة: الموصول هو ما افتقر إلى الوصل بجملة خبرية، أو ظرف أو مجرور تامين، أو وصف صريح، وإلى عائد أو خلفه، ويحتاج الموصول إلى أمرين الصلة وهي واحد من أربعة أمور: أحدها: الجملة وشرطها أن تكون خبرية... والثاني: الظرف، والثالث: الجار والمجرور.... والرابع الوصف الصريح، والأمر الثاني: الضمير العائد من الصلة إلى الموصول.³

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 269-270

² روح المعاني، 178/29

³ شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام الأنصاري، المكتبة العصرية (صيدا- بيروت)، ص 137- وينظر: حاشية الصبان على شرح الأشموني، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، 146/1

أ- قال تعالى: "صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ" (سورة الفاتحة: 7)

أوضح الفراهي المنعم عليهم في هذه الآية، قال: "فاعلم أنّ الله تعالى بين قوله: "صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ" (سورة الفاتحة: 7) في سورة النساء، حيث قال عزّ من قائل: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴿٦٨﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٩﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٧١﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٢﴾". (سورة النساء: 64-70) فلم يلتبس على العلماء بعض ما في هذه الآيات، فإنهم اتفقوا على أنّ فيها بيان ما ذكر في الفاتحة من المنعم عليهم، فقالوا: إنهم أربع درجات: النبي، والصدّيق والشهيد والصالح فالآن تفصيل هذا الأمر بالنظر في ما سبق ولحق بهذه الآية الواحدة التي فيها تفصيل الدرجات الأربع.¹

التوجيه: اتضح من قول الفراهي أنّ المنعم عليهم في آية الفاتحة هم: النبي والصدّيق والشهيد والصالح، واستدل على ذلك بالسياق اللغوي الكلي الذي يمثّل في قوله تعالى في سورة النساء: "وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا". (سورة النساء: 69)

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 98-99.

وقد اختلف بعض المفسرين في المراد بالمنعم عليهم، قال: أبو حيان "والمنعم عليهم- هنا- الأنبياء أو الملائكة، أو أمة موسى وعيسى الذين لم يغيروا، أو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو النبيون والصديقون والشهداء والصالحون،¹ وقيل: "المؤمنون مطلقاً وقيل: أصحاب موسى وعيسى عليهما السلام قبل التحريف والنسخ، وقيل: أصحاب محمد وقيل محمد وأبو بكر وعمر- رضي الله تعالى عنهما.²

وذهب الألوسي إلى أنّ "الأولى ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس- رضي الله تعالى عنهما- أن المراد بالذين أنعمت عليهم الأنبياء والملائكة والشهداء والصديقون ومن أطاع الله تعالى وعبدته، وإليه يشير قوله تعالى: "وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا" (سورة النساء: 69)³

وبهذا يتفق الفراهي مع الألوسي في الاستدلال بالسياق اللغوي الكلي على المراد من المنعم عليهم.

ثم يؤكد الفراهي كلامه بالإشارة إلى السياق الخارجي الذي يتثل في أسباب نزول الآيات التي في سورة النساء، حيث يقول: اعلم أنّ هذه الآيات تخاطب أهل الكتاب الذين منهم المنافقون، وتدعوهم إلى الطاعة الصحيحة، والانقياد التام للنبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتخبرهم بأنّ الذين ظلموا أنفسهم بالعصيان إن جاءوا إلى النبي واستغفروا الله مستشفعين بهذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجدوا الله تعالى تواباً رحيماً، فيغفر لهم ما سبق، فإذا ثبتوا على التوبة بالطاعة آتاهم أجراً عظيماً، وهداهم الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم، فاتضح لنا أنّ تحت هذه الدرجات الأربع درجة للذين استغفروا بعد ما ظلموا

¹ البحر المحيط، 147/1.

² روح المعاني، 94/1- وينظر: التحرير والتنوير، 194/1.

³ المرجع السابق- الصفحة نفسها.

أنفسهم، وهم الذين يلحقون بهؤلاء الأربعة كما قال تعالى: "فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا" (سورة النساء: 69) فالتوبة بعد الظلم درجة مستقلة رفيعة، وكثر حمدها في القرآن.¹

يشير الفراهي في كلامه السابق إلى السياق الخارجي الذي يتمثل في سبب نزول آيات سورة النساء، ويستدل به على المراد من المنعم عليهم في سورة الفاتحة.

وأوضح النيسابوري في أسباب نزول قوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا" (سورة النساء: 60) أنه "كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة فدعا اليهودي المنافق إلى النبي لأنه علم أنه لا يقبل الرشوة، ودعا المنافق اليهودي إلى حاكمهم؛ لأنه علم أنهم يأخذون الرشوة في أحكامهم، فلما اختلفا اجتماعاً على أن يحكما كاهناً في جهينة فأُنزل الله تعالى في ذلك: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ" يعني المنافق "وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ" يعني اليهود، "يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ" (سورة النساء: 60) إلى قوله "وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا" (سورة النساء: 65).² وهناك روايات أخرى ذكرها النيسابوري وأبو حيان وابن عاشور،³ وقال مجاهد: نزلت الآيات فيمن أراد التحاكم إلى الطاغوت، ورجحه الطبري؛ لأنه أشبه بنسق الآيات.⁴

وقد أشار الفراهي إلى السياق الخارجي ليوضح أن هناك صنفاً آخر يضاف إلى المنعم عليهم في سورة الفاتحة والنساء، هذا الصنف هم الذين ظلموا أنفسهم حيث تحاكموا إلى

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 99

² أسباب النزول للنيسابوري، ص 119-120

³ ينظر: المرجع السابق، 120-121- والبحر المحيط، 291/3- والتحرير والتنوير، 102/5

⁴ ينظر: تفسير الطبري، 523/8-524- والبحر المحيط، 296/3.

الطاغوت فكان ذلك عصيانياً لهم ثم ذهبوا إلى المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طالبين منه الاستغفار، قال ابن عاشور كان فعل هذا المنافق ظلماً لنفسه؛ لأنه أحكمها في معصية الله ومعصية الرسول، فجرّ لها عقاب الآخرة وعرضها لمصائب الانتقام في العاجلة¹ مما سبق يتضح استدلال الفراهي بالسياق اللغوي والخارجي على المراد من المنعم عليهم في قوله تعالى: "صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ..." (سورة الفاتحة: 7)

ب- قال تعالى: "إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ" (سورة الذاريات: 5)

الاسم الموصول هنا (ما) وتسمى (ما) الناقصة لأنها تحتاج إلى الصلة بحيث لا تتم إلا بها،² وجملة الصلة (توعدون)، والعائد محذوف تقديره (توعدون) أو (توعدون به).³

ذهب الفراهي إلى أن ما يوعدونه يعم كل ما وعد الله به على لسان رسله، وما وعد به المؤمنين من النصره والكافرين من الخذلان في الدنيا والوعد بالبعث قال: "توعدون من الوعد أي ما وعدكم الله على لسان رسله وأقام عليه دلائل بيّنة، وقد كثر في القرآن أنّ القيامة والبعث والجزاء حسب الأعمال الحسنة والسيئة، كل ذلك وعد من الله تعالى مثلاً: "إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا" (سورة يونس: 4)، أيضاً: "وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا" (سورة النحل: 38) ... أيضاً "وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيُغْلَمُوا أَنَّ وَعَدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا" (سورة الكهف: 21) ثم يشمل هذا الوعد أيضاً ما وعد الله المؤمنين من النصره والكافرين من الخذلان في هذه الحياة، وقد جاء ذكر ذلك في القرآن فنه قوله تعالى: "وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ"

¹ التحرير والتنوير، 110/5.

² مغني اللبيب لابن هشام، مطبعة مصطفى محمد، 1356، 2/2 (هامش).

³ ويحتمل أن تكون (ما) مصدرية، أي إنه وعدكم أو وعيدكم البحر المحيط، 133/8 - وروح المعاني، 27/4

(سورة النور: 55)¹ ثم أكّد الفراهي على أنّ ما يوعده هو البعث، قال: "فقله :
"إِنَّمَا تُوعَدُونَ" بظاهره يعم كل ما وعدوا، ولكن موقعه يخصه بما وعدوا من
البعث،² وهذا ما ذهب إليه الزمخشري، حيث أكّد على أنّ الموعد بالبعث،³ وذهب
البقاعي إلى أنّ ما توعدون يحتمل الوعد للطائع والوعيد للعاصي،⁴ وذهب ابن عاشور
إلى أنّ "الذي أوّده عذاب الآخرة وعذاب الدنيا، مثل: الجوع في سني القحط
السبع الذي هو دعوة النبي عليهم ويجوز أن يكون (توعدون) من الوعد
والمراد بالوعد الوعد بالبعث.⁵

فقد وافق الفراهي الزمخشري وابن عاشور في أنّ الموعد هو البعث واستدل على ذلك
بالسياق اللغوي الذي يتمثل في:

أ. قوله تعالى- بعد هذه الآية: "وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْعَدَ" (سورة الذاريات: 6) لأنّ الجزاء هو
المقصود من البعث بعد الموت، فكأنّ المقصود من البعث هو إثابة المطيع وعقاب العاصي.
ب- بعض آيات القرآن الكريم التي توضح أنّ الموعد هو البعث، منها: قال تعالى:
"إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا
يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾" (سورة يونس: 4) "وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن
يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾" (سورة النحل: 38).
يقول الفراهي: قوله: (إِنَّمَا تُوعَدُونَ) بظاهره يعم كل ما وعدوا ولكن موقعه يخصه

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 123.

² المرجع السابق- الصفحة ذاتها

³ الكشف، 278/4.

⁴ نظم الدرر، 448/8 - وينظر: روح المعاني، 27/4.

⁵ التحرير والتنوير، 340/26.

بما وعدوا من البعث كما جاء فيما ذكرنا من الآيات، وكما يفسره ما يتبعه من ذكر وقوع الدين، "وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْفَعُوا" (سورة الذاريات: 6)

"أي: الدينونة والجزاء، وذلك داخل في (ما توعدون) فالعطف من قبيل عطف الخاص على العام أو الجزء على الكل فإنّ الدين أي الجزء هو المقصود من البعث بعد الموت، كما صرح بذلك في كثير من المواضع¹.

4- السياق وأثره في تحديد المعنى المراد من الفعل المتعدي أو اللازم: قال تعالى: "إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا....." (سورة التحريم: 4) هذه الآية خطاب لحفصة وعائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- على طريق الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما².

يتعدى الفعل (صغا) بحروف الجر الثلاثة (إلى عن على)

ذهب الفراهي إلى أنّ الفعل (صغا) معناه مال إلى الشيء، لا مال عنه، ورأى أنّ (الميل) هو المعنى الكلي و(الصغو) من المعاني التي تندرج تحته، قال:

"في جميع الألسنة، ولا سيما في لغة العرب ألفاظ خاصة لأفراد خاصة تحت معنى كلي والذهول عن هذه الخصوصيات مبعد عن فهم اللسان مثلاً: الميل معنى كلي، ثم تحته الزيف والجور، والارعواء، والحيادة والتنحي، والانحراف كلها للميل عن الشيء، والفني، والتوبة، والالتفات والصغو كلها للميل إلى الشيء، فمن خبط بينهما ضلّ وأضلّ.

فلا يخفى عن العالم بلسان العرب أنّ قوله تعالى: "صَغَتْ قُلُوبُكُمَا" معناه: أثابت قلوبكما، ومالت إلى الله ورسوله، فإنّ الصغو هو الميل إلى الشيء لا عن الشيء منه صاغة الرجل لأتباعه، وصعوه معك أي: ميله وأصغيت إلى فلان، أي: ملت بسمعك نحوه³.

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 123.

² الكشف، 4/422.

³ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 198 وينظر: لسان العرب مج 4، ص 2454، مادة (ص غ ا).

وكأن الفراهي يرى أنَّ الفعل (صغا) لا يتعدَّى إلا بحرف الجر (إلى) فقط لأنَّ عنده (صغا) بمعنى: مال إلى.

وبالرجوع إلى المعاجم اللغوية اتضح أنَّ الفعل (صغا) يتعدي بحروف الجر الثلاثة: (إلى، وعن وعلى، قال الخليل: " صغا يصغو فؤاده إلى كذا، أي: مال، وصغوك إليه أي: ميلك، وأصغيت إليه: استمعت والإصغاء: الإمالة،¹ وقال ابن منظور: "صغا إليه يصغي ويصغو صغوًا، وصغا: مال ... وقال ابن السكيت: "صغيت إلى الشيء أصغى صغيًا: إذا ملت ... وصفوه معك وصفوه وصغاه، أي ميله معك،² ويقال:

صغا الرجل: إذا مال على أحد شقيقه أو انحنى في قوسه، وصغا على القوم صغا: إذا كان هواه مع غيرهم³ فكأنه مال عنهم، وفي المعجم الوسيط: "صغا إلى القوم: كان هواه معهم، وصغا على القوم: كان هواه مع غيرهم.⁴

مما سبق، يتضح أنَّ الصغو عند الفراهي بمعنى: الميل إلى، أما عند اللغويين فبمعنى الميل مطلقًا، ثم يأتي حرف الجر بعده ليوضح المعنى فيتعدَّى الفعل صغا بحرف الجر (إلى)، يقال: صغا إلى الشيء، أي مال إليه ويؤيده قوله تعالى: "وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَضُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ" (سورة الأنعام: 113) ويتعدَّى بـ(على) نحو: صغا على القوم: إذا كان هواه مع غيرهم، وكأنه مال عنهم، وتتضمن على معنى (عن)، وتعدي الفعل (صغا) بعن مستفاد من أقوال المفسرين:

قال الزمخشري: " إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا... " فقد وجد منكما ما يوجب التوبة، وهو ميل قلوبكما عن الواجب في مخالصة رسول الله في حبِّ ما يحبُّ

¹ العين للخليل (غ ص و).

² لسان العرب مج 4، ص 2354، مادة (ص) غ (1) - وينظر الصحاح (2405) - المادة نفسها.

³ لسان العرب مج 4، ص 2454، مادة (ص غ 1).

⁴ المعجم الوسيط، ص 515، مادة (ص غ 1).

وكراهة ما يكرهه،¹ وقال الرازي: فقد (صَغَتْ قُلُوبُكُمْ) أي: عدلت ومالت عن الحق، وهو حق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك حق عظيم يوجد فيه استحقاق العتاب بأدنى تقصير،² قال أبو حيان: "فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمْ": مالت عن الصواب،³ وقال الألوسي: مالت عن الواجب في مخالصته بحب ما يحبه وكراهة ما يكرهه إلى مخالفته.⁴

يتضح مما قاله المفسرون أنّ (صغت) في الآية بمعنى مالت عن. وجواب الشرط محذوف للعلم به، والتقدير كان خيراً لكم،⁵ وقيل التقدير: يحو إثمكم، وقيل: فقد أدبتم ما يجب عليكم،⁶ وهذا ما أشار إليه الفراهي عندما قال: الجملة بعد (قد) تذكر أمراً ليسهل به ما ذكر بعد (إن)، كأن تقدير الكلام أنه يكن كذا وكذا فلا بأس أو لا إشكال، أو الأمر هين، فإنه وقع كذا وكذا،⁷ وعليه فقد ذهب الفراهي إلى أنّ التأويل الواضح للآية هو: إن تتوبا إلى الله بابتغاء مرضاة النبي كما هو يبتغي مرضاتكم فهذا هو المرجو منكم، فإنّ قلوبكم راغبة إليه⁸ واستدل بعض المفسرين على أن صَغَتْ قُلُوبُكُمْ بمعنى: مالت عن بقراءة ابن مسعود (زاغت)⁹ ويردّ الفراهي ذلك بقوله: قراءة من لا يعبأ به،¹⁰ فهل ترى كيف سعيهم في أن يبدّلوا معنى (صغا) إلى (زاغ).¹¹

¹ الكشف، 423/4.

² تفسير الفخر الرازي، 44/30.

³ البحر المحيط، 268/8.

⁴ روح المعاني، 152/28.

⁵ تفسير الفخر الرازي، 44/30.

⁶ روح المعاني، 152/28.

⁷ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 201.

⁸ السابق الصفحة نفسها.

⁹ ينظر: الكشف، 423/4- والبحر المحيط، 286/8- وفي مختصر شواذ القرآن من كتاب البديع لابن

خالوية، ص 158، قراءة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والأعمش مكتبة المتنبي- القاهرة.

¹⁰ ما قاله الفراهي لا يليق بصحابي جليل مثل عبد الله بن مسعود حتى وإن كانت قراءته شاذة.

¹¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 200.

وذهب ابن عاشور إلى أنّ (صغت) في الآية بمعنى: مالت إلى، قال: صغت مالت، أي مالت إلى الخير وحق المعاشرة مع الزوج.... وفيه إيماء إلى أنّ ما فعلناه انحرافاً عن أدب المعاشرة الذي أمر الله به، وأنّ عليهما أنّ تتوبا مما صنعتاه ليقع بذلك صلاح ما فسد من قلوبهما.¹

يتفق الفراهي مع ابن عاشور في أنّ المعنى المراد من قوله تعالى: "صَغَتْ قُلُوبُكُمَا مالت إلى الله ورسوله، ومالت إلى الخير وحق المعاشرة مع الزوج.

وأرى أنه لا خلاف بين الرأيين الرأي الأول الذي رأى أصحابه أنّ معنى "صَغَتْ قُلُوبُكُمَا": مالت عن الحق والرأي الثاني: الذي ذهب أصحابه إلى أنّ المعنى مالت إلى الخير والحق، لأنّ معنى الآية - على الرأي الأول: إن تتوبا إلى الله فلا بأس، فقد بدر منكما ما يوجب التوبة وهو ميل قلوبكما عن الحق، وهو إفشاء سر الزوج، قال ابن عاشور. إنباء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعلمه بما أفشته القصد منه الموعظة والتحذير والإرشاد إلى رَأْب ما انثلم من واجبه نحو زوجها، وإذ قد كان ذلك إثماً لأنه إضاعة لحقوق الزوج وخاصة بإفشاء سره ذكرها بواجب التوبة منه.² ومعنى الآية على الرأي الثاني: فقد صغت قلوبكما، أي: مالت إلى الخير وحق المعاشرة مع الزوج، وكأنّ مآل التأويلين واحد.

واستدل الفراهي على أنّ معنى قوله تعالى "صغت قلوبكما" مالت إلى الحق وإلى الله ورسوله بالسياق الخارجي الذي يتمثل في سبب نزول الآية، قال: كان بين أزواج النبي أنس ونصح، لا سيما بين أمّتي المؤمنين حفصة وعائشة - كرمهما الله ... والحب لا يدع السر مكتوماً، فباحث به إحداهما إلى الأخرى، فوبخهما الله تعالى على هذه الزلة.³

¹ التحرير والتنوير، 356/28.

² التحرير والتنوير، 356/28.

³ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 192-193 - وينظر: أسباب النزول للنيسابوري، ص 328.

ثم قال: "فلما أظهر النبي بعض السخط علي إفشاء السريينهما، وقلل الاستئناس بهما، كبر ذلك عليهما، وهيج فيهما الحمية والغيرة، وهذه قلما تفارق أهل الشرف والعزة، مع أنها في بعض الأحيان خطأ، فأعرضنا عن النبي بعض الإعراض، كما يقع بين المرء وزوجه وحسبنا أنه ليس في شيء من الدين فوعظهما الله، وأوضح لهما أنّ ولاية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكما ومصيره إليكما ليس إلا رافة منه بكما ... ثم هو محفوف بالملائكة فلن يعدم الاستئناس، وبين لهما أنّ الإعراض عن النبي في المعروف إعراض عن أمر الله ولا بد لكما من التوبة إلى الله".¹

5- السياق وأثره في تحديد المعنى المراد من الأسلوب الإنشائي

أ: أسلوب الاستفهام: قال تعالى: "وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ" (سورة القيامة: 27) هذا القول على لسان من حاضروا المختضر، أو من يعز عليهم الميت بعضهم لبعض: أيكم يرقيه مما به؟ قوله تعالى: (مَنْ رَاقٍ) أسلوب استفهام يحتمل أن يكون على حقيقته ويحتمل أن يكون بمعنى الإنكار والاستبعاد، فهو مشترك أسلوبياً، قال الفراهي: "وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ" حكاية عن شدة الأمر حين لا يلتفت إلى الذي قال ... (من قبل النكرة تجيء لشدة الطلب أو عند غلبة اليأس وربما ينتهي اليأس إلى الإنكار كما هو العادة في الاستفهام في جميع الألسنة المشهورة، ومنه قوله تعالى: "مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ" (سورة القصص: 71)، والاستفهام للإنكار شائع،² ولكني أردت الاستشهاد على مجيء النكرة بعد (من) وكشف معناها في هذا التركيب الخاص، فإن الآية محتملة لوجهين الأول: أنه إذا جاءت سكرة الموت، وحشرت النفس، وقالت العواد اضطراباً ألا راق فيداويه؟

¹ المرجع السابق، 193-194.

² الاستفهام في قوله: "مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ" إنكاري وهم معترفون بهذا الانتفاء وأنّ خالق الليل والنهار هو الله تعالى لا غيره، التحرير والتنوير، 169/20

الثاني: إنهم قالوا: قد حم الأمر، وانقطع العمر، فأبي راق يشفيه؟ وهذا لشدة يأسهم، وحينئذ أيقن المحتضر أنهم أسلموه وودعوه، وعلم أنه الفراق والعرب قد نطقت بهذا المعنى. قالت الخنساء:

لكن سهام المنايا من يُصَبِّن له لم يشفه طب ذي طب ولا راق¹
وقال عدي بن زيد:

أو تكن وجهةً فتلك سبيل الناس لا تمنع الخوف الرواقي³²
التوجيه: ذهب الفراهي إلى أن قوله تعالى: (مَنْ رَاقٍ) أسلوب استفهام يحتمل أن يكون على حقيقته، ويحتمل أن يكون بمعنى الإنكار والاستبعاد، وعلى هذا فالآية الكريمة تحتمل معنيين:

الأول: أنه إذا جاءت سكرة الموت وحشرجت النفس، وقالت العوَاد اضطراباً: ألا راق فيداويه؟

الثاني: إنهم قالوا: قد حم الأمر، وانقطع العمر، فأبي راق يشفيه؟ وهذا لشدة يأسهم. والاستفهام على المعنى الأول حقيقي معناه أن العوَاد طلبوا راقياً للشخص المشرف على الموت.

والاستفهام على المعنى الثاني غير حقيقي يراد به الإنكار والاستبعاد وكأن العوَاد ينسوا من أن يكون هناك راقٍ يشفي هذا المحتضر.

¹ البيت من بحر البسيط وهو في أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء، ضبطه وصححه الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1896م، ص 181

² البيت من الخفيف، وهو في ديوان عدي بن زيد العبادي، تحقيق: محمد جبار المعبيد وزارة الثقافة والإرشاد، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع بغداد، 1965م، ص 151

³ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 239.

وقد أوضح الفراهي هذين المعنيين بالإشارة إلى تركيب: (مَنْ رَاقٍ) الذي يشتمل على مجيء النكرة بعد (مَنْ) حيث تفيد شدة الطلب أو غلبة اليأس، وكأن هذا التركيب (مَنْ رَاقٍ) يحتمل معنى الطلب، وعلى هذا فلاستفهام حقيقي، أو معنى اليأس وعلى هذا فلاستفهام يقصد به الإنكار.

وقد وافق الفراهي كثيراً من العلماء الذين ذهبوا إلى أنّ أسلوب الاستفهام "مَنْ رَاقٍ" يحتمل أن يكون على حقيقته، ويحتمل أن يراد به الإنكار.

قال الرازي: "هذا الاستفهام يحتمل أن يكون بمعنى الطلب كأنهم طلبوا له طيباً يشفيه وراقياً يرقيه، ويحتمل أن يكون استفهاماً بمعنى الإنكار والاستبعاد، كما يقول القائل عند اليأس من الذي يقدر أن يرقى هذا الإنسان المشرف على الموت¹ كذا قال أبو حيان والألويسي².

وذهب الفراهي إلى أنه لا توجد قرينة أو سياق يحدّد المعنى المراد من الاستفهام في الآية، قال: "فوضعت المعنيين بين يديك نفذ بأيهما شئت، ولا حرج إذا كان المال واحداً".³

فيكون المعنيان مرادين للقائل، وهذا ما يسمّى بالسياق الصفري أو الذهني.

ب - أسلوب الدعاء

1 - قال تعالى: "وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ" (سورة المرسلات: 24)

ذهب الفراهي إلى أنّ هذا الأسلوب يحتمل أن يكون خبرياً، ويحتمل أن يكون إنشائياً، قال: "أما أسلوبها فيحتمل الإنشاء والإخبار، والإخبار إما لبيان ثبوت

¹ تفسير الفخر الرازي، 231/30

² ينظر البحر المحيط، 380/8-381- وروح المعاني، 146/29.

³ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 239.

الويل كما جاء في كثير من الآيات، مثلاً: "قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ" (سورة البقرة: 79) أو لبيان قولهم في ذلك اليوم- كما جاء في القرآن:- "وَقَالُوا يَتَوَلَّنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ" (سورة الصافات: 20)، أيضاً: "قَالُوا يَتَوَلَّنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا¹" (سورة يس: 54) وتكرار الويل يدل على كثرة أسبابه على تأويل الثبوت، وعلى كثرة مواقعه على تأويل تكلمهم بها، كما بين ذلك حيث جاء: "وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا² لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا" [سورة الفرقان: 13-14] فهذا جامع لكثرة أسباب الويل وكثرة التكلم به.¹

التوجيه: أكد الفراهي على أن قوله تعالى: "وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ" يحتمل أن يكون أسلوباً خبرياً للإخبار عن ثبوت الويل للكافرين في كثير من الآيات أو إخبار الكافرين عن أنفسهم بالويل والهلاك في ذلك اليوم، وأشار إلى أن تكرار الويل في القرآن الكريم يدل على كثرة أسبابه ومواقعه وفقاً للسياق.

بداية: لا بد من الإشارة إلى أن لفظة الويل في اللغة تدور حول معاني الشر والهلكة والحسرة، قال ابن منظور الويل: حلول الشر.... والويل الحزن والهلاك والمشقة من العذاب، وكل من وقع في هلكة دعا بالويل،² وقيل "هو تفجيع، يقال: وبه وويلك وويلي....³ لذا رأى الفراهي أن كلمة (ويل) تجمع كل ما يكون سبباً للويل مما يصيبهم من الحزن والحسرة والفرح، وما أعد لهم من العقاب، وربما يصرح بما يكون سبباً للويل كما في قوله تعالى: "وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ" (سورة إبراهيم: 2)، أيضاً: "قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ" (سورة البقرة: 79)...

¹ المرجع السابق، ص 248-249.

² لسان العرب مج 2، ص 1938-1939، مادة (وي ل) - وينظر: العين للخليل (وي ل).

³ القاموس المحيط، 66/4، مادة (وي ل).

وبالجملة فكلمة (الويل) ليست مختصة بأمر خاص.¹

يشير الفراهي بذلك إلى كثرة الويل نظراً لكثرة أسبابه، وأنّ الأسلوب يصلح أن يكون خبرياً، ويصلح أن يكون إنشائياً، بينما ذهب بعض علماء التفسير إلى أنّ قوله: "وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ" أسلوب خبري بمعنى الدعاء، قال الزمخشري عن لفظة ويل: هو في أصله مصدر منصوب ساد مسدّ فعله، ولكنه عدل به إلى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه، ونحوه: (سلام عليكم)² فهو دعاء بسوء الحال³ وذهب الألوسي إلى أنّ مسوغ الابتداء بالنكرة (ويل) هنا هو كونها للدعاء كما في سلام عليكم)⁴، وذهب الفراء إلى أنّ لفظة ويل تستعمل دعاء وتعجباً وزجراً مثل قولهم: لا أبا لك، وثكلتك أمك ومعنى: "قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ" (سورة البقرة: 79) دعاء مستعمل في إنشاء الغضب والزجر.⁵

في حين لم يستحسن سيويوه أن يكون هذا الأسلوب بمعنى الدعاء، قال: وأما قوله تعالى جده "وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ" (سورة المرسلات: 24) و"وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ" (المطففين: 1) فإنه لا ينبغي أن نقول إنه دعاء ههنا؛ لأنّ الكلام بذلك قبيح، واللفظ به قبيح، ولكن العباد إنما كلّموا بكلامهم، وجاء القرآن على لغتهم وعلى ما يعنون، فكأنه- والله أعلم- قيل لهم: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ وَ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ، أي هؤلاء ممن وجب هذا القول لهم؛ لأنّ هذا الكلام إنما يقال لصاحب الشر والهلكة، فقيل: هؤلاء ممن دخل في الشر والهلكة ووجب لهم هذا".⁶

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 249.

² الكشف، 524/4-525- وينظر: نظم الدرر، 170/2.

³ ينظر التحرير والتنوير، 189/30.

⁴ روح المعاني، 173/27.

⁵ التحرير والتنوير، 577-576/1.

⁶ الكتاب لسيويوه، 332-331/1.

فقد أكد سيويه على أن قوله تعالى: "وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ" أسلوب خبري لا إنشائي. وذهب ابن عاشور إلى أن هذه الجملة صالحة لمعنى الخبرية ولمعنى الإنشاء؛ لأن تركيب (ويل له) يستعمل إنشاء بكثرة.¹

وعلى هذا يكون الفراهي موافقاً لابن عاشور في أن قوله تعالى: "وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ" أسلوب يحتمل أن يكون إخباراً، ويحتمل أن يكون إنشاءً.

ولم يذكر الفراهي سياقاً أو قرينة تعين أحد المعنيين، فيكون المعنيان مرادين للقائل، وهذا ما يسمّى بالسياق الصفري أو الذهني، وكأن المراد من هذه الآية: إخبار المشركين الذين يسمعون القرآن بسوء حالهم وتهويل يوم الفصل في نفوسهم ليحذروه، ودعاء عليهم بسوء الحال والشر.

2- قال تعالى: "تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ" (سورة المسد: 1) بعد أن ربط الفراهي بين سورة المسد والسورة التي قبلها وهي النصر حيث قال: "اعلم أن سورة اللهب تؤكد وتوضح معنى النصر المذكور قبلها وتبشر به، كأنه قيل: قد نصر الله نبيه وأهلك عدوه"² أوضح أن قوله تعالى: "تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ" أسلوب خبري، فهو خبر لا دعاء، قال: "اعلم أن مفهوم (تبت يداه): إنه صار عاجزاً عن الانتصار؛ لأن كسر اليد كناية واضحة عن كسر القوة والعجز.... فهذه الآية ليست بدعاء عليه ولا في شيء من الشتم، بل ذكره بالكنية أقرب إلى الإكرام فالتأويل ظاهر أنه إخبار ونبوة تنبيء عن هلاك رئيس أعداء الله... كما أن قوله تعالى: "مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ" (سورة المسد: 2) إخبار ونبوة.³

¹ التحرير والتنوير، 427/29

² تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 576.

³ المرجع السابق، ص 576-577.

التوجيه: ذهب الفراهي إلى أن قوله تعالى: "تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ" أسلوب خبري لا إنشائي، فهو ليس دعاء على أبي لهب؛ لأن ذكره بالكنية تكريم له، بينما ذهب الزمخشري إلى أن الكنية لا تكون تكريماً في كل الأحوال وأوضح أن هناك ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون مشتهراً بالكنية دون الاسم، فقد يكون الرجل معروفاً بأحدهما فلما أريد تشهيره بدعوة السوء وأن تبقى سمة له ذكر الأشهر من عليه... والثاني: أنه كان اسمه عبد العزى فعدل عنه إلى كنيته، والثالث: أنه لما كان من أهل النار وماله إلى نار ذات لهب وافقت حاله كنيته، فكان جديراً بأن يذكر بها ويقال: أبو لهب، كما يقال: أبو الشر للشرير، وأبو الخير للخير.¹

وأوضح الجوهري أن التباب الخسران والهلاك، تقول منه: تب تبأً وتبت يداه...² ويقال: تبأ له على الدعاء، نصب لأنه مصدر محمول على فعله كما تقول: سقياً لفلان.... وتبت يداه تبأً وتبأً خسرأً،³ وعن ابن عباس تبّت خابت وقتادة خسرت وابن جبير هلكت وعطاء: ضلت... وهذه الأقوال متقاربة في المعنى".⁴

وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن قوله تعالى: "تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ" دعاء على أبي لهب.⁵ قال أبو حيان: "والظاهر أن التّبّ دعاء، وتبّ: إخبار بحصول ذلك، ويدل عليه قراءة عبد الله وقد تب⁶ لأنّ (قد) لا تدخل على الدعاء، وقال ابن عاشور "والكلام دعاء وتقريع لأبي لهب، دافع الله به عن نبيه بمثال اللفظ الذي شتم به أبو لهب محمداً جزاءً وفاً".⁷

¹ الكشف، 4/647-648- وينظر: تفسير الفخر الرازي، 32/168

² الصحاح، 1/90، مادة (ت ب ب).

³ لسان العرب مج 1، ص 415، مادة (ت ب ب)

⁴ البحر المحيط، 6/526- وينظر: تفسير الفخر الرازي، 32/166.

⁵ ينظر: تفسير الفخر الرازي، 32/197- ونظم الدرر، 22/331- وروح المعاني، 30/260-261.

⁶ البحر المحيط، 6/526

⁷ التحرير والتنوير، 30/601

واستدلوا على ذلك بالسياق الخارجي المتمثل في سبب نزول الآية.¹
وجوّز الرازي أن يكون قوله: (تبت) وقوله (وتب) إخبارين بالهلاك، لكن الأول إخبار بهلاك عمله، والثاني إخبار بهلاك نفسه،² ويكون التعبير بالماضي في الموضعين لتحقيق الوقوع.³

واستدل الفراهي على أنّ قوله تعالى: "تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ" أسلوب خبري:
أ- بالسياق اللغوي الذي يتمثل في قوله تعالى - بعده -: "مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ" (سورة المسد: 2)، وقوله تعالى: "سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ" (سورة المسد: 3) فهما خبران.
قال الفراهي: ويؤيد كونه خبراً ما جاء بعده من قوله تعالى: "سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ" (سورة المسد: 3)، وهو خبر لا محالة، وكذلك ما اتصل به من قوله تعالى: "مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ" (سورة المسد: 2) فإنه نبوة أيضاً.⁴

ب السياق الخارجي (التاريخي)

قال الفراهي: "قد تبين من جهة التأويل أنّ السورة نزلت على سبيل الإخبار كما نزلت السورة السابقة، فالآن نذكر من جهة التاريخ كيف صدقت في أبي لهب هذه النبوة."⁵

¹ روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صعد رسول الله ذات يوم الصفا فقال: يا صباحاه، فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: له مالك؟ قال: أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقون؟ قالوا بلى قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال: أبو لهب تباً لك لهذا دعوتنا جميعاً، فأنزل الله عز وجل "تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ" (المسد: 1). أسباب النزول للنيسابوري، ص 344، والبحر المحيط، 526/8-527- والتحرير والتنوير، 602/30.

² ينظر: تفسير الفخر الرازي، 167/32.

³ روح المعاني، 260/30

⁴ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 588.

⁵ المرجع السابق - الصفحة نفسها.

ثم أوضح الفراهي أنّ قريشاً يوم بدر جمعت أحايشها وأحلافها وقوادها وأشرفها، وجمعت ما استطاعت من عدد وعدد، ولم يخرج أبو لهب في ذلك اليوم، وبعث مكانه العاص بن هشام ابن المغيرة، وكان له عليه أربعة آلاف درهم أفلس بها، فاشتري نفسه بمال لا رجاء له فيه، فرضي أبو لهب بالقعود خوفاً على نفسه، ولكن لم يلبث بعد ما جاءه خبر بدر إلا سبع ليال، ورمي بالعدسة فأت، وتركه ابنه ليلتين أو ثلاثاً ما دفناه مخافة عدواها حتى أتت في بيته، وغسلوه قذفاً بالماء من بعيد ما يمسونه.¹

ويوضح الفراهي هذا السياق التاريخي بقوله "انظر كيف صدق فيه أنه عجز عن الانتصار إذ لم يمسك بسيفه وقعد عن الخروج، ثم كيف زاد عجزاً على عجز إذ قتل أكثر أعوانه ثم لم يغن عنه ماله وكسبه، إذ رمي بالعدسة تركه ابنه وهما كسبه."²

فصار التأويل: "أنّ كل ما حسبه قوة وعزة من المال والأولاد لم ينفعه"³ وهذا ما أكّده الرازي عن الآيات الثلاث بأنها إخبار لا إنشاء، قال: هذه الآيات تضمنت الإخبار عن الغيب من ثلاثة أوجه أحدها الإخبار عنه بالتباب والخسار وقد كان كذلك، وثانيها الإخبار عنه بعدم الانتفاع بماله وولده، وقد كان كذلك، وثالثها الإخبار بأنه من أهل النار وقد كان كذلك لأنه مات على الكفر.⁴

المبحث الثالث: السياق وأثره في تحديد المعنى المراد من اللفظ المشترك

أ- قال تعالى: "وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ" (سورة الذاريات: 7) ذهب الفراهي إلى أنّ لفظة السماء مشترك لفظي يشترك فيه معانٍ متعددة، منها: السحاب، كما في قوله

¹ المرجع السابق، ص 589 بتصرف.

² المرجع السابق، ص 590.

³ المرجع السابق، ص 591.

⁴ تفسير الفخر الرازي، 170/32-171

تعالى: "وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَيْ مَاءَكَ وَبَسِّمَاءُ أَقْلِي" (سورة هود: 44)، ومنها السماء التي فيها النجوم.¹

التوجيه: لفظة السماء مشترك لفظي كما أكد الفراهي، وهذا ما أوضحه اللغويون قال الجوهري: "السماء: كل ما علاك فأظلك، ومنه قيل لسقف البيت سماء، والسماء: المطر،² وقال ابن منظور: "السماء: سقف كل شيء وكل بيت... والسماء: السحاب، والسماء المطر مذكر، ويسمى العشب - أيضاً - سماء؛ لأنه يكون عن السماء الذي هو المطر.³ فلفظة السماء تطلق على سقف كل بيت وكل شيء، وعلى السحاب والمطر، والعشب. وهذا ما ذهب إليه كثير من المفسرين.⁴

وأكد الفراهي على أن المراد من السماء في الآية: السحاب، قال: وهو المراد ههنا وذلك لوجوه:

الأول: أن القسم السابق هو بالرياح والمناسبة بين الرياح والسحاب أظهر، وقد ذكرنا معاً في مواضع.

الثاني: أن المناسبة بين المقسم عليه والمقسم به تقتضي ذلك.... والثالث: أن الوصف بـ: (ذَاتِ الْحُبْكِ) يدل عليه دلالة واضحة ويانه أن الحبك هو العقد.... ومنه الإدماج والإحكام في النسج، ومنه (الحباك)، وجمعه: (الحبْك) للطرائق والأسرة التي توجد في الثوب المحكم النسج وغيره قال الفراء في قوله تعالى: "وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبْكِ" الحبك تكسر كل شيء كالرملة إذا مرّت عليها الريح الساكنة، والماء القائم إذا مرّت به

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 123 وما بعدها.

² الصحاح، (23826) مادة (س م و).

³ لسان العرب مج 3، ص 2107، مادة (س م و)

⁴ ينظر: تفسير الفخر الرازي، 197/28 - والبحر المحيط، 133/8 - وروح المعاني، 27/4

الريح،¹ وفي حديث الدجال: (إنَّ شعره حبك حبك)،² والسحاب يوصف بذلك، فإنَّ الحبك فيه تجعد قطعته مثل الموج المريد المتراكم أو كسائب القطن.³

مما سبق، يتضح أنَّ (السما) لفظ مشترك، وأكَّد الفراهي على أنَّ المراد من السما في الآية السحاب، واستدل على ذلك بالسياق اللغوي الذي يتَّثل في:

1- قوله تعالى: "وَالَّذَارِيَّتِ ذُرَّوًّا" (سورة الذاريات:1) فالقسم في الآية بالرياح والمناسبة بين الرياح والسحاب أوضح، حيث إنَّ الرياح تعد بمثابة محركات السحب.

2- قوله تعالى: (ذَاتِ الْحُبُكِ) وصف يدلُّ على أنَّ المراد بالسما هو السحاب، لأنَّ الحبك بمعنى العقد والتكسر والتجعد، وهذه الأوصاف موجودة في السحاب لا في السما، فالحبك فيه تجعد قطعته مثل الموج المريد المتراكم.

وذهب بعض العلماء إلى أنَّ المراد بـ(السَّما) في الآية: السما التي فيها النجوم، وقال الزمخشري: عن الحسن حبكها نجومها، والمعنى: أنها تزينة كما تزين الموشى طرائق الوشي، وقيل: حبكها صفاؤها وإحكامها،⁴ وقال ابن عاشور: يجوز أن يكون المراد بحبك السما نجومها؛ لأنها تشبه الطرائق الموشاة في الثوب المحبوك.⁵

وذهب الفراهي إلى أنه لا يصح أن يكون المراد من السما في قوله تعالى: "وَالسَّما ذَاتِ الْحُبُكِ" السما التي فيها النجوم، قال: "وما قيل من أنَّ المراد به السما التي فيها

¹ ينظر: معاني القرآن للفراء، 83/3- ولسان العرب مج 1، ص 758 مادة (ح ب ك)- والصاح (ح ب ك).

² ينظر: المسند لابن حنبل، ولفظ الحديث فيه إن رأس الدجال من ورائه حبك حبك، 20/4- وفي موضع آخر: إن رأسه من بعده حبك حبك، المكتب الإسلامي، بيروت، 372/5

³ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 124-125.

⁴ الكشف، 278/4- وينظر البحر المحيط، 133/8.

⁵ التحرير والتنوير، 341/26.

النجوم إما لإحكامها، أو لكونها مجردة بالكواكب فلا يصح، فإنّ الحبك ههنا ليس بالمصدر، وإنما هو جمع بمعنى الخطوط والتكسر والغضون، فلا يكون وصفاً لهذا السقف المكوّك لا من جهة إحكامه ولا من جهة نجومه.¹

فقد أكد الفراهي على أنه لما كان الحبك جمعاً لا مصدراً؛ صح أن تكون السماء بمعنى السحاب لا بمعنى السماء التي فيها النجوم.

ب- قال تعالى: "فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ" (سورة الذاريات: 59)

(الذنوب) مشترك لفظي، يشترك فيه معانٍ متعددة، قال الفراهي:

(الذنوب): الدلو المملأى، ولا يقال لها ذنوب وهي فارغة، ومنها: للحظ والنصيب.²

التوجيه: ذهب الفراهي إلى أنّ (الذنوب) مشترك لفظي، وهذا ما أكّده الجوهري حيث قال:

الذنوب الفرس الطويل الذنب، والذنوب النصيب، والذنوب: لحم أسفل المتن...³ وقال ابن منظور: "الذُّنُوبُ: لحم المتن، وقيل: هو مُنْقَطِعُ المتن وأوله وأسفله، والذنوب الحظ والنصيب و الذُّنُوبُ: الدلو فيها ماء، وقيل: الذنوب الدلو التي يكون الماء دون منها أو قريب منه وقيل: هي الدلو المملأى، قال: ولا يقال لها وهي فارغة ذنوب،⁴ وقيل: "الذنوب: موضع بعينه.⁵

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 125.

² المرجع السابق، ص 172.

³ الصحاح، 128/1-129 مادة (ذ ن ب).

⁴ لسان العرب، مج 3، ص 1520، مادة (ذن ب).

⁵ المرجع السابق، ص 1521، المادة نفسها.

وعلى هذا فالذنوب يشترك فيها الفرس الطويل الذنب، والحظ والنصيب والدلو التي فيها ماء، والدلو المלאى، ولحم المتن.

وأكد الفراهي على أن المراد بالذنوب في الآية الكريمة الحظ والنصيب قال: والمراد ههنا والله أعلم أن هؤلاء الظالمين حظاً محدوداً من المدة يتمتعون فيها حتى تملأ هذه المدة من جهة الرب مما قدر لهم من الرزق والتمتع، ومن جهتهم مما يعملون من سيئات أعمالهم فيحق عليهم العذاب، وما أحسن كلمة (ذنوب) دلالة على هذا المعنى، وبين هذا التأويل ما بعد ذلك، وعليه شواهد كثيرة، فمنها: قوله تعالى: "وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً" (سورة الكهف: 58) أي: لهم زمان مؤقت، فالمراد بالذنوب هو الزمان الذي أعطى لهم، فإذا امتلأ بما قدر لهم من التمتع وعملوا ما هم عاملون فيه فكان ذلك ذنوبهم، أي حظهم من الزمان والمهلة.¹

وكأن هؤلاء الظالمين زماناً أعطى لهم، إذا امتلأ بما قدر لهم من التمتع وبأعمالهم السيئة كان ذلك ذنوبهم، وحق عليهم العذاب، وكذا ذهب كثير من المفسرين إلى أن (ذُنُوباً) في الآية بمعنى الحظ والنصيب، قال الزمخشري: المعنى: فإن للذين ظلموا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالكذب من أهل مكة لهم نصيب من عذاب الله مثل نصيب أصحابهم ونظائرهم من القرون...² أي من الأمم السابقة التي كذبت الرسل كما كذبوا محمداً. كذا قال أبو حيان والألوسي.³

وقال البقاعي: "ذُنُوباً" أي حظاً من العذاب طويل الشر، كأنه من طوله صاحب ذنب وهو على ذنوبهم.⁴

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 172.

² الكشف، 288/4- وينظر البحر المحيط، 141/8- وروح المعاني، 24/27

³ ينظر: البحر المحيط، 141/8- وروح المعاني، 24/27.

⁴ نظم الدرر، 483/18.

واستدل الفراهي على أنّ (ذُنُوبًا) في الآية بمعنى الحظ والنصيب بالسياق اللغوي الذي يمثّل في:

1- قوله تعالى- بعد الآية:- "فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ" (سورة الذاريات: 60) وهو سياق لغوي جزئي، فقد قيل: "إنّ هذا اليوم هو يوم بدر؛ لأنّه ذنوب من العذاب الدنيوي،¹ وقيل: يوم القيامة الذي يوعده.²

قوله تعالى: "وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً" (سورة الكهف: 58) وهو سياق لغوي كلي يؤكد على أنّ المراد من الذنوب الحظ والنصيب من العذاب، حيث تشير الآية إلى أنّ هؤلاء الظالمين موعداً للعذاب متأخراً، وهذا تهديد بما يحصل لهم يوم بدر.³

ج- قال تعالى: "وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى" (سورة عبس: 8) تتحدث الآية عن سيّدنا عبد الله بن أم مكتوم الذي جاء للنبي ليعلمه أمور دينه.

ذهب الفراهي إلى أنّ قوله (يَسْعَى) أريد به المحيى بالشوق على سبيل الكناية، وليس المراد به الإسراع بالقدم لدلالة الموقع، وكما يبيّنه قوله "وَهُوَ يَخْشَى" (سورة عبس: 9) (يخشى) جامع عام لإطلاقه.⁴

التوجيه: السعي مصدر (سَعَى يَسْعَى) يشترك فيه معانٍ متعددة، قال ابن منظور "السَّعْيُ: عَدُوٌّ دُونَ الشَّدِّ، سَعَى يَسْعَى سَعِيًّا ... وَسَعَى إِذَا مَشَى، وَسَعَى: إِذَا عَمَلَ، وَسَعَى: إِذَا قَصَدَ وَالسَّعْيُ الْكُسْبُ، وَكُلُّ عَمَلٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ: سَعَى وَالسَّعْيُ يَكُونُ فِي الصَّلَاحِ وَيَكُونُ فِي الْفُسَادِ".⁵

¹ روح المعاني، 25/27.

² البحر المحيط، 18/14.

³ التحرير والتنوير، 357/15.

⁴ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 277

⁵ لسان العرب مج 3، ص 2020-2019، مادة (س ع ي)- وينظر: الصحاح، 6/2377- المادة نفسها.

اتضح مما قاله ابن منظور أنّ (السعي) يحتمل معاني متعددة، منها العدو دون الشدّ، ومنها المشي والكسب، والسعي في الخير أو الشر.

أكّد الفراهي على أنّ (يسعى) في قوله تعالى: "وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى" بمعنى المجيء بالشوق إلى المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا الإسراع في المشي. بينما ذهب علماء التفسير إلى أنّ المعنى السعي في الخير، قال الزمخشري: "(يَسْعَى): يُسْرِعُ في طلب الخير،¹ وأكّده البقاعي، حيث قال: مسرعاً رغبة فيما عندك من الخير المذكور بالله وهو فقير،² كذا قال الرازي وأبو حيان والألوسي.³

وذهب ابن عاشور إلى أنّ السعي: شدة المشي، كني به عن الحرص على اللقاء⁴ وكأن ابن عاشور يشير إلى علو همة هذا الرجل وحرصه على مقابلة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتعلم منه. وما قاله المفسرون يحتمل الإسراع في المشي، لكن الفراهي نفى أنّ يكون المعنى المراد هو الإسراع في المشي، وأكّد على أنّ المراد المجنّ بشوق إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فسيّدنا عبد الله ابن أم مكتوم كان ضريباً، وعادة الضريب يمشي متأنيا خشية التعثر. وقد وُفّق الفراهي في التعبير بهذا المعنى، فكأنه يصف حالة سيّدنا عبد الله ابن أم مكتوم المعنوية فهو بالفعل يشاق إلى رؤية المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رغبة فيما عنده من الخير المذكور بالله، واستدل الفراهي على أنّ المراد من (يسعى): المجيء بشوق بالسياق اللغوي الذي يتمثل في قوله تعالى: "وَهُوَ يَخْشَى" أي: "يخاف الله تعالى، أو يخاف أذى الكفار، أو يخاف التعثر في الطريق.⁵

¹ الكشف، 545/4.

² نظم الدرر، 255/30.

³ ينظر: تفسير الفخر الرازي، 58/31- والبحر المحيط، 419/8- وروح المعاني، 41/29.

⁴ التحرير والتنوير، 109/30.

⁵ ينظر: البحر المحيط، 419/8.

والتعبير بالفعل المضارع فيه دلالة على التجدد والحدوث، وكأنه يسعى فيقف ليستريح ثم يجدد سعيه وهكذا شوقاً إلى سيدنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال ابن عاشور: اختيار الفعل المضارع لإفادته التجدد.¹

د. قال تعالى: "وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ" (سورة التين: 1)

قال الفراهي: فأما التين فالمراد به موضع خاص عرفته العرب بهذا الاسم لكونه منبت التين،² والعرب يسمون الموضع باسم ما ينبت فيه كالغضى³ والشجرة⁴ والنخلة، وليس ذلك خروجاً عن أصل معنى الكلمة، وإنما هو استعمالها في بعض وجوهها بطريق تسمية الظرف بالمظروف، قال النابغة الذبياني من بني غطفان:

وهبت الريح من تلقاء ذي أرلٍ تُرجى مع الليل من صرادها صرماً
صهب الظلال⁵ أئين الدين عن عرضٍ يرجين غيماً قليلاً مأوه شيماً⁶
..... فلا شك أنّ النابغة أراد بالتين جبلاً في الشمال، ولعله هو الجودي أو قريب منه.⁷
التوجيه: لفظة التين تطلق على شجرة البلس، وقيل: هو البلس نفسه، واحدته تينة،⁸

¹ التحرير والتنوير، 109/30

² ينظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، ص 532، تحقيق: سيد أحمد صقر، القاهرة، 1958م.

³ الغضى الشجر، وقيل: واد بنجد لسان العرب، مج 5، ص 3269

⁴ الشجرة اسم قرية بفلسطين معجم البلدان، 325/3

⁵ في لسان العرب، مج 1 ص 462: صهب الشمال.

⁶ البيتان من بحر البسيط، وهما في ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف، ط الثانية، ص 63- وينظر: المقاييس، 345/3- ولسان العرب (أ ر ل) و(ت ي ن) مج 1 ص 462 (ص رم) مج 4 ص 2439

⁷ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 344-346- وينظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، ص 532.

⁸ المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده، تحقيق: د. عبد الحميد هندواوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى، 2000م، 521/9 (ت ن ي).

وقيل: التين هذا الذي يؤكل رطباً ويابساً،¹ قال أبو حنيفة أجناسه كثيرة برية وريفية وسهلية وجبلية، وهو كثير بأرض العرب والتين: جبل بالشام، وقال أبو حنيفة: هو جبل في بلاد غطفان² وقيل: "التين دمشق والزيتون بيت المقدس، وقيل: التين والزيتون جبلان، وقيل جبلان بالشام، وقيل: مسجدان بالشام...³

فالتين لفظ مشترك يشترك فيه الثمرة التي تؤكل، وشجر البلّس، وجبل في بلاد غطفان أو في الشام، أو بيت المقدس.

واختلف المفسرون في التين والزيتون أيضاً قال الزمخشري: قيل: جبلان من الأرض المقدسة يقال لها بالسريانية طور تينا وطور ريتا؛ لأنهما منبتا التين والزيتون، وقيل: التين جبال ما بين حلوان وهمدان والزيتون جبال الشام لأنها منابتها، كأنه قيل: ومنابت التين والزيتون.⁴

وقيل: التين الفاكهة المعروفة، واسم جبل، وقيل: جبلان بالشام، وقيل مسجدان،⁵ وقيل: التين: مسجد نوح الذي بني على الجودي بعد الطوفان، والزيتون: الجبل الذي بني عليه المسجد الأقصى.⁶

وذهب الفراهي إلى أنّ المراد بالتين والزيتون موضعان: التين جبل في الشمال هو الجودي أو قريب منه، والزيتون جبل أطلق اسمه على منبته واستدل على ذلك:

1- بالسياق اللغوي الذي يتمثل في قوله تعالى: "وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ ۖ وَطُورِ سَيْنِينَ ۝"

¹ الصحاح، 2087/5 مادة (ت ي ن).

² لسان العرب، مج 1 ص 462، مادة (ت ي ن).

³ السابق- الصفحة والمادة نفسهما.

⁴ الكشف، 610/4.

⁵ ينظر: تفسير الفخر الرازي، 8/32- ونظم الدرر، 134-135- والبحر المحيط، 485/8- وروح

المعاني، 174-173/30.

⁶ التحرير والتنوير، 421/30.

وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ (سورة التين: 1-3) قال: "قرن التين والزيتون بطور سنين والبلد الأمين، فدل بالنظم على كونهما اسمين لموضعين".¹ فالعطف عليهما بمواضع دليل على كون التين والزيتون موضعين، فقد عطف عليهما طور سنين، والبلد الأمين.

2- السياق الخارجي (الاجتماعي) الذي يتمثل في العادات والتقاليد التي كانت سائدة عند العرب، وهذا ما أوضحه الفراهي؛ حيث قال: "لا يخفى عليك أنه كان من عادة العرب التذكر برؤية الديار وآثارها، وكثر ذلك في كلامهم جداً، فذكر المواضع للتنبيه على ما وقع فيها هو أقرب إلى أذهانهم وأوقع في نفوسهم، وعلى هذا كثر في القرآن التذكير بذكر البلاد، كما قال تعالى: "ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ" (سورة هود: 100)²

3- ما روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير معنى والتين قال: "إن المراد به مسجد نوح - عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي بنى على الجودي³ وعن عكرمة: التين والزيتون جبلان.

فكان ذكر التين المراد به جبل الجودي أو قريب منه- للتنبيه والتذكير بالأحداث التي حدثت في ذلك المكان، وكذا الزيتون، وهذا ما أراده الفراهي بقوله: "فذكر المواضع للتنبيه على ما وقع فيها هو أقرب إلى أذهانهم وأوقع في نفوسهم، وأوضح ذلك، حيث قال: "اعلم أن التين هو أول موضع لظهور الدينونة على الإنسان، وذلك بأن آدم - عَلَيْهِ السَّلَامُ لما نسي عهد الرب، وسمع لقول حاسده، وقعت عليه وعلى زوجته الدينونة فأهبطا بعد الرفعة، وسلبا لباس الجنة، كما قال تعالى: "وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ" (سورة الأعراف: 22) وجعل الله تعالى ذلك الأمر تذكراً وموعظة لنسله، فقال: "يَبْنِيْ عَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 343-344.

² المرجع السابق، ص 344.

³ ينظر: تفسير الطبري، 239/30

لِيَأْسَهُمَا" (سورة الأعراف: 27).... وكذلك وقعت الديونة على نسله في عهد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ عند جبل التين فَأَهْلَكَ الظَّالِمُونَ وبورك الباقون، كما قال تعالى: "وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْأَمْ أَفْلَحِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" (سورة هود: 44) ثم بعد ذكر دعاء نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قال تعالى: "قِيلَ يَنْتُوخْ أَهْبِطْ بِسَلَمٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ" (سورة هود: 48) أي: جعلنا السلام والبركات لك وللمؤمنين معك، وأما الآخرون فلهم أيضا متاع من الدنيا قليل ثم عذاب أليم، فصار التين آية وتذكرة لما وقع على الإنسان من الديونة وقضاء الرب تعالى.¹

وذهب الفراهي إلى أن المراد بالزيتون هو جبل الزيتون الذي سهر عليه سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يناجي ربه إلى السحر، حيث ينس من قومه فخرن غاية الحزن لما علم أن اليهود يهيمون بقتله، وبذلك يلعنون ويسلبون الأمانة، فتعطي لأمة جديدة بها.²

فقد روي عن ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعن كعب أن الزيتون: بيت المقدس، وعن قتادة أنه الجبل الذي عليه بيت المقدس.³

ثم أوضح الفراهي أن ذكر تلك المواضع للتنبيه والتذكير على ما وقع فيها من أحداث، قال وجملة ما أردنا أن الله تعالى ذكر هذه المواضع لكونها مشاهد لديونة الإنسان في الدنيا وجزائه إياهم حسب أعمالهم؛ ليبين لهم أن ربهم لم يخلقهم سدى، ولم يغفل عن أحوالهم، فأنزل إليهم الكتاب والذكرى، وأكثر لهم من النذر والبشرى...".⁴

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 349-350.

² المرجع السابق، ص 350.

³ تفسير الطبري، 153/30-154.

⁴ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 361.

المبحث الرابع: السياق وأثره في تعيين المخاطب

ذهب الفراهي إلى أنّ تعيين المخاطب طرف من علم توجيه القول العام إلى جهته الخاصة، ومن لم يعلم جهة الكلام لا يصيب تأويله الصحيح، فكان ذلك مفتاحاً لفهم التأويل ونظم الحديث ...¹، ثم أوضح أنّ للخطاب جهتين ممن؟ وإلى من؟ وكلاهما ربما تعم والمراد خاص، وربما يعكس الأمر² ويشير الفراهي إلى أنّ الخطاب قد يحتمل وجوهاً، فيندرج تحت ما يسمّى بالمشترك في هذه الحالة، قال: فاعلم أنّ الخطاب إذا احتمل وجوهاً كان كاللفظ المشترك، فلا بد من أخذ بعضها وترك البواقي، وصنعنا في المشترك أن نعلم أولاً معانيه كلها ثم نرجع إلى سوق الكلام وغايته، فنأخذ بعض المعاني المحتملة ونترك البواقي³ يتضح مما قاله الفراهي: أنّ الخطاب إذا احتمل أكثر من وجه يكون من قبيل المشترك الأسلوبي، ثم يأتي السياق ليحدد المعنى المراد.

وذكر عدة أمثلة من سورتي التوبة والإسراء في سياق حديثه في مقدمته، وهي كالتالي:

1- قال تعالى: "إِنْ تُصِْبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِْبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ" (سورة التوبة: 50)

قال الفراهي فرمما يخاطب الله النبي ووجه الخطاب إلى الأمة، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو وكيل من الأمة إلى الله، فهو لسانهم وسميعهم.... ونعلم من سياق نظم القرآن من هو المخاطب.⁴

التوجيه: أوضح الفراهي أنّ الخطاب في قوله تعالى: "إِنْ تُصِْبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ

¹ المرجع السابق، ص 64.

² المرجع السابق - الصفحة نفسها.

³ المرجع السابق، ص 65.

⁴ المرجع السابق - الصفحة نفسها.

تُصَبِّكَ مُصِيبَةً يَقُولُوا" يحتمل أن يكون خطاباً للنبي، ويحتمل أن يكون للمؤمنين، ولكن الخطاب هنا للمؤمنين، ويدل على ذلك السياق اللغوي الذي يتمثل في قوله تعالى- في الآية اللاحقة:- "قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" (سورة التوبة: 51)

قال الفراهي: "في سورة التوبة: "إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسَبِّحْهُنَّ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ" معناها: إن تصب المؤمنين كما صرح في الجواب: "قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ".¹

2- قال تعالى: "وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَقِ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا". (سورة الإسراء: 23)

ذهب الفراهي إلى أن الخطاب في قوله: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ) يحتمل أن يكون للنبي، ويحتمل أن يكون للمؤمنين، ولكن الخطاب هنا للمؤمنين، قال الفراهي: "خاطب النبي الكريم، والخطاب إلى الأمة، فقوله: "إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَقِ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا" (سورة الإسراء: 23) وغير ذلك خطاب عام.²

بمعنى أن كل واحد يصلح للخطاب، فمن يقرأ القرآن يشعر وكأنه يخاطب بذلك. وقال في هذا الموضع أيضاً: "لا يمكن القول فيه بأن الخطاب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ فِي نَفْسِ تِلْكَ الْجُمْلَةِ مَا يَمْنَعُ عَنْهُ، فَإِنَّ فِيهَا قَوْلَهُ تَعَالَى: "وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَقِ وَلَا

¹ المرجع السابق، ص 66.

² المرجع السابق، ص 67.

تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا" (سورة الإسراء: 23) فهذا المثال حاسم الشكوك.¹

التوجيه: يشير الفراهي إلى أنّ الخطاب في قوله: (وقضى ربك) يحتمل أن يكون للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويحتمل أن يكون للأمة، ولكن السياق اللغوي الذي يتنل في قوله تعالى: "وَبِالْوَلَدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا" يعين الخطاب أنه للأمة؛ لأنّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن له أبوان يومئذ. وإلى مثل هذا ذهب كثير من العلماء.²

3- قال تعالى: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ" (سورة الفيل: 1)

أكد الفراهي على أنّ تعيين المخاطب طريق لمعرفة التأويل الصحيح قال: "قبل النظر في عمود السورة وربطها لا بد من تعيين المخاطب بهذه السورة ليمهد السبيل إلى معرفة صحيح التأويل وربط المعنى."³

وأوضح أنّ المخاطب بقوله: ألم تره جميع من رأى هذه الواقعة أو أيقن بها من طريق تواتر الحكاية، قال: اعلم أنّ الخطاب ههنا متوجه إلى جميع من رأى هذه الواقعة، أو أيقن بها من طريق تواتر الحكاية ممن رآها وهذا أسلوب خاص يطلق الواحد فيه على الجميع على سبيل الانفراد، وله أمثلة في كلام العرب والقرآن قال تعالى: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ" (سورة لقمان: 31) فبدأ بالواحد وأعقبه الجمع فإنّ المراد من الواحد كان هو الجمع وربما يبدأ بالجمع ثم يعقب بالواحد فإنّ المراد هو الجمع، كما قال تعالى: "يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا آنظُرْنَا" (سورة البقرة: 104) حتى قال: "مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ

¹ المرجع السابق، ص 423-424

² ينظر: تفسير الفخر الرازي، 58/31- ونظم الدرر، 400/11 وما بعدها والبحر المحيط، 23/6- والتحرير والتنوير، 68/15.

³ نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 422.

مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (سورة البقرة: 106-107).¹

التوجيه: اختلف العلماء في المخاطب بقوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَبِ
الْفِيلِ" (سورة الفيل: 1) وقد أكد الفراهي على أن المخاطب جميع من رأى هذه
الواقعة أو أيقن بها من طريق تواتر الحكاية ممن رآها بينما ذهب كثير من العلماء إلى
أن المخاطب بقوله: (أَلَمْ تَرَ) هو النبي بدلالة قوله: رَبُّكَ.² قال ابن عاشور: والمخاطب
لنبي كما يقتضيه قوله: رَبُّكَ".³

واستدل الفراهي على أن المخاطب بقوله: (أَلَمْ تَرَ) هو جميع من شهد هذه الواقعة، أو
أيقن بها عن طريق تواتر الحكاية ممن رآها بالسياق.

1- اللغوي الذي يمثل في قوله: (أَلَمْ تَرَ) فهي صيغة تأتي لعموم الخطاب، ولا يقصد بها
واحد بعينه، بل كل واحد صالح للخطاب، قال الفراهي: "كلمة (أَلَمْ تَرَ) تنجيء عموماً لعموم
الخطاب، فصرّفها إلى الخصوص من غير قرينة خلاف سننها، بل القرينة الظاهرة أن الذين
رأوا هذه الواقعة أولي بالخطاب، وكثر في القرآن استعمال المخاطب الواحد للجميع".⁴

2 - السياق الخارجي التاريخي (الاجتماعي) الذي يمثل في شهرة واقعة أصحاب
الفيل، وذيق صيتها في المجتمع في ذلك العصر، فضلاً عن شهرتها وذيق صيتها في
مجتمع أهل مكة وذلك لتعلقها بأمر مقدس عند العرب، قال الفراهي: "إن جمهور
العرب تعظم الكعبة⁵ وهذا جزء من الثقافة، وذكرها الشعراء كثيراً في أشعارهم؛

¹ المرجع السابق، ص 422-423.

² ينظر: تفسير الفخر الرازي، 98/32 والبحر المحيط، 511/8 ونظم الدرر، 250/22-251.

³ التحرير والتنوير، 545/30.

⁴ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 423.

⁵ المرجع السابق، ص 441.

لذا لم يفصل القرآن فيها، قال الفراهي: اعلم أنّ القرآن لم يفصل في قصة أصحاب الفيل ... لأنّ الواقعة كانت على غاية الاشتهار حتى إنّ العرب اتخذتها مبدأ تاريخهم، وذكروها في أشعارهم..... والسكوت عن التفصيل أبلغ بياناً لدلالته على غاية الشهرة، وإصدار الكلام بقوله: " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ " يُناسب هذا الأمر فإنه لا يخاطب به إلا فيما لا يخفى على أحد، كأنه رآه كل من يخاطب به وإن لم يره بعينه، وهكذا ينبغي عند طلب الإقرار بشيء كما هو معلوم عند أهل العربية.¹

وهذا يعني أنه لما كانت الواقعة مشهورة عند الجميع، ناسب الخطاب بقوله: ألم تر للعموم، فكأن عموم الخطاب لعموم القصة وشهرتها، لأنّ واقعة أصحاب الفيل لا تخفى على أحد، وقد وفق الفراهي في توضيح المخاطب في هذه الآية، وانفرد به دون غيره من العلماء.

وقد ذكر الشعراء واقعة الفيل كثيراً في أشعارهم، من ذلك ما قاله نفيّل ابن حبيب الخثعمي وهو جاهلي شهد الواقعة:

أَلَا رُدِّيْ جَمَالَكَ يَا رَدِيْنَا نَعِمْنَا كُمْ مَعَ الْإِصْبَاحِ عَيْنَا
فَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ وَلَنْ تَرِيْهِ إِلَى 2 جَنْبِ الْمُحْصَبِ مَا رَأَيْنَا
أَكُلَ النَّاسِ يَسْأَلُ عَنْ نُقِيلٍ كَأَنَّ عَلِيَّ لِلْحُبْشَانِ دِيْنَا
حَمَدَتِ اللَّهُ إِذْ 3 عَايَنْتَ طَيْرًا وَحَصْبَ حَجَرَةٍ تَلْقَى عَلَيْنَا 4

¹ المرجع السابق، ص 438.

² في الحيوان: لدي جنب كتاب الحيوان الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط الثانية، 1968م، 1997 وسيرة ابن هشام، 50-49/1.

³ في الحيوان: إن (1997) - وسيرة ابن هشام، 50-49/1.

⁴ الأبيات من بحر الوافر، وهما في الحيوان (1997) - وسيرة ابن هشام، 50-49/1

وقال أيضاً صيفى بن عامر وهو أبو قيس ابن الأسلت وهو جاهلي من أهل يثرب:
قُومُوا فَصَلُّوا رَبُّكُمْ وَتَعَوَّدُوا بِأَرْكَانِ هَذَا الْبَيْتِ بَيْنَ الْأَخَاشِبِ
فَعِنْدَكُمْ مِنْهُ بَلَاءٌ مُصَدَّقٌ غَدَاةَ أَبِي يَكْسُومَ هَادِي الْكَتَّابِ
فَلَمَّا أَجَازُوا بَطْنَ نُعْمَانَ رَدَّهُمْ جُنُودُ الْإِلَهِ بَيْنَ سَافٍ وَحَاصِبٍ¹
إلا أننا رأينا يذهب مذهباً آخر، فيرى أنَّ الخطاب لأهل مكة، بعد أن ذهب إلى
أنه خطاب عام قال: ظاهر هذه السورة يدل على حماية مكة وأهلها عن عدوهم،
والاستفهام ههنا ليس إلا للردع والتنبية كما هو ظاهر، وذلك لا بد أن يصرف إلى
من ظهر منه تغافل عما استفهم، فينبه على ما علم فكيف يصرف الخطاب إلى
النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس في السورة شيء يدل على تغافل منه أو أمر يقتضي تنبيهه،
وأما أهل مكة فإنهم بشركهم وصددهم المسلمين عن الصلاة، أظهروا أنهم غير
شاكرين لربهم فهؤلاء المشركون أولي بأن ينبهوا على ما غفلوا عنه.²

ففي سياق رده على من صرح بأنَّ المخاطب هو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذهب إلى أن
المخاطب هم أفراد أهل مكة، قال: إن السورة ليست بخطاب إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
إنما أنزلت ليخاطب بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قريشا كلها على سبيل الانفراد، وفي
اختيار صيغة الواحد دلالة على أنَّ كل أمرئ منهم يجب عليه أن يشكر ربه ويذكره
ويخافه كما يخاف العبد مولاه المنعم فيعبده فإذا تبين ذلك فلا بد من صرف
كاف الخطاب في (ربك) إلى ذلك المخاطب³ كأن المعنى: قل لهم يا محمد.

وأرى أنَّ الأولى هو ما ذهب إليه الفراهي من القول بعموم الخطاب في قوله: (أَلَمْ

¹ الأبيات من بحر الطويل، وهما في الحيوان (1977) - وسيرة ابن هشام، 1/49-50

² تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 424.

³ المرجع السابق، ص 425.

تَر)، فهو صالح لأن يخاطب به كل إنسان في كل زمان ومكان، لاسيما وأن هذه الواقعة لا تخفى على أحد.

المبحث الخامس: السياق وأثره في تخصيص المعنى العام

- قال تعالى: "... إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ" (سورة الذاريات: 16) هذه الجملة بمثابة التعليل لجملة "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ" (سورة الذاريات: 15)، أي: كان ذلك جزاء لهم عن إحسانهم¹ أي: أحسنوا أعمالهم،² أو أنهم أخذوها وملكوها بالإحسان³ وذهب البقاعي إلى أنهم أحسنوا في معاملة الخالق والخلائق يعبدون الله كأنهم يرونه،⁴ أو أنهم أتوا بأعمالهم الصالحة على ما ينبغي، فلذلك استحقوا ما استحقوا من الفوز العظيم،⁵ وذهب ابن عاشور إلى أنهم كانوا في الدنيا مطيعين لله تعالى واثقين بوعدده ولم يروه⁶ وذهب الفراهي إلى أن قوله تعالى: "مُحْسِنِينَ" عام، وأظهر في الصلاة والزكاة؛ لكونها أولى وأهم، ولما صرح بكونهما علامة فارقة، ولما بين ذلك بما أتبع من أوصافهم من قلة الهجوع والجود.⁷

التوجيه: يتضح من كلام الفراهي أن قوله تعالى مع سنين يشمل كل أنواع الإحسان في الأعمال، ولكن المراد من مع سنين هنا من أحسنوا في الصلاة والزكاة، ويؤكد ذلك السياق اللغوي الذي يتمثل في ذكر أوصافهم المتعلقة بالصلاة والزكاة بعد الآية، هذا السياق اللغوي يتمثل في:

¹ التحرير والتنوير، 348/26.

² الكشف، 280/4.

³ تفسير الفخر الرازي، 201/28.

⁴ نظم الدرر، 455/18.

⁵ روح المعاني، 7/27.

⁶ التحرير والتنوير، 348/26.

⁷ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 131.

- 1- قوله تعالى: "يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ" (سورة الذاريات: 12) الهجوع هو النوم، أي: يشتغلون في الليل بالصلاة والذكر، وكما قال تعالى: "تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ" (سورة السجدة: 16)
- 2- قوله تعالى: "وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ" (سورة الذاريات: 18) كما جاء في وصف المتقين: "الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْفَائِزِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ" (آل عمران 17)¹ فالاشتغال في الليل بالصلاة والذكر، والاستغفار في الأسحار خاصة توضيح لإحسانهم.
- 3- قوله تعالى: "وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ" (سورة الذاريات: 19) قال البقاعي لما ذكر معاملتهم للخالق، أتبعه المعاملة للخلائق تكميلاً لحقيقة الإحسان، فقال: "وَفِي أَمْوَالِهِمْ" أي كل أصنافها (حق) أي: نصيب ثابت.²
- قل: هذا الحق هو الزكاة المفروضة، وضعف بأنّ السورة مكية، وفرض الزكاة بالمدينة،³ وقيل: نصيب وافر يستوجبونه على أنفسهم تقريباً إلى الله عَزَّجَلَّ وإشفاقاً على الناس فهو غير الزكاة.⁴
- النتائج: بعد هذه المعاشية الطيبة مع كتاب من كتب التفسير لكلام الله عَزَّجَلَّ ومحاولة توضيح أثر السياق في فهم المعنى خلص البحث إلى النتائج التالية:
1. اعتمد الفراهي منهجاً معيناً في تفسيره للقرآن هو تفسير القرآن بالقرآن ثم ما جاء عن النبي وأصحابه.
2. اعتبر مراعاة السياق في فهم المراد من كلام الله عَزَّجَلَّ المنهج الأمثل في

¹ المرجع السابق، ص 131.

² نظم الدرر، 456/18.

³ البحر المحيط، 135/8.

⁴ روح المعاني، 9/27.

- التفسير وضابطاً من الضوابط المهمة في التأويل.
3. اعتمد في تفسيره للقرآن الكريم على السياق بنوعيه اللغوي والخارجي.
 4. تمثل السياق اللغوي في تفسير القرآن بالقرآن والسياق غير اللغوي (الخارجي) في تفسير القرآن بالحديث الشريف، وأقوال الصحابة وأسباب النزول، وعادات العرب، وكلامهم خاصة الشعر الجاهلي.
 5. اعتمد الفراهي في فهم المعنى المراد على السياق الاجتماعي الذي يتّثل في العادات والتقاليد التي كانت موجودة عند العرب كذكر المواضع للتنبيه على ما وقع فيها.
 6. جاء اهتمامه بالسياق اللغوي بصورة كبيرة وهذا يوافق أساس منهجه وتأويل الفرقان بالفرقان.
 7. وضع الفراهي معياراً معيناً في الأخذ عن كتب أهل الكتاب يتّثل في ترك كل ما خالف القرآن الكريم.
 8. كان في بعض الأحيان يجوز احتمالية أكثر من معنى طالما أنه لا توجد قرينة تحدد المعنى المراد.
 9. التزم الفراهي اللغة العربية الفصحى في تفسيره رغم أنه أعجمي، وخير مثال على ذلك فاتحة تفسير نظام القرآن.
 10. لم يهتم بدراسة الصوت داخل سياقه، ولم يبين أثره في توضيح المعنى ووقع جل اهتمامه على التركيب وعلاقات الكلمات ووظائفها.
 11. لعب السياق دوراً مهماً في توضيح المعنى المراد من الصيغ.
 12. نحا الفراهي منحى علماء التوجيه في الاحتجاج للقراءات مع الاستدلال بالسياق.
 13. كان للسياق دور كبير في توضيح المراد من التركيب.
 14. للسياق دور مهم في تحديد المراد من أدوات المعاني.

15. ذهب الفراهي إلى أنَّ الفعل (صغا) ومصدره (الصغو) من المعاني التي تندرج تحت الميل، ومعناه الميل إلى الشيء.
16. لعب السياق دوراً مهماً في تحديد المراد من الأسلوب الإنشائي الاستفهام- الدعاء.
17. لعب السياق دوراً مهماً في تحديد المراد من المشترك اللفظي، والمشارك الأسلوبية.
18. ذهب الفراهي إلى أنَّ المخاطب بقوله: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ" (سورة الفيل: ٥) جميع مَنْ رأى الواقعة أو أيقن بها من طريق تواتر الحكاية ممن رآها خلافاً للعلماء.
19. كان للسياق دورٌ مهمٌ في تعيين المخاطب، وتخصيص المعنى العام في تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان.
20. كانت للفراهي انفرادات موفقة في توضيح أثر السياق في فهم كلام الله عزَّجَلَّ. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلِّ اللهم وسلِّم وبارك على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه.¹

¹ مع الشكر لمجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة، 1124-1031/1/38

المراجع والمصادر

1. إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر للبنا الدمياطي، وضع حواشيه الشيخ أنس مهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2001م.
2. أثر السياق في فهم النص القرآني للدكتور عبد الرحمن بو درع، مجلة الإحياء المملكة المغربية، ع 25، يوليو 2007م.
3. أساس البلاغة للزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط الأولى، 1998م.
4. أسباب النزول للنيسابوري عالم الكتب، بيروت، لبنان.
5. إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش، دار ابن كثير، بيروت، ط 3 1992م.
6. الإمام حميد الدين الفراهي حياته، وأعماله للشيخ أمين أحسن الإصلاحي ص 11-15، ترجمة محمود عاصم مجلة الهند عدد خاص عن حياة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي)، مج، أعداد من 1-4.
7. الإمام حميد الدين الفراهي للشيخ شير محمد الإصلاحي الندوي ص 41، مجلة الهند عن حياة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي مج 6، ع. 2017م.
8. الإمام عبد الحميد الفراهي وتلاميذه البارزون للدكتور إشفاق ظفر الإصلاحي مجلة الهند عدد خاص عن حياة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي مج 6، ع. 2017م.
9. الإمام عبد الحميد الفراهي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن، للدكتور محمد فريد دار الشاكر، سيلانجور - ماليزيا، ط الأولى، 2015م.
10. الإمام عبد الحميد الفراهي ومنهجه في تفسيره نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، للدكتور محمد يوسف الشريحي، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية

- والقانونية، مج 20، ع 2، 2004م.
11. إمعان في أقسام القرآن، عبد الحميد الفراهي، تحقيق: سليمان الندوي. د.ت.
12. أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء، ضبطه وصححه الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين بيروت، 1896م.
13. البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي، مراجعة: عبد القادر عبد الله العاني دار الصفوة للطبع والنشر والتوزيع، ط الثانية، 1992م.
14. البحر المحيط لأبي حيان، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 2، 2007م.
15. بدائع الفوائد لابن القيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع. د.ت.
16. التحرير والتنوير لابن عاشور، دار سخون للنشر والتوزيع، تونس. د.ت.
17. تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا مكتبة الرياض الحديثة، الرياض. د.ت.
18. تفسير الطبري - جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري، تحقيق: محمود محمد شاكر مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د.ت.
19. تفسير الفخر للرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، 1981م.
20. تفسير القرآن العظيم لابن كثير، مكتبة الصفا، ط الأولى، 2004م.
21. تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، تحقيق: سيد أحمد صقر، القاهرة، 1958م.
22. تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان للإمام عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح، سرائر مير - أعظم كره يوبي الهند، ط الأولى، 2008م.
23. الجامع لأحكام القرآن القرطبي، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط 1، 2006م.

24. حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه مصر. د.ت.
25. حجة القراءات للإمام أبو زرعة عبد الرحمن بن زنجلة، تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، ط الثالثة، 1982م.
26. المحجة في القراءات السبع لابن خالوية، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، ط الرابعة، 1981م.
27. حركة التعليم الإسلامي في الهند وتطور المنهج لمحمد واضح رشيد الحسن الندوي، المجمع الإسلامي العلمي لكنؤ، ط الأولى، 2006م.
28. حروف المعاني لأبي القاسم بن إسحاق الزجاجي، تحقيق: د. علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، دار الأمل. د.ت.
29. دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، دراسة تحليلية للوظائف الصوتية والبنوية والتركيبية في ضوء نظرية السياق للدكتور عبد الفتاح البركاوي، دار المنار، القاهرة، ط الأولى، 1991م.
30. دلالة السياق للدكتور ردة الله الطلخي، رسالة دكتوراه في كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، 1418هـ.
31. دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم لعبد الوهاب أبو صفية، عمان - الأردن، ط الأولى، 1989م.
32. دور الكلمة في اللغة لستيفن أولمان، ترجمة وتقديم وتعليق: د. كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، المنيرة، 1975م.
33. ديوان الحماسة لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي، تحقيق: عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان، الجزء الأول، جامعة الامام المجلس العلمي، 1981م.
34. ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط الثانية.

35. ديوان عدي بن زيد العبادي، تحقيق: محمد جبار المعبيد، وزارة الثقافة والإرشاد، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، 1965م.
36. الرسالة للإمام الشافعي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط الأولى، 1938م.
37. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت.
38. السياق أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني للدكتور خليل خلف بشير العامري، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، مج 9، ع 2، 2010م.
39. السياق عند الأصوليين- المصطلح والمفهوم للدكتور فاطمة بو سلامة، مجلة الإحياء، ع 25، يوليو 2007م.
40. السياق غير اللغوي في النص القرآني لخليل خلف العامري، مجلة جامعة بابل للعلوم الإسلامية، مج 15، ع 4، 2007م.
41. شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام الأنصاري، المكتبة العصرية، بيروت، 1998م.
42. الصحاح- تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين بيروت، ط الرابعة، 1990م.
43. علم الدلالة بين النظرية والتطبيق للدكتور عبد الفتاح أبو الفتوح، د.ت.
44. علم الدلالة للدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط الخامسة، 1998م.
45. علم اللسانيات الحديثة للدكتور عبد القادر عبد الجليل، دار الصفاء للنشر، عمان، 2008م.
46. علم اللغة الاجتماعي لهudson، ترجمة: محمد عبد الغني عياد، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1987م.

47. علم اللغة مقدمة للقارئ العربي للدكتور محمود السعران، دار النهضة العربية، مصر.
48. العين للخليل بن أحمد، تحقيق: د. مهدي الخزومي وإبراهيم السامرائي، سلسلة المعاجم والفهارس.
49. فتح الباري بشرح صحيح البخاري للإمام الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المطبعة السلفية، القاهرة، 1407هـ.
50. كتاب الحيوان للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط الثانية، 1968م.
51. الكتاب لسيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت.
52. الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري، شرح وضبط: يوسف الحمادي، دار مصر للطباعة، مكتبة مصر، د.ت.
53. الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: د. محي الدين رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1974م.
54. الكلمة دراسة دلالية ومعجمية للدكتور حلمي خليل، الهيئة العامة للكتاب فرع الإسكندرية، 1980م.
55. لسان العرب لابن منظور، دار المعارف، القاهرة. د.ت.
56. مبادئ اللسانيات للدكتور أحمد محمد قدور، دار الفكر، دمشق، ط الثالثة، 2008م.
57. مختصر في شواذ القراءات لابن خالويه، عني بنشره برجستراسر، مكتبة المتنبّي، القاهرة. د.ت.
58. المسلمون في الهند الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند لأبي الحسن علي الحسيني الندوي، دار ابن كثير، بيروت، ط الأولى، 1999م.

59. المشترك الأسلوبي في الخبر والاستخبار في ضوء ما ورد في القرآن- دراسة تحليلية لسوسن حسانين الهدهد، مخطوط في كلية الدراسات الإسلامية والعربية، فرع البنات بالقاهرة، جامعة الأزهر، 2009م.
60. معاني الحروف للرماني، تحقيق: الشيخ عرفان بن سليم العساء، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط الأولى، 2005م.
61. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية مكتبة الشروق الدولية، ط الرابعة، 2004م.
62. مغني اللبيب لجمال الدين بن هشام الأنصاري، مطبعة مصطفى محمد، مصر، 1356هـ.
63. مفردات القرآن نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية للإمام عبد الحميد الفراهي، تحقيق: د. أحمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، ط الأولى، 2002م.
64. مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، د.ت.
65. النشر في القراءات العشر لابن الجزري، مراجعة: الشيخ علي محمد الصباغ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. د.ت.
66. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.

أخطاء المفسرين القدامى وموقف الإمام الفراهي منها

- د. أبو سعد الأعظمي¹

ترجمة من الأردوية: د. محمد شفاء الرحمن المدني²

إنَّ الشيخ الفراهي رَحِمَهُ اللهُ (1863-1930م) من الشخصيات البارزة التي لا تحتاج إلى التعريف في الأوساط العلمية. وأنه قضى حياته كلها في تدبر القرآن الكريم والتفكير فيه. وأنَّ من سمات مؤلفاته المميّزة الإبداع والابتكار، والتميز البحثي. وهو الذي قدّم فلسفة نظم القرآن الكريم بالشرح والبسط، وقد اهتم به، وطبقه عملياً في تفسيره المعروف "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان". ونظراً لشدة الاعتناء بفلسفة نظم القرآن نشأ سوء فهم عنه في بعض الأوساط بأنه استخف مسألة الحديث، وتغاضى عنها فعلاً في تفسيره. وتعززت هذه الفكرة أيضاً بأن لا توجد أحاديث في تفسيره إلا قليلاً، بالإضافة إلى ذلك أنَّ موقفه يختلف عن الموقف العام مما يتعلق ببعض الأحاديث الصحيحة. ومع ذلك ستزول شكوك المعارضين بنفسها إذا نظروا في أصول التفسير عنده. كما أنَّ هناك فكرة عامة، وهي أنه تجاهل عن مجموعة تفسير المأثور بسبب فلسفته الخاصة في نظم القرآن، وحاول البيان والتوضيح لمعنى الآيات القرآنية ومدلوله في ضوء النظم فقط. وهذا أيضاً من الاعتقادات الفاسدة التي لا أساس لها من الصحة؛ لأنه قد صرح بنفسه في مقدمة تفسيره، يقول: "ولعمري أحبّ التفسير عندي ما جاء من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ".³

¹ باحث في معهد علوم القرآن بعلي كره (الهند)

² مدرّس بالجامعة الإسلامية، سنابل، نيو دلهي، الهند.

³ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 23.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الإمام الفراهي لم يجد الفرصة الكافية في حياته لإكمال أعماله التفسيرية، وله تفاسير لبعض السور الصغيرة، بالإضافة إلى ذلك تفسير سورة البقرة (غير كامل)، وتفسير سورة الحج والذاريات، والعديد من آيات آل عمران. وقد قام بمحاولة ناجحة لتطبيق فلسفة نظم القرآن في تفسير هذه السور وتوضيحها، وقدم المعنى الصحيح للآيات. وعلاوة على ذلك له تعليقات تفسيرية وهي تساعد للغاية في فهم بصيرة الإمام الفراهي وفكرته القرآنية. وتظهر بدراسة تعليقاته القرآنية أنه كان لديه إلمام بالغ في فهم الحديث، ويرى أنّ كل هذا مأخوذ من القرآن الكريم، وكان مطلعاً على جميع ذخائر التفاسير القديمة، وقد قام بدراستها بعمق وإمعان. ويؤيد هذه الفكرة أيضاً أنه قد وضع حواشي مستقلة على بعض الكتب المهمة في علوم القرآن مثل "الإتقان في علوم القرآن" وغيره من الكتب. ولذلك كان يجد رأي أيّ واحد من الصحابة مؤيداً للمعنى الذي توصل إليه مراعيّاً لنظم القرآن الكريم.

قد أوضح الإمام الفراهي في مقدمة تفسيره- كما مضى آنفاً- "ولعمري أحبّ التفسير عندي ما جاء من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ".¹ لكن بما أنّ الأحاديث التفسيرية تشمل جميع أنواع الأحاديث من الصحاح والضعاف والمراسيل والموضوعات فلذلك إنه اعتبرها من المأخذ الظنية. أما إذا وجد حديثاً صحيحاً يتعلق بتوجيه آية رجع من موقفه الثابت بدون تردد، وأعطى الأولوية للحديث الصحيح، وهنا أضرب لكم مثلاً، وهو أنّ "السبع المثاني" ورد ذكرها في سورة الحجر من الآية رقم: 87، فما المقصود بها؟ يقول الإمام الفراهي وهو يشرح هذه الآية:

"والمشهور من التأويل أنها سبع آيات الفاتحة. وهذه التأويلات على فرض صحة ذلك الحديث، وإلا فالسبع المثاني محتملة لتعينات أخر، مثل سبع ال حم، وأربع عشرة

¹ المصدر نفسه، ص 23

سورة من سورة البقرة إلى سورة الحجر".¹ ولكن الإمام الفراهي يرى أنها السبع المثاني، يقول في بداية سورة الفاتحة:

"وذلك أمر استنبط العلماء من القرآن، فإنّ الله تعالى تنبيهاً لعظم منته على نبيه قال: "وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ"² وقد اتفقت العلماء من السلف إلى الخلف على أنّ السبع المثاني هذه سورة الفاتحة".³

وعلى الرغم من رأي الإمام الفراهي الواضح القاطع في "السبع المثاني" فقد ذكر الشيخ أمين أحسن الإصلاحي ثلاثة أقوال للعلماء فيما يتعلق بـ"السبع المثاني" وناقش هذه الأقوال مفصلاً، وفي النهاية عرض وجهة نظره.⁴ فعلم أنّ هناك مجالاً للخلاف.

وبما أنّ المفسرين القدماء نقلوا عديداً من الأحاديث التفسيرية ذات الصلة بآية واحدة عموماً، ولم يهتموا ببيان الصحة والضعف فكذلك الإمام الفراهي لم يهتم بهذه الروايات التفسيرية اهتماماً كبيراً. ولكن ليس من الصواب أن يفترض من ذلك أنه تجاهل عن التفسير بالمأثور واعتمد على التفسير بالرأي. وتظهر من دراسة حواشيه القرآنية أنه قد طالع التفاسير القديمة من تفسير الطبري، والرازي، والكشاف، والبضاوي، والجلالين وغيرها بدقة وإمعان، ويشهد على ذلك أنه أحال في مواضع عديدة من تلك الحواشي إلى كتب التفاسير هذه، وأنه قد وضح بصراحة في بعض المواضع التي اختلف فيها عن المواقف الواردة في هذه التفاسير، أو أشار إلى الضعف في الأحاديث التي نقلت فيها إن وجد. وأوضح أنّ الروايات الطائفة التي ذكرت في هذه المواضع لا علاقة لها بالواقع. وهذا البحث

¹ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 337/1.

² سورة الحجر: 87.

³ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 86.

⁴ تدبر قرآن (تدبر القرآن)، ص 255.

يهدف إلى تحديد مثل هذه المواضع، والأخذ عليها، وإبراز بصيرة الإمام الفراهي التنقيدية. ومن هذه المواضع ما يلي:

1. قوله تعالى: "قَالَ اللَّهُ يَخُكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ"¹ حاول الإمام الفراهي تعيين معنى قوله: "يَخُكُمُ بَيْنَهُمْ" في ضوء تفسير القرآن بالقرآن، ففسر الآية بقوله "أي فيما اختلفوا فيه من الدين، لما حُبَّ إليهم البدع والأهواء كما جاء كثيراً في القرآن، ومنه قوله تعالى: "وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ"² وقوله تعالى: "فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ"³ فقد ذكر ابن جرير روايات طويلة باطلة ولم ينبه على سخافتها.⁴

ويبدو أن الإمام الفراهي قد وهم هنا؛ لأن ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ لم يذكر أي حديث في هذا الصدد وقد ظهرت هذه الحقيقة بعد الرجوع إلى تفسيره، ولكنه بين معنى الآية قريباً مما بينه العلامة الفراهي. ولعل هذا هو السبب أن الشيخ عبيد الله الفراهي، والشيخ أمانة الله الإصلاحي رحمهما الله حذفوا ما أخذ به العلامة الفراهي على الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ ولم يذكره في الترجمة الأردية لـ "تعليقات في تفسير القرآن الكريم".⁵

2. وقوله تعالى: "كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً"⁶ يقول عند تفسير هذه الآية معناه: "أنهم عند الله أمة واحدة كما قال: "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ"⁷، وكما قال: "فَظَرَّتْ اللَّهُ

¹ سورة البقرة: 113.

² سورة الشورى: 10.

³ سورة الجاثية: 17.

⁴ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 44-45/1.

⁵ قرآني حواشي، ص 36.

⁶ سورة البقرة: 213.

⁷ سورة آل عمران: 19.

الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا¹ "كَانَ" ههنا للدوام مثل "وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا"² وأخطأ المفسرون وأشكل عليهم التأويل³. وبالرجوع إلى تفسير الطبري تبين أن هناك ذكرت عدة أقوال في تفسير هذه الآية⁴ ولكن ما ذكره العلامة الفراهي من معنى الآية في ضوء تفسير القرآن بالقرآن فهو أنسب المعاني.

3. وقوله تعالى: "أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طُعَمَائِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِتَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"⁵ يقول الإمام الفراهي في تفسير هذه الآية: "وأخطأ الزمخشري إذ قال: "والمار كان كافراً بالبعث وهو الظاهر لانتظامه مع نمروود في سلك⁶ ولكلمة الاستبعاد التي هي "أَنَّى يُحْيِي" وقيل هو عزيز أو الخضر أراد أن يعاين إحياء الموتى ليزداد بصيرة كما طلبه إبراهيم عليه السلام. وقوله "أَنَّى يُحْيِي" اعتراف بالعجز عن معرفة طريقة الإحياء واستعظام لقدرة المحيي"⁷.

ولكن تبين بالرجوع إلى تفسير الكشاف (حاشية الكشاف) أن الإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندري المالكي قد خالف رأي الزمخشري هذا،

¹ سورة الروم: 30

² سورة النساء: 17.

³ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 68/1.

⁴ انظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن، 620/3.

⁵ سورة البقرة: 259.

⁶ الكشاف، 306/1.

⁷ الكشاف، 307/1، وتعليقات في تفسير القرآن الكريم، 80/1

قال أحمد: "أما استدلال الزمخشري على أن المار كان كافراً بانتظامه مع غرود في سلك واحد، فعارض بأنه نظمت قصته مع قصة إبراهيم عليه السلام في نسق واحد، فليس الاستدلال على كفره باقتران قصته مع قصة غرود، أولى من الاستدلال على إيمانه بانتظامها أيضاً مع قصة إبراهيم".¹

4. وقوله تعالى: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ"² يقول الإمام الفراهي في تفسير هذه الآية: "نسبة الفعل بصيغة الجمع إلى المجموع من حيث هو مجموع، فلا ينسب إلى كل فرد من هذه الأمة. وعلى هذا خطأ (ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ) في قوله تعالى: "وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ"³ فزعم أن "مِنْكُمْ" ليس للتبعيض. فتمسك بالنادر وترك الكثير الشائع. وهذا مخالف لأصول التأويل، ومخالف السنة، ومخالف للحكمة، ومخالف للشاهد القريب. فإن بعد هذه الآية بقرب منها جاء قوله تعالى: "مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ"⁴ فليس المعنى أن أهل الكتاب كلهم هكذا...."⁵

وأن الشيخ أمانة الله الإصلاحي رَحِمَهُ اللَّهُ علق على رأي العلامة الفراهي رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: "وَأَنَّ مِنْ" في هذه الآية التي جاءت لبيان المطلوب يمكن أن تكون بيانية لوقوعها في وسط الكلام، أو للتبعيض، بينما في المثال القريب الذي هو لبيان الواقع لكونه في أصل الكلام فيتعين أنها للتبعيض. ويؤيد رأي ابن تيمية

¹ تفسير الكشاف (حاشية الكتاب)، 306/1.

² سورة آل عمران: 110.

³ سورة آل عمران: 104.

⁴ سورة آل عمران: 113.

⁵ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 109/1 - 110.

رَحِمَهُ اللَّهُ أَيْضاً عدم وجود "مِنْ" في الآية الثانية".¹

5. وقوله تعالى: "وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ"² يقول الإمام الفراهي في تفسير هذه الآية: الغل خلاف النصح. وما كان لنبي أن يأمر المؤمنين بما فيه فسادهم ووبالهم من هوى نفسه فيقتلوا ويصابوا. فإن النبي يتبع رضوان الله في كل ما يأمر به المؤمنين فينبغي لهم أن يعترفوا بمنة الله أن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم فيتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. ولا ينبغي لهم أن يذبذبوا ويظنوا السوء في أوامره. وكيف يغلّ النبي وقد علم النبي أنّ الله يوفي كل نفس ما كسبت ويبرز غله في القيامة. ومن لم يفهم معنى الآيتين ظن أنه لا بد أن يكون الغل شيئاً يحمله ويأتي به يوم القيامة كما يأتي الرجل بالأشياء دون الأفعال، ولم يتدبر فيما سبق الآية بحقها. وليس ههنا ذكر غنيمة فرقع القرآن بالقصص وحمل الآية على ما ظن، والقرآن يأباه.³

إنّ ما قدّمه الإمام الفراهي من تفسير كلمة "الغل" يتطلب المزيد من الدراسة. وأنه اعترض على المفسرين بأنهم لم يتدبروا سياق الآية بحقها، ولكن بالرجوع إلى تفسير الطبري علم أنّ المؤلف قد أورد العديد من الأحاديث الطويلة في تفسير الآية ولا سيما في توضيح كلمة "الغل" وإن ضعف الأخ المحقق لتفسير الطبري منصور عبد الحميد أكثر ما ورد من الأحاديث فيه، أو قال إنها من المراسيل، إلا أنّ المفسرين عموماً يفسرون كلمة "الغل" في آية مذكورة على ضوء هذه الأحاديث.⁴ بينما الإمام الفراهي لديه إشكالية في صحة هذه الأحاديث،

¹ قرآني حواشي، ص 86.

² سورة آل عمران: 161.

³ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 118/1.

⁴ انظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن، 509/3 - 516.

- وحاول بيان المعنى الفريد للآية مراعيًا نظم القرآن الكريم، وأنّ ما قدّمه من تفسير كلمة "الغل" مهتمًا بنظم الكلام يمكن أن يسمّى تفردّه. ولا يُعرف ولأيّ سبب تم حذف ما انتقد على المفسرين من النسخة الأردنية لكاتب "تعليقات في تفسير القرآن الكريم" للفراهي الذي طبع باسم "قرآني حواشي".¹
6. وقوله تعالى: "وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ"² يقول الإمام الفراهي في تفسير هذه الآية: "هذه الآية تشير إلى ما ذكرنا من سورة الأنعام حتى أنّ المفسرين زعموا أنّ تلك الآية قد نسخت بهذه الآية، كما ذكر ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ ولكن لا نسخ. فإنّ هذه الآية إنما تمنعهم عن القعود معهم إذا سمعوا استهزاءهم حتى يخوضوا في حديث غيره".³
7. وقوله تعالى: "وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ"⁴ نقل الشاه عبد القادر الدهلوي رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الآية إلى اللغة الأردية "اور آفرین ہے نماز پر قائم رہنے والوں کو".⁵ (ترجمة: وطوبى لمن أقام الصلاة) نقل العلامة الفراهي هذه الترجمة ضمن تفسير هذه الآية في كتابه "تعليقات في تفسير القرآن الكريم" ثم انتقد فيها بقوله: "أخطأ (الشاه عبد القادر رَحِمَهُ اللَّهُ) في ترجمة "وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ" وظنّ أنّ "المقيمين" منصوب على المدح كما قال سيبويه. ولكن المراد بالخصوص بالمدح هو ما يقدر قبله "يعني". فهو المنصوب بهذا القدر، وليس معناه المدح. إنما يأتي في موقع المدح والذم".⁶

¹ قرآني حواشي، ص 91-92.

² سورة النساء: 140.

³ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 137/1.

⁴ سورة النساء: 162.

⁵ موضح قرآن، ص 133.

⁶ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 139/1.

8. وقوله تعالى: "يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" ٣٦ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" ١ يقول الإمام الفراهي في تفسير هذه الآية: "القربان من الافتداء. [قال الشاه عبد القادر الدهلوي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: "إن المراد من "الوسيلة" طاعة النبي وأن العمل الصالح الذي يحكم به محض العقل لا يقبل"]" ٢. (هذه هي الترجمة باللغة العربية، وأن الإمام الفراهي قام بترجمة ما بينه الشاه عبد القادر الدهلوي من معنى الوسيلة في تفسير الآية، وبعد هذه الترجمة يقول الإمام الفراهي: "وهذا كلام صحيح في نفسه، ولكنه ليس ههنا محله في ترجمة "الوسيلة" ولا حاجة إلى دفع دخل زعمه مقدراً. فإن العمل الصالح لا بد أن يكون فيه طاعة النبي فإنه إنما جاء للدعوة إليه والبيان له.

فالتفسير الموافق لما قبله وما بعده أن العبد لا بد أن يحقق تقواه بالأعمال المقربة إلى الله تعالى، وهو حقيقة القربان" ٣.

9. وقوله تعالى: "أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" ٤ يقول الإمام الفراهي في تفسير هذه الآية: قال العلامة عبد القادر الدهلوي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: "إن الله تعالى يعذب عذاباً عظيماً على إثم صغير إن شاء، فلا اعتراض عليه. ٥ وهذا تأويل باطل. فإن المراد من الآية أن الله تعالى يعذب الظالمين ويتوب على التائبين، فهو المالك على الإطلاق. فكما

¹ سورة المائدة: 35 - 36.

² موضح قرآن، ص 145، وتعليقات في تفسير القرآن الكريم، ص 154.

³ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 154/1.

⁴ سورة المائدة: 40.

⁵ موضح قرآن، ص 141.

يعذب بقدرته، فكذلك يغفر بقدرته. وهذا تأويل موافق لنظم الكلام".¹

10. وقوله تعالى: "وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ. وَمَنْ بَلَغَ" ² يقول في تفسير هذه الآية: قال الإمام الرازي: "ومن بلغ أي ومن احتلم وبلغ حد التكليف، وعند هذا لا يحتاج إلى إضمار العائد".³ يقول الإمام الفراهي على هذا التأويل: "وهذا سخيّف جداً ولكن قول آخر عندي وذلك لأنذرکم ولينذر قومہ وأصحابہ به من بلغه القرآن، كما قال: "فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ"⁴ وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمر أصحابه بالتبليغ فيقول: "فليبلغ الشاهد الغائب". فوجب التبليغ على الأمة بالنص. "وَمَنْ بَلَغَ" ولأنذر من بلغه القرآن. هذا قول الجمهور".⁵

وهنا قال الإمام الفراهي إنّ تفسير الإمام الرازي ضعيف جداً، ويُعلم بدراسة كتابه "التفسير الكبير" أنه ذكر الرأي المذكور ضمن شرح الآية إلا أنه جعل الرأي مرجوحاً بنفسه. وأنّ ما أراده جمهور المفسرين فهو راجح عنده".⁶ ولعل هذا هو السبب بأنّ حذف هذا في النسخة الأردنية لـ "تعليقات في تفسير القرآن الكريم"، ولم يشر إلى ذلك".⁷

11. وقوله تعالى: "وَهَٰذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۖ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ"⁸

¹ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، ص 155 - 156.

² سورة الأنعام: 19.

³ التفسير الكبير، 499/12.

⁴ سورة التوبة: 122.

⁵ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 179/1.

⁶ انظر: التفسير الكبير، 499/12.

⁷ قرآني حواشي، 136.

⁸ سورة الأنعام: 126.

يقول عند تفسير هذه الآية: قال العلامة عبد القادر الدهلوي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: المراد من الصراط المستقيم هو الإذعان للطاعة ونبد العقل، وهذا تأويل غير صحيح. قد كثر في القرآن بيان الصراط المستقيم بالتوحيد.¹ وقد جاء هذا الكلام في إخلاص الإسلام لله، فليس أنَّ العقل معطل عند المؤمنين، بل تجري عقولهم على السداد.²

وقد وضح الشيخ شبير أحمد العثماني في حاشية "موضح قرآن" أنَّ معنى ما قاله الشاه عبد القادر الدهلوي في هذا الصدد: إنَّ الإيمان بالغيب يكفي في الأمور الغيبية والعقل ليس له تدخل فيها، وأنَّ هناك في الأحكام الشرعية مصالح وحكمًا لا تحصى، ولقهما أنَّ القرآن الكريم يأمر أن يستخدم العقل كقوله: "أفلا تعقلون" و"أفلا تتفكرون" وقد ناقش الشاه وليَّ الله المحدث الدهلوي مناقشة علمية في مقدمة كتابه "حجة الله البالغة" في التدبر والتفكر في حكم الدين وأسراره.³

12. وقوله تعالى: "وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكْ وَءَالِهَتَكَ"⁴ يقول في تفسير هذه الآية: المراد من الآلهة "أصنام فرعون التي نصبها ليخروا لها سجداً وبذلك يظهروا تعظيمه.

وهذا أمر قد شهد بوقوعه التاريخ. فيرفع الإشكال الذي لم يخرج منه الرازي، وأخطأ فيه الحسن والزمخشري وأبو بكر الأنباري رحمهم الله. وعلة الإشكال أنَّ ما فهموا من قوله: "وَأَلِهَتَكَ" يخالف ما جاء في القرآن من قول فرعون: "مَا

¹ تعليقات في تفسير القرآن، 198/1.

² تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 198/1.

³ موضح قرآن، ص 185.

⁴ سورة الأعراف: 127.

عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي¹ وقوله: "أَنَا رَبُّكُمْ أَلَّا عَلَى²."

13. وقوله تعالى: "الْأَسْتَيْحُونَ"⁴ يشرح كلمة "السائحون" عند تفسير الآية رقم 112 من سورة التوبة، يقول الفراهي: "عند عامة المفسرين: الصائمون. وعن عكرمة ووهب بن منبه: طلاب العلم يسبحون في الأرض. وعند أبي مسلم: الذين هم يسبحون للجهاد. ولكن فيه إشكال، فإن هذا اللفظ جاء في صفات النساء في سورة التحريم حيث قال: "مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَنَاطَاتٍ تَتَّبِعُنَّ عِبَادَتِ سَيِّحَاتٍ"⁵ ويمكن أن يراد منه: النظر في آيات الله، ويدل عليه نظم الكلام.⁶
14. وقوله تعالى: "وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ"⁷ يقول الإمام الفراهي في تفسير هذه الآية: "كيف يشك أحد بعد هذه الآية وأمثالها أن الله تعالى لا يظلم العباد، وعادته العفو والكرم، وبذلك يأمرنا. ولكن من المسلمين من ذهب إلى أنه لا يكون فعل من الله تعالى ظلماً فإنه المختار المطلق في ملكه، فإن عذب الخلق جميعاً بغير ذنب، أو أنعم عليهم بغير حسن عمل لم يكن ذلك ظلماً منه. ولا شك إنهم ما أرادوا بهذا القول إلا خيراً. ولكن رحمهم الله ما قدروا الله حق قدره لما أنهم يتسكون بهذا القول. إذا قيل لهم كيف يعذب الله في الدنيا أطفالاً صغاراً، ودواب الأرض فإنهم يجوزون أن الله تعالى إن فعل هذا من غير مصلحة ورحمة لم يكن ظلماً، وقد فعل."

¹ سورة القصص: 38.

² سورة النازعات: 24.

³ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 224/1.

⁴ سورة التوبة: 112.

⁵ سورة التحريم: 5.

⁶ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 252/1.

⁷ سورة هود: 101.

فاعلم أنّ الجواب يخالف القرآن ويناقض آياته ويسيء الظن بالله الرؤوف الرحيم، ولا يترك الفرق بين إله ظالم شرير كإله بعض المشركين، وإلهنا العادل العفو الشكور الودود الرحمن. واعلم أنّ لا شيء أضرّ بالدين من إساءة القول في الله والافتراء عليه. وأما الجواب عن مصائب الصلحاء والأطفال والحيوانات فبسيط في محله. وما لك أنّ لا تحول علم ما لم تعلم إلى الله تعالى كما في القرآن في جواب مسألة الروح: "قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا"¹ والاستنكاف من القول بلا أدري أورد الناس الموارد².

15. ويقول الإمام الفراهي في بداية تفسير سورة يوسف: "لا يخفى على علماء التفسير جانب التطابق بين النبيين (يوسف ومحمد عليهما السلام) فهذا (تفسير ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ) قريب مما ذكرنا، غير أنّ جعله خطاباً للمشركين لا يصح، فإنّ في أول السورة صريح الخطاب إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي آخرها صريح القول بكونه عبرة لأولي الألباب"³.

16. ويقول الإمام الفراهي وهو ينتقد الإمام الرازي رَحِمَهُ اللهُ في تفسر كلمة "المعقبات" في سورة الرعد من الآية رقم 11: قال الإمام الرازي: "المعقبات ملائكة الليل وملائكة النهار"⁴. ولا أراه صحيحاً⁵.

وقد نقل الإمام الرازي قولين في هذا الصدد، ولم يصحح الإمام الفراهي القول الأول، وهو المشهور الذي عليه الجمهور. (أنّ المراد منه الملائكة الحفظة وإنما صح وصفهم بالمعقبات، إما لأجل أنّ ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار

¹ سورة الإسراء: 85.

² تعليقات في القرآن الكريم، 1/290-291.

³ المصدر نفسه، 1/297.

⁴ التفسير الكبير، 19/17.

⁵ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 1/314.

وبالعكس، وإما لأجل أنهم يتعقبون أعمال العباد ويتبعونها بالحفظ والكتب، وكلّ من عمل عملاً ثم عاد إليه فقد عقب، فعلى هذا المراد من المعقبات ملائكة الليل وملائكة النهار). وقد بين له معنى آخر نقلاً عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.¹ ولكن الإمام الفراهي أبدى هنا عدم الاطمئنان إلى رأي الإمام الرازي، ولكنه لم يبين ما هو معناه الصحيح؛

17. وقوله تعالى: "وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أُنَابَ"² يقول الإمام الفراهي ضمن تفسير هذه الآية منتقداً العلامة عبد القادر الدهلوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أخطأ (الشاه عبد القادر) رَحِمَهُ اللَّهُ. وإنما المعنى أنّ الكفار يقولون لولا أنزل الله على النبي آية ليؤمنوا به، فردّ قولهم بأن الآية لا تهدي من أضله الله فالهداية والضلالة بيده يؤتيها لمن استحق، فيهدي من أناب ويضل من تولى".³

18. وقوله تعالى: "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ"⁴ يقول الإمام الفراهي في تفسير هذه الآية: "لم يفهم هذا المثل المفسرون وأشكل عليهم. ضرب سباً مثلاً لليهود الطاعنين فيما أحلّ النبي عليهم مما حرم في التوراة، وجاءهم عيسى عليه السلام فأحلّ لهم ولكن كذبوه".⁵ والتزم الإمام الفراهي هنا أيضاً تفسير القرآن بالقرآن، وقد استدللّ بآيات، آية رقم 50 من آل عمران، و15-20 من آيات سورة سبأ، وآية 106 من سورة

¹ التفسير الكبير، 17/19.

² سورة الرعد: 27.

³ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 317/1.

⁴ سورة النحل: 112.

⁵ تعليقات في تفسير القرآن الكريم / 358/1.

البقرة حيث صرح في هذه المواضع.

19. ويشرح الإمام الفراهي كلمة "حسباً" عند تفسير الآية رقم 40 من سورة الكهف ويقول: "قيل: هي المرامي، جمع حسبانة. وقيل: الحسبان قضاء من الله يقضيه. وقيل: العذاب. وقيل: الصواعق. وقيل: الجراد والعجاج. وقيل: الحسبانة: السحابة. وكل ذلك رجم بالغيب".¹ وهنا أيضاً لم يطمئن الإمام الفراهي بهذه المعاني المذكورة لـ "حسباً"، ويعتبره مجرد التخمينات، ولكنه لم يشر إلى المعنى الصحيح. ولو كان حياً، وراجع المسودة مرة أخرى، لحاول بيان المعنى الصحيح.

20. وقوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ"² يشرح الإمام الفراهي كلمة "تَمَنَّى" عند تفسير هذه الآية، يقول: "تَمَنَّى" أي تلا، كما قال تعالى: "لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي"³ هكذا قال المفسرون. والقاضي عياض ظنه أحسن الأقوال. وبذلك قال الشيخ عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ اللهُ. وعندي (والعلم عند الله) أن هذا تكلف وفرار عن حلّ المسألة. والأمني في الآية المستند بها ليس بمعنى التلاوة، لأنّ السياق يأباه.⁴ وذكر ابن جرير روايات طويلة باطلة ولم ينبّه على سخافتها.⁵ ومن هنا يتبين لك سوء مذهب أهل الرواية. وكذب الرواية ظاهر من آيات القرآن والعقل.⁶ وقد أنكر الإمام الفراهي هنا أيضاً معنى هذه الآية الذي ذكر استناداً

¹ المصدر نفسه، 385/1.

² سورة الحج: 52.

³ سورة البقرة: 78.

⁴ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 433/1.

⁵ انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 502/16 - 506.

⁶ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 424/1.

إلى الأحاديث التفسيرية، ولكن ما المعنى الصحيح للآية لم يشر إليه في هذه الحواشي. إلا أنه حاول إيضاح المعنى الصحيح للآية في تفسيره لسورة الحج غير المكتمل الذي أصدرته أول مرة دار الغرب الإسلامي، تونس، بعناية الشيخ عبيد الله الفراهي، يقول الإمام الفراهي:

"وإن كان بيان أمر عام، ولكن هاهنا وجه القول إلى [كتب] الأنبياء السابقين في أمر إلقاء الشيطان. فإن هذه الآية في ذكر ما ينسخ منها بهذا القرآن مما ألقاه الشيطان في الأحكام السابقة. وكذلك قوله تعالى: "وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ"¹ يتعلق بما جاء من الحق في هذا القرآن. فهذا تأويل القرآن حسب القرآن، فتمسك به، وعضّ عليه بالنواجذ، ولا يلتفت إلى ما ألقى الشياطين الدجالون في الروايات، وأضلوا بها كثيراً من ضعفاء العقول".²

وقد نقل ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ عددًا من الأحاديث في تفسير الآية إلا أن محقق تفسير الطبري ضعف أكثرها، بينما صحّ بعضها، ولكنها تعدّ من المراسيل. كما تخلو الأحاديث الصحيحة الواردة في هذا الصدد من ذكر هذه القصة التي ذكر فيها أصنام الكفار والمشركين، ورجاء الشفاعة لهم، ولذلك فلا يصح الاعتماد على هذه الأحاديث في تفسير الآية.

21. ويقول الإمام الفراهي منتقداً البيضاوي في تعيين ضمير "ه" في قوله "به سامراً" في آية رقم 67 من سورة المؤمنون "مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْجُرُونَ": "أشكّل مرجع ضمير في "به"، ووحدة "سَمِرًا"؛ فذكر البيضاوي وجوهاً: فقال: "الضمير للبيت وشهرة استكبارهم وافتخارهم بأنهم قوامه أغنت عن سبق ذكره، أو لا يأتي فإنها بمعنى ككابي. والباء متعلقة بـ"مُسْتَكْبِرِينَ"، لأنه بمعنى مكذّبين، أو لأنّ

¹ سورة الحج: 54.

² تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، (دار الغرب الإسلامي)، ص 434.

استكبارهم على المسلمين حدث بسبب استماعه أو بقوله "سَمِرًا" أي تسمرون بذكر القرآن والطعن فيه، وهو في الأصل مصدر جاء على لفظ الفاعل كالعافية. وقرئ سَمِرًا جمع سامر".

ولا يخلو من تكلف. والأولى من كل ذلك أن يكون "سَمِرًا" مفعولاً لـ"تَهْجُرُونَ" أي نكوصكم عن استماع آياتي مستكبرين كان على حالة كأنكم تتركون بفعلكم هذا سامراً لا تعبأون بقوله. والآية الثانية تبين ذلك. ويقرب من هذا التأويل أن يكون "بِهِ" متعلقاً بـ"سَمِرًا". وفي جعل الضمير مذكراً دلالة على أنهم لم يظنوا أنها آيات الله، وإنما ظنوها قولاً من السامر. فهذان تأويلان متقاربان. والله أعلم.¹

وقد كتب الشيخ أمانة الله الإصلاحي رَحِمَهُ اللهُ بين القوسين في هذا الصدد في تعليقات الإمام الفراهي رَحِمَهُ اللهُ في النسخة الأردنية وهي باسم "قرآني حواشي": "وفي الغالب أنّ التأويل الصحيح أنّ مرجع الضمير المذكور هو "آياتي" المستفاد من قوله "تتلى"، وهذا المراد من قوله ﴿سَمِرًا﴾ وهو اسم الفاعل المفرد وليس المصدر، وقراءات الجمع مرجوحة".²

22. وقوله تعالى: "أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ" ﴿٢١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٢﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ" ³ يقول الإمام الفراهي في تفسير هذه الآيات:

¹ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 434/1.

² قرآني حواشي، ص 327.

³ سورة العنكبوت: 19 - 22.

"هذه جملة محكمة تبين أن الله تعالى قضى بالعدل في الأمم السابقة، فعذب المفسدين، ورحم على المؤمنين، ولا ولي ولا نصير إلا هو، فعليه فليتوكلوا. وأما أنه يعذب من يشاء، أو يرحم من يشاء من غير سبب، فنعوذ بالله من سوء التأويل، وقطع النظم ونبد المحكم".¹

وقوله تعالى: "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا" لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا"² يقول الإمام الفراهي في الأمانة عند تفسير هذه الآية: "ولولا الابتلاء والإيفاء بالأمانة لبقى أكبر جانب للرحمة مخفياً معطلاً، فتأمل. فإن الذين لم يفهموه وقعوا في الجبر المحض".³

23. وقوله تعالى: "أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ"⁴ يقول الإمام الفراهي ضمن شرح هذه الآية: "أخطأوا في تقدير ما لم يذكر، فمنها قوله تعالى: "أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ" أي أفأنت تهدي من أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله؟ أفلا تذكرون".⁵

حذفت ترجمة هذا النص العربي لأسباب غير معروفة بالكامل في النسخة الأردنية لـ"تعليقات في تفسير القرآن الكريم" للإمام الفراهي.⁶

¹ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 53/2.

² سورة الأحزاب: 72 - 73.

³ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 99/2.

⁴ سورة فاطر: 8.

⁵ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 116/2.

⁶ قرآني حواشي، ص 404.

24. وقوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ"¹ يقول الفراهي عند تفسير هذه الآية: "وعندي أن من في القبر لا يسمع، ولكن الله يسمع من يشاء كما صرح به فمن سمع منهم فقد سمع بأمر الله"².

25. وقوله تعالى: "وَلَقَدْ دَاوُدُ أَتَمَّا فَتَنَّهُ فَاِنتَعَفَرَ رَبَّهُ وَحَزَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ"³ يقول الإمام الفراهي ضمن تفسير هذه الآية: "في فتنة داود عليه السلام ذكروا قصة واهية"⁴ وإنما أصلها تمنى ما لجار ضعيف، وهذا غالب على طباع ذوي الملك. والنجعة كناية عن المال والملك، فإن السوم كان بها في القديم، ولذلك، سكتهم كان عليها تمثال النجعة، ولذلك سموها بها"⁵.

وقد نقل ابن جرير الطبري رحمه الله أيضاً عدداً من الأحاديث التفسيرية عند شرح هذه الآية، ولم يشر إلى مصادرها ومآخذها. وقد صرح منصور عبد الحميد محقق تفسير الطبري في الهامش بأن هذه الأحاديث التي ذكرت في تفسير هذه الآية ضعيفة ولا أصل لها. ولكن مع ذلك تذكر مثل هذه الأحاديث الضعيفة في بعض كتب التفاسير إلى الآن، ويتغاضى عن ضعفها. 26. وقوله تعالى: "قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى" يقول الإمام الفراهي عند تفسير هذه الآية:

"طلب الأجر ليس من شأن الأنبياء، كما تتلو في سورة الشعراء حيث قال نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كلهم: "وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ

¹ سورة فاطر: 22.

² تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 119/2.

³ سورة ص: 24.

⁴ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 147/2.

⁵ المصدر نفسه،

⁶ سورة الشورى: 23.

أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ¹ وليس هذا استثناء من الأجر ولكنه قد ذكر على سبيل الاستدراك. "فِي الْقُرْبَى" معناه: من جهة القربى، كما يقال: "الحب في الله" وبعض فرق المسلمين يؤولون الآية فيقولون: أي المودة لذوي القربى، أي أن تؤدوا ذوي قرابة النبي. ويأباه اللفظ والعقل. فبعض أهل قرابة النبي كانوا من أشد أعداء الله. والنبي لا يسأل الأجر من الناس كما علمت².

خلاصة الأقوال: اتضح من الأمثلة المذكورة أعلاه أن المعنى الحقيقي للآية والتأويل الصحيح كان يتجلى للإمام الفراهي بسبب فلسفته لنظم القرآن والتزامه الخاص بتفسير القرآن بالقرآن، وبالعكس أن أحاديث التفسير تجعل أحياناً تأويل الآيات وتوضيحها إلى اتجاهات مختلفة تماماً، وبسبب ذلك كان المفسرون يواجهون صعوبة في فهم الآيات. ونقل المفسرون مثل هذه الأحاديث السخيفة بسبب هذا الاعتماد الكامل على الأحاديث التفسيرية والإغفال عن نظم الكلام في قصة داود وسليمان عليهما السلام، وقصة زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في كتب التفاسير وهي التي يتجلى بطلانها بشكل واضح. ولكن نقل ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ مثل هذه الأحاديث ولم ينبّه على سخافتها. وقال الإمام الفراهي إن مثل هذه الأحاديث التفسيرية لا يلتفت إليها، وأنه تعقب ابن جرير الطبري في هذا الصدد في أماكن عديدة. وكذلك انتقد الإمام الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير بعض الآيات. وأخطأ الشاه عبد القادر الدهلوي أيضاً في تفسير بعض الآيات، وقد لفت الإمام الفراهي الأنظار إلى ذلك. وكذلك قد أشكل على بعض المفسرين مثل الزمخشري والبيضاوي في شرح المفردات الواردة في بعض الآيات، والأساليب النحوية، وفي تفسير الآيات وتأويلها، فحاول الإمام الفراهي تقديم توجيهها الصحيح، ولكن ليس من الضروري أن تكون هذه الأخطاء التي أشار

¹ سورة الشعراء: 109، 127، 145، 164، 180.

² تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 209/2.

إليها الإمام الفراهي أخطاء حقيقية. ولعل هذا هو السبب أن الأماكن العديدة تتجلى عند المقارنة بين النسختين العربية والأردية لتعليقات الإمام الفراهي القرآنية حيث توجد انتقاداته في التعليقات العربية ولكن تم حذفها في التعليقات الأردنية (التي ترجمت من العربية إلى الأردنية باسم: قرآني حواشي)، واقتصر على تفسير الآيات فقط. وقد ربح الشيخ أمانة الله الإصلاحي رَحِمَهُ اللهُ رأي المفسرين في بعض المواضع بين القوسين من خلال تحديد التراكيب النحوية وتعيين مرجع الضمائر وما إلى ذلك. ومن الواضح أن هذه الحواشي قد وضعت لمجرد ذكرى، ولو كان الفراهي على قيد الحياة لربما قام بمراجعتها، ويمكن أن يرجع عن بعض الآراء الواردة فيها؛ لأن التدبر كان من مشاغل حياته بشكل دائم، ولكن حياته لم تمنحه وقتاً كافياً لإكمال أعماله التفسيرية. وفي ضوء هذه التعليقات والحواشي يمكن أن يقال بكل ثقة أن جميع ثروات التفسير بالمأثور كانت أما أعين الإمام الفراهي، وكان يعرف جيداً حقيقة الأحاديث التفسيرية، وكان يهتم بتفسير القرآن بالقرآن من أجل الوصول إلى المعنى الصحيح للآية بالإضافة إلى ذلك أنه كان يرى من الضروري العناية بنظم الكلام. وهذا هو السبب وراء قلة الأحاديث في تفسيره ولذلك ليس من العدل أن يتهم باستخفاف الحديث، وقد صرح ذلك بنفسه في مقدمة تفسيره:

"ولكنني أردتُ ما يكون كالأساس، والأم، والوسط، والحكم. ولذلك اقتصر على ما في القرآن، غير جاحد لما تركته، كما جمع الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ في كتابه كل ما ثبت عنده من الحديث متفقاً عليه، مع ما ترك كثيراً من الصحاح.¹ ولكن هذا لا يعني أنه جاحد له.²

¹ تفسير نظام القرآن تأويل الفرقان بالفرقان، ص 24.

² مع الشكر لمجلة "علوم القرآن" نصف السنوية، 91-72/2/38

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. تدبر قرآن (تدبر القرآن) للشيخ أمين أحسن الإصلاحي، تاج كمپني، دلهي، الهند، ط2، 1997م.
3. تعليقات في تفسير القرآن الكريم للإمام عبد الحميد الفراهي، إعداد: د. عبيد الله الفراهي، مراجعة: الشيخ محمد أمانة الله الإصلاحي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، يوبي، الهند، ط1، 2010م.
4. تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) لابن جرير الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 2001م.
5. تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان للإمام عبد الحميد الفراهي، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2012م.
6. تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان للإمام عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، يوبي، الهند، ط1، 2008م.
7. قرآني حواشي (النسخة العربية هي: تعليقات في تفسير القرآن الكريم) للإمام عبد الحميد الفراهي، ترجمة وترتيب: د. عبيد الله الفراهي، مراجعة وتصحيح: الشيخ محمد أمانة الله الإصلاحي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، يوبي، الهند، 2019م.
8. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري، تحقيق: ابن المنير الإسكندري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ.
9. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) لفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ.

أصول التفسير بين الفراهي والطاهر بن عاشور

دراسة مقارنة

- د. حسين بن مصطفى¹

ملخص: يُعد الإمامان عبد الحميد الفراهي والطاهر بن عاشور من العلماء المجددين في علم التفسير، فقد أسهم كل منهما في بيان مظاهر التجديد من خلال كتابهما "التكامل في أصول التأويل" و"تفسير التحرير والتنوير" وخاصة مقدماته على التوالي، فكانت أبرز إشكاليات البحث هي: ما هي أهم أصول التفسير التي ذكرها الإمامان؟ وما مدى تنزيلهما تلك الأصول على القرآن الكريم وتفسير آياته؟ لذلك يهدف هذا البحث إلى بيان أصول التفسير عند الإمامين وتوضيح مدى توظيفهما تلك الأصول في تفسير آيات القرآن الكريم، ومن أهم نتائج البحث التي خلصت إليها: حصر أصول التأويل عند الفراهي في تأويل الفرقان بالفرقان ورعاية النظام المسمى بالوحدة الموضوعية، وغلب تركيز ابن عاشور في تفسيره على الأصول اللغوية أكثر من الأصول النقلية، كما بينّ البحث أنّ الإمام ابن عاشور استطاع إلى حد كبير تنزيل أصوله على القرآن بخلاف الإمام الفراهي، ولعل هذا الأخير معذور لأنه لم يكتب له إكمال كتابه.

الكلمات المفتاحية: أصول ابن عاشور، مقارنة.

مقدمة: بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد!

فإنّ أصول التفسير من أبرز المسائل التي تستحق المداخلة والمناقشة كونها تتعامل مع

¹ جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر

القرآن الكريم فهماً وفقهاً.

وبالنظر إلى المخزون التراثي في أصول التفسير نجد مَنْ أشار إلى بعضها في ثنايا الكتاب أو في مقدمته كتفسير الطبري وتفسير الطاهر بن عاشور وغيرهما، ومنهم مَنْ أفرد الحديث عنها بكتاب مستقل ككتاب "التكميل في أصول التأويل" للفراهي وغيره.

ويأتي هذا البحث ليتناول أصول التفسير بين الطاهر بن عاشور في تفسيره والفراهي في تكميله للوقوف على مذهب كل واحد في أبرز أصول وقواعد التفسير والتأويل ومدى تطبيقها وتنزيلها على تفسير آيات القرآن الكريم.

أهمية البحث: وتكمن أهمية البحث في أنّ قضية أصول التفسير من القضايا التي لا تزال محل دراسة ومناقشة تستدعي الوقوف على أبرز مَنْ تكلم عنها وأسهم بأرائه التجديدية فيها، ويُعدّ الإمامان الفراهي وابن عاشور من أشهر رواد التجديد في التفسير.

إشكالية البحث: تقتضي طبيعة البحث طرح تساؤلات حري بنا الإجابة عنها وهي: ما هي أهم أصول التفسير التي ذكرها الإمامان؟ وما مدى تنزيلهما تلك الأصول على القرآن الكريم وتفسير آياته؟

أهداف البحث:

- بيان معنى أصول التفسير عند العلماء عموماً وعند الإمامين خصوصاً.
 - ذكر أبرز المصطلحات ذات الصلة بمصطلح أصول التفسير.
 - معرفة أصول التفسير عند كلا الإمامين.
 - الوقوف على مدى تنزيل أصول الإمامين في التفسير على القرآن الكريم.
- منهج البحث: اتبعت في هذا البحث المنهج المقارن من خلال المقارنة بين الإمامين الفراهي وابن عاشور في ذكر أصول التفسير، كما استعنت بالمنهج التاريخي في بيان

نبذة موجزة عن حياة الإمامين، واعتمدت أيضاً على المنهج الاستقرائي في تتبع أهم أصول التفسير عند الفراهي وابن عاشور من خلال كتابيهما "التكميل في أصول التأويل" و"تفسير التحرير والتنوير" على التوالي، كما تطلب البحث توظيف المنهج التحليلي في دراسة وشرح أصول التفسير عند الإمامين.

خطة البحث: قسمتُ هذا البحث إلى مطلبين اثنين هما:

المطلب الأول: تعريف مختصر للإمامين وبيان معنى أصول التفسير ومسمياته.

الفرع الأول: التعريف بالإمام عبد الحميد الفراهي.

الفرع الثاني: التعريف بالإمام الطاهر بن عاشور الفرع

الفرع الثالث: بيان معنى أصول التفسير ومسمياته.

المطلب الثاني: مقارنة بين الفراهي وابن عاشور في أصول التفسير.

الفرع الأول: أصول التفسير عند الفراهي.

الفرع الثاني: أصول التفسير عند الطاهر بن عاشور.

المطلب الأول: تعريف مختصر بالإمامين وبيان معنى أصول التفسير

الفرع الأول: التعريف بالإمام عبد الحميد الفراهي

أولاً: اسمه ونسبه ومولده ونشأته العلمية: هو عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان قنبر بن تاج علي حميد الدين بن أحمد الأنصاري الفراهي نسبة إلى قرية "فريها" من قرى مديرية أعظم كره¹ في الإقليم الشمالي بالهند.

ولد يوم الأربعاء السادس من جمادى الآخرة سنة 1280 هـ في قرية "فريها" في شمال الهند وكانت ولادته في أسرة محافظة معروفة بعلمها ومكانتها فحفظ القرآن صغيراً، ثم

¹ الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام لعبد الحي الحسيني، ص 1267.

تلقى العلم على عدة شيوخ بالهند فأخذ عن المولوي محمد مهدي والعلامة شبلي النعماني، ثم سافر إلى "لكناؤ" وأخذ عن العلامة عبد الحي بن عبد الحليم وفضل الله بن نعمة الله، ثم سار إلى "لاهور" وتأدب على العلامة فيض الحسن السهارنبوري، ثم تعلم الإنجليزية وأتقن الفلسفة الحديثة، ثم اشتغل بالتدريس في مدرسة الإسلام بكراتشي ثم في كلية علي كره الإسلامية وكلية إله باد، ثم سافر إلى "حيدرآباد" وتصدر بدار العلوم إلى أن اعتزل التدريس، ولازم بيته في أعظم كره عاكفًا على المطالعة والتأليف، وأسّس مدرسة دينية سماها "مدرسة الإصلاح" لتدريس العربية وعلوم القرآن.¹

ثانيًا: أبرز مؤلفاته: ترك الإمام الدهلوي تراثًا علميًا عزيزًا أغلبه لم يطبع بعد وأشهر مؤلفاته:

- التكميل في أصول التأويل - وهو كتاب لم يكتمل - جمع مباحثه ورتبها بدر الدين الإصلاحي.
- تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان مطبوع بتحقيق سليمان الندوي ومنشور عن الدائرة الحميدية بالهند سنة 2008م.
- ديوان الشعر الفارسي.
- منظومة في اللسان الدرّي لأمثال سليمان.
- منظومة في الإعراب تسمى "تحفة الإعراب".
- رسالتان في النحو والصرف.
- إمعان في أقسام القرآن.
- الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح.²

¹ نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر ليوسف المرعشي، ص 549.

² معجم المؤلفين المعاصرين في آثارهم المخطوطة والمفقودة وما طبع منها أو حقق بعد وفاتهم المحمد رمضان يوسف، 316 ص.

ثالثاً: وفاته: توفي -رَحِمَهُ اللهُ- في التاسع عشر من جمادى الآخرة سنة 1349 هـ في مدينة "متبرا" عن عمر يناهز 69 سنة.¹

الفرع الثاني: التعريف بالإمام الطاهر بن عاشور

أولاً: اسمه ومولده ونشأته العلمية: هو محمد بن الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، ولد في ضاحية المرسى في تونس في جمادى الأولى سنة 1269 هـ بقصر جده لأمه الوزير محمد العزيز بوعتور. نشأ في أحضان أسرة علمية، ونشأ بين أحضان والد يأمل أن يكون على مثال جده في العلم والنبوغ والعبقرية، وفي رعاية جده الوزير الذي كان يحرص على أن يكون خليفة في العلم والسلطان والجاه.²

بدأ مسيرته العلمية بحفظ القرآن الكريم وعمره لا يتجاوز ست سنوات سنة 1302 هـ ثم حفظ مجموعة من المتون التي تهيئ الطالب إلى التعليم الزيتوني كمتن ابن عاشور والأجرومية وغيرهما، فتلقى قواعد العربية على الشيخ أحمد بن بدر الكافي، وتلقى سائر العلوم الشرعية من فقه وعقيدة وأصول وبلاغة وحديث وسيرة فتكونت لديه ثقافة إسلامية غزيرة واطلاع واسع كَلَّه بإحراز شهادة التطويع سنة 1317 هـ بعد سبع سنوات من الجد والتحصيل.³

ثم أقبل على التدريس بالجامع الأعظم وأشهر ما عرف عنه دروس التفسير التي نشرها في المجلات العلمية والتي أنتجت تفسيراً عميق النظر والتحقيق سماه "تفسير التحرير والتنوير"، كما درس كتباً في شتى العلوم كدلائل الإعجاز للجرجاني والشرح المطول للفتازاني ومقدمة ابن خلدون.

كما تقلد عدة وظائف أبرزها الإشراف على جامع الزيتونة الذي حمل إليه مشروعه الإصلاحية في التعليم.

¹ المرجع نفسه، ص 316.

² تراجم التسعة من العلماء لمحمد الحمد، ص 151.

³ شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره لبلقاسم الغالي، ص 39.

ثانياً: أبرز مؤلفاته: أثمر تكوين الإمام الطاهر بن عاشور على يد مشايخه الأفذاذ عقلاً ثاقباً وتحقيقاً بارعاً تخض عنه مدونات شهدت على نبوغه وسعة اطلاعه في شتى العلوم وأشهرها:

- تفسير التحرير والتنوير
 - كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ - تعليقات وتحقيقات على حديث أم زرع
 - مقاصد الشريعة الإسلامية
 - الوقف وآثاره في الإسلام
 - شرح مقدمة المرزوقي لشرح ديوان الحماسة لأبي تمام
 - أليس الصبح بقريب.¹
 - تحقيق ديوان النابغة الذبياني.
- وغيرها من المؤلفات والرسائل والتحقيقات والشروح التي دلت على رسوخ قدمه في كل علم من العلوم الشرعية.
- ثالثاً: وفاته: توفي -رَحِمَهُ اللهُ- يوم الأحد 13 رجب 1393 هـ الموافق 12 أوت 1973 م بعد حياة حافلة بالجد والنشاط والإفادة والتأليف القيمة.²
- الفرع الثالث: بيان معنى أصول التفسير ومسمياته

أولاً: معنى الأصل في اللغة والاصطلاح:

1- الأصل في اللغة: تأتي كلمة الأصل في اللغة بمعنى الثبات والقرار وأساس الشيء والبناء الذي يقوم عليه غيره ويتفرع عنه وفيما يلي نصوص منتخبة تدل على ذلك:

¹ تراجع لتسعة من العلماء لمحمد الحمد، ص 69-70.

² شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره لبلقاسم الغالي، ص 68.

قال ابن فارس: "الأصل: أساس الشيء".¹

وقال الزبيدي: "أصل كل شيء ما يستند وجود ذلك الشيء إليه".²

وقال الفيروز آبادي: "وأصل ككرم صار ذا أصل أو ثبت ورسخ أصله".³

2- الأصل في الاصطلاح: تتعدد معاني كلمة "الأصل" اصطلاحاً باختلاف العلوم الشرعية فتأتي بمعنى:

- الدليل: كقولهم: أصل المسألة من الكتاب والسنة أي دليلها، ومنه أصول الفقه أي أدلته.
 - القاعدة: كقولهم: إباحة الميتة للمضطر على خلاف الأصل.
 - الغالب في الشرع، ولا يمكن ذلك إلا باستقراء موارد الشرع.
 - الرجحان: كقولهم: الأصل في الكلام الحقيقة، أي: الراجح عند السامع هو الحقيقة لا المجاز.
 - الصورة المقيس عليها.
 - التعبد: كقولهم: إيجاب الطهارة بخروج الخارج على خلاف الأصل.⁴
- وهذه الأوجه تجدها في مباحث علم أصول الفقه، وإن كان اختصاص الأصل بالدليل أولى: لأن الأوجه الأخرى تؤول إليه، لكن علوماً أخرى وظفت مصطلح الأصول لتدل به على القواعد الجامعة لمسائل هذا الفن كأصول الدين وأصول التفسير.⁵

¹ مقاييس اللغة لابن فارس، 109/1

² تاج العروس للزبيدي، 447/27

³ القاموس المحيط للفيروز آبادي، 961/1

⁴ البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي، 17-1/16

⁵ أصول التفسير وقواعده عند الإمام الشاطبي في كتاب الموافقات لبخير مراد، ص 44.

ثانياً: معنى التفسير في اللغة والاصطلاح:

1- التفسير في اللغة: من الفعل فسرّ، وتدور معاني مادة (فسر) حول البيان والكشف والإيضاح وفيما يلي نصوص دالة على ذلك:

جاء في لسان العرب: "الفسر: البيان، فسر الشيء يفسره بالكسر ويفسره بالضم فسرّاً وفسره: أبانه.¹

وقال ابن فارس: "الفاء والسين والراء تدل على بيان شيء وإيضاحه".²

وقال الزبيدي: "والفسر الإبانة وكشف المغطى، أو كشف المعنى المعقول".³

2- التفسير في الاصطلاح: عرّفه أبو حيان في مقدمة تفسيره بأنه علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمت ذلك.⁴

وعرّفه ابن جزي بقوله "شرح القرآن وبيان معناه، والإفصاح بما يقتضيه بنصه أو إشارته أو فواه".⁵

وعرفه عبد العظيم الزرقاني: "علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالاته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية".⁶

3- تعريف التفسير عند الفراهي والطاهر بن عاشور:

أ- تعريف التفسير عند الفراهي: إن المتأمل في عنوان كتاب "التكميل في أصول

¹ لسان العرب لابن منظور، 3412/5

² مقاييس اللغة لابن فارس، 504/4.

³ تاج العروس للزبيدي، 323/13.

⁴ البحر المحيط لأبي حيان، 10/1.

⁵ التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، 9/1.

⁶ مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني، 4/20.

التأويل" للفراهي، يجد أنه استعمل مصطلحي التفسير والتأويل على حد سواء في المعنى، فنجد في ثنايا تكميله يعبر بالتأويل والتفسير في السياق نفسه كقوله: أما بعد، فهذا كتاب من مقدمة نظام القرآن، أفردناه لتمهيد أصول راسخة لتأويل القرآن إلى صحيح معناه، وهو علم مستقل عظيم المحل في التفسير"، وفي بعض السياقات يستعمل مصطلح التأويل فقط فيقول: "إنَّ السلف اختلفوا في تأويل القرآن كثيراً، لكونه جامعاً لوجوه كثيرة¹.... وأحياناً يستعمل مصطلح التفسير كقوله: "ومن قال إنَّ التفسير الذي لم يكن منقولاً عن السلف فهو التفسير بالرأي².... ولكن الغالب عنده استعمال مصطلح التأويل أكثر من مصطلح التفسير.

ولم نقف على التفريق بين التفسير والتأويل عند الفراهي، وإنما صرح فقط بمعنى التأويل الذي ذكره في سياق التفريق بينه وبين التحريف والتفصيل إذ يقول: "التأويل: حمل الكلام على ما يحتمله نقلاً وعقلاً، والتحريف: حمله على ما لا يحتمله، والتفصيل: ذكر أجزاء لم تذكر، الجامع يحتملها، والفرق بين هذه الثلاثة من أشد الأمور وجوباً لفهم القرآن والتمسك به"³.

ب- تعريف التفسير عند الطاهر بن عاشور: عرفه الطاهر بن عاشور بقوله هو اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسع"⁴. ونجد الإمام الطاهر بن عاشور- بعد ذكره لمن فرق بين التفسير والتأويل- يصرح بأنه لا فرق بين التفسير والتأويل حيث يقول: "وهذه كلها اصطلاحات لا مشاحة فيها إلا أنَّ اللغة والآثار تشهد للقول الأول"⁵. ويقصد بذلك القول بأنهما بمعنى واحد، ثم

¹ التكميل في أصول التأويل للفراهي، ص 16.

² المرجع نفسه، ص 16.

³ المرجع نفسه، ص 28.

⁴ تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، 11/10.

⁵ المرجع نفسه، 16/1.

راح يشحذ لرايه بأدلة من القرآن والسنة وكلام العرب.

ثالثاً: تعريف أصول التفسير: إن انتشار مصطلح "أصول التفسير" واستقراره وتداوله أكثر من غيره يجعل البحث عن مفهومه ودلالته غير ذي جدوى، إذ أصبح من فرط الاستعمال معلوماً، لذلك لا يوجد في المصادر التي استعملت المصطلح تعريفاً له، لكن يفهم من الحديث عن مقاصد التأليف في هذا العلم عند البعض، ما يعين على معرفة المقصود به، ومن ذلك مثلاً ما كتبه الدهلوي في مقدمة كتابه "الفوز الكبير في أصول التفسير" - وهو من أوائل ما ألف في العلم بهذه التسمية - حيث وصف كتابه بأن فيه "النكات المفيدة التي تعين الأصحاب في تدبر كلام الله تعالى وفهمه"¹، ثم أشار إلى ما يتأمله بهذا الكتاب، وهو "أن يفتح به طريقاً واسعاً في فهم معاني كتابه لطلاب علوم القرآن بمجرد فهم تلك القواعد وإدراكها، حتى لو صرفوا أعمارهم في مطالعة كتب التفسير أو في قراءتها على المفسرين لا يمكن لهم تحصيل ذلك الضبط والربط"². ومما يفهم من كلامه هذا أن المقصود بأصول التفسير: القواعد والفوائد والنكات النافعة لفهم كتاب الله عز وجل.³

ومن تعريفات المعاصرين لأصول التفسير نجد تعريف مساعد الطيار إذ يقول: "هي الأسس والمقدمات العلمية التي تعين في فهم التفسير وما يقع فيه من الاختلاف وكيفية التعامل معه"⁴.

وعرفه فهد الرومي بقوله: "هي القواعد والأسس التي يقوم عليها علم التفسير، وتشمل ما يتعلق بالمفسر من شروط وآداب، وما يتعلق بالتفسير من قواعد وطرق ومناهج"⁵.

¹ الفوز الكبير في أصول التفسير للدهلوي، ص 12.

² المرجع نفسه، ص 12.

³ علم أصول التفسير مصطلحاً ومفهوماً الواقع والمتوقع لفريدة زمرّد، ص 26.

⁴ فصول في أصول التفسير لمساعد الطيار، ص 11.

⁵ بحوث في أصول التفسير ومناهجه لفهد الرومي، ص 11.

وعرفه خالد العك فقال: "هو مجموعة من القواعد والأصول التي تبين للمفسر طرق استخراج أسرار هذا الكتاب الحكيم بحسب الطاقة البشرية، وتظهر مواطن العبرة من أنبائه، وتكشف مراتب المحجج والأدلة من آياته الكريمة".¹

وأما الإمام الفراهي فرغم أنه ألف كتاباً خاصاً بأصول التأويل إلا أننا لا نعتز على أي تعريف لهذا العلم ولم يحدد مبادئه وحدوده، ولعله معذور في ذلك لأنه لم يكتب له إنهاء كتابه.

ولا غرابة في عدم تعريف الطاهر بن عاشور لأصول التفسير في تفسيره؛ لأن غرضه منه بيان معاني آيات القرآن، ولكن هذا لا يعني عجزه عن ذلك، وإلا فالناظر في ثنيا تفسيره بما في ذلك المقدمات العشر يجد أن أصول التفسير عنده واضحة المعالم لمن استنطق كلامه ووقف عند تحقيقاته الدقيقة.

وتذكر فريدة زمرد أن الأصح في تسمية هذا العلم هو "أصول البيان" واقترحت أن تحتوي هذه الأصول على ثلاثة أركان هي المبيّن والمبين والبيان، وفصلت في مفهوم كل ركن وما ينبغي أن يندرج فيه.²

رابعاً: مسميات أصول التفسير: ورد عند المتقدمين من العلماء تسميات لأصول التفسير غير ما استقر عليه الآن وأشهر هذه المسميات؛ "قانون التأويل" و"قواعد علم التفسير"، ثم استعمل المتأخرون مصطلحي "أصول التأويل" كما جاء في عنوان كتاب الفراهي "التكميل في أصول التأويل". و"أصول التفسير" كما استعمله الدهلوي في كتابه "الفوز الكبير في أصول التفسير"، ومحمد صديق خان القنوجي في كتابه "الإكسير في أصول التفسير"، وجمال الدين القاسمي في كتابه "رسائل في أصول التفسير وأصول الفقه".³

¹ أصول التفسير وقواعده لخالد العك، ص 11.

² علم أصول التفسير مصطلحا ومفهوما الواقع والمتوقع لفريدة زمرد، ص 46.

³ المرجع نفسه، ص 19.

ويبدو أنّ الكلمات المفتاحية في هذه الاصطلاحات مكونة من مجموعتين، الأولى تتضمن مصطلحات "القانون" و"القواعد" و"الأصول"، والثانية تتضمن مصطلحي "التفسير" و"التأويل" حيث كل لفظ في المجموعة الأولى يضمّه إلى اللفظ من المجموعة الثانية مصطلحاً أو تسمية خاصة بهذا العلم.¹

لكننا نجد في استعمال بعض العلماء تولىً آخر بين مصطلحي "القانون" و"القاعدة" من جهة، ومصطلح "الكلّي" من جهة ثانية، كما في مصطلح "القانون" الكلّي الذي استعمله الغزالي في كتابه "قانون التأويل"، ومصطلح "القواعد الكلية" الذي استعمله ابن تيمية في مقدمته، ومنهم من اكتفى باستعمال مصطلح "القانون" منفرداً للإشارة إلى العلم كالطوفي أو "قوانين" بالجمع كالحارلي، وبجرد النظر في عناوين المصادر التي وصلتنا أنّ المصطلح الغالب استعماله عند القدامى هو مصطلح "القانون" ومصطلح "القواعد" بينما لم تظهر التسمية بعلم "أصول التفسير" أو "أصول التأويل" إلا عند المتأخرين.²

المطلب الثاني: مقارنة بين الفراهي والطاهر بن عاشور في أصول التفسير

تجدر الإشارة- قبل خوض المقارنة- إلى أنّ الإمام الفراهي يعتبر من أوائل الداعين لتأسيس علم أصول التأويل" على حدّ تعبيره حين قال: "فإن جعلت القرآن أصلاً لتمام علم الدين كما هو في الحقيقة، صار من الواجب أن يؤسس أصول التأويل بحيث تكون علماً عاماً لكل ما يؤخذ من القرآن،³ ويشير في موضع آخر إلى أنّ ضبط أصول التأويل هو العاصم من تحريفات المبطلين إذ يقول: "والظاهر أنّ القرآن هو المعصم والمستمسك المعتمد، والمبطلون إنما حرّفوه، فلو أوضحت لهم أصول التأويل لم يمكنهم التحريف ولأقيمت الحجة عليهم".⁴

¹ المرجع نفسه، ص 19.

² المرجع نفسه، ص 20.

³ التكميل في أصول التأويل للفراهي، ص 12.

⁴ المرجع نفسه، ص 25.

الفرع الأول: أصول التفسير عند الفراهي

تنقسم أصول التأويل عند الإمام الفراهي إلى قسمين:

الأول: ما يعصم من الزيغ في التأويل، ويرى أنّ ما يعصم من ذلك الزيغ ثلاثة أصول وهي:

1. أصول أولية: وهو ما يتمسك به حيث لا احتمال لمعانٍ شتى.
 2. أصول مريحة: وهي احتمال الكلام معاني مختلفة، فإذا أعملت الأصول المريحة أخذ بالراجح وترك المرجوح.
 3. أصول كاذبة وهي التي تذكر ليتم اجتنابها.¹
- ويرى الإمام الفراهي أنّ الأصول الأولية تقوم على أربعة أمور:

أ- فهم الكلام بعضه من بعض بالمقابلة وحمل النظر على النظر: وهو- عند الإمام الفراهي- التأويل بالقرآن، حيث يجعل تفسير القرآن بالقرآن أصلاً من الأصول الراضخة إذ يقول: "قالت العلماء قديماً أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً، وذلك ظاهر جداً، فإنّ القرآن يذكر الأمور بعبارات مختلفة مرة إجمالاً وأخرى تفصيلاً، فما ترك في موضع ذكره في موضع آخر، وقد صرح القرآن بهذه الصفة التي فيه في غير موضع، فهذا أصل راسخ".²

كما أنه صرح بمراتب التفسير بالمأثور التي سبقه إليها غيره حين قال: "أول شيء يفسّر القرآن هو القرآن نفسه، ثم بعد ذلك فهم النبي والذين معه".³

ويجعل الإمام الفراهي تفسير القرآن بالقرآن هو أساس تفسيره، وما عداه من الأحاديث النبوية فيجعله تبعاً للاستئناس به فقط حيث يقول: "وإني مع اليقين أنّ

¹ المرجع نفسه، ص 74.

² المرجع نفسه، ص 45.

³ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان للفراهي، ص 23.

الصالح لا تخالف القرآن لا آتي بها إلا كالتبع بعد ما فسرت الآيات بأمثالها...
فإني ما أردت أن أجمع كل ما يتعلق بالقرآن، فإنه كنز لا ينفد على كثرة المجتهدين،
والكتب في التفسير كثيرة، فمن يسرح فيها نظر التحقيق يؤت من العلم ما شاء الله،
ولكني أردت ما يكون كالأساس والأمن والوسط والحكم، ولذلك اقتصر على ما
في القرآن غير جاحد لما تركته".¹

ثم إن مراد الفراهي أن القرآن يفسر بعضه بعضاً هو ما يسميه بتفسير النظائر، لأن
النظائر تفسر بعضها بعضاً، وخاصة إذا كان الكلام محتملاً لتأويلات مختلفة، فالمصير
إلى ما له نظير في القرآن أحوط، لأن ما هو ليس في القرآن قد يكون رأياً محضاً
وضلالة، وأما ما كان له نظير في الحديث فلا بد من صحته رواية ودراية، ثم المصير
إلى النظر الذي في القرآن أوثق.²

وقد ذكر بعضاً من طرق التدبر في هذا النظائر فقال:

"أظهر المجلد والمقدر أولاً بالنظر في نظم الكلام وحسن التأويل، فذلك يدل على
المطابقة بين النظيرين، ويصير دليلاً آخر على تعيين المجلد والمقدر، فإن ما هو مجمل
أو مقدر في موضع يأتي مبيناً ومظهراً في موضع آخر كما هو أسلوب القرآن.

فإن اطلعت على التطابق بين الكلامين، انظر السابق واللاحق أي نظم الكلام، فإن
لكل كلام نظاماً مناسباً، وليس من اللازم أن يكون النظم للنظيرين واحداً، ولكن
ربما يكون بين النظمين تشابه من بعض الوجوه.³

والأمر الثاني الذي يعين على فهم مراد كلام الله بعد تأويل القرآن بالقرآن عند
الفراهي هو رعاية النظم حيث يقول: "ولتعيين المعنى المقصود من المعاني المحتملة في

¹ المرجع نفسه، ص 24 بتصرف.

² أصول التفسير عند العلامة الفراهي لمحمد فرحات، ص 8.

³ التكميل في أصول التأويل للفراهي، ص 78-79.

الاشتراك أصول خاصة، وكذلك لتعيين المحذوف والمقدر والمعرض به أصول، وأرسخ هذه الأصول وأجمعها النظم.¹

ومن تطبيقات ذلك عند الفراهي في قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ". (سورة الأنفال: 72) حيث ذكر الفراهي أنه جاء بعيد هذه الآية قوله تعالى: "وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ". (سورة الأنفال: 74) وقال: "فلم يذكر بأموالهم وأنفسهم وهو مفهوم، ثم جاء بعيد ذلك "وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ". (سورة الأنفال: 75)، فلم يذكر في سبيل الله، ولا بأموالهم وأنفسهم، ولكن ذلك مفهوم وقد دلّ عليه قوله معكم".²

وتجدر الإشارة إلى أنّ الإمام الفراهي يعتبر أنّ القرآن الكريم قطعي الدلالة ليس له إلا تأويل واحد، ويجعل حلّ مشكلة كثرة التأويلات واختلافها هو الإيمان بأنّ القرآن له تأويل واحد إذ يقول: "وما علمت الدواء لهذا الداء العضال إلا التمسك بالقرآن وردّ الروايات والآراء إلى كتاب الله، وهذا لا يكون إلا أن تؤمن بأنّ القرآن لا يحتمل إلا تأويلاً واحداً، وقد قدّمت القول في أنّ القرآن قطعي الدلالة وليس العبارة إلا مدلول واحد".³

والحقيقة أنّ ظنيّة بعض آيات القرآن في دلالتها على المعاني وقطعية بعضها الآخر مما استقر عند جمهور العلماء نظراً لطبيعة النص القرآني ولغته وغير ذلك من الأسباب لكن يبدو أنّ الفراهي رَحِمَهُ اللَّهُ لم يرتض هذا ولم يقبله، لأنه يراه سبباً رئيساً في بقاء الاختلاف بين المفسرين دون تحديد وقطع.

ب . المعنى الشاذ لا يلتفت إليه: قال عنه الفراهي: "وإنما لم تجعله من المرجحات، فإنّ

¹ المرجع نفسه، ص 45.

² المرجع نفسه، ص 76.

³ المرجع نفسه، ص 33.

اللفظ الحسن المصون ربما يستعمل عوض الظاهر العامي، ولكن اللفظ إذا استعمل لا بد أن يدل على مفهومه المعلوم الثابت، فإن أريد به مفهوم يكره الناس، ويدعيه مدّع ولا سبيل إلى إثباته، فهذا تعمية، والقرآن أنزله الله عربياً مبيناً، فلا شيء يترك الإفصاح؟ وأما المطالب العالية فليست من هذا الباب، فإن الكلام فيها واضح في مفهومه والمطالب العالية إنما هي منطقية تحت المفهوم غير مضاد ولا مناقض للمفهوم.

ومن أمثلة ذلك تأويل قوله تعالى: "إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا". (سورة التحريم: 4) فسعى المبطلون في تحويل معنى الصغو إلى الزيف ووضعوا لتأويلهم الباطل قراءة باطلة لم تثبت فضلاً أن تكون متواترة.¹

يشير هنا الفراهي إلى أن أغلب التفسيرات السابقة فسّرت كلمة (صغت) بمعنى (زاغت) كما جاء عن القرطبي حيث قال: "أي زاغت ومالت عن الحق".²

ولكن الصحيح ما ذهب إليه جمهور المفسرين حيث قالوا إن قوله تعالى: "فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا" ليس جواب شرط لقوله: "إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ" وإنما جواب الشرط محذوف للعلم به تقديره: إن تتوبا كان خيراً لكما إذ قد صغت قلوبكما.³

كما يشير الفراهي في كلامه إلى أن بعض المفسرين اعتمد في تفسيره للصغو على قراءة شاذة لابن مسعود "فَقَدْ زَاغَتْ قُلُوبُكُمَا" وهي قراءة رواها مجاهد في تفسيره، قال الطبري: "عن مجاهد قال: كما نرى أن قوله: "فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا"، شيء هين حتى سمعت قراءة ابن مسعود "إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ زَاغَتْ قُلُوبُكُمَا"،⁴ وبالرجوع إلى المعاجم العربية نجد أن الفعل صغى بمعنى مال كما جاء في لسان العرب صغا إليه

¹ المرجع نفسه، ص 75-76.

² الجامع الأحكام القرآن للقرطبي، 83/21.

³ مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي، 44/30.

⁴ جامع البيان من تأويل آي القرآن للطبري، 93/23.

يصغى ويصغو صغوا وضعوا وصغا: مال".¹

وهذا يفهم منه أنّ الفراهي لا يعتبر القراءات الشاذة من أصول التفسير على غرار نحر الدين الرازي وابن العربي المالكي، لكن جمهور العلماء والمفسرين على العمل بها في التفسير كالطبري وابن عطية وأبي حيان وابن جزي الكلبي وغيرهم، ولا يتسع المقام للإتيان بأمثلة دالة على أثر القراءات الشاذة في التفسير ولكن خلاصة الكلام أنها وإن لم تكن من باب تفسير القرآن بالقرآن، فإنها تكون من باب تفسير القرآن بالسنة إذا رفع الصحابي القراءة إلى النبي، وعلى أقل الأحوال فإنها تكون من باب تفسير القرآن بأقوال الصحابة أو بأقوال التابعين.²

ج. التمسك بنظم الكلام وسياقه: قال الفراهي في ذلك: "وهذا ليس من المرححات، فإنّ الكلام لا يحتمل معنى يخالف نظمه ورباط معانيه، فإن خلل النظم منفي عن كلام العقلاء، فما أبعد عن كلام الله المعجز، وهذا أصل ظاهر، ولكن أهل الزيف سعوا في هدمه ووضعوا الأحاديث ففتنوا بها ضعفاء العقول من صالحى المؤمنين عفا الله عنهم، فإثما الأعمال بالنيات".³

ويمثل لذلك الفراهي بآية التطهير كما يسميها هو وهي قوله تعالى: "إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا". (سورة الأحزاب: 33) حيث يقول: "ومن أمثلة ذلك آية التطهير، فإنها لم تنزل ولا تتعلق إلا بأهات المؤمنين ولا دخل فيها لغيرهن. والكلام لا يحتمل تعميمها،⁴ أي أنّ هذه الآية جاءت في سياق الحديث عن أهات المؤمنين في الآيات السابقة.

¹ لسان العرب لابن منظور، 2454/4

² القراءات الشاذة وأثرها في التفسير لعبد الله القرشي، ص 33.

³ التكميل للفراهي، ص 75.

⁴ المرجع نفسه، ص 75.

د. لا بد من النظر في المخاطب: ويقول الفراهي عن هذا الأصل: "ومن ههنا يتبين وجه الكلام ولهجته من التسلية والرأفة والزجر والغضب والوعد والوعيد والاستدلال والوسعة والغور".¹

وأما الأصول المرحجة عند الفراهي فنوردها كالتالي:

عند اختلاف الوجوه والاعتبار يؤخذ ما كان أوفق بالمقام وعمود الكلام: قال الفراهي عن هذا الأصل: "فما من كلمة إلا لها أطراف وجهات فهي كالمعاني لها، وكذلك كل أمر وقصة لها اعتبارات شتى، وكما أن اللفظ المشترك يؤول حسب محله، فكذلك لا بد أن تؤول الألفاظ والأمور حسب محلها،² ويمثل لهذا الأصل بقوله مثلاً: صفة الأحذية الكاملة مختصة بالله تعالى، ومع ذلك نرى ذكره تعالى بأسماء مختلفة وعلى ترتيب متغير مثل: "يَرْبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ" ومثل: "رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④" فمن لا يتدبر القرآن لا يلتفت إلى محل الكلمات ولا يجتهد لفهم جهة الكلمة، ولكن البصير المستبصر لا يمكنه ترك التدبر لما يظهر له بعض الجهات الظاهرة فتجلبه إلى ما وراءها... فالخلاصة أن الإشارات والاعتبارات للشيء تلتبس من المحل من مثل ما يفعلون بالمشترك، فكان الأصل الأول أن النظم يقضي عند الاحتمالات، ونتيجة هذا الأصل ألا يلزم أن تقصر اللفظ على معنى واحد إذا كان غير مشترك كما يقول بعض أهل الرأي، فإن للفظ مجازاً وحقيقة وعموماً وخصوصاً وجهات لمعناه مختلفة، ويستعمل في كل ذلك حسب مقتضى المقام".³

○ إذا كان الكلام ذا احتمالات يؤخذ منها ما كان لها نظير في باقي القرآن فما لم يوافق قرآن غير ما فيه النزاع يترك:

¹ المرجع نفسه، ص 81.

² المرجع نفسه، ص 82.

³ المرجع نفسه، ص 82-83.

ومن أمثلة هذا الأصل عند الفراهي قوله: "أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ". (سورة الأنفال: 24) فيه تأويلان: الأول أنه تعالى أعلم بضمائرکم منكم والثاني أنه يعوق المرء عن إرادته، فالأول له نظير في القرآن، ثم يعضده النظم، فإن النظم أيضاً يؤول إلى ما كان أشبه بالقرآن فقله تعالى (تُحْشَرُونَ) يأتي مع التقوى والتقوى تأتي مع علم الله، وهذا كثير فكأنه قيل: اتقوا الله فإنه أعلم بسرائركم وأنكم تحشرون إليه، فهذا من جهة تشابه المعنى والنظم، وأما التأويل الثاني فبناءً على تشابه لفظي، فإنه جاء في القرآن: "وَجِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ". (سورة سبأ: 54) أي منعوا عن مشتاتهم، وهذا أيضاً أصل لكنه أضعف مما ذكرنا، فإن اللفظ المشترك يأتي لمعانٍ مختلفة، ولا يقضى فيه إلا بالسياق وصحة المعنى".¹

وهناك أصول أخرى من الأصول المرحجة أذكرها اختصاراً لعدم اتساع المقام لذلك:

- إذا كان المعنى مقتضياً لعبارة غير ما في الكلام فذلك المعنى مرجوح.
- الأخذ بأثبت الوجوه لغة.
- الشاذ المنكر لفظاً يترك.

وأما الأصل الرابع وهو الأصل الكاذب الذي قال عنه سابقاً إنما يذكر للاجتناب ويقصد به هنا: هل يؤول الحديث إلى القرآن أم يعكس الأمر؟

وخلاصة القول فيه كما قال الفراهي: "أن تعلم الهدى من القرآن وتبني عليه دينك ثم بعد ذلك تنظر في الأحاديث، فإن وجدت ما كان شارداً عن القرآن حسب بادي النظر أولته إلى كلام الله، فإن تطابقا فقررت عينك، وإن أعياك فتوقف في أمر الحديث واعمل بالقرآن".²

¹ المرجع نفسه، ص 83-84.

² المرجع نفسه، ص 93.

ويبدو أنّ ابن عاشور لم يكن مقتنعاً بتصنيف القدامى ومن تبعهم من المحدثين لأصول التفسير اعتماداً على سلم تفضلي تراثي يقدم فيه السابق على اللاحق، وكأنّ القدامى أعرف بالضرورة بمعاني القرآن ممن جاء بعدهم، والحال أنّ النص القرآني منفتح من حيث دلالاته على كل العصور، وكل يفهمه بحسب رهانات عصره ومتطلبات التاريخ وينعكس موقف ابن عاشور النقدي المتعلق بمقولة أعلية القدامى وأفضليتهم في مجال المعارف التفسيرية على أدائه التفسيري، إذ نادراً ما نجده يعتمد حديثاً مأثوراً عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو أثراً عن الصحابة والتابعين، بل يحاول قصارى جهده أن يفسّر الآية من خلال بنيتها اللغوية وأساليبها البلاغية.¹

وفي إطار هذا المنزع التجديدي، اقترح ابن عاشور في مقدمة تفسيره ترتيباً جديداً لموارد التفسير ومآخذه بعيداً عن ثنائية الأصول والفروع القائمة على ترتيب تفضلي، بل قد تأخذ عنده بعض الفروع أهمية الأصول أو تتجاوزها، وقد انطلق ابن عاشور من بدئية مفادها أنّ المفسر يحتاج في تفسيره إلى مجموعة من المعطيات لا تخضع لسلم أولويات كما ضبطها علماء القرآن في باب شروط المفسر العلمية،² بل هو يستأنس بها على سبيل "الاستمداد"، ولذلك عنون مقدمته الثانية "في استمداد علم التفسير" فعرّف الاستمداد قائلاً: "استمداد العلم يراد به توقفه عن معلومات سابق وجودها على وجود ذلك العلم عند مدونه لتكون عوناً لهم على إتقان تدوين ذلك العلم، وسعي ذلك في الاصطلاح بالاستمداد عن تشبيه احتياج العلم لتلك المعلومات يطلب المدد، والمدد العون والغوث".³

وبهذا المعنى يكاد مصطلح الاستمداد يتماثل مع علم التفسير ذاته، لأنه آلة المفسر عند

¹ أصول تفسير القرآن بين محمد الطاهر بن عاشور ومحمد حسين الطبطبائي دراسة مقارنة لعلي بن مبارك، ص 3.

² المرجع نفسه، ص 4

³ التحرير والتنوير لابن عاشور، 18/1.

تفسيره، وفي هذا الإطار يدقق ابن عاشور مقصده بالاستمداد، فهو عنده علم التفسير للمفسر العربي والمولد من المجموع الملتئم من علم العربية وعلم الآثار ومن أخبار العرب وأصول الفقه قيل وعلم الكلام وعلم القراءات¹ تبين لنا أهمية تركيز ابن عاشور أساساً على علم العربية وعلم الآثار وأخبار العرب وأصول الفقه وعلم الكلام وعلم القراءات.² ولأنّ أكثر أصول التفسير استعمالاً عند ابن عاشور في الأصول اللغوية فإننا نبدأ بها ثم نعطف عليها الأصول النقلية ثم الأصول العقلية:

1. أصول التفسير اللغوية: يبين ابن عاشور أهمية الأصول اللغوية في التفسير في أمرين:
 - أن التقصير فقط في المعرفة باللغة يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه كما جرى للمفسري فرق الباطنية الذين غالوا في تفاسيرهم حتى صنّفت في خانة التفاسير المذمومة.
 - أنّ معرفة اللغة العربية لا تتم إلا بالاطلاع على علومها المتعددة من علم النحو والبلاغة بأنواعها وعلم التصريف والاشتقاق، وكذلك الإلمام بشعر العرب ونثرهم على ما تسمح به الطاقة البشرية.³

وقد سلك ابن عاشور مسلك الأصوليين في تقسيمهم لعلاقة اللفظ بالمعنى، فدرج على أربعة تقسيمات وهي:

- أ. باعتبار وضع اللفظ للمعنى: ويشمل هذا القسم أبواباً منها العام والخاص والأمر والنهي والمطلق والمقيد والمشارك والمؤول واعتماد ابن عاشور لهذه الأبواب أشهر من أن يشار إليه.⁴

- ب. باعتبار دلالة اللفظ على المعنى: ويدخل تحته: عبارة النص وإشارته ودلالته

¹ المرجع نفسه، 18/1.

² أصول تفسير القرآن بين محمد الطاهر بن عاشور ومحمد حسين الطبطبائي دراسة مقارنة لعلي بن مبارك، ص 4

³ أصول التفسير عند ابن عاشور مرض ونقد لمحمد مودات، ص 32.

⁴ المرجع نفسه، ص 32.

واقتضائه، ودلالة المنطوق والمفهوم ومفهوم المخالفة عند الشافعية.¹

ومن أمثلة ذلك عند ابن عاشور ما جاء في تفسيره لقوله تعالى: "فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَتَأَبَّتْ أَعْمَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ". (سورة الصافات: 102) حيث بين أهمية دلالة النص في الترجيح فقال: "والتأمل في هذه الآية يقوي الظن بأن الذبيح إسماعيل، فإنه ظاهر قوي في أن المأمور بذبحه هو الغلام الحليم في قوله: "فَبَشِّرْنَاهُ بِعَلِيمٍ حَلِيمٍ" (سورة الصافات: 101) وأنه هو الذي سأل إبراهيم ربه أن يهب له فساقط الآية قصة الابتلاء بذبح هذا الغلام الحليم الموهوب لإبراهيم، ثم أعقبت قصته بقوله تعالى: "وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ". (سورة الصافات: 112) وهذا قريب من دلالة النص على أن إسحاق هو غير الغلام الحليم الذي مضى الكلام على قصته لأن الظاهر أن قوله: "وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ" بشارة ثانية، وأن ذكر اسم إسحاق يدل على أنه غير الغلام الحليم الذي أجريت عليه الضمائر المتقدمة فهذا دليل أول.²

ج. في ظهور المعنى وخفائه: ويندرج فيه من حيث الظهور: النص والظاهر والمفسر والمحكم، ومن حيث الخفاء الخفي والمشكل والمجمل والمتشابه كما يدخل هذا القسم في باب البيان بأنواعه.³

د استعمال اللفظ في المعنى: ويتناول الحقيقة والمجاز والصريح والكتابة وحروف المعاني.⁴

2. أصول التفسير النقلية: وهي عند ابن عاشور ثلاثة:

- تفسير القرآن بالقرآن

¹ المرجع نفسه، ص 32.

² التحرير والتنوير لابن عاشور، 157/23.

³ أصول التفسير عند ابن عاشور مرض ونقد لمحمد مودات، ص 34.

⁴ المرجع نفسه، ص 35.

• تفسير القرآن بالسنة النبوية

• تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين.¹

أ- تفسير القرآن بالقرآن: وتمثل وجوه تفسير القرآن بالقرآن عند ابن عاشور فيما يلي:

حمل المحمل على المبين: ومن ذلك ما جاء في تفسير ابن عاشور لقوله تعالى: "وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَتْنِ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَتَيْنَ بِبَعْضِكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِيَ مَأْمَنَتُهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ". (سورة البقرة: 283) حيث قال: "وقد علمت مما تقدم عند قوله تعالى (فاكتبوه) أَنَّ آية (فإن آمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته) تعتبر تكميلاً لطلب الكتابة والإشهاد طلب ندب واستحباب عند الذين حملوا الأمر في قوله تعالى (فاكتبوه) على معنى الندب والاستحباب وهم الجمهور، ومعنى كونها تكميلاً لذلك الطلب أنها بينت أَنَّ الكتابة والإشهاد بين المتدائنين مقصود بهما حسن التعامل بينهما، فإن بدا لهما أَنْ يأخذا بهما فنعما، وإن اكتفيا بما يعلمانه من أمان بينهما فلهما تركهما.²

حمل العام على الخاص: ومثال ذلك ما جاء في قوله تعالى: "يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى" فقال: "وخصت الأنثى بالذكر مع أنها مشمولة لعموم الحر بالحر والعبد لثلا يتوهم أَنَّ صيغة التذكير في قوله (الحر) وقوله (العبد) مراد بها خصوص الذكور.³

حمل المطلق على المقيد: ومن أمثله ما جاء في قوله تعالى: "وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ". (سورة البقرة: 217) يقول ابن عاشور: "وقوله 'وَأُولَئِكَ

¹ التحرير والتنوير لابن عاشور، 137/2

² المرجع نفسه، 123/3.

³ المرجع نفسه، 137/2

أَصْحَبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" جواب لقوله (فيمت وهو كافر) ولعل في إعادة (وأولئك) إيذاناً بأنه جواب ثانٍ، وفي إطلاق الآي عن التقييد بالموت على الكفر قرينة على قصد هذا المعنى من هذا القيد في الآية، وفي هذا الاستدلال إلغاء لقاعدة حمل المطلق على المفيد.¹

وباقى وجوه تفسير القرآن بالقرآن لا يتسع المقام للإتيان بمثال عن كل منها وأكتفي بذكرها مجردة وهي:

- معرفة الآيات الناسخة والمنسوخة.
- جمع ما يتوهم أنه مختلف.
- حمل بعض القراءات على غيرها.
- تفسير إشكال معين والبحث في القرآن عن إيجاد جواب له.²

ب. تفسير القرآن بالسنة النبوية

ومن وجوه هذا النوع من التفسير عند ابن عاشور:

- بيان السنة لمجمل القرآن
- بيان السنة المشكل القرآن.
- بيان السنة لمغيبات القرآن المبينة على التوقيف.
- بيان السنة لدلالات الألفاظ القرآنية التي لا تبني على التوقيف.³

ج- تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين:

أثار علماء القرآن قديماً وحديثاً مسألة حجية الصحابي في تفسير القرآن واعتماده أصلاً

¹ المرجع نفسه، 334/2

² أصول التفسير عند ابن عاشور عرض ونقد لمحمد مودات، ص 36-37.

³ المرجع نفسه، ص 38-39.

ثابتاً من أصوله، ولقد أظهر ابن عاشور احترازه من مقوله مشهورة مفادها أنّ كل ما أخذ عن الصحابة فحسن متقدم على حد تعبير ابن عطية،¹ وقد أكد ابن عاشور مستنداً على رأي الغزالي والقرطبي أنه "لا يصح أن يكون كل ما قاله الصحابة في التفسير مسموعاً من النبي صلى الله عليه وسلم لوجهين: أحدهما: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يثبت عنه من التفسير إلا تفسير آيات قليلة وهي ما تقدم عن عائشة".²

وأما بخصوص تفسير التابعي فقد صرح ابن عاشور بموقفه منه بأنه ما روي عنهم هو من باب الاجتهاد فقال: "وإن أرادوا بالمأثور ما كان مروياً قبل تدوين التفسير الأول، مثل ما يروى عن أصحاب ابن عباس، وأصحاب ابن مسعود، فقد أخذوا يفتحون الباب من شقه، ويفربون ما بعد من الشفة، إذ لا محيص لهم من الاعتراف بأنّ التابعين قالوا أقوالاً في معاني القرآن لم يسندوها ولا ادعوا أنها محدوفة الأسانيد، وقد اختلفت أقوالهم في معاني آيات كثيرة اختلافاً ينعني إنباء واضحاً بأنهم تأولوا تلك الآيات من أفهامهم كما يعلمه من له علم بأقوالهم".³

3- أصول التفسير العقلية: التفسير العقلي هو ما يقابل التفسير النقلي، وهو يعتمد على الفهم المركز العميق لدلالات الألفاظ القرآنية، فهو يقوم على الاجتهاد في فهم المراد من الآيات القرآنية وإدراك مراميها وأغراضها بعد امتلاء المفسر من العلوم المعينة على ذلك كالعلوم الأصولية واللغوية والنقلية.⁴

والإمام ابن عاشور من المنتصرين لتفسير القرآن بالأدلة العقلية المنضبط بضوابط التفسير، حيث قال: "أما الذين حمدوا على القول بأنّ تفسير القرآن يجب أن لا يعدو

¹ أصول تفسير القرآن بين محمد الطاهر بن عاشور ومحمد حسين الطبطبائي دراسة مقارنة لعلي بن مبارك، ص 11.

² التحرير والتنوير لابن عاشور، 29/1.

³ المرجع نفسه، 32/1-33.

⁴ أصول التفسير عند ابن عاشور مرض ونقد لمحمد مودات، ص 42.

مَا هُوَ مَأْثُورٌ فَهُمْ رَمَوْا هَذِهِ الْكَلِمَةَ عَلَى عَوَاهِنَهَا وَلَمْ يَضْبُطُوا مُرَادَهُمْ مِنَ الْمَأْثُورِ عَمَّنْ يُؤْثَرُ، فَإِنْ أَرَادُوا بِهِ مَا رَوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ تَفْسِيرِ بَعْضِ آيَاتِ إِنْ كَانَ مَرُويًا بِسَنَدٍ مَقْبُولٍ مِنْ صَحِيحٍ أَوْ حَسَنٍ فَإِذَا التَزَمُوا هَذَا الظَّنَّ بِهِمْ فَقَدْ ضَيَّقُوا سَعَهُ مَعَانِي الْقُرْآنِ وَتَتَابَعَ مَا يُسْتَنْبَطُ مِنْ عُلُومِهِ، وَنَاقَضُوا أَنْفُسَهُمْ فِيمَا دَوَّنُوهُ مِنَ التَّفَاسِيرِ، وَغَلَطُوا سَلَفَهُمْ فِيمَا تَأَوَّلُوهُ، إِذْ لَا مَلْجَأَ لَهُمْ مِنَ الْاعْتِرَافِ بِأَنَّ أُمَّةَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ قَدْ بَعَدَهُمْ لَمْ يَقْصِرُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى أَنْ يَرُدُّوا مَا بَلَّغَهُمْ مِنْ تَفْسِيرِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ سَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَهْلَ الْعِلْمِ عَنْ مَعَانِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَلَمْ يَشْتَطِرْ عَلَيْهِمْ أَنْ يَرُودُوا لَهُ مَا بَلَّغَهُمْ فِي تَفْسِيرِهَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنْ أَرَادُوا بِالْمَأْثُورِ مَا رَوَى عَنِ النَّبِيِّ وَعَنِ الصَّحَابَةِ خَاصَّةً، وَهُوَ مَا يَظْهَرُ مِنْ صَنِيعِ السِّيَاطِي فِي تَفْسِيرِهِ "الدر المنثور"، لَمْ يَفْسَحْ ذَلِكَ الْمَضِيقُ إِلَّا قَلِيلًا، وَلَمْ يُغْنِ عَنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ فِتْيَلًا، لِأَنَّ أَكْثَرَ الصَّحَابَةِ لَا يُؤْثَرُ عَنْهُمْ فِي التَّفْسِيرِ إِلَّا شَيْءٌ قَلِيلٌ سِوَى مَا يَرُوى عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ صَحِيحٍ وَضَعِيفٍ وَمَوْضُوعٍ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: مَا عِنْدِي مِمَّا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ شَيْءٌ إِلَّا فَهُمَا يُؤْتِيهِ اللَّهُ".¹

ومن أمثلة إعمال ابن عاشور للمنزع العقلي في تفسيره ما ذكره في تفسير قوله تعالى: "الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ". (سورة الأنفال: 56) حيث قال: "استئناف ابتدائي حيث انتقل به من الكلام على عموم المشركين إلى ذكر كفار آخرين هم الذين بينهم بقوله: "الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ" وهؤلاء عاهدوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم على كفرهم، ثم نقضوا عهدهم، وهم مستمرّون على الكفر وإنما وصفهم بشرّ الدواب لأنّ دعوة الإسلام أظهر من دعوة الأديان السابقة، ومعجزة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسطع، ولأنّ الدلالة على أحقية الإسلام دلالة عقلية بيّنة، فمن يجحده فهو أشبه بما لا عقل له، وقد اندرج الفريقان من

¹ التحرير والتنوير لابن عاشور، 32/1.

الكفار في جنس شر الدواب".¹

الخلاصة: وأخلص في الأخير لأهم نتائج هذا البحث وهي كالتالي:

- يعدّ الإمام الفراهي من رواد الدعوة إلى تأسيس علم أصول التأويل في كتابه التكميل ولولا وفاته قبل إنهاء كتابه لكان محل احتفاء كبير من الباحثين لمدارسته ومناقشة مباحثه.

- تبن من خلال البحث أنّ لكلا الإمامين مشروعاً تجديدياً حاول كل واحد منهما تطبيقه في تفسير القرآن الكريم قدر جهده.

- إنّ جماع أصول التأويل عند الفراهي أصلاً اثنان هما تأويل الفرقان بالفرقان ورعاية النظام والمقصود به هو ما يسميه المعاصرون الوحدة الموضوعية.

- غلب تركيز ابن عاشور في تفسيره على الأصول اللغوية أكثر من الأصول النقلية والعقلية بخلاف الفراهي الذي يجعل تأويل القرآن بعضه ببعض هو الأصل الأصيل والمستند إذا اختلفت الآراء التفسيرية.

- إن تأكيد الفراهي على قطعية دلالة القرآن وأنّ له تأويلاً واحداً - على خلاف الجمهور - إلا أنّ تقريره بأنّ حل مشكل اختلاف التأويلات هو الرجوع إلى نظم القرآن يبقى محل اجتهادات متعددة بين المفسرين.

- يرى الإمام ابن عاشور أنّ النص القرآني حمال ذو وجوه ينبغي فتح المجال فيه للعقل لاستنباط هداياته وأحكامه بعد التزود بالعدة الكاملة من العلوم اللغوية والشرعية، ولذلك قل في تفسيره اعتماده على النصوص النقلية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.²

¹ المرجع نفسه، 50-47/10.

² مع الشكر لمجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، 40-13/3/13.

قائمة المصادر والمراجع

المؤلفات:

1. ابن فارس: مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر بيروت لبنان، ط2، 1979م.
2. ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله الكبير وآخرون، دار صادر، بيروت لبنان، د ط، دت.
3. أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي: الفوز الكبير في أصول التفسير، تعريب: محمد البدخشاني، بيت العلم كراتشي، باكستان، ط3، 2006م.
4. بدر الدين الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه وزارة الأوقاف الكويتية، ط2، 1992م.
5. بلقاسم الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، دار ابن حزم، بيروت، 1996م.
6. خالد العك: أصول التفسير وقواعده، دار النفائس، بيروت، ط2، 1986م.
7. الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، دار مجنون، تونس، د ط.
8. عبد الحميد الفراهي: تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، تحقيق: سليمان الندوي، دت.
9. عبد الحميد الفراهي: التكميل في أصول التأويل، تحقيق: محمد سميع مفتي، دون بيانات النشر.
10. عبد الحي الحسني: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1999م.

11. عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفك، بيروت، لبنان، د. ت.
12. نخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 1. 1981م.
13. فهد الرومي: بحوث في أصول التفسير ومناهجه، مكتبة التوبة، ط 4. 1419هـ
14. مجد الدين الفيروز آبادي: القاموس المحيط، تحقيق: نعيم العرقسومي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان. ط 8. 2005م.
15. محمد الحمد: تراجم لتسعة من العلماء، دار ابن خزيمة، ط 1، 1428هـ.
16. محمد بن أحمد القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 1. 2006م
17. محمد بن أحمد بن جزي الكلي: التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1995م.
18. محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله التركي، دار هجر للطباعة، ط 1. 2001م
19. محمد بن يوسف أبو حيان الغرناطي: البحر المحيط، تحقيق: زكرياء النوتي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط 1، 1993م
20. محمد رمضان يوسف: معجم المؤلفين المعاصرين في آثارهم المخطوطة والمفقودة وما طبع منها أو حقق بعد وفاتهم، مكتبة الملك فهد الرياض، السعودية، ط 1، 2004م.
21. مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الستار فراج، إصدارات الإرشاد والأنباء، ط 2، 1987م.
22. مساعد الطيار: فصول في أصول التفسير، دار ابن الجوزي، السعودية، ط 3، 1999م
23. يوسف المرعشلي: نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر، دار المعرفة بيروت، لبنان، ط 1. 2006م

المقالات:

24. عبد الله القرشي القراءات الشاذة وأثرها في التفسير، بحث بمجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، عدد: 7، 1430هـ.
25. محمد عودات أصول التفسير عند ابن عاشور عرض ونقد، مجلة دراسات عربية وإسلامية، عدد: 43، 1983م
26. محمد فرحات أصول التفسير عند العلامة الفراهي مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية، مجلد: 3، عدد: 2، 2006م

الرسائل الجامعية:

27. بلخير مراد أصول التفسير وقواعده عند الإمام الشاطبي في كتاب الموافقات رسالة دكتوراه بقسم العلوم الإسلامية، جامعة تلمسان، تحت إشراف أ.د خير الدين سيب، 2016م.

المداخلات العلمية:

28. فريدة زمرد، علم أصول التفسير مصطلحا ومفهوما الواقع والمتوقع من بحوث المؤتمر العالمي الثالث للباحثين في القرآن الكريم وعلومه من 9 إلى 11 أبريل 2015، تنظيم مؤسسة مبدع بالتعاون مع الرابطة المحمدية للعلماء ومركز تفسير للدراسات القرآنية، المملكة المغربية.

المواقع الإلكترونية:

29. علي بن مبارك سنة (2014) أصول تفسير القرآن بين محمد الطاهر بن عاشور ومحمد حسين الطبطبائي دراسة مقارنة، مقال بموقع مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث رابط الموقع: <https://www.mominoun.com/articles>، طوّل يوم 20-06-2021.

دلالة الإيحاء الصوتي للكلمات أو الأنوماتوبيا عند الفراهي

- د. عامر خليل الجراح¹

الملخص

البحث كما يوضحه العنوان ويفصله هو في دلالة الإيحاء الصوتي للكلمات؛ تتناول فيه الحديث عن الإيحاء الصوتي عند الفراهي في كتابه (جمهرة البلاغة)، ونقدم بين يدي ذلك آراء القدماء كالحليل وابن جني، ثم آراء الحديثين ممن عرض لذلك وأشار إليه كسيد قطب وأحمد بدوي، ونشير إلى أننا قد جعلنا تنظير الإمام الفراهي للإيحاء الصوتي ودلالاته أساس بحثنا نظراً لأهمية ما قدمه واشتماله على سائر وجوه الإيحاء الصوتي التي يمكن أن تستبصر، ولا ندري لعله أن يأتي من يتوسع في الأمر أكثر، كما نشير إلى أننا سنختم بذكر نماذج تطبيقية لإيحاء الكلمات القرآنية الصوتي، لنثبت أن للأصوات إيحاء ودلالة تتضافر مع السياق لتعبّر عن دلالة الكلمات وتكسبها قوة وحياة، فالكلمات ليست أشكالاً خرساء، ولا سيما في لغة كاللغة العربية التي أحسب أنها مقدّسة حتى من قبل نزول القرآن؛ أعني منذ خلق آدم، وهذا موضوع آخر يحتاج إلى بحث مستقل لبيان، إنما أشرنا إليه ههنا لتؤيد فكرة دلالة الإيحاء الصوتي وحياة الكلمات عامة.

الكلمات المفتاحية: الدلالة، الأصوات، القرآن الكريم، الفراهي، القدامى، الحديثون.

المقدمة

إنّ دلالة الأصوات في الكلمات كانت حاضرة بقوة في الحديث اللغوي والدلالي، وارتبطت بقوة في الحديث عن نشأة اللغة، وذلك عند من أسند نشأة اللغة إلى

¹ أستاذ مساعد، معهد اللغات الحية، جامعة ماردين أرتقو التركية، تركيا

محاكاة الأصوات، ثم صار الحديث عن دلالة الأصوات وإيحائها حاضراً في الدراسات التطبيقية التي وقفت على الجانب النفسي للكلمات المنبعث من الأصوات من جهة صفاتها ومخارجها أو تكرارها أو تجاورها وغير ذلك، ولا سيما في تلك التي تناولت كلمات القرآن الكريم وإيحائها، وكان للدراسات المعجمية والصرفية والصوتية، وبالجملة اللغوية- وقوفٌ على علاقة صوت الكلمة وطبيعة حروفها تجاوراً أو ترتيباً أو حركات وسكّات بالدلالة، وبرز ذلك عند الدارسين العرب القدماء، ثم ظهرت الدراسات الفونولوجية الغربية التي ركّزت على دلالة النبر والتنغيم وغيرهما،¹ ثم نشأت الدراسات الغربية الحديثة المسماة بالأنوماتوبيا (Onomatopoeia).² وهي تدلّ على ما نحن بصدد دراسته ونعني الإيحاء الصوتي.

سنبيّن هذا الإجمال الذي ذكرناه ههنا على منجالة ونفصله من خلال المباحث التالية، لنبرز الإيحاء الصوتي ودلالته وتتبعه في مراحل مختلفة، فجعلنا المبحث الأول في دلالة الإيحاء الصوتي عند القدماء، ثم الثاني في دلالة الإيحاء الصوتي عند الحديثين، لنقف في نهاية المطاف على جهود الإمام الفراهي المتميزة في هذا الباب، وذلك في المبحث الثالث، ثم نقدّم في المبحث الرابع نموذجاً تطبيقياً حيّاً له ممثلاً بعينة من كلمات القرآن الكريم.

المبحث الأول: دلالة الإيحاء الصوتي عند القدماء

الكلام على الإيحاء الصوتي للكلمات كلامٌ قديمٌ، فقد تحدّث ابن جني (392هـ) عن الإيحاء الصوتي المتحصّل من اختيار الكلمة في كتابه (الخصائص) في أبواب شتى، منها (باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني)،³ و(باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني).⁴

¹ يُنظر: علم الأصوات، كمال بشر، ص 474.

² يُنظر: جمالية المفردة القرآنية، أحمد ياسوف، ص 222.

³ يُنظر: الخصائص، ابن جني، 145/2.

⁴ يُنظر: المصدر نفسه، 152/2.

وصرّح أنّه تلقّف الفكرة من الخليل بن أحمد الفراهيديّ (175هـ) الذي تحدّث عن إيحاء الأصوات بالمعاني في مقدّمة معجمه (العين)، ومن ذلك قوله؛ أي الخليل: "صرّ الجندبُ صريراً، وصرصرَ الأخطبُ صرصرَةً. كأنّهم توهّموا في صوت الجندب مدّاً، وتوهّموا في صوت البازي تقطيعاً"،¹ ويذكر ابن جني من الكلمات القرآنية الموحى صوتها بمعناها كلمة (الأز)؛ "أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تُوْزُّهُمْ أَزًّا" ﴿٨٣﴾ مريم [83]. فقال فيها: "أي تزعجهم وتقلقهم، فهذا في معنى تهزّهم هزّاً، والهمزة أخت الهاء، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين. وكأنّهم خصّوا هذا المعنى بالهمزة؛ لأنها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهزّ؛ لأنك قد تهزّ ما لا بال له كالجدع وساق الشجرة، ونحو ذلك".² ومن ذلك أيضاً حديثه عن (النضخ) وتمايزه من (النضج) في الآية: "فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ" ﴿٦٦﴾ الرحمن [66]. قال: "فجعلوا الهاء- لرقّتها- للهاء الضعيف، والحاء- لغلظها- لما هو أقوى منه".³

ربط ابن جني في ذينك المثالين الإيحاء الصوتي للكلمات بصفة الحروف وتمايزها من حيث القوة والضعف مقارناً بين الكلمات باعتماد تقارب أصولها أو جذورها، وله ربط آخر يتجلّى في الصيغة الصرفية للكلمة بما تكتنزه من أصوات دالّة، ويذكر أنّه تأثّر بسيبويه في هذا الربط، فقال: "قال سيبويه: في المصادر التي جاءت على (الفعلان): إنّها تأتي للاضطراب والحركة، نحو: النقران والغليان والغثيان، فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال. ووجدتُ أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سَمْت ما حدّاه [الخليل وسيبويه]، ومنهاج ما مثلاه. وذلك أنّك تجد المصادر الرباعية المضعّفة تأتي للتكرير نحو: الزعزعة، والقلقلة، والصلصلة، والققعقة والصعصعة والجرجرة والقرقرة. ووجدت أيضاً

¹ معجم العين، الفراهيدي، 56/1.

² الخصائص، ابن جني، 146/2.

³ المصدر نفسه، 158/2.

(الفعل) في المصادر والصفات إنما تأتي للسرعة نحو: البشكى والجزى واللقى...¹ غير أن ابن جني بالغ كثيراً في هذا المذهب كعادته في المبالغة في غيره كالجاز وشجاعة العربية وغيرها مما ذكره في (الخصائص). فلنقرأ قوله في مادة (بحث): "فالباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض، والحاء لصحلاها تشبه محالب الأسد ويراثن الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض، والثاء للنفث والبت للتراب. وهذا أمر تراه محسوساً محصلاً، فأني شبهة تبقى بعده، أم أي شك يعرض على مثله".² والحق أن مثل هذه الإشارات لم تجد أذاناً صاغية عند المفسرين المتقدمين إلا ما ندر، ونشير إلى اعتماد الزمخشري على صيغة (العلان) لتفسير اختيار كلمة (الحيوان) على الحياة في قوله تعالى: "وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهيَّ الْحَيَوةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" العنكبوت [64]. فقال: "وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة، وهي ما في بناء إعلان من معنى الحركة والاضطراب، كاللّزوان واللّغصان واللّهبان، وما أشبه ذلك. والحياة: حركة، كما أن الموت سكون، فجيئته على بناءٍ دالٍّ على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة، ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضي للمبالغة "لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" فلم يؤثرها الحياة الدنيا عليها".³ وكان اهتمام الدارسين في العصر الحديث بدلالات الأصوات في القرآن الكريم واضحاً، ونذكر منهم سيد قطب الذي جعلها أساساً مع الدلالات النفسية، وأحمد أحمد بدوي، وهو ما نبينه في المبحث الآتي.

المبحث الثاني: دلالة الإيحاء الصوتي عند المحدثين

استند سيد قطب على الإيحاء الصوتي للكشف عن ظلال الكلمات كثيراً، من ذلك حديثه عن أسماء يوم القيامة؛ مثل: الواقعة، والحاقة، والصاخة. ففي (الواقعة)؛

¹ المصدر نفسه، 153-152/2.

² المصدر نفسه، 163/2.

³ الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، 463/3.

يقول: "فالواقعة بمعناها وبجرس اللفظ ذاته- بما فيه من مدّ ثم سكون- تُلقَى في الحسّ كأنّما هي ثقل ضخم ينقضّ من عل، ثم يستقرّ لغير ما زحزحة بعد ذلك ولا زوال! "لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةً" الواقعة [2].¹ و(الحاقّة)؛ يقول: "وهي بلفظها وجرسها ومعناها تلقي في الحسّ معنى الجدّ والصرامة والحق والاستقرار. وإيقاع اللفظ بذاته أشبه شيء برفع الثقل طويلاً، ثم استقراره استقراراً مكيناً. رفعه في مدّة الحاء بالألف، وجده في تشديد القاف بعدها، واستقراره بالانتهاء بالتاء المربوطة التي تنطق هاء ساكنة".² و(الصاخّة) فهي: "لفظ ذو جرس عنيف نافذ، يكاد يخرق صماخ الأذن، وهو يشق الهواء شقّاً، حتى يصل إلى الأذن صاخّاً ملحاً".³

تكلم أحمد أحمد بدوي على ما أسميناه الإيحاء الصوتي للكلمات، فذكر الأثر الصوتي للألفاظ أو لبعض حروف الألفاظ في بيان الدلالة، وجعل ذلك تحت عنوان (تخيّر اللفظ)، فقال: "هناك عدد كبير من الألفاظ تُصوّر بحروفها، فهذه "الظاء والشين" في قوله تعالى: "يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ" الرحمن [35] و"الشين والهاء" في قوله تعالى: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ" إذا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ الملك [6، 7]. و"الظاء" في قوله تعالى: "فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى" الليل [14]... كما تحمل "الهاء" في قوله سبحانه: "وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لِّتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" فاطر [12]. إلى أذنك صوت الفُلْكَ، تشقّ عباب الماء".⁴ والحق أنّ دلالة الأصوات من حيث صفاتها أمرٌ لا يُركن إليه؛ لأنّه لا يصدق دائماً، غير أنّه يُستأنس به في تعزيز الدلالة لا في تحديدها، وذلك استناداً إلى السياق والمقاصد. فلنتعرّف إلى موقف مهمّ من هذه القضية هو موقف الإمام الفراهي.

¹ في ظلال القرآن، سيّد قطب، 3462/27.

² المصدر نفسه، 3674/29.

³ المصدر نفسه، 3834/30.

⁴ من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، ص 60.

المبحث الثالث: دلالة الإيحاء الصوتي عند الفراهي

تكلم الإمام الفراهي على دلالة الأصوات تحت عنوان (التوضيح من جهة الصوت)، فقال: "اعلم أن للصوت دلالة على بعض المعاني المناسبة بينهما، وما من لغة إلا وفيها آيات على ذلك، وأما لغة العرب، فالدلالة فيها أكثر وأبين من أن يُنكره منكر، وأعجب من صاحب (دلائل الإعجاز) كيف غمض عينه عن هذا الأمر، ورد على العلماء الذين جعلوا للفظ حظاً في مزنة الكلام من جهة صوته ردّ مكابر لهم! فالظاهر منها ما اشتهر بين علماء الاشتقاق أن:

[1] شدة في البناء تدل على شدة في المعنى، مثلاً: كَسَرَ أَشَدُّ مِنْ كَسَرَ، وَحَطَمَ مِنْ حَطَمَ، وَخَشَوْنِ مَنْ خَشِنَ، وَاحْدَوْدَبَ مِنْ حَدَبَ، وكذلك فَعَالٌ مِنْ فاعِلٍ، وَصَدِيقٌ مِنْ صديق، وكذلك

[2] زيادة في البناء تدل على زيادة في المعنى، وهذا قريب من الأول، مثل: كَفَرَ، وَاكْتَفَهَر. ثم قريب من ذلك كيفية أخرى في الصوت تدل على معنى يناسبها، مثل [3] توالي الحركات في الصوت تدل على توالي الحركات في المعنى، مثلاً: خَفَقَانٍ، عَسَلَانٍ، ضَرْبَانٍ، وقريب منه

[4] تكرار صوت يدل على تكرار في المعنى، مثلاً: زَلَزَلَ، كَبَّكَبَ، لَأْلَأَ، ثم بعد ذلك [5] دلالة جوهر اللفظ على المعنى. إما على الصوت، فظاهر، ولا أظن لغة تخلو عنها، مثل: قَطَّ، فَلَقَ، شَقَّ، خَرَّ، حتى إن بعض المجتهدين توهم أن جميع ألفاظ اللغة راجعة إلى الأصوات، ثم

[6] تركيب الخامس بالرابع، مثل: بَرَّ، تَغَطَّمَطَ، وَلَوَل.

[7] وأما على غير الصوت، فهذا أمر ينبغي له بعض تأمل، ولم يغفل عنه علماء الاشتقاق، فقالوا: إن كذا وكذا من الحروف يدل على معنى فلاني، وسبيلهم كان

سبيل الاستقراء، وتكلفوا به بعض التكلف، ولكن مع ذلك هو أمر له حقيقة¹.
فهو يقف في البند

[8] على دلالة جوهر اللفظ على المعنى ويفصل فيه، أما البنود السابقة فذكرها ابن جني، وإن كان بغير هذا التفصيل، ودلالة جوهر اللفظ على المعنى مثل لها بطريقة التشبيه بالوصف، بأن تُجَعَلَ حاسة محل أخرى لجامع أو صفة مشتركة بينهما؛ نحو: (قول لئن)، فالقول مسموع، واللين ملموس، فهذا الأسلوب الذي سمّاه الفراهي (الترجمة) يُدْرِكُ به فاقد الحسّ المعنى، ويُنبِئُه عند من رُزِقَ الحسّ ذوقاً نائماً.²

ثمّ راح الفراهي يتوسّع في دلالة الصوت أو جوهر اللفظ على المعنى، فقال: "إنّ للأصوات من جهة جرسها دلالة على معنى مناسبة بينهما... إذا كان المحلّ مناسباً، فيعطيك الصوت - لا سيما في لغة وسيدة مثل لغة العرب - تصويراً لمعناك من جهة دلالاته على الفخامة أو المهانة، وعلى الشدة أو اللين، وعلى الحدة أو الغلظة، بل على صفات أخصّ من هذه العامة... إنّ تصرف البليغ في أنحاء الكلام حتّى يصطفي ما شاء من الألفاظ لمناسبتة معنى وصوتاً أمر معلوم لا يخفى إلا على من أضله الوهم، وتسلبت عليه الولوع بالمبتدع، فلا تضيق السبل على البليغ عن الإتيان بما يشتهي من اللفظ، وكما أنّ

[1] للصوت مناسبة بمعنى خاص، كذلك

[2] له مناسبة بالمقصد، فبعض الأغراض يستدعي كلاماً سهلاً، وبعضها كلاماً نفيماً جزلاً، مثلاً: في الغزل والآداب لا يليق من الأصوات ما فيه الشدة والفخامة، وهكذا
[3] للصوت مناسبة بالمتكلم، فإنّ كلام الملوك والحكام ينبغي أن يكون أنعم من كلام العامة، وهكذا

¹ جمهرة البلاغة، عبد الحميد الفراهي، ص 146-147-148-149.

² ينظر: المصدر نفسه، ص 154.

[4] يُراعَى جانب المُخاطَب، فهذه أربعة وجوهٍ لاختيار الألفاظ على صفة مناسبة من الصَّوت، وهذا أمرٌ يتعلَّق بالأوزان والنَّغم، كما هو المعلوم عند أصحاب هذا الفن¹. نلمس في كلام الفراهي تأصيلاً شارحاً وافياً يمكن الركون إليه في شأن دلالة الأصوات وإيحاءاتها، وسنقف على بعض الأمثلة لذلك من كتاب الله عينةً تدلُّ على سائر الأشباه، وذلك في المبحث الآتي.

المبحث الرابع: دلالة الإيحاء الصوتي في القرآن الكريم؛ درس تطبيقي

من شواهد أنّ شِدَّةَ المبنى توحى بِشِدَّةِ المعنى استعمال صيغة مبالغة اسم الفاعل في الآية: "وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ" المسد [4]. فكلمة (حَمَّالَةٌ) فيها شِدَّةٌ من جهة الصوت ودلالته، وفيها غرابة من جهة الإعراب والمعنى؛ إذ اختلفوا في إعرابها، فقالوا إنّها قُرئت بالرفع والنصب وبالتنوين أيضاً: حَمَّالَةٌ أو حَمَّالَةٌ للحطب، وقالوا إنّ النصبُ أبلغُ لأنَّه يدلُّ على الذمِّ والشتم، فهي مفعولٌ (أذمُّ)، أمَّا معناها فعلى قولين: أنّها تحملُ الحطب أو الشوك وتلقيه في طريق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو أنّها كناية عن السير بالنيمة وحمل الكلام المحتطب من هنا وهناك، والقول الأول يقويه الآية التي تليها: "فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ" المسد [5]. وصيغة (حَمَّالَةٌ) ناسبت سياق المقام أكثر من (حاملة)، وهذه المناسبة تتقوى بدلالة الصيغة على الدوام؛ يقول الزمخشري: "يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: أَنَّ حَالَهَا تَكُونُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا حِينَ كَانَتْ تَحْمِلُ حَزْمَةَ الشَّوْكِ، فَلَا تَزَالُ عَلَى ظَهْرِهَا حَزْمَةً مِنْ حَطَبِ النَّارِ مِنْ شَجَرَةِ الرُّقُومِ أَوْ مِنَ الضَّرِيعِ، وَفِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّمَّا مُسَدٌ مِنْ سِلَاسِلِ النَّارِ: كَمَا يُعَذَّبُ كُلُّ مُجْرِمٍ بِمَا يَجَانِسُ حَالَهُ فِي جُرْمِهِ"². وهكذا نرى كيف تعاضدت وتضافرت قراءات عديدة لتصبَّ في بوتقة الدلالة نفسها وتقويها، فتضعنا أمام كلمة ذات إيحاء صوتي

¹ يُنظر: المصدر نفسه، ص 155-156.

² الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، 817/4.

ذي طاقة أسلوية حجاجية، وجاءت في هذا الباب أيضاً كلمات تُسمى الكلمات الاهتزازية، سُميت بذلك لتكرر مقاطعها وإيحائها بحالة الاهتزاز؛ نحو: (دمدم)، و(حصحص)، ولن نتكلم عليها ههنا لأنها كلمات فعلية لا اسمية، ومن شواهد أنّ الصوت يعطيك تصويراً للمعنى من جهة دلالاته على الشدة مثلاً أسماء القيامة، وقد تحدّثنا عنها سابقاً، ومنها أسماء طعام أهل النار وشرابهم - أعاذنا الله من ذلك - التي تدلّ على المهانة والشدة والغلظة (الزقوم، الضريع، الحميم، الصديد، الغسلين، الغساق)، وهذه الكلمات بما تحمله من دلالات في ذاتها ومع السياق تنسجم معها أصوات الألفاظ فتوحي بمعانيها وتعبر عن شدتها، بخلاف ما في الجنة: (الفاكهة، السلسيل، التسنيم...) وغير ذلك من الألفاظ التي توحى بالرخاء واللين، ولنا أن نتكلّم بالسياقات العامة للقرآن الكريم، فالسياق المكّي سياق ترهيب وتعنيف ناسبته أصوات التقرّيع في الغالب كما في لفظة (كلّاً) مثلاً، في حين أنّ السياق المدنيّ سياق ترغيب ناسبته أصوات التأنيس في الغالب.¹ ويتكلّم ابن الأثير على مثل هذا؛ فيقول: "انظر إلى قوارع القرآن عند ذكر الحساب والعذاب والميزان والصراط، وعند ذكر الموت ومفارقة الدنيا، وما جرى هذا المجرى، فإنك لا ترى شيئاً من ذلك وحشيّ الألفاظ، ولا متوعراً [مع جزالته]. ثم انظر إلى ذكر الرحمة والرأفة والمغفرة، والملاطفات في خطاب الأنبياء، وخطاب المنيبين والتائبين من العباد، وما جرى هذا المجرى، فإنك لا ترى شيئاً من ذلك ضعيف الألفاظ ولا سفسفاً [مع رِقته]."² فالصوت يوحى بالمعنى حين يُناسب السياق، وأعني بالصوت لفظ الكلمة بكامله لا بحرفٍ منه، إن على مستوى الصيغة الصرفية وهو أمر مقنّن تقريباً، وإن على مستوى اجتماع بعض الأصوات الدالة على المعنى العام شدةً أو ليناً مع مراعاة جانب الكلمة من حيث

¹ يُنظر: الإتيقان في علوم القرآن، السيوطي، 70/1.

² المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، 186/1. تكلم ابن اثير على الجزالة والرقة في نفس السياق، فلم نرد الإطالة فأدرجنا ذلك في الكلام ضمن معقوفتين.

الدلالة والاختيار، ومراعاة السياق العام والخاص، والمستوى الأخير ظاهر فيه التكلف- كما قد سلف- بيد أننا نستطيع الاستئناس به من جهة لحظ سعة العربية، ومن جهة النظر في خصوصية الاستخدام القرآني للكلمات.

الخلاصة والنتائج

إنّ الحديث عن دلالة الأصوات أو الإيحاء الصوتي للكلمات في العربية حديث ذو شجون، حاولنا قدر الإمكان أن نسلط الضوء على هذه المسألة بذكر أطرافها إن على مستوى التنظير، وإن على مستوى التطبيق، وتبين لنا أنّ الإمام الفراهي من أبرز الذين تناولوا القضية بتفصيل، إن لم يكن أبرزهم، فجعلناه مركز بحثنا، وأدرنا عليه كلام أهم السابقين من القدماء ممن تكلم في هذا الشأن، وأتبعناه بكلام المحدثين، وعززنا بذكر عينات تطبيقية قننا بعرضها وتحليلها من كتاب الله، لنصل إلى أنّ إدلال الأصوات من جهة الصيغ الصرفية هو أكثر ما يعبر عن روح الكلمات وقوة إيحاءها، ثم تأتي القيم الصوتية (الفونيمية) في المرتبة الثانية من جهة نبرها، ويلجأ إليها للاستئناس في الغالب، ولا يمكن أن تُقنن أو تُتخذ مثلاً ينقاس عليه، ولم نعرض للتنعيم في هذا البحث على أهميته؛ لأننا رأينا أنه إما أن يتعلق بالتركيب، وحديثنا عن الكلمات المفردة، وإما أن يتعلق بالمتكلم وقصده، وهذا باب المفاضلة أو التداولية، ولعل لهذا البحث أن يفتح آفاقاً جديدة في تناول الدراسات الصوتية الفونولوجية العربية على مستوى التطبيق إن لم يكن على مستوى التنظير، والله الموفق، وعليه التكلان، وله الحمد أولاً وآخراً ودائماً.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. الإتيان في علوم القرآن، السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974م.
3. جمالية المفردة القرآنية، أحمد ياسوف، دار المكتبي، دمشق، ط2، 1999م.
4. جمهرة البلاغة، عبد الحميد الفراهي، تحقيق: محمد الرهاوي، عامر الجراح، ط1، دار سنابل، إسطنبول، 2019م.
5. انحصائص، ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2006م.
6. علم الأصوات، كمال بشر، دار غريب، القاهرة، 2000م.
7. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط32، 2003م.
8. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ.
9. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانه، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.
10. معجم العين، الفراهيدي، تحقيق: مهدي الخزومي، إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، إيران، ط2، 1409هـ.
11. من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، نهضة مصر، القاهرة، 2005م.

وجهة نظر الإمام الفراهي عن العقل

- د. محيي الدين غازي¹

ترجمة من الإنجليزية: أ.د. محمد قطب الدين²

الملخص: الإمام عبد الحميد الفراهي (ت 1930م) من العلماء الإسلاميين والفلاسفة والمتكلمين والمفسرين المشهورين للقرآن الكريم في العصر الحديث. تشمل أعماله إعادة التصور وتنشيط فكرة الترابط في القرآن، وإعادة جميع العلوم والتخصصات الإسلامية التي تلزم لفهم القرآن أو التي نشأت من القرآن إلى القرآن كونه مركزاً لها ومصدراً. تحدّى عديداً من المناقشات السائدة في مجال العلوم القرآنية، وعلوم الحديث، والفقه ومبادئه، والمنطق، والكلام والفلسفة، ومجال القواعد العربية والبلاغة. وتهدف هذه الورقة إلى دراسة أفكاره حول دور العقل في الإسلام وكيف يغذي الإسلام العقل ويدربه بطريقته الخاصة. ولتحقيق هذا الهدف، قد تم الرجوع إلى كتابه عن علم حجة القرآن "حجج القرآن" بالإضافة إلى بعض من كتبه الأخرى حول نفس الموضوع باستخدام منهجية تحليل المحتوى. وتُظهر النتائج أنّ مناقشة توافق العقل مع الوحي هي نتيجة لسوء فهم الأخيرين. في الواقع، العقل والوحي يكملان بعضهما البعض ولا توجد إمكانية لأي نوع من التناقض بين الاثنين. ولا يشجّع القرآن استخدام العقل فحسب، بل يوفر بعض القواعد والآليات

¹ عميد كلية القرآن، الجامعة الإسلامية، كيرالا. ويشاركه في الكتابة من كلية العلوم الإنسانية للجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا: محمد فريد علي (أستاذ مساعد، قسم الفقه وأصول الفقه) وذو القرنين حيدر (باحث، قسم المعرفة والتراث الإسلامي) وفتحية النور إدريس (مدرسة، قسم كشف المعارف الإسلامية والتراث في دراسات القرآن والسنة)

² أستاذ، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهرلال نهرو، نيودلهي

لزيادة تطوير القدرة على التفكير إلى ارتفاع أعلى، الأمر الذي لا يمكن تحقيقه بسهولة دون جهد مضمّن وممارسة طويلة.

الكلمات الرئيسية: العقل، الوحي، الإسلام، عبد الحميد الفراهي، التنمية، القرآن الكريم. التعارف: الإمام عبد الحميد الفراهي أحد العلماء الإسلاميين والفلاسفة والمتكلمين والمفسرين المشهورين للقرآن الكريم. تتراوح أعماله من الإصلاح إلى تفعيل فكرة الترابط في القرآن وإعادة النظر في جميع العلوم الإسلامية والتخصصات التي تعتبر ضرورية لفهم القرآن الكريم أو التي استمدت من القرآن وتعطي له المركزية. وتحدّي العديد من النقاشات السائدة في مجال علوم القرآن وعلوم الحديث والفقه ومبادئه ومنطقه ولاهوته ومجال القواعد العربية والبلاغة.

ولد الإمام الفراهي عام 1862م في قرية صغيرة بمديرية أعظم جراه، الهند، والقرية تعرف باسم "فريها" ومنها اختار كلمة "الفراهي" التي تعني ساكن "فريها" باللغة العربية. كان ابن عمه المؤرخ الإسلامي الشهير العلامة شبلي النعماني (ت 1914م) الذي وضع أسساً جديدة لبحث ودراسة التاريخ وسيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذلك. ومنذ طفولته تعلّم العلامة الفراهي عدة لغات من أمثال اللغة العربية والفارسية والأردية، ثم خلال مكوثه في عليجراه تعلّم اللغة العبرانية من الأستاذ المستشرق Joseph Horoviz (ت 1931م)، كما تعلّم العلوم الحديثة في كلية عليجراه الإسلامية. قام بتدريس اللغة العربية في كراتشي وفي كلية أيم. أو، عليجراه، ثم تطوّرت الفكرة لإنشاء جامعة تدرس فيها جميع المواد الدينية والعصرية باللغة الأردية، والتي لاحقاً ظهرت إلى حيز الوجود في شكل الجامعة العثمانية بحيدرآباد.

منذ فترة طويلة، كان العلامة الفراهي غير مقتنع بالمنهج السائدة بين العلماء تجاه القرآن الكريم ووصل إلى نتيجة بأنّ هناك نقصاً في طرق ومبادئ فهم القرآن والتي تؤثر على الروح الإسلامية والنقاش الإسلامي برمته. فتخلّى العلامة الفراهي عن

مسيرته المهنية من الجامعة العثمانية وعاد إلى مديريته أعظم جراه حيث تولى إدارة مدرسة تعرف بـ "مدرسة الإصلاح" في عام 1925م، وكّرّس حياته المتبقية للخدمة هذه المؤسسة ووضع النقاش البديل للتفاعل مع القرآن.

ألّف العلامة الفراهي عديداً من الكتب والرسائل، والقاسم المشترك بينها هو إحياء مركزية القرآن في كل مجال من مجالات الدراسات الإسلامية والإنسانية. وفي مدة قصيرة وسّع العلامة الفراهي نطاق أعماله إلى مواضيع ومجالات لم يتمكن من إنجاز جميع أعماله. ولذلك بقي العديد من مخطوطاته في شكل مسودات وملاحظات لم تر النور إلا بعد وفاته. أذكر بعض نظرياته وأفكاره بالإيجاز:

1. نظم القرآن: ومن أبرز أعماله فكرة نظم القرآن. على الرغم من أنّ هذه الفكرة لم تكن فكرة جديدة في حد ذاتها، إلا أنه قدّم هذه الفكرة من جديد، حيث زوّدها بأدلة قوية وعرض المزيد من الأساليب والتطبيقات لنظريته. وتعتبر مؤلفاته "دلائل النظام" و"نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" من أبرز أعماله في هذا الموضوع. عرّف "النظام" بأنّ السورة بأكملها وحدة موضوعية، وعلى سبيل المثال كل سورة مرتبطة بسورة سابقة أو لاحقة أو أية سورة أخرى تكون قبل أو بعد نفس الآية متماسكة ومرتبطة بآيات سابقة أو لاحقة وأحياناً يكون هناك بعض الفجوة بينها حيث تُعتبر بعض الآيات كتفسير أو توضيح لشيء (معتضة). ولذا، فإنّ القرآن، بحكم هذا النظم، يُعتبر وحدة ذات ترتيب وتماسك عميقين وهادفين للغاية من البداية إلى النهاية، (الفراهي: 1388). طبق فكرته هذه على العديد من سور القرآن الكريم. وبعد ذلك جاء تلميذه الشيخ أمين أحسن الإصلاحي الذي ألّف تفسيراً كاملاً على نهجه بالأردوية باسم "تدبرِ قرآن" كما قام الدكتور سبحاني بتبيين هذه النظرية وتطبيقها في أعماله "إمعان النظر في نظام الآي والسور" و"البرهان في نظام القرآن" (فرحات، 2001).

2. أصول التفسير: والموضوع الرئيس الثاني لعلوم القرآن الذي أولى العلامة الفراهي اهتمامه البالغ هو طرق ومبادئ لتفسير القرآن. وعلى الرغم من أنه لم يؤلف أي كتاب خاص في هذا الموضوع، فقد كتب ملاحظات ودراسات تؤكد على ذلك. وعلى سبيل المثال "إمعان في أقسام القرآن" و"التكميل في أصول التأويل". ثم جاء الشيخ أمين أحسن الإصلاحي والدكتور عنایت الله سبحانی اللذان كتباً بالتفصيل حول هذا الموضوع، وللأخير كتابان مهمان في هذا الموضوع وهما "التحرير والتجوير في أصول التفسير" و"عقد الجمان في تقويم تدبر القرآن" وقد ساهم هذان الكتابان بشكل كبير ووفراً إطاراً كاملاً للتعامل مع التفسير القرآني وكذلك التعامل مع أي إرشادات من القرآن.

3. البلاغة العربية: كان العلامة الفراهي من بين أولئك الذين تعمقوا في اللغة العربية الكلاسيكية حتى تمكنوا من فهم القرآن بطريقة اعتاد الناس فهمه حين نزول الوحي. وبالتالي، أشار إلى الاختلافات التي وقعت على مدى فترة زمنية طويلة في ذوق البلاغة العربية التي كانت بمثابة عقبة في فهم القرآن. و"أساليب العرب" و"جمهرة البلاغة" كتابان مهمان ناقش فيهما هذا الموضوع بدقة. كما عالج العلامة الفراهي ألفاظ القرآن في ضوء معانيها الأصلية ما قبل الإسلام في كتابه المشهور "مفردات القرآن".

4. علم العقائد: أعاد الأستاذ عبد الحميد الفراهي النظر في قضايا العقيدة في ضوء القرآن وتحدى العديد من المفاهيم السائدة وقدم المبادئ المستخلصة من القرآن لإعادة فهم قضايا العقيدة. والقائد إلى عيون العقائد كتاب ناقش العلامة فيه قضايا العقيدة. وإذا كان هذا العمل موجزاً في محتواه فبينه العديد من العلماء وشرحوا محتواه. وعلى سبيل المثال يرجى مراجعة مقال "إقبال فرحات" و"عنایت الله سبحانی" في عدد خاص لمجلة "الهند" المجلد 7، 2018م.

5. حجج القرآن: هذا هو الكتاب الذي هو موضوع دراستي حالياً وتركيز هذه الورقة. هنا، تحدى العلامة الفراهي عديداً من افتراضات المنطق والكلام والفلسفة التي تركز على الطريقة القرآنية وطريقة الجدل والمناقشة. ومن الجدير بالذكر، أنّ معظم أعماله قد تمت دراستها وتوسيعها وتطبيقها وتطويرها إلا أفكار هذا الكتاب هو الأقل تداولاً ونقاشاً. فتحاول هذه الورقة تقديم بعض أفكاره بالإشارة إلى هذا الكتاب الرائع والمهم.

العقل وعقلية المسلمين: العقل هو أحد العوامل الحاسمة في البشر. سواء كان ذلك التقدم المعرفي أو صعود المجتمعات، يلعب العقل دوراً حيوياً في كليهما. فهو يعزز نظرة صحية ويوفر بيئة مواتية لتنمية الأفراد والمجتمع. فهو يسهل الاكتشافات والاختراعات. العقل هو الأداة الوحيدة لاكتشاف الذات، وتعليم البشر كيفية بناء العالم الذي يعيشون فيه وكذلك حكمه. إنه يكرّس المجتمع ويحضّر الشعوب.

أحد الأسباب الرئيسية لتراجع تاريخ أفكار المسلمين وفشلهم في تمثيل نظرهم بقوة يمكن في ترددهم وعدم قدرتهم وسوء فهمهم وأحياناً عداوتهم للعقل. وبالتالي، فقد وقعوا فريسة لمختلف الأيديولوجيات والمواقف واللوائح، التي لم تكن لتؤيد أبداً، لو لجأوا إلى العقل في قضاياهم وسردياتهم. وبما أنهم عزلوا أنفسهم عن التطبيق العملي المعرفي، فقد فشلوا في تحقيق أهداف دينهم ورسالة العالمية وفي تبليغه كذلك.

وبعد عصرهم الذهبي الأول لم يستطع المسلمون أن يتقدموا أكثر لأنه يتطلب الاجتهاد والتأمل، كما فشلوا في تحقيق النجاح الحضاري، لأنه استلزم إدراك كل اكتشاف وابتكار. تم التخلص من العقل، الذي كان مكافأة خالصة وأفضل طريقة لكشف القرآن بطريقة تعتبر وكيلاً للشيطان وشرّاً يجب تجنبه والتخلص منه. أي شخص يحاول استخدام العقل كان يُعتبر منحرفاً، فلذلك أصبح علماء الدين مترددين في التفكير في الأهمية الحقيقية للعقل. وعلى صعيد آخر، كان لدى الأشخاص العقلانيين والمتشككين

رضي ذاتي لأن يهزموا السرديات الدينية من خلال النقاش العقلي.
ونظراً إلى هذا، أصبح من الضروري العودة إلى القرآن واستكشاف دور وأهمية العقل، والتركيز على استخدام العقل وتطويره.

نادى العلامة الفراهي (2008) أنّ "العقل وهو نور إلهي رفع الله به الإنسان على البهائم. وهو الميزان الفارق بين الحق والباطل (الفراهي، 2008:184). كان الهدف من نزول القرآن هو تحرير الشعب من العمي، والتعسف والظن لتكوين التفكير الحرّ باستخدام عقولهم ومكافحة كل عقبة وقوة وعائق يحظر التطبيق العملي المعرفي، حتى يتمكنوا من الحصول على الحلول لجميع احتياجاتهم وتحدياتهم المستمرة في ضوء عقولهم، لكن لم يتحقق ذلك. تسببت إساءة استخدام العقل في ابتعاد الناس عن العقل نفسه وكان هذا خطراً غير مسبوق في تاريخ الأمة والذي تفتش في البشرية جمعاء.

يقول الفراهي (2008): "إن أكثر الذين معظم همهم الدين والاشتغال بالكتاب والسنة يظنون أنّ طريق العقل مباين للتعليم الإلهي. فيزعمون بأنّ الإيمان مبني على إخبار من الأنبياء عليهم الصلاة وإنما عرفناه بالمعجزات. فكل ما علّمونا من الإيمان والشرائع تقبلناه بحض إخبارهم. فإنه لو كان للعقل سبيل إلى علوم الدين لكنا في غناء عن الوحي، ولولا ذلك لما مدح الله الإيمان بالغيب. ومن غلبة هذا الظن زعموا أنّ الشرائع كلها مبنية على أمر الله تعالى بها فيلزمنا أخذها من غير طلب الحكمة فيها. وبما صاروا على هذا الرأي صُرفوا عن استعمال العقل والفكر في أمور الدين كلها، فكيف بالتفكير في دلائل القرآن.

والباعث الأصلي على هذا الرأي ما وجدوا عياناً من الخبط والشطط في المنتسبين إلى العقل من الفلاسفة والمتكلمين فأساؤا الظن بالمعقول. ولكن قد تبين لي أنّ ضلالهم لم يكن من جانب العقل بل من تسلّط التفلسف وتركهم طريق الفطرة التي هدى الله سبحانه إليها بكتابه وتعليمات رسله.

فأينا الحاجة إلى ذكر هذا الطريق ليركنوا إلى ما جاء به القرآن من الحجج البالغة والحكم البارغة، ومن الحث على استعمال النظر والفكر" (الفراهي، 2008:175).

أهمية العقل في القرآن: أعطى القرآن مكانة عالية جداً للتفكير. ومن الجدير بالذكر أنّ القرآن لا يعطي أي حذر أو أي شكل من أشكال التنظيم أو التقييد في سياق العقل. إنّ القرآن واثق جداً في كل ادعاء يدعيه بأنّ هؤلاء مدعومون بالفكر والعقل، ورفضه لأي اقتراض أو مفهوم يعكس عدم الاتساق مع العقل. ومن الواضح جداً من الوصف القرآني أنّ الوحي والعقل في وئام وتطابق تام. يروج القرآن بشكل مرغوب لمثل هذا الإطار العقلي الذي يعتمد على أدلة العقل، الذي يكون إيمانه راسخاً في العقل والذي يمكن تبرير نقاطه بالعقل. بدلاً من الاعتماد على المعجزات، يعزّز القرآن الفهم القائم على الأساس المنطقي كأساس للاعتقاد والعقيدة.

يقول العلامة الفراهي: "إنّ القرآن أكثر الكتب المنزلة خطاباً للعقل وتنبيهاً له على الدلائل العقلية ومدحاً للعقلاء وذمّاً للغافلين. وهذه من محكمات القرآن وبيناته لا يشكّ فيها أحد". (الفراهي، 2008:226).

لا يوجد في القرآن الكريم مكان تُشجّب فيه العقل والتفكير، ولا يستخف القرآن بالأشخاص الذين يستخدمون عقولهم وتفكيرهم، ولا حتى ضمناً، ناهيك عن الكلمات الواضحة. لا يذكر أبداً العقل كعامل للانحراف. وبالعكس، فإنه يدين الإعراض عن استخدام العقل.

قال العلامة الفراهي: "وأما العقل فقال تعالى: "وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ" (يونس: 100). فصرح بلزوم الرّجس بنبذ العقل، فمن لم يستعمل العقل لم يميز بين الحق والباطل، والطيب والخبيث فلا بد أن يقع في كل شر" (الفراهي، 2008:176).

ويسلّط عباس محمود العقاد (ت. 1964) الضوء على إعجاب القرآن باستخدام العقل قائلاً: "القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به،

والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية، بل هي تأتي في كل موضع في مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة. وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله، أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله، وقبول الحجر عليه. ولا يأتي تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه التي يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة، بل هي تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها". (العقاد:1986).

وقد عبر ابن تيمية (ت. 1328) عن نفس الرأي فيما يتعلق بالفكر، وأنّ العقل والدين لا يمكن أن يتضاربا. ومع ذلك، كونه حذراً، فقد وضع شروطاً معينة للتفكير. وهو يقول:

"ما علم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع البتة، بل المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح فقط. وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع. وهذا تأملته في مسائل الأصول الكبار كمسائل التوحيد والصفات، ومسائل القدر والنبوات والمعاد وغير ذلك، ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط، بل السمع الذي يقال إنه يخالفه: إما حديث موضوع أو دلالة ضعيفة، فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضته العقل الصريح، فكيف إذا خالفه صريح المعقول؟ ونحن نعلم أنّ الرسل لا يخبرون بحالات العقول بل بحارات العقول، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته". (ابن تيمية:1:147:1991).

وفي أدبياتنا الدينية والكلام هناك مناقشات مطولة حول التناقض والتنافر بين العقل والوحي، وهو أمر غريب جداً بالنسبة للقرآن. وفي الآيات، يكون العقل والوحي معارضين للتعسف والظن الذي لا أساس له. إنّ القرآن يقدر بشكل قاطع المنطق دون أي شرط.

وفيما يتعلق بالمزامنة الكاملة والانسجام بين العقل والوحي، يقدم العلامة الفراهي في كتابه "حجج القرآن" حجة ممتعة للغاية ورائعة. وفيما يلي بعض المقتطفات:

"إن الإنسان بفطرته يهتدي بالعقل، وإليه يطمئن وبه يحتج على من خالفه، ومنه يأتيه العلوم كلها إما بالبداهة أو بالنظر والاستنباط. وأما الوحي فإنما جاء لتنبيه العقول وتسيده وتوحيه أمره وتأنيده، ولذلك حث كثيراً على التدبر والفكر، ومدح أرباب الفهم والنظر. ألا ترى إمامنا إبراهيم عليه السلام كيف احتج على الكفار بصريح العقل وهم تمسكوا بحض الظن والتقليد. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (٢١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلَ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٢٥﴾. أي هل معك حجة أم تسخر منا، فجاء بالدليل الواضح كما حكى الله عنه: "قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ" (٢٦) (الفراهي: 174: 2008).

"... هي المعيار الذي يحكم به على الأديان كلها، فلو لا هي لكان الفرق بين الحق والباطل محض التحكم والمصادرة". (الفراهي: 197: 2008).

"الإيمان بالنبوة والوحي ليس إلا الإيمان بما يقبله العقل، ويطمئن به القلب، ولذلك جاء الوحي بالدلائل". (الفراهي: 288: 2008).

"الحاصل أن حاجة الوحي لا تكون إلا بطريق العقل والفهم، ولذلك كثر في القرآن مدح التدبر والتفكير، والمراد من التدبر استعمال الفكر على وجه صحيح عقلي، فإن لكل قوة سوء استعمال". (الفراهي: 233: 2008).

"إن العقل ودين الفطرة على غاية الموافقة". (الفراهي: 183: 2008).

"إعلم أن سبيلنا سبيل العقل، فلا تؤمن إلا بما يتقبله محض العقل ويطمئن به بالهدي

الفطري، وإنما جاء الوحي والرسول موافقاً له كالنور للبصر، وصرح به الكتب المقدسة كثيراً، والقرآن أكثرها تصريحاً". (الفراهي: 185: 2008).

استخدام العقل في أحكام الشريعة: ينظر العلامة الفراهي (2011) إلى الشريعة من وجهة نظر مختلفة تماماً. عندما يشرح العقل وراء الكشف عن أساسيات الشريعة وقضاياها الأكبر في الكتاب المقدس بينما يترك مجالاً كبيراً لأحكام محددة للاستنتاج، يؤكد هدفين من هذا. أولاً، يتطلب اختراع شيء وقتاً وفترة معينة للبرور بالتطوير والوصول إلى الكمال ولا يُستثنى منه القرآن، وهذا هو كمال الشريعة لتوفير الطريق للوصول إلى الكمال. ثانياً، الهدف المثير للاهتمام والمثير للتفكير هو أنه من خلال توفير الأساسيات والمبادئ الشاملة وترك التفاصيل، فإنه يوفر نظام رعاية وتدريب قدرة العقل، وبالتالي، فإنه يسهل تنمية الناس بجعلهم معتادين على استخدام العقل.

ويقول إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَنْزِلْ الشريعة لكي تحوي كلَّ صغير وكبير من القضايا ويوفّر لهم إرشادات فيهما، وذلك لكيلا يجمد العقل ويبقى غير فاعل. فقد وُجد في القرآن أنه يترك لنا موقعاً خاصاً لعقولنا ومجالاً لكي يفعل فعله فينمي به البشر صلاحياته ومواهبه (الفراهي، 2011: 33).

إن الإمام الفراهي متميز عن جميع علماء الإسلام الآخرين فيما يتعلق بشرح عمليات استنباط الأحكام في الشريعة ونمط الشريعة في تقديم إرشادات أساسية وعامة محدودة من خلال إسنادها إلى هدف تطوير قدرة العقل والإدراك.

تطوير التفكير العقلي من خلال القرآن: الطرق: يعمل القرآن كدليل للعقل ويرى الفراهي أنَّ العقل هو البصر والوحي هو النور. يوضح القرآن أيضاً أنَّ تعاليمه تتوافق تماماً مع العقل. هنا، سيتم التركيز على حقيقة أنَّ القرآن يغذي العقل وقد شرح أساليب تطوير العقل وتغذيته بحيث إذا شغل شخص بإخلاص في القرآن، فسيحصل على أفضل بيئة وعمليات لتطوير العقل. هذا موضوع مهم ومثير للاهتمام والذي هو أقل

مناقشة ومداولة. وقد ناقشه الفراهي ولو باختصار والإيجاز إلا أنه يغطي الكثير من الحقائق المذهلة والمعاني الثاقبة. ووفقاً للفراهي، يتم تعميم الطرق التالية في القرآن:

الطريقة الأولى: تطوير العقل مشروط بشكل متبادل بالاستخدام المستمر للعقل: وقد تعرض تحقيق الإمكانيات البشرية واستخدام الموارد الطبيعية للنضال والعمل، وهي بدورها تستند إلى التفكير. ومُنحت القدرات اللازمة وزُوِّدت للإنسان ثم ترك للعمل ولاكتشاف الإمكانيات في الأشخاص وفي الطبيعة والاستفادة منها. وتزداد هذه القدرات والقوى وتنتشر بقدر ما تمارس وتُسْتعمل، وتتحقق نتائجها في وقت واحد.

هذا هو النهج الذي يؤيده القرآن فيما يتعلق بتطوير القدرة على استخدام العقل. ولا يعني ذلك بأيّ حال من الأحوال أنّ المؤمن بمجرد اعتناقه الإسلام يتعرض للقدرة الخفية للعقل والتفكير ويصبح شخصاً عقلياً. بدلاً من ذلك، يشجّع القرآن أتباعه على الاستمرار في استخدام عقولهم وفكرهم حتى يتمكنوا من الوصول إلى مستوى أعلى من العقل. يقول الفراهي: "جاء القرآن بأوليات الهداية من التوحيد والشرائع على غاية الوضوح ولكن علق تربية العقول بأعمالها ولا سبيل إليه إلا بذلك". (الفراهي: 131: 2008).

الطريقة الثانية: اعتبر القرآن نفسه وسيلة للتفكير واستخدام العقل: وكما ذكر آنفاً، تزداد قدرة العقل بقدر ما يُستخدم. ولا يشجّع القرآن على استخدام العقل فحسب، بل يوفّر مكاناً جيداً لتنمية الفكر من خلال التفكير في آياته وآيات الله. القرآن، قبل أن يكون كتاباً عن "الأمر والنهي"، وقبل أن يكون كتاباً عن التقوى والفضل، إنه كتاب للحجج العقلية والآيات والشواهد. تتطلب هذه الأدلة والآيات تفكيراً عميقاً وعملية معرفية. القرآن ليس فقط ورشة عمل جيدة لتطوير العقل، ولكنه يشير أيضاً إلى عالم أوسع وأكبر يمكن اعتباره مكان عمل للممارسة العقلية. ومما يُدهش أنّ أيّ شخص يفكر في الآيات القرآنية يصل بجون وعي إلى عالم أوسع بكثير من الآيات.

يقول الفراهي: "فجعل القرآن موضع التدبر والفكر وحثّ عليه العقول فأكثر من

التنبية على ما يكون موضعاً ومادة لأعمال العقل، فمن ذلك أمثال قوله تعالى: "أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا" (محمد: 24). "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى" (طه: 54). ثم ذكر العلامة الفراهي آيات ورموزاً لا حصر لها تدعو إلى استخدام العقل (الفراهي، 2008).

إنّ الأدلة القرآنية، بطبيعتها، عقلانية وتتناول العقل البشري. يرضي القرآن قراءه باستمرار بالأدلة المنطقية. وبالتالي، فإنّ استخدام العقل لفهم هذه الأدلة يؤدي إلى نقطة يصبح فيها العقل فعالاً للغاية حتى يعتاد على استخدام العقل ويطلب أدلة عقلانية، وتفضيل العقل على أيّ سبب آخر مثل التيجيل أو القوة لقبول أيّ رأي. وهذا يحتاج إلى منطق للتفكير ولا يترك مجالاً للظن. إنّ انتشار الرأي أو محاكاة العلماء أو الفرض من قبل الحكام، ليس له أيّ تأثير ولا يمكن أن يكون هناك تسوية مع العقل. إنّ موقف قبول الآراء المستندة إلى أدلة عقلانية يحقق التنمية في شخصية البشر، ويعلمهم أحراراً ويطور قوة الإرادة بدلاً من الاتباع الأعمى. إنهم يطورون رأيهم ويتخذون قراراتهم بأنفسهم. إنهم يصمّمون أولوياتهم ويتحملون المسؤولية لتحقيقها. ولا يحق لأيّ إنسان أن يفرض قراره على الآخرين في قضايا هذه الحياة أو الآخرة. يجب على الجميع أن يفكروا بحرية وعقلانية ويقرروا مساره حاضراً ومستقبلاً. هناك فرق كبير جداً بين الشخص الذي يتابع الآخرين ببساطة ويحاكيهم. وهو الشخص الذي ينال الأدلة والحجج العقلية من الله حول الأمور المهمة في حياته ولا يقبل إلا بعد الاقتناع بها. ويتميز الموقف القائم على العقل أساساً بعدم وجود أيّ فرض وشرهة. وعلى صعيد آخر، الأشخاص الذين يتحدثون دون دليل وأسس عقلانية يعتمدون على القوة أو الفرض أو الجشع، أو أية وسيلة غير أخلاقية أخرى لجعل آرائهم مقبولة.

ويقول الأستاذ الفراهي (2008:221): "...والمقصود هنا أنّ الهداية إلى الحق إنّما يأتي من باب العقل والفكر، فإذا أراد الإنسان استعمال النظر والفكر واجتهد أعطاه

الهداية. وليس هنا إلقاء من النبي و المرشد، فإنما هو يتلو عليه الدلائل. وكذلك لا إكراه من الله تعالى، فإنما هو يعطي الهداية لمن اجتهد لها وطلبها. ولذلك قال تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ". (يونس: 44). وكذلك قال تعالى: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ" (البقرة: 256).

الطريقة الثالثة: التشجيع على استخدام العقل: يتميز البشر عن الآخرين بعقلهم وقدرتهم على الاختيار العقلي، لكنهم في نفس الوقت يبحثون عن الراحة ويحبون اليسر في تصرفاتهم الطبيعية، خاصة فيما يتعلق باستخدام العقل فيصبحون مقصرين لأنه يصعب تطبيقه. ومن المعترف بأن القرآن يشجع على استخدام العقل لتقديم الحجج العقلية والتفكير والتدبر في آيات الله. إنه يدين الأشخاص الذين يحبسون قلوبهم وعقولهم. وهذا موضوع متكرر شائع جداً في القرآن.

يقول عباس محمود العقاد: "والذي ينبغي أن نثوب إليه مرة بعد مرة أن التنويه بالعقل على اختلاف خصائصه لم يأت في القرآن عرضاً، ولا تردد فيه كثيراً من قبيل التكرار المعاد، بل كان هذا التنويه بالعقل نتيجة منتظرة يستلزمها لباب الدين وجوهره ويرتقها من هذا الدين كل من عرف كنهه وعرف كنه الإنسان في تقديره". (العقاد، 12: 1986).

وفي تفسير الآية الكرية "وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ". (يونس: 100) يقول سيد قطب (1996): "فالذين عطلوا عقولهم عن التدبر يجعل الرجس عليهم، والرجس أبشع الدنس الروحي، فهؤلاء ينالهم ذلك الرجس بسبب تعطيلهم لمداركهم عن التعقل والتدبر، وانتهاءهم بهذا عن التكذيب والكفران".

الطريقة الرابعة: التأكيد على الأدلة والآيات بدلاً من المعجزات الحسية: وفي هذا السياق، تجدر الإشارة إلى أن القرآن يؤكد على التأمل الذاتي والتأمل في الأدلة والآيات داخل الإنسان وبدونه، بدلاً من المعجزات الحسية والمادية. يفضل القرآن

الآيات والأدلة في الذات الداخلية والعالم الخارجي حيث يُقنع العقل بالعمل. يقول سيد سليمان الندوي: "أثناء قراءة القرآن يبدو واضحاً أنه لا يهتم اهتماماً أكثر بالمعجزات الحسية، بل يجذب دائماً إلى الروح الأصلية للنبوة. على عكس المسيحية حيث التركيز واضح على المعجزات، والإسلام يدعو إلى التفكير والتأمل والفهم للإيمان بالحقيقة". (الندوي، 2000).

ويكتب العقاد: "والإسلام دين المعجزات التي يراها العقل حيثما نظر، وليس بدين المعجزات التي تكف العقل عن الرؤية. وتضطره بالإفهام القاهر إلى التسليم. وعلينا أن ندرك أنّ المعجزة معجزتان كي نطلب المعجزة التي ينبغي أن تطلب. وتتورع عن طلب المعجزة التي لا تجدي أحداً من العقلاء... فالمعجزة التي تتجه إلى العقل موجودة يلتقي بها من يريدوها حيثما التف إليها. ولكنها غير المعجزة التي تقنع من لا يقتنع بتفكيره. ومن لم يقتنع بتفكيره فلن تهديه المعجزة من ضلال. والإسلام دين متناسق مستجيب للفهم والموازنة بين الأمور، فهو دين المعجزات في كل شيء ولكنه ليس بدين المعجزة التي تفهم العقل ولا تقنعه. لأنه دين العقل والتفكير فيه فريضة". (العقاد: 80: 1986)

إنّ الأدلة المادية والحسية ليست مفيدة جداً في تحقيق أهداف الهداية. والسبب هو أنّ الأشخاص الذين يؤمنون ويعتمدون رسالة الأدلة المفهومة والضمنية لا يحتاجون إلى الأدلة الحسية، وعلى عكس ذلك، الذين لا يؤمنون بهذه الأدلة لا يؤمنون بشكل عام بالدلائل الحسية أيضاً. علاوة على ذلك، يفضل القرآن دلائل المعاني والمفاهيم لأنها تلمس العقول والقلوب مباشرة وتزيد من قدرة التفكير واستخدام العقل، وبالتالي تمنح الرضى والثقة. وأثناء شرح الآية القرآنية: "وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ..." (29: 48-51) يقول ابن عاشور: "كونه مما يتلى، فإنّ ذلك أرفع من كون المعجزات الأخرى أحوالاً مرئية لأن إدراك المتلو إدراك عقلي فكري وهو أعلى من المدركات الحسية، فكانت معجزة القرآن أليق بما يستقبل من عصور

العلم التي تهيأت إليها الإنسانية". (عاشور، 1983).

الطريقة الخامسة: قواعد فعالة للحجة العقلية والتفكير: لاحظ العلامة الفراهي (2008) بأنّ القرآن لا يتضمن فقط العديد من الحجج العقلية والأمثال لاستخدام العقل، ولكنه يوفر العديد من القواعد والأسس للتفكير العقلي والتأمل والتي تختلف تماماً عن القواعد الحديثة في كل مكان.

يقول الأستاذ الفراهي: "كنت أجد في القرآن أصولاً للاستدلال والنظر أقرب إلى العقل وأرسخ في القلب من أصول منطق اليونانيين، ودلائل أصح وأثبت من أدلة الفلاسفة والمتكلمين، وأتعجب ممن يتغافل عنها". (الفراهي، 21: 2008)

على الرغم من أنّ الفراهي لم يستطع تقديم كل تلك القواعد والمبادئ، إلا أنّ ما قدّمه لديه الكثير لمزيد من التداول والاستخراج لأولئك الذين يريدون الاعتماد على هذا الخط باستخدام عقولهم. ومن هذه المبادئ هو أنّ أفضل طريقة للتحقق من عقلانية هي أنه يجب أن يكون متوافقاً مع الطبيعة البشرية.

يقول الإمام الفراهي: "القرآن جعل بناء الحجة على اليقين الضروري الفطري الذي لا يسع العقل أن يعصيه، وهو ينبوع جميع علومه وأعماله ونظره واستدلّاه، وهو مودع في غور فطرة النفس، مكنون كاللب وراء القشور، والروح وراء الستور". (الفراهي، 93: 2008).

الطريقة السادسة: وفرة الأدلة العقلية الدقيقة: القرآن هو كتاب الأدلة، وفيه الكثير من البراهين والحجج التي تركز وتعالج العقل والقلب. تستند هذه الأدلة إلى الاعتقاد المكنون في البشر. ومع ذلك، فهي ليست واضحة ومفصلة كما نجدها في كتب أخرى. كما أنّ هذه ليست بالترتيب المتناسك الذي اعتدنا عليه. بدلاً من ذلك، يتم تقديمها بشكل حسابي للغاية. لا تستطيع العقول الغافلة وغير النشطة الإمساك بها. إنهم يحتاجون إلى عقول حادة. إنها المعضلات الموجودة فقط للعقل والتفاهم للوصول.

إنها جزء لا يتجزأ بطريقة إذا استخدم شخص سببه وأخذ عقله إلى العمل فسيستمر الكشف عن أدلة قوية وآيات واضحة. وبما أن قوة الأدلة هذه تنكشف بعد عملية طويلة للتفكير؛ تظهر كالإكتشاف وتعطي شعوراً عميقاً بالرضى.

يقول العلامة الفراهي: "من أعظم غاية القرآن تربية العقول وتعليم الحكمة كما صرح به في مواضع كثيرة، فذلك أكثر من لطائف الأدلة ليتعلموا التفكير والاستنباط، ولذلك كثيراً ما يكتفي بالتنبيه على الدلائل والحث على استنباطها، بل قد ينبّه على الأصول الفطرية التي يبنى عليها الاستدلال كما هو مبسوط في موضعه. فلما كان القرآن من هذه الصفة من الغور واللطافة خفي كثير من دلائله على من يتوهمه خطاباً عاماً. فلو فصل القرآن كلّ دليل بغاية البسط لم يكن تربية للعقول بل صارت الأفهام منفصلة، كما ترى بعض الطلاب يحفظون ما لقنوا وقصارى جهودهم الحفظ. فبعث الله تعالى رسوله أحسن معلّم للحكمة، فلم يكتف بإعطاء العلم المحدود بل جلّى بصيرة العقل وهياًه للرفق إلى أعلى منازل، ولا يكون ذلك إلا بأنّ نبّه ليطلع إلى أصول الفكر والنظر، وليقتني الحق اليقين علماً والطهارة التامة خلقاً، وكل ذلك من باب تعليم الحكمة، وبالجملة فأكثر دلائل القرآن إنما هي لوازم تجلب النظر، وقوارع تنبّه الفكر، وكان المخاطبون أذكياء فصحاء أهرع الناس إلى لطائف المعاني وأشدّهم تهذيباً لفضول الكلام، فلو فصل لهم الدلائل المرتبة على طريق المنطق لأبعدهم عن نهج الفطرة في الفكر". (الفراهي، 2008:27).

العوائق التي تعترض لاستخدام العقل وعلاجها: استخدام العقل جزء من الطبيعة البشرية مثل استخدام الحواس، ولكن في الواقع، يثبت البشر أنهم عاطلون جداً عن استخدام العقل والفكر. في عالمه الصغير يسيطر ويتحكم على كل شيء، لكنه في عالم أوسع وأكبر يقصر عن أيّ فهم ويهيم أو يتيه دون أي دليل.

يقول العلامة الفراهي: "نجح سعيهم في الرياضيات والهندسة وكثير من الطبيعيات. ثم ضلّلتهم في الإلهيات وتهافتهم واعتمادهم على الظنون الواهية دليل على ضرورة

النبوة. فإن أذكى الناس إذا تحقّقوا في أمر فلا بد أن ذلك الأمر لا تستقل به العقول وإنما تكون فيه تابعة. ألا ترى البصر لا يستقل بنوره بل يستبصر بالنور الذي يأتيه فيفرح به ويقبله. فن أغمض عينيه عن النور الذي يدخل عليه ظلم نفسه وألقاها في الظلمة. فكذلك شأن العقل فطر لقبول النور فيطمئن به إذا وجد ويطلبه، ولكن غروره عن قبول الحق يسلبه". (الفراهي: 2008:127).

وقد ذكر القرآن بعض أسباب العجز الفكري وعدم فعالية العقل واقترح الحلول لذلك. وبعض منها كما يلي:

الانشغال بالأشياء الحسية والمادية: إنّ مجال عمل التفكير يتجاوز مجرد الأشياء الحسية والمادية في العالم. فالذين يحصرّون أنفسهم في مثل هذه الكيانات الجسمية والمادية، وليس لديهم مجال لما هو أبعد منهم، يحرمون أنفسهم تحقيق الاكتشافات الفكرية. وقد أدين هؤلاء الناس بشدة في القرآن. وبكلمة الفراهي: "... لما كانت الغفلة عما هو فوق هذه الحياة الدنيا غالبية على أكثر العقول لشدة انهماكهم في مشاغل هذه المحسوسات الحاضرة وعلومها، فع أن دلائل القرآن قريب من الفكر بل منبهة على الفكر وأصول النظر تراهم لا يتفكرون، ولذلك قد أكثر القرآن من الحث على التدبر والتفكير مثلاً قوله تعالى: "أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا" (محمد: 24)، وهذا كثير جداً. والغفلة هي عدم النظر فهي سبب عدي ولكنها إنما نشأت من الإنهماك في الظاهر الحاضر، وهذا عطّل قوى العقل وأغلق غرف الإدراك لما هو المشهود في الأنفس والآفاق من مظاهر الجلال والجمال والحكمة والرحمة. فصاروا لا يرون إلا الظاهر المحسوس كالبهائم كما قال تعالى: "لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَانُوا لَنَا نَعَمَ بَلْ هُمْ أَصْلٌ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ" (الأعراف: 179). وقال تعالى في هؤلاء: "يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ" (الروم: 7). وقال: "فَأَعْرِضْ عَنْ مَّن تَوَلَّىٰ عَن

ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن أَهْتَدَى" (النجم: 29-30).

النص حول قلة الرغبة في الأفضل: عندما يصبح الإنسان سعيداً ومكتفياً بأشياء صغيرة ومنخفضة ويعيش عيشاً بسيطاً، فثقل هؤلاء الناس يتسببون في تقييد أفكارهم لقدرتها. وهؤلاء الناس لا يستفيدون من الوحي، ولا يعطيهم العقل أي إرشاد. تجلب العقول الصدارة، لكنها تتراجع وتراجع لعقد. إنهم يمرضون في مثل هذه الحالة. فيحاول القرآن علاج مرضهم.

يقول الفراهي: "...فإنّ سقم العقل ليس بأعجب من سقم البدن. ألا ترى الحواس تسقم بل تبطل وتعدم، وإذا كان ذلك كذلك فلا بدع ولا عجب أن يعتري العقل أو الفؤاد مرض فيغشى عليه بل يطفئ نوره فيعميه. فالعلم الذي أودع في فطرة الإنسان لا يلزمه أن يكون ظاهراً بيناً على الناس كلهم، بل لجلالة قدره هو أقدر أن لا تصل أيدي المشتغلين بالدني السافل، المستكبرين عن خضوع التعلم ومشقة النظر، فإنّ الاشتغال بالأسفل يعوق عن المعالي، ولذلك قد أكثر القرآن من الدلالة على أدواء النفوس. صحة العقل والفؤاد أهم من صورة الاستدلال ورعاية شروط الأشكال، كما أنّ صحة النظر أهم من صحة المنظار، والمنطق إنما يبحث عن صور الأدلة وأجزائها، ولكن الأهمية كل الأهمية للنفس المفكرة وفكرتها وبناء عملها وإيقانها". (101-2/2008)

اتباع الظنون والأهواء: لا يتعارض الوحي مع العقل أبداً، بل يتعارض كلاهما مع الظنون والأهواء. لذلك كثيراً ما يحذر القرآن عن اتباعها ومن يتبعها يتجاهل مطالب العقل.

يقول العلامة الفراهي: "إنّ المؤمن يتبع العقل في جميع أحكامه، والكافر يتبعه فيما يوافق هواه وظنه كما قال تعالى: "إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمْ الْهُدَى" (النجم: 23). فهو النفس لهذه الحياة الدنيا يثبطها عن القصد إلى أعلى الخير، وظنونها الباطلة تحجبها عن النظر في محض الحق، ولم أر كالظن

والهوى عدواً للحق والتقوى. فهما عثرتان في طريقي العلم والعمل". (2008)

الخلاصة: يهدف القرآن إلى بناء مؤمن يخترط بثقة وإقناع في النقاش حول رسالته ونقلها إلى الآخرين. إنه يريد تحضيره حتى يتمكن من الإقناع بالعقل وعدم الإغراء بالجنس أو الخوف. تكمن القوة الحقيقية في الإقناع عقلياً. يحتوي القرآن على تحذيرات وكذلك أخبار سعيدة، ولكن هذه ليست لإغلاق صوت العقل، بل هي لإيقاظ العقل النائم. لا يعيش المؤمن الذي بناه القرآن في خوف من فقدان قناعاته أو قناعة الآخرين بسبب فشل العقل في نظامه العقائدي. ولا يشترط الموت للمرتدين أو إغلاق التبشير ونشر الأديان الأخرى لحماية دينه واعتقاده. في الواقع، إنه في المقدمة لحماية حرية العقيدة والنشر لأنها ستمنحه الفرصة لإثبات أن إيمانه سليم عقلياً. وبدون أي شك، يمكن القول إن اللجوء إلى القرآن سيزيد حقاً العقل والتفكير والبصيرة والحكمة، التي تؤدي إلى حياة ناجحة وسعيدة. كما أوضح العلامة الفراهي بأن النجاح مشروط بثلاثة أشياء: العقل والعلم والعمل الصالح.¹

¹ مع الشكر لمجلة "البرهان"، المجلد: 3، العدد: 1 (2018)، ص 1-15

المصادر والمراجع

1. العقّاد، محمود، عبّاس (1986)، التفكير فريضة إسلامية. مصر: دار الكتب.
2. الفراهي، عبد الحميد (1340هـ)، جمهرة البلاغة. أعظم كره: مطبعة معارف.
3. الفراهي، عبد الحميد (1975)، القائد إلى عليون العقائد. نيودلهي: منشورات البلاغ.
4. الفراهي، عبد الحميد (1991)، دلائل النظام. أعظم كره: الدائرة الحميدية.
5. الفراهي، عبد الحميد (1991)، أساليب القرآن. أعظم كره: الدائرة الحميدية.
6. الفراهي، عبد الحميد (1994)، إمعان في أقسام القرآن. دمشق: دار القلم.
7. الفراهي، عبد الحميد (2002)، مفردات القرآن. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
8. الفراهي، عبد الحميد (2008)، حجج القرآن. نيودلهي: منشورات البلاغ.
9. الفراهي، عبد الحميد (2011)، التكميل في أصول الشرائع. أعظم كره: الدائرة الحميدية.
10. الفراهي، عبد الحميد (2008)، نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان. أعظم كره: الدائرة الحميدية.
11. الفراهي، عبد الحميد (2001)، في أصول القرآن. الأردن: دار عمار.
12. فرحات، إقبال أحمد (2018)، منهجية الإمام الفراهي في بحث المسائل العقدية. العدد الخاص لمجلة الهند (الجزء الثاني). المجلد: 7 (481-447)
13. ابن عاشور، مدم طاهر (1983)، التحرير والتنوير. بيروت. مؤسسة التاريخ العربي.
14. ابن تيمية (1991)، تعارض العقل والنقل: دت. دار الكتب.
15. الندوي، سيّد سليمان (2000)، سيرة النبي (3): أعظم كره. أكاديمية شبلي.
16. قطب، سيّد (1996)، في ظلال القرآن (3): القاهرة. دار الشروق.
17. سبحاني، محمد أسد (2003)، إمعان النظر في نظام الآي والسور: الأردن. دار عمار.
18. سبحاني، محمد أسد (2005)، البرهان في نظام القرآن: الأردن. دار عمار.

مجلة الهند — وجهة نظر الإمام الفراهي عن العقل

19. سبحاني، محمد أسد (2016)، التحرير والتجوير في أصول التفسير: الأردن. دار عمّار
20. سبحاني، محمد أسد (2017)، عقد الجمان في تدوين تدبر القرآن: الأردن. دار عمّار
21. سبحاني، محمد أسد (2018)، مع الإمام الفراهي في كتابه: القائد إلى عيون العقائد، العدد الخاص لمجلة الهند (الجزء الثاني)، المجلد: 7 (713-701)

منهج عبد الحميد الفراهي في بيان المسائل الخلافية

من خلال كتابه: "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح"

- د. عبد الوحيد شيخ المدني¹

العلامة عبد الحميد الفراهي من أبرز العلماء الذين اشتهروا بالهند في القرن العشرين، وهو مفسر قلّ نظيره في عهده ومثيله في عصره، فقد بلغ قمة المجد من العلم والمعرفة، وخاصة في التأمل في القرآن وتفسيره وفهم معانيه وأصوله، وكذلك كان له سعة النظر في الفلسفة وفي كتب أهل الكتاب. وله مؤلفات عديدة في الموضوعات المختلفة من علوم القرآن والتفسير والحديث والأدب والفلسفة والبلاغة والشعر والمنطق وفي غيرها الموضوعات.²

أما آراؤه في المسائل الخلافية فله منهج خاص في تقديمها، فهو يستدل فيها بالقرآن والسنة والآثار وأقوال السلف والتاريخ. ومن تلك المسائل المشهورة التي وقع فيها الخلاف بين علماء المسلمين من جهة وبين المسلمين وأهل الكتاب من جهة أخرى. وهي مسألة تعيين الذبيح من ولدي إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فقد اختلف فيها السلف ومنهم من رجع أنه يستحق عليه الصلاة والسلام ومنهم من يرى أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام على القول بالصواب، وقد اعتنى بهذه المسألة الإمام الفراهي اعتناءً حتى أفرد لهذا الموضوع كتاباً خاصاً سماه "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح"، ولهذا الصنيع منه أسباب: منها أنه يعتبر أنّ لهذه المسألة مكانة عظيمة في الملة الإسلامية، وأنّ في القرآن

¹ أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الإسلامية للعلوم والتكنولوجيا، كشمير

² له إمعان في أقسام القرآن، والتكامل في أصول التأويل، وأساليب القرآن، وحكمة القرآن في علوم القرآن، ونظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان في التفسير، وجمهرة البلاغة في البلاغة، ومفردات القرآن في اللغة وغيرها من المؤلفات.

آيات كثيرة تتعلق بها ويتوقف فهمها على تحقيق القول في هذه المسألة، وأن اليهود بالغوا في كتمانها وارتكبوا تحريفات وأكاذيب في أمر إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد تحدّث عن هذه الأسباب بقوله: "فهذا كتاب من مقدمة (نظام القرآن) أفردته لتعيين مَنْ قَرَّبَهُ إبراهيم عليه السلام من ولديه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، وسمّيته مؤرخاً (الرأي الصحيح في من هو الذبيح). والباعث على جعل هذه المسألة موضوعاً لكتاب مفردٍ أمور: الأول- هو مكانتها العظمى في ملتنا إذ يتعلق بها مناسك الحج والعمرة... والثاني- أنّ في القرآن آيات كثيرة يتوقف فهم تأويلها ونظامها على معرفة هذه المسألة وما يتعلق بهذا الذبح... والثالث- أنّ اليهود لم يبالغوا في كتمان أمرٍ مثل مبالغتهم في ذلك فإنهم قد ارتكبوا تحريفات وأكاذيب صريحة في أمر إسماعيل والكعبة.¹

كتب الإمام الفراهي هذا الكتاب وردّ فيه على أكاذيب اليهود وتحريفاتهم في مسألة الذبح وكذلك تعرض لإبطال ما زعموه منها، وأثبت أنّ إسماعيل هو الذبيح الحقيقي. وحينما نستعرض أسلوبه في تقديم استدلاله في مسألة تعيين الذبيح في الرأي الصحيح نجد أنه فيها أيضاً يستند إلى الاستدلال بالقرآن الكريم، وبالأحاديث والآثار والتاريخ وأقوال العلماء، وبالتوراة وكتب علماء اليهود، وقد جعل الاستدلال بالتوراة وكتب اليهود وأقوال علماءهم مقدمة من الاستدلال بالقرآن والحديث وأقوال مشاهير العلماء من المسلمين ليكون برهاناً واضحاً وحجة صريحة عليهم، كما ذكر هذا في مقدمة الكتاب فقال: "وجعلتُ الكتاب بعد المقدمة ثلاثة أقسام وخاتمة: فالقسط الأول في الاستدلال بالتوراة وبما اعترف به علماء أهل الكتاب، ليكون ذلك حجة عليهم. والقسط الثاني في الاستدلال بالقرآن المجيد وحده. والقسط الثالث فيما روي في المسألة من الحديث والآثار، وأقوال مشاهير العلماء، والاستشهاد بأحوال العرب وأقوالهم قبل الإسلام".²

¹ عبد الحميد الفراهي: الرأي الصحيح في من هو الذبيح، ص 31-34

² المصدر نفسه، ص 35، 36

ومما جاء في القسط الأول الذي استدل فيه بالتوراة أنَّ إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذبيح الحقيقي، فقد قَدِّمَ لذلك أكثر من استدل: منها أنه كثر في كتبهم التبديل والتحويل، لذلك لا يصح لأحد أن يستدل بعبارات الكتب والصحف التي وقعت فريسة النقص والزيادة وتحريف الكلم عن مواضعه كما جاء في القرآن الكريم في سورة النساء "مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ" (سورة النساء 46)، وهنا جاء العلامة الفراهي بعبارته من كتاب "سفر أرميا عَلَيْهِ السَّلَامُ" التي تقول: "كيف تقولون: نحن حكماء وشريعة الرب معنا حقاً إنه إلى الكذب حولها قلم الكتابة الكاذب خزي الحكماء ارتاعوا وأخذوا- أي هم في حيرة- ها قد رفضوا كلمة الرب فأية حكمة لهم".¹ ويتضح هنا الأمر بأنه لا اعتماد على أقوال وافقت هواهم لأنهم قد بدلوا وحرّفوا كثيراً. ومن الاستدلالات التي قدّمها قصتهم التي يذكرونها، ويرون أنَّ الله تعالى أمر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بذبح ابنه الوحيد، ولا شك أنَّ إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ولد قبل إسحاق بأربع عشرة سنة وهذا دليل على أنَّ التضحية كانت قبل ولادة إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ. وهناك جاء الفراهي بعبارته من كتاب "سفر التكوين" لليهود التي تقول: "وكان أبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام". و"كان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحاق ابنه".² فالموصوف بالابن الوحيد هو إسماعيل ولا يصح وصف إسحاق به لأنه لم يكن وحيداً بل كان قبله إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ. يتجلى من هذا الأمر أنَّ إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ هو ذبيح الله دون غيره، وهذه الطريقة من أجمل الطرق في باب المناظرة والمجادلة حيث ذكر للخصم نصّاً من كتابه المعتمد لدى المخالف لما يعتقده فسقطت حجته، وكذلك أثبت بأنّ موضع الذبح هو المروة عند الكعبة ومن المعروف أنَّ إسماعيل هو الذي كان بمكة المكرمة وليس إسحاق

¹ المصدر نفسه، ص 44

² المصدر نفسه، ص 51

عَلَيْهِ السَّلَامُ. وبهذا أسقط بقية الحجج من كتبهم واحداً تلو الآخر، ونظراً لأهميته ذكره الفراهي وقدمه حتى على الاستدلال بالقرآن الكريم.

وأما القسط الثاني فقد خصّه للاستدلال بالقرآن الكريم، ولذلك ذكر بعض الأصول للتدبير في قصص القرآن وحججه. وأما ذكر الأدلة، فمنها أن ذكر الذبيح موصول بالدعاء "رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣١﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ" (سورة الصافات: 100-101)، فلا بد أن يكون هذا الغلام الذي أعطاه الله إجابة للدعاء أول مولود وهو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ. والدليل الآخر هو قوله عز وجلّ عن إسماعيل في القرآن: "سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٢٥﴾" (سورة الصافات: 102)، وإسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ مع كثرة ذكره في القرآن لم يوصف بكونه صابراً وأما إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد وصفه الله تعالى به كما جاء في سورة الأنبياء: "وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾" (سورة الأنبياء: 85) وتقديمه في الذكر أبلغ في بيان اتصافه بهذه الصفة. وكذلك وصف إسماعيل بالصبر في آيات عديدة أخرى تدل على أنه الذبيح الحقيقي مثلاً من سورة النجم آية 37، وسورة مريم آية 54، والصافات آية 113، والبقرة آية 128، فضلاً عن الاستدلال بآيات القرآن هو يرى أن عدم تسمية الذبيح وعدم التصريح به دليل على أن الذبيح هو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ كما يقول: إنه من عادة القرآن الصفح والإعراض عن اللجاج الذي لا ينقسم، لكيلا يشتغل الخصم به، ويترك ما يلقي إليه من الحجة الدامغة. وذلك أن اليهود قد أدخلت اسم إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ في قصة الذبح فلو صرح القرآن بخلاف ذلك لتمسكوا بما في كتبهم، وجادلوا بباطلهم، وأنكروا بما جاء به النبي لخلافه الصريح بما عندهم؛ فالقرآن يلزمهم ما كان موجوداً في صنفهم، أو كان ظاهراً بيناً عند العقل، لكيلا يترك لهم متمسكاً وعذراً، وقد أشار إلى ذلك في غير ما آية تارة يخاطب النبي ويأمره بالصفح عنهم، وتارة أخرى يخاطب المسلمين بترك جدالهم إلا بحسن القول، وتارة ثالثة يخاطب أهل الكتاب ويدعوهم إلى

مسلماتهم".¹ فلو كان الصحيح بأنّ الذبيح هو إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ ما كان لعدم التصريح به مانعاً لأنهم يعتقدون به وإنما لم يصرح القرآن باسم الذبيح لكيلا يجادلوا ويتعنّوا. وأما القسم الثالث فقد بينّ فيه الروايات عن سلفنا الصالح تجاه هذه المسألة. وأكد على أنه لا تصح رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم فيها، ولقد وردت بعض الروايات عن بعض السلف على كون إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذبيح لكن هو يرى أنّ هناك الحاجة إلى النظر إليه من جديد، ويرى أنّ النظر في الروايات في هذه المسألة يدلّ على ثلاثة أمور: "الأول: أنّ المسلمين براء من التعصب فلم ينكروا ما روي لهم من كون إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ هو المقدى.

الثاني: أنّ هذه الروايات مأخذها أهل الكتاب.

الثالث: أنّ أهل النظر والعلم بالكتاب أيقنوا بأنّ الذبيح هو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ".² فإذا كانت هذه الروايات أصلها الإسرائيلية فلا اعتماد لها فيها ولذلك علينا أن نرجع إلى ما ذكره المرحون وإلى ما دل عليه كتاب الله تعالى. وقد ورد فيها عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: "المقدى إسماعيل؛ وزعمت اليهود أنه إسحاق، وكذبت اليهود".³ هذا يدلّ على مذهب حبر الأمة في هذه المسألة وإن كانت هناك رواية أخرى قد نقلت عنه ومأخذها الإسرائيلية، فتناقله الناس عنه إعراضاً عما كان يعتقدوه هو. وقد ذكر الفراهي أقوال العلماء في هذه المسألة، فمنهم من رجح كون الذبيح هو إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ مثل ابن جرير الطبري، ومنهم من ذهب إلى أنّ الذبيح هو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ كابن كثير ومنهم من توقف مثل الخازن والبغوي والسيوطي.

¹ المصدر نفسه، ص 90

² المصدر نفسه، ص 109

³ ابن جرير الطبري: تاريخ الطبري، 278/1

وانتصر الفراهي لقول ابن كثير وانتقد ما ذهب إليه ابن جرير ومدح الذين توقفوا على حسن أمانتهم لأنهم لم يتسرعوا إلى الحكم إذ لم يمكن لهم أن يقدموا رأياً صريحاً فيها. وبهذا تبين أن الإمام الفراهي كان من أقدر العلماء في خوض المسائل الخلافية فأحسن فيها، فقد ذكر أولاً نصوصاً كثيرة من الكتب التي تعتبر مهمة عند الخصم فألزمهم بها وأسقط أدلتهم، ثم ذكر أدلة من القرآن الكريم لأنه المنبع الحقيقي والفرقان العظيم، وبعد ذلك ذكر ما في كتب المسلمين وعلمائهم حتى بين هذا الأمر في طريق أحسن وأجمل.

وخير ما أختتم به هذا المقال ما قاله الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي عن هذا الكتاب: "الكتاب كله من أوله إلى آخره نمط عالٍ من التحقيق والتأليف ومثل خليق بالاحتذاء في أدب الخلاف والمجادلة الحسنة في أسلوب علمي يتميز ببراعة التحليل ودقة الاستنباط وقوة الاستدلال وحسن التأني للمعضلات ونقد الآراء في تواضع جمّ واحترام تام لأصحابها مع إحكام النسيج ونهاية الإيجاز ونصاعة البيان".¹

¹ مجلة الهند، 632/4-1/6 (يناير-ديسمبر، 2017م)

"هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ"

- د. أورك زيب الأعظمي¹

قال الله تعالى:

"قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾". (سورة الحجر)

وقال: "وَاللَّاتَمَّ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٤٣﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٤٤﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٥﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٧﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿٤٨﴾ يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾". (سورة النحل)

عندما يسير أحد في الطريق فتأتي له صلتان: "على" و"في" كما قال عنتر بن شداد العبسي:

حنكتني نوائب الدهر حتى أوقفتني على طريق الرشاد²

وقال كعب بن زهير:

أرعى الأمانة لا أخون أمانتي إن الخؤون على الطريق الأنكب³

¹ مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المالية الإسلامية، الهند

² شرح ديوانه، ص 60

³ ديوانه، ص 11

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

تمنّى رجالٌ أنْ أموت وإنْ أُمْتُ فتلك سبيلي لستُ فيها بأوحد¹

وقال امرؤ القيس:

ومجدّة نسأتها فتكمّشت رتكَ النعامة في طريق حام²

وقال مسكين الدارمي:

وبينهما المضطر يلتمس التي جميعهم فيها بكل طريق

فذاك تدانيه فتدنيه مرة وتجفوه أخرى منك فعل رفيق³

ولكن الطريق ينتهي إما "إلى" أو "اللام" كما قال أبو كبير الهذلي:

أم لا سبيل إلى الشباب، وذكره أشهى إليّ من الرحيق السلسل⁴

وقال أبو كبير أيضاً:

أزهيرُ هل عن شيبة من مقصّر أم لا سبيل إلى الشباب المُدير⁵

وقال ذو الرمة:

ليس لهم في حسبٍ رباطٌ ولا إلى قصد الهوى صراط⁶

¹ ديوانه، ص 39

² ديوانه، ص 157

³ ديوانه، ص 55

⁴ ديوان الهذليين، 89/2

⁵ ديوان الهذليين، 100/2

⁶ ديوانه، ص 154

وقال طرفة بن العبد:

وكيف تضلُّ القصدَ والحقَّ واضحٌ وللحقِّ بين الصالحين، سبيل¹
وقال عمرو بن الأهتم:

وكلُّ كريمٍ يتقي الذمَّ بالقرى وللحق بين الصالحين طريق²
وقال عامر بن الطفيل:

بالخيل تعثر في القصيد كأنها حدّاً تتابع في الطريق الأqvص³
وأما الصلة "عن" فتستخدم للجر كما قال زبّان بن سيّار بن عمرو المري:

أبني منولة قد أطعتُ سراتكم لو كان عن حرب الصديق سبيل⁴
ولكن نجد صلة للبلوغ وهي "على" كما قال زهير بن أبي سلمى:

وأقصرْتُ عما تعلين وسدّدْتُ عليّ، سوى قصد السبيل، معادل⁵
وقال لبید بن ربیعۃ العامري:

مضوا سلفاً قصدُ السبيل عليهم بهيٍّ من السّلاف ليس بجيدر⁶
وقال جرير:

نفضخضتُ النطافَ ليعملاتٍ نواشطَ حين يستغطي البريرُ

¹ ديوانه، ص 67

² شرح ديوان الحماسة، 973/2

³ ديوان المفضليات، ص 361

⁴ ديوان المفضليات، ص 350

⁵ ديوانه، ص 88

⁶ ديوانه، ص 70

فسافت ثم أدركها نَجَاءً على البَصَرَاتِ يقصد أو يجور¹
وقال أبو الأسود الدؤلي:

لعمري لقد أوصيتُ أمسٍ بحاجتي فَنِيَّ غيرَ ذي قصدٍ عليّ ولا رُوْفُ
ولا عارفًا ما كان بيني وبينه ومن خيرٍ ما أدلى به المرءُ ما عَرَفُ²
وقال أبو حية النخيري:

لا تقفها على السبيل ودعها يهدا شوقُ مَنْ عليها السبيل³
وقال تعالى: "وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّكُمْ أَجْمَعِينَ ٥".
(سورة النحل)

وعندما نعيد النظر فيها نجد أنّ وصف "قصد"⁴ سبق لفظ "السبيل" فهذا يعني أنّ صلة
"على" هنا يمكن أن تكون للسبيل أو للقصد إلا أنّ دخولها على "القصد" أعمّ وأشيعُ.
وأما الصلة "على" في قوله تعالى: "صِرَاطٌ عَلَىٰ مُسْتَقِيمٍ" فاختلط الأمر على المفسرين
لمجرد وصف "مُسْتَقِيمٍ" فلو جاء "قصد" أو "سبيل" لما اختلط وهذا عندي ينوب
"قصدًا" الذي يعني "مستقيمًا وسبيلًا" أو "مستقيمًا" مضمّنًا "قصدًا" فمعنى قوله تعالى:
"هَذَا صِرَاطٌ عَلَىٰ مُسْتَقِيمٍ" أي هذا صراط مستقيم قصد علي⁵.

¹ ديوانه، ص 179، البَصَرَات: حجارة رخوة.

² ديوانه، ص 128

³ مجلة المورد، 142/1/4

⁴ والدليل على كون "القصد" وصفًا للسبيل قول امرئ القيس:

والله أنجح ما طلبتُ به والبرّ خيرُ حقيقة الرحل
ومن الطريقة جائرٌ وهديّ قصدُ السبيل ومنه ذو دخل

ديوانه، ص 131

⁵ وكاد أبو حيان الأندلسي (البحر المحیط، 478/6) أن يقرب مني فقال: "الإخلاص الذي يكون في
عبادي هو صراط مستقيم لا يسلكه أحد فيضلل أو يزل".

وعلى هذا قال ثعلبة بن كعب الأوسي:

مضوا قصدَ السبيل وخلفوني فطال عليّ بعدهم الشواء¹
و"قصد البيل" هو سبيل الموت الذي لا يجور عنه أحد ويبلغه مستقيماً.

وهو الذي أراده كثير غزاة في قوله التالي:

الحقُّ أبلجُ لا تزيعُ سبيله والحق يعرفهُ ذوو الألباب²
ومن حسن الحظ أنّ الاستقامة أيضاً يأتي وصفاً للصراط كما قال روبة بن العجاج:

أركب ما دون الفجور البحت

فآل أولي واستقام سمّي³

وقال تعالى: "أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ" (سورة الفاتحة)

وقال أيضاً: "وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (سورة الأنعام)

فإذا مال أحد إلى اليمين أو الشمال فلا يمشي على الصراط المستقيم كما قال تعالى:

"قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ" (١٦) ثُمَّ لَا تِيْنُهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمَنْ خَلْفَهُمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ" (سورة الأنعام)

وقال: "أَقَمْنِ يَمْشِي مَكْبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" (سورة الملك)

¹ ديوان الشعراء المعمرين، ص 311

² ديوانه، ص 501

³ شرح ديوانه، 20/2، "استقام سمّي" أي أبصرت أمري ورجعت عن المآثم.

ومن هنا أخذ العباس بن الأحنف فقال:

لكلّ جفنٍ على خديّ على حدةٍ طريقةٌ دمعها مستوكفٌ ساري¹

فكلّ جفنٍ يصبّ الدمع لا يجري إلا على خدي مباشرة.

وهو خلاف الجور والاعوجاج كما قال الأعشى الكبير:

يثيران الجنادل كلياتٍ إذا جارا معاً وإذا استقاما²

وقال الأشهب بن رُميلة:

وآباءٌ إذا ما سيمَ خسفاً ألدُّ إذا تعرّضتِ الخصومُ

مضوا لسبيلهم وقعدتُ وحدي تجور بي المنونُ وتستقيم³

كما أنّ "الجور" خلاف "القصد" فقال أكرم بن صيفي: "لم يجز سالكُ القصد".⁴

واستعملت لها صلة "على" لنفس المعنى فقال أروطاء بن سبيّة المري:

أعوج بأصحابي على القصد تعلي بنا عرض كسريها المطي العرامس⁵

وقال قيس بن زهير:

ومارست الرجال ومارسوني فمعوّج عليّ ومستقيم⁶

¹ ديوانه، ص 111

² ديوانه، 65/2

³ شعراء أمويون، ص 241

⁴ جمهرة رسائل العرب، 28/1

⁵ مجلة المورد، 180/1/7

⁶ شرح ديوان الحماسة، 164/1

وقال الكميّ الأسدي:

أخذوا القصدَ واستقاموا عليه حين مالت زواملُ الآثام¹
هذا، وأما قول أغلبية المفسرين² بأنّ "علي" في قوله تعالى "هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ"
للإيجاب أي أوجب الله على نفسه أن يهدي الناس إلى صراطه فهذا ليس من سنن
الله بل منها أنه أودع في الإنسان التقوى والطغوى فإذا شاء المرء اختار سبيلَ
التقوى وإذا شاء سلك سبيلَ الطغوى.

¹ ديوانه، ص 499، أخذ القصد: اقتصد فالأخذ زائد

² قال الطبري (تفسير الطبري، 69/14) "إنه وعيد".

وقال الزمخشري (الكشاف، ص 561): "هذا طريق حقّ عليّ أن أراعيه".

وقال ابن عاثر (تفسير التحرير والتنوير، 52/14): "ومستقيم نعت لـ"صراط"، أي لا اعوجاج فيه
واستعيرت الاستقامة للملازمة للحالة الكاملة. وعلى مستعملة في الوجوب المجازي، وهو الفعل الدائم
الذي لا يتخلف كقوله تعالى: "إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى"، أي أنا التزمنا الهدى لا نخذ عنه لأنه مقتضى
الحكمة وعظمة الإلهية".

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. البحر المحیط لأبي حيان الأندلسي، دار الفكر للطباعة النشر وتوزيع، بيروت، 2010م
3. تفسير التحرير والتنوير للإمام محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، 1984م
4. جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، ط1، 2001م
5. جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة لأحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت.
6. ديوان أبي الأسود الدؤلي، صنعة: أبي سعيد الحسن السكّري، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، دار ومكتبة الهلال، ط2، 1998م
7. ديوان أبي طالب بن عبد المطلب، صنعة: أبي هفان المهزبي البصري وعلي بن همزة البصري التميمي، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط1، 2000م
8. ديوان الأعشى الكبير بشرح محمود إبراهيم محمد الرضواني، وزارة الثقافة والفنون والتراث، إدارة البحوث والدراسات الثقافية، الدوحة، قطر، 2010م
9. ديوان الشعراء المعمرين، للدكتورة شمس الإسلام أحمد حالو، دار الكتب الوطنية، أبوظبي، 2010م
10. ديوان العباس بن الأحنف، شرح وتحقيق: عاتكة الخرزجي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1954م
11. ديوان الكميت بن زيد الأسدي، جمع وشرح وتحقيق: د. محمد نبيل طريفي،

- دار صادر، بيروت، ط1، 2000م
12. ديوان المفضليات للمفضل الضبي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط6
13. ديوان الهذليين، الجمهورية العربية المتحدة، الثقافة والإرشاد القومي، طبعة دار الكتب، بيروت، 1996م
14. ديوان امرئ القيس، ضبطه وصحّحه: الأستاذ مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م
15. ديوان أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب، جمع وترتيب: عبد العزيز الكرم، ط1، 1988م
16. ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1986م
17. ديوان جميل بثينة، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1982م
18. ديوان ذي الرمة، تقديم وشرح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995م
19. ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح وتقديم: الأستاذ علي حسن فاعور، دار التبعات العلمية، بيروت، ط: 1، 1988م
20. ديوان طرفة بن العبد، شرح وتقديم: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2002م
21. ديوان كُثَيِّر عَزَّة، جمع وشرح: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1971م
22. ديوان كعب بن زهير، تحقيق: الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م
23. ديوان كعب بن مالك الأنصاري دراسة وتحقيق، سامي مكي العاني، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ط1، 1966م

24. ديوان لبید بن ربیعۃ العامری، دار صادر، بیروت، د.ت.
25. دیوان مسکین الدارمی، جمع وتحقیق: عبد الله الجبوري وخیل إبراهيم العقبة، مطبعة دار البصری، بغداد، ط:1، 1970م
26. شرح دیوان الحماسة، كتب حواشیه: غرید الشیخ، وضع فهارسه العامة: أحمد شمس الدین، دار الكتب العلمية، بیروت، 2000م
27. شرح دیوان روبة بن العجاج، تحقیق: د. ضاحي عبد الباقي محمد، جمهورية مصر العربية، مجمع اللغة العربية، ط:1، 2011م
28. شرح دیوان عنترۃ بن شداد العبسی، للعلامة التبریزی، دار الكتاب العربي، ط:1، 1992م
29. شعراء أمویون، د. نوري حمودي القيسي، مكتبة النهضة العربية، بیروت، ط:1، 1985م
30. الكشف عن حقائق غوامض التنزیل وعیون الأفاویل فی وجوه التأویل للزمخشري، دار الكتب العلمية، بیروت، د.ت.
31. مجلة المورد الفصلية الصادرة عن وزارة الثقافة والإعلام، دار الجاحظ للنشر، العراق

لمحات عن محاسن أخلاق الإمام عبد الحميد الفراهي

- د. محمد معتصم الأعظمي¹

الإمام عبد الحميد الفراهي (1863-1930م) من الشخصيات الهندية البارزة التي تتخذ أسماؤها على صفحات التاريخ العلمي العالمي. إنه أبدع مصطلح "نظام القرآن" وردّ فكرة "المحاكاة" في البلاغة كما أوجد طريقة سهلة لتعليم النحو العربي. له قصائد فارسية لا يشوبها شيء من الكلمات الأجنبية. خلف مؤلفات جليّة منها "نظام القرآن" وتأويل الفرقان بالفرقان و"جمهرة البلاغة" و"أسباق النحو" و"نوائف فهلوي". وأما ديوانه العربي فحدث عنه ولا حرج. حلاه الإمام بقصائد سياسية يفقدها الشعر العربي الذي قيل في شبه القارة الهندية.

وزيد في هذه العجالة أن نسلط الضوء على جوانب خلقية لحياة الإمام الفراهي صارفاً النظر عن جوانبه العلمية التي أكثروا عنها القول.

المواظبة على الصلوات: كان الشيخ الفراهي يقوم في الليل فيذكر الله ويعبده ويخضع إليه ويرى أن حلول مشاكل المسلمين في صلاة التهجد² وكان مخلصاً للرب وداعياً إليه حتى قال السيد سليمان الندوي إثر وفاته: كان الشيخ عبداً لله مخلصاً إليه الدين فلا يليق بنا أن نستغفر له فإنه كان وسيلة لمغفرتنا³.

وقال الشيخ عبد الماجد الدراياآبادي معترفاً بعلم الشيخ وفضله ومواظبته على الصلوات: "كان من أبناء عمته (العلامة شبلي)، الشيخ عبد الحميد الفراهي الذي كان بجرّاً للعلم

¹ نائب مدير تحرير المجلة ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها، كلية سيوري فيديا ساغر، بنغال الغربية، الهند

² مجلة "الإصلاح" الشهرية، 8/7

³ علامه حميد الدين فراهي آيك عظيم مفسر، ص 42

والفكر ومتزوِّداً للتقوى والعمل الصالح، ومتبحراً في الأدب العربي، ماهراً في علوم القرآن، ولم أر في حياتي رجلين واظبا على الصلوات أحدهما الشيخ الفراهي والثاني أكبر آبادي¹.

الالتزام بالسنة: كان الإمام الفراهي يشدد على اتباع السنة فيروي تلميذه أمين أحسن الإصلاحية تجربة معه:

"كان الشيخ يحاسب نفسه وتلاميذه وحتى أصدقاءه محاسبة شديدة لا تترك صغيرة ولا كبيرة ولذا قد سخط عليه بعض المثقفين الجدد. وحتى اعترض ذات مرة على جرّ إزارني فناقشته أشد نقاش وبررتُ موقفني ولكني رجعت عنه على قول حكيم منه والتسمت منه أن يقدّ ما ينجرّ من إزارني فطلب مني المقرض وقدّ ما كان حراماً".

و"كذا تناقشنا عن اللحية فأثبتُ موقفني بشدة وظلّ الشيخ يثبت دعواه في ضوء الأحاديث الواردة عنها فلما عكفت على موقفني بأنها لا تحتلّ من الأهمية ما يعطيها العلماء فقال: هبْ أنك على الحقّ ولكن تعرف أنّ شيئاً صغيراً يدلّ على كبريه فقلت: كيف كان ذلك فقال: خذ قليلاً من الرماد ثم ارم به تعرف وجهة الهواء وهكذا شأن اللحية التي توجّهك وجهة إخلاصك للدين"².

خشية الله تعالى: قد مضى أنّ تقواه كانت أفضل من معرفته ونذكر لكم مثلاً من كتاباته؛ فالإمام الفراهي كان يتأثر بالقرآن فيبكي حيث يجب البكاء ويفرح حيث يبدو الفرح والسرور. ومن مثل هذه المناسبات صورة الموج الحائل بين نوح وابنه فيقول الفراهي رَحِمَهُ اللهُ:

"ثم من أحسن البيان فيه أنّ هلاك ابنه صوّر بغتة وفي أسرع حالة، ومع ذلك هو

¹ آب بيق، ص 358

² تفسير نظام القرآن (ترجمة أردوية)، ص 20

أبين تصويراً. ولا أدر كيف ألقى في قلبك ما أجد في قوله تعالى: "وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ" [هود: 43] فيتمثل بين يديك الطوفان والسفينة "وهي تجرى بهم في موج كالجبال" [هود: 42] ثم ليرن في أذنك كلام الوالد الذي يحن إليه ويلطفه بقوله: "يَبْنَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ" [هود: 42] ثم بقوله: "لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ" [هود: 43] ثم يبئس، فيقع ما يقع. ولو رأيتني حين أكتب هذه الكلمات لوجدتني باكياً أرد حشجة الصدر. ومثل هذه السرعة ترى في قصة إبراهيم عليه السلام: "فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ" [البقرة: 125] وتذنبه أن يتأبرهيم" [الصفحات: 103-104] ولقد بكيت عليها كما أبكي اليوم على هذه".¹

الصدق: عرف أن الإمام الفراهي رَحِمَهُ اللَّهُ كان يسير على الصدق فلم يكن يكذب في أي من قضايا شخصية أو اجتماعية فيقول فيه:

"في المناسبات التي لا يرى فيها الناس حرجاً في الكذب أحاول فيها دوماً أن أصدق، وقد جربت منذ طفولتي أن من يتثبت بالصدق في مسيرة حياته لن يقرب منه الخسران".²

وفي هذا السياق روى الإمام حدثاً مثيراً للاهتمام به وهو: "عندما أردت سفري إلى لاهور لدراسة الأدب لدى الشيخ فيض الحسن السهارنفوري، وخرجت من البيت بعد وداع والدي، ووجدت والدي لدى الباب قائماً منتظراً بي فسألني: كم أعطتك والدتك من المبلغ؟ فظننت في نفسي أنني إن ذكرت له المبلغ الصحيح الذي أعطتني أمي، فمن الممكن أن يقلل والدي مما أراد إعطائه وكنت أريد ألا أكذب، لذا قلت بصراحة إنني لن أخبرك يا أبت. فسرَّ الوالد بهذه الإجابة الصادقة وقال: حميد لن يكذب، ومنحني أكثر مما كنت أمله".³

¹ جمهرة البلاغة، ص 120-121

² مختصر حيات حميد، ص 52

³ المصدر نفسه، ص 52

ويُروى أن الشيخ أمين أحسن إصلاحي سأل الإمام (رَحِمَهُ اللهُ) مرة لتقييم ميوله المبدئية: "أي الكتب التي أثرت فيك أولاً وأكثر؟ فأجاب: "قصص الأنبياء" وأضاف قائلاً: إني كنتُ أقرأ هذا الكتاب عندما كنتُ طفلاً على عمي التي كانت تحبني كثيراً، وكذا قال: إنها تأثرت كثيراً بأحداث هذا الكتاب وتأثرت أيضاً بعد قراءة قصص الأنبياء الكرام بأنه ينبغي للإنسان أن يكون في هذه الدنيا محباً لخلق الله وخائفاً منه كمثل هؤلاء الأنبياء".¹

القضاء على الأب: كان الشيخ رجلاً صادقاً وعادلاً للغاية حتى ولم يخفض جانبه إلى أعرائه وبنجار ذوي قرباه. فينقل تلميذه الشيخ أمين أحسن الإصلاحي واقعة عدل الشيخ وحسن ظن خصومه به كما يلي:

"كانت هناك قضية عقار ضد والد الشيخ وفي هذه القضية، جعل الطرف المعارض الشيخ الفراهي حكماً وتم تحويل القضية من المحكمة إلى الشيخ للحكم. ف قضى الشيخ فيها على والده مما أدى إلى خسارة جزء كبير من ممتلكات والد الشيخ (التي كانت ستنتقل في النهاية إلى الشيخ نفسه) تم استبعادها من حوزته".²

ونذكر حادثة أخرى من سيرته أنه مرة دُعي إلى المحكمة في قضية لطمَ فيها أخوه رشيد الدين خادمه لكمة مات فيها فطلب منه القاضي أن يدي بشهادته فقال الشيخ: لا شك أن أخي لطمه لكمة مات فيها الخادم ولكنه لم يرد بها قتله".³

حماية الجار ومعونة الفقراء: حين عيّن الشيخ عبد الحميد الفراهي أستاذاً مساعداً في قسم اللغة العربية بجامعة علي كره عام 1907م، كان يرافقه الشاعر الأردني الكبير إقبال أحمد خان سهيل، فروى بعضاً من الأخبار العجيبة عن تقوى الشيخ وخشيته

¹ مختصر حيات حميد، ص 52

² المصدر نفسه، ص 53

³ المصدر نفسه، ص 55

نذكرها فيما يلي:

- لما جاء الشيخ من مدرسة الإسلام بكراتشي إلى علي كره بلغه مبلغ قدره 1200 روبية هندية فأمرني الشيخ بأن أشتري إصدارات جديدة سعرها 1000 روبية فسألته عن السبب فقال: إن هذا المبلغ جاءني من كراتشي كعلاوة ولا أراها حلاً في حقي فأريد أن تشتري بها الكتب ولا أتورط في معصية".¹
- وذات يوم حوالي الساعة الثامنة صباحاً جاء إلينا رجل وكان معه عامل يحمل سجادة إيرانية بالية، وكان الشيخ الفراهي معنا فألح الرجل على شراء هذه السجادة. ولكن الفراهي منعه إذ لم يحصل حتى ذلك الحين على راتبه من الكلية، مع أنه كان معجباً بالسجادة فاعتذر وقال إنها قيمة جداً ولكن الرجل قال: الناس لا يدفعون حتى عشر روبيات لهذه السجادة، وعلى الرغم من أنني حددت السعر النهائي إلى خمس عشرة روبية. فدعاني الشيخ وسألني: "هل لديك شيء من الروبية؟" قلت: "لقد جاءت ثلاثون روبية من المنزل وأنفقت منها روبيتين أو ثلاثاً والباقية منها محفوظة عندي، فسألني إياها واشترتها بخمس وعشرين روبية واعتذر بأنه أعطاه أقل مما هي".²
- كان رجل غني أفقر وكان يتسول على معاذير منه حديثه كل يوم وكان الشيخ يعطيه ما يعطي كل مرة. فذات مرة جاءني وطلب مني أن أبلغ خطابه إلى الشيخ وكان الشيخ في بيته يستعد للكلية فأخذته وما بلغته إليه، والرجل الفقير ظل قائماً ببابه فلما خرج الشيخ شكاه إليه فتعجب الشيخ وإذ ذكر الفقير شخصي فعرفني وناقشني في أمر العون وقال: إننا أكلنا السحت إذا بقي جارنا وأهله جوعانين فقلت: ما كان لديك مال فقال: كنت أنت الغني فقلت: أبقى ذلك المال لإعداد الشيء..

¹ مجلة "تهذيب الأخلاق" الشهرية، 11/11/6

² المصدر نفسه، 12/11/6

فقال: كان بإمكانني أن أذهب إلى الكلية راجلاً وأعطيه سعر الركوب ثم أعطاه مبلغ الكراية وقال للرجل: اذهب وأطعم أهلَكَ وذهب إلى الكلية راجلاً¹.
عدم التعاون على المعصية: وحين إقامته بعلي كره خطر ببال السير سيد أحمد خان أن يترجم تفسيره الأردوي (تفسير أحمدي) إلى اللغة العربية، فاختار أولاً العلامة شبلي النعماني ولكنه اعتذره بسبب بعض انشغالاته ثم اختار له السير سيد الشيخ الفراهي ولكن الشيخ رفضه البتة وقال: "أنا لا أرغب في التعاون في نشر هذه المعصية"².
وهذا الواقع يدل على أن الشيخ كان ورعاً جداً ولم يكن يلين في أمور الدين، فصدع بما في ضميره ولم يخش سوى الرب تعالى.

الزهد في الدنيا: كان الإمام عبد الحميد شخصاً منعزلاً عن الدنيا بطبعه. فلم يعدل عن طبعه هذا في أي مكان بكراتشي كان أو بحيدرآباد أو في علي كره بل إنه ظل منفراً عن تلك المواضع في كثير من الأحيان.

وجاء في سيرته أنه كان معلماً في مختلف كليات وجامعات الهند العالية وتقلد مناصب عالية في مختلف الجامع وأنه قام ترجماناً للورد كرزون حين رحلته السياسية للساحل العربي والخليج الفارسي ولكنه لم يذكر هذا الأمر طول حياته كمفخرة له بل كان يتأسف عليه ويحزن.³

لا يخشى أحداً من لا يطمع: في عام 1914م انتقل الشيخ إلى حيدرآباد حيث تولى رئاسة "دار العلوم"، ولكن الشيخ قصر علاقاته ومهنته على التعليم في حيدرآباد، ولم يكن يحب الاتصال بأمرائها ونوابها، فلم يكن يلقي إلا من أهل العلم، وعلى الرغم من إصرار نظام حيدرآباد على لقائه لم يزره. وذات مرة لقيه فلم يخضع له بل قدم

¹ مجلة "تهذيب الأخلاق" الشهرية، 6/11/13-12

² مختصر حيات حميد، ص 36

³ علامه حميد الدين فراهي أبك عظيم مفسر، ص 11-12

إليه استقالته عن الدار ورجع إلى وطنه يخدم مدرسة الإصلاح الواقعة في منطقته. وفي ذلك أنه لما خرج من بلاطه سأله السير أكبر الحيدري: كيف كان حديثك معه فردّ عليه: مثله معكم فقال السير أكبر الحيدري: "الآن فهمنا سرّ الجرأة، فن لا يملك طمعاً لا يخشى أحداً".¹

البساطة: كان الشيخ بسيطاً في حياته بساطة أساتذة المدرسة وتلامذتها فلم يكن له خادم ولا موظف فكان يضع سريره بيديه كما يبسط عليه الفراش بنفسه فيقول الشيخ أمين أحسن الإصلاحي:

"كان يلبس ملابس عادية كمثلنا، ويجلس معنا على الخيش، ولم يكن هناك سوى جبينه المضيء ووجهه المنور مما يمكن من خلاله أن يحكم شخص غريب على عظمته بيننا، ولن يستطيع أحد أن يتخيل بعد رؤيته أنّ هذا هو مجمع البحرين للعلوم الشرقية والغربية والذي ظلّ يستفيد منه العلماء مثل العلامة شبلي النعماني".²

أيّهما أكثر تقواه أم علمه؟ كلّ من صحبه صعب عليه أن يحكم بين تقواه وعلمه أيّهما أكثر؟ فيقول الشيخ أبو الكلام آزاد:

"كان المرحوم الشيخ حميد الدين (عبد الحميد) من العلماء الحقّ الذين ميزتهم لم تكن العلم فحسب، بل كان ممتازاً بعمله أيضاً... وكلها لقيته أثر عليّ تقواه أكثر من علمه، والواقع أنه كان رجلاً تقياً حقاً في معناه، وكنا نغبت بطهارة قلبه وذكاء نفسه".³

ويقول العلامة سيّد سليمان الندوي:

"لم يكن الشيخ حميد الدين (عبد الحميد) رَحْمَةُ اللَّهِ فريداً في علمه وفضله فحسب، بل

¹ المصدر نفسه، ص 37-38

² مختصر حيات حميد، ص 54

³ مجلة "الإصلاح" الشهرية، 54/1/10

كان من أفضل الأمة في سلامة إيمانه وزهده وورعه".¹

ويقول غلام أحمد برويز:

"وسأكون قلقاً طول حياتي بأنني حُرمتُ زيارة الشيخ (الفراهي)؛ يمكن تقدير محبته وخوفه من الله بالقرآن من تفسيراته وعلمه".²

الاستشارة: وخلافاً للعلماء الآخرين فالإمام الفراهي كان يعرض ما كان يفكر ويرى لمعاصريه كي ينتقدوه ويعلقوا عليه. ومن مثل هذه العادات عرض ما كتب عن نظام القرآن والبلاغة العربية لابن عمته العلامة شبلي النعماني الذي كتب عنها مفصلاً في مجلته "الندوة". يقول الإمام نفسه:

"وكنْتُ أجد في القرآن أصولاً للاستدلال والنظر أقرب إلى العقل وأرسخ في القلب من أصول منطق اليونانيين، ودلائل أصح وأثبت من أدلة الفلاسفة والمتكلمين، وأتعجب ممن يتغافل عنها فتأكد عندي الحاجة إلى جعلها موضوع علم مستقل، وعرضت جملة منها على بعض الأذكياء من العلماء فألح عليّ بإتمامه غاية الإلاحاح. فرجوت أن يتقبله أهل النظر ويزول به بإذن الله ما منع الناس عن فهم ما جاء به القرآن من بوالغ الحجج لما اشتغلوا به من العلوم السافلة المبعدة عن استقامة العقل وسداد الفكر".³

عدم الاتباع بنكته: كان الإمام الفراهي، ولا شك فيه، عالماً كبيراً ومفكراً وشاعراً حكيماً ولكنه على الرغم من هذه الصفات العالية كان بشراً لم يكن معصوماً عن الخطأ فيمكن أن يخطئ كما يمكن أن يصيب في آرائه ولا سيما استنباطاته. لذا كان هو يمنع القراء أن يتبعوا ما يقدمه من النكت العلمية واللطائف فيقول،

¹ مجلة "الإصلاح" الشهرية، 54/1/10

² المصدر نفسه، 64/2/20

³ حجج القرآن، ص 21

مثلاً، في تفسيره الجليل:

"... فأما نظام آياته فقبل إيضاحه نرفع بعض المحجب عن الأسرار التي لا يحيط بعلمها إلا الله تعالى، ولكن تخرج منها لواضع للتوسّم. وإذ هي ليست بالنص الصريح، فلا يجب على العامة أن يؤمنوا بها".¹

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، 35/1

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. آب بيتي (سيرة ذاتية لعبد الماجد بالأردوية) للشيخ عبد الماجد الدراياآبادي، مكتبة فردوس، مكارم ناغار، لكناؤ، د.ت.
3. جمهرة البلاغة للإمام عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، الهند، ط2، 2016م
4. حجج القرآن للإمام عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، الهند، ط1، 2009م
5. علامه حميد الدين فراهي (سيرة الفراهي بالأردوية) لعناية الله سبحانه، مطبعة أسرار كريمي، الله آباد، الهند، ط1، 1978م
6. مجلة "الإصلاح" الشهرية الصادرة عن مدرسة الإصلاح بسرائير
7. مجلة "تهذيب الأخلاق" الشهرية الصادرة عن علي كره
8. مختصر حيات حميد (سيرة الفراهي بالأردوية)، ترتيب: عبد الرحمن ناصر الإصلاحي، مطبعة معارف، أعظم كره.
9. نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان للإمام عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، الهند، ط2، 2018م

رفع الإنجيل

- الإمام عبد الحميد الفراهي¹

ترجمة من الأردوية: د. هيفاء شاكري²

موضع النقاش: السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا اختفى الإنجيل المقدس؟ ولا نريد هنا أن نبدأ نقاشاً حول الأناجيل الأربعة الموجودة لدى المسيحيين وأنها تغيرت بسبب كثرة الأغلاط فيها، وأنّ الإنجيل الأصلي غير موجود، بل نناقش السبب: لماذا حدث هذا؟ لأنّ هذا الأمر غريب حيث يدفع إلى السؤال بشكل طبيعي عن السبب وراء إضاعة شعب لكتابه الذي أنزل عليه من السماء. الشواهد التاريخية لتحريف الأناجيل الأربعة بالرغم من كونها مقنعة، لا توضح السبب. بمعنى أنّ الشواهد المقدمة إلى الآن كانت من باب "إن"، ونحن هنا نريد أن نقدّم أمامكم الشواهد التي تدخل ضمن الإجابة على "لم؟".

ضرورة تعيين معنى كلمة "إنجيل": من الضروري أن نوضح قبل بداية البحث والنقاش أنّ معنى كلمة "إنجيل" يختلف لدى المسلمين عما لدى المسيحيين. ويجب تحديد هذا الأمر، لأنّ تعيين الشيء الذي نحقق عنه من أوائل متطلبات التحقيق.

معنى كلمة "إنجيل": كلمة "إنجيل" معربة من كلمة "ايوانجيليون" (Euangelion) والتي تعني الرسالة التي أتى بها أنكليوس أي الرسول أو السفير. ولذلك يصبح معنى إنجيل في الحوار الديني هو كلام الرسول الذي أتى به من عند الله بصفة كونه

¹ الشخصية التي خصصنا لسيرتها وأعمالها هذا العدد.

² مشارك في التحرير وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المالية الإسلامية، نيو دلهي

رسولاً. وقد ذكر هذا في أكثر من موضع في الإنجيل الموجود بأن عيسى رسول الله، فالكلام الذي أتى به عيسى يستحق أن يطلق عليه "إنجيل". وقد صرح بأنه لا يأتي بالكلام من عنده، ولا يقول إلا ما سمعه من ربه. وكذلك القرآن يعتبر الإنجيل الكتاب الذي نزل على عيسى، ويجب الإيمان به مثل الإيمان بالكتب السماوية الأخرى والإيمان بجميع الأنبياء الذين لم يذكر من أسمائهم إلا القليل.

الإيمان بالإنجيل الأصلي لا يلزم الإيمان بالأنجيل المتعارف عليها: فالمسلمون يؤمنون بالإنجيل والكتب السماوية الأخرى حسب تعليمات القرآن، ولكنهم يوضحون أيضاً أن هذه الكتب الأربعة والتي يسميها المسيحيون بـ"الإنجيل"، محرّفة. أي أنها تعرضت للتغيير والتبديل، وليس من الضروري أن الإيمان بالإنجيل يتطلب اعتبار هذه الكتب الأربعة غير محرّفة. مثلاً إذا قال شخص بأن الشاهنامة كلام من الدرجة الأولى، فلا يعني هذا أن النسخ الموجودة خالية من التغيير والتبديل. أو يقول أحد بأنني أعترف بتفوق شكسبير وجودة كلامه، ولكن هذا لا يدفع إلى التسليم بصحة جميع نسخه. ولا يخفى على الشخص البصير جودة الكتاب الأصل حتى مع فساد النسخ، فيتعرف على الغث من الثمين والردئي من الجيد، ويتأسف على وجود الأحجار مع الآليّ الالامعة. وهذا جواب واضح لا إشكال في فهمه. فالقول بأن الإنجيل الموجود بين أيدينا الآن هو نفسه الذي كان موجوداً حين بداية نزول القرآن والأوصاف التي ذكرت في القرآن تنطبق عليه، يعتبر مخالفاً للأصل. ليس هناك نزاع بين النسخ أيها صحيح أو خاطئ، ولم يكن النقاش حول النسخ في تلك الفترة أو الآن. والأوصاف المذكورة للإنجيل المقدس آنذاك هي صحيحة حتى اليوم، وهي مسلمة بها مثلما اعترف بها في تلك الفترة بغض النظر عن كون نسخه خالية من الأخطاء أو لا، أو وجدت له نسخة أم لم توجد.

لماذا لا تؤمن بالأنجيل المتعارف عليها؟ عقيدة المسلمين هذه مبنية على الأسباب التالية نذكرها بالتفصيل: أولاً أخبر القرآن بأن الكتاب الذي أنزله الله للنصارى، ضاع

جزء منه مما سبب النزاع بينهم إلى يوم القيامة. وقد قال المسيح كذلك أن تميزكم بمحبتكم لبعضكم البعض. وثانياً أخبر القرآن بأن النصارى قاموا بالتحريف في كتابهم أي التبديل والتقليب في المعنى، ولذلك توجد فوارق كبيرة بين الأناجيل الأربعة، ويشهد العلماء المسيحيون أنفسهم أنه حدث فيها الكثير من السهو والخطأ والزيادة والنقصان. وللدلالة على ذلك ألف العلماء المسلمون كتباً شافية لا حاجة لذكرها هنا. وثالثاً فقد أقر النصارى بأنفسهم بأن هذه الأناجيل كتبت من قبل أشخاص آخرين، ويوجد فيها أحوال عيسى عَلَيْهِ السَّلَام وكلامه عن طريق رواية الآخرين، وبهذا تصبح الأناجيل مجموعة من الكلام المروي الذي يشتمل على كلمات وخیال الراوي نفسه. ورابعاً وأخيراً كان كلام عيسى عَلَيْهِ السَّلَام وحديثه باللغة العبرانية، ويعترف النصارى بأن الإنجيل العبراني كان موجوداً ولكنه اختفى الآن.

ما الفائدة من الإيمان بالإنجيل المفقود؟ وبذلك يصبح الإنجيل لدى المسلمين كلام منزل من عند الله، وما يوجد منه في الأناجيل الأربعة هو الإنجيل، وعليهم أن يؤمنوا به كما يؤمنون بالقرآن والكتب السماوية الأخرى. ولكن كلام الله في الأناجيل الأربعة غير محدد، لذلك فالإيمان به بشكل إجمالي. وإذا سئلوا عن فائدة هذا الإيمان الإجمالي، يكون الرد: أليس من النفع أننا نؤمن بالأنبياء بسبب كونهم أنبياء، وبكلام الله لأنه كلام الله دون النظر إلى استفادتنا منه أو عدمها؟ المحبة الغيبية جزء من ديننا، ونصلي على الأنبياء الذين لم تتعلم منهم شيئاً مثل النبي الذي علمنا كل شيء. وإضافة إلى النسبة الروحانية التي سوف تكون سبباً في زيادة الأُنس والمحبة في الآخرة، استفدنا من ذلك أننا لم نرفع رسولنا الهادي إلى منزلة الرب، فالإيمان بالرسول في الحقيقة هو إيمان برسائله التي أتى بها.¹

¹ ليس لدينا كتاب مستقل لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق والأنبياء الآخرين المجهولين، بالرغم من ذلك فقد أمرنا الله تعالى أن نؤمن بجميع الكتب والأنبياء المعروفين والمجهولين وأن لا نفرق بينهم، وهذا هو ما علمه عيسى عَلَيْهِ السَّلَام. يا ليت النصارى فهموا هذا الشيء، وإن كانوا فهموا ما تاهوا إلى يومنا هذا. (راجعوا مقالي بعنوان الرسالة الأخيرة للمسيح)

ولذلك حتى نجذب قلوبنا العصبية وعبادة البشر، لا نفرق بين الأنبياء ورسالاتهم. وهذه النتيجة كافية للإيمان الإجمالي، والقرآن يأمرنا بذلك: "قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٣٦﴾". (سورة البقرة)

ومناقشة هذه القضية بالتفصيل لا ترتبط بموضوعنا، ولنفترض أن الإيمان الإجمالي لا فائدة منه، ولكننا علمنا أنه يوجد شيء يسمى الإيمان بالغيب في هذا الدين. ونمكن هذه الحجة الغيبية للإنجيل المقدس. ومن هنا نستنتج أن الإنجيل لدى المسلمين هو كلام الله الذي أنزله على المسيح، وليس من الضروري الإيمان بكلام سمي بالإنجيل مجازاً.

تمهيد موضوع التحقيق: الآن علمنا أن أصل كلام سيدنا عيسى مفقود وذلك باتفاق النصارى، وهذه الكتب التي تسمى بالإنجيل، هي أناجيل لأنها تحوي جزءاً منه، نبدأ الآن ذكر أسباب تلك الحادثة المؤسفة. وهذا هو موضوع التحقيق. وإذا ذكر دليل على تحريف الإنجيل فسيأتي ضمناً. هناك نوعان من أسباب اختفاء كلام سيدنا المسيح: أسباب ظاهرة وأسباب باطنية. وسنذكر هنا الأسباب الظاهرة فقط، ولكن بطريقة ترشدنا إلى الأسباب الباطنية أو الخفية.

ثلاثة أسباب لاختفاء الإنجيل الأصلي: ثلاثة أسباب ظاهرة أدت إلى فقدان الإنجيل الأصلي مع مرور الزمن، الأول أن حديث السيد المسيح والذي كان ينتقل بكثرة بين الحوارين، جمع على شكل كتاب كسيرة ذاتية بدون سند أو دليل، ولم يراع فيه أبداً صحة المعاني. الثاني أن هذه السيرة الذاتية لم تسلم من الأخطاء التي لا بد منها في الترجمة، حيث إنها لم تدون بلغتها الأصلية، ثم حظيت هذه السيرة المترجمة بالشهرة والقبول اللذين كانا حقاً خاصاً لكتاب الله الحقيقي. والثالث أنه بالرغم من الحظر نشر هذا الدين بين الشعوب الأخرى، والتي لم تكن جاهزة لقبوله. وسنناقش هنا هذه الأسباب الثلاثة بقدر من التفصيل وكيف أدت إلى اختفاء وفقد الإنجيل المقدس.

السبب الأول

الروايات الخاطئة: إنَّ اختلاط الروايات مع التعاليم الأصلية أمرٌ طبيعيٌّ يحدث في كلِّ دين وملة، وإن لم يؤخذ الحذر في ذلك فستظهر نفس النتائج التي ظهرت عند النصارى، ولذلك فالروايات التي نسبت إلى الرسول عند المسلمين، حدث فيها الخلط مثل الإنجيل. وللتمييز بينها أوجد المسلمون علميَّ "فن الرجال والدراية" واللذين بنيت عليهما الأسس العقلية للتحقق من الروايات. وقد حدث نفس الأمر في الدين المسيحي. فقد ألقت لديهم كتب كثيرة باسم الإنجيل، والتي احتوت على مزيج من الأكاذيب والأخبار الصحيحة، ولكنهم لم يضعوا أصولاً علمية مثل ما فعل المسلمون، بل اجتمع عامة الناس وعلماء الدين لديهم واختاروا بعض النسخ ورفضوا بعضها مع وجود خلاف فيما بين أنفسهم، وقد استمر هذا الأمر عبر العصور، فنجد حتى الآن فرقة كبيرة منهم تؤمن بكتب وتعتبرها صحيحة بينما ترفضها فرقة أخرى لا تقل منهم عدداً إلا بالنذر اليسير. فنرى أنهم لم يهتموا بالنسخة الأصلية للإنجيل اهتماماً خاصاً، ولم يتخذوا حذرهم من الروايات المخلوطة، ومزج كلام الله مع الروايات البشرية بطريقة سيئة جداً، وبسبب عدم الاهتمام تركت النسخة الأصلية والتي كانت بلغة غير مفهومة، في ركن مظلم وأصبحت نسياً منسياً مع مرور الزمن وعواقبه.

شروع البدع: تنشأ البدع في كل دين، ثم توضع الروايات لهذه البدع. ويعجب بها عوام الناس أكثر من الدين الحقيقي، لأنَّ الدين الحقيقي يعلم الحسنة الصادقة، والتي تظهر صعبة التنفيذ في البداية، وتعافها الفطرة الدنيوية. ولذلك تنتشر البدع بكثرة ويختفي ذوق كلام الله، وبالتدريج يخيل للناس أنه ليس بكلام الله. ولنفترض أنَّ المسيحيين مثل المسلمين حافظوا على كلام المسيح والذي علّمه روح القدس مستقلاً، ولم يخلطوه مع الروايات، واعتبروا تلاوته ثواباً، وحفظه خدمة دينية من الدرجة العليا، وقرؤوه كل سنة على الجماعة في كلِّ مكان، ولم يغيروا رسم خطه عند الكتابة، إن كانوا فعلوا

كل ما سبق، فكيف كان ممكناً أن يفقد ذلك الكلام ولم تبقى منه إلا روايات لا حدّ لاختلافها. نخلط الروايات كان السبب الأول والذي ترتبت عليه النتائج الأخرى.

السبب الثاني

صعوبة الترجمة: السبب الثاني والذي كان الباعث على فقد الإنجيل الأصلي أكثر من السبب الأول هو صعوبة الترجمة.

لنفترض أنّ ما نقله الحواريون والذين عاصروا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من كلامه بالرغم من خلط عباراتهم وآرائهم، لم يترجم إلى لغة أخرى، إنما كان نفس الكلام بعينه، كما يعتقد عن عبرانية متى بأنّ الرواية غير المترجمة كانت لمقى الحواري، فكان من الممكن اليوم بأن تدبر كلماتها ونفهم استعمالات حوار اللغة العبرانية. ولكن الترجمة أضاعت هذه الفرصة. وبسبب منح الترجمة أهمية، أغلق باب التفسير الأصلي، والخسارة العظيمة التي أريد ذكرها هنا هي أنّ النسخة العبرانية نسخت ثم فقدت بعد ذلك.

استخدام الترجمة كالأصل: إذا شاعت ترجمة كلام الله وفهم منها الناس شيئاً مضللاً استقرّ في أذهانهم واعتقدوا أنه من الدين والإيمان، فسيكون من الصعب إبعاده، لأنه قد رسخ في أذهانهم أنه هو التعليم السماوي. وإذا غلب هذا الوهم على أذهانهم فسيرونه حتى في المواضع التي لا وجود له فيها. وبذلك يصبح كامل الكتاب لديهم مليئاً بأفكارهم المخترعة. وقراءة هذه الترجمة في العبادة والدعاء ستترك أثراً مقدساً ثابتاً على القلب بحيث يجلّها الناس ويعظمها مثل كتاب الله الأصلي وستكون شاهداً في كل أمر. وينبذ الكتاب الأصلي الذي لا يستخدم حتى في التلاوة. ولأنّ العرض حسب الطلب، فلن تكتب نسخ أخرى جديدة للكتاب الأصلي. وتبلى النسخة القديمة وتندثر. وهذا هو السبب في أنّ كتاب كلّ منشيء لأيّ دين موجود بلغة أتباعه (وهي متروكة تماماً الآن) إلا كلام معلم المسيحيين لا نجد بالغة الأصلية. إلا قول: "إيلي إيلي لما شبعني"، (إلهي إلهي لماذا تركتني)، وإذا دققنا في المعنى فسنجد أنّ هذه

الفقرة تشهد أنّ الله أخذ كلامه وترك تلك الأمة.

لماذا سُلِبَ النورُ من الأمة؟ السبب جلي واضح، حيث تركت تلك الأمة معلّمها في براثن الأعداء، ولا نجد في العالم أجمع أن يتخلّى أتباع شخص حبيب ومرشد محب والذي ضمهم إلى صدره وغسل أرجلهم ونظفها بلباسه وقال لهم ليلة فراقهم: "لا أدعوكم عبيدي بل أدعوكم أحبائي، ما اخترتموني بل أنا اخترتكم، أنا ذاهب إلى الذي أرسلني، ولا أحد منكم يسألني: إلى أين أنت ذاهب؟ والآن قلت لكم: فلا الحزنُ قلوبكم، صدّقوني، من الخير لكم أن أذهب". ثم أوصاهم بضع وصايا وبشّرهم وقال: "... بل جاءت الآن، تتفرّقون فيها، فيذهب كلّ واحد في سبيله وتتركوني وحدي" (يوحنا: 32/16) فقال مَنْ كان أفضلهم: "إني أبذل حياتي عنك" (كانت هذه أقصى درجة الشجاعة، ولم يذكر أنه ساعده)، فردّ المعلّم على ذلك: "الحقّ الحقّ أقول لك: لا يصيح الديك إلا وأنكرتني ثلاث مرّات". (يوحنا: 38/13) سبحان الله!

على كلّ حال، فهذه الحادثة فاجعة كبيرة، ولكن لا شك في أنّ سوءاً مثل هذا لم يصدر عن أحد، فكان الجزء من جنس أعمالهم لأنهم كانوا يستحقون ذلك. وكان من أثر حق الصحة أنهم وجدوا النور لفترة من الزمن، ولكن لم تمرّ إلا مدة بسيطة وأطفئ سراج النور السماوي من مجالسهم.

"فقال لهم يسوع: "سابقى الور معكم وقتاً طويلاً، فامشوا ما دام لكم النور، لئلا يباغتكُم الظلام. والذي يمشي في الظلام لا يعرف إلى أين يتّجه". (يوحنا: 35/12)

علامات عصر الظلام المسيحي: وقد أخبروا بعلامات ذلك العصر المظلم الذي كان سيحل عليهم قريباً، وقد تميّز بنفس تلك العلامات النصارى الأول حيث كانوا يملكون بعض النور عن من كان من أهل الظلام والذين ينسبون أنفسهم إلى المسيح. كانت هذه العلامات واضحة وصريحة جداً، وكان النصارى الأول يمثّلونها، ولذلك قدّمهم من أتى بعدهم من مدعي المسيحية كذّاباً، وقد ساعدتهم ذلك فترة من الزمن

ولكن فضحوا في نهاية الأمر، ولم يكن أمامهم خيار إلا أن يتخذوا من الظلمة مرشداً لهم بدل النور ويمدحوه بجعله وساماً لأنفسهم.

العلامات الثلاث للنصارى الحقيقيين: بين عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ثلاث علامات يعرف بها الأشخاص الذين يدخلون في ملكه الروحاني، الأولى: الزهد والتواضع، الثانية: المحبة فيما بينهم، الثالثة: صدور الكرامات عنهم، وكانت هذه الأمور ضرورية لتسلسلهم.

العلامة الأولى- الزهد: أرسل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لمنح التعليم الروحاني فقط، وكان مستغنياً عن الأمور الدنيوية حتى أنه ترك بيته ولم يتزوج، ولم يعاقب المذنب وقال بأنه لم يأت قاضياً، وإن لم تظهر على شخص هذه الصفة لعيسى بعد معرفة أحواله، عليه أن يتعمق أكثر في قراءة سيرته وتعاليمه.

العلامة الثانية- المحبة: قد أعطى المسيح درس المحبة بالطريقة العملية مثل العلامة السابقة، وأوضح أنها علامة خاصة لأتباعه. والعشاء الأخير من لحمه ودمه الذي قدّمه في الليلة الأخيرة يعتبر أروع مثال لهذه المحبة. وقد قدّم نموذجاً غريباً للشفقة والرحمة حين تعامل معهم كالخادم وخدمهم. (يرجع للتفاصيل إلى العشاء الرباني).¹

العلامة الثالثة- الكرامات: قد أخبر المسيح عن العلامة الثالثة بأسلوب قوي جداً وهي صدور الكرامات عن أتباعه، ولذلك كانت الكرامات تظهر في الكنيسة لمدة طويلة بطريقة أو أخرى، ولكن حينما انتشر نور العلم في سماء أوروبا والذي يدعو إلى جعل العلم الصحيح واليقين أساساً للدين، فضح سحرهم المقدس، وبذلك انتشرت كراهية فطرية للكرامات في أوروبا، واعتبروها علامة الكذب والافتراء، ومن ينظر إلى السراج إذا طلعت الشمس؟ وإن أراد شخص أن يحافظ على نور سراج بيته فعليه أن يغلق جميع مصادر النور الخارجية، لأنّ السراج أمام نور النهار

¹ متى: 28-26/26، مرقس: 24-22/14، لوقا: 20-19/22، كورنثوس: 20/11

يتساوى وجوده وعدمه. وهكذا تمسك رجال الدين المسيحي بالظلام والتقليد الأعمى، ولم يتمكنوا من استعادة النور السحري الذي كان عند سابقهم وقد ضاع، وبدؤوا يقولون: نبع الحياة يوجد في الظلام. لا يمكن الحصول على الحياة الدائمة بالفهم وإعمال العقل.

نتائج الترجمات: لماذا ظهرت هذه النتائج السيئة؟ لأنهم نبذوا التعليم الحقيقي للمسيح، وكان السبب الظاهري للنبد هو إضاعة كلامه، والذي حدث نتيجة نشر الترجمات. نفترض أنّ الكلام العبراني الأصلي وجد اليوم، فكان على الأقل لم تواجههم الصعوبة في فهم معنى العشاء الرباني، وكان من السهل الإجابة على كيفية إطعام عيسى لهم من لحمه ودمه، وكذلك لم يكن المعنى الباطل لابن والأب قد دخل إلى دينهم. وحينما رسخت الترجمات هذه العقائد في أذهانهم، فمن الممكن أنهم اعتبروا الكلام الأصلي والتعليم الحقيقي إن وجد في تلك الفترة شيئاً باطلاً والحفاظ عليه غير ضروري أو مضرّ ربما، فلا يستغرب ضياعه وفقدانه في هذه الحالة.

السبب الثالث

إدخال الأجانب: السبب الثالث الذي كان له نصيب الأسد من ضياع الإنجيل المقدس الحقيقي كان نشر هذا الدين المبارك بين الشعوب التي لم تكن مستعدة لتلقيه بعد. ولا يخفى على أحد أنّ تعاليم سيّدنا عيسى كانت في أعلى منزلة لم تراع فيها الفطرة الإنسانية العامة، ولم يكن قبول على التعليم موافقاً لحال كل فرد. وقد أوضح هذا الأمر بكل أسلوب. ولا يظهر من أصول التعليم فقط بل من طريقة التعليم أيضاً، أنه لم يكن للجماعة الإنسانية العامة، وكذلك تصريحه وأحواله تدلّان على ذلك. ويجب على النبي بل على كل معلّم حقيقي أن يكون صورة تعكس العلم الذي يعلمه. وقد أكّد سيّدنا عيسى صراحة وإشارة وتمثيلاً أن يدخل إلى دينه فقط من تم تجهيزه من قبل لذلك. لماذا منع من إدخال الأجانب؟ يمكن لأيّ مسيحي أن يعترف بأنه سيتعرض

للاستقادة إذا آمن خلاف السبب الذي من أجله كان مجيء عيسى في الأخير، فإن قالوا بدليل الكفارة بأن الله قد فتح باب الكفارة بعد أن جمع المذنبون أكواماً من الآثام في الدنيا، فهذه ليست بإجابة صحيحة. فالمذنبون يرتكبون المعاصي إلى يومنا هذا. فكان من الأفضل أن يكون مجيئه الآن. فالجواب الصحيح هو أن الدنيا لم تكن جاهزة لتعاليمه آنذاك. فكان مستوى عال، ولم توجد المستويات الدنيا معه إلا في بني سام الذين تواتر فيهم الأنبياء وقرروا بأن التوحيد هو أصل الأصول. وقد دخل فيه الشرك بشكل عارض ولم يكن أبداً أساس الدين مثلما نجد في الشعوب الأخرى. تعاليم المسيح لبني إسرائيل فقط: إن أساس تعاليم سيدنا المسيح يعتمد على معتقدات اليهود وأسلوب البيان العبراني بطريقة يصعب على الشعوب الأجنبية فهمها وإدراكها. وقد أوضح بنفسه أنه أتى لإرشاد بني إسرائيل فقط، وأكد على تلاميذه ألا يضموا إليهم شعوباً أخرى. فلا يمكن لأحد أن يعترض عليه ولماذا فعل هكذا. فالدواء الذي يكون شفاءً لمريض قد يكون سماً قاتلاً للآخر. فالأمثال البسيطة التي استخدمها المسيح لم يفهمها الأجانب أبداً، ووقعوا في أوهام ضائع أمامها الدين الأصلي. فاعتبار الابن بمعنى: ولد، وأن كل حيوان حلال وأكل لحم ودم المسيح وغير ذلك، كلها نتائج لهذه الأخطاء. إن مناقشة هذه القضايا تتطلب عناوين مستقلة، تركها لوقت آخر ونهني مقالتنا هنا.¹

¹ مع الشكر لمجلة "تدبر" الشهرية، 130-122/1/96 (عدد يناير 2024م)

المسيح (عليه السلام) يبشر

- الإمام عبد الحميد الفراهي¹

ترجمة من الأردوية: د. هيفاء شاكري²

[هذه المقالة هي نفسها التي أشار إليها الكاتب في مقالته "رفع الإنجيل" بعنوان "رسالة المسيح"، المترجمة]

حدثت خلافات شديدة بين المسيحيين حول شخصية سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَام. وكانت أحوال حياته، وولادته ورحيله وتعاليمه بل طريقة تعليمه، كل شيء كان عجيباً وغريباً. فلا يتعجب من ظهور الخلافات حول ذلك. ولكن الغريب في الأمر والداعي للأسف هو أن هذه الخلافات أدت إلى ضلال كبير. والشيء الذي كان خلاف تعاليمه أصبح بعينه دين أمته. وقد بقي أثر تعاليمه لفترة من الزمن بعد وفاته، ولكن عندما دخلت عناصر الوثنية إلى ملته، لم يتحملها أساسها اللطيف. وكان عيسى عَلَيْهِ السَّلَام قد أوضح بإشارات لطيفة بأن هناك حاجة لمن يأتي بعده ويشرح لهم الأمور، وفهم تلاميذه كذلك هذا الشيء. ولكن الشعب الذي لم يتلق الغذاء الروحي أو لم يناسبه، لم يفهم المغزى وانحدر إلى الظلمات بدلاً من النور. فترك هؤلاء شمعون (سمعان) الصفا (وهو الذي قال عنه المسيح بأنه سوف يبني أساسه على هذه الصخرة)، وأصبحوا من أتباع بولس، ودخلت المسيحية بعد ذلك سريعاً إلى إطار الوثنية. وكان عيسى عَلَيْهِ السَّلَام يدرك هذه الأمور، ولم يأل جهداً لبذل محاولاته، ولكن قد انكشف عليه في اللحظة الأخيرة بأن

¹ الشخصية التي خصصنا بسيرتها وأعمالها هذا العدد.

² مشارك في التحرير وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المالية الإسلامية، نيودلهي

جميع محاولاته لن تستطيع صرف القدر الإلهي. وقال للرب باكيًا: "يا رب! إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس ولكن ليس كما أريد أنا، بل كما تريد أنت". متى، 26:39

كانت الليلة التي سبقت سفره ليلة عجيبة، فيلقي عليهم النبي كلامه الأخير، ويسلم الحمل الثقيل من الأمانة لتلاميذه، في تلك الليلة ألقى عليهم عيسى عليه السلام الكلام السماوي الذي كان لبّ تعاليمه بل السر المكتوم لحقيقته، مثل المنشد الذي ينشد أجمل أغانيه في لحظاته الأخيرة حتى تقضي عليه أغنيته. وقد سكنت الأنجيل المتعارف عليها عن هذا الأمر إلا إنجيل يوحنا. يوحنا كان صديقه المقرب، ولذلك حصل على جزء كبير من فيوض معلّمه الباطنية. واستطاع فهمها بعض الشيء وحفظها. أما الباقيون فتسمروا في أماكنهم متعجبين.

إنّ الوحي الإلهي مثل الغيث النازل من السماء ينتظر موسمه، فكانت تلك الكلمات العميقة والمليئة بالألم تنتظر تلك الليلة الموحشة وساعة الحوادث الدامية والتي كان فيها وداع السيد المسيح عليه السلام، بل يمكن القول أنّ سراج نبوة بني إسرائيل كان على وشك الانطفاء. لم يكن ذهاب المسيح بحادثة هيّنة، إنها كانت المحاولة الأخيرة لبني إسرائيل. ويمرّ عصر ويتبعه عصر آخر، تحي أمة وتنشأ أمة أخرى. ينقطع العهد الإلهي عن بني إسرائيل إلى الأبد ويرتبط ببني إسماعيل! ويخلو المكان لفرق بالدعوة السماوية، تقطع شجرة جافة وتصبح وقودًا، وتخضر شجرة أخرى. وتسلم إليه بركات العالم أجمع. نرى هنا الخريف والربيع في آن واحد، ونرى أنهار السمّ القاتل وماء الحياة تجري جنباً إلى جنب. ما أروعها وآملها من ليلة! ولكن ما أعظم الفرحة التي تقف خلفها صامته.

في تلك الليلة والتي كانت صورة ماثلة لليأس والحيرة والألم والحزن، يؤدي المسيح الجزء الأخير من فريضته. وبعد مناجاة ربه طوال الليل على جبل الزيتون يستعد لرضا الإله. يحيط به اليأس من جميع الجهات، ولكن يظهر بريق الأمل بين الغيوم السوداء من الهم واليأس. ويتماسك قلبه بوعده السلوان. كان بعض أصحابه في تلك

- الساعة الخزينة ملتفين حوله مثل العث (فراشة) حول السراج والذين سيتفرقون مع تباشير الصباح الأولى، تحدث إليهم حديثه الوداعي. قالوا: "ماذا تمنحنا؟ قال:
1. كنت سراج ذلك المجلس، كنت منيراً عندما كنت حياً، والآن انتهى عملي.
 2. بقي من الليل القليل، والصبح قادم. ظلام قصير ثم يوم منير.
 3. ماذا أقدم لكم أكثر من أني فنيته نفسي لأجلكم.
 4. كنت الوقت الأخير من القمر في مركز العالم، ذهابي بشارة الصبح! ورحيلي قدوم النجم الأعظم.
 5. كنت ألماً وهو السلوان، أنا صورة النقص وهو علامة الكمال. كنت جرحاً مجسماً وهو مرهم مريح.
 6. من الأفضل لكم أن أذهب.
 7. لكنني إذا ذهبت أرسله إليكم، وهو ينتظرنني، وأنتم انتظروه.
 8. إن كنتم تملكون البصيرة فسترونني قادماً.
 9. كنت نوراً، وهو أيضاً نور. أنا عكسه وهو ظهوري. أنا وهو زهرتان من غصن واحد بل عطر واحد لزهرتين كنت هنا وكان موجوداً، وحين يكون فسأكون أنا.
 10. قدروا نور السراج وليس الفانوس، ارتبوا بمعانيّ فهي غذاء الروح. ماذا يوجد في شكلي؟ تمسكوا بالأرجل، فالشكل يؤدي إلى الضلال.
 11. إن تفهموني فأنا المعنى بعينه، الكلمة الإلهية حقيقي، ولست شيئاً سوى تلك الكلمة.
 12. كلامي شرارة من تلك الكلمة، وكل كلمة من كلماتي قطعة من كبدي.
 13. من امتلأ بكلامي فله البشارة (لحمك لحمي ودمك دمي) وقد امتلأ بي مثلها أنا إناء ممتلئ بمعانيّ.

14. ولو أنّي موج مضطرب، ولكنني أخبر بطلاطم البحر. قياي هو حلول القيامة، وقدومي هو قدوم القيامة. أنا الحشر بذاته (وأنه يعلم الساعة).

إنّ تعاليم النبي هي نفسها سواء في اليوم الأول أو الأخير، ولكن يكون الإجمال والاختصار أولاً وكال التفصيل آخرًا. فيضع الخطوط الأولى منذ اليوم الأول للنقش الذي يريد أن يثبتته، ثم يملؤه بالألوان تدريجيًا. فالنبي يربي الأمة كالأب الشفوق، وعندما تستعد الأمة تدريجيًا يواصل تعليمها، حتى يمتلئ كأس قدراتهم، ثم يترك العمل الباقي للنبي الآخر، حتى تصل الفطرة الإنسانية أو الفكر الإلهي الذي يسمّى (في أحسن تقويم) في حق البشر إلى القدرة التي تتحمل الحمل الثقيل لطبيعة آدم. ففي هذه اللحظة وصل التعليم الإلهي إلى الكمال، وتعود إبرة المدور (الفرجار) إلى النقطة الأولى. وتتخذ دائرة النبوة بعد اكتمالها شكل الخاتم، ولا يبقى مجال شعرة واحدة للنمو والتطور.

أخبر المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ من اليوم الأول بقرب الملك السماوي ثم أخبر تدريجيًا علامات هذا الملك عن طريق الأمثال. وكان يقول بأنّ الناس لن تتحمل التبليغ المفتوح، وهذه هي العلامة أمانة يأمل عن طريقها معرفة الهدف المنشود، وقد بين في الليلة الأخيرة أنّ تعاليمه ما زالت غير مكتملة، ولكن الذي يأتي بعده سوف يعطيهم تعليمًا كاملاً واسمه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فكان هذا التصريح والتفصيل آخر رسالة لنبوته، وقد سلم حواريه هذه البشارة وطلب منهم أن ينادوا بالملك السماوي.

إنّ التدبير الإلهي والذي يمنح فيضًا حسب قدرة كل شيء، قد أعد بني إبراهيم بشكل خاص للملك السماوي. ووضع فرعان لهذه السلالة في موضعين، فوضع بني إسحاق في أرض خصبة خضراء مثل حدائق الكروم، والتي كانت تجري فيها أنهار من اللبن والعسل. ولكن سلم بنو إسماعيل كشجرة صحراوية إلى صحراء قاحلة وأرض جدداء حتى تنبت الأشجار القوية المتينة التي تعدّ بها سفينة نجاة العالم. ولم يكن تعليم المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك الذي تحمله الشعوب الوثنية القديمة. وقد أكد عليهم ألا يعلموا غير بني إسرائيل.

فالبذور التي زرعها المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ظهرت بشكل دخول جماعات كبيرة من مسيحيّ الشام والعرب إلى الملك السماوي. وانجذبوا إلى المعلّم الذي بشرّ به المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ. كانت غالبية أنصار المدينة منهم وكانوا يطلقون على أنفسهم نصارى ولم يكونوا من أتباع بولس.¹ وإنّ رسالة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ والتي كانت قد ضعفت في قلوبهم بأثر من بولس، دبّت فيها الحياة مرة أخرى بدعوة النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وبذلك وصلت محاولة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بصفة كونه من يعدّ الطريق إلى مبعثها.

ولو أنّ بولس ضلّل المسيحيين وأبعدهم عن الإسلام بتشويبه للنصرانية الحقيقية، ولكنّ كلّما نأ نور العلم تدريجياً فضحت بدعات بولس، وذلك العصر ليس ببعيد الآن والذي يقول عنه الدكتور لايتز بأنّ الإيمان بـ"محمد" يجعل المسيحيين أكثر تمسكاً بمسيحيّتهم.²

¹ أتباع بولس الذين اتبعوا المسيحية المحرفة لبولس.

² مع الشكر لمجلة "تدبر" الشهرية، 96/2؟؟ (عدد فبراير 2024م)

التلخيص

- الإمام عبد الحميد الفراهي¹

تحقيق وتقديم: د. أورك زيب الأعظمي²

(26) ومنها التلخيص³

التلخيصات في القرآن كثيرة. وانظر فيما جاء في:

1. سورة المؤمنون: "وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾".⁴

2. وسورة الأنبياء: "... وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾".⁵

وهذا مثل ما جاء في سورة المجادلة: "يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ

¹ الشخصية التي خصصنا بسيرتها وأعمالها هذا العدد.

² مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المللية الإسلامية، نيو دلهي

³ "أساليب القرآن" كتاب رائع للإمام عبد الحميد الفراهي، لم يخصه الإمام بذكر أساليب القرآن بل أراد أن يبين فيه أساليب العربية بما فيها أساليب القرآن. ولذا سماه "كتاب الأساليب"، ولكنه لم يوفق له سوى بيان بعض أساليب القرآن فسماه الجامع رحمه الله بـ"أساليب القرآن". قمت بتحقيقه حينما كنت طالباً في مدرسة الإصلاح بأعظم كره، ولكن لم يتيسر لي تنضيد على الكمبيوتر إذ شغلتني أعمال علمية عديدة ولكن بقيت ألحق خلال هذه المدة إضافات مفيدة بالكتاب وسترونها حينما يطبع إن شاء الله تعالى.

"التلخيص" مبحث من مباحث هذا الكتاب الرائع، أبدعه الإمام الفراهي ولكن المنية عاجلته فلم يوفق لإتمامه فبقي، كمباحثه الأخرى، غير تام. سبق أن نشرنا مبحث "الاعتراض" و"الزيادة"، والآن ننشر هذا المبحث.

⁴ سورة المؤمنون: 22-23

⁵ سورة الأنبياء: 31

فَأَفْسَحُوا لَإِلَهِكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ".¹

وليس هذا من باب الشعر، بل هو الحق، لأن الأعمال الصغيرة تجلب أمثالها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. ولذلك أمثلة في القرآن مثل ما جاء في سورة الصف:

"فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ" و.....².

3. وسورة النحل: "وَاللَّائِمَةُ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْحَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْحَمِيرُ لَتَرْكُبُونَهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾".³

4. وسورة النحل: "وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١١﴾ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ (لما في بطنها من قوة النار) وَأَنْهَرَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٢﴾ (أي تهتدون إلى ذكر رحمته وربوبيته ووحدايته كما قال: وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) وَعَلَّمَتِ الْبَلَجِمَ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٣﴾" أي كما أنه جعل لهم علامات في السماء، فكلية "تهتدون" تخلص من الباطن إلى الظاهر وموقعها عجب بعد قوله "سُبُلًا" وكذلك موقع "سُبُلًا" بعد "أَنْهَرَا" فإن الأنهار أيضاً سبل.

وهكذا في سورة الزخرف: "وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿٣﴾"

¹ سورة المجادلة: 11

² سورة الصف: 5

³ سورة النحل: 5-9

وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿٣٢﴾ لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿٣٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿٣٤﴾¹

فبين ههنا أنه إذا ركبنا الفلك والأنعام، ينبغي لنا أن نذكر نعمة ربنا بأنه تعالى سخر لنا هذا، وإنا عليها بعد الأسفار منقلبون إلى أوطاننا فكذلك منقلبون إلى مولانا الحق²

¹ سورة الزخرف: 9-14

² ولو أن في هذه الأمثلة كفاية ولكني أود أن أذكر طرفاً منها آخذاً من تعليقات الإمام ذاته:

1. سورة المائدة: "وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠﴾ فِيمَا نَقُضُهُم مِّيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفَ عَنْهُمْ وَأَصْفَحَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٢﴾" فهذه الآيات الثلاث ضربت مثلاً على نقض اليهود وسوء عاقبته، ومهدت للخطاب لأهل الكتاب فقال بعدها: "يَتَاهَلُّ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ..."

2. وسورة الأنعام: "أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهْدْيُهُمْ أَفْتَدِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهَدًى لِّلنَّاسِ فَجَعَلْنَاهُ قِرَاطِينَسَ ثُبُودِنَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادًى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَ عَنْكُم مَّا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٥﴾". فانظر كيف تخلص بعد "أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهْدْيُهُمْ أَفْتَدِ..." إلى إثبات القرآن وإبطال ما افتروا على الله من أحكام تجر إلى الشرك.

3. وسورة الأعراف: "وَأَكْتُمْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٦﴾" ثم تخلص إلى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: "الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي السَّوْرِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ...".
4. وسورة يونس: "وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَرَيْلًا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَاعِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ تَبْلَوْا كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٩﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَآذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٤٠﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مِمَّنْ يَنْدُوْا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ يَنْدُوْا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٤٢﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مِمَّنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ قُلْ لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٤﴾". فتخلص بعد: "وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَرَيْلًا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَاعِدُونَ ﴿٣٦﴾" إلى بيان الشكر.
5. وسورة يوسف: "قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْرَهِيمَ وَاسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ بَصَّحَتِي السَّيْحَانُ عَارِبَاتٍ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَجْدُ أَلْفَهَارٌ ﴿٣٨﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَاوَاتٍ مَوْءَاوَاتٍ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أُنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ لَكُمُ إِلَّا إِلَهٌ أَمَرَ الْأَنْعَادَ إِلَّا إِلَٰهَ ذَلِكَ الدِّينِ الْقَيِّمِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾" فتخلص بعد: "قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ...".
6. وسورة الكهف: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٣٦﴾ إِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٣٧﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٣٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْفَرْقَنِ إِنَّمَا أَنْ تَعَذِّبَ وَإِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٣٩﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا ﴿٤٠﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٤٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا ﴿٤٣﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٤٥﴾

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٣٧﴾ قَالُوا يَبْنَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَا جُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٣٨﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٣٩﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٤٠﴾ فاستخلص من الإجابة على السؤال إلى بيان كل من التوحيد و.

7. وسورة طه: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفِيعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿٢٠﴾" فاستخلص من الإجابة على السؤال إلى بيان القيامة ...

8. وسورة الروم: "يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِأَحْلَىٰ مُسْتَىٰ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٨﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٩﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٠﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١١﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٢﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمِرُونَ بِتَفْرِقَتِهِمْ فَتَفْرَقُونَ ﴿١٣﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٥﴾" فاستخلص من "يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ" إلى إثبات القيامة والجزاء.

9. وكذا بعد: "اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٠﴾" من هذه السورة تخلص إلى إتمام الجزاء.

10. وهكذا تخلص في الآيتين منها: "فَسُبْحَنَّ اللَّهَ جِئْنَا نُسَبِّحُكَ وَحِينَ تَضِيحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾" ثم واصل الكلام: "يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمَاتِ ...".

11. سورة النمل: "قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ؕ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٢﴾". فيه تخلص عجيب فلم يخاطب بني إسرائيل بعد ذكر قصصهم بل خاطب المشركين من جهة أن الله هو الذي ينصر أولياءه.

12. كذا فيها: "إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَفُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٦٢﴾" تخلص إلى أهل الكتاب معرضاً عن الفريقين ريثما يتأملون.

كفر¹

- الإمام عبد الحميد الفراهي²

تحقيق وتقديم: د. أورك زيب الأعظمي³

كَفَرَ، كَنَصَرَ سَتَرَ⁴ قال لبيد:

¹ نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، 187/1

² الشخصية التي خصصنا بسيرتها وأعمالها هذا العدد.

³ مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملكية الإسلامية، نيو دلهي
⁴ وقال الإمام الفراهي: "(ف) اعلم أن هذه المادة قديمة جداً، فتوجد في غير اللغة السامية، مثلاً: كَوَّرَ

(Cover) في الإنكليزية بمعنى ستر وغطى. وفي العربية "كَوَّرَ": لف. ومنها "غَفَّرَ": ستر- ومنه المغفر- و"عَمَّرَ". وأيضاً: "اكفهر": اغبر وكَلَحَ". نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، 187/1
والشاهد على معناه الستر قول الشاعر:

ومنتكث عاللت بالسوط رأسه، وقد كَفَرَ الليلُ الخروق المواميا

لسان العرب: نكث

ومنه سمي كافراً، كَفَرًا أو كَفَرًا كُلُّ من النهر والوادي العظيم والمطر الشديد والأرض البعيدة وظلمة الليل وعقاب من الجبال والحرباء التي تغطي جسدتها من الشمس وكذا من يلبس السلاح والزراع والقيصر الذي تطل به السفن، فقال المتنبي:

وألقيتها بالثني من جنب كافٍ كذلك أقنوا كل قط مَضَلَّل

ديوان شعره، ص 65. فالكافر هنا النهر بالجزيرة.

وأشدد ابن بري:

وحديثها الرواد أن ليس بينها وبين قري نجران والشام، كافٍ

لسان العرب: كفر. والكافر هنا المطر.

وأشدد الجوهري:

تبينت لحة من فِرَّ عكرشة في كافٍ، ما به أمت ولا عوج

لسان العرب: كفر. والكافر هنا الأرض التي بعدت عن الناس.

وقال لبید بن أبي ربيعة العامري:
فاعرزمت ثم سارت، وهي لاهية، في كافرٍ ما به أمت ولا شرف
ديوانه، ص 227. والكافر هنا ظلمة الوادي.

وقال حميد بن ثور الهلالي:
فوردت قبل انبلاج الفجر وابن ذكاء كامن في كفر
لسان العرب: كفر. وقال العجاج:

فوردت قبل انبلاج الفجر
زغربة الماء خسيف البحر
وابن ذكاء كامن في كفر

ديوانه، 285/2. والكفر في البيتين: ظلمة الليل. وابن ذكاء: شمس.

وقال أمية بن أبي الصلت:
وليس يبقى لوجه الله محتلق إلا السماء وإلا الأرض والكفر
ديوانه، ص 386. والكفر هنا عقاب من الجبال، والمحتلق: تام الخلق.

وقال أبو النجم العجلي:

ترى الحراي تضع رأسها أمام الشمس فتكفر جسدها من حرها بوضع رأسها أمامها.
كوافراً للشمس ثم تركع

ديوانه، ص 254. فالحراي تضع رأسها أمام الشمس فتكفر جسدها من حرها بوضع رأسها أمامها.
ومنه "كوافر فارس" وهي دنان الخمر التي تغطي ما فيه، قال ابن مقبل:

قِطَّتْ بِاصْفَرٍ مِنْ كَوَافِرِ فَارِسٍ سَقَطَتْ سَلَاغَتُهُ مِنَ الْجِرْيَالِ
وَكَاثِمَا اغْتَبَقَتْ قَرِيحَ سَحَابَةٍ بَعْرَى تَصَفَّقُهُ الرِّيحُ زَلَالِ

ديوانه، ص 190.

ومنه مكفور: مستور كما في البيت التالي:

هل تعرف الدار بأعلى ذي القور
قد درست غير رماد مكفور
مكتتب اللون مروح ممطور

لسان العرب: كفر.

وكفرة: غطاء كما قال الكميت الأسدي:

وإذا سمعت بحرب قيس بعدها فضعوا السلاح وكفروا تكفيرا

ومنه الكافر: للبحر. قال ثعلبة بن صُعير المازني:

فتذكّرًا ثقلًا رثيدًا بعدما أَلْقَتْ ذكاءُ يمينها في كافر¹
ومنه: كَفَرَه: جحد بنعمته، فسترها،² ضدّ شكره، كما قال تعالى: "إِنَّمَا شَاكِرًا وَإِمَّا

ديوانه، ص 405

¹ ديوان المفضليات، ص 130، معجم المقاييس، 487/2، لسان العرب: رثد، كفر، ثقل، يمن،
يدي وذكا، تاج العروس: رثد، ثقل، ذكو، كتاب مبادئ اللغة للإسكافي، ص 11
وفي كتاب العين (ذكو):

فتعاهدا ثقلًا رثيدًا بعدما

وفي غريب الحديث للخطابي (99/2):

فتذكّرًا رثدًا نضيدًا بعدما

وأما لفظ "كافر" فقال لبيد نفسه: وقال الشاعر:

ودرسْتُ غيرَ رَمَادٍ مكفورٍ مُكْتَنِبٍ اللونِ مَرِجٍ مَطُورٍ

نوادر أبي زيد، ص 571 فالمكفور هو المغطى.

فاعرزمت ثم سارت وهي لاهية في كافرٍ ما به أمت ولا شرف

ديوانه، ص 227

وقال الإمام الفراهي في تفسيره لسورة النور: "قد شبه الكفر بالبحر اللجّي، فانظر حسن موقع هاتين
اللفظتين عند أفهام العرب، فإنهم كانوا يسمّون البحر كافرًا لأنّ الكفر هو الستر". مفردات القرآن،
ص 304 (هامش)

ومنه قول النمر بن تولب:

فأصبحتُ والليل مُستَحِمٌّ وأصبحتُ الأرضُ بحرًا طما

ديوانه، ص 124

ومنه سموا الأرض كافرةً لإخفاء الأشياء في بطنها فقال أعشى همدان:

والأرضُ كافرةٌ تضرّمُ حولكم حِرَاءَها بَعِجَتْ ولما تَنْتَجِ

ديوانه، ص 94، تضرّم: تحرق، بعجت: شقت وحرثت.

² قال سلة بن الخرشب الأثماري:

فأثني عليها بالذي هي أهلُه ولا تكفرنّها، لا فلاح لكافر

ديوان المفضليات، ص 37. "عليها" أي على الفرس.

وقال عدي بن زيد العبادي:

مؤمنُ الصدر يرجي عتقه يوم لا يكفرُ عبدٌ ما ادَّخر

ديوانه، ص 61

وجاء في سورة آل عمران: "وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾".

ومنه قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "قتال المسلم كفر، وسبابه فسق، ومن رغب عن أبيه فقد كفر".

لسان العرب: كفر.

فن رغب عن والدين فكأنه جحد ما أسدوا إليه من الإحسان.

وكفره أيضاً يعني ظلمه كما قال تعالى:

"أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ بُرْهَعَمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ لِبُرْهَعَمَ رَبِّيَ الَّذِي يُبْعَثُ قَالُوا أَنَا نُحْيِيهِ وَأُمِيتُهُ قَالُوا لِبُرْهَعَمَ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥٨﴾". (سورة البقرة)

وهو كذلك يتعدى لمفعولين كما قال قيس بن الخدادي:

ولو لم ينحك من كيدهم أمينُ الفصوص شديدُ العصب
لزرتُ المنايا فلا تكفرن جوادك نعماء يا بن الطرب

عشرة شعراء مقلون، ص 32.

وكذا يتعدى المفعول الثاني باللام فقال الأعشى الكبير:

فلا تحسبني كافراً لك نعمةً عليّ شهيدٌ شاهد الله فاشهد

ديوانه، 438/2

وكفر أيضاً يتعدى باللام كما قال الأعشى الكبير:

فلا تحسبني لكم كافراً ولا تحسبني أريد الغيارا

ديوانه، 195/1، والغيار: مبادلة، وقال أيضاً:

فلا تحسبني كافراً لك نعمةً عليّ شهيدٌ شاهد الله فاشهد

ديوانه، 438/2

وأما كفران النعمة والإحسان فهو عام فقال عنترة بن شداد العبسي:

فلا تكفر النعمى وأثن بفضلها ولا تأمنن ما يحدث الله في غد²

شرح ديوانه، ص 68، وقال حسان بن ثابت الأنصاري:

فلا تكفرونا ما فعلنا إليكم وأثوا به والكفر بُورٌ بضائعه

كُفُورًا [سورة الإنسان: 3]

وقال تعالى: "أَلَا إِنَّ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ" [سورة هود: 68]

وفي دعاء القنوت: ¹ "ونشكرك ولا نكفرك". ²

شرح ديوانه، ص 216، وقال عمرو بن مخرمة الحمار الكلي:

وأيامَ صدقِ كلِّها قد عرفتُ نصرنا ويومَ المرجِ نصرًا مؤزرا
فلا تكفروا حسنى مضت من بلاءنا ولا تمتحنونا بعد لينٍ تجربا

شرح ديوان الحماسة، 890/2، وقال طفيل الغنوي:

بني جعفر لا تكفروا حسن سعيانا وأثنا بحسن القول في كل محفل
ولا تكفروا في الثائبات بلاءنا إذا مسكم منها العدو بكلل
فتحن متعنا يوم حرس نساءكم غداة دعانا عامر غير مؤتلي

ديوانه، ص 90، وقال الأحوص الأنصاري:

كفرت الذي أسدوا إليك وسددوا من الحسن والنعمى، نفذك ضارع

شعره، ص 191.

وقال تعالى: "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفِيَالًا بَاطِلًا يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ" (سورة النحل) وجاء في نفس السورة: "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ" (سورة النمل).

¹ صحيح ابن خزيمة، رقم الحديث: 1100 والسنن الكبرى للبيهقي، رقم الحديث: 3142

² وكذا عدد أصداد الكفر فعد الشكر ضده فقال: "قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَتَّكِرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَنِّي كَرْيَمٌ" (سورة النمل) وجاء في سورة لقمان: "وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ" (سورة لقمان).

وكذا اعتبر الكفر ضد العمل الصالح: "مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ" (سورة الروم)

وهكذا اعتبره ضد التوحيد: "وَيَقَوْمَ مَا لِيِ أَذْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَذْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفِيرِ" (سورة غافر)

ومن هنا عدّه ضد الرسالة: "يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا" (١٤). (سورة النساء)

وفي سورة البقرة عدّه ضدًا للإيمان: "تِلْكَ الْأَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا لَهُمْ وَلَكِنِ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ" (٢٥).

وقال أيضًا: "وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاسْكُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" (٧٦). (سورة آل عمران)

و"وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ" (٧٦). (سورة النحل)

وفي موضع جاء بالتحديد والرسالة كضدين للكفر: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ" (٣١). (سورة محمد)

والقرآن الكريم قد دلّنا على مرادفات عديدة للكفر ففي موضع ذكر الفسق كمرادف له فقال تعالى: "وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ" (٥٥). (سورة النور)

وفي موضع شبهه بسبيل الطاغوت وهو ضد سبيل الله فقال تعالى: "الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الظَّالِمِينَ فَفَقِّمُوا أَفْئِدَتَهُمُ الْفَاسِقِينَ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا" (٦٦). (سورة النساء)

وقال أيضًا: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا" (٣٧). (سورة النساء)

وفي موضع ساوى بينه وبين الشرك فقال تعالى: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ" (١٠). (سورة الأنعام)

وعد العصيان أيضًا من الكفر: "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ" (٣٥). (سورة البقرة)

وفي موضع آخر ذكر سبب الإنكار فقال: "إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۖ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ" (٧٦) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٦) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٦). (سورة ص)

وفي موضع ذكر الاستكبار سبب التكذيب فقال: "بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ" (٥). (سورة الزمر)

وبالباء: أنكر به،¹ ضد آمن به، كما قال تعالى: "فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّلُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ".

والعرب أيضاً أشاروا إلى بعض أضداد الكفر فثلاً قال أبو جندب الهذلي:

مننتُ على ليث بن سعد وجندع
أثيبي بها سعد بن ليث أو اكفري
ديوان الهذليين، 94/3، فالكفر هنا ضد الإثابة.

وقال العجلان بن خليل:

فإن تشكروني تشكروا لي نعمة
وإن تكفروني لا أكلفكم شكري
ديوان الهذليين، 113/3، وقال عنترة بن شداد:

نبتت عمراً غير شاكر نعمتي
والكفر مخبئة لنفس المنعم
جمهرة أشعار العرب، ص 369، وقال الخطيب:

فإن يشكروا فالشكر أدنى إلى التقى
وإن يكفروا لا ألف يا زيد كافرا
ديوانه، ص 114. فالكفر في هذه الأبيات الثلاثة ضد للشكر.

وقال خفاف بن ثدبة شاعر مخضرم واعتبر الكفر ضدًا للدين:

لم تأخذون سلاحه لقتاله
ولذاكم عند الإله أثم
لا دينكم ديني ولا أنا كافر
حتى يزول إلى صراة شمام

ديوان الأصمعيات، ص 31، وقال طفيل الغنوي:

عصيمة أجزيه بما قدمت له
يداه وإلا أجزه السعي أكفر²
ديوانه، ص 132، فاعتبر الكفر ضدًا للجزاء.

وبالجملة فالكفر لفظ تدرج من معناه الستر والتغطية إلى الإنكار فالظلم ومن هنا إلى معناه الاصطلاحي الذي يشمل فيه الكفر كل أنواع العصيان عصيان الرسول ورسالته وعصيان الرب وأوامره.

¹ هذا في الأصل وفي المطبوعة "أنكره" (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، 187/1 ومفردات القرآن، ص 306) ولعل الناشر ظن أن "أنكر" لا يتعدى بالباء، وهذا ليس بصحيح فالإنكار كما يتعدى بنفسه فكذلك يتعدى لمفعولين كما تدخل على المفعول الثاني الباء وعلى فقال الأعشى الكبير:

وإن فحّص الناس عن سيد
فسيدكم عنه لا يفحص
وهل تنكر الشمس في ضوءها
أو القمر الباهر المبرص
فهب لي ذنوبي فدتك النفوس
ولا زلت تمني ولا تنقص

ديوانه، 677/2، وقال زكريا بن درهم:

لا تنكروا السعيد فضل نعمته
لا يشكر الله من لا يشكر الناسا

موسوعة شعراء صدر الإسلام والعصر الأموي، ص 146، وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
 ديّوا ديب النمل قد آن الظفر لا تنكروا بالحرب ترمي بالشرر¹
 ديوانه، ص 52،

وبها يتعدى مرادفه (أبي) فقال غراب بن خالد السكوني:
 ألا مَنْ يرى رأي امرئ ذي قرابة أبي قلبه بالضغن إلا تطلعا
 وإن ابن عم المرء مثل جناحه يقيه إذا لاقى الكميّ المقتعا
 موسوعة شعراء صدر الإسلام والعصر الأموي، ص 247، وقال الشنفرى:
 إذا ما جئت ما أنهاك عنه فلم أنكر عليك فطلّقتني
 فأنت البعل يومئذ فقومي بسوطك لا أبا لك فاضربيني¹
 ديوانه، ص 59

ولك أن تعدّيه باللام كما وأما اللام فقال تعالى: "وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ
 مُنْكَرُونَ" (سورة يوسف)

ولكني ما وجدتها تدخل على الفعل.

وقد وجدت شواهد عديدة على هذا في مؤلفاته رحمه الله فقال، مثلاً:

"لكنهم خطبوا بالملامة والزجر على طلبهم إياها وإنكارهم بالحق الصريح". نظام القرآن وتأويل
 الفرقان بالفرقان، 166/1

"وذلك لأن المنكر بالحق الصريح لا يؤمن ولن يؤمن بآية"، المصدر نفسه، 167/1

"وفي إنكار المعاد إنكار بمعظم صفات الرب تعالى من القدرة والحكمة..." المصدر نفسه، 191/1

"كان إنكار اليهود بهذه البعثة لمجرد الحسد"، تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 33/1

وقال: "فإن هؤلاء هم الذين وضع لهم الحق وأنكروا به واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة"، نظام
 القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، 191/1

"ككيف تنكرون بما يدعوكم إلى الأمر الواضح؟"، المصدر نفسه، 226/1

"وليس سوق الكلام لإثبات الخالق، فإنهم لم ينكروا به"، المصدر نفسه، 250/1

"ولذلك أشركوا وأنكروا بالحسنى وكذبوا بآيات الله"، تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 60-59/2

"ومنهم من أنكر بكل ذلك"، حجج القرآن، ص 53

"ومنها: حذف ما ينكر به قبل كلمة "بل" لأنها تدلّ على ما أنكر به مثلاً قوله تعالى: "قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا
 كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا" (أي لم يقل الله بل أنتم تحسدوننا) بل كانوا لا
 يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا" (سورة الفتح)، أساليب القرآن، ص 29

¹ قال حسان بن ثابت الأنصاري:

تركاهم للخامعات تنوبهم ويصلون ناراً ثم نائية القعر
بكفرهم بالله والدين قائم وما طلبوا فينا بطائلة الوتر
شرح ديوانه، ص 155، وقال أيضاً:

كفرتم بالقرآن وقد أتيتم بتصديق الذي قال النذير
شرح ديوانه، ص 161، وله ما يلي:

وفوا إذ كفرتم يا سخي يربكم ولا يستوي عبد عصا ومطبع
شرح ديوانه، ص 211، وقال سراقه الباري:

كفرت بوحكم وجعلت نذراً علي قتلكم حتى الممات
ديوانه، ص 86، ويروى "كفرت بدينكم"، شرح شواهد المغني، 678/2، وقال الخليل بن أحمد
الفراهيدي:

أبلغا عني المنجم أنني كافر بالذي قضته الكواكب
عشرة شعراء مقلون، ص 224.

وقال الله تعالى: "وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ" (سورة البقرة)
وجاء في نفس السورة: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" (سورة البقرة)
وجاء في سورة النساء: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاثِرَتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا" (سورة البقرة).

وجاء في سورة آل عمران: "فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُفِي بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَأَلَّيْنِ هَاجِرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا لَأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْقَوَابِ" (سورة آل عمران).

وجاء في سورة الكهف: "أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا" (سورة الكهف).
وأراه مضمناً التكذيب كما قال تعالى:

"إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِعَاثِرِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَيَّتُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" (سورة آل عمران).

وعند الإطلاق يراد به إنكار ما ينبغي الإيمان به، كما قال تعالى: "فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ" [سورة التغابن: 2]
وهذا كثير.¹

وربما يراد به كفران النعمة، كما مرّ.

وجاء في سورة المائدة: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ" (١٥).
فشرح معنى الكفر بالشيء بالتكذيب بالشيء.
¹ قال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ" (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" (٧). (سورة البقرة)
"إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ" (١٥). (سورة آل عمران)
"أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالْطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا" (٨١). (سورة النساء)
"لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ" (٨٢). (سورة آل عمران)
"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" (٩١). (سورة المائدة)
"هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" (٩٢). (سورة التغابن)

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. أساليب القرآن للمعلم عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، الهند، ط1، 1398هـ
3. تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1965م
4. تعليقات في تفسير القرآن الكريم للإمام عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، الهند، ط1، 2010م
5. جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، تحقيق: محمد علي البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
6. حجب القرآن للإمام عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، الهند، ط1، 2009م
7. ديوان ابن مقبل، تحقيق: د. عزة حسن، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، 1995م
8. ديوان أبي النجم العجلي، جمع وشرح وتحقيق: محمد أديب عبد الواحد جمران، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 2006م
9. ديوان أعشى همدان، تحقيق: د. حسن عيسى أيو ياسين، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ط1، 1983م
10. ديوان الأصمعيات، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ط3
11. ديوان الأعشى الكبير بشرح محمود إبراهيم محمد الرضواني، وزارة الثقافة والفنون والتراث، إدارة البحوث والدراسات الثقافية، الدوحة، قطر، 2010م

12. ديوان الخطيئة، دراسة وتبويب: د. مفيد محمد قبيحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993م
13. ديوان الشنفرى، جمع وتحقيق: د. إميل بدیع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2 1996م
14. ديوان العجاج، تحقيق: د. عبد الحفيظ السطلي، مكتبة أطلس، دمشق، 1971م
15. ديوان الفرزدق، شرح الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م
16. ديوان الكميت بن زيد الأسدي، جمع وشرح وتحقيق: د. محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط1، 2000م
17. ديوان المفضليات للمفضل الضبي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط6
18. ديوان النمر بن تولب العكلي، جمع وشرح وتحقيق: د. محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط1، 2000م
19. ديوان الهذليين، الجمهورية العربية المتحدة، الثقافة والإرشاد القومي، طبعة دار الكتب، بيروت، 1996م
20. ديوان أمية بن أبي الصلت، جمع وتحقيق ودراسة: د. عبد الحميد السطلي، دمشق، 1974م، د.ت.
21. ديوان أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب، جمع وترتيب: عبد العزيز الكرم، ط1، 1988م
22. ديوان حسان بن ثابت، شرح وتقديم: الأستاذ عبدأ مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1994م
23. ديوان سراقبة البارقي الأصغر، تحقيق وشرح: حسين نصّار، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1947م

24. ديوان شعر المتلّس الضُّبي، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية، 1970م
25. ديوان طفيل الغنوي، تحقيق: حسان فلاح أوغلي، دار صادر، بيروت، ط1، 1997م
26. ديوان عدي بن زيد العبادي، تحقيق وجمع: محمد جبار المعبيد، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، 1965م
27. ديوان عروة بن حزام، جمع وتحقيق وشرح: أنطون محسن القوّال، دار الجيل، بيروت، ط1، 1995م
28. ديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر، بيروت، د.ت.
29. ديوان لقيط بن يعمر، تحقيق: د. عبد المعيد خان، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1971م
30. شرح ديوان الحماسة، كتب حواشيه: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م
31. شرح ديوان روبة بن العجاج، تحقيق: د. ضاحي عبد الباقي محمد، جمهورية مصر العربية، مجمع اللغة العربية، ط1، 2011م
32. شرح ديوان عنتر بن شداد العبسي، للعلامة التبريزي، دار الكتاب العربي، ط1، 1992م
33. شرح شواهد المغني للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، لجنة التراث العربي، د.ت.
34. شعر أبي حية النميري، جمع وتحقيق: د. يحيى الجبوري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1975م
35. شعر الأحوص الأنصاري، جمع وتحقيق: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط2، 1990م
36. عشرة شعراء مقلّون، صناعة: أ.د. حاتم صالح الضامن، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، العراق، 1990م

37. غريب الحديث للخطابي، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي، دار الفكر، دمشق، 1982م
38. كتاب العين للخليل الفراهيدي، ترتيب وتحقيق: الدكتور عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003م
39. لسان العرب لابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، د.ت.
40. مبادئ اللغة للخطيب الإسكافي، مطبعة السعادة، مصر، ط1، 1325هـ
41. مفردات القرآن للإمام عبد الحميد الفراهي، تحقيق وشرح: د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، الهند، ط3، 2012م
42. موسوعة شعراء صدر الإسلام والعصر الأموي لعبد عون الروضان، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2001م
43. نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان للإمام عبد الحميد الفراهي، اعتناء: د. عبيد الله الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، الهند، ط2، 2018م

"وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ"

- د. أرنك زيب الأعظمي¹

قال الله تعالى في سورة النساء:

"يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا". (سورة النساء)

يبدو من هذه الآية أنّ العرب، الجاهليين والإسلاميين، كانوا يؤلون أهمية كبرى لله والرحم، وكانوا يُنشِدون بهما فقال الإمام الفراهي مشيراً إلى هذا الجانب من مدلول الآية:

"قوله تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ) فيه حذف. والمراد: اتقوا الله الذي تساءلون به واتقوا قطع الأرحام التي تساءلون بها. فإنهم كانوا ينشدون بالله والرحم، وكانت عظيمة عندهم وكانوا يذكرون المآثم والعقوب معاً، والله والرحم معاً. قال زهير بن أبي سلمى: من سيء العثرات الله والرحم".²

ونودّ أن نذكر فيما يلي طرفاً من الشواهد على هذه النكتة. وهذه الشواهد كما تدلّ على هذا الواقع فكذلك تثبت أنّ العرب كانوا يعرفون حقّ المعرفة اسمَ الله، وكذا ندحض بها اتهامَ الكتّاب الأوربيين وأشباههم أنّ الرواة الإسلاميين قد أضافوا ما يشبه التعاليم الإسلامية في الشعر الجاهلي، فإنّ الإيقان بالله وعناية الرحم مما ذكره

¹ مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليّة الإسلامية، الهند

² تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 122/1

عددٌ كبيرٌ من الشعراء القدامى فقال امرؤ القيس:

فقلتُ يمين الله أبرح قاعدًا ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي¹
"أبرح" أي لا أبرح.

وقال النابغة الذبياني:

حلفتُ، فلم أترك لنفسك ريةً، وليس وراء الله للهء مذهب²
وللنابغة الذبياني أيضًا:

ونحن لديه، نسأل الله خلد، يردّ لنا ملكًا، وللأرض عامرا³
وقال تأبط شراً:

تالله آمنُ أنثى بعدما حلفتُ أسماءُ بالله من عهدٍ وميثاق⁴
"آمن" أي لا آمن.

وقال تأبط شراً أيضًا:

الله يعلم ما تركت "منبهاً" عن طيب نفسٍ، فاسألوا أصحابي⁵
وقال زهير بن أبي سلمى:

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى من الأمر، أو يبدو لهم ما بدا ليا
بدا ليا أنّ الله حقٌّ فزادني إلى الله تقوى الله ما كان باديا

¹ ديوانه، ص 125

² ديوانه، ص 27

³ ديوانه، ص 45

⁴ ديوانه، ص 128

⁵ ديوانه، ص 237

مجلة الهند - - - - - واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام

بدا ليا أنّ الناس تنفى نفوسهم وأموالهم ولا أرى الدهرَ فانيا¹
وقال حاتم الطائي:

اللهُ يعلمُ أني ذو محافظة ما لم يخني خليي يبتغي بدلا
فإن تبدّل ألفاني أختا ثقة عَفَّ الخليفة لا نكسًا ولا وكلا²
وقال حاتم الطائي أيضًا:

أفضح جاري وأخون جاري معاذ الله أفعل ما حييت³
"أفعل" أي لا أفعل.

وقال الحارث بن حلزة البشكري:

وفعلنا بهم كما علم الله وما إن للحائنين دماء⁴
وقال عمرو بن كلثوم:

تالله إما كنت جاهلة من سعيناً فسلي بنا كلبا⁵
وقال عنتره بن شداد العبسي:

بالله! ما بالُ الأُحبة أعرضتُ عنا ورامتُ بالفراق صدودها⁶
ولعنتره أيضًا:

فبالله يا ريجَ الحجاز تنفسي على كبِدٍ حرّى تذوب من الوجد⁷

¹ ديوانه، ص 139-140

² ديوانه، ص 57

³ ديوانه، ص 72

⁴ ديوانه، ص 33

⁵ ديوانه، ص 24

⁶ شرح ديوانه، ص 51

⁷ شرح ديوانه، ص 66

وقال عبيد بن الأبرص:

حلفتُ بالله، إنّ الله ذو نعم لمن يشاء، وذو عفو وتصفاح¹
وقال الأعشى الكبير:

وجارة جنب البيت لا تبغ سرّها فإنّك لا تخفى على الله خافياً²
وقالت الخنساء:

فلا والله لا أنساك حتى أفارق مهجتي وُشَقَّ رمسي³
وقال حسان بن ثابت الأنصاري:

والله أسمع ما بقيت بهالك إلا بكيت على النبي محمّد⁴
"أسمع" أي لا أسمع.
وقال حسان أيضاً:

الله يعلم ما أسعى لجلّهم وما يغيب به صدري وأضلاعي⁵
وقال الفضل بن العباس:

مهلاً بني عمّنا مهلاً موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا
لا تطمعوا أن تهينونا فنكرمكم وأن نكفّ الأذى عنكم وتوذونا
مهلاً بني عمّنا عن نحت أثلتنا سيروا رويداً كما كنتم تسيرونا

¹ ديوانه، ص 42

² ديوانه، 614/2

³ ديوانها، ص 72

⁴ شرح ديوانه، ص 88

⁵ ديوانه، ص 209

مجلة الهند - - - - - واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام

الله يعلم أنا لا نحبكم ولا نلومكم أن لا تحبونا
كلُّ له نية في بغض صاحبه بنعمة الله نقليكم وتقلونا¹
والأمثلة على هذا كثيرة في دواوين الشعراء ومجموعات الشعر الجاهلي. واكتفيت هنا
بذكر بيت أو بيتين لشاعر واحد.

وأما أهمية الرحم فقال امرؤ القيس:

كلا يمين الله يجمعنا شيء وأحوالنا بنو جُشما²
وقال النابغة الذبياني:

صبراً، بغيض ابن ريث، إنها رحم، حُبُّ³ بها فأناختكم بجمع⁴
وقال زهير بن أبي سلمى:

تقي نقي لم يكثر غنيمة بنهكة ذي قربي، ولا بحقد⁵
وقال زهير أيضاً:

خذوا حظكم يا آل عكرم واذكروا أواصرنا والرحم، بالغيب، تذكرو⁶
وقال حاتم الطائي:

لا تعذليني على مالٍ وصلت به رَحماً، وخير سبيل المال ما وصل⁷

¹ شرح ديوان الحماسة، 75/1

² ديوانه، ص 161

³ حُبُّ من حوب: ذنب.

⁴ ديوانه، ص 162

⁵ ديوانه، ص 40

⁶ ديوانه، ص 57

⁷ ديوانه، ص 56

وقال عنتره بن شداد العبسي:

أعادي صرف دهر لا يُعَادِي واحتمل القطيعة والبُعَاد¹
والقطيعة هي قطيعة الرحم.

وقال الأعشى الكبير:

أما لصاحبِ نعمة طرَّحتَها ووصالِ رَحِمٍ قد نضحتَ بلاها²
وقال الأعشى الكبير أيضاً:

أبيض لا يرهَبُ الهزال ولا يقطع رَحِمًا ولا يخون إلا
يا خيرَ من يركب المطيَّ ولا يشرب كأسًا بكفٍّ من بخلا³
ومن بين صفات الفتي التي عددها الأعشى الكبير صلة الرحم فقال:

أنت الرئيس إذا هم نزلوا	وتواجهوا كالأسد والنمر
أو فارسُ الحمام يتبعهم	كالطَّلَق، يتبع ليلةَ البهر
ولأنت أشجعُ من أسامة إذ	نَقَعَ الصُّراخُ، وُلِّجَّ في الذُّعر
ولأنت أجودُ بالعطاء من الرُّ	يَّان، لما ضَنَّ بالقطر
ولأنت أحياء من حُبَّاةٍ	عذراء، تقطن جانبَ الكسر
ولأنت أبين حين تنطق من	لقمان، لما عيَّ بالمكر
لو كنتَ من شيء سوى بشرٍ	كنتَ المنورَ ليلةَ البدر
ووجدتَ أنداها وأوصلهم	لشوابك الأرحام والصهر

¹ شرح ديوانه، ص 49

² ديوانه، 160/1

³ ديوانه، 492/2

مجلة الهند - - - - - واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام

وله جفانٌ يُدجون بها للمعتفين، وللذي يسري¹
وهو الوفيّ بجبلٍ ذمته تحتلّ في حلقٍ من الزفر
وقال الحارث بن وعلّة الجرمي:

يذكرني بالرحم بيني وبينه وقد كان في نهدي وجرمٍ تدابر
و لما رأيتُ الخيلَ تترى أثائباً علمتُ بأنّ اليومَ أحسُّ فاجر²
وقال الشاعر الجاهلي الفتاك الحارث بن ظالم:

فيا لله لم أكسب أثاماً ولم أهتك لذي رحمٍ حجاباً³
وقال حسان بن ثابت الأنصاري:

لولا ابنٌ هيشة إن المرء ذو رحم إذا لأنشبت بالزواء أظفاري⁴
وقال عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

إني سمعتُ رجلاً من ذوي رحي هم العدوّ بظهر الغيب قد نذروا
أنّ يقتلوك، وقالك القتلَ قادره، والله جارك مما أجمع النفر⁵
وقال النعمان بن بشير الأنصاري:

إذا متّ ذو القربى إليك برحمه وغشك واستغنى فليس بذي رُحم⁶

¹ ديوانه، 661-660/2

² ديوان المفضليات، ص 165

³ ديوان المفضليات، ص 313

⁴ شرح ديوانه، ص 180

⁵ ديوانه، ص 206

⁶ ديوانه، ص 141

وقال الحكم بن عبدل:

ولم أجد عروة الخلائق إلا الدِّينَ لما اعتبرتُ والحسبا¹

وقال الكميت الأسدي:

لنا الرحم الدنيا وللناس عندكم سجالُ رغباتُ اللهى وذُنُوبُها²

وقال أبو خراش الهذلي:

بفقد امرئ لا يجتوي الجارُ قربه ولم يك يُشكى بالقطيعة والظلم

يعود على ذي الجهل بالحلم والنهى ولم يك فحاشاً على الجار ذا عذم³

ولم يك فظاً قاطعاً لقربة ولكن وصولاً للقربة ذا رحم⁴

وقال الفرزدق:

ألا تذكرون الرِّحَمَ أو تُقرِضونني لكم خُلُقاً من واسع الحلم ماجد⁵

وقال أعشى ميمون:

عنده الحزم والتقى وأسا الشق وحملُ المُلْضِعِ الأثقال

وصلاتُ الأرحام قد علم النا سُوفُكُ الأسرى من الأغلال⁶

وقال أعشى همدان أيضاً:

تعوذُ إذا ما قَتَ من بعدِ هَجْعةٍ من المرء في سلطانه المُتَفَحِّشِ

¹ شرح ديوان الحماسة، 736/2

² ديوانه، ص 68

³ عذم: الأخذ باللسان واللوم والوقية

⁴ ديوان الهذليين، 152/2

⁵ ديوانه، ص 123

⁶ جمهرة أشعار العرب، ص 220

ومن رجلٍ لا تعطف الرِّحْمُ قلبه جريء على أحواله مُتَحَرِّشٌ¹
عطف: عطل وثنى.

وقال المخبل السعدي:

مددتُ برحم عند حنظل أبغي بها الودَّ والقربى فضلَ ضلالها²
وقال زهير بن أبي سلمى يذكرهما معاً:

فأصبحتُما منها على خيرِ موطن بعيدين فيها من عُقُوق ومأثم³
العقُوق: قطيعة الرحم، والمأثم: الإثم.

ويؤيده نظير قوله تعالى في سورة البقرة: "وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٦١﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٢﴾". (سورة البقرة)

وقال، وهذا أوضح:

ومن ضريبتَه التقوى ويعصمه من سيء العثرات الله والرحم⁴
واليه الإشارة في قول معن بن أوس التالي:

فلولا اتقاء الله والرحم التي رعايتها حقَّ وتعطيها ظلم
إذاً لعلاه بارقي وختمته بوسمٍ شنارٍ لا تشاكه وسم⁵
ونجده تعالى على أنه وفّقنا لسرد هذه الشواهد.

¹ ديوانه، ص 133-134

² عشرة شعراء مقلّون، ص 70

³ جمهرة أشعار العرب، ص 162

⁴ ديوانه، ص 118

⁵ ديوانه، ص 42

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. تعليقات في تفسير القرآن الكريم للإمام عبد الحميد الفراهي، أعداد: د. عبيد الله الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، ط1، 2010م
3. جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، تحقيق: محمد علي البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
4. ديوان أعشى همدان، تحقيق: د. حسن عيسى أيو ياسين، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ط1، 1983م
5. ديوان الأعشى الكبير بشرح محمود إبراهيم محمد الرضواني، وزارة الثقافة والفنون والتراث، إدارة البحوث والدراسات الثقافية، الدوحة، قطر، 2010م
6. ديوان الحارث بن حلزة بشرح الدكتور إميل بدیع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، 1991م
7. ديوان الخنساء، اعتنى به وشرحه: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، 2004م
8. ديوان الفرزدق، شرح الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م
9. ديوان الكميت بن زيد الأسدي، جمع وشرح وتحقيق: د. محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط1، 2000م
10. ديوان المفضليات للمفضل الضبي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط6
11. ديوان النابغة الجعدي، جمع وتحقيق: د. واضح الصمد، دار صادر، بيروت، ط1، 1998م

12. ديوان النعمان بن بشير الأنصاري، تحقيق: الدكتور يحيى الجبوي، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط2، 1985م
13. ديوان الهذليين، الجمهورية العربية المتحدة، الثقافة والإرشاد القومي، طبعة دار الكتب، بيروت، 1996م
14. ديوان امرئ القيس، ضبطه وصحّحه: الأستاذ مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م
15. ديوان تأبط شراً وأخباره، جمع وتحقيق وشرح: علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1984م
16. ديوان حاتم الطائي، شرح: أبي صالح يحيى بن مدرك الطائي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1994م
17. ديوان حسان بن ثابت، شرح وتقديم: الأستاذ عبدأ مننا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1994م
18. ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح وتقديم: الأستاذ علي حسن فاعور، دار التب العلمية، بيروت، ط: 1، 1988م
19. ديوان عبيد بن الأبرص، بشرح: أشرف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994م
20. ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر.
21. ديوان عمرو بن كلثوم، جمعه وحققه وشرحه: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1991م
22. ديوان معن بن أوس المزني، صنعة: د. نوري حمودي القيسي وحاتم صالح الضامن، دار الجاحظ، بغداد، 1977م
23. شرح ديوان الحماسة، كتب حواشيه: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: أحمد

- شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م
24. شرح ديوان عنتر بن شداد العبسي، للعلامة التبريزي، دار الكتاب العربي، ط1، 1992م
25. عشرة شعراء مقلون، صنعة: أ.د. حاتم صالح الضامن، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، العراق، 1990م

أضواء على جهود الإمام عبد الحميد الفراهي في مجال الدراسات القرآنية

- د. عظمت الله¹

مدخل إلى الموضوع: الإمام عبد الحميد الفراهي اسم غني عن التعارف لكل من له شغف بعلوم القرآن ودراساته على أرض الهند بشكل خاص وفي العالم الإسلامي بشكل عام، لما حاول الإمام بكل ما أوتي من علم وأهلية ورسوخ في العلم، بفضل من الله وتوفيقه، بذل كل غالٍ ونفيس في سبيل خدمة التنزيل الحكيم، فيما أتى بلطائف فريدة وأبحاث جديدة ذات الصلة بعلوم القرآن على الباحثين والمهتمين بخدمة كتاب الله المجيد والاستفادة منه تدبراً وتأملاً.

ويتضح، في أعقاب دراسة حياته المفعمة بالإنجازات العلمية والأدبية ولاسيما الدراسات القرآنية، أنّ هذا الإمام الذي جعله الله رجلاً موهوباً في مجال العلوم واللغات والفنون، كرّس حياته وطاقته على تدبر القرآن الكريم معني ومفهوماً ولغة وتفسيراً وتأويلاً للآيات القرآنية وما لها شأن بالعلوم واللغات. حتى أنه عكف على هذا العمل النبيل عكوفاً جاداً لفترة طويلة من الزمن، تستغرق حوالي أربعة عقود من الزمن، فيما قدّم الإمام الفراهي إسهامات قيمة وخدمات استثنائية وفريدة من نوعها في مجال علوم القرآن، حتى حظي المجال بمنهج جديد علماً ومعرفة وفكراً وتدبراً. فهذا المقال يسلط الضوء على الجهود المشكورة التي بذلها الإمام الفراهي في هذا الصدد، وإنها محاولة بسيطة لنطلع من خلالها، على شغف الإمام بالقرآن تدبراً

¹ أستاذ مساعد (متقاعد)، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي، الهند

وخدمة، مما أدى إلى تقديم الإسهامات الهامة واللطائف الفريدة في علوم القرآن. هذا ولا يمكن اعتبار هذه المحاولة بأنها استوعبت كافة الإبداعات والأمور التي أتى بها الإمام ضمن أعماله وإنجازاته في علوم القرآن.

نبذة عن الإمام الفراهي: يُعدّ الإمام الفراهي المعروف بحميد الدين (عبد الحميد) بن عبد الكريم بن محمد باقر الأنصاري (1863-1930م)، من أحد الشخصيات الفذة التي أنجبتها الهند في تاريخها المشرق، قلّما يوجد له مثيل، وتألّأت هذه الشخصية في أفق العلم والأدب شبه القمر البازغ في القرن السابع عشر من الميلاّد في شرقي الهند. وتربّى في كنف والده حيث حفظ القرآن الكريم في صغر سنّه، ثم استفاد من نخبة العلماء والأدباء والأساتذة البارعين الذين كان لهم قدم راسخة في مجالات العلوم والآداب، مثل العلامة شبلي النعماني، والشيخ عبد الحي الفرنكي محلي بمدينة لكناؤ، والعلامة فيض الحسن السهارنفوري بمدينة لاهور، كما أنه نهل من مناهل المؤسسات التعليمية الحكومية مثل جامعة علي غراه الإسلامية وجامعة إله آباد، فكان له جولة وصول في بلاد الهند شرقاً وغرباً ليشفي غليله ويروي ظمأه من منابع العلم والفن علماً وفكراً وثقافة.

على منابر التدريس: بدأ الإمام الفراهي مهامّ التدريس من مدرسة الإسلام بمدينة كراتشي، كأستاذ اللغة العربية، ثم في كلية علي غراه الإسلامية، وبعد ذلك تم تعيينه كأستاذ الأدب العربي في جامعة إله آباد، ومن هنا توجه إلى مدينة حيدرآباد ليلتحق بكلية دار العلوم كمدير لها. إذ أنه خدم كلاً من أكاديمية دار المصنّفين ومدرسة الإصلاح في أواخر أيام حياته. وبعد قضاء الحياة الحافلة بالإنجازات العلمية والأدبية في مجالات الآداب والفنون ولاسيما في علوم القرآن. لقد انتقل الإمام الفراهي إلى رحاب الله وذلك في اليوم الحادي عشر من شهر يناير عام 1930م. هكذا إنه عاش أكثر من ستة عقود من ربيع حياته في هذا الكون. وخلال تلك الفترة، إنه ملأ الناس وشغل الدنيا بإسهاماته وإبداعاته العلمية والأدبية والتي يربو عدد مؤلفاته على 20

مؤلفاً من أهمها جمهرة البلاغة، إمعان في أقسام القرآن، الرأي الصحيح في من هو الذبيح، مفردات القرآن، دلائل النظام، التكميل في أصول التأويل، أساليب القرآن، في ملكوت الله، والقائد إلى عيون العقائد، وتفسير نظام القرآن، وترجمة 20 سورة من القرآن- من سورة القيامة إلى سورة الناس- وغيرها من الكتب الأخرى في اللغة الفارسية أيضاً. وثمة كتب أخرى تم إعدادها في شكل الكتب والرسائل بعد وفاة الإمام، والتي تحتوي على مذكراته ومقالاته العلمية. وإن دلت هذه الإسهامات القيمة على شيء فإنها تدلّ على جدارته وشغفه وتفانيه في خدمة العلم والفن ولا سيما التدبر والتفكير في كتاب الله العظيم ليأتي بما وفق من علم ورأي وتأويل وتفسير، لتعم الفائدة وليخلق جواً صالحاً مؤثراً لمن يرغب في الاستفادة من القرآن.

جدير بالذكر في سياق حياة الإمام الفراهي، أنه كان رجلاً مواظباً على العبادات والأعمال الدينية كلها منذ أن بلغ سنّ الرشد، بما أنه واطب على قيام الليل منذ سنّ الثالثة عشر من عمره.¹ وفي كبر سنّه، حيثما مكث أو قضى الإمام أياماً وليالي نخلق جواً مفعماً بالنشاط والحماس والشوق لدى كل من حوله، مما أثار وشجّعهم على صالح الأعمال مثل الصلاة بالجماعة والحديث عن القرآن والسنة النبوية، كما يكتب الشيخ عبد الماجد الدرايا آبادي:

"الشيخ الفراهي لم يكن مهتماً بإقامة الصلاة لوحده فحسب، بل كان يبدأ الآخرون أيضاً الاهتمام بالصلاة بمهاتمه ورعبه، فطالما كان الإمام يقيم في دار المصنفين فيكون هناك نشاط واهتمام بالغان لإقامة وأداء الصلوات".²

وطبعاً يرجع الفضل كله إلى توفيق الله، في هذا الصدد، كما ثمة بركات من القرآن الكريم الذي حفظه الإمام عن ظهر القلب في أيام طفولته، وتلك نعمة لا يمكن أن

¹ ذكر فراهي، ص 837

² معاصرين، ص 122

يشعر بها إلا صاحب هذا الحظ العظيم ولا سيما إذ حالفه الحظ تلقى العلوم الدينية بما فيها علوم القرآن والسنة. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. ويا لها من هذا الفضل، فنعم الرجل الذي حظي بهذه النعمة.

شغف الإمام بتدبر القرآن: وفي ضوء ما سبق ذكره من سياق الإسهامات والإنجازات التي قدمها الإمام الفراهي خلال حياته الممتدة لما يقارب من سبعة عقود من الزمن، بعد الدراسة المتأنية والقراءة الدقيقة لها، نتخلص إلى أنه رجل موفق يحظى بشغف زائد واهتمام فائق، في تدبر القرآن الكريم. فيتسنى له أن يقدم أمام العالم، النقاط واللطائف الاستثنائية والفريدة التي يتميز بها القرآن الكريم. وكان هذا الشغف يخاطر في قلبه ليلاً ونهاراً، حتى تعود على أن يقضي أوقاته في التدبر والتفكير في هذا الكلام الرباني يومياً منذ الساعة الثالثة فجراً حتى التاسعة صباحاً كل يوم.¹

وفيما يخص مدى شغفه في تدبر القرآن، سلط عدد كبير من الكتّاب المهنود الضوء على هذا الاتجاه، إذ كتب الشيخ شاه معين الدين الندوي:

"الشيخ حميد الدين (عبد الحميد) الفراهي من العلماء الذين قد نذروا حياتهم لخدمة الإسلام ولا سيما القرآن الكريم، وكان قد رزقه الله ملكة خاصة على فهم كلامه وعلى حل ما يصعب فهم القرآن، ومن هذا المنطلق، وإنه كان ترجمان القرآن بمعنى صحيح في هذا الزمن".²

بداية تدبر القرآن الحكيم: جاء على لسان الإمام الفراهي بنفسه أنه بدأ يتدبر القرآن الحكيم منذ أن كان طالباً قبل مرحلة البكالوريوس في كلية علي غراه الإسلامية،³ وهذه هي الفترة التي كان يكتب خلالها، مؤسس الكلية السير سيد أحمد خان،

¹ علامه حميد الدين فراهي ايك عظيم مفسر، ص 47

² نفس المصدر، ص 48

³ ذكر فراهي، ص 168

تفسيراً للآيات القرآنية حسب وجهات نظره العلمانية وما يعارض مقاصد الشريعة والسنة. مما أثار جدلاً واسعاً في الأوساط العلمية في الهند، ومما يبدو أنّ هذا هو الوضع الذي دفع الإمام الفراهي منذ زمن الدراسة، على تدبر التنزيل الحكيم بكل جدية، وأصبح القرآن شغله الشاغل، ليتسنى له تفسير الآيات القرآنية بالقرآن وليقدّم أمام مرأى ومسمع الناس، أصدق مفهوم وتفسير وتأويل للقرآن الحكيم.

ومنذ تلك الفترة، بدأ الإمام الفراهي يكتب حول المواضيع والقضايا والأمر التي تعتبر مشكلة أو تحول دون فهم القرآن فهماً صحيحاً، فيما ركّز الإمام كل التركيز على ربط السور والآيات مع بعضها البعض كتابة ومعنى، وذلك حسب ترتيب الآيات والسورة المكتوبة. فانطلقت منه أفكار وآراء تتمثل في تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان.

بينما لا يمكن تحديد أيّ فترة زمنية فيما بدأ الأمام كتابة هذا التفسير على نهجه الخاصّ إلا أنّ هناك خطاباً تلقاه الشيخ شبلي من الإمام الفراهي الذي قدّم عليه باكورة العمل البدائي لتفسير نظام القرآن، وربما نحدد الفترة البدائية لهذا العمل الهام، بناء على تاريخ هذا الخطاب هو 9 مارس 1903م.¹

هذا، وبعد قراءة ما كتبه الإمام حول شتى المواضيع العلمية والأدبية، يتضح بأنه كتب مذكرات ومقالات مختلفة باللغة العربية حول المواضيع المختلفة ذات الصلة بعلوم القرآن، وإنّ لها فوائد ومنافع بالغة الأهمية لكلّ من يرغب في الاستفادة من القرآن الكريم. وفي هذا المنطلق، كان يكتب الإمام الفراهي بكثرة على هوامش المصحف الذي كان يلو فيه الآيات القرآنية، ويذكر أنّ هناك نسختين من المصاحف التي كتب عليها الإمام شرحاً وتوضيحاً وتفسيراً للآيات القرآنية على هوامشها.

إقامة حلقات ودروس للقرآن الكريم: وبسبب شغفه البالغ في تدبر القرآن الكريم،

¹ نفس المصدر، ص 213

كان الإمام الفراهي يقيم حلقات ليلقي فيها دروساً حول القرآن وتعاليمه في كل مكان زاره أو أقام فيه، ومن أهم هذه الأماكن مدينة كراتشي، ومدينة حيدرآباد، وندوة العلماء بلكاؤ، والجامعة المليّة الإسلامية بعلي غراه، ومدينة بنارس انتهازاً للفرصة زيارة شقيقه وكذلك في الحجاز أثناء أداء الحج¹

دروس للقرآن الكريم في الجامعة المليّة الإسلامية بعلي غراه: في أوائل أيام تأسيس هذه الجامعة، زار الإمام الفراهي الجامعة المليّة الإسلامية، تلبية لدعوة وجهها إليه شيخ الجامعة عبد المجيد الخواجه، لإلقاء محاضرات ودروس أمام الطلاب والأساتذة ليستفيدوا منه، ويذكر أنّ الإمام الفراهي مكث ما يقارب من ثلاثة أشهر في حرم الجامعة، وألقى دروساً قرآنية باللغة الأردية، وكان موضوع الدروس القرآن الكريم بشكل عام.

وذكر صاحب كتاب "ذكر فراهي" أنّ الإمام الفراهي كان يلقي محاضراته وهو واقف، فأولاً كان يتلو الآيات القرآنية، ثم يترجمها، ثم يشرح تفسيرها، ابتداء من الشرح اللغوي وبعد ذلك، كان يلقي الضوء على أهم المطالب والمقاصد ضمن تفسير الآيات القرآنية، وفي الختام، كان يتطرق إلى النقاط الرئيسية واللطائف الجديدة على نحو يترك أثراً قوياً في أذهان الحضور.²

في حيدرآباد: كان الإمام الفراهي يقيم حلقات بعد صلاة المغرب في مدينة حيدرآباد، ليلقي فيها دروساً وخطاباً حول القرآن وتعاليمه، وطرح الناس عليه أسئلتهم عن شكوك وغموض.

جدير بالذكر أنّ مدينة حيدرآباد هي أول مكان أقام به الشيخ لغرض التدريس، حيث إنه بدأ إلقاء دروس القرآن.³

¹ نفس المصدر، ص 856

² نفس المصدر، ص 515

³ نفس المصدر، ص 403

حلقات قرآنية في مدرسة الإصلاح: كانت مدرسة الإصلاح آخر وأهم مكان اشتغل فيه الإمام بإلقاء دروس القرآن كل الاشتغال. حتى ترك بصماته الأخيرة وأفكاره القوية في مجال علوم القرآن. وبدأت المدرسة تعرف باهتمامها الخاص بعلوم القرآن وتفسيره، ونعز بقول أن أحد أبناء هذه الدار وفق بكاتبه تفسير مهم للقرآن الكريم باسم "تدبر قرآن"، ألا وهو الشيخ أمين أحسن الإصلاحي، التلميذ الخاص للإمام الفراهي، وذلك على منهج خاص تبنّاه الإمام لأجل كتابة تفسير نظام القرآن. ويكتب صاحب كتاب ذكر فراهي أن إلقاء هذه الدروس القرآنية في مدرسة الإصلاح بدأ في عام 1925م واستمر حتى 1930م.¹

وكتب السيد سليمان الندوي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه "ياد رفتگان":

"أنّ الشيخ جعل القرآن محوراً رئيسياً للتعليم. وكان يشكل مجموعة تشمل المدرّسين والطلبة المتفوقين، وألقى لهم دروساً للقرآن الكريم كلها عدة مرات من وجهات النظر المختلفة، مادام حياً".²

فترة العمل على علوم القرآن: إذا أمعنا النظر في قراءة الفترة التي عمل خلالها، الإمام الفراهي، على تدبر وتفكر في القرآن الكريم تعليمًا وتعلّمًا، فإنها تمتد من زمن تعليمه في مدينة علي غراه، حتى وافته المنية، وذلك من عام 1883م حتى عام 1930م، تمتد إلى 47 سنة. وخلال هذه العقود الأربعة من الزمن، أورد الإمام الفراهي بأهم النقاط واللطائف في تفسير القرآن، وأطلق منهجه الجديد لتأويل القرآن بالقرآن.

كتب السيد سليمان الندوي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه "ياد رفتگان": "هو الذي اشتغل بتدبر القرآن الكريم ومجرد فهم وتفكر فيه وتعليمه وإلقاء الدروس حوله لمدة

¹ نفس المصدر، ص 519

² ياد رفتگان، ص 132.

ثلاثين سنة كاملة".¹

والأهمية بمكان أنّ الإمام الفراهي نذر أيامه الأخيرة من حياته، على خدمة القرآن وعلومه بشكل خاص، وبعد تقاعده التطوعي من كلية دار العلوم بجيدر آباد في عام 1919م، عكف على هذه الخدمة النبيلة، من مدرسة الإصلاح، وبدأ ينفذ مشاريعه من خلال الكتابات وإلقاء الدروس القرآنية في حرم هذه المدرسة، فقام بإعداد منهج خاص يركز على كتاب الله والسنة النبوية، وهذه الفترة المركزة تستغرق عشرين سنة منذ أن بدأ الإمام يزور حرم هذه الدار ثلاثة أيام أسبوعياً حتى تأثرت به رحمة الله في عام 1930م. رَحِمَهُ اللهُ رحمة واسعة.

مجالات العلوم القرآنية: تشمل الكتب والمقالات والمذكرات القيّمة التي كتبها الإمام الفراهي، مجالاتٍ مختلفةً تختصّ بكلمات القرآن، وأسلوبه، وبلاغته، وكلمات الأقسام الواردة في السور المختلفة من القرآن، وحكمة القرآن، ونظم وربط آيات وسور القرآن مع بعضها البعض، وأصول التأويل والتفسير، وتاريخ القرآن، وأسباب النزول، وحجج القرآن، وفقه القرآن، وتفسير 36 سورة من القيامة إلى الناس، وذلك إضافة إلى المحاضرات والحلقات والدروس التي أقامها الإمام الفراهي حول القرآن، وثمة عدد كبير من كتاباته التي سواء لم تكتمل أو لم تنشر في شكل الكتب.

إنجازاته العملية الخاصة بعلوم القرآن: يطيب لي أن أوضح في البداية عن كتاباته، بأنّ كافة الموضوعات التي كتبها الإمام الفراهي في مجال علوم القرآن، كلها في اللغة العربية، ويعتبر معظمها رسائل ومقدمة لتفسير نظام القرآن، ونشرت بعضها في حياته وبعضها بعد وفاته، ومن أهمها ما يلي:

1. إمعان في أقسام القرآن: ألّف الفراهي هذا الكتاب أثناء مكوثه في مدينة علي

¹ نفس المصدر، ص 110

غراه، والذي يحتوي على 55 صفحة، ونشرته المطبعة الأحمدية بمدينة علي غراه، في عام 1329هـ الموافق لـ 1911م،¹ تناول فيه المعلم الفراهي كلمات وحروف وآيات القسم، التي وردت في القرآن الكريم، شرحاً لماذا أقسم الله جلّ وعلا في القرآن بالحروف والكلمات والآيات، إذ يمثل الموضوع الرئيس لهذا الكتاب شرح الأقسام شرحاً فريداً.

وفيما يخص بأهمية هذا الكتاب، كتب الدبلوماسي السعودي في الهند السيد يوسف الفوزان إلى وكيل الدائرة الحميدية السيد عبد الرحمن ناصر، ما يلي:

"وبعد، فقد اطلعنا على الكتاب المقدّم من قبلكم الموسوم (إمعان في أقسام القرآن) من تصانيف الشيخ النابغة المعلم عبد الحميد الفراهي رَحِمَهُ اللهُ وَغَفَرَ لَهُ- والكتاب لا شك في أنه يدلّ على سعة علم المصنف والفقيد وتخصّصه في أسرار القرآن الحكيم، وأعتقد أنّ طلاب الشريعة وعلوم القرآن بالأخص سوف يجدون فيه مبتغاهم ويفيدون منه فائدة جلة، وشكر الله سعيكم ووفقنا جميعاً لما فيه الخير".²

2. جمهرة البلاغة: هذا الكتاب يتضمن مقالات وكتابات عديدة كتبها الإمام الفراهي في حياته، حول البلاغة والأسلوب البلاغي في القرآن الكريم، ويحتوي هذا الكتاب على 88 صفحة، وطُبعت النسخة الأولى لهذا الكتاب في عام 1360هـ الموافق لـ 1941م³ من قبل الدائرة الحميدية. ثم صدره له طبعات ثلاث اثنتان منهما محقّقتان من دبي وتركيا.

ويذكر أنّ الإمام الفراهي ألّف هذا الكتاب أثناء قيامه في مدينة كراتشي، في عامي 1904-1905م، مما يتضح من رسالة كتبها الشيخ شبلي له في 3 يونيو

¹ ذكر فراهي، ص 681

² نفس المصدر، ص 686

³ نفس المصدر، ص 677

عام 1905 م.¹

وطبعاً، تناول الإمام الفراهي في هذا الكتاب، نقاطاً جديدة وفريدة فيما يخصّ شرح البلاغة والفصاحة في القرآن الكريم بشكل خاص، والكتاب له أهمية خاصة في شرح الإعجاز البلاغي من القرآن الكريم، كما يزيد الكتاب أهمية في مجال البلاغة والفصاحة بشكل عام.

3. مفردات القرآن: يأتي هذا الكتاب ضمن الكتب التي كتبها الإمام الفراهي لفهم معاني القرآن الكريم فهماً صحيحاً، ويحتوي على 74 صفحة، طُبع هذا الكتاب لأول مرة، في شهر فبراير عام 1940 م،² وقامت بنشرها مطبعة الإصلاح ببلدة سرائير، بعد وفاة الإمام الفراهي.

شرح الإمام الفراهي في هذا الكتاب، كلمات خاصة من القرآن الكريم، على نحو يختلف عن شرح المفسرين وأصحاب التأويل لنفس الكلمات، بينما كتب الإمام في مستهل مقدمة الكتاب، حول خلفية كتابة هذا الكتاب وغرضه، وذلك ما يلي:

"أما بعد، فهذا كتاب في مفردات القرآن، جعلته مما نحول إليه في كتاب نظام القرآن لكي لا نحتاج إلى تكرار بحث المفردات إلا في مواضع يسيرة، يكون فيها الصحيح غير المشور، فسندكر بقدر ما تطمئن به القلوب السليمة، ولا نورد في هذا الكتاب من الألفاظ إلا ما يقتضي بياناً وإيضاحاً. أما لبناء فهم الكلام أو نظمه عليه فإنّ الخطأ ربما يقع في نفس معنى الكلمة، فيبعد عن التأويل الصحيح أو في بعض الوجوه، فيغلق باب معرفة النظم، وأما عامة الكلمات فلم نتعرض لها وكتب اللغة والأدب كافلة به. ومع ذلك تجد هذا الكتاب إن شاء

¹ نفس المصدر، ص 675

² نفس المصدر، ص 693

الله محتوياً على جلّ ما يقتضي الشرح من ألفاظ القرآن".¹

4. دلائل النظام: قامت بنشر هذا الكتاب، الدائرة الحميدية، في عام 1968م، مشتملة على 127 صفحة،² والذي يحتوي على بعض الكتابات التي تناولها الإمام الفراهي ضمن جهوده الهادفة إلى عرض نظم القرآن، وقام بجمعها وتدوينها الشيخ بدر الدين الإصلاحي، الرئيس السابق لهذه الدائرة، فإنه يكتب عن هذا الكتاب ما يلي:

"فهذا أول مجموعة من أفكاره النادرة القرآنية التي وفّقني الله تعالى بجمعها وترتيبها، وهكذا أجمع كلّ تأليف له وأنشره واحداً بعد واحد، إن شاء الله".³ وفي اقتباس آخر:

"فاعلم أنّ هذا الكتاب ليس إلا مجموعاً من أفكار الإمام الفراهي، فقد ابتكرها لكتابة هذا- دلائل القرآن- ولكن لم يتسرّ له أن يرتّبها ما عدا عدة فصول توجد في أوائله (1-10) فما زاد على ذلك فهو مما كان مبعوثاً في مخطوطاته، فجمعتها أنا كما وجدته ورتّبته حسبما رأيت مناسباً فإن أصبت فيه فبتوفيق ربي، وإن أخطأت فن نفسي، والأستاذ بريء منه".⁴

وفيما يخصّ موضوع هذا الكتاب، يكتب الشيخ الإصلاحي كما يلي:

"معرفة النظم في معاني الآيات والسور، هو الموضوع لكتابنا هذا. وأما نظم القرآن من حيث إنه على ترتيب كان في عهد النبي صلوات الله وسلامه عليه، فهو أمر لا يشك فيه إلا من جلّ بالتاريخ، فإن السور كلها كانت تقرأ في

¹ نفس المصدر، ص 692

² نفس المصدر، ص 695

³ نفس المصدر، ص 695

⁴ نفس المصدر، ص 695

الصلاة في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبلغ هذا حد التواتر. فإنهم كانوا يقرؤونها في صلواتهم وكانوا يسمعون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأها".¹

5. التكميل في أصول التأويل: يتضمن هذا الكتاب 70 صفحة، وأصدرت المطبعة

الحمدية لمدرسة الإصلاح، طبعها الأولى في عام 1388 هـ الموافق لـ 1968 م.² وألف الإمام الفراهي هذا الكتاب ضمن 12 كتاباً كمقدمة لتفسير نظام القرآن، مشيراً إلى أنه يمكن اعتباره كفنّ مستقلّ لعلوم التفسير، وتم تأليف هذا الكتاب بحثاً عن الأصول التي من شأنها أن تكون عوناً في فهم القرآن الكريم فهماً صحيحاً. كما كتب الإمام الفراهي عن هذا الكتاب، ما يلي:

"غاية هذا الكتاب هي معرفة الأصول التي تعين على فهم القرآن حسب أقسام البشر. وهذه الأصول تنقسم على قسمين: الأول ما يعصم عن الزيغ في التأويل، والثاني ما يهدي إلى الحكم التي يتضمنها كتاب الله".³

6. أساليب القرآن: يشمل هذا الكتاب مجموعة من الكتابات والمذكرات مثل الكتب الأخرى التي ألفها الإمام الفراهي كمقدمة لنظام التفسير، وإنّ هذا الكتاب له 56 صفحة، نشرت المطبعة الحمدية نسختها الأولى في عام 1389 هـ الموافق لـ 1969 م،⁴ وقام الشيخ بدر الدين الإصلاحي بجمع كافة الكتابات والإشارات المكتوبة في شكل الكتاب المسمى بـ "أساليب القرآن"، بينما كان الإمام الفراهي سماه بـ "كتاب الأساليب"، وفيما يلي اقتباس من نفس الكتاب:

"هذا الكتاب ليس ككتاب المفردات مختصاً بالقرآن، ولكنه متضمن لفنّ

¹ نفس المصدر، ص 697

² نفس المصدر، ص 698

³ نفس المصدر، ص 699

⁴ نفس المصدر، ص 701

برأسه، يجري حكمه في عموم أساليب كلام العرب "غير ما اختص بالقرآن لكونه منزلاً على رسول".¹

كما شرح الشيخ الإصلاحي كل ما ورد في هذا الكتاب معنى ومضموناً وغرضاً، في الاقتباس التالي:

"وبعد، فإن هذا مجموع من الإشارات التي اختزنها أستاذنا الإمام الفراهي رَحِمَهُ اللهُ لكتابه الأساليب، قد أفرد له لذكر وجوه الأساليب في القرآن، وبيان دلالاتها وموقع استعمالها، ولكنه لم يتيسر له أن يؤلف هذا الكتاب الجليل، وينقل فيه الإشارات إلى مواضعها، وبقيت كما كانت مبثوثة في مخطوطاته ومبعثرة فيها، ولكنها إذا كانت مشتملة على مباحث مهمة وفوائد جلية، فأردت أن أجمع هذه الدرر وأنظمها في سلك، لعلها تكون نافعة لمن أراد أن ينتفع بها، فجمعتها في هذا المجموع من غير زيادة ولا نقصان. فالرجاء من الذين سيقروونه أن لا يعاملوه ككتاب مرتّب، بل ينظروا فيه بالإمعان والتدبر، لأنه مجموع من الإشارات".²

7. في ملكوت الله: نشرت الدائرة الحميدية في عام 1971م³ النسخة الأولى لهذا الكتاب الذي يتضمن كتابات عديدة دبّجها يراع الإمام الفراهي في حياته ضمن رسائل أو مقدمة لنظام القرآن، ولكنه لم يتم طبعها في أيام حياته، وهذا الكتاب يعدّ من أهم الكتابين اللذين حظيا بأولوية في نشر سلسلة من كتابات الإمام الفراهي. فحاول الشيخ بدر الدين الإصلاحي لجمع هذه الكتابات وترتيبها في شكل هذا الكتاب.

وأذكر هنا، اقتباساً من هذا الكتاب، يختص بأهمية هذا الكتاب موضوعاً وعلمياً:

¹ نفس المصدر، ص 701

² نفس المصدر، ص 701

³ نفس المصدر، ص 704

"أما بعد فهذا كتاب من مقدمة نظام القرآن، باحث عن مسألة ملكوت الله الجامعة لمعارف مهمة من علوم القرآن التي لا يتطلع عليها الطالب إلا إذا قام على هذه النقطة الجامعة التي تنفجر منها أنهار العلوم، كأنها نبعت من عين جموم. وإذا لم يتعرض لها أحد من علمائنا، ينبغي أولاً أن نعرفها ونبين وجوهاها، ونذكر المعارف التي يحصل منها، حتى يتضح موضعها في علم الدين، ويتبين نفعها لطلاب الطمأنينة واليقين".¹

8. القائد إلى عيون العقائد: هذا الكتاب أيضاً يشمل كتابات ومذكرات دُجِّبها يراع الإمام الفراهي حول أهم المسائل الواردة في القرآن الكريم، ونشرت المطبعة الحميدية نسختها الأولى لهذا الكتاب في عام 1975م، يحتوي الكتاب على 200 صفحة،² والذي يعتبر من أهم الكتب التي ألّفها الإمام كمقدمة لتفسير نظام القرآن. تناول الإمام الفراهي في هذا الكتاب، موضوعات تتعلق بقضية العقيدة وغيرها من القضايا الأخرى مثل صفات الله، والحسن والقيح بأمر الله ومشيتته، والهداية والضلال، ورؤية الله، والشفاعة في ضوء القرآن الكريم.

9. حكمة القرآن: يحتوي هذا الكتاب على عدة مباحث، ويبلغ إجمالي عدد صفحاته 210 صفحة، ونُشر الكتاب بعد وفاة الإمام الفراهي، وذلك من خلال جمع المذكرات والكتابات التي صدرت من قلبه الرصين حول موضوع حكمة القرآن. ويعتبر هذا الكتاب مؤلفاً علمياً قيماً يحتضن بطنه معارف ومعلومات علمية وفكرية عن كلمة الحكمة التي وردت في القرآن الكريم من مختلف النواحي، كما ينطق الكتاب بشتى المعاني والمفاهيم التي تنبع من هذه

¹ نفس المصدر، ص 705

² نفس المصدر، ص 707

الكلمة، وطبعاً، يستقطب عنوان هذا الكتاب كل من له أي شغف بعلوم القرآن ودراساته علماً وفكراً وعملاً، بما يسعى المحبّون بالعلم دوماً، معرفة كل ما يكشف كبار العلماء والباحثين عما يحمله القرآن الحكيم من الحكمة والرسالة والعظة والنصيحة، وذلك ليس للمسلمين فحسب وإنما لسائر الإنسانية جمعاء.

إلى ذلك، تتوافر بعض المذكرات والمقالات بأسماء مختلفة من أهمها حجج القرآن، أوصاف القرآن، وفهم القرآن وتاريخ القرآن، تشتمل هذه المذكرات على بعض الصفحات، ويتم نشرها بعد حسبما كتبه صاحب كتاب "ذكر فراهي" ضمن فصل الكتاب المسمّى بالمذكرات غير المطبوعة.

يضاف إلى ما سبق ذكره من الكتب والرسائل التي صدرت من قلم الإمام الفراهي الرصين، ثمة تفاسير لعدة سور من القرآن الكريم ألّفها الإمام الفراهي باللغة العربية ليستفيد منها العلماء والباحثون بشكل خاص، وأذكر كتب تفسير هذه السورة حسب الترتيب الزمني من حيث التأليف وكما ذكر مؤلف كتاب "ذكر فراهي"، وهي كما يلي:

10. فاتحة تفسير نظام القرآن: ألّف الإمام الفراهي هذا الكتاب كتعريف على تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، وذلك أول جزء لهذا التفسير، يتحدث عن أهمية نظم القرآن وبعض الميزات الأخرى لهذا التفسير، ويحتوي الكتاب على 34 صفحة، ونُشر في عام 1938م¹ بعد وفاة الإمام.

1. تفسير سورة أبي اللمب: نُشر هذا الكتاب من مطبعة "معارف" بأعظم غراه، والذي يعتبر من بعض الكتب التي كتبها الإمام في أوائل حياته، وذلك حسب التفاصيل المذكورة في كتاب "ذكر فراهي"، وجاء ذكر هذا الكتاب لأول مرة،

¹ نفس المصدر، ص 724

1. رسالة كتبها العلامة شبلي النعماني إلى الإمام الفراهي في عام 1905م.
2. تفسير سورة القيامة: هذا الكتاب يحتوي على 21 صفحة، ونُشر في عام 1906م، حسب التفصيل الوارد في كتاب "ذكر فراهي"، ويعتبر هذا الكتاب جزءاً من تفسير نظام القرآن، وصدرت الطبعة الثانية لهذا الكتاب في عام 1983م.¹
3. تفسير سورة الكافرون: يشمل هذا الكتاب 15 صفحة، ونُشر في عام 1908م،² حسب تفصيل كتاب "ذكر فراهي"، وكذا ترجم إلى اللغة الأردوية.
4. تفسير سورة التحريم: هذا الكتاب له 27 صفحة، نشرتها مطبعة فيض عام بعلي غراه في عام 1908م.³
5. تفسير سورة الشمس: نُشر هذا الكتاب في عام 1908م، من مطبعة فيض عام بعلي غراه، ويحتوي على 19 صفحة.⁴
6. تفسير سورة العصر: نشرت مطبعة فيض عام هذا الكتاب الذي يحتوي على 23 صفحة، في عام 1908م.⁵
7. تفسير سورة عبس: قامت مطبعة "معارف" بأعظم غراه، بنشر هذا الكتاب في عام 1920م، وذلك بعد وفاة الإمام الفراهي، ويحتوي الكتاب على 25 صفحة.
8. تفسير سورة الذاريات: يحتوي هذا الكتاب على 47 صفحة، ونشرته مطبعة "معارف" بأعظم غراه، في عام 1920م⁶ حسب بعض التصريحات الواردة

¹ نفس المصدر، ص 709

² نفس المصدر، ص 711

³ نفس المصدر، ص 711

⁴ نفس المصدر، ص 713

⁵ نفس المصدر، ص 713

⁶ نفس المصدر، ص 715

بشأن هذا التفسير.

9. تفسير سورة التين: يشمل هذا الكتاب 27 صفحة، قامت بنشره لأول مرة، مطبعة "معارف" بأعظم غراه، في عام 1930م.¹
10. تفسير سورة الإخلاص: كتب الإمام الفراهي تفسيراً لسورة الإخلاص باللغة الأردوية وذلك لغرض ما، لأنه وحسب العادة، كان الإمام الفراهي يكتب تفاسير السورة الأخرى بالعربية لتكون أجزاء من تفسير نظام القرآن، على كل، نشرت مطبعة "معارف" تفسير سورة الإخلاص لأول مرة في عام 1931م.²
11. تفسير سورة الكوثر: كتب الإمام الفراهي 45 صفحة لتفسير سورة الكوثر التي تحتوي على ثلاث آيات فقط، ونشرت مطبعة "معارف" هذا التفسير في عام 1934م.³
12. تفسير سورة المرسلات: كتب الإمام تفسير هذه السورة في 20 صفحة، ونشرته مطبعة "معارف" في عام 1936م.⁴
13. تفسير سورة الفيل: كتب الإمام تفسير سورة الفيل في 41 صفحة، ونشرته مطبعة "معارف" في عام 1936م.⁵
14. تفسير سورة آية بسم الله: كتب الإمام الفراهي تفسيراً لآية بسم الله الكريمة، كجزء مستقل لتفسيره، ويحتوي هذا التفسير على 6 صفحات ونشر مع فاتحة تفسيره "نظام القرآن".⁶

¹ نفس المصدر، ص 716

² نفس المصدر، ص 716

³ نفس المصدر، ص 719

⁴ نفس المصدر، ص 720

⁵ نفس المصدر، ص 720

⁶ نفس المصدر، ص 724

15. تفسير سورة الفاتحة: كتب الإمام الفراهي تفسير سورة الفاتحة كأول جزء لتفسيره، ويحتوي هذا التفسير على 23 صفحة، والذي نشر لأول مرة في عام 1938م.¹

16. تفسير سورة البقرة: كتب الإمام الفراهي تفسير 62 آية من هذه السورة وإنه طبع فيما بعد على حدة وفي مجموعة تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" ويحتوي هذا التفسير على 150 صفحة.²

17. تفسير سورة آل عمران: كتب الإمام الفراهي تفسير 31 آية من هذه السورة، والذي يحتوي على 29 صفحة³ وذلك مطبوع ضمن مجموعة تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان".

وجدير بالذكر أنّ الترجمة الأردوية لتفسير سورتي البقرة وآل عمران سبق أن نشرها في بعض المجالات وفي مجموعة مستقلة.

خلاصة المقال: أودّ أن أؤكد أولاً أنّ هذا المقال عبارة مطالعتي عن الإمام الفراهي وعن شغفه بالقرآن الكريم عالماً ومتعلماً ثم مفسراً ثم واعظاً بالدراسات القرآنية، حرصاً مني على معرفة هذه الشخصية العملاقة، فقرأت عدداً من الكتب التي تتحدث عن الإمام الفراهي ولاسيما "ذكر فراهي" للدكتور شرف الدين الإصلاحي، كما قرأت كتب الإمام ومؤلفاته بغرض الاستفادة منها وليسهل علي السبيل إلى فهم القرآن الكريم والعمل به بفضل الله وتوفيقه، فطبعاً استفدت كثيراً من مؤلفاته القيمة، حتى تعرفت خلال هذه المطالعة، على بعض الأعمال التي كان الإمام الفراهي يعمل عليها ويتعود عليها في حياته، وقد جاء ذكرها في هذا المقال في عدة أماكن، ويبدو أنّ هذه الأعمال

¹ نفس المصدر، ص 724

² نفس المصدر، ص 751

³ نفس المصدر، ص 752

والعادات الصالحة قد لعبت دوراً جوهرياً في حياة الإمام، فظهرت نتائج مفيدة وفريدة في ضوء الآية الكريمة "إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً".

وفيما يتعلق بمؤلفات الإمام وكتبه، فيتضح جلياً أنّ الإمام الفراهي كان قد بدأ كتابة رسائل عديدة حول علوم القرآن لتكون أجزاء من تفسيره "نظام القرآن"، فتم نشر بعضها في حياته، وتم جمع وترتيب بعضها ونشرت بعد وفاة الإمام، حتى لم يحالفه الحظ ليكمل بعض الرسائل الأخرى فظلت غير كاملة. ومن جاني، حاولت لأسلط الضوء على كافة كتاباته التي تتعلق خاصة، بعلوم القرآن وتفسيره، إضافة إلى حياته الشخصية والمهنية والعلمية.

وبطبيعة الحال، أؤكد في خلاصة القول أنّ المؤلفات والكتابات التي صدرت من قلم الإمام الفراهي الرصين، تستحق مطالعة وقراءة بامعان وتعمق، ليتمكن الاستفادة علماً وفكراً فيما يخص فهم القرآن الكريم، ويجب على كلّ مَنْ يريد التدبر والتفكر في القرآن الكريم والاستفادة منه، أن يطلع هذه الكتب القيمة في جانب، وفي جانب آخر أنّ هذه المؤلفات الاستثنائية والفريدة من نوعها إن دلت على شيء فإنما تدلّ على شغف صاحبها وتضلعها وتجربتها في علوم القرآن ودراساته. والله ولي التوفيق.

المصادر والمراجع

1. ذكر فراهي (سيرة الإمام الفراهي بالأردوية) للدكتور شرف الدين الإصلاحي، دار التذكير، أردو بازار، لاهور، 2002م
2. علامه حميد الدين الفراهي ايك عظيم مفسر (سيرة الإمام الفراهي بالأردوية) لمحمد عنايت الله سبحاني الإصلاحي، مكتبة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، 1978م
3. معاصرين (سير الشخصيات المعاصرة للكاتب بالأردوية) لمولانا عبد الماجد الدرايبادي، إدارة إنشاء ماجدي، رابندر سرائي، كلكتا، 1979م
4. ياد رفتگان (سير الشخصيات المعاصرة للكاتب بالأردوية) للسيد سليمان الندوي، مجلس نشریات إسلام، كراتشي، 2003م

نظرات في مؤلفات الإمام عبد الحميد الفراهي (في ضوء ما نُشر في "مجلة الهند" عن الإمام الفراهي)

- د. جمشيد أحمد الندوي¹



حجج القرآن

قد اهتمّ الفراهي بالعلوم العقلية أيام طلبه للعلم إذ كانت من المقررات الإجبارية في عصره، ثم اهتمّ بالفلسفة الحديثة حينما دخل كلية عليكره، ونال فيها درجة الامتياز. وكان له اليد الطولى في العلوم النقليّة عامة وفي الفلسفة خاصة وخير شاهد لها كتابه "حجج القرآن" وناقش أولاً المنطق والكلام ونقائص الفلسفة القديمة والفلسفة الجديدة ثم ذكر أصول الفلسفة القرآنية وبين درجتها العقلية مشيراً إلى الدلائل على التوحيد دلائل الآفاق والأنفس. وكان العلماء والباحثون الذين حضروا مجالسه ومحاضراته، كانوا يشبهونه بشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في ذلك وفي تجرّده في علوم القرآن.²

لم يقتصر الفراهي في دراسة الفلسفة والمنطق على التراث العربي، بل كان يتابع ما يصدر في الغرب من أحدث المطبوعات في الفلسفة والمنطق، ويقرأها قراءةً بحثٍ ونقد ومقارنة، يقول الأستاذ عبد الماجد الدرايبادي الذي كان من المتخصّصين في الفلسفة الحديثة: "إنّ الفراهي قد درس الفلسفة دراسةً واسعة وعميقة جداً، وكان يقرأ أحدث ما يصدر في الغرب من كتب الفلسفة والمنطق.. قراءة بحث ونقد ومقارنة".³

¹ رئيس قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مومباي، مهاراشترا

² مفردات القرآن، ص 26.

³ المرجع السابق، ص 25.

ومن ثم كان أعلم الناس بمضرة كتب الفلسفة وانحرافات الفلاسفة القدماء والمحدثين. أقرأ ما قاله في ذكر أحد الأسباب السبعة التي بعثته على تأليف كتابه "حجج القرآن":
والثاني: ما تعلق بالذين معظم همهم المعقول من المنطق والفلسفة، فإنهم قد ابتلوا بعقليات سافلة زائغة عن طريق الفطرة والهدى، مفضية إلى الحيرة وصريح العمى، كما لا يخفى على مَنْ نظر في خزعات المتفلسفين العاشين عن نور الوحي والكتاب، ولذلك حذر السلف من الاشتغال به؛ ولكن أبى الناس إلا النظر فيه، والولوع به، والإخلاق إليه، ثم بعد التجربة عرفوا مضارها، فنهى من أبطل بعض أباطيلها، وأبقى بعضها محسناً به ظنه كأبي حامد رحمه الله؛ فإنه بين تهاوت ما في إلهيات اليونانيين، ولكنه هو الذي أدخل منطقهم في الإسلام، فكان كمن قتل الأفعى وربى أولادها، وكذلك اتخذ أخلاقياتهم، وبنى عليها كتابه "ميزان العمل" فلم يخرج عن اتباع الفلاسفة مع غلوهم في ردهم، وأما ابن مسكويه والطوسي وأمثالهما فهم مجاهرون بتقليد اليونانيين في الأخلاقيات، ومنهم مَنْ انتبه لأكثر من ذلك كابن تيمية رحمه الله، فردّ على المنطقيين ردّاً طويلاً، ودلّ على زيغ نهج المتكلمين....¹

أهمية علم حجج القرآن: إنّ من أسى العلوم وأغزر الهبات مما يمنّ الله به على من يشاء من عباده هو فقه حججه وبيّناته، ما ينصرون به الحقّ، ويعلمون رايته، ويكتبون به أهل الباطل، وينكسون غايته، كما قال تعالى: "وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ" (سورة الأنعام: 83) فسمّاها "حجته" ونسبها إليه تعالى ذكره، وتلك الإضافة الشريفة تقتضي ما تقتضيه من علو شأنها، وثبات أركانها، وشرفها وفضلها.

إنّ القرآن يحتجّ على الناس بشهاداتهم الفطرية وربما يحتجّ على فريق بمسلماتهم الخاصة.

¹ حجج القرآن، ص 20، والجدير بالذكر أنّ الفراهي قد نسخ بيده كتاب "الرد على المنطقيين" لشيخ الإسلام ونسخته هذه محفوظة في مكتبة "دار المصنفين" بأعظم كره.

وبالجملة فلا يطالب المخاطب إلا ما قد سلبه. ولا حجة أبلغ ولا أدمغ من هذه. أما الشهادات الفطرية فإنّ الإنسان يشهد بلسان حاله على أمور وإنما ينكر بنفس تلك الأمور على طريق المكابرة. فالقرآن ينبّه على شهادة فطرته، فإنّ الله تعالى جعل في الإنسان نفسه شهاداً له على نفسه، فيناديه وهم يجهلون من بين جنبيه، كما قال: "بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۖ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرُهُ ۚ" [سورة القيامة: 14-15]. وهذه الشهادات:

(1) إيقانه بالخارج.

(2) وبنفسه.

(3) وإرادته.

(4) واختياره.

(5) ولومه.

(6) وتمييزه بين البرّ والفجور وسائر ما ذكرنا من مجاري اليقين الفطري. وإنما أشهده ربه باضطرار الفطرة. فلو لا فطر على الإقرار لما أتمّ عليه الحجة. وعلى هذا احتجاج القرآن يسمّى فطرياً واضطرابياً. فأما الأمور التي يشهد عليها بلسان الحال فنذكره ههنا جملة على طريق الإيجاز.

1- إيمانه بالغيب. فإنه قد آمن بالمشهود الحاضر، وفي كل ذلك إنما آمن بما غاب عن حواسه، وهو فيه مستدل من الأثر على المؤثر ومن الصفة على الموصوف الذي ليس هو نفسه. وبعبارة أخرى هو يسلم نفس الاستدلال وأصوله.

2- إيمانه بصحة حواسه. فإنه لو لم يؤمن بها لما استدل بها على شيء خارج عنه ولا على أمر داخل فيه من اللذة والألم. وإذا لقي جامداً حامداً لا يتحرك بل لا يتفكر.

3- إيمانه بصحة عقله. فإنّ ذلك منطو في استدلاله من المؤثر الداخل أو الخارج جاءه من غرف الحواس.

4- إيمانه بصحة قلبه. فإنّ ذلك منطو في تميزه بين الشر والخير، والضار والنافع. فإنه

مجرى جميع إرادته وحركاته. فلو لا ذلك لم يفعل ولم يتحرك، ولكنه دائماً يفعل ويجهتد. فكما آمن بصحة عقله فكذلك آمن بصحة فؤاده.

5- إيمانه بأصول الترجيح والاختيار عقلاً وقلباً. ومجراه لإقراره بالأحسن والأقبح. وبعبارة أخرى هو مؤقن بالاختيار لنفسه في العمل. فإن ذلك منطوي في جميع إرادته وأفعاله وتركه.

6- إيمانه بالعدل والحق. فإنه منطوي في إنكاره حقاً لم يثبت عليه. فإن ذلك منطوي في جده وغضبه وخصامه ومعاشرته مع غيره ومطالباته. واعلم أن أصل مكابرتة هو اتباع شهواته الدنية الدانية وتغافله عن الآيات المنبهة على الأعلى الآجل ما هو خير وأبقى، فيناقض حكم عقله وقلبه بأصل الترجيح.

7- إيمانه بالفاطر. فإنه منطوي في إيمانه بما ذكرنا.

تبدو الحاجة إلى هذا العلم أي فقه حُجج القرآن وبيّناته من جهات كثيرة منها:

1- من جهة كونه أساساً ومفتاحاً.

2- من جهة أنه خطاب إلى أعلى ما في فطرة الإنسان من العلم والرشد.

3- ومن جهة أنه الفارق بين الدين الحق الذي بني على الحكمة والهدى، والذي بني على محض التقليد والعمى.

وأما الحاجة إلى هذا العلم فليست للتنبيه على شيء قليل مغمور مستور. فإن القرآن مفعم بما يخاطب به العقول لا سيما في بداية أمره والسوابق من سوره، كما لا يخفى على كل من يقرأ هذا الكتاب الحكيم بأدنى تأمل. ولا لبعد وتعقيد في دلائله، فإنها أقرب إلى الفطرة. وقد صرح به كثيراً مثلاً في قوله تعالى: "بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾" [سورة العنكبوت: 49]. وقد سمى الله تعالى هذا الكتاب الهدى والفرقان والحكمة والبرهان والحق والتبيان والروح والنور والشفاء لما في الصدور وأمثالها مما يطول استقصاؤه، وهو مبسوط في موضعه.

وإذ كان الأمر كذلك فلم نحتاج إلى تأسيس هذا العلم إلا لما هو من العوارض الخارجة. فكما أنّ الحاجة إلى الدواء تكون لأجل المرض فكذلك احتياجنا إلى هذا العلم إنما لما استحوز على الناس من الأسباب العائقة عن درك ما جاء به القرآن من الدلائل الواضحة. فلنذكر هذه الأسباب لتعلم عمومها وشذتها فيتضح لك مقدار الحاجة إلى العلم الذي يدفعها. فهذه الأسباب على الجملة سبعة:

- 1- أنّ أكثر الذين معظم همّهم الدين والاشتغال بالكتاب والسنة يظنون أنّ طريق العقل مباين للتعليم الإلهي.
- 2- ما تعلق بالذين معظم همّهم المعقول من المنطق والفلسفة، فإنهم قد ابتلوا بعقليات سافلة زائغة عن طريق الفطرة والهدى مفضية إلى محض الحيرة وصریح العمى كما لا يخفى على من نظر في خزعات المتفلسفين العاشين عن نور الوحي والكتاب.
- 3- إنه قد تعلق بهم من أباطيل المنطق ظن خاص منعهم عن معرفة ما في دلائل القرآن من الرسوخ. وذلك ظنهم بأنّ القضايا الأخلاقية مظنونات ولا تقوم بها البرهان، ولم يتفطنوا أنه يهدم الدين كله مع أنه يهدم جانباً عظيماً من حكمتهم وهو الحكمة العملية. فلو لم يكن في المنطق من الضلالة إلا هذا القول الباطل والسم القاتل لكان أولى بأن ينقدوا أمره ويتقوا شره.
- 4- وهو من قبيل الثالث ما تسلط على المولعين بإلهيات الفلاسفة مع إيمانهم بالنبوات من الوهم بأنّ مسائل التوحيد والربوبية إنما يبرهن عليها بطريق الفلسفة، وأما الأنبياء فلم يأتوا إلا بالإقناعيات. وهذا التوهم صرفهم عن فهم ما أنزل الله من الحكمة البازغة ولم يعرفوا قدره العظيم. وفشا هذا الرأي حتى غلب على المتكلمين من آمنوا بالوحي والمرسلين، فصار جلّ همهم إثبات هذه

المسائل على طريق الفلاسفة ولم يعلموا أنّ الفلاسفة إنما أخذوها من تعليم الأنبياء حسب اعترافهم مع تخطيط من عند أنفسهم.

5- أنه لما كانت الغفلة عما هو فوق هذه الحياة الدنيا غالبية على أكثر العقول لشدة انهماكهم في مشاغل هذه المحسوسة الحاضرة وعلومها كما قال تعالى: "وَكَايْنِ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ" [سورة يوسف: 105]. فع أنّ دلائل القرآن قريبة من الفطر بل منبهة على الفكر وأصول النظر تراهم لا يتفكرون، ولذلك قد أكثر القرآن من الحث على التدبر والتفكير مثلاً قوله تعالى: "أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْفُتُورَانِ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا" [سورة محمد: 24]. وهذا كثير جداً.

6- إنه غلب على أكثر الناس الظن بأنّ القرآن إنما خوطب به الأميون البسطاء فلا يكون موضعاً للتدبر وإمعان النظر.¹

7- إنه غلب على أكثر الناس الظن بأنّ القرآن كثير الاقتضاب والانتقال من معنى إلى معنى من غير مناسبة بينهما.²

¹ ويرد الإمام الفراهي على ذلك من وجهين:

الأول: إنهم لم يعلموا أنّ العرب كانوا في أعلى درجة للذكاء لا سيما في بلاغة الكلام وإيجاز الخطاب بل قد بني لسانهم على ذلك. ولذلك كانوا مولعين بجوامع الكلم والخطاب المحكم، وكانت أسماعهم تمتج الهدر والبسيط وكانوا يظنون أنه لا يخاطب به إلا الأغنياء. فأزل الله تعالى القرآن على أسلوب كلامهم كما أنزل على أفصح لسانهم. والقول البليغ الجامع الموجز لا يطلع على تمام معانيه من غير تدبر، فجهلهم بحال العرب وأسلوب كلامهم صرفهم عن التدبر في القرآن.

والثاني: إنهم لم يعلموا أنّ من أعظم غاية القرآن تربية العقول وتعليم الحكمة كما صرح به في مواضع كثيرة، فذلك خاصة أكثر من لطائف الأدلة ليتعلموا التفكير والاستنباط. ولذلك كثيراً ما يكتفي بالتنبيه على الدلائل والحث على استنباطها، بل قد ينبّه على الأصول الفطرية التي بنى عليها الاستدلال كما هو مبسوط في موضعه، فلما كان القرآن على هذه الصفة من الغور والطفافة خفي كثير من دلائله على من يتوهمه خطاباً عاماً. ولذلك احتجنا إلى بسط الأدلة بذكر ما انطوت عليه من المقدمات المقدرة التي إنما يطلع عليها الأذكياء الممارسون بالخطابات البليغة المحكمة.

² انظر: حجج القرآن، ص 18-28.

عذر العلماء لعدم التفاتهم إلى أدلة القرآن. إنهم كلوا الناس على قدر عقولهم، وهم اليوم متهاكون على الفلاسفة. وعرض الدلائل البسيطة مع صحتها لا يعجبهم ويمدّهم طغياناً بأنّ المسلمين جاهلون بما عندهم. فردوا عليهم بأسلحتهم وعملوا على ما قيل: لا تلقوا الدر بين أيدي الخنازير. وقد تفتن بضعف طريقتهم أهل النظر البالغون مثل الرازي وابن رشد والغزالي وابن تيمية، ووجهوا الناس إلى أدلة القرآن.

نظراً إلى أهمية العلم المذكور ألف الفراهي كتابه الذي سمّاه بـ"حجج القرآن: الحكمة البالغة والحجة البالغة"، وهو من أبحاثه العلمية ذات الصلة بالقرآن الكريم وعلومه، ومن أعظم وأجلّ كتب المؤلف - كما يقول محمد أجمل الإصلاحي - وشرع به في تأسيس علم يشرح أصول الاستدلال في القرآن الكريم، وأتى بطريقة تخالف طريقة أهل المنطق والفلسفة ولكن مع الأسف لم يقدر له إتمامه والكتاب يجمع فوائد غزيرة. وقد برع فيه من حيث الحجاج والاستدلال، وأثار فيه موضوعات منطقية وفلسفية، وناقشها ثم نقضها، واستخدم هذا العلم بحجج القرآن في تقرير مسائل في العقيدة وفهم القرآن الكريم، وأبرز أهمية علم حجة القرآن البالغة. هذا جدير بالذكر لا توجد مباحث حجة القرآن في غيره من الكتب الأخرى في العلوم القرآنية إلا أصواتاً خافتة وكلمات متفرقة ظاهرة وكان الإمام عبد الحميد الفراهي من أبرز العلماء الذين اجتهدوا في المجال المذكور واستأصل بهذه الدراسة الشك في حجة الله ووجوده وهدم بها مباني الفلسفة الباطلة القديمة والحديثة حتى تجلّى بها طريق القرآن لإقامة الحجة وثبت أنّ حجة الله هي العليا. قد ذكر الإمام الفراهي في مقدمته أهمية الموضوع بأنّ له أهمية من جهات كثيرة، منها: من جهة كونه أساساً ومفتاحاً.

- 1- من جهة أنه خطابٌ إلى أعلى ما فطر الإنسان من العلم والرشد.
- 2- من جهة أنه الفارق بين الدين الحقّ الذي بني على الحكمة والهدى، والذي بني

على محض التقليد والعمى.¹

أما الأسباب التي دعت الفراهي إلى تأليف هذا الكتاب فهي كما يلي:

- 1- الزعم أنّ طريق العقل مباين للتعليم الإلهي.
 - 2- ابتلاء كثير من الناس بعقليات سافلة زائغة عن طريق الفطرة والهدى مفضية إلى محض الحيرة وصریح العمى.
 - 3- أباطيل المنطق التي منعت الناس عن معرفة ما في دلائل القرآن من الرسوخ.
 - 4- الوهم بأنّ مسائل التوحيد والربوبية إنما يبرهن عليها بطريق الفلسفة، وأما الأنبياء فلم يأتوا إلا بالإقناعات.
 - 5- الغفلة عما هو فوق الحياة الدنيا لشدة انهماك الناس في المشاغل المحسوسة الحاضرة.
 - 6- الظن بأنّ القرآن إنما خوطب به الأميون البسطاء فلا يكون موضعاً للتدبر وإمعان النظر.
 - 7- الظن بأنّ القرآن كثير الاقتضاب والانتقال من معنى إلى معنى من غير مناسبة بينهما.²
- ويشتمل الكتاب على مقدمة وثلاث مقالات، وكل مقالة في ثلاثة أبواب وجميع مطالبها أكثر من 160:

* المقدمة فقد ذكر فيها أهمية الموضوع والحاجة إليه.

* المقالة الأولى في نقد المنطق والفلسفة وعلم الكلام فانتقد المنطق والفلسفة والكلام في ثلاثة أبواب.

* المقالة الثانية في تأسيس العلم وبيان طريق احتجاج القرآن وهي منقسمة إلى ثلاثة أبواب:

¹ المرجع السابق، ص 18

² مجموعة تفاسير فراهي، ص 43

- 1- الميزان، وقد سَمَّاه "المنطق الأعلى".
 - 2- الحكمة البازغة.
 - 3- طريق احتجاج القرآن.
- * المقالة الثالثة: في ذكر حجج القرآن على الربوبية والمعاد والرسالة وهي تشتمل على ثلاثة أبواب:
- 1- باب في أدلة الربوبية.
 - 2- باب في أدلة المعاد.
 - 3- باب في أدلة الرسالة.

وهذا من المناسب قبل الاستعراض والدراسة أن يشار إلى وجود نظام خاص لذكر الأدلة والحجج في القرآن بأنه خلط الحجج الآفاقية والأنفسية واللمية وجمع بعضها ببعض في آيات الآفاق والأنفس في إثبات التوحيد والآخرة والرسالة، ومزج كلها في آيات التزكية والتربية، وفي آيات الإنذار والتبشير. وما ذلك إلا لتربية النفس، وهو أيضاً من حكمة الدعوة، فهو مثال واضح لما جاء في الآية: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ". (سورة النحل: 125). فأول مَنْ ذكر هذه الميزة لطريقة الاستدلال القرآنية ذكراً واضحاً هو الفراهي، فإنه أكثر استشاده بهذه الآيات على الحجج القرآنية في كتابه المذكور فقال: "مزج أقسام الأدلة الآفاقية والأنفسية واللمية، ومزج الدعاوي الثلاث، ومزج العقائد بالأحوال والأعمال، ومزج الأدلة بالتنبيه على القوى الباطنة المستعملة فيها. وذلك لأن النفس وما تصادفه كلاهما في حالة التركيب. فالتدبير في تعليمها هو رعاية جميع ذلك معاً، كما أن الطبيب يراعي إصلاح أعضاء المريض ويركّب الدواء بحسبها".¹

¹ المرجع السابق، ص 130

ولجمع الأدلة في موضع واحد فأمثلته كثيرة في القرآن فلا حاجة إلى ذكرها إيجازاً أو تفصيلاً. ومن الآيات التي جمع الله فيها أدلة مختلفة ما جاء في سورة الأنعام من الإيات 95-107، وعند الفراهي هو من "أجمع آيات الدلائل مختلفة" فقال عز وجل: "إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ" (قال الفراهي إنَّ "في فالق الحب والنوى" دليل على إخراج الحي من الميت وأسهل منه إخراج الميت من الحي، فإنَّ السلب أيسر من الإعطاء)، ذَلِكَمُ اللَّهُ فَالِقُ ثَوَافِقُكُمْ، (وهذا ما علّق فيه الفراهي: أي فكيف تشركون به وأنتم تقولون بأنَّ الخالق هو الله وحده، فالخالق للحب والنوى هو الخالق للهوت والحياة، وهو الفالق للصبح والجاعل الليل سكناً، والمجري الشمس والقمر على قدر. فإنَّ هذه الأفعال تصلح وتمد بعضها بعضاً، فلا بد من واحد عزيز لم يغلب على إرادته، قادر على موت وحياة وعلى جميع الخلق من السماء والأرض وإلى نواة، عالم بأحوالها ومقاديرها وأجزائها، فإنَّ الخلق يلزمه العلم التام)، فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النَّجْمَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ (وهذا ما علّق فيه الفراهي: لكل روح قرار في الأمكنة المختلفة، ثم هو مستودع يخرج الله حسب آجاله).

فتأمل كيف جمع الله في هذه الآيات أدلة مختلفة واستدل بها على الألوهية والربوبية والبعث بعد الموت والرسالة، ومزج فيها الأحوال والأعمال، والمقادير والعقائد كلها. فهذا هو من ألطف الخصائص للحجة القرآنية.

إنَّ القرآن الكريم يحتاج بآياته على الناس بشهاداتهم الفطرية وهو أخص الجوانب في طريق احتجاج القرآن، فإنَّ هذه الشهادات لا تخاطب الإنسان إلا لما تسلم فطرته، وإنَّ هذه الدلائل الفطرية التي ملأ بها القرآن الكريم تفتح أمام العقل الإنساني علماً واسعاً

للتفكير فيه والتفكير في آيات خالقه. والإمام الفراهي امتاز في هذا المجال بمهاراته في علم الحكمة، وعني بأشد العناية بإبراز ما جاء في القرآن من الشهادات الفطرية في كتابه "حجج القرآن" في مواضع كثيرة وكتبه الأخرى التي ألفها حول مختلف جوانب القرآن، وسأقدم بعض النماذج في هذا الأمر: قال: "لا حجة أبلغ وأدمع من هذه".¹

استعراض الكتاب: إنَّ هذا الكتاب هو كالجزء الأكبر من المشروع القرآني للفراهي فإنَّ الكتاب ليس جزءاً أساسياً لمشروعه العظيم لتحقيقاته القرآنية فحسب، بل هو يحلَّ محل الجزء الأعظم من علوم القرآن عنده. وذكره في مقدمته من حيث "الركن العظيم" في جميع علوم القرآن، فقال: "فهذا كتاب من مقدمة نظام القرآن أفردته لذكر أعظم ركن من كتاب الله".²

ألف العلامة الفراهي هذا الكتاب لفهم القرآن ومباحثه المختلفة، وهذا جزء لمشروعه العظيم للدراسات القرآنية الذي يضمّ اثني عشر كتاباً، وإذا ألقينا نظرة عابرة على مشروعه هذا علمنا أنه إذا تم هذا المشروع بلغ العمل العظيم لتدوين العلوم القرآنية إلى النهاية، ولكن هذه الخطة غير مكتملة إلا أنها تفتح الطريق إلى العلوم الإسلامية ومعارف القرآن لطلاب القرآن الذين إذا مضوا عليها كانت لهم ثروة كاملة، وهذه المؤلفات تنقسم إلى جزأين أساسيين، ظواهر القرآن، وبواطنه، فالتحفة منها تتعلق بظواهر القرآن، والسبعة منها متعلقة ببواطن القرآن، ومن المهم أنه قد اختار ترتيباً منطقياً في مؤلفاته عن القرآن، وكما قال: "المقصود من الكل فهم القرآن حسب مراده".³

فالكتب التي تتعلق بظواهر القرآن أي أسلوبه وكلماته ومفرداته وأصول تأويله ونظمه وتاريخه هي (1) تاريخ القرآن، لم يكتمل (2) ومفردات القرآن (3)

¹ المرجع السابق، ص 218

² المرجع السابق، ص 17

³ حكمة القرآن، ص 9

وأساليب القرآن (4) والتكميل في أصول التأويل (5) ودلائل النظام. والكتب السبعة الأخرى هي كما يلي:

1. حكمة القرآن
2. وحجج القرآن
3. والقائد إلى عيون العقائد
4. والرائع في أصول الشرائع
5. وإحكام الأصول بأحكام الرسول
6. وأسباب النزول
7. والرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ

موضوع الكتاب وأهداف كتابته: كتاب الحجج من الكتب الفريدة التي ألّفت في علوم القرآن وهو عبارة عن البحث في أدلة القرآن البالغة وطريقته في الاستدلال وإثبات فضله على طريق الاستدلال للفلاسفة والديانات المزعومة مع إيراد الأمثلة عن حججه العالية، وهذا الكتاب أيضاً يدل على المنهج العلمي التحليلي للفراهي، وحفل كتابه بأنواع المطالب حول مباحث الحجة القرآنية المرموقة، وكل نوع من هذه المباحث التي ذكرها بالإيجاز أو بالتفصيل في هذا الكتاب، حقيق أن يقوم بتحقيقه محقق بارع، ولكن هذا الموضوع لم يكن معروفاً عند الباحثين والدارسين، وهو جديد من كل جهة في هذا المجال. فجاء بنظرات جديدة وأدلة نادرة وتحقيقات بارزة في الكتاب وجادل به أهل الفلسفة والمنطق وناقشهم ليظهر فضل كلام الله وأدلته العالية على كلامهم وأدلتهم فحمل لواء القرآن وأثبت أن مذهب الفلسفة يسوق الناس إلى الضلال والضرار وأما طريق القرآن في الاحتجاج فيقود عقول الناس ونظرياتهم إلى ما هو أجلي وأنفع، وأنه بهذا التأليف اتبع حكم الله: "وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"، وعلا صوته لعلّ حجته كما قال

الله: "قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ".

بين المؤلف أهمية هذه الدراسة وموضوعها وحقيقتها وأهدافها في عدة مواضع من الكتاب. فيبدأ بعد الحمد والصلاة كلامه في خطبة الكتاب قائلاً:

"فهذا كتاب من مقدمة نظام القرآن أفردته لذكر أعظم ركن من كتاب الله وأول أمر من نعت هذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآخره، وهي أربعة: تلاوة الآيات والتزكية، وتعليم الكتاب، والحكمة كما سبق، قدم تلاوة الآيات وختمها بالحكمة، فهاتان كالبذر والثمر وما بينهما طريق الوصول والأعلى".¹

"فإنها الأصل كما يتلو، وكان أنعم جانب الآيات وأقدمه هو الخطاب إلى الإنسان من جهة فطرته ودعوته إلى الحق من جهة بصيرته وذلك بأن أول أمر الدين الإلهي هو الدعوة إلى الإيمان بعلم وبصيرة، كما قال الله تعالى آمراً لنبيه: "قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي". (سورة يوسف: 108)

فعلم حجة القرآن عنده هو "من العلم الذي يبين الطريق إلى فهم هذه الدلائل حتى ينتهي إلى الحكمة التي هي نهاية السعادة" فإنه كما يقول: "على غاية الأهمية من جهات كثيرة". فبين أهميته من ثلاث جهات: (1) "من جهة كونه أساساً مفتاحاً" (2) من جهة أنه خطاب إلى أعلى ما في فطرة الإنسان من العلم والرشد (3) من جهة أنه الفارق بين الدين الحق الذي بني على الحكمة والهدى والذي بني على محض التقليد والعمى.

والهدف الأساسي لهذه الدراسة عنده هو الإمعان في أدلة القرآن القاطعة من طريقة علمية جديدة مع العناية بالقضايا الجديدة العلمية الفلسفية. فإنه يخاطب عقولنا ويصلح قلوبنا بما احتج به الله على قضايا الدين والدنيا، ومن أهدافها أيضاً الكشف عن حقائق الدين وأسراره والنظر في جوانب الحكمة القرآنية من خلال "حجة الله البالغة"،

¹ حجج القرآن، ص 17-18

فإن اكتمال الفكر الإنساني وعمل تميته لا يمكن إلا بالرجوع إلى دراسة الاستدلال القرآني، فلا غرو أن هذه الدراسة في الحجة القرآنية إذا اكتملت، ونشأت بها حركات العلم والفكر من جديد للتدبر في آيات الله والاعتماد عليها في البحوث الفكرية ومعالجة مشاكل اليوم تتحدى حياتنا وإجابة الأسئلة التي يستقبلها عصرنا هذا، ستجد العقول والأفئدة والمذاهب التنظيرية تصلح بها كلها، وتعديل بها المسارات الفكرية، والمباحث الفلسفية. ومن أهداف هذا الكتاب أيضاً التأكيد على أن القوانين الملكية والدولية ونظريات الحياة البشرية الجديدة لا يمكن تقويمها وإصلاحها إلا بالنصوص الإلهية، ومصدر هذه النصوص هو كتاب الله العزيز وأدلتها الفطرية كما سبق ذكره. ومن ثم يثبت المؤلف أن القرآن يضع بناء العلم واليقين على الفطرة وأنه لا سبيل إلى معرفة الحق والخير وكل ما يتصل به إلا ما يستدل به القرآن فليس للعقل سبيل في رده، وليس له أمر فيه إلا بالميزان الذي يحكم به القرآن، فهو فارق بين العلم والظن، وبين الحق والباطل، وبين الجهل والمعرفة، والفطرة لا تتمرى فيه بل تصدقه وتؤمن به، فالعقل القائم على الفطرة يظهر شاهداً ولا يستطيع العقل والمنطق أن يحكم إلا بناءً على هذه الحجة القويمة.

وأما طريق القرآن في الاستدلال، "فإنها، كما قال المؤلف، أقرب إلى الفطرة بياناً وأرسخ في القلب استدلالاً وأقوى لأهل العقل حجة على من ينكر به وأرقى درجة لمن يؤمن به، كما قال الله تعالى: "كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ" (سورة ص: 29)، ويقول في استدلال القرآن: "فإنها ضرب إلى الفطرة قد صرح به كثيراً مثلاً في قوله تعالى: "بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ" (سورة العنكبوت: 49)".

وكذا جاء المؤلف بمباحث كثيرة في كتابه وأرانا حجج القرآن البارزة من مختلف الجوانب. "يكفي هذا القدر للدلالة على منهج القرآن في ذكر حججه وإن ذلك هو أقرب إلى

بلاغة القول وطريق الفطرة فإنه يخاطب العقل والقلب معاً ويركب الأدلة إلهية مع اللمية، ويخطط بالدلائل ترغيباً وترهيباً، فكما ينبه العقول من رقدته فكذلك يحث القلوب من غفلته".

تعريف جديد لعلم الحجة: لقد جاء الإمام الفراهي بتعريف جديد لعلم الحجة أو فلسفة الاستدلال على الحقائق التي تدل عليه آيات الآفاق الفطرية وحجج كتاب الله، فبين ما هو يوافق بالمعنى الحقيقي لهذا المجال من العلم والمعرفة، والحجة القرآنية معاً، فيقول فيه:

"إعلم أنّ الحجة اسم من الاحتجاج وأعني بها إلزام أمر على الخصم مما هو مسلم عنده بطريق واضح لا يدع له مجالاً للأفكار إلا مكابرة ظاهرة". ويقول في موضع آخر: "الحجة هي إثبات أمر بما علمنا وإيقنا به، وذلك مبني على اليقين بصحة فطرتنا في علمها ومجاري أعمالها الأولية، فكل ما علمنا باضطرار الفطرة جعلناه أساساً، ثم جرى عليه قوى الفكر حسب فطرتها".

إنّ الإمام الفراهي قام بذكر الفرق الذي يوجد بين كلمة "الحجة" والآية والدليل في كتابه المذكور. وهو أول من فرق بين الحجة وبين الدليل والآية، وأوضح هذا الفرق في فصل عنوانه "تعريف الحجة"... والفرق بينها وبين الدليل. فإنّ الحجة ما يثبت به الدعوى على المخاطب والدليل ما نستشهد به على أمر لأنفسنا والآية ما تدعو عقول الناس إلى التبصر والتدبر وتحثهم على الفكر والنظر. فقال: اعلم أنّ الحجة ما يثبت به دعوى على خصم. والدليل ما تستدل به على أمر لنفسك أو على خصمك. والآية ما تبعث النظر والفكر فتستدل به على أمر، فهي كالمادة والسبب للاستدلال. فالحجة أخص من الدليل، والآية مادة لكليهما. ولكني اصططلحت الحجة بحيث تشمل كل ذلك، فإن كلما يستدل به تثبت به الحجة لله على الناس.

إنّ القرآن يستدل كثيراً بالآيات ويذكر الآيات التي ينظرها المخاطب في الآفاق ونفسه، فهي كلوامع تجلب النظر وقوارع تنبه الفكر وأنوار تنور القلب والذوق. فالقرآن صرح

بهذا الفكر كثيراً وكون الآيات القرآنية دلائل وحججاً بمعنى أنها كافية لمن يتفكر ويستدل بها، وقد صرح كثيراً بهذا الأمر، مثلاً قوله تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" ﴿٢٠﴾. [سورة الرعد: 3]، [سورة الروم: 21]، [سورة الزمر: 42]، [سورة الجاثية: 13]. أيضاً: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" ﴿١﴾. [سورة الرعد: 4]، [سورة النحل: 12]. أيضاً: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ" ﴿٢١﴾. [سورة الروم: 22]. أيضاً: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى" ﴿٢٢﴾. [سورة طه: 128]. أيضاً: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ" ﴿٢٣﴾. [سورة يونس: 67]، [سورة الروم: 23]. أيضاً: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ" ﴿٢٤﴾. [سورة الحجر: 75]، وقوله تعالى "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ". (سورة آل عمران: 190). وهذا كثير جداً بعبارات شتى.

إنَّ الآيات الدالة على ذلك كثيرة في القرآن، والآيات التي أشار إليها القرآن في هذه الآيات أيضاً كثيرة، وهي تحث الإنسان على استعمال عقله وفكره ونظره وقواه الداخلية كلها أودع ربه فيه لما استدل عليه الله تعالى.

وبالجملة فأكثر دلائل القرآن إنما هي لواضع تجلب النظر، وقوارع تنبه الفكر. وكان المخاطبون أذكياء فصحاء أهرع الناس إلى لطائف المعاني وأشدّهم تهدياً لفضول الكلام. فلو فصل لهم الدلائل المرتبة على طريق المنطق لأبعدهم عن نهج الفطرة في الفكر.

وكما أثبت الفرق الذي يوجد بين كلمة "الإرادة" و"الأثر" في حجج القرآن فقال: الإرادة إما أن تكون لمصلحة المريد أو لمصلحة غيره. الأول يستلزم علمه بنفسه والرضا والكراهية لشيء دون شيء والتبديل عن مجرى واحد. والثاني يستلزم علمه بحال المنتفعين به، والرضا والكراهية لما يتعلق بهم، والتبديل حسب نفعهم وضرهم تابعين لرضاه وسخطه ولذلك عبدوا الكواكب.

وأما الأثر المحض فلا علم هناك ولا تبديل ولا رضا أو السخط بل اللزوم المحض. وإنما نوقن بالآثار الخاصة لما نرى اللزوم بين المؤثر والأثر بالتجربة ولما نرى المؤثرات

بغير إرادة فيزيد علمنا بالزوم.

ثم لا نرى نسبة بين المؤثر والأثر، ولذلك أيقنا بأن لا إرادة هناك ولا فعل بل انفعال محض وعلاقة مجعولة. وإذ لا نسبة بين جسم وطبيعة خاصة فكل طبيعة على بعد سواء منه. وإذ كانت الفطرة من أول وجود الجسم فلا يكون في نفس الجسم علة هذا التخصيص، إنما يكون خارجاً منه ومقدماً عليه. ثم لا بد أن يكون هذا المخصص ذا إرادة واختيار فاختر وخص، فإن اختصاص شيء لشيء من بين المتساويات هو الإرادة والفعل.

توزيعات جديدة ومصطلحات جديدة: عرف الإمام الفراهي مصطلحات جديدة في هذا المجال وهذه المصطلحات دالة على أفكاره الأساسية وبرزته في علوم القرآن ففها: الحجة الاضطرارية، والعلم الاستدلالي، والعلم البديهي، والشهادة الداخلية، الحجة الفطرية، والعلم النظري، والعلم الجذري، والاستدلال الأعلى، والدلائل الظنية، والدلائل اليقينية، والظلمة العلمية، والآيات الآفاقية، والآيات الأنفسية، وغيرها من المصطلحات الكثيرة التي وضعها أولاً أو استعملها أولاً للمعاني الخاصة.

إنه قسم أصول الأدلة على طريق جديد ولم يتبع فيه أهل الفلسفة والمنطق، فبين هذه الحقيقة قائلاً:

"اعلم أن طريق هذا الكتاب ربما يخالف مذهب المنطقيين والفلاسفة والمتكلمين في الاصطلاح والتقسيمات وفي الأصول.

الأسباب العائقة عما جاء به القرآن: بين المؤلف في كتابه بالتفصيل العراقيل والأسباب المعوقة عن فهم ما جاء به القرآن من الدلائل البينة وعلم الحجة يخاطب أولاً لمن استحوذ عليه من هذه المعوقات فلم يدرك آيات الله وأدلتها، فهو عنده كدواء لا يستعمل إلا لأجل المرض. فإليك ملخص ما قال:

الأول: من الذين اشتغلوا بالكتاب والسنة وهم الذين يزعمون أنّ طريق العقل لا صلة له بالتعليم الديني ولا حاجة إليه في تفسير الدين والشريعة الإسلامية، فلا ندرس فيه إلا محض أخبار الأنبياء والآثار المنقولة عنهم والمعجزات، وأنّ الشرائع كلها مبنية على أمر الله فيجب علينا أن نأخذها من غير معرفة الحكمة منها واستعمال العقل في فهم مطالبها والسبب الأساسي لقيامهم على هذا الرأي سوء ظنهم في الفلاسفة وعلم المعقولات، فيقول: "بما صاروا على هذا الرأي صرفوا عن استعمال العقل والفكر في أمور الدين كلها فكيف بالتفكير في دلائل القرآن". فانتقد فكرتهم هذه وبين أنّ ضلال الفلاسفة لم يكن لأجل العقل بل لغلبة الفلسفة عليهم ولكونهم بعيدين عن طريق القطرة.

الثاني: السبب الثاني لتركهم الطريق الفطري الذي يستدل به القرآن هو اشتغالهم بالمنطق والفلسفة أشد الاشتغال، فزعموا أنّ الفلسفة الخوض تقودهم إلى طريق العقل والاستدلال الصحيح، فصاروا عمياناً عن الحق والحكمة القرآنية، وهذا لا يخفى على من نظر في زخارف المتفلسفين حتى لم يتخلص منها من آمن منهم بأمر الله والقرآن، فانتقد انتقاداً شديداً فلاسفة اليونان وأتباعهم من أهل الإسلام نحو أبي حامد الغزالي وأبي علي مسكويه وأحمد بن محمد الطوسي وغيرهم ممن ذهب إلى مذهبهم التفلسفي وهو يتعجب خاصة مما سلك عليه الغزالي قائلاً: "فمنهم من أبطل بعض أباطيلها وأبقى بعضها محسناً به ظنه كأبي حامد الغزالي رحمه الله، فإنه بين تهافت ما في إلهيات اليونانيين ولكنه هو الذي أدخل منطقهم في الإسلام، فكان كمن قتل الأفعى وربّى أولادها، وكذلك اتخذ أخلاقياتهم فبنى عليها كتاب "ميزان العمل" فلم يخرج اتباع الفلاسفة مع غلوه ردهم".¹

الثالث: ومما منعهم عن العلم الحق أيضاً زعمهم انحصار أنّ القضايا الأخلاقية هي من الأفكار المزعومة التي لا تحتاج إلى البرهان والأدلة المعتمدة على مبادئ الدين، وهذا من "أباطيل المنطق" كما ذهب إليه الفارابي وغيره من الفلاسفة، فلم يتفكروا في البراهين الربانية

¹ المرجع السابق، ص 21

كما قال: "فلم يتفطنوا أنه يهدم الدين كله مع أنه يهدم جانباً عظيماً من حكمتهم وهو الحكمة العملية"، (فإن القضايا الأخلاقية عند المؤلف ركن عظيم من حكمة الدين سمّاها "الحكمة العملية"، فينبه على ضرر هذا الزعم بقوله: "ولو لم يكن في المنطق من الضلالة إلا هذا القول الباطل والسم القاتل لكان أولى بأن ينقدوا أمره ويتقوا شره".¹

ثم يتعجب من توهس الغزالي بالمنطق ويبيّن أنه أخذه من اليونان ولو كان أخذه من أدلة القرآن كما يدعي، لكان محترّزاً عن أباطيل المنطق، فانتقد ما كتب في كتابه "محك النظر في المنطق" في "مدارك اليقين والاعتقاد" تحت سبعة أقسام،² ثم قال: "ولا شك أنّ استدلال القرآن لا يخالف ما صح من المنطق ولكن أين الجذوة من النور الأعظم والوشل من البحر الخضم ولو أنه أخذه من القرآن لكان محترّزاً عن أباطيل المنطقيين".³

الرابع: هذا يتعلق بما غلب على بعض فلاسفة الإسلام من إلهيات الفلسفة أن قضايا التوحيد والربوبية إنما يحتج عليها حسب قواعد الفلاسفة، والأنبياء إنما بعثوا ليكملوا إقناعيات دينية وبراهين اعتقادية، وأما البرهانيات الحقيقية فلا تنشأ مبانيها إلا بأيدي الفلاسفة، ومن المفكرين المسلمين من قد ذهب إليه خاصة الفارابي وابن رشد، فقال: "هذا التوهم صرفهم عن فهم ما أنزل الله من الحكمة البازغة ولم يعرفوا قدره العظيم".⁴ فأورد المؤلف مثال هذه النظرية عن قول الفارابي الذي نقله عن كتابه "الجمع بين رأيي الحكيمين".⁵

الخامس: والسبب الآخر لغفلتهم عن هذا العلم ودلائل القرآن هو ما أشار إليه القرآن "وَكَايْنِ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿٥٨﴾". (سورة

¹ المرجع السابق، ص 21

² المرجع السابق، ص 55-58

³ المرجع السابق، ص 22

⁴ المرجع السابق، ص 24

⁵ راجع كتاب الفارابي، الطبعة الأولى، مصر، ص 29-39

يوسف: 105) وذلك لعدم النظر في آيات الله ولشدة ولوعهم بالمحسوسات الحاضرة وعلومها، وهذه الغفلة تغلق لهم أبواب المعرفة بما "هو المشهود في الأنفس والآفاق من مظاهر الجلال والجمال والحكمة والرحمة، فصاروا لا يرون إلا الظاهر المحسوس كالبهائم كما قال الله تعالى: "لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا". (سورة الأعراف: 179).¹

السادس: قد زعم أكثر الناس أن القرآن نزل على الأميين وهم الذين خاطبهم الله بآياته فيه فلا يتطلب منا إلى التدبر وإمعان النظر فيه وهذا الرأي من سببين: الأول؛ أنهم لم يعلموا أن العرب كانوا على أعلى درجات الذكاء والأدب ولا سيما في بلاغة الكلام وإيجاز الخطاب، والثاني، كما يقول، أنهم لم يعلموا أن من أعظم غاية القرآن تربية العقول وتعليم الحكمة كما صرح به في مواضع كثيرة" فأكد به أن القرآن انطوت فيه الحجج البالغة والمقدمات القيمة المستمدة من أصول الفطرة التي ينبع منها الاستدلال الحقيقي.²

السابع: وبه أشار المؤلف إلى الظن الذي غلب على أكثر الناس بأن القرآن قد كثر فيه الاقتضاب والانتقال من موضوع إلى موضوع من غير ترابط منطقي وصلته معنوية بين أجزائه، ومن ذهب إليه أحمد ابن حزم الظاهري (384-456) والشاه ولي الله المحدث الدهلوي (1116-1176) رحمهما الله، فذكر بهما في ذلك الموضوع ونقل نموذجاً عن كلام الشيخ الدهلوي على ما ذهبوا إليه، ثم قال: "هذا الظن صار سداً شديداً دون التدبر في نظم القرآن عموماً، نفخي عليهم طرف عظيم من مطالبه المهمة وبلاغته العجيبة فضلاً عن دلائله اللطيفة".³

هذا ما بينه المؤلف من الأسباب الداعية إلى تأليف هذا الكتاب وإظهار هذه

¹ حجاج القرآن، ص 26-27

² المرجع السابق، ص 27

³ المرجع السابق، ص 28

الدراسة القرآنية الجليلة وهو من أخص المباحث لهذا الكتاب.

وبعد ذلك كتب المؤلف جملةً صالحة من مباحثه - إنه لم يكتمل هذا الكتاب الجليل ولكن قيمته العلمية تظهر من كل فصل من فصوله المكتوبة - فيشتمل هذا التأليف على ثلاث مقالات وكل مقالة مشتملة على ثلاثة أبواب وكل باب من هذه الأبواب يتضمن، فصولاً مختلفة كما يلي:

* المقالة الأولى وأبوابه تشتمل على نقده للمنطق والفلسفة وعلم الكلام.

* المقالة الثانية كتبت في تأسيس العلم وتقسيمه والبيان في طريق الاحتجاج للقرآن والباب الأول من المقالة الثانية هو في "الميزان والمنطق الأعلى" والباب الثاني منها في "الحكمة البازغة" والباب الثالث في طريق الاحتجاج للقرآن وهذان البابان هما من أهم الأبواب والفصول من هذا الكتاب تفصيلاً وإطلاً ونقداً وتحليلاً واستدلالاً.

* المقالة الثالثة تتضمن البحث في "حجج القرآن" وأمثلتها وهو الهدف الأصلي لهذا التأليف الجليل، وفيها ثلاثة أبواب، والباب الأول يحتوي على مباحث عديدة نحو "أدلة الربوبية"، و"وجوه الاستدلال بالآيات الآفاقية على الإله الحق" غيرهما من المباحث المهمة، والفصل الأول من ذلك الباب يتحدث عن المظاهر التي تبرزها الآيات الآفاقية استدلالاً على الإيمان بالله وصفات الكمال لذاته الأعلى والأكبر، فتقسمها في سبعة أقسام بتعريفات واضحة ومصطلحات جديدة وهي:

• الحق الرائق في الموجودات.

• الموافقة الدالة على الحكمة والرحمة والربوبية والقدرة والعلم.

• وجود الضد من الضد.

• ووجود المختلفات من المتحدات.

- ومظاهر العظمة والجلال في السخر المقهور.
 - والتدبير القاهر المحيط.
 - وكون الحق والعدل والخير غالباً على أضدادها.
- وقد خصّ الفصل الثاني للبحث بالآيات الأنفسية، والثالث "بتمهيد ما بينه في الفصل الرابع من أمثال القرآن وحكمها لأن الحجة فإنها نوع من حكمة القرآن، وللمؤلف اختصاص في هذا العلم أيضاً، والفصل الآخر منه) والتأويل حسبما ظهر لي (....قد نبه فيه على جوانب لطيفة مما فتح الله عليه من لطائف القرآن وحكمته وبين ما بين فيه بأسلوب حكيم فذ، وأوضح فيه بأن الإيمان يحتوي مفهوم العلم فمن لم يوفقه الله لهذا الإيمان يبقى على جهله الحقيقي وأظلم عليه نور السماوات والأرض، فجميع العلوم والأعمال الصالحة يفرع من هذا العلم الحق وهما (العلم الحق والعمل الصالح) اللذان لا يمكن الحصول عليهما إلا برافد هذا الإيمان، ولسوء حظنا لم يؤلف الفراهي البابين الآخرين من المقالة الثالثة على الخطة التي رسمها للكاتب، وهما- كما قيدهما في فهرس مطالبه:-

- الباب الثاني في أدلة المعاد وفيه عشرة فصول"
 - و"الباب الثالث في أدلة الرسالة وفيه عشرة فصول"
- فلم يكمل هذه المقالة على الوجه الذي أراده ولكن كلامه فيه مسهب، تجده مفصلاً في بعض الفصول من البابين الآخرين للمقالة الثانية وفصول متفرقة من الجزء الثاني.
- الانتقاد على الفلاسفة والبيان في تفوق الحجج القرآنية: لقد كتب المؤلف في الفصول والأبواب المذكورة جملة صالحة من مباحث عالية، وهي من أهم مباحث الكتاب وأروع الانتقاد على المنطقيين وأهل الفلسفة القديمة والجديدة وعلم بعون آيات القرآن وحججها البارزة، ومن أهم تحليلاته تحليله العلمي في تعيين مفاهيم الحكمة والعلم واليقين،

والموضوعات التي تدور حول معرفة الفطرة والعقل السليم، والطريق إلى تقسيم الأدلة، ومن أحسن كلامه على آراء فلاسفة العصر الحديث والقديم، وانتقاداته على مزعوماتهم المنطقية والرد على شبهاتهم، ما ورد في فصول من الباب الثالث من المقالة الأولى؛ ومن أهم مباحثها، "النظر في فطرة الإنسان"، و"طريق ناقص لأبطال الشك المطلق"، و"الكلام في انقطاع الطريق دون الغاية"، و"الطريق الحقيقي للعلم واليقين"، وغيرها من فصول في الانتقاد على الفلسفات الزعمية لعلماء اليونان القديم والغرب الحديث، وما أضاف به إلى تقسيم الأدلة.

قد انتقد الفراهي رَحِمَهُ اللهُ في هذا الكتاب عدداً من الفلاسفة من العصر القديم وخاصة أفلاطون وأرسطو، وعقب على أفكارهم في الفصول المتعددة من المقالة الأولى وكشف عن ضعفها وضرارها؛ وأبطل بهذه المباحث المذكورة المهمة فلسفة الشك للفيلسوف الفرنسي الكبير ديكارت (R. Descarte) وزعمه المعروف أن اليقين يتحقق من خلال الشك (Certainty Through Doubt)، ونظرية الشك للغزالي ورأيهم في الأخلاق، والفلسفة التجريبية والمحسوسة (Empiricism) لجون لوك (John Loke) وأظهر بسقم فكرهم ظهر في فلسفة أفلاطون وأرسطو وغيرهما من فلاسفة اليونان القديم، ونقد على أفكارهم الفلسفية وتعريفهم المنطقية مثلاً بالعلم والأشكال Forms والمسلمات (Universals) لأفلاطون، والمادة (Matter) والعقل (Intellect) ونظرية الجوهر (Essence) وماهية الأشياء (Ousia) لأرسطو وغيرها من النظرات الفلسفية مثلاً: الحقائق المستقلة غير المتغيرة (Independent Realities) والحقائق الكلية (Universals) والعلة المتحركة (Active Reason)، والعقل الفعال (Most Potential Intellect)، والبديهات الأولية (Self-Evident Truth) والاسمية (Nominalism) وغيرها من أفكارهم وفلسفاتهم التي ترك أثراً شديداً في فكر فلاسفة الإسلام ولكن هذا الحكيم الهندي البعيد النظر والعميق الفكر

لم يتأثر بها إلى أدنى درجة، فبند نظرية الكليات لأفلاطون والتحليل المنطقي لأرسطو ونظريته المعروفة في تقسيم العلوم والمعقولات (Categories) في مواضع كثيرة من هذا الكتاب في ضوء القرآن.

فأفرد عدة مباحثه لإيضاح طريق القرآن في الاحتجاج، وعلوه على طريق الفلاسفة لتبيين به معرفة الحق ووجه الله البالغة، وبيّن فيها مذهبه في احتجاج القرآن وانتقاده على الآراء الفلسفية في وقت واحد، ومع أنه لم يكمل هذه الأبواب والفصول أيضاً على الطريق الذي رسمه، لكنه آلف فيها من أحسن الفصول وبحث فيها من أطيب المباحث وحقق فيها من أروع التحقيقات وأورد فيها من أهم النظرات لتبيين هذا الموضوع:

- "رغبتهم في رد الحقائق إلى الوحدة دليل على كون التوحيد فطرة العقل ولكنهم طلبوه في المخلوق نخابوا، وإنها هو مختص بالخالق الواحد القهار.
- نجح سعيهم في الرياضيات والهندسة وكثير من الطبيعات، ثم ضلّلتهم في الإلهيات وتمهقهم، واعتمادهم على الظنون الواهية دليل على ضرورة النبوة ("وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ") (سورة النور: 40) فإن أذكى الناس إذا تمحقوا في أمر فلا بد أن ذلك الأمر لا تستقل به العقول وإنما تكون فيه تابعة، ألا ترى البصر لا يستقل بنور بل يستبصر بالنور الذي يأتيه من خارج فيفرح به ويقبله".

وهذا هو الهدف الذي حثّ الفراهي رَحِمَهُ اللَّهُ على تأليف هذا الكتاب.

فالاستدلال الذي يقبله العقل الإنساني يظهر من خلال الحكمة التي أودعها الله في الإنسان ويأخذها بعد الإدراك بها. فعنده هذه الحكمة "كالنور تعرف بذاتها لا بشيء آخر"، فقطرته تحتاج إلى الحكمة والحق والبصيرة كما هو محتاج إلى الماء والطعام، والحاجة إلى هذا العلم إذا هي مسلمة عند المخاطب لا تحتاج إلى الحكمة والحق والبصيرة كما هو محتاج إلى الماء والطعام، والحاجة إلى هذا العلم إذا هي مسلمة عند المخاطب لا تحتاج إلى إثباتها، فبين ذلك كله

مستدلاً بالآيات القرآنية ثم يقول: "قد بين القرآن هذه القاعدة في الاستدلال حيث قال الله تعالى مخاطباً لنبيه" (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا) (سورة آل عمران: 64) بهذا قد أقروا به ثم نبه على ما يلزمهم من هذا الإقرار فقال: "وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ" (سورة آل عمران: 64) أي إن لم يقرؤا بذلك فقولوا لهم إنا نقر به فنحن مسلمون بالاتفاق وفيه إشارة إلى أنكم لستم من المسلمين بما تقرّون به".

ففسّر به أن هذا الدليل قاطع للخصم، فإنهم قد آمنوا بالتوحيد ولكن الكلام هنا ليس لإثبات التوحيد لأنه نفسه أقرب، بل هو للاحتجاج على ما يثبته هذا القبول من أبطال العبادة لغير الله.

مميزات كتاب الحجج للفراهي موجزاً:

- هذا علم الاحتجاج بجميع قواعدها ويحجب عن الأسئلة المتعلقة بأهداف نزول القرآن وأهداف الدين الإلهي.
- ويكشف القناع عن علم جديد من الدراسات القرآنية وهو علم الحجة القرآنية، ومنهج الاستدلال للقرآن، فصاغ مؤسسه ووضعه القواعد الأساسية له وأبرز محاسنه وأهدافه، واستقرى موضوعاته ومطالبه.
- وفيه ذكر الأمثلة المختارة من حجج القرآن التي تكفي لإقامة الحجة على خصمه وعلى كل فرقة يخاطبها، فجاء بها على شكل قواعد الاستدلال القرآني ويجب المراعاة بها على كل من يريد النظر في آيات هذه الأمثلة.
- تبين هذه الدراسة الجديدة الفرق بين الاستدلال الفطري للقرآن الذي يعتمد على الآيات البينات وأساسيات العلم واليقين والاستدلال الظني الذي يعتمد على مزعومات الفلاسفة، ومقولاتهم الزعمية، والأديان الموضوعة.

- وفي هذا الكتاب كثرت نماذج الإبداع والتجديد والإضافة إلى المباحث القرآنية مما جاء بها المؤلف من موضوعات جديدة ونتائج لطيفة ونظرات عالية لا نجد لها في غيره من كتب العلماء وأئمة الإسلام.
- وما أعانه في إبراز هذه الدراسة، ممارسته لكتب الفلسفة القديمة والحديثة، وبراعته في علم الكلام والعلوم العصرية وآداب الغرب مع تجرّبه في تفسير القرآن وعلومه وتدبره العميق فيه.
- ومنها تحليلاته العقلية على الوجه الفطري بما أودعه الله من الحكمة.
- وفيه انتقادات قيمة على فلاسفة العصر القديم والحديث بأدلة القرآن والرد على أفكارهم الظنية ودياناتهم الفلسفية.
- قد نجح المؤلف في إظهار طريق القرآن في الاستدلال وإثبات تفوقه على استدلال الفلاسفة وسائر الأدلة بكتابته هذا.
- تساعد هذه الدراسة الجديدة في فهم مطالب القرآن ومفاهيمه وصفات الله تعالى، إضافة إلى الدلائل القاطعة على العقائد الإسلامية وأصول القضايا الأخلاقية التي يهدي إليها القرآن.
- ومن مظاهر الإبداع التي أضافها المؤلف إلى الدراسات القرآنية بهذا التأليف إirاده لكثير من المصطلحات الجديدة التي وضعها أولاً لتأسيس هذا العلم، كما ذكرناه آنفاً.
- وبما وفر في هذا الكتاب من أقوال المؤلف في مواقع الخطاب في القرآن وسياقات كلامه صار الكتاب مجموعة مباحث تحث الناس على التدبر في كتاب الله والنظر في نظامه ومطالبه.

- قد وضع المؤلف الرسوم البيانية والجداول العلية في بعض الفصول من الكتاب لإيضاح مطالبها.
 - وتقدم هذه الدراسة أساس العلاقة القوية بين القواعد المقاصدية وأسرار الشريعة وبين الحجج القرآنية، فهي تسهل لنا طريقاً صحيحاً إلى فهم الدين والشريعة الإسلامية على الطريق الذي يرشد إليه القرآن، فهل يسمع صوت الفراهي رَحْمَةُ اللَّهِ تعالى كل من يقصد البحث والتحقيق في مقاصد الشريعة والقواعد المقاصدية؟
 - وتظهر هذه الدراسة مدى إمكانية الاستفادة من القرآن في مجال الدعوة إلى الحق ودين الله القيم والمحادثة من يقوم بدوره بما هو أقرب إلى الفطرة من الأدلة والحجج، والبناء الأقوى للرد على الأديان الوهمية الباطلة.
 - ومن أهم فوائد الكتاب أنه قسم الحجة القرآنية وطريقه في الاستدلال إلى أقسام مختلفة وأظهر تعريفاته وتقسيمات أدلته من جهات مختلفة للتنبيه على جوانب خاصة مفضية إلى أغراض الموضوع، فهذه التوزيعات ازدادت أهميته ومكانته العلمية.
- قد قسم الدكتور حسن يشو مباحث حجج القرآن إلى 24 مبحثاً كما يلي:
- المبحث الأول: مقدمة الكتاب:** فهذا كتاب من مقدمة نظام القرآن أفردته لذكر أعظم ركن من كتاب الله وأول أمر من نعت هذا النبي وآخره، وهي أربعة: تلاوة الآيات، والتزكية، وتعليم الكتاب والحكمة كما سبق. فقدم تلاوة الآيات، وختمها بالحكمة. فهاتان كالبذر والثمر، وما بينهما طريق الوصول وأعلامها. فالأولى مقرونة بالأخرى إلا أن يزيع السالك عن الطريق فيضل عن الغاية كما صرح به في غير موضع "...
- المبحث الثاني: محتوى الكتاب:** إنّ محتوى كتاب حجج القرآن قد ذكر أعلاه فيصرف النظر عن هذا المبحث.

المبحث الثالث: حاجتنا إلى هذا العلم والأسباب العائقة: يصرف النظر عن هذا المبحث بأن مغزاه قد ذكر أعلاه تحت أهمية الموضوع.

المبحث الرابع: طريق استدلال القرآن: استدلالنا من الظاهر على الباطن ومن البادي على الخافي ومن الفرع على الأصل. فإن كان الباطن أصلاً وأساساً لقد كان الظاهر سبباً للعلم ووسيلة إلى المعرفة وذريعة إلى اليقين، وذلك هو طريق القرآن. وهو العبرة بالآيات الدالة على حقائق خفية يينات في صدور الذين أوتوا العلم الذين يستدلون بالمشهود على الغيب، فهم على بصيرة، وذلك هو الصراط المستقيم. فإن الظاهر متصل بالباطن بطرف منه. ومن نظر في أطرافه وجوانبه اهتدى إلى أصله ومبدئه. وأما المحدودون فيحيدون عن هذا الطريق السوي وينكصون على أعقابهم أو يقفون كالأعمى فلا يرون ما وراء الظاهر. فهم القالفون بالقشر من اللب وبالصدف من الجوهر.

عذر العلماء لعدم التفاتهم إلى أدلة القرآن. إنهم كلوا الناس على قدر عقولهم، وهم اليوم متهاكون على الفلاسفة. وعرض الدلائل البسيطة مع صحتها لا يعجبهم ويمدهم طغياناً بأن المسلمين جاهلون بما عندهم. فردوا عليهم بأسلحتهم وعملوا على ما قيل: لا تلقوا الدر بين أيدي الخنازير. وقد تفتن بضعف طريقتهم أهل النظر البالغون مثل الرازي وابن رشد والغزالي وابن تيمية، ووجهوا الناس إلى أدلة القرآن.

اعلم أنّ القرآن يحتاج على الناس بشهاداتهم الفطرية وربما يحتاج على فريق بمسلماتهم الخاصة. وبالجملة فلا يطالب المخاطب إلا ما قد سلّمه. ولا حجة أبلغ ولا أدمغ من هذه. أما الشهادات الفطرية فإن الإنسان يشهد بلسان حاله على أمور وإنما ينكر بنفس تلك الأمور على طريق المكابرة. فالقرآن ينبه على شهادة فطرته، فإنّ الله تعالى جعل في الإنسان نفسه شهاداً له على نفسه، فيناديه وهم يجهلون من بين جنبيه، كما قال: "بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بِصِيرَةٍ^{١٤} وَلَوْ أَلْفَى مَعَاذِيرَهُ^{١٥}". [سورة القيامة: 14-15]. وهذه الشهادات:

(1) إيقانه بالخارج.

(2) وبنفسه.

(3) وإرادته.

(4) واختياره.

(5) ولومه.

(6) وتمييزه بين البر والفجور وسائر ما ذكرنا من مجارى اليقين الفطري. وإنما أشهد به باضطرار الفطرة. فلو لا فطر على الإقرار لما أتم عليه الحجة. وعلى هذا احتجاج القرآن يسمي فطرياً واضطراباً. فأما الأمور التي يشهد عليها بلسان الحال فنذكره ههنا جملة على طريق الإيجاز.

1- إيمانه بالغيب. فإنه قد آمن بالمشهود الحاضر، وفي كل ذلك إنما آمن بما غاب عن حواسه، وهو فيه مستدل بالأثر على المؤثر وبالصفة على الموصوف الذي ليس هو نفسه. وبعبارة أخرى هو يسلم نفس الاستدلال وأصوله.

2- إيمانه بصحة حواسه. فإنه لو لم يؤمن بها لما استدل بها على شيء خارج عنه ولا على أمر داخل فيه من اللذة والألم. وإذا لقي جامداً خامداً لا يتحرك بل لا يتفكر.

3- إيمانه بصحة عقله. فإن ذلك منطوي استدلاله من المؤثر الداخل أو الخارج جاءه من غرف الحواس.

4- إيمانه بصحة قلبه. فإن ذلك منطوي تميزه بين الشر والخير، والضار والنافع. فإنه مجرى جميع إرادته وحركاته. فلو لا ذلك لم يفعل ولم يتحرك، ولكنه دائماً يفعل ويجهتد. فكما آمن بصحة عقله فكذلك آمن بصحة فؤاده.

5- إيمانه بأصول الترجيح والاختيار عقلاً وقلباً. ومجراه لإقراره بالأحسن والأقبح. وبعبارة أخرى هو مؤقن بالاختيار لنفسه في العمل. فإن ذلك منطوي في جميع إرادته وأفعاله وتركه.

- 6- إيمانه بالعدل والحق. فإنه منطو في إنكاره حقاً لم يثبت عليه. فإنّ ذلك منطو في جده وغضبه وخصامه ومعاشرته مع غيره ومطالباته. واعلم أنّ أصل مكابرتة هو اتباع شهواته الدنية الدانية وتغافله عن الآيات المنبهة على الأعلى الآجل ما هو خير وأبقى، فيناقض حكم عقله وقلبه بأصل الترجيح.
- 7- إيمانه بالفاطر. فإنه منطو في إيمانه بما ذكرنا.

المبحث الخامس: ثلاثة أصول:

- 1- الحق لا يبطل بباطل ولا العلم بجهل. قد أيقنا بأنّ لنا خالقاً ومنعماً وله علينا حق، وهو أن نشكره ونعظمه. فإنّ أشركنا به من لم نعلم له حقاً فأبطلنا حقاً بباطل وعلماً بجهل. وهدانا إلى هذا الأصل قوله تعالى: "وَإِنْ جَهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا" [سورة لقمان: 15]، و[سورة العنكبوت: 8]. فذكر الدليل على ترك الشرك كونه غير مبني على علم. وفي هذا الكلام أيضاً دلّ على أصل ثانٍ، وهو:
- 2- إنه لا يبطل الفرع الأصل، فإنه تعالى قال قبل ذلك: "أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَى آلْتَصِيْرُ ﴿١٤﴾". [سورة لقمان: 14]. فإن جاهدك الوالدان على الشرك لا تهدم الأصل بهذا الفرع. ثم دلّ على أصل ثالث وهو:
- 3- إنه لا يبطل الحق من الباطل إلا بقدر ما هو باطل فلا عدوان. فلم يأمرنا بنبد حق الوالدين بالكلية بل أمرنا بقوله: "وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا" [سورة لقمان: 15].

المبحث السادس: فطرة النفس هي حرية العقل والعمل: إنّ العقل السليم والعلم اليقين هما يهريان إلى الرشد إذا اتبعتهما الإرادة والعمل. وذلك هو طريق الفطرة للإرادة، فإنّ الإرادة لا بد أن تصرف إلى ما هو الخير وأحسن وأبقى. فإذا جعلنا الإرادة منقاداً للعقل والعلم تركناها على فطرتها واستقامة أمرها وذلك حريتها. فإنّ مَنْ

تبين له الرشد ثم أخذ بخلافه فقد ناقض فطرته وأكره نفسه وساقها إلى غير طوعها الأعلى. وهذه الفطرة والإطاعة هي الرشد والدين. قال تعالى في أمر التوحيد: "فَطَرَتْ أَلَلَّهُآلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾" [سورة الروم: 30].

المبحث السابع: الفرق بين العقل الكلي والعقول الجزئية: وكذلك بين العلوم الكلية والجزئية فإن قال قائل قد علمنا أن دين الفطرة موافق بالعقل السليم، ولكن كيف العلم بسلامته، فإننا نرى العقول متفاوتة ومظنة للفساد والزيف وبالنتيجة آراؤنا مختلفة حتى أن الذين يدعون اتباع العقل لم يسلموا عن التخالف بل هم أشد الناس اختلافاً وأبعدهم اعتسافاً. وأمر الدين عظيم، وقد أصاب أهل التقليد إذ لم يعملوا عقولهم الجزئية في دينهم واعتمدوا على من ظنوه أعقلهم أو على رأي اتفق فيه الجمهور. فاطمأنوا به فاستراحوا عن شبق النفس وشقاق العقل. قلنا إن هؤلاء المقلدين أيضاً ضلوا كما ضل المفتونون بالعقل بل هم أشد الناس عناداً وأكثرهم إفساداً. ثم إنهم لم يتركوا إعمال العقل إذ اعتمدوا على من ظنوه أعقل، ولا خرجوا من سلطانه إذ أطاعوا من أطاعوه ظناً برجاحة عقله. وهذا يثبت أن الإنسان بفطرته تابع لعقله سواء أخطأ أم أصاب ودعا أو أجاب. وإذا لا محيص من إطاعة العقل وهو فطرة الإنسان ونرى اختلاف الناس في آرائهم وأهوائهم لا بد من النظر في نهجه السوي الذي لو عمل عليه لهدى إلى سلامة فطرته. فالعقل هو الميزان الفاروق بين الحق والباطل، ولكن لاستعماله طريقاً وأصولاً. فنذكر أصول هذا الميزان وقد جاء بها القرآن.

الأول: أن الحق الجلي الواضح لا بد من اتباعه إيماناً وعقلاً. وقال تعالى: "فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرِفُونَ ﴿٣١﴾". [سورة يونس: 32].

الثاني: أن الظن إذا خالف الحق الصريح يترك. قال تعالى: "إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً". [سورة يونس: 36]، و[سورة النجم: 28].

الثالث: أنَّ الظن الذي دلت عليه الشواهد يتبع إذا لم يخالفه ما كان أجلى وأقوى منه، وذلك حيث يسكت صريح العقل وكانت القضية من النظريات.

الرابع: أنه لا مناقضة بين حقين.

المبحث الثامن: العقل هو الفارق بين الإسلام والكفر: اعلم أنَّ سبيلنا سبيل العقل فلا نؤمن إلا بما يتقبله محض العقل ويطمئن به بالهدى الفطري. وإنما جاء الوحي والرسول موافقاً له كالنور للبصر. وصرحت به الكتب المقدسة كثيراً والقرآن أكثرها تصريحاً. فهذا هو الأصل الأول لكتابنا. ثم الأصل الثاني وهو كالتفصيل للأول أنَّ المؤمن يتبع العقل في جميع أحكامه، والكافر يتبعه فيما يوافق هواه وظنه كما قال تعالى: "إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ" (٣٤). [سورة النجم: 23]. فيعيشوا عن هديه.

وقد ضرب الله مثلاً لهديه ونوره والذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، فقال: "أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيْءِ آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ" (١٩) يَكَاذِبُونَ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (٢٠). [سورة البقرة: 19-20].

فهوى النفس لهذه الحياة الدنيا يشبطها عن القصد إلى أعلى الخير، وظنونها الباطلة تحجبها عن النظر في محض الحق ولم أر كالظن والهوى عدواً للحق والتقوى. فالظن يزين الباطل في صورة الحق، والهوى يغطي الشر بحلاوة الخير. فهما عثرتان في طريقي العلم والعمل. وأخبر الله تعالى في كتابه الحكيم عمن اتبع الظن وأقبل على الدنيا وأعرض عن أصل الخير ومحض الحق، فقال عز من قائل: "وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا" (٢١) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٢) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ". [سورة النجم: 28-30]. أي لا

يطلبون العلم الذي يحتاج إليه من يهّم الحياة العليا التي هي خير وأبقى، ونفصل ذلك.

المبحث التاسع: حجة عامة وخاصة في القرآن: المتأمل في حجج القرآن إذا مرّ على حجة أن يعلم موقف الخصم وحينئذ يظهر عليه هل كانت الحجة عامة أم كانت خاصة ومفحمة للخصم المخاطب وإن لم يفحم خصماً آخر، كما قال:

وربما يجمع القرآن حجة عامة وخاصة كما قال في إثبات الرسالة وهذا القرآن: "وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾". [سورة الأنعام: 91].

فالظاهر أنّ الخطاب ههنا إلى اليهود ولكن بدأ الكلام بدليل عام، فبين أنّ الإنكار بإنزال الوحي من الله استخفاف بقدره العظيم وهو الهداية والتربية والحكمة. ثم استدل على صدق هذا القرآن بأنه يعلمكم ما لم تعلموه مع ما أنزل عليكم من النور والهدى. فإن كان ذلك منزلاً من الله فهذا القرآن الذي زاد عليه أولى بأن يكون من الله.

المبحث العاشر: الأصول الفطرية: والأصول الفطرية التي هي مجاري اليقين وهي المبادئ لجميع العلوم والأعمال. قد سبق أنّ القرآن جعل بناء الحجة على اليقين الضروري الفطري الذي لا يسع العقل أن يعصيه، وهو ينبوع جميع علومه وأعماله ونظيره واستدلّاه. وهو مودع في غور فطرة النفس مكنون كاللب وراء القشور والروح وراء الستور. ولكن يجري منه الجداول، فنقدم الكلام فيما هو أقرب حتى تستعد للنظر فيما هو أطف وأدق.

فاعلم أنّ لليقين الفطري مجاري إلى المدركات، وذلك إلهامات. لولاها لم يكن لنا علم ولا بداهة ولا نظر ولا استدلال، بل لولا هي لم تكن لنا حياة فكيف بفكر وإرادة وفعل وعمل. فننظر في حقيقة هذا اليقين وما تضمن من الأصول:

1- هو "أن لكل أثر مؤثراً". وبيان ذلك أن لنا ولكل ذي حياة يقيناً بوجود في الخارج، ولا يظهر ذلك إلا بعد علم حسي به. ومحض الإحساس لا يعطيك يقيناً بالموجود في الخارج، فلا بد أنك تستدل بنوع من الاستدلال الفطري من الأثر على المؤثر.

2- "أن النفس ذات غير صفاتها". وبيان ذلك أن إزعان النفس بالخارج مبني على إزعانها بكونها غير الخارج، فلا بد أن النفس قد ميزت بين الحاس العالم وبين المحسوس المعلوم وإلا جعلت المحسوس متحداً، بها فلم تدعن بكونه خارجاً عنها.

3- هو "أن الصفات لا بد لها من ذات تحملها". وهذا داخل في ما ذكرنا في الإلهام الثاني من تمييز النفس بين ذاتها وصفاتها. فكما أنها موقنة بوجودها وجوداً حاملاً، فكذلك هي موقنة بوجود صفاتها وجوداً قائماً بها.

4- "أن النفس ذات إرادة واختيار وفعل". وبيان ذلك أن النفس كما هي ذات علم وإدراك فكذلك هي ذات لذة وألم، ورغبة ونفرة، واختيار وإرادة، وفعل وتصرف. فإنها تميل إلى شيء وتكف عن آخر، وتحكم بكون أمر حسناً وآخر قبيحاً، ولا يكون ذلك إلا بأنها تميز بين المرغوب والمكروه وبين الفعل والترك. ولولا يقين لها بالاختيار والتصرف لما أرادت فعلاً ولا جهدت لشيء. وكما أن يقينها في باب العلم ملهم، فكذلك يقينها في باب الفعل والإرادة ملهم فطري.

5- وهو منطوق في الرابع وذلك "أن هناك منفعلاً غير النفس". فإنها لو لا أيقنت بذلك لم تبسط يداً ولم تقبض على شيء ففعلها مبني على يقينها بانفعال غيرها، وأول جريانه في استعمال قواها الفطرية والحسية وآلاتها الجسمية. فإذا حركت يداً ومدتهما إلى محسوس أو قبضت على شيء، وكررت هذا الفعل تيقنت بتصرفها فيما هو خارج عنها، فتيقنت بكون الخارج المحسوس منفعلاً لها ومتأثراً لعملها.

6- "التمييز بين المدرك واللامدرك". النفس تميز ذاتها عما ليس مثلها، فإنها تجدها

متصفة بصفات الإدراك والإرادة والحب والكراهة وتجد صفات آخر تدركها. ولا تجد نفسها حاملة لها فتوقن بأن حاملها غير مماثل لها. وإذا أيقنت بأن لكل صفة حاملاً فتوقن بوجود متصف بتلك الصفات. ومن ههنا لم تزل موقنة بالأجسام، ولولا ذلك لم توقن بالخارج المحسوس ولم تجعله موضع تصرفه وعمله.

7- "التمييز بين الخير والشر، والبر والإثم، والقسط والظلم". كما أن النفس تحكم بالموجود المدرك واللامدرك، والحامل والمحمول، وكما تحكم بمرغوب ومكروه فكذلك تحكم بالفرق بين مرغوباتها ومكروهاتها. فلا تجعل كل مرغوب فيه خيراً ويراً ولا تجعل كل مكروه شراً وإثماً. وبذلك تجدها بين جاذبتين: عالية وسافلة، وتحس بمناقضة واختلاف في ميلها. ومع ذلك تعلم العلو من السفلى والطيب من الخبيث فتمدح وتذم، وتعظم وتلوم، وتفرح وتستحي، وتغار وتحمي.

المبحث الحادي عشر: كيف نفهم الأمثال؟ إنَّ المثل حسب الإمام الفراهي هو نوع من التشبيه ويخص المثل أن يكون للتعليم، وبذلك هو ضرب من الحكمة. فإنه إنما يضرب لإحضار الشيء عند الذهن في صورة شيء آخر يماثله ويشاركه في حكم هو أظهر في ذلك الشيء الآخر. وذلك ليتبين للذهن الحكم الذي يعطيه للشيء الأول إذا تصوره، فإنه إذا لم يتصوره أو تصوره خلاف ما هو عليه لم يحكم عليه بالحق وربما حكم عليه بالباطل. ومن ههنا لا بد أن يكون المثل لتصوير الشيء بحيث يدل على حقيقة الشيء، وذلك هو طريق من يهدي إلى الحق. وأما المغالطون فيصورون الشيء على خلاف حقيقة يأخذهم بعض الظاهر التي لا أثر لها في حقيقة الشيء. وهذا هو الغالب في التشبيهات الشعرية، وبذلك يلبسون على السامع ليحملوهم على حكم يوافق هواهم.

وعلى كل حال:

1- فلا بد أن يكون المثل واضحاً في التصوير.

2- وأن يكون الحكم واضحاً في المشبه به.

3- ثم في المثل الحق لابد أن يكون الحكم في نفسه ثابتاً للمشبه. ولكن خفياً عند من لم يتصوره كما هو، فإذا صور له بالحق ظهر ذلك الحكم. وإظهار الحكم هو غاية المثل، وضرب المثل لغير غاية لغو في الكلام ولغاية فاسدة إضلال. ثم بعد ذلك أمر زائد يزيد المثل بلاغة، وهو تفصيل المشبه به وذلك لغرضين:

الأول: تطويل الذكر لكي يتمكن التصوير في ذهن السامع.

والثاني: تكميل التصوير لكي يتبادر الذهن إلى الحكم إما بمحض كون المشبه متصفاً بوصف المشبه به أو بشدة ذلك.

ثم فوق ذلك أمر آخر وهو أن تكون تفاصيل المشبه به المذكورة في المثل مطابقة بتفاصيل المشبه التي لم تذكر. وفي ذلك يحتاج إلى تفكير لمعرفة وجه التطبيق، وبه يكون حظ العاقل من المثل المفصل المطابق أكثر من حظ العامي، بل تتفاوت فيه العقلاء. فمنهم من يقع بوجه ما من المطابقة لعدم اطلاعه على وجه المطابقة التي هي أتم. ثم في النمط الأعلى من هذا القسم الأخير يقصد التنبيه على أحوال المشبه الخفية الحقيقية. ولما كان هذا القسم الأعلى محتاجاً إلى مزيد الفكر والتدبر فتفاوتت فيه الأفهام شديداً. وهذه حالة كل أمر غامض من مكنونات العلم والحكمة. فإنّ العقول درجات، وفي أعمال العقل ترويضه وزيادة قوته.

المبحث الثاني عشر: قاعدة تصحح النظر في الأمثال: لقد أنزل الله كتابه متضمنه بوجوه لا تحصى من الحكمة وتعليمها ليتدبروه فيزدادوا فهماً وعلماً ولذلك صار انتفاع الناس به على حسب عقولهم وفكرهم. وربما ينقص انتفاع العقلاء به لخطأ في طريق فكرهم. ولذلك فاسد العقل يضل به لا سيما في فهم الأمثال، كما قال تعالى: "وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾". [سورة البقرة: 26]. ولا بد أن نبين قاعدة تصحح النظر في الأمثال.

المقصود الآن وإن كان بيان طريق النظر في أمثال القرآن ولكن ههنا قاعدة كلية تجري في الأمثال وغيره، وهي قاعدة مشهورة ولكن متروكة في العمل، وهي تأويل القرآن بنفس القرآن. فإن فيه حقاً محضاً ليس فيه خلط من الباطل كما قال نابغة الجعدي يصف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

ويتلو كتاباً كالحجرة نيراً¹

فمن ضمّ به شيئاً مما أخذ من العقول الناقصة ربما يحمله على غير مراده. ولذلك كان نصيب الصحابة من القرآن أوفر من نصيب المتأخرين من العلماء الذين أخذوا العلوم من الأمم، لا سيما علوم المشركين مما تكلموا فيه من المنطق والفلسفة وغيرهما. فإن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يتعلموا شيئاً من طرق هؤلاء، فكانوا على صفاء الفطرة. فكل ما تعلموه تعلموه من القرآن، وبحسب قوتهم النظرية عرفوا ما عرفوه من علومه وكانوا يسألون بعضهم بعضاً عن مكنونات أمثاله كما روي في الصحيح.

ولا يوضح لك شدة احتياج العلماء إلى التمسك بهذا الأصل الراشح مثل اطلاعك على تخطيط الذين هم من أكابر العلماء.²

¹ تمام البيت:

أتيت رسول الله إذ قام بالهدى ويتلو كتاباً كالحجرة نيراً

انظر: جبهة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، لأبي زيد القرشي، المملكة السعودية العربية، 1981م، 774/2

² فالآن نذكر لك مثلاً واضحاً من تأويل الغزالي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لهذا المثل خاصة وبذلك لا أكون خارجاً عن موضوعنا. وأنت تعلم أنّ الغزالي رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ كان على غاية قصوى في الذكاء والمعاطة للعقليات مع غلوه في الزهد وحبّه للحق وحميته للدين وخوضه على غوامض القرآن. وصف في ذلك خاصة كتاباً سماه "جواهر القرآن"، والقرآن كله أغلى وأعلى من الجواهر.

ولكنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذ لم يتمسك بهذا الأصل ربما خلط عليه الحق بالأوهام والظنون. ولم يكن ذلك لقلّة ذكائه أو زيغ في طبعه ولكنه قد أقبل بشرح الصدر من علوم اليونان على ما ظنه غير مخالف للإسلام،

المبحث الثالث عشر: "أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ": قال تعالى: "أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾". [سورة الأنعام: 122]. أي من أحيى الله قلبه بالإيمان وجعل له منه نوراً فهو يسلك في ضيائه بين الناس بالأعمال الحسنة، فهل يكون هو مثل الكافر الذي يسلك في الظلمة. ومن أسوء ضرر هذه الظلمة أنه لا يشعر بكونه في ظلمة بل من غاية الظلمة يحسب الظلمة نوراً فلا يلتبس الخروج منها، فكفره حجب إليه الكفر، ولذلك ظلمة القلب أسوء الظلمات.

المبحث الرابع عشر: "أَقْمَنَ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ": وقال تعالى: "أَقْمَنَ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٤﴾". [سورة الملوك: 22]. وهذا وجه آخر لبيان ضلالة الكافر. فَإِنَّ مَنْ أَكْبَّ عَلَى وَجْهِهِ وَمَشَى لَمْ يَمْتَدَّ بَصَرُهُ، فلم يعلم إلى ماذا تسوقه قدماه؟ ولم يعلم هل صراطه معوج أم مستقيم؟ ثم لا يكابه كان أولى

وكذلك على آراء الباطنية ومذهبهم الجمع بين حكمة الإسلام والفلسفة. ولذلك اضطروا إلى نبذ صريح النصوص وتحريف الكلم عن مواضعه. والغزالي رَحِمَهُ اللهُ يجمع بين هذه وظواهر النصوص وبعد ذلك توسطاً وإنصافاً، وهذا سبب خطئه في كثير من تأويل القرآن، فدخل فيه ما ليس منه إذا لم يجده مخالفاً للقرآن مخالفة صريحة. وذلك بأن ما لا يخالف القرآن صراحة ربما يكون باطلاً في نفسه أو ناقصاً أو معوجاً. ومن كل ذلك يدخل الفساد في الأصول والعقول، وبالنتيجة يصرف عن صحيح التأويل. فإذا لم يصح لمثل الغزالي رَحِمَهُ اللهُ التأويل بغير القرآن فكيف بمن دونه. دع عنك ما تكلم به ابن سينا في تفسير سورة الإخلاص، فإنه رجل لم يمسسه نور القرآن لتغلغله في فلسفة البطلان.

والآن فلنورد خلاصة ما قال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ في رسالة سماها "مشكاة الأنوار" جواباً لمن سألته عن هذه الآيات وعن حديث: "أن الله سبعين حجاباً من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره". ولعله أحسن شيء يبلغه من يجتهد في فهم القرآن ولا يتسك به كل التمسك، ولعله تفتن بما في تأويله من التكلف والبعد، نختم الرسالة بقوله:

"إن السؤال صادفني والفكر منقسم والخطر منشعب والهم إلى غير هذا الفن منصرف ومقترحي عليه أن تسأل لي العفو عما طغى به القلم أوزلت به القدم. فإن خوض غمرة الأسرار الإلهية خطير واستكشاف الأنوار العلوية من وراء الحجب عسير غير يسير، فأسأل الله العفو له كما أسأله لنفسي ولسائر المسلمين" انظر مشكاة الأنوار للإمام الغزالي، مطبعة صدق، مصر، 1322هـ، ص 57

بالعثرات، فكيف يكون هذا مثل من هو بصير وسوي؟ فاختر الطريق المستقيم واطمأن بأنه يبلغ مطلوبه وأمن العثار.

وتصوير الكافر بالإكباب في غاية المطابقة بحقيقة أمره فإنه مطلوبه هي هذه الحياة الدنيا.

المبحث الخامس عشر: "وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ": ومثله قوله تعالى: "وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ". [سورة الأعراف: 176]. وما أحسن موقع لفظ "هوى"، فإنه السقوط إلى الأسفل. وقد أكثر القرآن من ذكر هذين الفريقين: أهل العلم والبصيرة والنور، وأهل الجهل والعمى والظلمة.

المبحث السادس عشر: "مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ": قال تعالى: "اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" [سورة النور: 35].

وبالجملة فهنا أربعة أمور:

- 1- العلم الحق.
 - 2- العمل الصالح.
 - 3- الجهل المظلم.
 - 4- العمل الباطل السيئ وبكل من العلم والعمل نهاية، إما الفوز وإما الخسران.
- فعلى هذه المناسبة ضرب الله في هذه الآيات ثلاثة أمثال، وإنما اكتفى بالثلاثة دون الأربعة لحكمة.

الأول مثل النور، وضربه للإيمان، وأدرج فيه ذكر أعمال المؤمنين.

والثاني مثل السراب، وضربه لأعمال الكافرين.

والثالث مثل الظلمات، وضربه للكفر.

وإنما صرح بالمشبه والمشبه به في المثل الثاني، فجعل الوسط مصرحاً ليدل بالمقابلة على ما قبله وبعده من المثلين. فإن التقابل بين العلم والعمل في غاية الوضوح كما هو بين النور والظلمة، وكما هو بين الإيمان والكفر. فجعل في غاية الوضاحة لمن يتأمل ما هو المراد من هذه الأمثلة. ثم زاد على ذلك قوله في المثل الأول: "يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ". [سورة النور: 35]. فدلّ على أنّ المراد بالنور هو نور الإيمان، وقد كثر في القرآن نظائر هذا المعنى.

فإن قيل إنّ ابتداء الكلام يصرح بأنّ المثل الأول إنما هو لله تعالى، قلنا ليس الأمر كما زعمت فإنّ مبدأ الكلام هو قبل المثل، وإنما يبتدأ المثل بقوله: "مَثَلُ نُورِهِ كَمِثْلِكُوَّةٍ". [سورة النور: 35]. وهذا صريح في أنّ المثل إنما ضرب لنوره تعالى لا لنفسه. ثم ذكر المكان في المشبه به، وهو قوله: "فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦)". [سورة النور: 36] صريح في كون المراد بالمصباح هو مصباح المساجد التي فيها رجال مسبحون ولا معنى لجعل هذا المصباح مثلاً لذات الله تعالى. فإن قيل فما معنى قوله تعالى: "اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ". [سورة النور: 35]، قلنا هذا يتضح بعد فهم المثل الذي ضرب لنوره. فهذا مثل النور الذي في قلوب المؤمنين، وهكذا فهمه الصحابة.

فانظر كيف ضرب الله مثلاً لنور الإيمان حيث شبهه الله تعالى:

- 1- بمصباح.
- 2- في زجاجة.
- 3- يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية.
- 4- يكاد زيتها يضيء من غير نار. ووصف الزجاجة بقوله "كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ".

[سورة النور: 35].

5- وذكر موضع المصباح في مشكاة.

6- وموضع المشكاة في بيوت رُفِعَتْ لذكر الله.

فإن في بيوت الله رجالاً:

1- مسبحين لله.

2- المعرضين عن غفلات الدنيا.

3- الدائمين في ذكر الله.

4- المقيمين الصلاة.

5- المؤتين الزكاة.

6- الخائفين يوم القيامة.

فانظر كيف جمع الأنوار من وجوه ظاهرة وباطنة. فإن في الزيتونة البركة وطيب المنبت، وفي الزيت غاية اللطافة والمناسبة بالنور، وفي المصباح أول ظهور النور، وفي الزجاجاة اتحاد بالمصباح كأنها هو. ولذلك قيل لها "كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ". [سورة النور: 35]. وفي المشكاة انعكاس النور من القريب. وأما أنوار موضع المشكاة وأصحابه فلا تخفى مما سبق.

المبحث السابع عشر: ما يعين على فهم هذه الأمثال:

1- لا يخفى في المثل الأول أن أصل النور فيه واحد ولكن كلما استضاء به سمي نوراً، ولذلك سمي القمر نوراً حيث قال تعالى: "وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا" [سورة نوح: 16]. فلذلك قال: "نُورٌ عَلَى نُورٍ" [سورة النور: 35]. فدلّ على تكثر أنواعه. وهكذا في مثل الظلمات أيضاً قال: "ظُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ". [سورة

النور: 40] فصرح بتكثر أنواع الظلمة.

2- في مثل الظلمات ربما يخفى كونها أيضاً من أصل واحد ولكنه إنما يظهر بتأمل يسير. أما الأمواج المتتابعة فكونها من البحر اللجّي الذي هو أصل الظلمات ظاهر جداً. وأما السحاب فأهل العلم به يعلمون أنّ أصله أيضاً من البحر. فانظر إلى حسن تطابق المثلين المتقابلين. فكما أنّ أصل النور المشبه به واحد فكذلك أصل الظلمة المشبه بها واحد، وكما أنّ الأول شعباً فكذلك للثاني. ثم انظر إلى حسن تطابقهما بالمشبه، فإنّ نور الإيمان هو منبع الخيرات كلها، وكذلك الكفر أم السيّات كلها.

3- قد شبه الكفر بالبحر اللجّي. فانظر حسن موقع هاتين اللفظتين عند أفهام العرب، فإنهم كانوا يسمون البحر كافراً؛ لأنّ الكفر هو السترا¹ كما قال لبيد:

حتى إذا أُلقت يدًا في كافر وأجن عورات الثغور ظلامها²

أي إذا غربت الشمس في البحر. وكذلك قوله:

وفي ليلة كفر النجوم غمامها³

ومثل ذلك حسن موقع لفظة اللجّي، فإنّ الكفر هو أصل اللجاج، وقد ذكر القرآن كثيراً لجاج الكفار بالباطل.

4- قوله تعالى: "لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ" يبين منبت الزيتون، وذلك هو الأرض المقدسة - أرض الأنبياء والرسل، وهي أجود منابت هذه الشجرة المباركة. قال تعالى: "تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْثُبُ بِالدَّهْنِ وَصَبْنِجٍ لِّلْأَكْلَيْنِ" [سورة المؤمنون: 20]. وهذه

¹ انظر الصحاح للجوهري، وتاج العروس للزبيدي: مادة (كفر).

² ديوان لبيد، دار الكتاب العربي، بيروت، 1993م، ص 231

³ انظر المصدر نفسه، ص 220، وتمام البيت:

يعلو طريقة متنها متواتر في ليلة كفر النجوم غمامها

الأرض في وسط المسكونة كما هو ظاهر، فليست شرقية ولا غربية.

5- إنما ضرب للمؤمنين مثل واحد وذكر أعمالهم من التسبيح ودوام ذكرهم الله وإعراضهم عن همزات الدنيا وغير ذلك تبعاً لإيمانهم، ليدل على غاية الاتصال بين إخلاص الإيمان وإصلاح العمل، كما قال تعالى: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۚ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝". [سورة الأنفال: 2-4]. فأعمال المؤمنين هي مظاهر عين إيمانهم، فهما في غاية الاتصال. وأما الكفر وأعمال الكافرين مع بطلان كليهما لا وفاق بينهما. وبيان ذلك أن المؤمن له غاية واحدة وهي التقرب إلى الرب الذي آمن به، فكل عمله لهذه الغاية. فهو يمشي على صراط مستقيم، وحينئذ لا مخالفة بين علمه وعمله. وأما الكافر فعمله لدنياه وإلهه في أعماله هو هواه، فإنه إنما يعمل لاقتناء حاجاته الدنيوية فطلوبه في الدنيا فقط. وهو قلما يخطئ في ذلك، فإن عقله يهديه إلى مصالحه الحاضرة. وأما اعتقاده فظنون وأوهام يتبع فيه ما وجد عليه آباءه، وليس له من دينه سبيل مستقيم. ولذلك ربما يفعل ما فيه خلاف لمصالحه الدنيوية بل خلاف عقله الفطري، فلم يحصل له من دينه ومعتقداته طريق يطابق مصالحه. ومن علامة الباطل التناقض والتخالف، فإنه أخذ الدين تقليداً ويعمل للدنيا تحقيقاً حسب مصالحه الظاهرة إلا فيما اضطره دينه الباطل، فلا يطابقان أبداً. فهو لا بد على صراط معوج.

6- في مثل المؤمنين قدم الإيمان وأدرج الأعمال تحته، وهذا هو ترتيب سوي وبيان صراط مستقيم. وفي مثل الكافرين ترى الأعمال متقدمة على العقائد. ولا شك أن الكفر خلاف الفطرة فلا ينشأ إلا من الأعمال السيئة، بل الكفر هو أصل العمل السيئ. فن تغافل وتولى عن ذكر الرب تردى في

الظلمات، فأضله عمل قلبه وإرادته. ثم يزداد أثره بالانهماك في شهوات الدنيا فتكون ظلمة على ظلمة. فلذلك قدم العمل وبين بطلانه، ثم ترقى فبين آثاره على عقله. وإلى هذا يهدي قوله تعالى: "كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"، [سورة المطففين: 14]. بارتكاب المعاصي أفسدوا قلوبهم وأعموا عقولهم.

المبحث الثامن عشر: أسباب إنكار المنكرين: اعلم أن الحجة الصحيحة لا يلزمها أن يضطر المخاطب إلى التسليم، ولا كل ما أورث في المخاطب إيقاناً بصحة دعواك فهو برهان صحيح.¹

قد ذكر القرآن أسباب إنكار المنكرين إجمالاً وتفصيلاً، ولنذكر لك لتعلم أن الحجة لا تلجئ إلى اليقين ولو كانت واضحة بالغة لذي قلب سليم. وبحسب هذه العلل هم على طبقات:

- 1- من جادل بالشكوك والظنون وما تعلم واعتقد من قبل، فكان في أسر الألف والعادة.
- 2- من فهم صحة الحجة ولم يجد محيصاً عن تسليمها، ولكن اتهم الخصم ونسبه إلى سحر البيان وأن جوابها عند المتهم، فهو في أسر التقليد.
- 3- من بقي حيراناً مبهوئاً لا يتحرك كأنه قد دمع فغشي عليه، فهو أسر دناءة النفس من الجهل البالغ.
- 4- من عرف صحة الحجة وأيقن بالحق ولكن لم يقبله لموانع وهي ثلاث:
أ- الكبر والأنفة.
ب- الحسد والشحناء.

¹ لم يعط الله الإنسان على طريق الإلجاء والاضطرار إلا أوائل النعم، ثم جعل الإنسان يكسب غيرها بجهده وإرادته، وذلك ليتبين كيف يفعل. فإن استعمل أوائل النعم وعرف قدره ولم يضيعها أعطى مزيداً، وإن كفر بها أوشك أن يسلب ما قد أعطى من أوائل النعم وأعماها "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ". [سورة البقرة: 20].

- ج- حب الشهوات والدنيا.
- 5- من زعم أنه يطلب الحق وتوهم أنّ علامة الحق أن يكون ملجأ إلى اليقين، فإذا لم يجد اليقين زعم أنّ الحجة غير صحيحة.
- 6- من لم يلتفت ولم يرد أن يسمع لأحد أسباب ذكرناه في القسم الرابع، أو بلادة وغباوة كالأنعام.
- 7- من فسد نظره وعقله لظلم وسيئة اقترفها فلم يتأثر للحق واشتأز عن قبوله.
- المبحث التاسع عشر: من الآيات الأنفسية على النبوة: من الآيات الأنفسية على النبوة شدة احتياج الإنسان إلى التربية وخلقه على كمال الاستعداد لقبولها. فإنه يميل إلى التعلم ويشتاق إلى حكاية ما يرى ويسمع. ثم هو يصيخ إلى الناصح المشفق ويفرق بين الحب والبغض ونظر الرضى والسخط، وينشأ على محبة المدح وكرهته الذم. فبالعلم يأخذ كل ما به يصير إنساناً بالفعل. فالإنسان إن جرى على فطرته إذا وجد داعياً إلى صلاحه وحسن أخلاقه، وناصحاً مشفقاً متصفاً بجمال الخلق والخلق حثته فطرته وليي قلبه من بين جنبيه إلى قبول تلك الدعوة لما وجد المطابقة بينها وبين فطرته. فتلقاها على بصيرة ودليل من فطرته لا على التقليد بل التقليد، هو المانع في أكثر الأحوال.
- المبحث العشرون: الإيمان يعطيه الرب تعالى لمن يعقل ويفهم: "وَمَا كَانَ لِتَقْسِ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٣٠﴾". [سورة يونس: 100].
- لا شك أنّ كل نعمة هي من عطية الرب تعالى والإيمان من أكبر النعم ولكن من النعم ما أعطاها الرب تعالى أولاً ومنها ما يعطيها بعد عمل ربط بها، كما قال تعالى: "وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾". [سورة محمد: 17]. فالاهتداء يكون بعد الهداية، فهداهم أولاً ثم من اهتدى به زاده بهدى زائد.

فهذا أصل راسخ، وبناء عليه أوضح الله تعالى آياته وأرسل الرسل بينات من الهدى

والفرقان. فمن عقل ونظر فيما حوله وفوقه وتحت من آيات لا تحصى أو عقل وسمع ما نبّه الرسل عليه وتحري الرشد أعطاه الله تعالى الإيمان. ومن تغافل وتعامى ربما يختم على قلبه، وحينئذ لم تنفعه هذه الآيات المشهودة ولا الإنذار من الرسل. فإنّ عدم قبول الحق بعد وضوحه جحداً وعتواً يجلب مقت الرب وينزل عليه الرجس فلا يرزق الإيمان. وبالجملة فالإيمان هو فضل من الرب تعالى يعطيه لمن يشاء. ثم إنه تعالى يعطيه لمن يعقل ويفقه ما دل عليه الآيات المشهودة في الآفاق، والمتلوة على ألسن الرسل ودعاة الحق. ومن لا يعقل يغلق عليه باب الهداية، فإنه رد هدية ربه وكابر الحق. فثبت أنّ إنكار الحق بعد العلم له ضرر شديد، وقد بين الله ذلك في غير موضع من القرآن تحذيراً عن الجحاح والمراء في مخالفة الحق. فههنا أربعة أمور لا بد من تذكرها:

- 1- الإيمان هو بإذن الله ومشيتته، فليس للعبد أن يؤمن إذا شاء. وهذا مثل التوبة، فالمسوف بها ربما يحرمها.
- 2- الإيمان يعطيه الرب تعالى لمن يعقل ويفقه ما يرى ويسمع فيقبله ويخبت له ويركن إليه.
- 3- العقل والمعرفة للحق إنما يعتبر إذا أثمر التلقي، فإنّ الإنكار بالحق بعد وضوحه لا يستحق اسم العقل. وهذا الاستعمال شائع في الكلام وفي القرآن للعقل ولغيره من قوى الإدراك.
- 4- من كابر الحق بعد الوضوح ونبذه وتغافل عن عقله وتصام عن سماعه نزل عليه عذاب القسوة والحمافة. فإذا وقع ذلك لم ينفعه من أسباب الهداية شيء، لا الدلائل العقلية ولا المعجزات الحسية. وقد بين القرآن هذه الأمور في مواضع لا تحصى، فمنها قوله تعالى: "وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ فَلَا تَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي

الْأَيُّتُ وَالْتُّدُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾. [سورة يونس: 100].

المبحث الواحد والعشرون: الحجج الآفاقية: وهي التي يستدل بها على الإله الحق وصفاته الكاملة؛ وهي حسب الفراهي كل ما يشاهد الإنسان في الخارج من الأمور التي لا يشك فيها، وتضطر فطرة العقل أن تنسب هذه الأمور إلى ذات تكون مصدراً لها؛ وهي على سبعة وجوه:

- 1- الحسن الرائق في المخلوقات التي تحف الإنسان من كل جانب.
- 2- المرافقة والموافقة الدالة على الحكمة والرحمة والربوبية والقدرة والعلم.
- 3- وجود الضد من الضد.
- 4- وجود المختلفات من المتحدات.
- 5- مظاهر العظمة والجلال في المسخر المقهور التي تدل على أن الألوهية لا تنتسب إلى هؤلاء، وإنما المتصف بها من يكون أعلى وأجل.
- 6- التدبير القاهر المحيط.
- 7- كون الحق والعدل والخير غالباً على أضدادها.¹

المبحث الثاني والعشرون: ثلاثة أصول في إقامة الحجة: يرى الإمام الفراهي أن ثمة ثلاثة أصول استنبطها من القرآن الكريم في مجال إقامة الحجة؛ وهي:

- 1- الحق لا يبطل بباطل والعلم بجهل؛ وأصله في قوله تعالى: "وَإِنْ جَهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِـِٔي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ وَآتَبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيْنَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾". [سورة لقمان: 15].
- 2- لا يبطل الفرع الأصل، وأصله في قوله تعالى: "وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ

¹ حجج القرآن، ص 148-152.

أُمُّهُ وَهَنَّا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَلُّهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾".
[سورة لقمان: 14].

3- لا يبطل الحق من الباطل إلا بقدر ما هو باطل فلا عدوان؛ وأصله في قوله تعالى: "وَإِنْ جَهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾". [سورة لقمان: 15].

المبحث الثالث والعشرون: العقل والعلم والعمل الصالح للحجة: يعترف الإمام الفراهي بمكانة العقل في خلقه الإنسان، ولا غرو أن عده الأصل الأول للاحتجاج؛ ولكن ضريبة ذلك هي أن يتبع العقل إلى آخر ما يهدي إليه العلم الحق والعمل الصالح؛ فهي شروط ثلاثة:

- 1- العقل الذي هو نور إلهي رفع الله به الإنسان وميزه عن البهائم.
- 2- العلم الحق الذي أنزله الله تعالى.
- 3- العمل الصالح.

فطريق الفطرة للاحتجاج هو استعمال العقل وطلب العلم وتسديد العمل.¹

المبحث الرابع والعشرون: خلاصة بعض آرائه المحجاجة:

- 1- الحجة عند الفراهي ما يثبت به دعوى على خصم، ولا يلزم أن يسلم بها المخاطب.
- 2- أعظم الحجج في القرآن حسب الفراهي تتعلق بما يزيل أوهام مشركي العرب ومبتدعي اليهود والنصارى وما كانوا ينكرون الرب بكونه متصفاً بصفات الكمال.
- 3- كل حجج القرآن قاطعة.

¹ انظر: المرجع السابق، ص 174-175.

- 4- الخطاب في حجج القرآن موجه إلى ثلاثة: المنكر للبعث؛ فيستدل فيها على وجود الإله الحق. والمقر بالإله؛ فيستدل فيه على اتصافه بصفات الكمال. والمقر بالإله المتصف بصفات الكمال، فيستدل فيه على بطلان معتقداتهم المناقضة لما أقروا به.
- 5- في القرآن أصول الاستدلال والنظر أقرب إلى العقل وأرسخ في القلب من أصول منطق اليونانيين، ودلائل أصح وأثبت من أدلة الفلاسفة والمتكلمين.¹ ويدعو إلى اعتماد حجج القرآن وطريقته في الاستدلال.
- 6- ويدعو إلى منابذة الأفكار القائمة على منهج الفلسفة اليونانية الغريبة عن منطق القرآن.
- 7- وبالتالي الاعتماد على منهج القرآن في فهم تأويل القرآن من غير الرجوع إلى العلوم الغريبة، واعتماد مذاهبهم الفلسفية.
- 8- الاستدلال الفطري مبني على اليقين بما لا سبيل إلى إنكاره؛ وذلك بأن الإنسان مجبول على تسليم ما غرر في طبعه.²
- 9- لو كان الإيمان جائزاً بمحض التقليد لكان الوثنيون معذورين.³
- 10- نوقن بنوع من الإلهام الذي أعطى للنفوس كما أعطى لجميع الحواس وقوى أخرى.⁴
- 11- مرادنا بالحكمة هي معرفة العلم الفطري الذي يهدي إلى السعادة الأبدية والعمل به.⁵
- 12- إنَّ العقل الإنساني يدرك حقيقة القرآن الكريم، وعليه أن يقبل نور الفرقان؛ ذلك لأن القلب السليم سلطان بين الجسم والعقل.

¹ المرجع السابق، ص 21.

² المرجع السابق، ص 72.

³ المرجع السابق، ص 211. ويقول في موضع آخر: "لليقين الفطري مجار إلى المدركات وتلك الإلهامات، ولولاها لم يكن لنا علم ولا بداهة ولا نظر". المرجع السابق، ص 93.

⁴ المرجع السابق، ص 94.

⁵ المرجع السابق، ص 226.

معظم الأخطاء في كتب التفسير كانت نتيجة الثقة بالفلسفة اليونانية ومنطقها. وكما قام الدكتور محي الدين غازي¹ بدراسة الكتاب المذكور من ناحية خاصة وهي "منهج القرآن الكريم في تربية العقول (قراءة في كتاب حجج القرآن للعلامة الفراهي)" وأبرز دور القرآن الكريم في تربية العقول وإيقاظها وإيكم ورقته الكاملة: الحمد لله الذي خلق الخلق ليعمهم برحمته، وخص الإنسان بالفكر والنظر ليسبغ عليهم أتم نعمته، والصلاة والسلام على نبي الحكمة والبصيرة والحجة والبرهان. وبعد.

القرآن الكريم كتاب توجيه وتربية، توجيه النفوس وإرشادها إلى الشريعة الإلهية وإلى الصراط المستقيم، وتربية العقول على الفكر والتدبر لتتال الحكمة وترتقي إلى المدارج العلى. تتناول هذه الورقة على وجه التحديد الجانب الثاني وهو دور القرآن الكريم في تربية العقول وكيف أنه يوقظ العقول لتعمل عملها، بعد أن كانت خامدة في كهوف الغفلة والخمول، ويعلم العقول كيف تنهج المنهج الصحيح في التفكير والنظر بعد أن كانت محتارة تتخبط في غياهب الخيرة.

إنه موضوع هام جداً، مع قلة الاعتناء به، فإنّ الذي ذاق طعم التدبر في القرآن الكريم يشعر بأنه وجد النور والهداية والطمأنينة وانسراح الصدر، وهو في نفس الوقت يشعر بأنه يعيش في بيئة تربوية يجد فيها تحفيزاً متكرراً على إعمال العقل، ويمرّ بتدريبات عقلية تربي لديه ملكة التفكير، وتنبيه عن الغفلة في النظر والتدبر.

إنّ قلة وعي المسلمين لمكانة العقل ولأهمية الفكر والتدبر ولضرورة تربية العقول مع تأكيد القرآن الكريم على ذلك كله، من أعظم أسباب تخلفهم وتفريطهم في استخدام العقل في كافة شؤون الحياة، ولا سيما في الشؤون الدينية وخاصة في طلب العلوم والحكم المكنونة في القرآن الكريم والتي لا تتال إلا بإعمال العقل، وذلك أدى إلى تأخر

¹ عميد، كلية القرآن، الجامعة الإسلامية شاتنبرم، في كيرلا

الأمّة عن ركب المجد، وإلى انتشار السخافات والخرافات في أوساطها، وإلى الخطأ الفاحش في وضع الأمور في محلها. وربّما إلى الخوف والفرار من الحاجة العقلية، ومن مواجهة الآراء المعارضة، ومن ثم وضع القيود الشديدة على الحرية في الرأي والتفكير. ولا سبيل إلى العودة إلى المجد إلا عن طريق العودة إلى كتاب الله تعالى ومن ثمّ إلى العقل الذي هو منحة ربانية عظيمة. يقول العلامة عبد الحميد الفراهي:

"إن أكثر الذين معظم همهم التدين والاشتغال بالكتاب والسنة يظنون أنّ طريق العقل مبين للتعليم الإلهي. فيزعمون بأنّ الإيمان مبني على إخبار من الأنبياء عليهم الصلاة وإثما عرفناهم بالمعجزات، فكل ما علّمونا من الإيمان والشرائع تقبلناه بحض إخبارهم. فإنه لو كان للعقل سبيل إلى علوم الدين لكنا في غناء عن الوحي. ولو لا ذلكما مدح الله الإيمان بالغيب. ومن غلبة هذا الظن زعموا أنّ الشرائع كلها مبنية على أمر الله تعالى بها، فيلزمنا أخذها من غير طلب الحكمة فيها. وبما صاروا على هذا الرأي صُرفوا عن استعمال العقل والفكر في أمور الدين كلها، فكيف بالتفكر في دلائل القرآن.

والباعث الأصلي على هذا الرأي ما وجدوا عياناً من الخبط والشطط في المنتسبين إلى العقل من الفلاسفة والمتكلمين فأساؤا الظن بالمعقول. ولكن قد تبين لي أنّ ضلالهم لم يكن من جانب العقل بل من تسلط التفلسف وتركهم طريق الفطرة التي هدى الله سبحانه إليها بكتابه وإرشادات رسله. فرأينا الحاجة إلى ذكر هذا الطريق ليركنوا إلى ما جاء به القرآن من الحجج البالغة والحكم البارغة، ومن الحث على استعمال النظر والفكر ومن مدح أرباب العقل والحجج¹.

مكانة العقل في القرآن الكريم: العقل نعمة عظيمة ومنحة جليّة من الرب الكريم، فهو "نور إلهي الذي يرفع الله به الإنسان على البهائم"² و"هو الميزان الفاروق بين الحق

¹ حجج القرآن، ص 19-20.

² المرجع السابق، ص 175

والباطل¹ فيه يعرف الحق من الباطل، وبه يفرق الإنسان بين الكتاب الحق المنزل من الله وبين ما يوحى الشياطين إلى أوليائهم، ولقد كشف القرآن الكريم عن حقيقة العقل وأعطاه منزلة عظيمة، وهي منزلة حقيقية لم يعطها إياه إلا القرآن الكريم. يقول الفراهي: "إنّ القرآن أكثر الكتب المنزلة خطاباً للعقل وتنبيهاً له على الدلائل العقلية ومدحاً للعقلاء وذمّاً للغافلين. وهذه من محكمات القرآن وبيناته لا يشك فيها أحد".² وللعقاد كلمة رائعة حيث يقول:

"القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة، وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه، ولا يأتي تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه التي يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة، بل هي تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها".³

ويلاحظ القارئ أنه لم يرد في القرآن الكريم ذمٌ للعقل ولا ذمٌ لمن اعتمد عليه لا صراحة ولا إشارة، فلم يذكر الاعتماد على العقل كسبب من أسباب الضلالة، بل ذكر صراحة أن من أسباب الضلال الإعراض عن العقل. يقول الفراهي: "وأما العقل، فقال تعالى: "وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ..." (سورة يونس: 100). فصرح بلزوم الرجس بنبد العقل. فمن لم يستعمل العقل لم يميز بين الحق والباطل والطيب والخبيث فلا بد أن يقع في كل شر".⁴

¹ المرجع السابق، ص 184

² المرجع السابق، ص 226

³ التفكير فريضة إسلامية لعباس محمود العقاد، ص 1.

⁴ حبيب القرآن، ص 176

ومما يلفت انتباه القارئ أنّ القرآن الكريم لم يتعرض لقضية التعارض بين الوحي والعقل، مع أنّ الناس يدندنون كثيراً حول هذه القضية. وذلك لأنّ القرآن لا يقرّ أصلاً تصور وجود التعارض بين العقل والوحي.

يقول العلامة ابن تيمية:

"ما علم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع البتة بل المنقول الصحيح لا يعارضه مع قول صريح قط. وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع. وهذا تأملته في مسائل الأصول الكبار كمسائل التوحيد والصفات ومسائل القدر والنبوات والمعاد وغير ذلك ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط بل السمع الذي يقال إنه يخالفه إما حديث موضوع أو دلالة ضعيفة فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضة العقل الصريح فكيف إذا خالفه صريح المعقول. ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بحالات العقول بل بحجرات العقول فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته".¹

إنّ الذي يفهم من القرآن الكريم أنّ العقل لا يتعارض مع الوحي مطلقاً.²

¹ درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار الكتب العلمية، 147/1

² لا نجد في القرآن الكريم تقسيمات للعقل كما نجده عند كثير من الكتّاب. وعلى سبيل المثال الكلام التالي للشيخ يوسف القرضاوي: ومن أعظم ما عني به القرآن في مجالنا: هو تكوين العقلية العلمية... فهناك ما يمكن أن نطلق عليه "العقلية العامة" أو "العقلية الخرافية"، وهي التي تصدق كل ما يقال لها أو يعرض عليها، ولا تضعه موضع امتحان، بل تأخذه قضية مسلمة، ولا سيما إذا جاء من قبل من تعظمه، مثل الأجداد والآباء، أو السادة والكبراء. فتقول: إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، أو وجدنا ساداتنا على ذلك يسيرون. وفي مقابل هذه العقلية المتبعة، توجد عقلية أخرى مخالفة لها مواصفاتها وخصائصها، وهي التي عمل القرآن بآياته المشرعة والموجهة على إنشائها، وصياغتها، وإبرازها لتقوم بدورها في الحياة. ومن المقرر المعلوم: أنه لا يمكن أن يزدهر العلم، وتتأصل جذوره، وتمتد فروعه، بل لا يمكن أن ينشأ علم صحيح إلا في مناخ نفسي وفكري يهيئ للعقول أن تفكر،

والتعارض الذي نجد ذكره كثيراً في القرآن الكريم هو الذي يكون فيه الوحي والعقل والعلم في صف واحد والظن والهوى في صف معارض.

العلاقة بين العقل والوحي: إذا كانت العلاقة بين العقل والوحي ليست علاقة تعارض وتباين البتة، فما هي العلاقة بينهما؟ والجواب أنها علاقة توافق من كل وجوه.

يقول الفراهي: "تعليم (الأنبياء) كان مما يراه العقل فيقبله. كمن يهدي إليه أخوه الودود ثمرة من أرض بعيدة فيطعمه ويلتذ به كأنه كان مشتاقاً إليها من قبل".¹

ويقول: "وإنما جاء الوحي والرسول موافقاً له (أي العقل) كالنور للبصر".²

ويقول: "إن الإنسان بفطرته يهتدي بالعقل، وإليه يطمئن وبه يحتج على من خالفه. ومنه يأتيه العلوم كلها إما بالبدهة أو بالنظر والاستنباط. وأما الوحي فإمّا جاء لتنبيه العقول وتسديده وتنويه أمره وتأنيده ولذلك حث كثيراً على التدبر والفكر، ومدح أرباب الفهم والنظر. ألا ترى إمامنا إبراهيم عليه السلام كيف احتج على الكفار بصريح العقل وهم تمسكوا بحض الظن والتقليد. قال تعالى: "وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ" (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥)". أي هل معك حجة أم

وللأفكار أن تفتح، وللآراء أن تناقش، ولصاحب الحجة أن يدلي بحجته. وهذا ما يعمل القرآن على إيجاده في الحياة الإسلامية. وبعبارة أخرى: يعمل القرآن بدعوته القوية، وبتوجيهاته المتكررة على تكوين "العقلية العلمية" المتحررة التي لا ينهض علم إلا على عاتقها، فهو يرفض "العقلية الخرافية"، ويرفض "العقلية المقلدة" ويرفض "العقلية المتخرصة" ويرفض "العقلية المتبعة للهوى". (مفهوم العلم وتكوين العقلية العلمية في القرآن الكريم)

وملاحظتنا على النص المذكور هو أنه لماذا ننسب التقليد والتخرص والخرافة واتباع الهوى إلى العقل؟ فالعقل بإطلاقه يرفض كل ذلك ويأباه. ويبدو لي أن في هذا خطأ من مكانة العقل.

¹ حجج القرآن، ص 229

² المرجع السابق، ص 185

تسخر منا، فجاء بالدليل الواضح كما حكى الله عنه: "قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾". (سورة الأنبياء: 51-56). أي أنا على بصيرة وأرى الحق الصريح عياناً فأشهد به عليكم".¹

ويقول: "نجاح سعيهم في الرياضيات والهندسة وكثير من الطييعات. ثم ضلالتهم في الإلهيات وتهاقهم واعتمادهم على الظنون الواهية دليل على ضرورة النبوة: "وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ ﴿٥٧﴾". (سورة النور: 40). فإن أذكى الناس إذا تحقّقوا في أمر فلا بد أن ذلك الأمر لا تستقل به العقول وإنما تكون فيه تابعة. ألا ترى البصر لا يستقل بنوره بل يستبصر بالنور الذي يأتيه فيفرح به ويقبله. فن أغمض عينه عن النور الذي يدخل عليه ظلم نفسه وألقاها في الظلمة. فلذلك شأن العقل فطر لقبول النور فيطمئن به إذا وجد ويطلبه، ولكن غروره عن قبول الحق يسلب نوره".²

الاهتمام بالدلائل العقلية في القرآن الكريم: القرآن الكريم أكثر الكتب المنزلة خطاباً للعقل وتنبيهاً له على الدلائل العقلية، والدلائل المذكورة في القرآن الكريم وإن أسميناها دلائل النقل نسبة إلى كتاب الوحي الذي احتواها، إلا أنها في الأصل دلائل عقلية يعجز البشر أن يأتي بدلائل عقلية مثلها. وهذا أحد وجوه الإعجاز.

واهتمام القرآن الكريم بالحجة العقلية يعود إلى فطرة الله التي فطر الناس عليها، فإن الإنسان خلق حراً في فهمه وإرادته وهو مفطور على قبول ما يذعن له عقله ومطالب به، فالأصل في الإنسان أن لا يقبل إلا بما يقبله عقله من غير تقليد بشخص أو بمعجزة، سواء في الأمور الدنيوية أو الأمور الدينية.

يقول الفراهي عن مكانة الحجة في الدين أنها "هي المعيار الذي يحكم به على الأديان كلها،

¹ المرجع السابق، ص 174

² المرجع السابق، ص 127

فلولا هي لكان الفرق بين الحق والباطل بمحض التحكم والمصادرة".¹

ويقرر بأنّ "الإيمان بالنبوة والوحي ليس إلا الإيمان بما يقبله العقل ويطمئن به القلب، ولذلك جاء الوحي بالدلائل".²

ويقول: "الحاصل أنّ حاجة الوحي لا تكون إلا بطريق العقل والفهم، ولذلك كثر في القرآن مدح التدبر والتفكير. والمراد من التدبر استعمال الفكر على وجه صحيح عقلي، فإنّ لكل قوة سوء استعمال".³

والحق أنّ إثمار القرآن الكريم للدلائل العقلية ودعوة الناس إليها من الحجج البازغة على أنّ القرآن حق وأنه وحي من الله. فإنّ الباطل هو الذي يخاف ويفرّ من الحاجة العقلية، وأما الحق فإنه رفيق العقل ومدعوم بالأدلة العقلية لا محالة. "فإنّ العقل ودين الفطرة على غاية الموافقة".⁴

يقول الفراهي: "اعلم أنّ سبيلنا سبيل العقل فلا نؤمن إلا بما يتقبله محض العقل ويطمئن به بالهدى الفطري. وإنما جاء الوحي والرسول موافقاً له كالنور للبصر. وصرح به الكتب المقدسة كثيراً والقرآن أكثرها تصريحاً".⁵

منهج القرآن الكريم في تربية العقول: إنّ منهج القرآن الكريم في تربية العقول يمكن أن يتلخص في الآتي:

أولاً: إناطة تربية العقول بأعمالها: وهو مطابق لفطرة الإنسان في تنمية الطاقات كلها، فإنّ تربية العقول لا تتم بإعطاء جميع المعلومات النافعة والحكم المفيدة جاهزة وإنما بإيجاد مناخ

¹ المرجع السابق، ص 197

² المرجع السابق، ص 288

³ المرجع السابق، ص 233

⁴ المرجع السابق، ص 183

⁵ المرجع السابق، ص 185

مشجع لإعمال العقل وبتاحة فرص الفكر والتدبر. وهذا هو سنة الله في العطاء، فإنه لم يعط جميع العلوم دفعة واحدة، وإنما أناط الحصول على العلوم باجتهاد البشر في البحث والتحري، وكذلك لم يفتح جميع خزائن الأرض على البشر الأول، وإنما يكتشف الإنسان على مرّ الزمن وبمشيئة الله كلما بحث شيئاً جديداً. يقول الفراهي: "اعلم أنّ الضروريات هيأت للمخلوقات، ثم هدوا إلى ما هو أعلى فأعلى، فركبت فيهم القوى وهديت إلى ما قدرت لها من المنازل وألهمت العمل حسبما أودعت، كما قال تعالى: "الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ" (سورة الأعلى: 2-3). أي هدى كل قوة لما قدر لها من العمل والمنزل. وذلك بأنها لو عطلت لم تكمل، فإن نشأتها بكدها وجهدها، وبأن حقيقة البروز، والخلق أولاً إبراز من العدم، ثم إبراز ما أودع الخلق من القوى بعد بروزها، كما قال تعالى: "الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ". (سورة النمل: 25). وقال: "خَلَقْنَا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ". (سورة الزمر: 6). فأعطي الخلق حسبما استعد، كما قال تعالى: "وَعَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ". (سورة إبراهيم: 34). فهذه سنة الله في جريان خلقه وربوبيته. فعلى هذا الأصل جاء القرآن بأوليات الهداية من التوحيد والشرائع على غاية الوضوح، ولكن علق تربية العقول بأعمالها، ولا سبيل إليه إلا بذلك".¹

ثانياً: جعل القرآن الكريم نفسه موضع التدبر والفكر: إنّ القرآن الكريم ليس كتاب أوامر ونواه، وليس كتاب ترغيب وترهيب، وليس كتاب أخبار ومعلومات فحسب، بل هو قبل كل شيء كتاب آيات ودلائل، وهذه الآيات والدلائل تدعو العقول البشرية إلى إمعان النظر والتأمل فيها.

يقول الفراهي: "بجعل القرآن موضع التدبر والفكر وحثّ عليه العقول فأكثر من التنبيه على ما يكون موضعاً ومادة لأعمال العقل. فمن ذلك أمثال قوله تعالى: "أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْقَالُهَا أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْقَالُهَا" (سورة النمل: 25).

¹ المرجع السابق، ص 131

(سورة محمد: 24) وقوله تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿٢٤﴾". (سورة طه: 54). فأكثر من ذكر الآيات، وما هي إلا ما يحث الفكر والنظر.¹

والمعايشة الطويلة مع تلك الدلائل والآيات تجعل الإنسان المؤمن يأنس بطريق الاستدلال والاحتجاج، فلا يذعن لقول إلا بدليل، ولا يقبل دعوى إلا إذا أيدتها الحجة. فيرفض الظن والتخرس واتباع الهوى وتقليد الآباء وطاعة الكبراء في كل شيء، إلا ما أسند إلى حجة وبرهان.

كما أنّ معايشة دلائل القرآن وآياته تضيف إلى شخصية الإنسان المؤمن الشعور بالحرية والكرامة والاستقلال، فلا تبعية ولا استعباد ولا تقليد، بل تكون له شخصية حرة مستقلة مسؤولة عن عواقبها بما تختار هي لنفسها لا بما يمل عليها غيرها. وفرق كبير بين من تعود على الإملاءات، ومن يلقي التكريم المتكرر في صورة الدلائل والآيات في أهم شؤون حياته، وفي أعظم ما يتعلق بوجوده ومصيره. فإنه لا إلقاء ولا إكراه في الدلائل.

يقول الفراهي: "الهداية إلى الحق إنما تأتي من باب العقل والفكر. فإذا أراد الإنسان استعمال النظر والفكر واجتهد أعطاه الله الهداية. وليس ههنا إلقاء من النبي والمرشد، وإنما هو يتلو عليه الدلائل. وكذلك لا إكراه من الله تعالى، وإنما هو يعطي الهداية لمن اجتهد لها وطلبها. ولذلك قال تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١﴾". (سورة يونس: 44). وكذلك قال تعالى: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ". (سورة البقرة: 256).²

ثالثاً: الحث على النظر والفكر: القرآن الكريم يحث على الفكر والنظر واستخدام العقل والحجج ويمدح العاقلين ويذم الغافلين. وذلك في آيات كثيرة ومواضع عديدة، حتى أصبح وجوب الفكر والنظر وإعمال العقل من محكمات القرآن.

¹ المرجع السابق، ص 131-132

² المرجع السابق، ص 221

يقول سيد قطب في تفسير قوله تعالى: "وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾".
(سورة يونس: 100):

"فالذين عطلوا عقولهم عن التدبر، يجعل الرجس عليهم. والرجس أبشع الدنس الروحي، فهو لاء ينالهم ذلك الرجس بسبب تعطيلهم لمداركهم عن التعقل والتدبر، وانتهاؤهم بهذا إلى التكذيب والكفران".¹

يقول العقاد: "والذي ينبغي أن نتوب إليه مرة بعد مرة أن التنويه بالعقل على اختلاف خصائصه لم يأت في القرآن عرضاً، ولا تردد فيه كثيراً من قبيل التكرار المعاد. بل كان هذا التنويه بالعقل نتيجة منتظرة يستلزمها لباب الدين وجوهره ويرتقها من هذا الدين كل من عرف كنهه وعرف كنه الإنسان في تقديره... فليس في هذا الدين إذن من أمر يتجه إلى الإنسان من طريق الكهان، ولن يتجه الخطاب إذن إلا إلى عقل الإنسان حراً طليقاً من سلطان الهياكل والمخاريب أو سلطان كهانها المحكمين فيها بأمر الإله المعبود فيما يدين به أصحاب العبادات الأخرى".²

رابعاً: تصريف الناس عن المعجزات الحسية إلى الدلائل والآيات: الآيات التي ترافق رسالة الأنبياء لإثبات نبوتهم ودعم دعوتهم قسماً: الآيات الحسية الظاهرة والتي تسمى المعجزات، والآيات المعنوية وهي الدلائل الموجودة في كتاب الله ودلائل الكون التي تنبه إليها آيات الوحي. فالذين سلمت فطرتهم من الأمراض وقد نبذوا التقليد والهوى وأعملوا عقولهم، يؤمنون عن طريق الآيات المعنوية من غير أن يطلبوا المعجزات الحسية، وأما الذين في قلوبهم مرض وعطلوا عقولهم، فيطالبون بالمعجزات الحسية الظاهرة ولا يؤمنون بها حينما تعرض عليهم، لما في قلوبهم من سيطرة الهوى والعناد. فالآيات الحسية لا تفيد كثيراً في تحقيق مقصد الهداية، لأنّ الفئة التي تصدّق

¹ في ظلال القرآن لسيد قطب، دار الشروق، 1822/3

² التفكير فريضة إسلامية، ص 12

الرسالة للآيات المعنوية لا تحتاج إلى الآيات الحسية عموماً، وأما المعرضون عن الآيات المعنوية فلا يذعنون للآيات الحسية عموماً، إلا أنها تقيم الحجة على المكذابين وثبت المصدقين المؤمنين.

ولما كانت الآيات المعنوية تخاطب العقول والأفتدة حيث أنها تمنحها البصيرة وشرح الصدر واليقين، وليست كذلك الآيات الحسية الظاهرة حيث أنها تحير العقول وتبهز العيون، فالقرآن الكريم ينبه إلى الآيات المعنوية كلما يطلبون الآيات الظاهرة، ويوقع التوبيخ على الذين ينكرون ويطلبون المعجزات مع أن الله قد بين الآيات والدلائل في كتابه.¹

ونلاحظ ذلك جلياً في الآيات التالية:

"وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾". [البقرة: 118-119]

"وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٢٠﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿١٢١﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٢٢﴾ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٣﴾". [العنكبوت: 48-51]

¹ وللعقاد كلام رائع عن المعجزات في الإسلام فقد قال: والإسلام دين المعجزات التي يراها العقل حيثما نظر، وليس بدين المعجزات التي تكف العقل عن الرؤية وتضطره بالإفهام القاهر إلى التسليم.. وعلينا أن ندرك أن المعجزة معجزتان كي نطلب المعجزة التي ينبغي أن تطلب، وتتورع عن طلب المعجزة التي لا تجدي أحداً من العقلاء.. فالمعجزة التي تتجه إلى العقل موجودة يلتقي بها من يريد بها حيثما التفت إليها، ولكنها غير المعجزة التي تقنع من لا يقنع بتفكيره، ومن لم يقنع بتفكيره فلن تهديه المعجزة من ضلال.. والإسلام دين متناسق مستجيب للفهم وللوازنة بين الأمور، فهو دين المعجزات في كل شيء، ولكنه ليس بدين المعجزة التي تفحم العقل ولا تقنعه، لأنه دين العقل.. والتفكير فريضة فيه. (انظر: التفكير فريضة إسلامية. ص 80)

قال ابن عاشور:

"كونه مما يتلى، فإن ذلك أرفع من كون المعجزات الأخرى أحوالاً مرئية لأن إدراك المتلو إدراك عقلي فكري وهو أعلى من المدركات الحسية فكانت معجزة القرآن أليق بما يستقبل من عصور العلم التي تهيأت إليها الإنسانية".¹

خامساً: الإرشاد إلى أصول للاستدلال والنظر أقرب إلى العقل وأرسخ في القلب: ربما يستغرب كثير من القراء دعوى أنّ القرآن الكريم ليس فيه أدلة عقلية فحسب، بل أصول للاستدلال والنظر، غير ما تعارف عليه الناس وتداولها الحكماء. ولكن هذا الذي أعلن عنه العلامة الفراهي بعد أن نهل من فلسفة القدماء والمحدثين، وبعد أن عكف على القرآن الكريم يتدبره أربعين سنة.

يقول الفراهي: "وكنّت أجد في القرآن أصولاً للاستدلال والنظر أقرب إلى العقل وأرسخ في القلب من أصول منطق اليونانيين، ودلائل أصح وأثبت من أدلة الفلاسفة والمتكلمين، وأتعجب ممن يتغافل عنها".²

ويقول: "ولا شك أنّ استدلال القرآن لا يخالف ما صح من المنطق ولكن أين الجذوة من النور الأعظم والوشل من البحر الخضم".³

وقد شرع الفراهي في تأسيس علم يشرح أصول الاستدلال في القرآن الكريم وسماه "حجج القرآن"، وأتى بطريقة تخالف طريقة أهل المنطق والفلسفة، إلا أنه لم يوفق للإتمام، والكتاب يجمع فوائد غزيرة، ومما ذكر في الكتاب من أصول الاستدلال الأصل الآتي:

بناء الحجة على اليقين المغروس في النفس: يقول الفراهي: "فالطريق الصحيح أن تبني الحكمة على أصول العلم واليقين الراسخة في الفطرة، ومن ذلك تنشعب أصول النظر التي يستدل بها

¹ التحرير والتنوير لمحمد بن الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، 189/20

² حجج القرآن، ص 21

³ المرجع السابق، ص 22

في جميع العلوم. ولا يكون ذلك محض علم الصورة كما يوجد في المنطق المتداول. فإذا بحث عن الفطرة وجد فيها أصول علوم جزئية كلها وتبين مقدار العلم الثابت فيها جميعاً. ثم بعد ذلك تنشعب منها جميع العلوم بحسب غاياتها ومواضيعها. وعلى هذا الطريق يصير بناء الحكمة راسخاً في فطرة النفس والعقل واسعاً حسب سعة المعارف المحققة".¹

ويقول: "لما كان المقصود إتمام الحجة على كافة الناس أكثر القرآن من الحجج الفطرية التي بنيت على شهادة الفطرة الإنسانية. وربما أحم أهل الكتاب بما هو مسلم عندهم، وذلك لا يخفى. فالأهم هو النظر في المبادئ التي هي مغروزة في فطرة الإنسان من حيث هو عاقل فاعل فارق بين الحق والباطل، والخير والشر. ومحج للعلم والإيقان والاطمئنان، راغب في أن يكون سعيداً محبباً ممدوحاً حراً نقيّاً تقياً. وبعبارة أخرى من حيث أنه إنسان".²

ويقول: "فالناس يوقنون بالخارج الظاهر المحسوس وهم ذاهلون عن أنفسهم. وأصل اليقين إنما غرس فيها، قال تعالى: "وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾". (سورة الذاريات: 20-21). فاليقين آيات في الأرض، وتلك مع ظهورها قد يخفى على كثيرين كما قال تعالى: "وَكَايِن مِّنْ آيَاتٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾". (سورة يوسف: 105). بل أكبر من ذلك ما هو في أنفسهم ولكن إعراضهم عنه أكثر. ولذلك نبّه عليه بقوله: أَفَلَا تُبْصِرُونَ".³

ويقول: "القرآن جعل بناء الحجة على اليقين الضروري الفطري الذي لا يسع العقل أن يعصيه، وهو ينبوع جميع علومه وأعماله ونظره واستدلّاله. وهو مودع في غور فطرة النفس مكنون كاللب وراء القشور والروح وراء الستور. ولكن يجري منه الجداول".⁴

¹ المرجع السابق، ص 71

² المرجع السابق، ص 72

³ المرجع السابق، ص 88

⁴ المرجع السابق، ص 93

ويقول: "اعلم أن العلم منه اضطراري لا يكون مبنياً على الاستدلال، فإن الاستدلال لا بد من بنائه على علم موجود من قبل في فطرة النفوس. وليس من الضرورة العلم بهذا العلم. ومن ههنا يخفى على الناس هذا العلم مع كونه ضرورياً موجوداً..."

فالأول: هو هذا الذي ذكرنا وهو الأصل والأساس لكل استدلال، وذلك هو العلم بالله تعالى فإنه من أول الضروريات.

والثاني: هو علم استدلالي يحصل من العلم الاضطراري، وذلك يسمى علماً بالآيات سواء كان في الآفاق أو في الأنفس. وقد نبه القرآن على هذا الأصل حيث ذكر في سورة الجاثية بعد ذكر آيات في الآفاق وآيات في النفس وآيات هي فيهما، فقال: "فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ" (الآية: 6). فنبه على أن الإيمان بالله هو أول العلم، وجعله مقابلاً لدلائل الآيات. وذلك بأن الله تعالى فطر النفوس واضطرها للعلم والإيقان، وكذلك اضطرها للفكر والنظر في الآفاق وفي الأنفس بما أودعها من القوى العقلية والأخلاقية اللازمة لماهيته الحاكمة عليها. فالإيمان بالله تعالى مودع في فطرة مجرد العلم، وآيات الأنفس والآفاق كلتاها داخله تحت العلم، والعلم داخل تحت فطرة النفس، والفطرة حاكمة عليها لا محيص لها عنها.

والعلم الاضطراري لا يستدل عليه ولكن ينبه عليه. ومثال ذلك النور والبصر، فإنك ترى كل شيء بهما فتوقن به. وأما إيقانك بالنور والبصر ففي فطرتك. وربما لا تلتفت إلى وجودهما واليقين بهما، فإذا نبهت على ذلك استبصرت".¹

ويقول: "فالإيمان بإله واحد رحيم أحاط بكل شيء خلقاً وعلماً وقدرة وتصرفاً ورحمة وحكمة في غاية الصعوبة من جهة الاستدلال بمحض الآثار، ولكنه في غاية الإحكام والوضوح من جهة النظر في فطرة النفس مما جبلت عليه من العلم المركوز على

¹ المرجع السابق، ص 88-90

الإيقان بإله واحد رحيم قادر حكيم".¹

ويقول: "فإيماننا بالله ليس بمحض الاستدلال، بل لكونه بناء لصحة كل دليل وعلم".²
سادساً: الإكثار من لطائف الأدلة العقلية: لقد أكثر القرآن الكريم من الدلائل التي تخاطب العقل والقلب معاً، وبني الحجج على اليقين المغروس في النفس، ولكن من غير بسط وتفصيل، فيحذف الكثير من فضول الكلام، ويدمج الدليل في الدعوى، ويكتفي بالإشارات.

وهذا لا يعني أنّ أدلة القرآن ألغاز تعجز العقول، وإنما هي لطائف كلها تأمل فيها الإنسان فتح الله عليه من الحكم البازغة والحجج البالغة. وهذا الجانب من الاستدلال القرآني خفي عن الكثيرين. يقول الفراهي:

"من أعظم غاية القرآن تربية العقول وتعليم الحكمة كما صرح به في مواضع كثيرة، فلذلك خاصة أكثر من لطائف الأدلة ليتعلموا التفكير والاستنباط. ولذلك كثيراً ما يكتفي بالتنبيه على الدلائل والحث على استنباطها، بل قد ينبه على الأصول الفطرية التي يبنى عليها الاستدلال كما هو مبسوط في موضعه. فلما كان القرآن على هذه الصفة من الغور واللطافة خفي كثير من دلائله على من يتوهمه خطاباً عاماً".³

ويقول: "فجعل القرآن موضع التدبر والفكر وحث عليه العقول فأكثر من التنبيه على ما يكون موضعاً ومادة لأعمال العقل. فن ذلك أمثال قوله تعالى: "أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا" (سورة محمد: 24). وقوله تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ" (سورة طه: 54). فأكثر من ذكر الآيات، وما هي إلا ما يحث الفكر والنظر. فلو فصل القرآن كل دليل بغاية البسط لم يكن تربية للعقول بل صارت الأفهام

¹ المرجع السابق، ص 114

² المرجع السابق، ص 120

³ المرجع السابق، ص 27

منفعلة، كما ترى بعض الطلاب يحفظون ما لقنوا، وقصارى عملهم الحفظ. وعلى هذا فالقرآن لا يخالف سنة الله في الخلق والتربية. ولما تكفل إتمام الهداية وتطهير النفوس علم الشرائع كالمعدات والممهدات. ثم علم الحكمة بطريق عملي يحث الفكر والنظر. ثم بكليهما طهر النفوس، فإن الطهارة إنما تتم بجاني العلم والعمل الظاهر والباطن. وبين ذلك في مواضع شتى وامتن به علينا وهو قوله تعالى: "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ (أي ما كتب عليهم من الشرائع) وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٢ وَعَاخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٣)". (سورة الجمعة: 2-4).

ومثله قوله تعالى: "لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ". (سورة آل عمران: 164). فبعث الله تعالى رسوله أحسن معلم للحكمة، وذلك بأنه جعل التعليم جزءاً من التربية كما قدّمناه. فلم يكتف بإعطاء العلم المحدود بل جلى بصيرة العقل وهياً للرقى إلى أعلى منازل. ولا يكون ذلك إلا بأن نبهه ليطلع على أصول الفكر والنظر، وليقتني الحق اليقين علماً والطهارة التامة خلقاً، وكل ذلك من باب تعليم الحكمة".¹

ويقول: "وبالجملة فأكثر دلائل القرآن إنما هي لوامع تجلب النظر، وقوارع تنبه الفكر. وكان المخاطبون أذكياء فصحاء أهرع الناس إلى لطائف المعاني وأشدّهم تهدياً لفضول الكلام. فلو فصل لهم الدلائل المرتبة على طريق المنطق لأبعدهم عن نهج الفطرة في الفكر".²

مثال على منهج القرآن في الاستدلال: يقول الفراهي: قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبُعْثِ (هذا تقرير الدعوى، أي البعث حق لا يرتاب فيه، ثم أتبعها

¹ المرجع السابق، ص 131-132

² المرجع السابق، ص 195

الدليل بقوله) فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْقَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ (وهنا نبه على أن الله تعالى أراد بهذه مراتب الخلقة إقامة الحجّة على كون الإنسان عبداً مريباً عاجزاً، فلا بد له من خالق رب مريد حكيم رحيم فقال) لِنُبَيِّنَ لَكُمْ (ثم نبه على بطلان شبهتهم من جهة تأخير يوم البعث فقال) وَنَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَن يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَن يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً. (سورة الحج: 5).

فبذلك نبه على أنه تعالى جعل أجلاً مسمى لخلقه حسب مشيئته وحكمته فيقدم ويؤخر كما يريد. وفيه دليل على وقوع الساعة، فإن لكل خلق مشوب بالخير والشر أجلاً معيناً وإلا لدام الشر أو لم ينتج الخير الأعلى الذي لأجله خلق، وهذا العالم كذلك عياناً ثم في هذا التحول نفسه دليل واضح على القيامة كما جاء في سورة الانشقاق، وستعرفه في موضعه. ثم أتى بدليل آخر على البعث الجاري بين أيديهم فقال: "وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُتْبِتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٍ ﴿٥﴾ (وبعد بيان الدليل الإيّي ذكر الدليل اللبي فقال) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ (فلا يخلق عبثاً باطلاً) وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى (كما علمتم من خلقكم وإحياء الأرض) وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾" (الآية: 6). (فإن خلق الحياة أكبر شيء في القدرة لأن كل صنعة وقدرة هي دون إعطاء الحياة، ولا قدرة أكبر من سلب الحياة، فمن أحيى وأمات فهو قادر على كل شيء).

ثم أعاد ذكر ما أقام الحجّة عليه فقال: "وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا (فأي شيء يريكم بعد ما رأيتم آجالاً لأفعاله تعالى، وعلمتم أنه الحق فلا يفعل عبثاً، وأنه قادر متصرف بكمال القدرة والحكمة. ثم أعاد النتيجة الأخيرة فقال) وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾" (الآية: 7).¹

يقول الفراهي عن منهج القرآن في ذكر حججه: "هو أقرب إلى بلاغة القول وطريق

¹ المرجع السابق، ص 136 - 137

الفطرة. فإنه يخاطب العقل والقلب معاً ويركب الأدلة الإنية مع اللبية ويخلط بالدلائل ترغيباً وترهيباً، فكما ينبه العقول من رقدته فكذلك يحث القلوب من غفلته".¹

الأسباب التي تؤدي إلى عطل العقول أو زيغها، ومعالجة القرآن لها:

1. الانهماك في الظاهر الحاضر: يقول الفراهي: "لما كانت الغفلة عما هو فوق هذه الحياة الدنيا غالبية على أكثر العقول لشدة انهماكهم في مشاغل هذه المحسوسة الحاضرة وعلومها كما قال تعالى: "وَكَايْنِ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ" (سورة يوسف: 105). فمع أن دلائل القرآن قريب من الفطر بل منبهة على الفكر وأصول النظر تراهم لا يتفكرون، ولذلك قد أكثر القرآن من الحث على التدبر والتفكير مثلاً قوله تعالى: "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا" (سورة محمد: 24). وهذا كثير جداً.

والغفلة هي عدم النظر فهي سبب عديم ولكنها إنما نشأت من الانهماك في الظاهر الحاضر، وهذا عطل قوى العقل وأغلق غرف الإدراك لما هو المشهود في الأنفس والآفاق من مظاهر الجلال والجمال والحكمة والرحمة. فصاروا لا يرون إلا الظاهر لمحسوس كالبهائم كما قال تعالى: "لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ" (سورة الأعراف: 179). وقال تعالى في هولاء: يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (سورة الروم: 7). وقال تعالى: "فَأَعْرِضْ عَنْ مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۚ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ" (سورة النجم: 29-30). وهذا كثير جداً".²

¹ المرجع السابق، ص 138

² المرجع السابق، ص 25-26

2. الاشتغال بالأسفل والاستكبار عن المشقة: يقول الفراهي: "من الأمثال السائرة لكل شيء آفته، وللعلم آفات ولا غرو، فإن سقم العقل ليس بأعجب من سقم البدن. ألا ترى الحواس تسقم بل تبطل وتعدم. وإذا كان ذلك كذلك فلا بدع ولا عجب أن يعترى العقل أو الفؤاد مرض فيغشى عليه بل يطفئ نوره فيعميه. فالعلم الذي أودع في فطرة الإنسان لا يلزمه أن يكون ظاهراً بيناً على الناس كلهم، بل لجلالة قدره هو أجدر بأن لا يصل إليه أيدي المستغلين بالدني في السافل، المستكبرين عن خضوع التعلم ومشقة النظر. فإن الاشتغال بالأسفل يعوق عن المعالي، وكذلك الاستكبار عن المشقة يمنع عن المكارم. وقد غلب هذان على الناس أجمعين إلا أولي البصيرة وقليل ما هم. ولذلك قد أكثر القرآن من الدلالة على أدواء النفوس لا سيما هذين الذين ذكرنا. قال تعالى: "كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" (سورة المطففين: 14). قوله: "مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" متوجه إلى ما سبق من ذكر حرصهم الشديد على المال. والحب يعمي ويصم لما يشغل القلب، كما قال تعالى: "أَلْهَيْكُمُ التَّكَاثُرُ" (سورة التكاثر: 1). والاشتغال بشيء يغفل عن غيره، فنبه على أن حرصهم الذي حملهم على الخيانة صار ظلمة على قلوبهم فلم يبصروا، فلو لا هذا الرين لأبصروا. وأيضاً سمي ذلك غطاءً، فنبه على وجود البصر والمرئ ولكن الرين والغطاء صار حجاباً، كما قال تعالى: "لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ" (سورة ق: 22)...

وبالجملة فأودع الله فطرة الإنسان العلم والفكر كما أعطاه السمع والبصر، فإذا لم يستعمل ذلك بطل عمله وضاع، فإنه لم يشكر على النعمة كما قال تعالى: "فَجَعَلْنَاهُ (أي الإنسان) سَمِيعًا بَصِيرًا" إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا" (سورة الإنسان: 3). وقال تعالى: "لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ" (سورة إبراهيم: 7).

وقال تعالى: "وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى". (سورة محمد: 17). فالهداية الأولى مودعة فطرة ولكن من شكر أعطى المزيد، ومن كفر يسلب الأولى أيضاً كما جاء كثيراً، مثلاً "إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" (سورة المائدة: 67).

وإنما قدمنا ذلك لتعلم أنّ صحة العقل والفؤاد أهم من صحة صورة الاستدلال ورعاية شروط الأشكال، كما أنّ صحة النظر أهم من صحة المنظار. والمنطق إنما يبحث عن صور الأدلة وأجزائها، ولكن الأهمية كل الأهمية للنفس المفكرة وفكرتها وبناء عليها وإيقانها".¹

3. اتباع الهوى والظن: الغواية في الدين لا تأتي من قبل العلم والوحي، وإنما من قبل اتباع الظن والهوى. وهذا الذي قرره القرآن الكريم في آيات كثيرة، فليس هناك تعارض بين العقل والوحي ولا بين العلم والوحي، وإنما التعارض بين الهوى والعقل وبين العلم والظن.

يقول الفراهي: "إن المؤمن يتبع العقل في جميع أحكامه، والكافر يتبعه فيما يوافق هواه وظنه كما قال تعالى: "إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى" (سورة النجم: 23). فيعيشوا عن هديه.

وقد ضرب الله مثلاً لهديه ونوره والذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، فقال: "أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيْءِءِءَانِهِمْ مِنْ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ" (سورة البقرة: 19-20). "يَكَادُ الْبَرْقُ يُخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (سورة البقرة: 19-20).

فهوى النفس لهذه الحياة الدنيا يثبطها عن القصد إلى أعلى الخير، وظنونها الباطلة تحجبها

¹ المرجع السابق، ص 101-102

عن النظر في محض الحق ولم أر كالظن والهوى عدواً للحق والتقوى. فالظن يزين الباطل في صورة الحق، والهوى يغطي الشر بحلاوة الخير. فهما عثران في طريقي العلم والعمل. وأخبر الله تعالى في كتابه الحكيم عمن اتبع الظن وأقبل على الدنيا وأعرض عن أصل الخير ومحض الحق، فقال عز من قائل: "وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا" (أ) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (ب) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ". (سورة النجم: 28-30). أي لا يطلبون العلم الذي يحتاج إليه من يهمة الحياة العليا التي هي خير وأبقى".¹

الخاتمة: إنَّ المقصد القرآني من تربية العقول لا يتحقق إلا بكثرة التأمل في القرآن الكريم والعكوف على تدبر آياته، من غير عائق يعوق حركة التدبر.

إنَّ مسيرة التدبر في القرآن الكريم بطبيعتها تقتضي أن تكون في جو يسوده الحرية والتشجيع خالياً من القيود والمطبات. إنَّ القرآن الكريم نفسه مع كثرة حثه على أعمال العقل والفكر والتدبر لم يضع قيوداً ولا شروطاً، إلا عدم اتباع الظن والهوى.

إنَّ الموقف المعارض من التفسير بالرأي والتفسير بالمعقول والإصرار على الاكتفاء بما سمي بالتفسير المأثور على ما فيه الكثير من غير المأثور، لا يتماشى مع ما نراه من موقف القرآن الكريم من التأكيد على الفكر والتدبر. يقول الدكتور محمد عناية الله سبحاني:

"فلنعلم أنَّ المحذور في التفسير، هو التفسير بالهوى، الذي هوى فيه أهل الأهواء. وأما التفسير بالرأي فهو شيء مطلوب، ومندوب، بل هو من أوجب الواجبات؛ فإنه هو الطريق الوحيد لربط الأمة بالقرآن، وهو العلاج الناجع لغائلة التفسير بالهوى، فحينما منع التفسير بالرأي، خلا الجو للتفسير بالهوى، فباض وصفراً! وفشا وانتشر!"²

وأختم بكلمة رائعة للفراهي حيث يقول: "لا شك أن لا نجاة إلا بالعقل فهو الرفيق

¹ المرجع السابق، ص 185

² التحرير والتجوير في أصول التفسير، للدكتور محمد عناية الله أسد سبحاني، دار عمار، الأردن، ص 170

الأعلى، وبالعلم وهو العروة الوثقى، وبالعَمَل الصالح وهو الطريق المثلى إلى السعادة الكبرى".¹ والله الحمد.

طبعاته: قام الدكتور عبيد الله الفراهي بجمعها وضبط حواشيها ونشرها من الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح (أعظم كره، الهند). صدرت طبعتها الأولى في 314 صفحة في 2009م. يبدو من نسخة الكتاب أنّ المؤلف قد سَوّد هذا الكتاب أكثر من مرة وأنهى ترتيبه وتوثيق النقول من مسوداته المختلفة وأقوال المتكلمين والفلاسفة الواردة في الكتاب كله.

ذُكر في "تفسير سورة الفاتحة" أنه طبع للمرة الأولى سنة 2003م.

حكمة القرآن

إنّ الإمام الفراهي قد أفصح في مقدمة "تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" عن الباعث الذي دفعه إلى تفسير القرآن، هو أنه تصفّح كتب التفسير وسبرها سبراً بعد عصر الصحابة والتابعين، فوجدها كسراب بقيعة، فلم يجد من حمل من حكمة القرآن ومعجز بيانه إلا النزر القليل، ووجد أنّ أغلب التفاسير غلب عليها العناية بتفاسير الصحابة والتابعين لبعض الكلمات، وشحن العلماء التفاسير بالإسرائيليات وسفاف الأمور، فصارت حجاباً دون تدبر القرآن فتولى شرح معنى الحكمة ومواردها في القرآن الكريم في أكثر من مقام من كتبه الرائعة وأبرز حكمة القرآن وطرق استنباطها خاصة في كتابه "حكمة القرآن" وأكمل به جزءاً من مشروعه القرآنية المهمة. لا شك فيه بأنّ هذا الكتاب كتاب رائع في الموضوع وبيّن مفهوم الحكمة في القرآن وبيان منزلتها وخصائصها وآثارها ومظاهرها وأسبابها وتعليم النبي إياها لأُمته وطرق استنباطها ووجود الحكمة في نظام الديانة الإسلامية.

¹ حجج القرآن، ص 175

كان القرآن الكريم محور فكر الإمام عبد الحميد الفراهي رَحِمَهُ اللهُ ، فكان يمتلك بصيرة فذة في كل جانب من جوانب القرآن الكريم، ولا يقتنع بأن يترك كلمة أو مبحثاً بدون أن يتقصى عنه. فجعل كلمة "الحكمة" موضوع بحثه لأهميتها الواضحة، وأحاط ببحثه اللغوي في كتابه "مفردات القرآن" كما أنه قام ببحث مشبع في استخدام هذه الكلمة في القرآن الكريم في كتابه الآخر المسمى بـ "حكمة القرآن". وإن هذه الأبحاث للإمام الفراهي رَحِمَهُ اللهُ تخطى بقيمة بالغة وتثير التفكير وتحتل بأهمية كبرى في فهم مباحث القرآن الكريم. ذكر الإمام الفراهي عدة جهات الحكمة في الكتاب.

إنّ كتاب "حكمة القرآن" يدل على معنى الحكمة في القرآن هل المراد منها السنة أم شيء آخر، وما هو مفهومها وما هي حدودها وطريقة الوصول إليها وهو مؤلف علي يحتضن بطيه معارف ومعلومات علمية وفكرية عن كلمة الحكمة التي وردت في القرآن الكريم من مختلف النواحي، كما ينطق الكتاب بشتى المعاني والمفاهيم التي تنبع من هذه الكلمة، وطبعاً، يستقطب عنوان هذا الكتاب كل من له أيّ شغف بعلوم القرآن ودراساته علماً وفكراً وعملاً، بما يسعى المحبّون بالعلم دوماً، معرفة كل ما يكشف بكار العلماء والباحثون عما يحمله القرآن الحكيم من الحكمة والرسالة والعظة والنصيحة وذلك ليس للمسلمين فحسب وإنما لسائر الإنسانية جمعاء.

إنّ الله تعالى دعا الناس إلى الحكمة القرآنية وهي رأس التقوى ورأس المعرفة الربانية ولذلك ألّف الأستاذ الفراهي كتابه المذكور وأرشد الدارسين إلى الطرق التي تتعلق بالحكمة القرآنية ومنها "نظام القرآن" الذي يشجّع الناس على نيل الحكمة القرآنية كما قال الأستاذ الفراهي:

"الكلام لا يلتزم بعضها ببعض إلا بجامع يشتمل على أشتات المطالب والجامع يكون أعلى وأوسع كما أن الإنسان يشمل الأفراد التي تحته وهكذا يعرض من الأخص إلى الأعم فن طلب النظم لا بد أن ينظر فوق ما يراه حتى يجد جامعاً عاماً وهذا الطلب

هو سلم الحكمة ولا يتعاطى ذلك إلا ذو بصيرة وذكاة ولولا ذلك لما جعل الله تعالى راعى ذلك ليعلمهم الحكمة ويرشعهم الملكة هي أصل العلم والمعرفة لا نفس المعلومات وإنما المقصود هنا أن الله تعالى راعى ذلك ليعلمهم الحكمة ويرشعهم الملكة هي أصل العلم والمعرفة لا نفس المعلومات فإنها منحصرة محدودة ثم العلم بها ليس في شيء من ملكة في المقصود وقد أشار إلى كون القرآن "علياً" لاشتماله على الحكمة حيث قال تعالى (وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم)¹.

وبما أن العقائد ليست من العلوم المحضة المجردة الباردة، التي تدخل تحت الإرادة والتي قد ترغب فيقبل عليها أو ترفض فينفر منها، لذلك ألف الفراهي كتاباً سماه "حكمة القرآن" بحث فيه ما يفسد العقيدة وما يصلحها من الأخلاق ومن العلوم، وكيفية الإصلاح المبني على ترتيب العلاج المناسب المأخوذ من القرآن.²

ولالإمام الفراهي كتاب نفيس في هذا الموضوع، وله ثلاث مسودات. وقد سمي الأولى بـ"الحكمة البالغة: في الحكمة الإسلامية يعلمها القرآن ويتقبلها أولو الألباب بما أنها تبلغ قلوبهم وتخطب عقولهم، وسمى الثانية بـ"حكمة القرآن" وأبقى هذا العنوان في المسودة الثالثة.

هذا الكتاب ينطق عن حكمة القرآن ومفهوما الحقيقي في القرآن الكريم وقيام الدين عليها. هذا كتاب قيم ولكن لم يوفق الإمام الفراهي إتمامه.

ويبدو من دراسة الكتاب أن الإمام الفراهي أراد بتأليفه في أربعة أجزاء لكنه لم يسعه أن يكتب سوى ثلاثة أجزاء منها، فالجزء الأول منها يتناول مفهوم الحكمة ومزاياها والعلاقة بينها وبين الإيمان وتعليم الحكمة وطريقة حصولها، بينما أوضح الشيخ في الجزء الثاني أن القرآن أكبر خزانة والمنبع الأصيل للحكمة، ولكن الحكمة

¹ المرجع السابق، ص 33

² المرجع السابق، ص 4 (بتصرف)

تخفى في نظمه، والحكمة هي الوسيلة للوصول إلى نظم القرآن، فإن المرء ينكر نظم القرآن بدون الحكمة أو يشعر بالملل والتنفّر عنه، وكذا أوضح الشيخ في هذا الجزء صفات الحكيم، وأما الجزء الثالث فقد أراد فيه أن يبين النظام الإسلامي، فاقترح له اسماً آخر وهو "النظام في الديانة الإسلامية"، وسلّط الضوء فيه على النظام الباطني في الدين، والتوافق بين الأجزاء المختلفة وعلاقته بالنظام الخارجي، وكتب بعض الفصول حسب منهجه في هذه الأجزاء الثلاثة بينما ترك بعضها فلم يكتب له إكمالها.

يحتوي هذا الكتاب على عدة مباحث ويبلغ إجمالي عدد صفحاته 120 صفحة. ومن المناسب أن يشار إلى معنى الحكمة ومفهومها لكي يتضح أهمية الكتاب وأسلوب الإمام الفراهي ومكانة لكتاب العلية.

معنى الحكمة ومفهومها: تُطلق "الحكمة" على معانٍ عدّة، منها: الحكمة بمعنى السّنة، وبيان الشرائع.¹ "رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (سورة البقرة: 129) وقال تعالى: "كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ" (سورة البقرة: 151)

"الحكمة" بمعنى النبوة.² قال تعالى: "فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ" (سورة البقرة: 251) وقال تعالى: "وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلْنَا الْخِطَابَ" (سورة ص: 20) وقال تعالى: "وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا" (سورة الزخرف: 63).

¹ حكمة القرآن، للإمام الفراهي، أعظم كره، الدائرة الحميدية، ط: 1، ص 14

² انظر: المرجع السابق، ص 14

"الحكمة" بمعنى الفقه.¹ قال تعالى: "يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٣٢﴾". (سورة البقرة: 269)

"الحكمة" بمعنى الفهم، وحجة العقل وفقاً للشريعة² قال تعالى: "وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٣٢﴾". (سورة لقمان: 12)

"الحكمة" بمعنى العظة.³ قال تعالى: "حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْتَذَرُّ ﴿٥٠﴾". (سورة القمر: 5)

معنى الحكمة ومفهومها عند الإمام الفراهي: ويقصد الفراهي بـ"الحكمة" أنها: "إعمال الفكر ثم العمل بمقتضى الفكر، فيزداد علماً وعملاً.⁴ عرفها بمعناها المعروف كما عرفها جماعة من السلف، وكما وردت في القرآن والحديث في مواضع متعددة.

يقول الفراهي في كتابه: "مفردات القرآن": اسم للقوة التي منها نشأ القضاء بالحق، قال تعالى في نعت داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: "وَشَدَدْنَا مُلْكُهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٥٠﴾". (سورة ص: 20) فذكر الأثر بعد القوة التي هي مصدر ذلك الأثر. وكما أن القول الفصل من آثار الحكمة، فكذلك طهارة الخلق وحسن الأدب من آثارها.

ولذلك كانت العرب تُطلق اسم الحكمة على قوة جامعة لرزانة العقل والرأي، وشرافة الخلق الناشئة منها. فسموا الرجل العاقل المهدب: "حكيماً".

وكذلك يُطلقون اسم "الحكمة" على فصل الخطاب، وهو: القول الحق الواضح عند العقل والقلب.⁵

¹ انظر: المرجع السابق، ص 14

² انظر: المرجع السابق، ص 14

³ انظر: المرجع السابق، ص 15

⁴ انظر: المرجع السابق، ص 13

⁵ انظر في تعريف "الحكمة" وأسمائها: حكمة القرآن للفراهي، ص 25، 29.

وذكر الفراهي أنَّ كل هذه الوجوه من معاني "الحكمة" جاءت في كلام العرب. فاستعملها القرآن والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما عرفوه.

ذكر الإمام الفراهي ميزات مختلفة للحكمة:

-الميزة الأولى أنَّ الحكمة سواء كانت من الوعظ أو صائب القول لا بد أن تكون واضحة لا تحتاج إلى دليل.

-الميزة الثانية أنَّ الحكمة إذا خالطت القلب رفعت.

-الميزة الثالثة أنَّ الحكمة ليست هي جملة من العلوم المكتسبة، إنما هي نور إذا صادفت شيئاً نورته وبيّنت جانب الخير والشر والحسن والقبح فهي حالة سجية.

-الميزة الرابعة أنَّ الحكمة هي روح وقوة، فليست كالعلوم ما يخذلها العمل، فهي العلم والعمل معاً كالشمس وضوئها والنار وحرارتها.

-الميزة الخامسة أنَّ الحكمة تجري في الأمور التي هي وسيلة السعادة وتزكية النفس. والميزة السادسة أنَّ أصول الأعمال الصالحة كالسماحة والعدل والعفاف وأمثالها لكثرة جريان الحكمة فيها تحصل للحكيم في صورة القضايا الواضحة. فيحكم بالحكمة وبهذه الأصول في جزئيات الأحكام عند المسألة والحاجة إلى القول فيها. وهذه الأصول تسمى حكمة. ولذلك سمي الإنجيل حكمة كما جاء في القرآن الكريم: "ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ"¹.

-الميزة السابعة والأخيرة أنَّ الحكمة في القلب ليست أمراً طويلاً عريضاً، دقيقاً عميقاً، بل هي شيء يسير وصاحبها يتعجب ممن لم يرزقها. وأبين ذلك ببعض الأمثلة. أهدنا يصلي ويجري على لسانه كلمات من الذكر ولا يجد في نفسه تخشعاً وتذكراً، فصاحب الحكمة يتعجب من ذلك...، وربما يكون هو خطيباً وواعظاً

¹ سورة الإسراء: 39

ومذكراً فيقول بلسانه ما لا أثر له في قلبه. فهذه البصيرة ليست بشيء بعيد يحتاج إلى تعمق وإعمال الأفكار والعلوم.

مباحث "حكمة القرآن": المبحث الأول: ما يراد بالحكمة البالغة: كتب صاحب الكتاب في هذا المبحث، ما هي الحكمة البالغة في الحكمة التي يعلمها القرآن، يتقبلها أولوا الأبواب بما أنها تبلغ قلوبهم وتخطب عقولهم، ثم حكمة القرآن تعريفاً. وتم تسمية هذا المبحث بكتاب يتناول طريق النجاة وترتيب الأعمال الزكية ومعانيها وربط بعضها ببعض، والعقائد وعيوبها ولا سيما التي ضلّت الأمم فيها كالتوحيد وغيره من صفات الله والجبر والقدر، ثم ينقسم هذا المبحث إلى قسمين: قسم الأعمال وقسم العلوم بسرده بعض العناوين مثل الحكمة وشرح الكلمات والنظر في نظم هذا الكلام.

يتحدث صاحب الكتاب من ضمن هذه العناوين، عن مبادئ الحكمة، مبرزاً أنّ الحكمة إعمال الفكر أي جعل الشخص أن يفكر، ثم العمل في ضوء الفكر، مما يزداد علماً وعملاً، جاء هذا التوضيح مراعاة لترتيب التربية.

ويكتب المؤلف: كان أول عمل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعليم الأحكام ثم تعليم الحكمة ثم تركيتهم، كما جاء في القرآن الكريم (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ). بينما يشرح المؤلف نفس الكلمة في مكان آخر، بأنه من عرف قدر النعم وترتيبها من الوجود والحياة والعلم ومعرفة الخير والتمييز بين الأضداد والرغبة في الخير، علم أنّ أكبرها وأجلها هي الحكمة كما قال تعالى: (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا، وما يذكر أولو الأبواب) حيث يبدو أنّ صاحب الكتاب يركز من خلال هذه العناوين، على أهمية العلم ثم العمل ثم التزكية أي نبذ المذنسات وهي تمام السعادة.

وينتهي هذا المبحث بفقرة تالية:

"الحكمة نور وكمال الدين والحق، ولذلك واجبة في الوجود. فلا بد أن يبرزه الله تعالى

ولذلك بدأ الخلق بخلق النور فقال: (يُرِيدُونَ لِيُظْفِقُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كُفِّرُوا) سورة الصف: 8-9. فإن الله تعالى يعلي الحق ويبطل الباطل كما قال: (جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) سورة الإسراء: 81. أي الزهوق لازم فطرته، كما أن الحق يلزم فطرته الوجود والظهور".

المبحث الثاني: تعريف حكمة القرآن: أورد صاحب الكتاب أقوال السلف في تعريف الحكمة مع بعض التنبيه على مرادهم، وموضوع الخشوع في الحكمة، وأسماء الحكمة، والإيمان هو أصل الحكمة، والحكمة والعلم بها وتعليمها وتحصيلها، والحكمة مضمون بها على غير أهلها.

تحدث المؤلف في هذا المبحث عن أقوال السلف في الحكمة، إذ يقول بعضهم إن الحكمة هو فهم القرآن، والحكمة هي العلم والعمل به، ولا يكون الرجل حكيماً حتى يجمعهما وما إلى ذلك من التوضيحات الأخرى، حيث يترتب على ذلك الحديث عن أسماء الحكمة وفروعها، فيشرح صاحب الكتاب أن الحكمة أصل واحد ولها وجوه وفروع يطلق عليها اسم الحكمة، ومنها الإيمان والعمل والحق والسكينة والروح والهدى والبصيرة والنور والأمانة والحظ العظيم والخير الكثير.

بعد ذلك، تناول المؤلف الإيمان كأصل الحكمة بقدر من التفصيل، بحيث إن الإيمان هو أصل الحكمة فكل مؤمن بالنسبة إلى غيره صاحب حكمة، فالمسمى بالحكم هو الذي له حظ وافر من الحكمة كما أن الإنسان لا يسمى عالماً إلا إذا كان له نصيب وافر من العمل.

وفي ختام هذا المبحث، أشار المؤلف إلى أن بعض الناس قد التبس عليهم مفهوم الحكمة، فإنهم ظنوا أنها هي علم الحديث، ظناً بأن ذلك هو المراد بقوله تعالى: (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ) .

المبحث الثالث: حكمة القرآن من كتاب الحكمة: يشمل هذا المبحث عناوين عديدة متضمنة نظام القرآن والحكمة، وصفة الحكمة، وكيف تعرف ما هي الحكمة، والحكمة أوضح المعارف، وخصائص الحكمة، والحكمة ضالة المؤمن، ونص الأمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رَحِمَهُ اللهُ في أصول الفقه، ونظرة الحكمة كيف تكون، تعليم الحكمة ولا يكون إلا بإثارة وإشارة. وعلم الحكمة ممزوج بخلقه وعمله كما قيل: الحكمة علم وعمل. خصائص الحكمة وآثارها ومظاهرها وأسبابها، ولا يمكن تعليم الحكمة إلا بطول الصحبة والتدريج وأصول المعارف والمسائل، وكيف تعليم الحكمة والفكر، دلالة القرآن إلى عين الحكمة، إزالة شبهة موضع التمثيل في الحكمة، ورقى الأمم بالحكمة (الجانب الخلفي)، وكتاب الحكمة العملية، والحكمة وعوالي العلوم.

بدأ الحديث في هذا المبحث، عن نظام القرآن، لأن ذلك يهدف إلى الحكمة بوجوه كثيرة، فن تأمل نظمه لا بد أن يهتدي إلى حكم جمة، والحكمة تستلزم السعة والإحاطة بأمور شتى كما تستلزم ترتيباً واتساقاً في النظم، لما أنّ الحكمة تستلزم الإحكام والإتقان فينتفي الخلل عن بنائها وسوء الترتيب عن أجزائها ثم يتم توضيح الحكمة في ضوء الحكمة ضالة المؤمن.

كما تطرق المؤلف إلى سرد خصائص الحكمة، بعبارة تتمثل في أنّ الحكمة حياة القلب، بحيث إن القلب الحي ينبت فيه بذر العلم، فإذا صار العلم حياً نامياً فلا بد أن يكون القلب طيباً، والمراد بحياة العلم إفاضته إلى الحال والعمل الصالح.

ثم ألقى المؤلف الضوء على كيفية رقي الأمم بالحكمة أي الجانب الأخلاقي، لأن الأمة ترتقي وتخط بأخلاقها العالية والسافلة، فلا بد من التربية على الأخلاق الحسنة في التزكية، والتزكية تأتي من الله تعالى فضلاً منه، كما هي غاية التعليم والدين، حيث قال تعالى: (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ).

ونرى أنّ صاحب الكتاب تناول كلمة الحكمة من مختلف النواحي علماً وعملاً وفكراً،

وذلك في إطار ما يشير إليه القرآن الكريم. لم يتحدث عن أي جانب بهذا الصدد إلا وأورد له أدلة قرآنية. إن دلّ ذلك على شيء فإنما يدل على شغفه ولزومه بعلوم القرآن. المبحث الرابع: النظام في الديانة الإسلامية: يتضمن هذا المبحث 16 فصلاً صغيراً وكبيراً بما فيه بعض الفصول مصحوبة بعناوين مثل النظام، وغاية الحياة ونهاية السعادة، وفي أركان الديانات، وبيان نظم قوله تعالى في نعت نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يتلو عليهم آياته، وموضع الاختيار، ومواقف الديانات، ونظرة الحكيم في الديانة من ثلاثة مراصد، واستدلال الحكيم في تحقيقه ونظره، وفي بيان نظام هذا الدين، وإثما الأعمال بالنيات، وترتيب العقائد والأحكام، وفي أولية الشكر والصبر، أصل الدين وفروعه، ومن كُتب نظام الديانة الإسلامية، والغاية الطريق، وأول الحكمة وآخرها، والتوفيق بين القرآن الحكيم والصراط المستقيم.

هذه هي بعض المباحث والفصول والعناوين ذات الصلة التي يضمها الكتاب، فيما ركّز صاحب الكتاب على شرح كلمة الحكمة ومعانيها في ضوء القرآن والسنة وأقوال السلف، أما الهدف الرئيسي وراء هذه الكتابات فإنما يكمن في توضيح الحكم التي يحملها بطيه كُتب الله الحكيم للعالم بأسره، لينال الإنسان هدفه المنشود، فنرى أن الكتاب يتحدث في البداية، عن طريقة النجاة وترتيب الأعمال الزكية في الصفحة الأولى، وينتهي الكتاب بعنوان الصراط المستقيم. وذلك خير دليل على أن الكتاب لا يقصد بذلك إلا الهداية والرشد والنصح وإسلام النفس للرب.

والواضح بأن هذا المبحث لا يمت بصلة إلى موضوع الكتاب إلا أن الوصول إلى حقائق الحكمة يتطلب معرفة نظام الكون، فن هذا المنطلق تم إدراج هذا المبحث في هذا الكتاب.

ويكتب صاحب الكتاب في هذا المبحث مع التركيز على معرفة نظام الكون- لأن الدين الإسلامي له نظام وترتيب- لتجلى الحكمة بكل وضوح كآيات خالق الكون،

وإن الدين هو الإسلام والعبادة والطاعة للرب، والعبادة لها ثلاثة أركان، الإخلاص للرب ومعرفة روحها وهو الرجوع إلى الرب، وموافقة إرادته بالرضى والتذليل له والافتقار إليه وحسن الظن به، ثم سلوك العبد في طريق رضاه وجماعه التقوى وأعمال الخير. فمن صحَّ إخلاصه وصلاته وزكاته لا بد أن تصح أعماله.

وبعد ذلك جاء ذكر الإيمان والتوحيد والعدل والإحسان معنى ومفهوماً ضمن هذا المبحث، لأن الحكمة تقتضي أن يشكر العبد خالقه، وأصل الشكر محبة الله. ثم غاية الدين تزكية النفس وذلك بأمرين: العلم والإيقان والمعرفة والإيمان، إذ أنّ أول الحكمة وآخرها توفيق بين العلم والعمل، ومن الموافقة بينهما أنّ من استكبر حرم الرحمة، ومن أطاع واتبع طريقه فاز بالكرامة.

وقسم الدكتور حسن يشو مباحث "حكمة القرآن" إلى المباحث الآتية:

المبحث الأول: حكمة القرآن من كتبه في علوم القرآن: يقول الإمام الفراهي في كتاب مفردات القرآن: "فهذه خمسة كتب في فهم ظاهر القرآن،¹ وتليها سبعة كتب في علوم القرآن، وأولها "كتاب الحكمة".²

وأما كتبه السبعة في علوم القرآن فهي:

- 1- حكمة القرآن.
- 2- حجج القرآن.
- 3- القائد إلى عيون العقائد.
- 4- الرسوخ في الناسخ والمنسوخ.

¹ ويقصد بالكتب الخمسة: مفردات القرآن، وأساليب القرآن، والتكميل في أصول التأويل، وتاريخ القرآن، ودلائل النظام.. والظاهر أن كلها مطبوعة ما عدا تاريخ القرآن، ونسأل الله تعالى أن يعرف النور قريباً!

² مفردات القرآن، ص 92.

5- الرائع في أصول الشرائع.

6- إحكام الأصول بأحكام الرسول.

7- أسباب النزول.

المبحث الثاني: نسخة "حكمة القرآن": وقد طبعت نسخة من "حكمة القرآن" من قبل الدار الحميدية، وكانت الطبعة الأولى منها عام 2007م، وظهرت في 120 صفحة. وصدرت بكلمة الجهة الناشرة وهي كما ألعنا إليها الدائرة الحميدية في خمس صفحات؛ وقد تضمنت تعريفاً موجزاً عن الكتاب.

وإن هذه النشرة الأولى للكتاب على أن الإمام الفراهي رَحِمَهُ اللهُ كتب منه فصولاً كثيرة ولم يقدر له إتمامه على غرار مشاريعه الكثيرة التي باتت مفتوحة دون إكمالها وقد انتقل لجوار ربه وهي خداج غير تمام.

المبحث الثالث: أصل الكتاب: جاء في مقدمة كتاب الحكمة: "الناظر في مطالب الكتاب التي ذكرها المؤلف في بداية المسودة الأولى، وفي موضوع رسالة نظام الديانة الإسلامية، يستطيع أن يقدر قيمة الكتاب وعظم شأنه لو كتب له التمام، أما في وضعه الراهن فإنما هي مجموعة فصول متفرقة كثير منها ناقصة غير محررة، ولكن لما كان المؤلف رَحِمَهُ اللهُ قد خصه الله سبحانه بحظ وافر من علم كتابه الكريم، ونور قلبه بالحكمة، وجعله من العلماء العاملين الربانيين؛ اشتملت هذه الفصول على قواعد نفيسة وفوائد عزيزة، فرأينا أن نجعلها كلها- على ما هي عليه- في هذا الكتاب الذي بين أيديكم؛ لينتفع به أهل العلم ولا سيما أولو الألباب..".

المبحث الرابع: موضوع الكتاب: إن موضوع الكتاب هو "الحكمة" التي بعث الله تعالى نبيه محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتعليمها للناس تماماً كما قال الله تعالى: "رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾. [سورة البقرة: 129].

وإنّ الفراهي رَحِمَهُ اللهُ قد شرح الله صدره للطائفة الكتاب العزيز، وهدهد تديره بفضل الله تعالى إلى أن معنى الكتاب هو "الشرائع والأحكام"، ومعنى الحكمة أي "الحكم" وليس معناها "السنة" كما ذهب بعض أهل التأويل ومنهم الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ في كتاب الرسالة.

المبحث الخامس: الحكمة والفلسفة: تسمى الفلسفة بالحكمة والفيلسوف هو الحكيم، وقد أشار في كتابه إلى أن الفلسفة اليونانية التي أولع بها بعض العلماء كانت سداً منيعاً وحجاباً صفيقاً دون البحث عن الحكمة القرآنية واستنباطها.

وقد كتبت بعض الفصول التي لم يعثر عليها وهي تابعة لحكمة القرآن؛ فقال: "فصل في نظام الديانة؛ وهو جزء من كتاب حكمة القرآن".

المبحث السادس: محتويات الكتاب:

- 1- أشار رَحِمَهُ اللهُ إلى مكتبته المورقة ولا سيما كتبه في علوم القرآن التي حررتها آنفاً؛ وذكر الروابط بينها.
- 2- مقدمة عن الحكمة.
- 3- شرح كلمات "سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم".
- 4- تعريف الحكمة عند السلف.
- 5- أسماء الحكمة ومنها: الإيمان، والعلم، والحق، والسكينة، والروح، والهدى، والبصيرة، والنور، والأمانة، واللب، والحظ العظيم، والخير الكثير.
- 6- الحكمة مضمون بها على غير أهلها.
- 7- كيف نعرف ما هي الحكمة؟

- 8- الحكمة أوضح المعارف.
 - 9- الحكمة ضالة المؤمن وقل من وجدها.
 - 10- مناقشة رأي الإمام الشافعي في معنى الحكمة في الآية: "رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾". [سورة البقرة: 129].
 - 11- نظرة الحكيم كيف تكون؟
 - 12- تعليم الحكمة لا يكون إلا بإثارة وإشارة.
 - 13- الحكمة علم وعمل.
 - 14- خصائص الحكمة وآثارها ومظاهرها وأسبابها.
 - 15- لا يمكن تعليم الحكمة إلا بطول الصحبة والتدريج.
 - 16- دلالة القرآن على عين الحكمة.
 - 17- إزالة شبهة.. موضع التمثيل في الحكمة.
 - 18- رقي الأمم بالحكمة (الجانب الأخلاقي).
 - 19- الحكمة وعوالي العلوم.
- المبحث السابع: النظام في الديانة الإسلامية من الحكمة! لقد كان من مفردات كتاب "حكمة القرآن" النظام في الديانة الإسلامية؛ وهي فصول مستقلة وإن كانت تابعة لموضوع الحكمة كما تم بيانها في تقديم الكتاب من الدائرة الحميدية؛ وقد استهلكت حوالي (34) صفحة؛ ومحتويات موضوعاتها هي:

1- غاية الحياة ونهاية السعادة.

2- في أركان الديانات.

3- مواقف الديانات.

- 4- نظرة الحكيم في الديانات من ثلاثة مرصد.
 - 5- في بيان نظام هذا الدين.
 - 6- ترتيب العقائد والأحكام في أولية الشكر والصبر.
 - 7- أصل الدين وفروعه.
 - 8- التوفيق بين القرآن الحكيم والصراط المستقيم.
- طبعاته: قام الدكتور عبيد الله الفراهي بإعداد "حكمة القرآن" وضبط حواشيا وأصدرتها الدائرة الحميدية بأعظم كره في الهند في 120 صفحة في 2007م. إنها تحمل مقدمة الناشر الجامع. صدرت طبعته الثانية في 2016م.

ترجماته: حكمت قرآن (الترجمة الأردية): قام المرحوم خالد مسعود الباكستاني¹ (15/ ديسمبر 1935-30/ سبتمبر 2003م) - وهو من تلامذة الشيخ أمين أحسن الإصلاحى الأجلة- بالترجمة الأردوية لكاتب الإمام الفراهي "حكمة القرآن" ونشرها أولاً في مجلة "تدير"² الشهرية الصادرة عن الباكستان ثم نشرها من "إداره تدبر قرآن

¹ هذا هو الشيخ الذي هجر العلوم الجديدة واعتنق علوم القرآن وخدمها خدمة يندر نظيرها لدى العلماء الأفاضل فلو أنّ الشيخ خالد مسعود أتمّ البكالوريوس في العلوم من كلية لاهور الإسلامية ونال شهادة ماجستير في الكيمياء من جامعة بنجاب وعمل في معمل البحث الصناعي وحصل على شهادة الدبلوم في الهندسة الكيمياء من كلية الملك بلندن وترأس التبشير الإسلامي ولكنه قد تغير بخطبة ألقاها الشيخ أمين أحسن الإصلاحى فهجر كافة هذه الفعاليات وتعلّق بالشيخ الإصلاحى فتعلّم عليه وأدار معهد التدبر في القرآن كما أدار مجلته "تدير" وخدم القرآن عن هذه الطريق خدمة يغطي عليها العلماء الأفاضل، وبجانب هذه الجدارة فقد كان خلقه القرآن كما شهد به المعاصرون. من أبرز أعماله "تلخيص تفسير تدبر قرآن" و"حيات رسول أمي" و"تفسير قرآن كي أصول" (ترجمة وتلخيص) و"أسباق النحو" (تدوين وتحقيق)، توفي الشيخ في الواحد من شهر أكتوبر عام 2003م. (راجع المزيد عنه: مجلة "تدير" عددها الخاص عن الشيخ ومجلة "رفيق منزل")

² راجع: أعداد المجلة، 22-30 عام 1987-1989م.

وحديث" (باكستان) في 1995م وبعد ذلك تم نشرها في الحلقات في مجلة "علوم القرآن"¹ نصف السنوية الصادرة عن عليكره وفي الأخير أخذت الدائرة الحميدية صورتها ونشرتها في قشيب جيد في 1996م.

إنّ الأستاذ خالد مسعود قد ألقى الضوء على الحكمة أيضًا.²

كتب الأستاذ الدكتور أبو سفيان الإصلاحي مقالة حول هذه الترجمة الأردوية فذكر خصائص حكمة القرآن وميزات الترجمة الأردوية كما أشار إلى بعض نقائصها فيقول: "ولكن بعد مقارنة هذه الترجمة بالأصل يبدو أنه لم ينجح في نقل فكر المصنف في ترجمته الأردوية كلياً. تم نشر مقالة الدكتور أبي سفيان الإصلاحي حول الترجمة الأردوية للكتاب المذكور في مجلة العلوم الإسلامية.³

الترجمة الإنجليزية: قام الدكتور أورانك زيب الأعظمي بترجمتها إلى الإنجليزية.⁴ نشرها مطبعة آدم بدلي في 2005م.

دراسته: قد قام أبو سفيان الإصلاحي بدراسة الكتاب فكتب مقالة بعنوان "حكمة القرآن- دراسة تعريفية" باللغة الأردوية وهي نشرت في مجله علوم إسلاميه بعلي كره، 1994م. إنّ مقالة الأستاذ الإصلاحي تبرز جوانب الكتاب المهمة كما يلي:

إنّ شخصية الإمام عبد الحميد الفراهي⁵ (1863م-1930م) لا تحتاج إلى أيّ تعريف

¹ راجع: أعداد المجلة، 2/3 و 1/4 و 2/4 و 1/5

² محمد تنقي الأميني، حكمة القرآن، ندوة المصنفين، دلهي، 1986م، ص 110

³ حكمت قرآن- ايك مطالعه، الدكتور أبو سفيان الإصلاحي، مجلة العلوم الإسلامية، جامعة عليكره الإسلامية، 1996م، 2-1/21، ص 67-78

⁴ ذكرت ترجمة الفراهي في طبعته الإنجليزية.

⁵ يمكن الرجوع إلى الكتب الآتية لترجمة الفراهي وخدماته: أ- عبد الرحمن ناصر الإصلاحي (المرتّب)، مختصر حيات حميد (مقالتان عن ترجمة الإمام الفراهي)، مطبعة معارف، أعظم كره، بدون تاريخ، ص 1-64. ب- الدكتور ظفر الإسلام الإصلاحي، كتابات فراهي، إدارة علوم القرآن، علي كره،

في مجال الدراسات القرآنية. فقد ألف الإمام رَحْمَةُ اللَّهِ حوالي خمسين كتاباً في هذا المجال، كثير منها قد رأى النور بينما الأقلّ القليل منها بقي غير مطبوع.¹ ومن بين هذه الكتب المؤلفة عن القرآن كتابه "حكمة القرآن" الذي نقله إلى اللغة الأردوية الكاتب الباكستاني الشهير خالد مسعود، وقام بطباعته إذ كان من المناسب أن يطبع النص العربي² أولاً ثم يقوم بترجمته إلى لغة شاء، لأنه من الصعب للحلّل ناقد أن يقدر قيمة الكتاب الحقيقية بالترجمة.

على كل حال، تبتدئ الترجمة بمقال للمترجم بعنوان "تصور الحكمة عند الإمام الفراهي"، ثم تأتي مقدمة المؤلف. والكتاب منقسم في جزأين: الجزء الأول فيه خمسة أبواب. تحدّث المؤلف في الباب الأول عن مفهوم الحكمة،³ وقدم آراء جميع المفسرين قديماً وحديثاً في معنى الحكمة، فالمراد بالحكمة عند مالك وأبي زرير هو الفقه في الدين، والفهم الذي هو سجية ونور من الله. والحكمة عند مجاهد (642-722هـ) هي فهم القرآن. كما أنّ المراد بالحكمة عند مقاتل (ت 668هـ) هي العلم والعمل به فلا يكون الرجل حكيماً حتى يجمعهما، بينما المراد بها عند ابن زيد كل كلمة وعظمتك ودعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة. ويقول أبو جعفر محمد بن يعقوب: كل

1991م، ص 7-78. ج- محمد عنایت الله السبحاني، علامه حمید الدین فراہی (العلامة حميد الدين الفراهي)، مكتبة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، 1978م ص 6-168. د- عبيد الله الفراهي، علامه حميد الدين فراہی- حیات وأفکار (مقالات الندوة المتعقدة عن الفراهي في رحاب مدرسة الإصلاح)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، 1992م، ص 5-591

¹ علامه حميد الدين فراہی- حیات وأفکار، ص 57-96

² وصدر الأصل من الدائرة الحميدية ولكن هذه المقالة تقوم على الترجمة إلا أن الكاتب حاول أن يقوم بالمقارنة بينها وبين الأصل العربي.

³ ألف الشيخ محمد تقی الأميني كتاباً اسمه "حكمت قرآن" (حكمة القرآن) استفاد فيه من كتاب الفراهي "حكمة القرآن" ولم يتم طبعه حينذاك، فسافر للاستفادة من مسودته إلى أعظم جره، وتوجه إلى منزل الشيخ بدر الدين الإصلاحي حيث وضعت المخطوطات في صندوق مغلق.

صواب من القول ورث فعلاً صحيحاً فهو حكمة. ويقول يحيى بن معاذ: الحكمة جند من جنود الله الذي يرسله إلى قلوب العارفين حتى يروح عنها وهج الدنيا. وقال الفراهي: إن هذه الأقوال كلها تلمع إلى حقيقة واحدة. بينما الحكمة أطلقها كتاب الله- جلّ وعلا- على جميع تلك الجوانب، ويمكن الوصول إلى معناها بالقرائن في كل مكان، والمعنى الحقيقي للحكمة هي البصيرة والتوفيق، بينما الأمور الأخرى من آثارها ومظاهرها.

ذكر الإمام الفراهي ميزات مختلفة للحكمة كما يلي:

* الميزة الأولى أنّ الحكمة سواء كانت من الوعظ أو صائب القول لا بد أن تكون واضحة لا تحتاج إلى دليل.

* الميزة الثانية أنّ الحكمة إذا خالطت القلب رفعتة.

* الميزة الثالثة أنّ الحكمة ليست هي جملة من العلوم المكتسبة، إنما هي نور إذا صادفت شيئاً نورته وبيّنت جانب الخير والشر والحسن والقبح فهي حالة سجيّة.

* الميزة الرابعة أنّ الحكمة هي روح وقوة، فليست كالعلوم ما يخذلها العمل. فهي العلم والعمل معاً كالشمس وضوئها والنار وحرارتها.

* الميزة الخامسة أنّ الحكمة تجري في الأمور التي هي وسيلة السعادة وتركبة النفس.

* الميزة السادسة أنّ أصول الأعمال الصالحة كالسماحة والعدل والعفاف وأمثالها لكثرة جريان الحكمة فيها تحصل للحكيم في صورة القضايا الواضحة. فيحكم بالحكمة وبهذه الأصول في جزئيات الأحكام عند المسألة والحاجة إلى القول فيها. وهذه الأصول تسمى حكمة. ولذلك سمي الإنجيل حكمة كما جاء في القرآن الكريم: "ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ"¹.

¹ سورة الإسراء: 39

* الميزة السابعة والأخيرة أنّ الحكمة في القلب ليست أمراً طويلاً عريضاً، دقيقاً عميقاً، بل هي شيء يسير وصاحبها يتعجب ممن لم يرزقها. وأبين ذلك ببعض الأمثلة. أحداً يصلي ويجري على لسانه كلمات من الذكر ولا يجد في نفسه نخشعاً وتذكراً، فصاحب الحكمة يتعجب من ذلك...، وربما يكون هو خطيباً وواعظاً ومذكراً فيقول بلسانه ما لا أثر له في قلبه. فهذه البصيرة ليست بشيء بعيد يحتاج إلى تعمق وإعمال الأفكار والعلوم.

ثم مع ذلك هي مضمون بها إلا على خلص عباده الذين وصفهم الله في غير ما آية. ولذلك قال الله - تعالى - في القرآن الكريم: "يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا"¹.

وكذلك يرى الإمام أنّ الحكمة لها أسماء ويقول: كما أنّ الحكمة أصل واحد ولها وجوه وفروع يطلق عليها اسم الحكمة، فكذلك للحكمة من قبل هذه الوجوه أسماء أخرى. فمن عرف الحكمة لم يلتبس عليه هذه الأسماء حيث أريد بها الحكمة. فمنها الإيمان، والعلم، والحق، والسكينة، والروح، والهدى، والبصيرة، والنور، والأمانة، واللب، والحظ العظيم، والخير الكثير.

الإيمان هو أصل الحكمة: كما أنّ الحكمة اسم جامع للعلم والعمل بهما، فكذلك الإيمان اسم لجميع تلك. وإنما قلنا إنّ الحكمة أصلها وأساسها الإيمان بالربوبية، فإن المؤمن يخرج به من رق النفس إلى عبودية الرب تعالى، فتزول عنه ظلمتها، ويغشاها نور محبة الرب تعالى، فيطلب سبل مرضاته وتحصل له التقوى. وإذن يسلك شرائع الخيرات وينظر إلى المخلوق نظر الأخ إلى الأخ نظر الرحمة والرأفة وهنا معنى الإسلام، فحبّ الرب تعالى يحصل له الطاعة والسلم ويزول الإفساد وقطع الرحم. قال الله - تعالى -: "اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ

¹ سورة البقرة: 269

الْظُلُمَتِ إِلَى الثَّوْرِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ الثَّوْرِ إِلَى الظُّلُمَتِ¹. فالإيمان هو أصل الحكمة.

ثم قام الإمام الفراهي باستعراض معنى الحكمة عند الإمام الشافعي، والمراد بالحكمة عند الشافعي هي سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبناء على هذا جعل علماء أهل الحديث يقولون إنّ الحكمة هي سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقولون إنّ الله فرض على عباده وحيه وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قال الله: "رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" ².
وأنهم ذكروا آيات عديدة تتعلق بهذا المعنى لتقوية دعواهم. وقد أراد الإمام الشافعي بالحكمة السنة لأنه قد وجد الناس في عصره يفسرون القرآن الكريم في ضوء العلوم العقلية ويظنون أنها الحكمة، ولذلك قال الإمام الشافعي أنّ فهم القرآن في الحقيقة يحصل من سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهذه السنن هي مأخذ من مأخذ الكتاب الأصلية. والحقيقة أنّ تعليم الحكمة إحسان عظيم علينا،³ ولذلك ذكر الفراهي رأي الإمام الشافعي في الحكمة مفصلاً.⁴ وتكلم الإمام في الباب الثاني لهذا الكتاب عن أصل الحكمة وفروعها، وقال: إنّ الله غني عن كل شيء وحيد من حيث جميع أعماله، ولذلك يجب على الخلق أن يحمده ويثني عليه ويشكره على نعمه لأنه أعطانا نعمه مما لا

¹ سورة البقرة: 257

² سورة البقرة: 129

³ انظر: للتفصيل: حكمة القرآن للفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، الطبعة الثانية، 2016م، ص 29-39

⁴ انظر: لتفصيل أفكار الشافعي المتعلقة بالحكمة: "فذكر الله الكتاب، وهو القرآن، وذكر الحكمة، فسمعت من أَرْضَى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله". وقال أيضاً: لأن القرآن ذكر وأتبعته الحكمة، وذكر الله منه على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة، فلم يجز- والله أعلم- أن يقال الحكمة هاهنا إلا سنة رسول الله. الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس المظلي القرشي المكي، الرسالة، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبة الحلبي، مصر، الطبعة الأولى، 1940م، ص 73.

تعدّ ولا تحصى، فالشكر على النعمة يزيد النعم كما قال الله: "لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ"¹. وإن لم يستخدم العبد نعم الله بطريقة صحيحة وأصرّ على كفران نعمة الله تعالى وأنكرها دائماً فإنهم يعذبون عذاباً أليماً. قال الله تعالى: "وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ"². وذكر في هذا الباب أيضاً أن الحكمة من أعظم النعم، ولا تكون رغبة في الشكر وإرادته إلا بمعرفة قيمة النعم وقدرها، ولذلك ذكر القرآن الكريم الحكمة كنعمة عظيمة. كما قال الله: "يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا"³. وقال أيضاً: في هذا السياق أنّ الحكمة تعطى أولئك الذين يشكرون نعمة الله ويستعملون نعم الله بطريقة صحيحة ويصبحون مستحقين لها. قال الله تعالى: "وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى"⁴.

وأما الذين يتركون هذا السبيل فإنهم يواجهون الدمار كما ذكر في القرآن الكريم عن قوم ثمود أنهم استحبوا العمى على الهدى، ولذلك واجهوا الذلة والمسكنة. وذكر الله الحق والباطل، والخير والشر وفي ذلك تكمن حكمة أيضاً، وهي أن الإنسان يعرف كليهما بسهولة، وإذا نظرنا في الشر بإمعان فنجد فيه جانباً من الخير، يقول الله: "قَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا"⁵، وفي ضوء هذه الآية الكريمة يقول الإمام الفراهي: إنّ هذه الآية تدل على أنّ الليل لم يخلق للظلمة، بل خلق لمصلحة، لأنّ الله رب الخلق، ولذلك هو يقوم بنشأته ونموه. وأما الظلمة فيمهلها للخير الذي وضعه فيها، وإذا تعجل في محوه، وإزالته فتمحو المصالح التي تخرج منها، فكذلك يحو الجانب الذي يقوم الله بنشأته ونموه،

¹ سورة إبراهيم: 7

² سورة إبراهيم: 7

³ سورة البقرة: 269

⁴ سورة محمد: 17

⁵ سورة الأنعام: 96

ويظهره. يقول الله في القرآن الكريم: "يُخْرِجُ الْحَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ"¹.

يقول الإمام الفراهي: إنّ الله قد عيّّن طول حياة الخلائق ليكشف عن خيرها الخفي، وذلك في الحقيقة لتربية النفوس الإنسانية، ويرى العلامة أنّ النفس كالزهرة التي تنبت على هذه الأشجار، والجواهر التي توجد في هذه الأشجار، فالحكمة هي ثروتهم وهم خلقوا للحصول على هذه الثروة. كما أشير في هذا الباب إلى أنّ الحكمة هي تكميل الرحمة، فالحكمة تجمع جميع الأمور، وبها تقوم الأرض والسماء. فهي البداية والوسط والنهاية، وهي تبعد الناس عن الفواحش وتلوّث النفس، وتقربها من التزكية، ولذلك أرسل الله رسولا لتعليمها.²

أما الباب الثالث فعنوانها تعليم الحكمة والحصول عليها، ويقول الإمام في هذا السياق: أنّ الحكمة في القرآن الكريم ودلّ على عظيم منزلتها، وأنها من أكبر نعمه. وقال مشيراً إلى جانب مهم وهو أن الله وصف نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بأربع صفات في أربعة مواضع، فمنها تعليم الحكمة آخر تعليمه.

* الموضع الأول: ما جاء في دعاء إبراهيم عليه السلام في سورة البقرة حيث قال: "رَبَّنَا وَأَنْبِئْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"³.

* الموضع الثاني: ما ذكر في إنجاز ذلك الدعاء في سورة البقرة أيضاً حيث قال: "كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ"⁴.

* الموضع الثالث: تم ذكره في سورة آل عمران حيث امتن به على المؤمنين فقال: "لَقَدْ

¹ سورة النمل: 25

² انظر للتفصيل: حكمة القرآن للفراهي، ص 46-55

³ سورة البقرة: 129

⁴ سورة البقرة: 151

مَنْ أَلَّهَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ
وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٦﴾¹

* الموضع الرابع في سورة الجمعة حيث حذرهم أن لا يعرفوا قدر هذا الفضل العظيم من ربهم فقال: "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٦﴾ وَعَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٦٧﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٦٨﴾"²

يقول الإمام: إن الصفات الأربع التي ذكرت في السور الثلاث لها غرض خاص سنذكره في فصل مستقل، وأما تلاوة الآيات فشغفت بها الأمة بجهود الرسول صلى الله عليه وسلم وأنه صلى الله عليه وسلم لعب دوراً هاماً في تزكية النفوس لا يوجد له مثل لدى الأنبياء الآخرين، ثم داوم الصحابة- رضوان الله عليهم أجمعين- على هذه السلسلة بعده، ولا يزال يدعون الناس باستمرار إلى التدبر والتفكير في القرآن الكريم، لأنه منبع الحكمة.

ثم ذكر ما يتعلق بأنواع الحكماء فقال: إن بعض الحكماء يتمتع بالفهم والإدراك وهو يعلم الناس التجنب عن الفواحش، والتقرب من التزكية، بينما بعض الحكماء لا يعرفون أصل الحكمة، وبعضهم لا يستطيعون أن يقدموا كلامهم بنسق كامل. وأما ما يتعلق بحصول الحكمة فيرى العلامة أن هذا الشيء لا يمكن لأحد أن يطلبه إلا من الله، لأنه نور من الله- جل شأنه- الذي لا يعطيه إلا الله. وليتذكر الإنسان أن ذلك لا يتحقق إلا بالصلاة في جوف الليل، وقراءة القرآن بالترتيل والتدبر فيه، والتراحم والمناصحة فيما بينهم.

وقمت المحاولة لتقديم هذه النكتة أمام العالم بأن الحكمة لا ينالها إلا أهل الفكر والبصيرة، ولذلك ورد في القرآن الكريم: "وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٣٦﴾"³ أي أن

¹ سورة آل عمران: 164

² سورة الجمعة: 2-4

³ سورة البقرة: 269

النصيحة لا يمكن حصولها إلا لأولي الألباب. ويقول الإمام: إن العلماء من الصحابة- رضوان الله عليهم أجمعين- تعلموا الحكمة في عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- كما تعلموا القرآن الكريم. ولكن حيثما بعد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم عن الأمة ابتعدت عنهم الحكمة. وانقسمت الأمة بعد الصحابة في ثلاثة أقسام. الأول: هم الذين اشتغلوا بالقرآن فكراً وتلاوة وتعليماً ولم يكن عندهم شيء يصرفهم عن ذلك. وهؤلاء كانوا أكثر العلماء نصيباً من الحكمة مع تفاوت فيما بينهم، وكانوا أفهم لمعنى الحكمة. والثاني: هم الذين اشتغلوا برواية السنة والحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فاشتغلوا بما يحدث عنه وعن أصحابه جمعاً ونقداً حتى سدوا كل باب يدخل منها البدعة والتحريف في الإسلام كما وقع في سائر الملل. ومع عظيم منزلتهم في الدين والتقوى، وهو باب من أبواب الحكمة، قل التفاتهم إلى باقي أبواب الحكمة. وهؤلاء التبس عليهم مفهوم الحكمة، فإنهم ظنوا أنها هي علم الحديث. والثالث: هم الذين اشتغلوا بعقليات اليونان وظنوا أنها هي الحكمة التي أشار إليها القرآن، كما صرح به أهلها، فصرفوا عن الحكمة الإلهية.

وفي الباب الرابع ناقش العلامة موضوع نظام القرآن الكريم والحكمة، وأراد أن ينبه على وجه خاص من الدلالة وهو أن نظم القرآن مبني على الحكمة بمعنى أن النظم¹ لا يهتدي إليه إلا من باب الحكمة. فن حرم هذا النظر لا يهتدي إلى نظمه. وكون القرآن المجيد علياً يستلزم كونه حكيماً من جهة اتصافه بالحكمة. وكما أن الحكمة تستلزم السعة والإحاطة بأمور شتى....، والحكمة تستلزم أن يكون هذا الكتاب منظماً مرتبطاً. ولذلك

¹ للإمام الفراهي كتاب مهم في نظم القرآن تكلم فيه بالأدلة عن أن القرآن كتاب منظم، وتوجد هذه المباحث لنظم القرآن عند المتقدمين أيضاً، ولكن ليس بطريقة محكمة، انظر: المعلم عبد الحميد الفراهي، دلائل النظام، الدائرة الحميدية، الطبعة الأولى، 1388هـ، ص 9-64، وكتب تفسير عدة سور مراعاة لنظرية "نظم القرآن" في مجموعاته التفسيرية، انظر: الشيخ حميد الدين الفراهي، تفسير نظام القرآن، (النسخة المترجمة للشيخ أمين أحسن الإصلاحي) الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، 1990م، ص 29-536

وصف الله - جلّ شأنه - كتابه بالعزیز الحکیم كما قال تعالى: "وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ" ^(١) لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ" ^(٢) ثم تكلم عن مستنبط الحكمة هو النظم ثم تكلم عن طرق معرفة الحكمة، فيقول: فاعلم أن الحكمة قد بينها القرآن بجميع طرق التعريف ولكن الناس أخطأوا في معرفتها. فعلم أن القرآن استعمل هذه الكلمة في مواضع كثيرة ومنها ما صرح فيه بأن ذلك من الحكمة، وقد صرح أهل اللسان بمعناها. ثم ذكر الأصول التي أودعها الله فطرة الإنسان، وهذا المنبع موجود في نفس الإنسان وعبر الإمام عنه قائلًا: "ولكن دأبه أن يرجع إلى نفسه ويتفكر في فطرتها وعجائبها، فإنها هي المرصد الذي يرى منه ما حلها وما فوقها وما تحتها، ولذلك جعل الأولون معرفة النفس أكبر المعارف وأساسها. وما أجهل وأغفل من يغفل عن أحوال نفسه ويشغل بما يبعد عنه ولا بد أنه يذهب عنه وضره ونفعه". ^(٣)

وفي خاتمة هذا الباب قال الإمام: إن الحكمة التي حثّ عليها القرآن الكريم بقيت مستورة وهي بين أيديكم. إذ جعلوا اسمها لغيرها قنعوا عنها بغيرها ظانين بأنها هي، لأن الله أعطاهم هذه الحكمة كإرث، ولذلك أنهم أغنياء عنها، ولم يفكروا في أصل الحكمة، ولذلك قيل في الحديث: "الحكمة ضالة المؤمن" ^(٤).

وتكلم الإمام الفراهي في الباب الخامس عن "نظرة الحکیم كيف تكون". ويقول: الحکیم يرى أن العالم يتضمن إتنافاً وإحكاماً في مجازي أحواله، خلق لغاية، فلا بد

¹ سورة فصلت: 41-42

² حكمة القرآن للفراهي، ص 53-54

³ أخرجه الترمذي وغيره عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها، برقم (2687) أبو عيسى الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 51/5، وقال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، هذا الحديث ضعيف جداً، ينظر: الألباني، محمد ناصر الدين، ضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1988م

⁴ انظر: للتفصيل، حكمة القرآن للفراهي، ص 55

من خالق يجري الأمور لغايتها. ويجب امتثاله على جميع خلقه. وأما القرآن الكريم فبين الحكمة بالأمثال. وكان المسيح عَلَيْهِ السَّلَام يعلمهم بالأمثال لكي يتأملوا، ويقول أفلاطون: من لا يقدر على ضرب الأمثال لا يكون حكيماً.¹ وحتى جاء في القرآن الكريم عن الأمثال: "وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ".²

ويرى الإمام أنّ الحكمة جامعة العلم والعمل، وحياة القلب، وكما أنّ الأرض الطيبة تنبت البذر، فكذلك القلب الحيّ ينبت فيه بذر العلم. فإذا صار العلم حياً نامياً فلا بد أن يكون القلب طيباً.³ ولذلك قال الهادي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع".⁴

ثم بين الإمام أنّ الحكمة تؤخذ من ههنا وههنا وتأتي بالتدرّج، ولذلك نزل الله القرآن الكريم تدرّجياً، كما قال تعالى: "كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً" ⁵ وفي الختام أكد على أنّ الحكمة لا تهتدي إليها إلا بمعرفة القرآن بما أودع الله في نظمته البديع من المعارف.⁶ وبعد ختام الجزء الأول يبتدئ الجزء الثاني. ويبين في بداية الجزء الثاني بأنّ الكون ليس فيه إلا نظام واحد وحينما يتم تحليله يتجلى أنّ خالق هذا الكون هو الله الواحد لا غير ونظام الكون نفسه يدل على الوحدانية أيضاً، والحكيم يعتبر جهات النفع والخير.

¹ المرجع السابق، ص 64

² سورة العنكبوت: 43

³ حكمة القرآن للفراهي، ص 66

⁴ من حديث زيد بن أرقم مرفوعاً عند مسلم . وتمام الحديث... ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب له". ينظر: الإمام مسلم النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسين، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت بدون تاريخ، 2088/4، برقم (2722).

⁵ سورة الفرقان: 32

⁶ انظر للتفصيل: حكمة القرآن للفراهي، ص 68-70

وهذا الكون يعكس على أنّ خالقه هو المالك الكامل. وجميع الأشياء في الكون تحت سيطرته. والله هو الأول والآخر ويرجع إليه كافة الناس، يقول الله "وَالِلّٰهِ الْمَصِيرُ".¹ ثم ذكر أنّ الديانة حكمة قيمة مستقيمة، ومن عرف حكمها وتدين بحسبها كان على نور وبصيرة. فإنّ العبادة لا تتصور من دون ذلك العلم. ومن المعلوم أنّ الحكمة تخلق البصيرة في الإنسان التي لا يرى بها عرقلة في سبيل أمور دين الله، يقول الله تعالى في كتابه الكريم: "مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِن تَفٰوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُوْرٍ".² ويقول الفراهي: قد صرح القرآن بأنّ الدين هو الإسلام وبأنه الفطرة، كما صرح بأنّ القرآن هو الهدى وأنه يهدي إلى صراط الرب والدين القيم. فصرح بالتوفيق الذي بين القرآن والإنسان، وبين الخلق والأمر عمومًا فقال: "أَعْطٰى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدٰى"³ وقال في موضع آخر: "أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ".⁴

ونظرًا إلى نظام الكون يجب على الإخوة أن يمتثلوا بأمر الله، وإن يفعلوا خلاف ذلك يقعوا في الضلالة، ويكونوا من المعتدين على الفطرة. إنّ الله يبتلي عباده بالضراء والسراء، فيجب على الإنسان أن لا يعرض عن هدف الحياة، ويبلغ ما أودعه الله من القدرات إلى الغاية. ويكون ثابتًا على كل قضاء من الله تعالى، وعلى الرغم من هوى نفسه أن يحاول التمسك بجبل الله، لأنّ دين الإسلام جعل التزكية الغرض الأساسي للإنسانية. ويقول الله تعالى: "يَتْلُوْا عَلَيْهِمْ ءَاٰتِيَهٗ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوْا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلٰلٍ مُّبِيْنٍ".⁵

¹ سورة آل عمران: 28

² سورة الملك: 3

³ سورة طه: 50

⁴ سورة السجدة: 7

⁵ سورة آل عمران: 164

وقد مضى أن يوجد التوفيق بين الخلق والأمر. فإذا بلغ طالب الحكمة حيث اطلع على وجه الحق في الخلق والأمر ووجهتهما إلى شمس وجد ضالته، ولكن الفلاسفة غير قادرين على حصولها مع جميع علومهم.¹ وقد أخطأ أرسطو حيث جعل الحكمة الإحاطة بالعلوم كلها. ولكن كل ذلك مفروض وليس في شيء من الحكمة. وقد تفتن لذلك فجعل ما بعد الطبيعة هي الحكمة العليا، ولكن لم يخرج عن شرك توهمه الأول فجعل الأمور العامة هي الموضوع للحكمة فبقي في حجاب. ثم توجه الآخرون إلى العلم والعالم ولكن تلاعبت بهم الأوهام فلم يعرجوا إلى عين العلم.² قال تعالى: "وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ".³

وفي ختام هذا الباب تحدث الإمام الفراهي عن "موضع الاختيار" وذكر بأن الله قد أعطى الإنسان هذا الاختيار بعد تمام النعمة بأن يختار لنفسه ما يشاء من طرق الخير والشر. وأما الباب السابع فذكر فيه أن مفهوم الدين هو العبادة والطاعة للرب. وأن العبادة إذا صحت تضمنت أموراً أربعة:

(الف) أولها الإخلاص، والمعرفة روح العبادة، والسير على مرضاة الرب، والإمام بأجزاء الدين يعني الإمام بجميع جوانب الحياة الدينية، لا يمكن للناس أن يعيشوا متوسطين بدون هذه الأشياء. وباختيار هذه الأشياء يكون الحكيم رجلاً مؤمناً. وبالعكس لا يرى الاعتدال في الديانات الأخرى. ويرى الإمام الفراهي أن الهندوسية، والبوذية، والمجوسية، واليهودية، والنصرانية ومثل هذه المذاهب قد تسرب إليها الغلو والبدع بطريق اتباع هوى النفس. والحكيم ينظر إلى المذهب من ثلاثة جوانب: 1- وجود المذهب ونظامه، 2- وعلاقته مع المذاهب الأخرى، 3- وعلاقته مع الحقائق الثابتة. وفي

¹ حكمة القرآن للفراهي، ص 94

² المرجع السابق، ص 95

³ سورة النور: 40

مثل هذه الحقائق تأتي الفطرة الإنسانية بجميع مفاهيمها. وذكر بعد ذلك بأنّ الحكيم يعرف بكل معانيها الأشياء المحرفة في المذاهب.

وفي الباب الثامن قد عبّر عن رأيه حول موضوع أسس دين الإسلام فألقى الضوء أولاً على معرفة الله وقال: يجب على الناس أن يؤمنوا بثلاث صفات الله وهي كمال الرحمة، والقدرة، والحكمة. وهذه الثلاث تجمع باقي صفات الجلال والكمال. وبعد الإيمان بالله يفرح القلب ويشعر بالسرور والانبساط، قال تعالى: "وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ"¹.

وبعد ذلك تكلم عن ثمرات الإيمان وذكر بأنّ أول الأمر هو العدل، وهو نقطة امتزاج العقل والخلق، حسن الخلق يطمح إلى الإحسان، ومنه أداء الحق الذي على النفس وهو الشكر. فالشكر داخل في العدل. ووجوب الشكر هو من العدل، كيف تأخذ مجاًناً ولا تعطي ما عليك من الحق.² قال تعالى: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"³ وفي هذا الباب ألقى الضوء على حقيقة الشكر وقال: إنّ العدل من حيث ذاته صفة لازمة، وكذلك الشكر صفة لازمة، والشكر من حيث الأصل اسم الجزاء المساوي للإحسان، إنّ الله قد منّ على الإنسان من حيث لا تعدّ ولا تحصى، وهذا يقتضي أن يحبه خالصاً وكاملاً، وجزاء الإحسان بالإحسان هو من العدل، وكذلك ألقى الضوء على العدل وذكر أهميته وقال: فإذا تحقق الشكر انتبه وصرف التوجه والنظر في ملكوت الله تعالى، فيؤمن بأنّ له رباً واحداً متصفاً بنعوت الجلال والجمال على وجه الكمال.

وفي خاتمة هذا الباب قال: قد صرح القرآن والسنة، وتبين للعقل أنّ العمل وإن كان مفيداً أو مضراً بنفسه لغير العامل ولكنه لا يفيد العامل إلا حسب نيته. وحسن النية

¹ سورة التباين: 11

² حكمة القرآن للفراهي، ص 100-101

³ سورة النحل: 90

يسمى الإخلاص والإسلام. فالخلاص الموحد يبتغي وجه ربه ويخشى سخطه فيتقي ويطلب سبيله ويفكر في تقصيرات أعماله، فإذا تم ذلك هداه الله بإلهام أو قيض له من يهديه إلى تصحيح العمل، كما قال تعالى: "وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا".¹

لا شك في أنّ مجهودات الشيخ خالد مسعود هدية ثمينة للأوساط العلمية عامة ولطلبة القرآن الكريم خاصة. ولكنه إن قام بمجهوداته هذه لتخريج أصل الكتاب إلى عالم الوجود اعتبرت من التحف الثمينة، وبسبب عدم وجود النص العربي لم أتمكن من أن أقوم برأيي محكم في هذه الترجمة، ولكن شعرت من خلال الترجمة بفقد السلاسة. وكذلك قد وفر المترجم المصادر والمراجع والهوامش فن الممكن أنّ الإمام الفراهي قد ذكر المصادر، وعلى الرغم من ذلك أنه يوجد في هذا الكتاب كثير من الأمور التي كانت في حاجة إلى التوثيق بالمصادر والمراجع. ومن هذا الجانب أنّ هذا الكتاب نافع لفهم أفكار الإمام الفراهي للقرآن الكريم. ويدلّ حقاً على أنّ الفراهي كان من الرجال الذين أسسوا أفكارهم لفهم القرآن الكريم في القرن العشرين، ولذلك أنّ فكرة الفراهي لم تقبل في شبه القارة الهندية فقط، بل قد شاع ذكرها وعمّ نفعها في العالم العربي أيضاً.

خلاصة القول: جُمِعَتْ هذه المباحث التي كتبها المؤلف عن الحكمة القرآنية، في شكل كتاب، فيما خصّ صاحبه شرح كلمة الحكمة معنى ومفهوماً، حتى أصبح هذا المؤلف خزانة عمل ومعرفة من بعض الجوانب من المعاني القرآنية، وذلك نتيجة لإخلاصه وتفانيه في تعليم وتعلم علوم القرآن والتدبر فيه، بينما لم يقدم صاحب الكتاب هذه المباحث في شكل مؤلف لذا نجد في الكتاب تكرار بعض العناوين. ولو كتب صاحب الكتاب هذه المباحث بنية تأليف الكتاب لكان أفضل وأفرد كتاب في فنه ومجاله.

ونستفيد من هذا المؤلف علماً وفكراً فيما يخص فهم القرآن الكريم، فيجب على كل من يريد التدبر في القرآن الكريم والاستفادة منه، أن يطالع هذا الكتاب القيم، لأنّ ذلك

¹ سورة العنكبوت: 69

كُتِبَ أصول القرآن وتفسير كلمته، وذلك إن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على شغف صاحب الكتاب وتضلعه وتجهره في علوم القرآن. والله ولي التوفيق.

خَرْدَ نَامِه (بالفارسية)

هذه رسالة منظومة ومترجمة من العبرانية إلى الفارسية وهي في الأصل ترجمة لنصائح سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ التي في أسفار اليهودية باسم "أمثال سليمان" باللغة الفارسية الدرية أي اللغة الفارسية القديمة.

بدأ الأستاذ الفراهي هذه الترجمة خلال إقامته بإله آباد (1908-1913م) وأتمها خلال قيامه في حيدرآباد (1914-1919م) ونشرها من حيدرآباد سنة 1916م. ويتضح من الدراسة التي نشرت عليه في مجلة "معارف" في شهر أكتوبر 1916م بأن هذه الرسالة قد نشرت قبل 1916م.

ومن ميزات كتابه "خرد نامه" أنها في اللغة الفارسية الأصلية وليست فيها أية كلمة عربية، وعلى الرغم منه لا يقع الخلل في رشاقة اللغة وسلاستها وسهولتها وأناقتها.

كتاب "أساليب القرآن" للأستاذ الفراهي

- أ. د. أبو سفيان الإصلاحي¹

كان الأستاذ عبد الحميد الفراهي من كبار علماء الهند وأفاضل علماء الإسلام. إنه آلف كتباً قيّمة عن مختلف مباحث القرآن الكريم وكانت له تضلّع في حكم القرآن الكريم وأسراره، إنه بذل معظم أوقات حياته في سبيل البحث والتحقيق في العلوم القرآنية وكتبه "دلائل النظام" خير دليل على قولي. فقد أثبت فيه أنّ القرآن الكريم كلام منظم ومرتبّ من أوله إلى آخره فأياته وسوره منظمّة في سلك واحد، وإن أخرجت آية من آياته من مقامها فيفسد نظام القرآن وتبطل محاسنه وتفقد فصاحته وبلاغته. ولكن هذا ليس بموضع مناسب للحديث عنه. وقد بلغنا أنّ الدكتور عامر الجراح من تركيا قام بتحقيقه. فنكتفي بهذه الإشارة ونؤخّر الكلام لمناسبة أخرى إن شاء الله تعالى. وفي هذه المقالة سنركّز حديثنا على كتابه القيم "أساليب القرآن" الذي من أجود ما صنّعه يده.

هذا الكتاب من كتب الأستاذ الفراهي التي لم يوفق لإتمامه فبقيت من بين مخطوطاته غير التامة وبعث الله سبحانه الأستاذ بدر الدين الإصلاحي أن يحياه فينشره من الدائرة الحميدية. ولا شك في أنّ هذه المجموعة اشتملت على أفكاره الأدبية التي كانت مفيدة جداً لطلبة القرآن الكريم.²

والأستاذ قد كتب على عديد من الموضوعات القرآنية ويقدم نتائج تدبره في ضوء

¹ أستاذ اللغة العربية وآدابها، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره، الهند

² كلمة الجامع على أساليب القرآن لعبد الحميد الفراهي، (رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، المجموعة الأولى، للإمام عبد الحميد الفراهي (1280-1349م)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، الطبعة الثانية، 1991م، ص: 145

نظام القرآن ويتقن أنّ النظام ضروري لفهم القرآن الكريم، ويظن أنّ الاطلاع على أساليب القرآن الكريم لازم لكل طالب وأنّ الأساليب قد احتلت مكانة عظيمة في جميع لغات العالم وآدابها لأنّ الوصول إلى المعاني ومقاصد العبارة لا يمكن إلا بالأساليب ولا جرم في أنّ القرآن الكريم من أعظم كتب العالم ولا يضاهيه كتاب من حيث اللغة والبيان والنظام، وأنّ الأساليب القرآنية له وجوه مختلفة منها الرضى والسخن والفرح والألم والخطاب والالتفات والحذف والعود على البدء والتفصيل بعد الإجمال والاعتراض والاستفهام والنفي والتكرار والترديد والإيهام ثم الإيضاح وغيرها، سلّط الأستاذ الفراهي الضوء في هذا الكتاب على 32 موضوعاً وقدم الأستاذ بدر الدين الإصلاحي في هوامش الكتاب أمثلة كثيرة من مصنفات أخرى للأستاذ الفراهي ليشرح مطالب الموضوعات شرحاً كاملاً.

قال الأستاذ في بداية الكتاب مشيراً إلى آية من القرآن الكريم "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ" (4/14):

"واللسان ليس الألفاظ المحض بل هو يشمل أساليب كلامهم وفهم إشاراتهم وأفردنا لكل هذه الأمور كتاباً على حدة، لكي يسهل التأمل ويجتمع الفكر لأمر واحد والمقصود من كل فهم القرآن حسب مراده والله هو الموفق".¹

والأستاذ استخدم مصادر أخرى في ترتيب هذا الكتاب لتقديم أساليب القرآن وقال إنه ليس مختصاً بالقرآن بل يلقي الضوء أيضاً على أساليب كلام العرب غير ما اختص بالقرآن لكونه منزلاً على رسول وقال الأستاذ أيضاً إنه ليس صحيحاً أن تجعل أساليب كلام العرب جزءاً من فن البلاغة:

"المقصود من هذا الكتاب إحاطة العلم حتى الوسع بدلالات الصور والأساليب

¹ أساليب القرآن، ص: 3-5

ومواقع استعمالها، فإن محض العلم بأسلوب خاص من دون تخصيص مواقعه يفتح باباً عظيماً لسوء التأويل¹.

وقال: إنها ليست له حاجة للسند فإن القرآن نفسه أوثق ما يستند به على أساليب كلام العرب².

الأسلوب له نوعان: أحدهما كلام العرب الذي شارك القرآن فيه والثاني مختص بالقرآن، القرآن أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم وللناس. صحة الفطرة لازمة لفهم القرآن، وهذا سبب حقيقي أن المؤمنين يسعون إليه والكافرون يعرضون عنه، الاطلاع على هذه الأشياء ضروري وهي معرفة تدبيره في الخطاب ودعوة الناس، ولا يستطيع أحد أن يصل إليها إلا بالعقل الصريح ونظم القرآن، وقال الأستاذ في الكلمة لها معنى حقيقي وضعت له ومعنى مجازي ربما يكثر وعرض مثلاً له من القرآن³.

ونود أن نفصل بعضاً من أساليبه على سبيل المثال لا الحصر.

القران والوصل: قال الأستاذ فيه "اعلم أن القرآن أعم من العطف ونذكر العطف في فصل مستقل فالقران مجيء كلمتين أو قولين متصلين، سواء كان بالعطف أو بغير العطف وفيه دلائل على معان. قال الأستاذ: إن القرآن له ثلاثة أقسام:

الأول: اشتراك القرينين في معنى كلي، كما قال تعالى: "الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَاللَّجُمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝" (6-5/55) ظهر هذا الكلام من الجملتين أن كليهما مسخرة ومعبرة تحت حاكم وهو الله تعالى.

والثاني: كون أحد القرينين للآخر توضيحاً وتأكيذاً، كقوله تعالى: "عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ" أو

¹ نفس المصدر، ص: 155

² نفس المصدر، ص: 156

³ نفس المصدر، ص: 10-11

"الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ".

والثالث: كشف أمرين متقابلين كقوله تعالى: "الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ" و"الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" و"الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" و"الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ".

وفي قران الصفات المختلفة بصفة خاصة كالغفار والرحيم والحكيم والعليم بالعزیز، يتبين لنا أنّ هذه الصفات المختلفة بحث أمر كلي وتشير إلى وحدانية الله تعالى.

والخطاب والالتفات: ذكر الأستاذ في هذا الفصل أصولاً لتعيين المخاطب والمخاطب وقال: إنّ المفسرين قد اختلفوا فيه اختلافاً كثيراً إذا جاء الخطاب إلى واحد وليست هناك قرينة ظاهرة تبادر إلى عامة المفسرين أنّ المراد به النبي عليه السلام وهذا يوردهم على خطأ عظيم وحقيقة الأمر أنّ الخطاب:

1. ربما يوجه إلى النبي من حيث كونه إمامهم ولسانهم وإنما المراد به الناس إما عامتهم أو طائفة منهم فالخطاب في الحقيقة إلى الناس. قدّم الأستاذ عدة أمثلة فأكتفي هنا بمثال واحد، قال الله تعالى في سورة الأنعام: "وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَنْسُتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾". (67-66/6) فههنا المخاطب الواحد هو النبي، ثم بعد ذلك جاء بالمخاطب الواحد والمراد منه الأمة.

2. ربما يتوجه إلى الناس مستقلاً، قال الله تعالى: "وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾". (24-23/7) وفي هذا السياق آيات فيها جمع بين الخطابين، فمرة بصيغة الواحد وأخرى بصيغة الجمع والمراد منهما العموم.

والالتفات نوع من الخطاب: قال الأستاذ: إنّ الله تعالى يخاطب أهل الأرض كافة

من وجوه مختلفة. قال الله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ" (ثم التفت إلى الناس وقال:) فَسَعَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ (ثم التفت إلى النبي وقال) وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾" (44:43)

قال الأستاذ في هذا الفصل إنّ الله تعالى يخاطب النبي عليه السلام والناس بلا واسطة ووجدت في القرآن الكريم أنّ الله يخاطب النبي خاصة والناس على لسانه، إنّ الله يخاطب الناس في القرآن في أكثر المواضع بلا واسطة كما ترى في "يا أيها الذين آمنوا" و"يا أيها الناس" وقال الأستاذ أيضاً إنّ كل كلمة من القرآن وحي من الله لكن ليس كله على لسانه تعالى.¹

وألقى الأستاذ ضوءاً على فوائد الالتفات ومن فوائده العامة انتباه السامع وتذكير الناس، وفي القرآن الكريم وكلام العرب التفاتات كثيرة وقد يستعمل الالتفات في أكثر المواضع. فمنها إحضار البعيد ليجعله أوقع في القلب إذا خاطب بعد صيغة الغائب كما يقول الله تعالى: "وَأَنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا. ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا" (72-71/19) فإن هذا ذكر الإنسان وهم المنكرون كما قال قبل ذلك "وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ ءَ إِذَا مَا مِتْ لَسَوْفَ أُخْرَجَ حَيًّا. أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا. فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا. ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا. ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أُولَىٰ بِهَا صِلِيًّا. وَأَنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا" (71-66/19) وبعد هذه الآيات قال تعالى "يَوْمَ نَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا. وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا" (86-85/19)

ومنها شدة الخطاب: المخاطب لا يخاطب السامع أنه لا يسمع بل يخاطب لإظهار

¹ نفس المصدر، ص: 12-13

الشدة، كما في قوله تعالى: "الَّذِينَ وَقَدَّ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ" (91/10) ومنها صرف التوجه عن السامع تصغيراً له وإعراضاً عنه.

ومنها صرف الخطاب الشديد إلى أكبرهم ليصير أشد تأكيداً ومن ذلك كلما خاطب به النبي صلى الله عليه وسلم فيما يتوقع منه وربما أدخله في السامعين لهذا الغرض.

ومنها التعريض بمن يتوقع منه الإنكار أو الكراهية، ومن ذلك ما جاء في أول سورة البقرة فلم يخاطب اليهود في ذكر نفاقهم ولا الكفار المصيرين على الباطل بعد وضوح الحق.

بحث الأستاذ في هذا الكتاب عن الحذف وقد وجد الحذف في القرآن وكلام العرب كثيراً، ويصبح الكلام فصيحاً وبلغاً بالحذف وله مواقع شتى.

فمنها حذف الماضي المركب بالمضارع، مثل يفعل في موضع كان يفعل وهذا كثير في القرآن وكلام العرب، كما قال الله تعالى: "فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ (أي كما كان يعبد) آبَاؤُهُمْ مِّن قَبْلُ" (901/11)، قدم الأستاذ عدة أمثلة من القرآن الكريم في هذا الفصل.

ومنها حذف الفعل بعد فعل مشابه اعتماداً على فهم المخاطب كما قال الشاعر:

وزججن الحواجب والعيونا

أي وكحلن العيون.

وقال الله تعالى: "وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُ الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ" (9/59)

ومنها حذف الشرط والجزاء معاً إذا كان الشرط مفهوماً، كما قال تعالى: "أَيَّتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا" (139/4) أي إن يبتغوا العزة عندهم لن يجدوها فإن العزة كلها بيد الله.

ومنها حذف ما ذكر مرة في جملة مشابهة، على أصل عام في العطف فنقول جاء زيد

وعمره، وقال تعالى: "فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ" (66/8) أي ألف صابر يغلبوا ألفين. ومنها حذف القول والقائل قبل كلامه مثلاً قوله تعالى: "يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ (قيل له) أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ" (106/3)

ومنها حذف ما ينكر به قبل كلمة "بل" لأنها تدل على ما أنكر به مثلاً قوله تعالى "قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَ قَالِ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا (أي لم يقل الله بل ارتبتم تحسدوننا) بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا" (15/48).

ومنها حذف جملة كقوله تعالى "وَحَرَّمَ عَلَى قَرِيَّةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ" (95/21) أي حرام أن يرجعوا.

ومنها حذف جانين من المتقابلين لما دلّ عليه مقابله، كما قال تعالى: "فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ" (112/16) أي أذاقها الله طعم الجوع وألبسها لباس الخوف.¹ وقال عمرو بن معديكرب:

ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن ردّيت بردا
أي ليس الجمال ببرد ومئزر فاعلم وإن ردّيت واتزرت²

ومنها حذف ما يتعلق به الجار، فيقدر ما يدل عليه الجار كقول حسان بن ثابت.
هم جبل الإسلام والناس حوله رضام إلى طود يروق ويقهر³

¹ نفس المصدر، ص: 19-25

² رسائل الامام الفراهي في علوم القرآن، الإمام عبدالحمد الفراهي، الدائرة الحميدية بمدرسة الاصلاح، سرائر مير، أعظم كره (الهند)، ص: 175

³ شرح ديوانه، ص 146

"إلى طود" أي مستندة إلى طود ومن هذا الباب "قام إليه أقام ومشى إليه".

ومنها: حذف لا قبل جواب القسم، قال حسان بن ثابت:

والله أسمع ما حيت بهالك إلا بكيت على النبي محمد¹

أي لا أسمع ما حيت

ومنها حذف جواب القسم: كما حذف في "وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝" (2-1/89) والنحاة تصنعوا في تكميل الكلام حسب قواعد النحو فذهبوا كل مذهب، كما قال الكسائي والفراء ورحمهما الله في جواب "والقرآن ذي الذكر" أنه إن ذلك لحق تخاصم أهل النار.²

هذا البحث ما لم يتم.

وبعد هذا البحث قام الأستاذ الفراهي بفصل بعنوان "العود على البدء" وقدم أمثلة عديدة من القرآن الكريم ولكن اكتفي ههنا بمثال واحد، قال تعالى في سورة البقرة "يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّيَ فَارْهَبُونِ ۝" (40/2) ثم عاد عليه حيث قال "يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَإِيَّيَ فَارْهَبُونِ ۝" (121/2)³

وبعد هذا الفصل ذكر الأستاذ فضلاً آخر بعنوان "التفصيل بعد الإجمال" وذكر أن له خمسة أنواع ولكن الأسف أنه لم يقدم مثلاً لها، أوضح الجامع الأستاذ بدر الدين الإصلاحي أن هذا الفصل يقبس من مقدمته لتفسير سورة البقرة⁴ التي طبعت حالياً من قبل دار المصنفين بسراى مير، أعظم جراه، يوبي، الهند.

¹ شرح ديوانه، ص 88

² أساليب القرآن، ص: 30

³ نفس المصدر، ص: 30-32

⁴ نفس المصدر، ص: 32-33

ومنها: الاختصار على بعض الشيء وله وجوه مختلفة ذكر الله تعالى أحوال الآخرة
بصور متعددة.¹

ومنها: ذكر الأثر لما يخفى، وهو الدلالة على حقيقة المعنى بذكر الأثر لما يخفى مثلاً
"الذين آمنوا وعملوا الصالحات" وهذا كثير في القرآن كما قال تعالى في وصف داود
عليه السلام "وَعَزَّيْنَاهُ حِزْمَةَ وَفَضَّلْنَا الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾" (20/38)²

ومنها: وجوه الوصل والفصل وله أهمية عظيمة في أساليب القرآن، ذكر الأستاذ
وجوهها المختلفة وقال فيها "وعلى ذلك أساس النظم وعليه تدور وحي الكلام" فن لم
يعرفها رأى نظم الكلام مختلاً ولم يفهم المراد وخفي عليه حسن النظام وبلاغته.³
لكنني اجتنبت هنا من ذكر الأمثلة راعياً في ذلك الاختصار.

ومنها اختلاف الأساليب في العطف وغيره، قدّم الأستاذ عدة أمثلة في هذا الفصل،
وأنا أذكر هنا مثالين فحسب، قال الله "وَكَذَلِكَ نَقْضِلُ الْآلَايَةِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ
الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥/٦﴾" قال الأستاذ "وذلك ليدل على ما هو مقدر في المعطوف
عليه فكأنه قيل وكذلك نفصل الآيات لتستبين آياته".

وذكر الأستاذ وجهاً آخر فقال "وربما يبدل الأسلوب في آيات من موضعين ليدل به
على المقدر على وجه التفسير كما قال تعالى: "يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ بِالْقِسْطِ
شُهَدَاءَ لِلّٰهِ". (135/4) وفي موضع آخر: "يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ
بِالْقِسْطِ" (8/5) فالمراد في الأول كونوا قوامين لله بالقسط، شهداء لله بالقسط،
وهكذا المراد في الثاني فسكت عن شيء ودلّ عليه وبذلك بين أسلوب التغبان".⁴

¹ نفس المصدر، ص: 33

² نفس المصدر، ص: 33

³ نفس المصدر، ص: 33

⁴ نفس المصدر، ص: 35

ومنها: الاعتراض وهو كثير في القرآن الكريم وله أنواع وفوائد، قدّم الأستاذ أمثلة عديدة في هذا الفصل، وأنا أريد أن أذكر مثلاً واحداً منها، قال الله تعالى: "وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٠﴾". (160/37) وقوله الآخر: "سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ" اعتراض أي أنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين.¹

ذكر المرتب فصلين استعمال أسلوب عوض أسلوب والزيادة ولكن الأستاذ لم يوفق لإكاملهما.²

وبعد ذلك يأتي الفصل الاستفهام وهو يدلّ على معانٍ كثيرة بطريق الكناية وهي الاستبعاد والتحقيق ولذلك لا بد من شرح أمثله ليسهل تعيين المراد من بين المعاني المختلفة.

الاستفهام يكون بالإثبات وبالنفي ولكل دلالة على سبيل المثال:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح
فيه تنبيه للمخاطب على أمر مشهور بين الناس مع ذهوله عنه وبذلك دلّ أنّ الجود منه عادة وبجية وليس للسمعة والتنافس.

ألست ترى السّمار والناس أحوالي³

أي فعلك يدل على أنك لا ترى والأمر بين ظاهر، فاستفهم للتنبيه والاستعجاب وكذلك في قوله تعالى: "أَلَيْحَسْبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ ﴿٣٧٥﴾" (3/75)

¹ نفس المصدر، ص: 36-37

² نفس المصدر، ص: 38

³ لامرئ القيس من معلقته، وصدر البيت:

فقال سباك الله إنك فاضحي

ديوانه، ص 125

الاستفهام أجمع للمعاني الإنشائية يتضمن الإقرار من المخاطب بما نكارته ظاهرة، كما قال تعالى: "أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا". (85/2).

ومن فوائده التأكيد والإقرار والتنبية والإنكار والزجر والأمر والتحقير. مثال الأمر قوله تعالى: "فَالَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾" (14/11).

ومثال التحقير قوله تعالى: "أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ". (51/37) ومنها "الشرط" وهو يستعمل على وجوه وفيه قوله تعالى: "قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾" (112/5) أي يلزمكم التقوى، فإنكم مقرون بإيمانكم.

ومنها: إظهار الإنكار من القائل مثلاً قوله تعالى: "يٰٓأَيُّهَا الْمُرُكُّمُ بِهِ إِيمَنُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾" (86/2) أي لستم بمؤمنين، فإن إيمانكم يأمركم بالسوء.¹

ويوجد في الكتاب فصل وهو الفصل بين المتصلين، ينبغي لطلبة القرآن أن يدرسوه بأنفسهم.² ومنها استعمال الحال وله وجوه متباينة في أساليب كلام العرب، يكون الحال من المضاف إليه كما قال الله تعالى: "فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾". (4/26)

الحال عن المجرور عام في كلام العرب، قدم الأستاذ لذلك أمثلة كثيرة من كلام العرب.³ فأننا أنقل بيتين فحسب، قال امرؤ القيس:

فلما أجن الليل عني غيارها نزلتُ إليه قائماً بالحضيض.⁴

¹ أساليب القرآن، ص: 40

² نفس المصدر، ص: 41

³ نفس المصدر، ص: 41

⁴ ديوانه (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم) دار المعارف، مصر، 1957م، ص: 74

وقال أمية بن أبي الصلت:

فهل تخفى السماء على بصير وهل بالشمس طالعة خفاء¹
ومنها: الإثبات وهو نوع من أنواع أساليب كلام العرب ولكن الأستاذ ما وجد
فرصة لإكماله.

ومنها: النفي فقال الأستاذ: لاستعمال النفي وجوه: فمنها: نفي اللازم للدلالة على نفي
الملزوم كما قال امرؤ القيس "لا يهتدى بمناره" وهو كثير فعلى هذا الأسلوب قوله
تعالى: "قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ" (18/10) لا يعلم
أي لا وجود له فإن وجود الشيء يلزمه أن يكون معلوماً لله تعالى.

ومنها: نفي الفعل من جهة النتيجة وذلك في الحقيقة من باب نفي الفعل بمعنى خاص
وهو أن يراد منه النتيجة مثلاً: "وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى" (17/8)

ومنها: مبالغة النفي إذا دخل على المبالغة مثلاً: "وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ" (182/3)
ومنها: تحتم النفي في المستقبل، وإذا دخل على كان واسم فاعل مثلاً "وَمَا كُنَّا
مُهْتَدِينَ" (16/2)

ومنها: نفي الوقوع وأحياناً نفي الجواز، كما في قوله تعالى: "فَلَا رَفَتْ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا
جِدَالٌ فِي الْحَقِّ" (197/2)²

ومنها: التكرار وبقي هذا البحث غير كامل، ذكر الأستاذ نوعين له، أحدهما، "ربما
يكرر اللفظ بعده عما يتم الجملة التي صدرها ذلك اللفظ، مثاله قوله تعالى: "فَلَوْلَا إِذَا
بَلَغْتَ الْخُلُقُومَ ﴿٨٧﴾ وَأَنْتُمْ جِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٨﴾ ... فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٩﴾
تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٠﴾" (84-83/56) فكرر "لولا" لما قطع عن تمامه

¹ ديوانه، ص: 43-44

² أساليب القرآن، ص: 44-45

لاعتراض الجمل.

وأما النوع الثاني فأصرف عنه النظر مخافة الإطالة.¹

ومنها البدل ولكن الأستاذ ما استكمل هذا البحث.²

ومنها الوصف وله وجوه: فنها: وصف الشيء وتسميته بما كان متوقفاً وإن لم يقع، كما قال جرير:

لولا الخليفة يا أخيطل ما نجا أيام دجلة شلوك المأكول³
ومن هذا قوله تعالى "كَعْصِفٍ مَّاكُولٍ".

ومنها: ربما يأتي بالوصف للاستدلال، كما قال تعالى: "وَمَا اللَّصُّ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ" (126/3) وفسره بقوله: "وَمَا اللَّصُّ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (10/8)

ذكر الأستاذ أن الوصف يأتي للقيّد والتخصيص والتأكيد، ولكنه لم يقدم أمثلة لها.
ومنها: استعمال الصفة المحض مكان الاسم كما قال تعالى: "أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ" أي لا يعلم الله الذي خلق.⁴

ومنها "التنكير والتعريف". قال الأستاذ إن النكرة ربما يراد به الخاص الذي دل عليه سوق الكلام، كما قال تعالى: "وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ" (85/6) اللفظ "كل" في الآية نكرة لكن يراد به التخصيص.

أضاف المرتب من إفادات الأستاذ في الهامش أن استعمال النكرة ربما يكون للتعميم

¹ نفس المصدر، ص: 45

² نفس المصدر، ص: 46

³ ديوانه، دار صادر، (بدون تاريخ) بيروت، ص: 318

⁴ أساليب القرآن، ص: 47

كما قال تعالى: "يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَقُوا اللَّهَ وَلَتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ" (18/5) فههنا نفس معناه كل نفس.¹

ومنها "العطف بالواو" و"الترديد" و"التقديم والتأخير" لكن الأستاذ ترك هذه المباحث غير تامة.²

ومنها: التخليص والتخليصات كثيرة في القرآن، أوضح الأستاذ هذا البحث بأمثلة كثيرة، وأنا أقدم مثلاً واحداً فحسب قال تعالى في سورة المؤمنون (22-23): "وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّبِعُونَ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾".³

ومنها: التعميم والتخصيص: قال الأستاذ في هذا الباب "إن بيان نسبة الفعل بصيغة الجمع إلى المجموع من حيث المجموع، ربما يجعلون العام أعم هو المراد مثلاً في قوله تعالى: "وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾"، فالنطق المراد ههنا هو النطق بما أوحى إليه من الكتاب".

ومن هذا الباب نسبة الفعل بصيغة الجمع إلى المجموع من حيث هو مجموع، فلا ينسب إلى كل فرد، مثلاً قوله تعالى: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ". (110/3)⁴

ومنها: اختلاف الصلة والفعل. هذا الفصل حُرِّمَ التمام.⁵

ومنها: المقابلة والتفصيل وتوجد هذه الأساليب كثيرة في القرآن، انظروا "المقابلة" إلى

¹ نفس المصدر، ص: 47

² نفس المصدر، راجع للتفصيل، ص: 48-49

³ نفس المصدر، راجع للتفصيل، ص: 50-51

⁴ نفس المصدر، راجع للتفصيل، ص: 52

⁵ نفس المصدر، ص: 53

ينتهي هذا الكتاب على هذا الفصل وقد قدمت خلاصته وإن هذا الكتاب قد تلقى مكانة فريدة بين المصادر القرآنية لكن الأسف الشديد أن الله تعالى لم يوفق الأستاذ أن يكمله وقد ظهر من مصنفات الأستاذ المرحوم أنه كان يختار موضوعاً بعد التفكير العميق والتدبر في ضوء القرآن الكريم يأخذ الأدلة من الأحاديث النبوية والصحف السماوية والمصادر الأدبية القديمة وذخائر الأشعار الجاهلية، وكذا أن الأسلوب الفكري قد بان في جميع تأليفاته وهو لا يتدبر في أي محور بدون الكتاب العزيز والحقيقة أن الأستاذ الفراهي قدّم بين يدي طلبة القرآن والباحثين للأدب العربي أسلوباً جديداً ومنهجاً حديثاً في فهم القرآن. ويؤد الأستاذ أن يصبح القرآن أساساً في جميع المجالات العلمية والفكرية والأدبية كما أنه اختار هذا المنهج في كتابه القيم "جمهرة البلاغة" وهو كتاب منقطع النظير في المصادر الإسلامية والأدبية. ويبرز من جميع النواحي لهذا الكتاب أن الأستاذ قد امتاز بمؤهلاته القرآنية بين المفسرين والأدباء المفلّحين وما كان أسلوبه أن يسلك طريق القدماء ولا يستند إلى آرائهم وأفكارهم بدون الاعتناء البالغ بها فجعل لنفسه منزلة رفيعة بإنتاجاته القرآنية بين المتقدمين والمتأخرين وبهذا الكتاب نال الأستاذ قبولاً عاماً في الأوساط العلمية والأدبية.

كتاب "أسباق النحو وتحفة الإعراب" للإمام عبد الحميد الفراهي دراسة تحليلية

- د. منظر عالم¹

تمهيد: قد أنجبت الهند عددًا من العلماء الأفاضل والعابرة المرموقين والكتاب البارزين والأدباء الأفاضل الذين احتلوا مكانة بارزة في مجالات متنوعة، ومنهم من نال مكانًا رفيعًا في مجال الحديث والفقه، ومنهم من حقق مكانًا عاليًا في مجال اللغة والأدب، ومنهم من اكتسب سمعة بارزة في مجال التفسير، ومن بين هؤلاء الأعلام المفسر الكبير والأديب الأملعي واللغوي الشهير والشاعر الطليع الإمام عبد الحميد الفراهي الذي يعرف بين أقرانه بخدماته الجبارة وإسهاماته القيمة في مجال الدراسات القرآنية لا في الهند فحسب بل العالم العربي أيضًا، وله إسهام بارز ودور ملموس في تقديم نظرية "نظم القرآن" التي تساعد على فهم القرآن وتدبره فهمًا صحيحًا، وقضى ثلاثين عامًا في فهم أسرارهِ وبلاغته وأسلوبه وحكمته ودلالته وألف كتبًا قيمة ورسائل بديعة تتعلق بالقرآن الكريم وعلومه المختلفة، نحوًا كان أو صرفًا أو بلاغة، وتدور جميع مؤلفات الفراهي على محور واحد ونقطة واحدة وهي فهم القرآن الكريم فهمًا صحيحًا دقيقًا.

نبذة عن حياة الإمام الفراهي: ولد الإمام عبد الحميد الفراهي عام 1863م في قرية "فريها" الواقعة في مديرية أعظم جراه، ولاية أتراباديش (الهند)، وبدأ تعليمه منذ صغره، حفظ القرآن الكريم ودرس مبادئ اللغة الفارسية وبرع فيها حتى بدأ ينظم الشعر باللغة الفارسية وكان عمره ستة عشر عامًا، ثم توجه إلى دراسة اللغة العربية وقرأ اللغة العربية على يد ابن عمته المؤرخ الشهير والناقد الكبير شبلي النعماني (1858-1914م)

¹ أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، بجامعة بابا غلام شاه، راجوري جامو وكشمير

ودرس علم النحو والصرف وكتب الأدب والمنطق عليه وتضلّع منها، ثم سافر إلى مدينة لكناؤ التي تعتبر مركزاً للعلم والثقافة وحضر دروس الفقيه الشيخ أبي الحسنات محمد عبد الحلي اللكناوي (1848-1987م) حيث تعلم علم الفقه وبرع فيه، ولكن لم يمكث هناك لمدة طويلة إذ كان يميل طبعاً إلى البحث والتحقيق فغادر المدينة متوجّهاً إلى لاهور حيث استفاد من الأديب الأريب الشيخ فيض الحسن السهارنفوري الذي كان أستاذاً في الكلية الشرقية بمدينة لاهور، وله مهارة كاملة وشهرة واسعة في اللغة العربية وآدابها.

بعد إتمام العلوم الدينية عني الإمام الفراهي بالعلوم العصرية فرحل إلى مدينة عليجراه والتحق بكلية عليجراه وتعلم اللغة الإنجليزية وأجاد فيها كما تعلم الفلسفة الحديثة من الأستاذ المشتشرق آرنالد. وحاز شهادة البكالوريوس من جامعة إله آباد ولم يكلّ الماجستير بأسباب عديدة، وقام بعملية التدريس في المعاهد والجامعات والكليات المختلفة، وفي النهاية كرّس حياته لخدمة مدرسة الإصلاح الواقعة في مدينة "سرائي مير" بمديرية أعظم جراه وأصبح مديراً لـ"دار المصنفين" الواقعة في مدينة أعظم جراه، ولاية أترابرايش وتوفي عام 1930م.¹

ثناء العلماء عليه: لقد اعترف من كبار علماء الهند والعالم الإسلامي بشخصية الفراهي وغزارة علمه وسعة اطلاعه وأثنوا عليه كعالم للقرآن الكريم وماهر للغة العربية وآدابها ولا يمكن الإحاطة بجمعهم في هذا المكان بل نكتفي بذكر بعض منهم:

يقول تلميذه العلامة سيّد سليمان الندوي: "هو شخص واحد اجتمع فيه عالم من العلم والمعرفة، ماهر في العلوم الدينية، ناقد العلوم العقلية، وحيد عصره في علوم العربية، نسيج وحده في علوم القرآن، عارف بحكمته ودقائقه، ولكن لم ينقل من علمه إلى الدفاتر والأوراق إلا قليل".

¹ الإمام حميد الدين الفراهي: تفسير نظام القرآن، ص 7-14

ويقول مولانا أبو الكلام آزاد: "كان الإمام عبد الحميد الفراهي من العلماء الربانيين الذين لا تكون بضاعتهم العلم فحسب بل يجمعون بين العلم والعمل ويندر وجود أمثال هؤلاء الحائزين الشرفين".

ويقول مدير مجلة "المنار" السيد رشيد رضا المصري بعد أن اطلع على بعض أجزاء من تفسير الفراهي: "وقد ألقينا على بعض هذه الرسائل لمحة النظر، فإذا طريق جديد في أسلوب جديد من التفسير، يشترك في طريقنا في القصد إلى المعاني من حيث هداية إلهية دون المباحث الفنية العربية، وإن للمؤلف فهماً ثاقباً في القرآن، وإن له فيه مذاهب من البيان، وإنه لكثير الرجوع باللغة العربية إلى مواردها والصدور عنها ريان من شواهدا".

وفيد العلامة اللغوي الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي بعد زيارته للفراهي إلى مسقط رأسه في عام 1342هـ حين كان العلامة في زيارة الهند: "الرجل فصيح في التكلم لغاية، نادر في علماء العرب فضلاً عن علماء الهند، سمعت منه خطبة تفسيره للقرآن اغرورقت منها عيناى لفصاحتها وحقيتها، هو مجتهد من العقائد والعمليات لا ينتمي لمذهب لكنه يتعبد على مذهب الحنفية لأنه نشأ عليه ويعتقد أن الأمر في مثل ذلك سهل، ماهر في الإنجليزية والعربية والفارسية والأردوية وبالجملة فهو أعلم من لقيته قبل هذا الحين".¹

نبذة عن النحو العربي: إن اللغة العربية التي تعتبر أقدم اللغات الحية في العالم، ولها تاريخ طويل، وبلغت إلى ذروة الكمال بعد مجيء الإسلام ونزول القرآن الكريم وبتوسع الدولة الإسلامية، بدأ الأجانب يدخلون في الإسلام جماعاتٍ وأفواجا، وواجهوا المشاكل في قراءة القرآن الكريم، فدعت الحاجة إلى تعيين بعض المبادئ والأصول التي تساعد في قرائته وفهمه الصحيح، هذا هو السبب الرئيسي لوضع النحو العربي، ولكن هناك بواعث ودوافع أخرى دعت إلى وضع النحو العربي كما

¹ الدكتور محمد فريد راوي: الإمام عبد الحميد الفراهي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن، ص 47-48

يقول الدكتور شوقي ضيف في كتابه "المدارس النحوية":

"يمكن أن نردّ أسباب وضع النحو العربي إلى بواعث مختلفة، منها الديني ومنها غير الديني، أما البواعث الدينية فيرجع الحرص الشديد على أداء نصوص الذكر الحكيم أداءً فصيحاً سليماً إلى أبعد حدود السلامة والفصاحة وخاصة بعد أن أخذ اللحن يشيع على الألسنة، ثم انضمت إلى ذلك بواعث أخرى، بعضها قومي عربي يرجع إلى أن العرب يعتزون بلغتهم اعتزازاً شديداً، وهو اعتزاز جعلهم يخشون عليها من الفساد حين امتزجوا بالأعاجم، وبجانب ذلك كانت هناك بواعث اجتماعية ترجع إلى أن الشعوب المستعربة أحسّت الحاجة الشديدة لمن يرسم لها أوضاع العربية في إعرابها وتصريفها حتى تتمثلها تمثلاً مستقيماً وتتقن النطق بأساليبها نطقاً سليماً، وكل ذلك معناه دفعت إلى التفكير في وضع النحو".¹

وهذه هي الأسباب والعوامل التي أدّت دوراً رئيسياً في وضع النحو العربي، حتى وضع النحو لكي يصون الأجانب من الخطأ.

ثم بدأ هذا العلم ينمو ويتطور على أيدي العلماء الكبار الذين قاموا بإسهامات قيمة وجهود جبارة في تعميم وترويج هذا الفن من خلال مؤلفاتهم القيمة والشاملة ومن بعضها "كتاب ألفية ابن مالك العسقلاني"، و"مغني اللبيب عن كتب الأعاريب"، و"قطر الندى وبل الصدى" لابن هشام الأنصاري، و"المفصل" للزمخشري وغيرها.

ثم تطور هذا الفن تطوراً واسعاً حتى نشأت المدارس النحوية المتعددة منها المدرسة الكوفية، والمدرسة البصرية، والمدرسة البغدادية، والمدرسة الأندلسية، وهذه المدارس كلها تميزت بخصائصها وسماتها البارزة، ولها خدمات ملهوسة في تطوير هذا الفن.

وإذا ألقينا النظر على الجهود التي قام بها علماء اللغة العربية والتي لم تسلم من غبار

¹ شوقي ضيف: المدارس النحوية، ص 11

الدهر، وأنها اعتراها ما اعترى من العلوم والمعارف، وغلبت عليه شوائب المنطق والفلسفة، فبدأ الناس يرغبون عن هذا الفن وضعف الميل إليه يوماً فيوماً.

محاولات تجديدية في النحو العربي: إذا أمعنا النظر في العصور السالفة وجدنا فيها محاولات مستمرة من قبل المثقفين الذين أخذوا القضية بعين الاعتبار وتوجهوا إلى هذا الجانب حاملين لواء الإصلاح والتيسير وبذلوا ما في وسعهم وألّفوا كتباً قيّمة في تيسير النحو العربي كمحاولات أصحاب المتون والمختصرات والشروح والخواشي ولكن هذه المحاولات لم تكمل بالنجاح ولم تخلّص الطلاب والدراسين من صعوبات النحو ومشكلاته مع كثرة الخلافات والتعريفات بل إنها أصبحت معقدة أكثر بكثير حتى أصبح النحو العربي بعيداً عن واقع الحياة.

وفي العصر الحديث نهض بعض الأدباء الذين توجهوا إلى هذا الجانب وقاموا بأعمال قيّمة في مجال تجديد النحو وتيسره، ومنهم رفاة الرافع الطهطاوي صاحب "تحفة المكتبة لتقريب اللغة العربية" وحفني ناصف الذي دوّن كتاباً باسم "قواعد اللغة العربية" وإبراهيم مصطفى وله كتاب باسم "إحياء النحو" وعلي الجارم ومصطفى أمين اللذان اشتركا في تأليف كتاب "النحو الواضح" وشوقي ضيف صاحب "تيسر النحو قديماً وحديثاً مع منهج جديد" وغيرهم.¹

هذه المحاولات كلها قامت في الدول العربية، وأما الهند فإنها محرومة من تلك المحاولات، وكانت تدرس مادة النحو في المدارس الإسلامية وفق الطرق القديمة، ومعظم الكتب كانت باللغة الفارسية ولا يمكن فهمها للطلاب بالسهولة فنهض العالم الكبير واللغوي الشهير الإمام عبد الحميد الفراهي الذي غير مجرى الحياة وقرب هذا الفن إلى واقع الحياة وأخرجه من الغموض والتعقيد والإبهام إلى السهولة والبساطة

¹ مختار بزاويه: النحو العربي ومحاولات تيسيره، دراسة وصفية تحليلية، ص 4 (أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه)

والتي سير وألف كتباً قيمة في هذا المجال، ومنها:

أولاً: "أسباق النحو": (الجزء الأول): صدر هذا الكتاب أولاً من مطبعة عليجراه عام 1907م حينما كان الإمام مقيماً بها، ثم أعاد النظر فيه وقام ببعض الإصلاحات والإضافة فيه، وإلى جانب هذه الإضافة هناك بعض الأماكن التي تحتاج إلى مزيد من الشرح والتوضيح، فقام بهذه المهمة تلميذه البارّ الشيخ أختار أحسن الإصلاحي، وله جولة وصولية في مجال اللغة العربية وآدابها، وطبع بعد ذلك هذا الكتاب مراراً وتكراراً بسبب تقريره في المقررات الدراسية لبعض المدارس الإسلامية.¹

في الحقيقة هذه تجربة جديدة قام بها الإمام ولكن بعد مرور الأيام وكرّ الأعوام شعر بعض المثقفين بمزيد من الإصلاح والتغيير فيه وفقاً لمتطلبات العصر ليكون الكتاب أكثر إفادة وأنفع لطلاب اللغة العربية ودارسيها، فقام الشيخ احتشام الدين الإصلاحي بهذه المهمة ووضع لهذا التغيير علامة "ح" في الحواشي، والآن أصبح هذا الكتاب نموذجاً حياً للنحو التطبيقي.

هذا الكتاب مأخوذ من النحو الجديد واختلف الإمام فيه عن بعض المباحث النحوية القديمة ومن أهمها هي:

الأول: وضع المؤلف أساس الإعراب على اختلاف الأحوال فضلاً عن العوامل الكثيرة لكي يتخلص الدارس والقارئ من مشكلاته.

والثاني: أما الفعل فإنه لا يتعلق باختلاف الأحوال ولا حاجة إلى الإعراب له هكذا يتخلص الطالب من الأبحاث الطويلة للفعل.

والثالث: تذكر الأمثلة في الكتاب أولاً والقواعد النحوية ثانياً لكي تساعد الطالب على خلق المهارة باللغة العربية قراءة وكتابة وتحديثاً وفهماً.

¹ علامة حميد الدين: أسباق النحو (الأول) تقديم الكتاب

ويرى الإمام أنّ النحو ضروري ولازم لتعلم اللغة العربية ولكن بمقدار يسير كما قيل "النحو في الكلام كالملح في الطعام"، قسم المؤلف هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام: الأول في بيان الاسم والثاني في بيان الفعل والثالث في بيان الحرف. ولكن عالج الفعل وبيانه في كتاب مستقل وهو أسباق النحو (الجزء الثاني).¹

يبدأ الكتاب من حروف الهجاء وبعض أساسيات مبادئ اللغة العربية منها تعريف النحو ثم تعريف الكلمة وأقسامها ثم يتناول مراتب الاسم وأحواله مقسماً لها إلى ثلاثة أقسام: الأول المرفوع والثاني المنصوب والثالث المجرور. ثم يتناول المعرب والمبني وصورهما المختلفة من حيث الإعراب في شكل الأفراد والتثنية والجمع والممنوع من الصرف موضحاً الفرق بين الإعراب الثقيل والخفيف.²

ثم يذكر المعربات الأصلية وعددها عشرة: الأول: المرفوعات وهي: المسند والمسند إليه والمجرورات وهي: حروف الجر والمضاف والمضاف إليه، والمنصوبات وهي: الظرف والحال والتمييز والمفعول (المفعول به والمفعول له والمفعول المطلق) والعلة والمصدر. وهذه الأبحاث كلها مبنية على الأمثلة أولاً وعلى القواعد النحوية ثانياً على سبيل المثال: المسند والمسند إليه: خالد قويّ وحامد ضعيف، الإنسان حاكم والحيوان محكوم.

حروف الجر: سعيد ورشيد ذاهبان لتجارة من قرية إلى مدينة.

المضاف والمضاف إليه: قلم زيد نفيس وقلم خالد رديّ.

الظرف: زيد مشغول ليلاً ونهاراً، سليم عند خالد.

الحال: وحيد في البيت مريضاً.

التمييز: خالد شريف نسباً، عند وحيد رطل زيتاً ومنّ عسلاً.

¹ نفس المصدر، ص: 6-11

² نفس المصدر، ص: 18-25

المفعول به: وحيد قارئ كتاباً.

المفعول له: زيد ساكت أدباً.

المفعول المطلق: كريم ساكت سكوتاً.

وبعد تقديم هذه الأمثلة يقدم الإمام تعريفاً وجيزاً لجميع المباحث النحوية لكي يفهم الطالب بسهولة ويرسخها في ذهنه.

ثم يتناول المعربات المشكلة ولها خمس أقسام وهي: المسند إليه المنصوب مثل إنَّ زيداً عالم، والمسند إليه العام المنفي بلا: لا رجل في البيت، والمستثنى المنصوب بإلا مثل القوم حاضر إلا زيداً والمنادى المفرد والخاص مثل يا زيد، والمنادى غير المفرد العام مثل يا أهل البيت، يا راجباً جملاً. ثم يذكر إعراب المثني والجمع المذكر السالم بالتفصيل.¹

وبعد ذلك يتناول الإمام بحث الممنوع من الصرف، وهذا البحث مفيد جداً لطلبة اللغة العربية لأنَّ المؤلف تناول فيه أسلوباً سهلاً ومنتظماً وملائماً بطلاب اللغة العربية، وأما البحث متى يكون الممنوع من الصرف منصرفاً، ولا نرى مثل هذا البحث في الكتب النحوية القديمة والحديثة الأخرى، وقد نلخصها الإمام في ست نقاط فقط وهي:

- بعد دخول "أل" لام التعريف: مثل رب المشارق والمغارب.
- أن يكون مضافاً: مثل في علماء الهند.
- إذا كان الاسم ثلاثياً وخالياً من العجمة والتأنيث مثل نوح، لوط، وهور.
- قد استخدم العلم نكرة: مثل في البيت طلحة آخر.
- للوزن في الشعر: مثل: وكأس قد شربت ببعلبك :: وأخرى في دمشق وقاصرينا
- للقافية في الشعر: كتيس الأطباء الأعفر انضرجت له :: عقاب تدلّت من

¹ نفس المصدر، ص 26-29

شماريخ شهلان، وفي القرآن الكريم "كانت قواريرا قوارير من فضة"¹.
ثم يركز الإمام عنايته على الأسماء المبنية ويذكر في هذا الصدد الضمائر وأشكالها المختلفة وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والاستفهامات والخففات والمركبات والشروط والأعداد أيضاً ثم يتناول كفيات الاسم ومنها اللازم والمتعدي والمصغر والترخيم والنسبة والمعرفة والنكرة وتقسيم الاسم من حيث العدد وتقسيم الاسم من حيث الجنس.²
وملخص القول أن هذا الكتاب قد ألّف قبل مئة سنة ويستفيد منه طلاب اللغة العربية أكثر بكثير ولكن بعد مضيّ قرن واحد أو أكثر لم تقل أهمية الكتاب وفائدته لطلبة لغة العربية بل هي ثابتة كما كانت، بالرغم على ذلك أنّ هذا العصر يعتبر عصر انفجار العلوم والتكنولوجيا.

وثانياً: "تحفة الإعراب": يحتوي هذا الكتاب على مئة وستة أبيات: يعالج الإمام فيها قضايا الإعراب بأسلوب بسيط في شكل الأبيات، وفي بداية الكتاب حمد الله تعالى وأثنى عليه، وتناول فيه أسلوباً سهلاً متجنباً عن الطرق القديمة ومختاراً الطرق السهلة والبسيطة. وهذا الكتاب يدلّ على براعة الإمام وتضلعه من الشعر لأنه كان شاعر اللغة العربية والفارسية والأردية أيضاً.

يحتوي هذا الكتاب على المباحث التالية:

الأول: الإعراب وتعريفه. والثاني: الإعراب وصوره المختلفة. والثالث: الاسم ومراتبه. والرابع: مواقع الإعراب المختلفة. والخامس: الممنوع من الصرف. والسادس: الممنوع من الصرف وأنواعه الخمسة. والسابع: المعربات الأصلية. والثامن: المنصوبات الستة. التاسع: مجروران. العاشر: التوابع الخمسة. الحادي عشر: المعربات

¹ نفس المصدر، ص 30-33

² نفس المصدر، ص 38-59

الخمسة المأولة. الثاني عشر: حروف المشبه بالفعل. الثالث عشر: خبر كان وما لا.
الرابع عشر: المنادى والتعجب. الخامس عشر: توابع المنادي. السادس عشر: المستثنى
والمباحث الأخرى أيضاً.¹

مميزات الكتاب:

- إن هذا الكتاب يوفر لطلاب اللغة العربية فرصة سانحة لحفظ قواعدها في بيت أو أبيات فقط والتي نشرت في كتب النحو في صفحات طويلة.
 - إن الإمام قد تلخص القواعد النحوية بغاية من الإيجاز والبساطة ولا يمكن لأي كاتب أن يقوم بهذه المهمة كما فعل الإمام.
 - هذه القواعد المذكورة آنفاً كانت ضرورية ولازمة لتعلم اللغة العربية فاكتمل الإمام بها.
- وفي نهاية الكتاب يدعو الإمام أن يقبل الله تعالى هذه الهدية المتواضعة منه لطلاب اللغة العربية.

¹ العلامة حميد الدين الفراهي: تحفة الإعراب، ص 3-13

المراجع والمصادر

1. الإمام حميد الدين الفراهي: أسباق النحو (الأول)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم جراه، ولاية أترابرايش، 2000م
2. الإمام حميد الدين الفراهي: تحفة الإعراب، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم جراه، ولاية أترابرايش، 2000م
3. الإمام حميد الدين الفراهي: تفسير نظام القرآن، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم جراه، ولاية أترابرايش، 2009م
4. الدكتور محمد فريد راوي: الإمام عبد الحميد الفراهي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن، دار الشاكر، سلانجور، ماليزيا، 2015م
5. شوقي ضيف: المدارس النحوية، دارالمعارف، مصر، ط/7، 1968م
6. مختار بزاوية: النحو العربي ومحاولات تيسيره: دراسة وصفية تحليلية ص4 (أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية)

القسم في القرآن الكريم

- الشيخ وحيد الدين خان¹

ترجمة من الأردوية: د. مجيب اختر²

كان الشيخ عبد الحميد الفراهي رَحِمَهُ اللهُ عالماً بارعاً لا مثيل له في العلوم القرآنية في عصره. لقد ترك خلفه مجموعة كبيرة من المخطوطات، ولم يطبع أكثرها إلى الآن لوجود النقص فيها ومن بينها ما هو كامل وتام نشرته الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح (سرائي مير، أعظم كراه، الهند). ومن هذه المؤلفات المطبوعة كتاب "إمعان في أقسام القرآن"، ألّفه الشيخ الفراهي أصلاً باللغة العربية كغيره من مؤلفاته الأخرى، وقد طبع الكتاب باللغتين العربية والأردية من الدائرة الحميدية.

يناقش هذا الكتاب- كما يدلّ عليه الاسم- أقسام القرآن. وكان نصب عيني المؤلف في كل ما كتبه حول القرآن وما يتعلق به من الموضوعات في تحقيق المسائل والقضايا التي لا تزال غامضة ومجهولة على الرغم من الجهود والمسااعي القيّمة التي بذلها العلماء المفسّرون القدماء في تأويلها وتوضيحها. وأنّ مسألة "أقسام القرآن" من تلك المسائل الغامضة التي تحتاج إلى توضيح أكثر.

والاعتقاد السائد أنه لا يُقسم إلا بشيء عظيم، ومن ثمة ينشأ سؤال طبيعي لماذا أقسم الله سبحانه وتعالى في القرآن العظيم بخلقه؟ ومن البديهي أنّ كل ما يوجد في هذا الكون شيء حقير لا قيمة له أمام ذات الله سبحانه وتعالى، فلم أقسم الله بهذه الأشياء؟

وقد حاول المفسرون الإجابة عن هذا السؤال، ولكن الإجابات التي قدّموها بشكل عام

¹ كاتب هندي له مؤلفات كثيرة أبرزها "الإسلام يتحدّى".

² أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، جامعة دلهي، دلهي

لا توضح الحكمة لختلف الأقسام الواردة في القرآن. بل يبدو أنّ أكثر الإجابات توجي إلى أنّ القسم لا يفيد فائدة خاصة حيث ورد حتى وإن حذف لا ينقص من المعاني شيئاً.

وقد أثبت الشيخ الفراهي في هذا الكتاب القيم أنّ المقصود من القسم هو إظهار المقسم به على المقسم عليه، لا تعظيم المقسم به. مثلاً عندما قال سبحانه وتعالى "والقرآن المجيد" فالمقصود منه أنّ أسلوب القرآن الرائع وتعاليمه السامية يشهد على أنه كلام من ربّ العالمين. وإنما اختار الله سبحانه أسلوب القسم ليجعل الكلام أكثر تأثيراً وتأكيذاً.

فذلك توجد في القرآن أشياء مقترنة بالقسم في موضع، بينما ذكرت هذه الأشياء نفسها عموماً في موضع آخر بدون القسم كحجة وآية مباشرة. يقول الله في موضع: "فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ" ^١ ثم يذكر جميع هذا الكون في مواضع أخرى، ويقول إنّ هذا الكون يشهد أن لا إله إلا الله. فالكلام نفسه في موضعين لا فرق بينهما إلا أنه ما ذكر في موضع بأسلوب بسيط، جاء مقترناً بالقسم في موضع آخر.

إنّ مثل هذا التوجيه للقسم تصبح به جميع أقسام القرآن ذات معنى، ويكون جزءاً مهماً من سلسلة الاستدلال هذه، كما يتأكد به أنّ القرآن لا يستخدم أسلوب القسم إلا لغرض التوكيد والتأثير في الكلام. ولا شك أنّ هذه النظرية تفتح طريقاً لدارس القرآن ومنطلقاً صحيحاً للتأمل والتفكر في موضوع أقسام القرآن.

وقد نبّه الشيخ الفراهي على أنه ليس بمبدع في هذه النظرية، فإنها ثابتة من أقوال العلماء السابقين أيضاً.

يقول الفراهي رَحِمَهُ اللهُ: "مما ذكرنا من أقوال العلماء في الفصول السابقة نرى أنّ هذا المعنى للقسم ليس ببدع". ^٢

^١ سورة الحاقة: 38-39.

^٢ إمعان في أقسام القرآن، ص 89.

وقد ثبت أنّ المفسرين القدماء يذكرونه في مبحث القسم مع توجيهات أخرى، كما ذكره الإمام الرازي في شرح الأقسام الواردة في سورة الذاريات في كتابه المعروف "التفسير الكبير": "إنّ الأيمان التي حلف الله تعالى بها كلها دلائل أخرجها في صورة الأيمان".¹ وكتب الشيخ الفراهي بكل صراحة أنّ المفسرين القدماء لم يصرحوا تماماً في هذا الصدد، بل يختارون العديد من التوجيهات الضعيفة الأخرى مع هذا التوجيه السديد.² فالإمام الرازي يرى الأيمان الواردة في سورة الذاريات بأنها دلائل وشهادات، بينما يقول عن الأيمان الواردة في سورة التين فيبين فضائل التين والزيتون. كأنه يعتقد أنّ المقصود من القسم هو الإشهاد والاستدلال على الدعوى في موضع، وتعظيم القسم به وإجلاله في موضع آخر.

ولا شك أنّ هذا الكتاب من أجود نماذج البحث والتحقيق، يعترف به بعد قراءة هذا الكتاب كلّ مَنْ له إلمام بهذا الموضوع. اللهم إلا شيئاً واحداً لم أتمكن من إدراكه حقاً ولم يطمئنّ إليه قلبي حتى بعد تأمل طويل، أودّ ذكره فيما يلي:

لقد اتضح تماماً بالنص أعلاه أنّ الشيخ الفراهي رفض نظرية تعظيم المقسم به في القسم. ثم زاد عليه بأن ذكر المقسم به مع القسم ليس بلازم حتمي. وهذا ترديد آخر منه لوجود معنى التعظيم في القسم. لأنه لو كان القسم لمعنى التعظيم لذكر المقسم به لازماً. وذلك لأنّ الإقسام بشيء لتعظيمه ثم حذفه من الكلام غير معقول. كما كتب الشيخ الفراهي:

"فتبين مما مرّ بك في هذا الفصل والذي قبله أنّ القسم لا يلزمه المقسم به فضلاً عن تعظيمه".³ ولذلك لا يوافق الشيخ الفراهي الفكرة العامة بأنّ المقسم به إذا كان غير مذكور في

¹ التفسير الكبير، 160-159/28.

² ليراجع: إمعان في أقسام القرآن، ص 45.

³ المصدر نفسه، ص 51.

الكلام فهو قد حذف. كما يقول الفراهي رَحْمَةُ اللَّهِ:

"إن القسم ليس إلا التأكيد ولا تحتاج إلى تقدير المقسم به في كل موضع".¹
وهذا من المسلم به أنّ المقسم به لا يذكر أحياناً في الجمل القسمية لفظاً، ولكنه إذا
نسّم أنّ هناك لا يُقدر المقسم به في تلك المواضع فمن أين يتولد معنى التأكيد؟ وقد
صرح الشيخ الفراهي بأنّ القسم يفيد معنى الإشهاد والتأكيد في الكلام كما قال: "إن
القسم بالشيء أصله الإشهاد به".²

وإنّ القسم نوع من التأكيد، والغرض منه إظهار شيء لإنشاء التأكيد في الكلام.
وإذا قال رجل "أنا أقسم" بدون ذكر المقسم به كشاهد على ما يقسم عليه فكيف يدل
هذا الكلام على معنى الإشهاد والتأكيد؟ وبموجب تعريف القسم يلزمه وجود المقسم
به شاهداً ودليلاً على ما يقسم عليه، فإن كان المقسم به محذوفاً في اللفظ وكذا في
المعنى، فأين الدليل والشاهد؟ أهو محض كلمة القسم؟ والصواب أنه كما يقتضي القسم
للتعظيم وجود المقسم به، يقتضيه القسم للإشهاد والاستدلال كذلك. لأنّ معنى
الإشهاد والاستدلال لا يكمل إلا به.

وقد صرح الشيخ الفراهي بأنّ القسم كلمة للتأكيد تستخدم للاستشهاد على الدعوى،
وربما يكون هذا التأكيد بذكر المقسم به معه. وإنما الغرض من ذكر المقسم به مع القسم
محض استدلال واستشهاد به على حقيقة وادعاء. وربما يتولد معنى التأكيد بمحض كلمة
القسم بدون ذكر المقسم به، مثلاً يقول المرء "أنا أقسم" بدون ذكر شيء معين يقسم به،
لا صراحة ولا كناية.

كما قال الشيخ الفراهي: "وربما يكون مجرداً عن المقسم به وحينئذ لا يراد به إلا

¹ المصدر نفسه، ص 46.

² المصدر نفسه، ص 55.

التأكيد والجزم المحض".¹

لكن الأصح عندي أنّ التأكيد في الكلام على وجهين؛ الأول: التأكيد اللفظي مجرداً عن القسم، والثاني: التأكيد بالقسم. وللتأكيد اللفظي تعبيرات وكلمات أخرى أيضاً مثل: لا شك، لا جرم، وباليقين وغيرها مما يؤكد به الكلام. وأما التأكيد بالقسم، فهو أن توسل القائل إلى شيء معين يشهد على صدقه. وهذا الوجه من التأكيد يسمى بالقسم.

والتأكيد بالقسم على وجهين، أولهما: "الأيمان الدينية" حسب تعبير المؤلف رَحِمَهُ اللهُ.² وثانيهما: "الأيمان الاستدلالية".

والأيمان الدينية هي أن يتوسل المرء للشهادة إلى ذات يعتقد نافعاً أو ضاراً. فعلى سبيل المثال: إذا أحسن بي أحداً، ثم بدأ يظن أنني قد تنكرت جميله وإحسانه لأخذه، فإن قلت له مثلاً "لن أخدعك قط" أو ما يشابهه من التعبيرات، فهذا من التأكيد اللفظي.

وإن قلت نفس الكلام مقترناً بالقسم نحو "أقسم بالله لن أخدعك قط" فهذا من الأيمان الدينية. يعني كيف أخدعك والله شاهد علينا، فمن يعمل سوءاً يجز به. هذا هو نوع القسم الذي قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم: "من كان حالفاً فليحلف بالله، أو ليصمت".³

لأنه إن توسل أحد في هذا النوع من القسم إلى شيء غير الله سبحانه وتعالى، واعتقد أنه حاضر، ونافع وضار فهذا إشراك بالله تعالى.

وإن قلت "أقسم بكل ما أحسنت بي لن أخدعك"، فهذا من الأيمان الاستدلالية. أي أنّ المعروف الذي قدّمته لي هو دليل بنفسه على أنّ مثل هذا الشخص المعترف

¹ المصدر نفسه، ص 51.

² المصدر نفسه، ص 68-69.

³ صحيح البخاري، 235/3، برقم (2679).

بالإحسان لا يمكنه أن يخدعك. وإنّ عامة أقسام القرآن من هذا القبيل. وعلى هذا التوضيح للقسم فلا بد من وجود المقسم به. ولا يستدل به على أنّ المقسم به ربما يكون غير مذكور أصلاً، لأنّ ذكر المقسم به مع القسم في مواضع يدل على تقديره في مواضع أخرى لم يذكر فيها.

وأما ما استدللّ به الشيخ الفراهي على غير لزوم المقسم به في الكلام لا أراه أن يكفي لإثبات دعواه. كما نقل الشيخ من القرآن وكلام العرب أمثلة لم يذكر فيها المقسم به. وهذا، في رأيه، دليل على أنه لو كان ذكر المقسم به لازماً لكان مذكوراً في تلك الأمثلة كذلك.

والحق أنه لا يوجد في تلك الأمثلة أيّ دليل يستشهد به بأيّ معنى على أنّ المقسم به كان غير مذكور في الكلام. ولا يوجد في تلك الأمثلة إلا نقص واحد، وأضرب لكم مثالين من كلام العرب للإيضاح والبيان، أولاً: شعر ربيعة السلبية:

فأقسمت لا أنفك أحدر عبرة تجود بها العينان مني لتسجما¹
وثانياً: قول الله سبحانه في آية من سورة الأعراف: "أَهْـؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ
اللَّهُ بِرَحْمَةٍ"².

حاول الشيخ الفراهي من هذه الأمثلة إثبات دعواه بأنّ المقسم به ربما يكون غير مذكور أصلاً، فالمقصود من القسم حينئذ لا يراد به إلا التأكيد والجزم المحض.³ والحق أنّ هذه الأمثلة لا تدل على ما يدّعيه. لأنّ القائل في هذه الأمثلة لا ينقل كلمة القسم، إنما هو يروي قصة القسم. فمثلاً إذا يقول أحد لمدينه "كنت أقسمت

¹ شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص 96.

² سورة الأعراف: 49.

³ إمعان في أقسام القرآن، ص 51.

حين اقتراض الرواية بأنك ستدفعها على الوقت المحدد". فلا يتأكد منه أنه كان أقسم بدون ذكر المقسم به، وقال "أنا أقسم على أن أؤدي الدين على الوقت المحدد"، بل يمكن أيضاً لعله قال: "أنا أقسم بالله تعالى على أن أؤدي دينك على الوقت المحدد".

وهذا التوجيه ينطبق على جميع الأمثلة التي قدمها الشيخ الفراهي في هذا الصدد. وكذلك في أمثلة نقلها من كلام الشعراء العرب فإنما أراد الشاعر فيها حكاية قصة القسم بأنه اختار أسلوب القسم في تعبير كلامه، فما ذكر ألفاظ القسم. هكذا يذكر القرآن قصة حدوث القسم بغير نقل أصل كلمات القسم. فكلمة القسم في تلك المواضع للإشارة إلى حدوث القسم لا لإعادة ألفاظه.¹

¹ مع الشكر لمجلة "الفرقان" الشهرية، 49-44/3/32

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. إمعان في أقسام القرآن للإمام عبد الحميد الفراهي، دار القلم، دمشق -
الدار الشامية، بيروت، ط1، 1994م.
3. إمعان في أقسام القرآن للإمام عبد الحميد الفراهي، المطبعة السلفية،
القاهرة، ط1، 1930م.
4. شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام لبشير يموت البيروتي، المكتبة
الأهلية، بيروت، ط1، 1934م.
5. صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، حسب
ترقيم فتح الباري، دار الشعب - القاهرة، ط1، 1987م.

صلات الأفعال في كتابات الإمام الفراهي

(دراسة نقدية للمختار منها)

- د. أوزنك زيب الأعظمي¹

الإمام عبد الحميد الفراهي (1863-1930م) شخصية ذات أبعادٍ متعدّدة؛ ففي جانبٍ يعتبره العلماء إمام المفسّرين وفي جانبٍ آخر يعدّه الأدباء شاعراً قادراً للعربية والفارسية وفي جانبٍ ثالث يراه الكُتّاب ناقداً عادلاً، هذا بالإضافة إلى تمكّنه من درجة عالية للتقوى. فقال العلامة السيّد سليمان الندوي: "كان رحمه الله آية من آيات الله في حدة الذهن وكثرة الفضل وسعة العلم ودمائة الخلق وسداد الرأي والزهد في الدنيا والرغبة في مرضاة الله".²

وبجانب هذا كان الإمام رحمه الله يتقن اللغة العربية نطقاً وكتابةً فقال العلامة تقي الدين الهالبي: "للشيخ (الفراهي) ديوانٌ شعر سمعته منه، بليغ مؤثر في استنهاض همم المسلمين وبث الحياة في قلوبهم ... والرجل فصيحٌ في التكلم لغاية، نادرٌ في علماء العرب فضلاً عن علماء الهند، ماهرٌ في الإنكليزية والعربية والأردوية ... وبالجملّة فهو أعلمُ مَنْ لقيته".³

وفي هذا المقال الوجيز ندرس طرفاً من صلات الأفعال التي استخدمها الإمام الفراهي ونرى هل جاءت هذه الصلات في كلام العرب والقرآن الكريم أم هي مما أبدعها الإمام الفراهي وليس لها شاهد من النصوص الموثوق بها.

¹ مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليّة الإسلامية، الهند

² إمعان في أقسام القرآن، ص 15

³ نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، 3-2/1

نقسم مقالنا في ثلاثة مباحث تالية:

1. الصلوات التي وردت في كلام العرب والقرآن الكريم
2. والصلوات التي أوردتها الإمام الفراهي على طريق التضمين
3. والصلوات التي أخطأ فيها الإمام الفراهي
4. وما اختلط على الإمام الفراهي من الصلوات

أولاً: الصلوات التي وردت في كلام العرب والقرآن الكريم

1. تبرأ إليه: قال الإمام الفراهي: "وهذا زجر للشركاء كأن الله يطلبهم للعذاب فيفزعون إذا سمعوا هذا الكلام، وتبرأوا إلى الله من سخطه العظيم".¹
برأ يعني: شفي وتخلص كما قال الأعشى الكبير:

أراني بريئاً من عمير ورهطه إذا أنت لم تبرأ من الشر فاسقم²
وكثر استعماله في القرآن الكريم فقال تعالى: "قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٦﴾". (سورة الأنعام)

وأما قول الأقيشر الأسدي:

إخوة القرد وهم أعمامه برئت منكم إلى الله العرب³
فيعني برئت وتابت إليه.

¹ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 42/2

² ديوانه، 317/1

³ ديوانه، ص 56

ومنه برّاه أي: جعله بريئاً كما يعني المجهول منه خالصاً كما قال ساعدة بن جؤية:
وما وجدتُ وجدي بها أمٌ واحدٍ على النأي شمطاءً القذال عقيم
رأته على فوت الشباب وأنها تراجعُ بعلاً مرةً وتيم
فشبَّ لها مثلُ السنان مُبرأً أشمٌ طوالُ الساعدين جسم¹
وأما برّاه فيتعدى لمفعولين تدخل على المفعول الثاني (من) فقال حسان بن ثابت
الأنصاري:

وأحسن منك لم تر قطّ عيني وأجل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأً من كل عيب كأنك قد خلقت كما نشاء²
وقال تعالى: "يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا
وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا"³. (سورة الأحزاب)

وهكذا تبرأ يتعدى بحرفي جرهما إلى ومن فبرأ إليه: رجع إليه كما قال تعالى: "قَالَ
الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا
كُنَّا إِثًّا يَعْْبُدُونَ"⁴. (سورة القصص)
وتبرأ منه: برئ منه كما قال عمرو بن الجعيد الأفلح:

فإني وتركي وصلَ كأسٍ لكالذي تبرأ من لاتي وكان يدينها⁵
وقال تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهَ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ
اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ"⁶. (سورة البقرة)

¹ ديوان الهذليين، 228/1

² شرح ديوانه، ص 19

³ أسجاع الكهان الجاهليين وأشعارهم، ص 366

وأما تبرأ منه به كما في قول المزد الغطفاني:

تَبَرَّأْتُ مِنْ شَتَمِ الرِّجَالِ بِتَوْبَةٍ إِلَى اللَّهِ مَنِي لَا يُنَادِي وَلِيدَهَا¹
فيعني: برئ منه بواسطته.

ومن بديع استعمالات الإمام الفراهي أنه جمع الحرفين أي: تبرأ إليه منه.

2. خَطَبَ عَلَيْهِ: قال الإمام الفراهي: "إِنَّ الْأَرْنَابَ خَطَبُوا يَوْمًا عَلَى الْحَيَوَانِ قَائِلِينَ:
أَنْ يَكُونَ جَمِيعَ الْحَيَوَانَاتِ سَوَاسِيَةً".²

خَطَبَهُ يَعْنِي: خَاطَبَهُ أَوْ أَلْقَى عَلَيْهِ الْخُطَابَ كَمَا قَالَ عَنَتْرَةَ بْنِ شَدَّادِ الْعَبْسِيِّ:

فَالْعُمِيُّ لَوْ كَانَ فِي أَجْفَانِهِمْ نَظَرًا، وَالْخَرَسُ لَوْ كَانَ فِي أَفْوَاهِهِمْ خُطْبًا³
وجاء في حديث أبي سعد: "خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى مُغِيرَةَ بْنِ الشَّامِ".⁴

وكذا يعني: طلب الزواج من فتاة كما قال الفرزدق:

فَاخْطُبْ وَقُلْ لِأَيِّكَ يَشْفَعُ إِنَّهُ سَيَكُونُ، أَوْ سَيَعِينُكَ الْمَقْدَارُ
بِكْرًا عَسَتْ بِكَ أَنْ تَكُونَ حَظِيَّةً، إِنَّ الْمَنَاحَ خَيْرُهَا الْأَبْكَاءُ⁵
وهو لازمٌ ومتعلِّدٌ بنفسه فاللازم يتعدى بثلاثة أحرف وهي: إلى وعلى واللام فخطبَ
إليه: وجه الخطبة إليه كما قال الفرزدق:

وَإِنِّي لِأَخْشَى أَنْ خُطِبْتُ إِلَيْهِمْ عَلَيْكَ الَّذِي لَا قِيَّاسَ الْكَوَاعِبِ⁶

¹ ديوانه، ص 57

² أمثال آصف الحكيم، ص 71

³ شرح ديوانه، ص 25

⁴ لسان العرب: غرب

⁵ ديوانه، ص 325

⁶ ديوانه، ص 89

وخطب له: خاطبه كما قال الفرزدق نفسه:

رب، عليه يطلُّ يخطُب قائماً للناس يشدّخهم بملكٍ قسور¹
وأما خطب عليه فيعني: ألقى عليه الخطاب كما قال بعض الكليين:

وإذا خطبت على الرجال فلا تكن خطل الكلام ولا تكن مختالا
واعلم بأن من السكوت لبانة ومن التكلم ما يكون خبالا²
ونفس المعنى ذكره الإمام الفراهي.

3. دبّ إليه وعليه: قال الإمام الفراهي: "فلما رأى الفأر ذلك دبّ إليه ونهسه وفرّ
إلى جحره".³ وقال: "كان أسد نائماً فدبّت على وجهه فأرة فأيقظته".⁴

دبّ يعني: مشى كما ذكر تعالى معناه في محكم كتابه فقال: "وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ
فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ
يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"⁵. (سورة النور)

وهو نقيض نهض وقام كما قال معاوية بن مالك بن جعفر:

وكنْتُ إذا العظيمة أفضعتهم نهضتُ ولا أدب لها ديبيا⁵
وقال الحارث بن حبيب الباهلي:

وهل من شبابٍ يُشترى بعد كبرةٍ يدلّ عليه الحارث بن حبيب

¹ ديوانه، ص 291، قسور: شجاع

² كتاب الأشباه والنظائر للخالدين، 208/2

³ أمثال آصف الحكيم، ص 54

⁴ أمثال آصف الحكيم، ص 5

⁵ موسوعة شعراء العصر الجاهلي، ص 307

فَنَ لاسوداد الرأس بعد ايضاضه وَمَنْ لِقوام الصلب بعد ديب¹
ويعمّ لمشي النمل كما قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

دبّوا ديب النمل قد آن الظفر لا تنكروا بالحرب ترمي بالشر²
ولكنه مجازاً يستخدم لحركة كل مخلوق من الرجل إلى البهيمة إلى الطير إلى الذرّ
والكرى ففسرد فيما يلي طرفاً من الشواهد وستجد المزيد حين الحديث عن صلاته
فقال المرار بن سعيد الفقعسي:

ولا تنقطع من وامتق ذي مودة لغيّب ولا واش يدبّ ويقدح³
وقال المخبل السعدي:

فقبلك بدرّ عاش حتى رأيته يدبّ ومولاه عن المجد شاغله
وينفس مما ورثتني أوائلي ويرغب عما أورثته أوائله⁴
وقال جابر بن الثعلب الطائي:

إذا المرء لم يسرح سواماً ولم يُرح سواماً ولم تعطف عليه أقاربه
فلهموت خير للفتى من قعوده عديماً ومن مولى تدبّ عقاربه⁵
وقال علقمة الفحل:

كأنهم صابت عليهم سحابة صواعقها لطيرهن ديب⁶

¹ ديوان الشعراء المعمرين، ص 323

² ديوانه، ص 52

³ مجلة المورد، 2/2/ حزيران 1973م، ص 162

⁴ عشرة شعراء مقلّون، ص 69

⁵ شرح ديوان الحماسة، 1/115

⁶ ديوانه، ص 18

وقال المتوكل الليثي:

إذا تمشي تقولُ ديبَ سيلٍ تعرَّجَ ساعةً ثم استقاماً¹
ومنه الجدول كما قال الكهيت الأسدي:

حتى طرقتُ خليجاً دبَّ جدولُهُ من المعينِ عليه البُترُ تصطخب²
وقال عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

لو دبَّ ذرٌّ فوق ضاحي جلدِها لأبان من آثارهنَّ حُذور³
وقال العجير السلولي:

دعوتُ وقد دبَّ الكرى في عظامه وفي رأسه حتى جرى في المفاصل
كما دبَّ صافي النمر في مخِّ شارِبٍ يميل بعطفه عن اللبِّ ذاهل⁴
وقال تعالى: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا
كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ" (سورة هود)

وقال: "إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" (سورة هود)

وقال أيضاً: "وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ
يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ" (سورة النور)

¹ شعره، ص 118

² ديوانه، ص 56، المعين: الماء الجاري على وجه الأرض

³ ديوانه، ص 223

⁴ مجلة المورد الفصلية، 1/8/1979م/229

وتأتي للفعل (دَبَّ) ستَّ صلوات وهي إلى وعلى وعن وفي واللام ومن فدَبَّ إليه:
مشى إليه مختفياً كما قالت الخنساء:

ولا يقوم إلى ابن العم يشتمه ولا يدبُّ إلى الجارات تخويداً¹
وقال الشاعر يصف جاريةً وبعلاًها:

يدبُّ إلى أحشائها، كلَّ ليلةٍ، ديبَّ القرنيَّ بات يعلو نقاً سهلاً²
ودبَّ عليه: مشى عليه ومشى بواسطته كما قال المرقش الأكبر:

فيصبحُ مُلقى رحلها حيث عرَّستُ من الأرض قد دبَّت عليه الروامس³
وقال توبة بن الحمير:

ألستم أحمقُ الناس أن لا نريكم بشيء، ولو دبَّت علينا العقاربُ⁴
ودبَّ عنه: فرَّ عنه كما قال معاوية بن أبي سفيان: " --- وإما أن تكونوا قومًا تطلبون
بدم خليفتم وصهر نبيكم، وإما أن تكونوا قومًا تدبُّون عن نساءكم وأبنائكم".⁵
ودبَّ فيه: خالطه كما قال العجير السلولي:

دعوتُ وقد دبَّ الكرى في عظامه وفي رأسه حتى جرى في المفاصل
كما دبَّ صافي النجر في مخِّ شارِبٍ يميل بعطفه عن اللبِّ ذاهل⁶

¹ ديوانها، ص 38، تخويد: إسراع

² لسان العرب: قرن

³ ديوان المرقشين، ص 57، الروامس: الرياح التي تدفن الآثار

⁴ ديوانه، ص 81

⁵ جمهرة خطب العرب، 189/1

⁶ مجلة المورد الفصلية، 1979/1/8م/229

وقال نابغة بني شيبان:

تدبُّ فيها حميّاها وقد شربوا؛ منها قطابٌ ومنها غيرُ مقطوب¹
وكذا يعني مشى عليه كما قال الفرزدق:

تدبّون حولَ ريكاتكم ديبٌ القناذل في العرج²

وقال تعالى: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ" (سورة الأنعام)

ودبّ له: قام إليه ببطء كما قال أبو طالب عمّ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

أذبٌ وأحمي رسولَ الملّيك حمايةً حامٍ عليه شفيق
وما إنْ أذبٌ لأعدائه ديبٌ البكار حذارَ الفنيق³

وأشدّ أعراي من بني أسد:

دبّ لها أسودٌ كالسرحان، يخدم، يخدم الإهان⁴

ودبّ منه: صدر عنه كما قال الكميت الأسدي:

حتى طرّقَ خليجاً دبّ جدولُهُ من المعينِ عليه البئرُ تصطب⁵

فاستخدام الفراهي يوافق ما شاع في كلام العرب.

4. رأف عليه: قال الإمام الفراهي: "فقال: ما أرافه عليك ثم سأل: ما هذه

¹ ديوانه، ص 73

² ديوانه، ص 111، الرّيكات (وا: ركيّة): البئر ذات الماء، العرج: نبات سهلي.

³ ديوانه، ص 112

⁴ لسان العرب: خلب

⁵ ديوانه، ص 56، المعين: الماء الجاري على وجه الأرض

السلسلة في عنقك".¹

والرأفة تتعدى بثلاثة أحرف جرّ وهي الباء وعلى وفي فقال حسّان بن ثابت
الأنصاري يرثي عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

وَجَعْنَا فَيُورُوزَ لَا دَرَّ دَرَّهُ بِأَبْيَضٍ يَتْلُو الْحِكْمَاتَ مَنِيبٍ
رُؤُوفٍ عَلَى الْأَدْنَى غَلِيظٍ عَلَى الْعَدَا أَنْحِي ثَقَّةً فِي النَّائِبَاتِ نَجِيبٍ
مَتَى مَا يَقِلُّ لَا يَكْذِبُ الْقَوْلَ فَعَلُهُ سَرِيعٌ إِلَى الْخَيْرَاتِ غَيْرِ قُطُوبٍ²
وقال الكميت الأسدي:

وهم الأرافون بالناس في الرأفة والأحلمون في الأحلام³
وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "وَأْمُرْكَ أَنْ تَشْتَدَّ فِي أَمْرِ اللَّهِ، وَفِي حَدُودِهِ وَمَعَاصِيهِ،
عَلَى قَرِيبِ النَّاسِ وَبَعِيدِهِمْ، ثُمَّ لَا تَأْخُذَكَ فِي أَحَدٍ رَأْفَةً حَتَّى تَنْتَهَكَ مِنْهُ".⁴
5. ركب عليه: قال الإمام الفراهي: "استكرى مسافرٌ حماراً وركب عليه".⁵
وقال: "فإن شئتَ ركبته عليه".⁶ وقال أيضاً: "فألجمه الإنسان وركب عليه".⁷
رَكِبَ يَرْكَبُ رُكُوبًا: علاه، ويعمّ لعلو متن الفرس والناقة كما قال امرؤ القيس:
تَمِيمُ بْنُ مَرٍّ وَأَشْيَاعُهَا وَكَنْدَةُ حَوْلِي جَمِيعًا صُبْرُ

¹ أمثال آصف الحكيم، ص 45

² شرح ديوانه، ص 40-41

³ ديوانه، ص 498

⁴ جمهرة خطب العرب، 1/95

⁵ أمثال آصف الحكيم، ص 48

⁶ أمثال آصف الحكيم، ص 48

⁷ أمثال آصف الحكيم، ص 69

إذا ركبوا الخيلَ واستاثموا تحرّقت الأرض واليوم قر¹
وقال حسان بن ثابت الأنصاري:

ثقيفٌ شرٌّ من ركب المطايا وأشباهُ الهجارس في القتال²
ومن هنا عني لركوب البحر لكونه كالمطية كما قال الشاعر:

ركب البحرَ إلى البحر، إلى غمراتِ الموت ذي الموج المُردّ³
وهكذا عني لعلّو متن الطريق فإنّه يشبه المطية كما جاء في الحديث: "لتركبن سنن مَنْ
كان قبلكم حذو النعل بالنعل"⁴.

وأما السفينة فقد استعمله العرب لها فقال أبو الأسود الدؤلي:
ألا أبلغ معاوية بن حرب، فلا قرّت عيونُ الشامتين،
قتلتم خيرَ من ركب المنايا وخيسّها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها ومن قرأ المثاني والمئين⁵
وذلك لأنّ العرب كثيراً ما شبهوا المطية بالسفينة فقال امرؤ القيس:

بعينيّ ظعنُ الحيّ لما تَحَلَّوا لدى جانبِ الأفلاج من جانبِ قيمرا
فشبهتهم في الآل لما تكمّشوا حدائقَ دُومٍ أو سفيناً مُقيراً⁶

¹ ديوانه، ص 68

² شرح ديوانه، ص 273

³ لسان العرب: ردّ

⁴ لسان العرب: حذو

⁵ ديوانه، ص 152

⁶ ديوانه، ص 59-60، حدائق دُوم: الحدائق التي تكثر فيها شجر الدوم مثل والتين وكذا حذف التاء من السفينة فجعلها مذكراً وأني بصفة المذكر طبقها

وقال طرفة بن العبد البكري:

عدولية أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طوراً ويهتدي¹
ويأتي مجازاً فقال الأعشى الكبير:

ولم ينتكس يوماً فيظلم وجهه ليركب عجزاً أو يضارع مأثماً²
وقال الكميّ الأسدي:

ركبتم صعبتي أشراً وحيناً ولستم للصعاب بمقرنين³
وقال الأخرم السنبي:

فإني لذو مرة مرة إذا ركبت حالةً حالها
أقدم بالزجر قبل الوعيد لتنتهي القبائل جهالها⁴
ويتعدى بثلاثة أحرف وهي إلى وعلى وفي فركب إليه: ركب فطار إليه كما قال
الفرزدق:

ولم يدع داع: يا صباحاً، فيركبوا إلى الروع إلا في السفين المضبب⁵
وقال حريث بن محقق المازني:

ألم تر قومي إذ دعاهم أخوهم أجابوا وإن يركب إلى الحرب يركبوا⁶

¹ جمهرة أشعار العرب، ص 305

² ديوانه، 575/2

³ ديوانه، ص 462

⁴ شرح ديوان الحماسة، 424/1

⁵ ديوانه، ص 19، المضبب: المضبية، أي لم يكونوا فرسان الخيل

⁶ مجلة المورد، 1988/2/17، ص 125

وقال البعيث:

إذا ركب الحيّان عمرو ومالك إلى الموت أشباه المعيدة البزل
سمونا بعنّين أشمّ وسادة مراجيح ذوادين عن حسب الأصل¹
وركبّ عليه: علا عليه كما قال ورقة بن نوفل:
ولقد ركبْتُ على السفينِ مُلججاً أذرُ الصديقِ وأنتحي دارَ العدى²
وركبّ فيه: ركه كما قال زيد الخليل:
وتركبُ يومَ الروع فيها فوارسُ بصيرون في طعن الأباهر والكُلا³
وقال الفرزدق:

ولم يدعُ داع: يا صباحاً، فيركبوا إلى الروع إلا في السفين المضبب⁴
وقال تعالى: "فَأَنْظِلْنَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبُوا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغَرِّقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٣١﴾". (سورة الكهف)
وقال أيضاً: "فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّكَ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٢﴾". (سورة العنكبوت)

ولو أنّ السفينة يأتي لها الفعل متعدياً بنفسه وبـ"على" وبـ"في" إلا أنّ (في) أبلغ فإنّ السفينة تكون بحيث يجلس فيها الرجل. والقرآن اختار ما هو أبلغ معنى وأكثر تصويراً. ومن حسن الحظ أنّ الإمام الفراهي أورد هذه الصلة أيضاً فقال: "لا قدر

¹ ديوانه، ص 20

² مجلة المورد، 17/2/1988م، ص 173

³ نوادر أبي زيد، ص 303

⁴ ديوانه، ص 19

لهذه الحياة الخالدة. شغلهم بشهواتها المذهلة يبطل عند ظهور بطلانها. ومثال ذلك ركوبهم في السفينة، ولكن ذلك ينقضي فينسونه".¹

6. رَانَ عليه: قال الإمام الفراهي: "فظنّ سواده من الوسخ الذي ران عليه من غفلة مولاه الأول".²

رَانَ يعني: غلب وهو لازم يتعدى بثلاثة أحرف وهي الباء وعلى وفي فرَانَ به: أحاط به كما قال أبو زيد الطائي يصف سكران غلبت عليه الخمر:

ثم رآه رانتُ به الخمر وأن لا يريه بالتقاء³
وأشدد ابن الأعرابي:

ضخيتُ حتى أظهرتُ ورين بي، ورين بالساق الذي كان معي⁴
ورَانَ عليه: غلب عليه كما قال المأمون الحارثي: "أرعوني أسماكم، وأصغوا إليّ قلوبكم - --- ران على القلوب الكدر".⁵

وقال تعالى: "كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾". (سورة المطففين)
ورَانَ فيه: عمّ فيه كما قال الطرماح:

وركبٍ قد بعثتُ إلى رذايا طلائحٍ مثل أخلاقِ الجفون
مخافة أن يرين النومُ فيهم، بسُكرِ سناتهم، كلّ الريون⁶

¹ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 57/2

² أمثال آصف الحكيم، ص 38

³ شعره، ص 28 ويروى: "أن لا ترينه بالتقاء"، لسان العرب: رين

⁴ لسان العرب: رين

⁵ جمهرة خطب العرب، 36/1، وأججاع الكُهان الجاهليين وأشعارهم، ص 376

⁶ ديوانه، ص 294

وأما الباء في "بسکر سناتهم" فهي سببية.

فأخذ الإمام الفراهي من القرآن الكريم وطوره معني.

7. سَكَتَ عنه: قال الإمام الفراهي: "فَفَصَّلَ هناك ما يتعلّق بآل عمران وسكت

ههنا عنه".¹

وقال أيضًا: "فإنهم قد أظهرُوا شرَكهم بدعائهم، فسكتُوا عن تساؤل بعضهم بعضًا

كيف يقولون".²

سَكَتَ يعني: صمت. قال عنترة بن شداد العبسي:

سَكْتُ فغَرَّ أعدائي السكوتُ وظنوني لأهلي قد نسيتُ

وكيف أنام عن ساداتِ قومٍ أنا في فضلِ نعمتهم ريبُ³

ويضاده القول والنطق فقال العباس بن الأحنف:

سَأَسَكْتُ ما لم يجمع الله بيننا فإن نلتقي يومًا فسوف أقول⁴

وقال المرار بن سعيد الفقعسي:

إذا سكتوا رأيتَ لهم جمالًا وإن نطقوا سمعتَ لهم عقولًا⁵

وقد يعني: مات كما جاء في حديث ماعز: "فرمينا به بجملة الحرّة حتى سكت".⁶

والفرق بين الصموت والسكوت أنّ الأول لا يسبقه النطق بينما الثاني يعمّه النطق

¹ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 42/1

² تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 42/2

³ شرح ديوانه، ص 38

⁴ ديوانه، ص 223

⁵ مجلة المورد، 2/2/ حزيران 1973 م ص 172

⁶ لسان العرب: سكت

كما قال كعب بن زهير:

لا تُفش سرَّك إلا عند ذي ثقة أو لا، فأفضلُ ما استودعت أسراراً
صدراً رحيباً وقلباً واسعاً صمتاً لم تخش منه لما استودعت إظهاراً¹
فالصدر الصمت هو أن لا يذيع بالسر.

وقال ابن مقبل يصف الفتيات:

إذا نطقن رأيت الدرّ منتشراً وإن صمتن رأيت الدرّ مكنوناً²
وقال عنترة بن شدّاد العبسي:

سكتُ فغرّ أعدائي السكوتُ وظنوني لأهلي قد نسيتُ
وكيف أنام عن سادات قوم أنا في فضلِ نعمتهم ريبُ³
وقال الفرزدق:

إذا ما بدا الحجاج للناس أطرقوا، وأسكت منهم كل من كان ينطق⁴
والسكوت يأتي لازمٌ يتعدى بحرفي جرّهما الباء وعن فسكت به، وهو قليل نادر: لم
يعلن به وصبر عليه كما قال العباس بن الأحنف:

سأسكتُ، إن بخلت، بجديع أنفي وأحفظكم إلى يوم التناد⁵
وأما سكت عنه فيعني: لم ينطق ولزم الصمت والصبر عن الشيء فقال علي بن أبي

¹ ديوانه، ص 38

² ديوانه، ص 232

³ شرح ديوانه، ص 38

⁴ الحماسة الشجرية، ص 410

⁵ ديوانه، ص 102

طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وأسكتُ عن أشياء لو شئتُ قلتُها وليس علينا في المقال أمير¹
وقال العباس بن الأحنف:

قد كنتُ عن وصف الهوى سائِلاً ففضحتك الأدمعُ الناطقه²
وقال آخر:

لنا صاحبٌ لا عيُّ اللسان فيسكتَ عنا ولا غافل³
وأما قوله تعالى عن موسى عليه السلام:

"وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ ۚ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ
لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٧٦﴾". (سورة الأعراف)

فيعني: زال وانتهى.

وكذا يتعدى بها الإفعال منه كما قال الشاعر:

وأمرٌ عظيمُ الشأن، يُرهَبُ هولُه، ويعيا به مَنْ كان يُحسبُ راقياً
تفشاً إخوانَ الثقاتِ فعمَّهم، فأسكتُ عني المَعولاتِ البواكيا⁴
8. سَقَطَ في يده: قال الإمام الفراهي: "قال: دع ذلك أنا أريك الأسد نفسه.
فسقط في يد الصياد وجعل يرتعد".⁵

¹ ديوانه، ص 54

² ديوانه، ص 203

³ الصحاح: عيَّ

⁴ لسان العرب: فشأ

⁵ أمثال آصف الحكيم، ص 51

سَقَطَ فيه يعني: سقط في مكانٍ ما كما قال العباس بن الأحنف:
أرهب أن يظهر الحديث وأن تسقط في كفٍ غيره الكتب¹
وأما في التعبير الخاص فهو مأخوذ من القرآن الكريم. قال تعالى: "وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٩﴾". (سورة الأعراف)

وهي تعني: ندامة الرجل وتأسفه على شيء. أما أصلها فقد اختلفوا فيه. يقول ابن منظور: "سقط من يدي وسقط في يد الرجل: زلّ وأخطأ، قيل سقط في يد الرجل: ندم، وقال الفارسي: ضربوا بأكفهم على أكفهم من الندم، وقال الفراء: سقط في يده وأسقط من الندامة، وقال الزجاج: يقال للرجل النادم على ما فعل الحرّ على ما فرط منه: قد سقط في يده وأسقط".²

وعندي أنّ الرجل يرى العاقبة أو عائدة الشيء بعيني رأسه إذا وجد الشيء في يديه فهي عبارة عن وضع الشيء أو عائدته أمام عيني الرجل ويدلّ على هذا المفهوم ماجاء بعدها من الكلام في القرآن الكريم.

9. سَكَنَ عنه: قال الإمام الفراهي: "إنّ الله تعالى جعل الليلَ مُظْلِمًا كَاتِمًا، فنسكن فيه عن العمل، وجعل النهار مُبْصِرًا فنكدح فيه".³

سَكَنَ يعني: قطن وهدأ واطمأنّ. قال عبيد الله بن قيس الرقيات:
فتاتان يعضاوان بالحسن راقنا على ساكن الدنيا بيانا وميسما⁴

¹ ديوانه، ص 49

² لسان العرب: سقط

³ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 28/2

⁴ ديوانه، ص 62

وقال مسكين الدارمي:

أرى كل ريح سوف تسكن مرة وكل سماء لا محالة تقلع¹

وقال أبو صخر الهذلي:

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر²
ويأتي متعدياً بنفسه كما قال امرؤ القيس:

ومرّقب تسكن العقبان قلته أشرفته مُسْفِراً والنفس مهتابه³
وأما سكنه عنه فيعني: دفعه عنه كما قال حسان بن ثابت الأنصاري:

وقد أكرمتكم وسكنت عنكم سراة الأوس لو نفع السكون⁴
والفعل اللازم يتعدى بخمسة أحرف وهي: إلى والباء وعلى وعن وفي فسكنَ إليه:
اطمأنَّ ووجد السكينة فللمعنى الأول قول أسامة بن منقذ:

كذلك حظي من الأحباب: من سكنت نفسي إليه حباني الهجر والشفاف⁵
وللمعنى الثاني قوله تعالى: "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا
لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ
رَبَّهُمَا لِنِ آتَيْنَا صَلَاحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ" (سورة الأعراف)

وسكنَ به: أقام به وهو عام كما قال المرقش الأكبر:

سكنَ ببلدة وسكنت أخرى وقطعت الموائق والعهود⁶

¹ ديوانه، ص 51

² شرح ديوان الحماسة، 747/2

³ ديوانه، ص 46

⁴ شرح ديوانه، ص 347

⁵ ديوانه، ص 77، الشنف: البغض

⁶ ديوان المفضليات، ص 224

وقال أبو ذؤيب الهذلي:

وأرى البلادَ إذا سكنتَ بغيرها جدباً وإن كانت تُطلَّ وتُخَضَّب
ويحلَّ أهلي بالمكان فلا أرى طرفي بغيرك مرةً ¹ يتقلب

وكذا يعني: سكن بسببه كما قال الفرزدق:

لئن سكنتَ بي الوحشُ يوماً لظالماً ذعرتُ قلوبَ المرشقاتِ الملائح ²
وسكنَ عليه: اطمأنَّ عليه كما قال لبيد بن ربيعة العامري:

والعينُ ساكنةٌ، على أطلائها، عوداً، تأجلُ بالفضاء بهامها ³
وكذا يعني: قام عليه كما قال الفرزدق:

وردتُ وجوزُ الليل حيرانُ ساكنٌ عليه، وقد كادت تميلُ كواكبُه ⁴
وسكنَ عنه: بعد عنه كما قال حسان بن ثابت الأنصاري:

وقد أكرمتكم وسكنتُ عنكم سراةَ الأوس لو نفع السكون ⁵
وكذا يعني: رغب عنه كما قال الفرزدق:

وما سكنتُ عني نوارٌ فلم تقل علامَ ابنُ ليلى، وهي غبرُ عيالها
تقيمُ بدارٍ قد تغيرَ جلدُها وطلال، ونيرانُ العذاب، اشتعالها ⁶

¹ ديوان الهذليين، 63/1

² ديوانه، ص 119

³ ديوانه، ص 165 ولسان العرب: أجل

⁴ ديوانه، ص 78

⁵ شرح ديوانه، ص 347

⁶ ديوانه، ص 424-425

وَسَكَنَ فِيهِ: ففي هنا ظرفية كما قال العباس بن الأحنف:
ما زال حبك في فؤادي ساكناً وله، يزيد تنفسي، ترديد¹
وقال تعالى: "وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ
وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ"². (سورة إبراهيم)

فالسكون عن العمل هو البعد عنه وهو موافق لكلام العرب.
10. سَلِمَ عنه: قال الإمام الفراهي: "وإنما يسلم المرء عن الخطأ إذا سدّ جميع أبوابه".³
وقال: "ولكن قلنا يسلم المرء عن الخطأ في استنباط أصول الآثار فإن الشيء المؤثر
يستجمع عدة صفات".⁴

سَلِمَ لازمٌ يتعدى بأربعة أحرف وهي على وعن واللام ومن فسَلِمَ عليه: سلم ضده كما
قال عبد المسيح بن عسلة:

ألا يا اسلمي على الحوادث فاطما فإن تسأليني تسألي بي عالماً⁴
وسَلِمَ عنه: بعد عنه كما قال المخبل السعدي:

إذا أنت عادت الرجال فلاقهم وعرضك عن غب الأمور سليم⁵
وسَلِمَ له: أسلم له كما قال كثير عزة:

ومن لا يغمض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتبه
ومن يتبع جاهداً كل عثرة يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب⁶

¹ ديوانه، ص 105

² مفردات القرآن، ص 95

³ جمهرة البلاغة، ص 5

⁴ ديوان المفضليات، ص 302

⁵ المخبل السعدي حياته وما تبقى من شعره، ص 131

⁶ ديوانه، ص 154

وسَلِمَ منه: فاته كما قال أعشى تغلب:

ما بال قومٍ أعزُّبوا حلهم أن قيل يوماً إن عمراً سَكُور
إن أكُ سِكِّيراً فلا أعدمُ الوغلُ ولا يسلمُ مني البعير
قاتلكِ الله بمشرويةٍ لو أن ذا المِرَّةِ عنكِ صَبُور¹

وقد بدّل "من" بـ"عن" خطأ الدكتور محمد خالد الرهاوي ومشاركه الجراح.²
واستعملها الإمام الفراهي في كتابه "حجج القرآن" فقال: "فإنهم لا يستطيعون أن يجروا
حدودهم إلا في أمثلة مخصوصة مع أنها لم تسلم من الخلدشات".³

11. أساء به: قال الإمام الفراهي: "هذا جزاء ما فعلت فإني أسأت بمن أُلجأتني".⁴
أساء: ضدّ أحسن كما قال الكميّ الأسدي:

وإذ أخذتُ له في ما شريطِ رآنا بالإساءة محسِنينا⁵
ويرادفه الشرّ والظلم والدون فقال الفند الزماني:
وفي الشرّ نَجاة حية ن لا ينجيك إحسان⁶
وقال حري بن ضمرة:

إني إن استطعُ والدهرُ ذو أملٍ أجعلُ لأمرٍ من الأمور أشطانا
يشفي الغليلَ ويجزي العامدين لها بالظلم ظلماً وبالإحسانا إحسانا⁷

¹ الصبح المنير في شعر أبي بصير، ص 344

² جمهرة البلاغة، ص 105

³ حجج القرآن، ص 41

⁴ أمثال آصف الحكيم، ص 67

⁵ ديوانه، ص 447

⁶ شرح ديوان الحماسة، 27/1

⁷ شرح ديوان الحماسة، 367/1، وعشرة شعراء مقلّون، ص 22

وقال إبراهيم بن هرمة القرشي يهجو محمد بن عمران:
مثلُ ابنِ عمرانَ آباءُ له سلفوا يَجْزُونَ فعلَ ذوي الإحسان بالدُّونِ
ألا يكونُ كإسماعيلَ إنَّ له رأياً أصيلاً وفِعْلاً غيرَ ممنونٍ¹
وهو يأتي متعدياً بنفسه كما قال أوس بن حجر:
ورثنا المجدَ عن آباءِ صدقٍ أسأنا في ديارهم الصنيعا
إذا الحسبُ الرفيعُ تَوَاكَلَتْهُ بُنَاةُ السوءِ أوشك أنْ يَضِيعا²
وهكذا يأتي لازماً يتعدى بخسة أحرف وهي: إلى والباء وعلى وفي واللام فأساءَ إليه:
لم يحسن إليه كما قالت امرأة إسلامية لزوجها الذي كان يضايقها:
هل لي إليك إساءةٌ جازيتها إلا لباسي حلة الآداب³
وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "ما أحسنتُ إلى أحد ولا أسأتُ إليه".⁴
وأساءَ به: لم يحسن به كما قال زهير بن أبي سلمى:
فإن تدعوا السماءَ فليس بيني وبينكم بني حصن بقاء
ويبقى بيننا قَدَحٌ وتُلَفُوا إذا قومًا بأنفسهم أساءوا
وتوفدَ ناركم شرراً ويرفعَ لكم في كلِّ جمعةٍ لواء⁵
وقال هذبة بن الخشرم العذري:
وكم من صاحبٍ قد بان عني رُميتُ بفقده وهو الحبيب

¹ شعره، ص 225

² ديوانه، ص 56

³ شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص 203

⁴ الكشف، 225/2

⁵ ديوانه، ص 21

فلم أبدِ الذي تحنو ضلوعي عليه وإنني لأنا الكئيب
مخافة أن يراني مستكيناً عدوّ أو يُساء به قريب¹
وأساءَ عليه: لم يسره. ذكره ابن منظور ولم يستدل².

وأساءَ فيه: لم يحسن معاملته كما قال قس بن ساعدة الإيادي:
هل الغيثُ معطي الأمن عند نزوله بحالٍ مسيءٍ في الأمور ومحسن³
وأساءَ له: أساء به كما قال تأبط شراً:

فإن تصرمني أو تسيئي لعشريّ فإني لصرامُ القرن، مُعاشر⁴
فاستعمال الإمام الفراهي طبق ما شاع في عصور الاحتجاج.

12. فَطَمَهُ عنه: قال الإمام الفراهي: "وجملة القول أنّ النفوس بجهدِها في إطاعة الأوامر
تتم مصلحة خلقها فتبتلي بما فيه سعيها وإخراجها من هواها وفطامها عن شهواتها"⁵
فَفَطَمَهُ عنه فصله ويكون لفصل الصبيّ عن ثدي أمّه كما قال عمرو بن كلثوم قوله الشهير:
إذا بلغ الفطام لنا صبيّ تحرّ له الجبارُ ساجدينا⁶
وقد تبعه غنّرة العبسي في هذا المعنى فقال:

إذا بلغ الفطام لنا صبيّ تحرّ له أعادينا سجدنا⁷

¹ شعره، ص 61

² لسان العرب: سوء

³ ديوان الشعراء المعمرين، ص 510

⁴ ديوانه، ص 97 ويروى: صرام المهين، ص 97

⁵ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 42/1

⁶ جمهرة أشعار العرب، ص 299 وديوانه، ص 91 وفيه: "وليد" بدل "صبي". ولهذا البيت روايات أخرى.

⁷ شرح ديوانه، ص 50

وقد سبقهما مهلهل إذ قال:

منا إذا بلغ الصبيّ فطامه ساس الأمور وحارب الأقوام¹
وأما تعدّي مفعوله الثاني بـ"عن" فشهد عليه قول جحش بن زيد الحنفي:

فطمنا بني كعب عن البغي بعدها ولاقوا من الأبطال ضرباً غشمشما²
وكذا يتعدّى بالباء فقال عاصم بن عمرو التيمي:

إنّ ابن عفّان الذي جربتم فطمّ اللصوص بحكم الفرقان
ما زال يعمل بالكّاب مهيماً في كلّ عُنقٍ منهم وبنان³
13. كادَ له: قال الإمام الفراهي: "فأرادت الهرة أن تكيد لهلاك جيرانها"⁴.

كادَ يعني: مكرّ كما قال تعالى: "إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا" ^{١٥} وَأَكِيدُ كَيْدًا ^{١٦} ". (سورة الطارق)
وقال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

تتّحّ عن القبيح ولا تُردّه ومن أوليته حسناً فزده
ستُكفّي من عدوك كلّ كيدٍ إذا كاد العدو ولم تكده⁵
وكذا يعني: حارب إذ الكيد يستعمل في الحرب عامة كما قال عروة بن أذينة:
فهم كذلك من كادوا فإنّ له إنّ لم يتمنهم ذلاً وإثخاناً⁶

¹ ديوان الأصمعيات، ص 156

² الحماسة الشجرية، ص 176

³ شاعران من فرسان القادسية، ص 251

⁴ أمثال آصف الحكيم، ص 65

⁵ ديوانه، ص 207، أكفاه: جعله كافياً له

⁶ شعره، ص 133

وهو يأتي لازماً ومتعدياً معاً فاللازم يتعدى بحرفي جرّهما الباء واللام فكادّ به: أراد به كما قال ذو الرمة:

كأني غداة الزرق يا ميّ مدنفٌ يكيدُ بنفسٍ قد أجمّ حمامها¹
وكادّ له: مارس الكيد ضده كما قال تعالى: "قَالَ يَبْنَئُ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ" (سورة يوسف)
والمتعدي يتعدى بنفسه ولمفعولين تدخل على المفعول الثاني الباء كما قال عدي بن زيد العبادي:

وعند الإله ما يكيدُ عباده وكلاً يوفيه الجزاء بمثال²
وقال أبو زيد الطائي:

من يكديني بسيّ كنتُ منه كالشجا بين حلقه والوريد³
فكادّ له استعمال قرآني اتبعه الإمام رحمه الله تعالى.

14. مضى له: قال الإمام الفراهي: "أما الثالث فسيكون لك منه ضرر عظيم إن لم تتركه لي طوعاً ومضيت لسبيلك".⁴

مضى يعني: سلف كما قال الحادرة:

كم للمنازل من شهر وأعوام بالمتحنى بين أنهار وآجام
مضى ثلاث سنين منذ حلّ بها وعامٌ حلّت وهذا التابع الخلامي⁵

¹ ديوانه، ص 280

² ديوانه، ص 163

³ نوادر أبي زيد، ص 280

⁴ أمثال آصف الحكيم، ص 41

⁵ مجلة معهد المخطوطات العربية، 15/2/ ص 359

وكذا يأتي بمعنى ظَلَّ كما قالت الخنساء:

إذا القوم مدّوا بأيديهم إلى المجد مدّ إليه يدا،
فقال الذي فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعداً¹

وهو لازم ولكنه قليلاً ما يستعمل كالمُتَعَدِّي بنفسه كما قال بشر بن أبي خازم:

مضى قصد السبيل، وكلُّ حيٍّ إذا يُدعى لميته أجاباً²

وأما اللازم فيتعدّى بأحرف وهي إلى والباء وعلى وعن وفي واللام فَمَضَى إليه: تقدّم
كما قال عبدة بن الطبيب:

فإذا مَضَيْتُ إلى سبيلي فابعثوا رجلاً له قلبٌ حديدٌ أصمّ³
ومَضَى به: أمضاه كما قال عبيد بن الأبرص الأزدي:

دار حيٍّ مضى بهم سالف الدهر، فأضحت ديارهم كالخلال⁴
وكذا يعني: مرّ به كما قال عمرو بن معديكرب الزبيدي:

ومضى ربيعٌ بالجنود مُشرقاً ينوي الجهادَ وطعاة الرحمن⁵
ومَضَى عليه: مرّ عليه كما قال عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

فما ليلةٌ تمضي على الناس تنجلي، ولم أذر فيها عبرةً تُخْضِلُ النحرا⁶

¹ ديوانها، ص 31

² مختارات ابن الشجري، ص 306

³ ديوان الأصمعيات، ص 148

⁴ لسان العرب: خلل

⁵ شعره، ص 174

⁶ ديوانه (طبعة دار صادر، بيروت)، ص 116

ومَضَى عنه: غادره وفاته كما قال الفرزدق:

ولما مضوا عن خير سنةٍ معشرٍ وقام سليمانُ أتت خيرَ قائمٍ¹

ومنه مضى عنه به: أبعدته عنه كما قال المَرَّار الفقعسي:

مضى فمضت عني به كلُّ لذةٍ تقرُّ بها عيناها فانقطعا معا²

ومَضَى فيه: نفذ كما قال عروة بن الورد:

لحى الله صعلوكاً إذا جنَّ ليلُهُ مضى في المُشاش ألفاً كلَّ مجزٍ³

وكذا يعني: لبسه كما قال مُحَرِّز بن المكعبر الضبي:

إذا كُرِه السلاحُ مضينَ فيه ولم يكُ حقَّ عاداتها النُّكولُ

فظلَّ لهم على الأتقاء منا إلى أن أظلموا يومٌ طويلٌ⁴

ومَضَى له: تقدَّم له كما قال مهلهل بن ربيعة:

سأَمْضِي له قَدِماً ولو شاب في الذي أهِمَّ به فيما صنعتُ المقادِمُ

مخافةً قولٍ أن يخالفَ فعلُهُ وأن يهدمَ العزَّ المُشيدَ هادِمٌ⁵

وكذا يعني: مرَّ به كما قالت سُعدى بنت الشمردل الجهنية:

ولقد علمتُ لو أنَّ علهاً نافع أن كلَّ حيٍّ ذاهبٌ فودَّع

أفليس فيمن قد مضى لي عبرةً هلكوا وقد أيقنتُ أن لا يرجعوا⁶

¹ ديوانه، ص 585

² كتاب الأشباه والنظائر للخالدين، 239/2

³ ديوان الأَصمعيات، ص 45

⁴ قصائد جاهلية نادرة، ص 195

⁵ ديوانه، ص 75

⁶ ديوان الأَصمعيات، ص 102

وهكذا يعني: مضى كما قال الشاعر:

هل ترجع ليالٍ قد مضينَ لنا، والعيشُ منقلبٌ إذ ذاك أفنانا¹

وتأتي للاختصاص كما قال الأعشى الكبير:

ومضى لحاجته وأصبح حبلها خلقتا وكان يظن أن لن ينكدا²

وأما مضى لسبيله فيعني: مضى كما يعني: مات فقال امرؤ القيس:

فدع عنك هذا قد مضى لسبيله ولكن على ما غالك اليوم أقبل³

وقال النابغة الجعدي:

أولئك أخذاني مضوا لسبيلهم وأصبحت أرجو بعدهم أن أعمر⁴

وكذا يعنيه المضي إليه كما مضى قول عبدة بن الطيب:

فإذا مضيتُ إلى سبيلي فابعثوا رجلاً له قلبٌ حديدٌ أصم⁵

فاستخدام الإمام الفراهي يوافق على ما كان شائعاً في عصور الاستشهاد.

15. ضلَّ عنه: قال الإمام الفراهي: "لقي ذئبٌ سخةً ضلَّت عن ربضها".⁶

ضلَّ يعني: لم يهتد كما قال جرير:

وشبَّهتَ نفسك أشقى ثمود فقالوا: ضللتَ ولم تهتد⁷

¹ نوادر أبي زيد، ص 494

² ديوانه، 478/2

³ ديوانه، ص 111

⁴ ديوانه، ص 59

⁵ ديوان الأصمعيات، ص 148

⁶ أمثال آصف الحكيم، ص 6

⁷ ديوانه، ص 102

وقال طرفة بن العبد:

وكيف تضلُّ القصدَ والحقَّ واضحٌ ولحق، بين الصالحين، سبيل¹
واللازم يتعدى بخمسة أحرف وهي الباء وعلى وعن وفي واللام ومن فقال لبيد بن
ربيعة العامري:

ولا أضلُّ بأصحابٍ هديتهم إذا المعبدُ في الظلماء ينتشر²
وقال النابغة الذبياني:

لا يخفُضُ الرِّزَّ عن أرضٍ ألمَّ بها؛ ولا يضلُّ على مصباحه، الساري³
وقال امرؤ القيس:

غداثرته مستشزراتٌ إلى العلا تضلُّ المدارى في مثنى ومرسل⁴
وقال الأسود بن عبد غوث:

أتبكي أن يضلَّ لها بعيرٌ ويمنعها من النوم السُّهْدُ⁵
وقال المرار بن سعيد الفقعسي:

فضللتُ من عقر الديار كأنما من نحر أذرعة سقت بالأكؤس⁶
وأما ضلَّ عنه فيعني: لم يهتد وغاب عنه كما قال عدي بن زيد العبادي:
والأطباء بعدهم لحقوهم ضلَّ عنهم سَعوطهم والدود⁷

¹ ديوانه، ص 67

² ديوانه، ص 58

³ ديوانه، ص 125

⁴ ديوانه، ص 115

⁵ موسوعة شعراء صدر الإسلام والعصر الأموي، ص 65

⁶ مجلة المورد، 2/2 حزيران 1973م، ص 167

⁷ ديوانه، ص 122

وقال أعشى همدان:

ضَلَّتْ الطيرُ عنكم بجلولا ءَ وغرَّتكم أمانِي الزبير¹

وقال النابغة الذبياني:

ضَلَّتْ حلومهم عنهم، وغرَّهم سنُّ المعيدي في رعي وتعزيب²

وقال تعالى: "وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَكُنْتُمْ مَا لَهُمْ مِنَ مَحْصٍ" (سورة فصلت)

16. أفردَه له: قال الإمام الفراهي: "واللسان ليس الألفاظ المحض بل هو يشمل أساليب كلامهم وفهم إشاراتهم. وأفردنا لكل هذه الأمور كتاباً على حدة لكي يسهل التأمل".³

الفردُ: الواحد، مَنْ لا ناصر له، ومن لا وارث له، وَمَنْ لا ثاني، وَمَنْ لا مثيل له كما قال الراعي النميري:

وللسر حالات فنه جماعة ومنه نجيّان وأحزمها الفرد⁴

وقال الفرزدق:

أما الفرادى فلا فردٌ يقوم له وقد يشدُّ على الألفين أحياناً⁵

وقال عنتره بن شداد العبسي:

متى ما نلتقي فردين ترجف روائف أليتيك وتُستطارا⁶

¹ ديوانه، ص 131

² ديوانه، ص 35

³ أساليب القرآن، ص 4

⁴ شعره، ص 43

⁵ ديوانه، ص 634

⁶ شرح ديوانه، ص 69

حتى شرحه شمر بن عبد الله الشكري الذي قال يرثي أخاه الريان:

ولقد جُفِعْتُ بسادةٍ وفوارسٍ للحربِ سُعِرٍ من بني شيبان
إعتاقهم ريبُ الزمانِ فغالهم وتُرُكْتُ فرداً غير ذي إخوان¹
ف"غير ذي إخوان" شرح للفرد.

وقال تعالى: "وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا" (سورة مريم)

ويعنيه المنفرد أيضاً كما قال عنتر بن شداد العبسي:

إذا رشقتُ قلبي سهاماً من الصّدِّ وبدّلَ قربي حادثُ الدهر بالبعد
لبستُ لها درعاً من الصبر مانعاً ولاقيتُ جيشَ الشوف منفرداً وحدي²
وقال تعالى: "وَرَكِبَآ إِذْ نَادَى رَبُّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ" (سورة الأنبياء)

وقال حسان بن ثابت الأنصاري:

وأنتَ زعيمٌ نيطُ من آلِ هاشمٍ كما نيطَ خلفَ الراكبِ القدحُ الفرد³
وقال النابغة الجعدي:

وسادةٍ رهطِي حتى بقيتُ فرداً كصيصيةٍ الأعضب⁴
وقال عمرو بن معديكرب الزبيدي:

ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فرداً⁵

¹ شعر الخوارج، ص 199

² شرح ديوانه، ص 66، "ها" أي لدفاعها.

³ شرح ديوانه، ص 133، زعيم: دعي

⁴ ديوانه، ص 31، صيصية: قرن، أعضب: الذي كسرت قرنه والذي لا أخ له

⁵ شعره، ص 82

والوحيد أبلغ من الفرد كما قال الأسود بن يعفر:
مضوا لسبيلهم وبقيتُ وحدي وقد يُغني رباعته الوحيد¹
وقال تعالى: "ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا" (سورة المدثر)
وكون فاقده النظر تسمية الربّ تعالى نفسه بالفرد.
وأما الفريد فيعني: فرداً ومن لا عديل له كما الأعشى الكبير:
وكأنّ مجرى دمعه نظم تحونه فريده²
وقال النابغة الجعدي:
يمورُ الندى في مدرّيتها كأنه فريدٌ هوى من سلكه فتحدر³
ومنه فردٌ منه: بعد منه وهو فاقد الناصر كما قال الصمة القشيري:
ولم آتِ البيوتَ مُطنّباتٍ، بأكثبةٍ فردن من الرغام⁴
وهو كذا يأتي متعدياً بنفسه ويعني: نظم كما قال علقمة الفحل:
وجيدٍ غزالٍ شادن فردتُ له من الحلي سمطي لؤلؤ وزبرجد⁵
وأما أفرده فكثيراً ما يعني: نحاه حتى لم يبق له ناصر فيسهل اقتراسه كما فيخاف الصيد
كما قال عنتره بن شداد العبسي:
فأنا سريتُ مع الثريا مفرداً لا مؤنسٌ لي غيرَ حدٍ المنصِل⁶

¹ ديوانه، ص 24

² ديوانه، 651/2

³ جمهرة أشعار العرب، ص 624

⁴ لسان العرب: فرد

⁵ ديوانه، ص 42

⁶ شرح ديوانه، ص 137

وقال امرؤ القيس:

كأنها عنزٌ بطنٍ وادٍ تعدو وقد أفرد الغزال¹
فأفرده: تركه كما قال الحارث بن مضاض الجرهمي:

تمادت بي الأيام حتى تركني كمثلٍ حسامٍ أفردته القلائد²
وقال الشاعر:

فبات عذوباً للسماء، كأنه سهيلٌ، إذا ما أفردته الكواكب³
وكذا يتعدى لمفعولين تدخل على المفعول الثاني ثلاثة أحرف وهي عن واللام ومن
فأفرده عنه: أبعده عنه فجعله فريداً كما قال النابغة الذبياني:

إذا الركابُ ونتٌ عنها ركائبها تشدّرت ببعيدِ الفتر، خطّار
كأنما الرحلُ منها فوق ذي جدٍ ذبّ الرياد، إلى الأشباه نظّار
مُطرّدٌ، أفردت عنه حلائله من وحشٍ وجرة أو من وحشٍ ذي قار
مُجرّسٌ، وحدٌ، جأبٌ، أطاع له نباتٌ غيثٍ من الوسمي، مبكار⁴
وقال أبو ذؤيب الهذلي:

ولا شُبُوبٌ من الثيران أفرده عن كوره كثرة الإغراء والطرْد
من وحشٍ حَوْضِي يُراعي الصيدَ مُبتَقِلاً كأنه كوكبٌ في الجوّ مُنْجَرِد

¹ ديوانه، ص 142

² ديوان الشعراء المعمرين، ص 329

³ لسان العرب: عذب

⁴ ديوانه، ص 22

في رَبِّ يَلْقَى حُورٍ مَدَامُعُهَا كَأَنَّهُنَّ بَجْنِي حَرَبَةَ الْبَرْدُ¹
وأفردَه له: خذله له كما قال العباس بن الأحنف:

خلوتم بأنواع السرور هناكم وأفردتموني للصبابة والحرز²
وقال آخر:

ويوم بني السقيفة أفردوني لطعنٍ ما لجائفه دواء³
وأفردَه منه: قطعه منه كما قال الحارث بن مضاض الجهمي:

أنا الملك المحجوب بالحجر والصفاء إلى البارقات الغرب بين القوانس
رضيتُ عن الأيام دهرًا نخلخلتُ عليّ الليالي بعدها بالهواجس
فأفردتُ من طسمٍ وعادٍ وجرهمٍ وعملاقٍ والشهبا جديسٍ ورأس⁴
وقال النابغة الذبياني:

ولو كفيّ اليمين بغتكَ خونا لأفردتُ اليمين من الشمال
ولكن لا تُخَانُ، الدهرُ، عندي وعند الله تجزية الرجال⁵

فوافق استخدام الإمام الفراهي ما شاع في كلام العرب.

17. أهُطَعَ إِلَيْهِ: قال الإمام الفراهي: "فأهطعوا إليه لينظروا ما نزل عليه".⁶

¹ ديوان الهذليين، 127-126/1، حربة: رملة كثيرة البقر، شبوب: مسنّ من الثيران، منجرد: معتزل،

ررب: قطع من البقر، يلق: أبيض، حور مدامعها: يريد بيض، والتحوير: البياض

² ديوانه، ص 269

³ كتاب الأشباه والنظائر للخالدين، 8/2

⁴ ديوان الشعراء المعمرين، ص 333

⁵ ديوانه، ص 61

⁶ أمثال آصف الحكيم، ص 13

أهطعَ يعني: خفض رأسه في ذلٍّ ومخافة كما قال الشاعر:

تعبّدي نمر بن سعد، وقد أرى ونمر بن سعد لي مطيع ومهطع¹
وقال تعالى: "وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ
فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿١٤﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْعِدْتُهُمْ هَوَاءً ﴿١٥﴾".
(سورة إبراهيم)

وهو يتعدّى بـ"إلى" ويعني: أسرع كما قال يزيد بن مفرغ الحميري:

بدجلة أهلها، ولقد أراهم، بدجلة، مهطعين إلى السماع²
وقال تعالى: "فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكِرٍ ﴿٦﴾ حُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ
مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ
غَيْرٌ ﴿٨﴾". (سورة القمر)

وفي حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "سراعاً إلى أمره مهطعين إلى معاده".³

وثانياً: الصلوات التي أوردتها الإمام الفراهي على طريق التضمين

18. أبقَ عنه: قال الإمام الفراهي: "وفي ذلك مثلهم مثل عبدٍ أبقَ عن مولاه حتى
إذا لم يجد مخلصاً ألقى نفسه في بئر".⁴

أبقَ يعني: تأبَّق أي فرّ واستتر كما قال الأعشى الكبير:

فذاك ولم يُعجزَ من الموت ربّه ولكن أتاها الموت لا يتأبَّق⁵

¹ لسان العرب: هطع

² ديوانه، ص 167 ولسان العرب (بدون نسبة): هطع

³ لسان العرب: هطع

⁴ حجج القرآن، ص 56

⁵ ديوانه، 463/2

وقال غامان بن كعب الجاهلي:

ألا قالت بهانٍ ولم تأبُقْ نعمتَ ولا يليط بك النعيم¹
ولم أجد له صلة غير (إلى) مما حفظها لنا القرآن الكريم فقال تعالى عن يونس عليه السلام:
"وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٣﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّكَ الْمَشْحُونِ ﴿٣٤﴾". (سورة الصافات)

وأما حرف الجر الذي يدخل على المولى الذي يفرّ منه العبد فتسكت عنه المعاجم
فرأى الإمام الفراهي من الأفضل أن يدخل عليه (عن) ولكن "من" أشمل من
"عن" من الشواهد التالية:

للمعنى الأول قول مالك بن أبي كعب الخزرجي:

لعمر أبيها لا تقول حليلتي ألا فرّ عني مالك بن أبي كعب²
وقول الخطيئة:

وما أساءوا فراراً عن مجليّة لا كاهنٌ يمتري فيها ولا حكم³
وقال العباس بن مرداس:

نصرنا رسول الله في الحرب سبعةً وقد فرّ منّ قد فرّ عنه فأقشع⁴
وقال سعد بن ناشب:

منّ فرّ عن نيرانها، فأنا ابن قيسٍ لا براح⁵

¹ نوادر أبي زيد، ص 175، بهان: اسم امرأة، لاط به: لصق به

² موسوعة شعراء العصر الجاهلي، ص 283

³ مختارات ابن الشجري، ص 549

⁴ ديوانه، ص 102

⁵ لسان العرب: برح

وقال الشاعر:

مَنْ ذَبَّ مِنْكُمْ ذَبٌّ عَنْ حَمِيمِهِ، أَوْ فَرَّ مِنْكُمْ فَرٌّ عَنْ حَرِيمِهِ¹

فالفرار عنه يعني في الشواهد المذكورة أعلاه: هرب منه.

وأما الشواهد التالية فيعني فيها الفرار عنه: فرّ بعيداً عنه:

قال يزيد بن المكسر:

مَنْ فَرَّ مِنْكُمْ فَرٌّ عَنْ حَرِيمِهِ وَجَارِهِ وَفَرٌّ عَنْ نَدِيمِهِ²

وقال عبيد الله بن قيس الرقيات:

وَكَادَ نَسَاؤُهُمْ يَلْقَيْنَ غِيًّا تُرْكَنَ وَفَرَّ عَنْهُنَّ الْبَعُولُ³

وقال أبو جلدة اليشكري:

لِعَمْرِي لِأَهْلِ الشَّامِ أَطْعَنَ بِالْقَنَا وَأَحْيَى لَمَّا تُخْشَى عَلَيْهِ الْفَضَائِحُ

هَمُّ الْمُقَدِّمُونَ الْخَلِيلَ تَدْمَى نَحْوُهَا إِذَا ابْيَضَّ مِنْ هَوْلِ اللَّقَاءِ الْمَسَائِحُ

فَرَرْنَا عِجَالًا عَنْ بَنِينَا وَأَهْلِنَا وَأَزْوَاجِنَا إِذْ عَارَضَتْهُنَّ الصَّفَائِحُ

جَبْنًا وَمَا مِنْ مَوْرِدِ الْمَوْتِ مَهْرَبٌ أَلَا قُبِحَتْ تِلْكَ النُّفُوسُ الشَّحَائِحُ⁴

وأما الفرار منه فيعني: هرب منه خائفاً كما يعني ابتعد عنه. قال عدي بن زيد العبادي:

يُدرِكُ الْآبَدَ الْغُرُورَ وَيُرِّي الطَّيْرَ فِي النِّيقِ يَنْتَثِنُ الْوَكُورُ

¹ لسان العرب: ذبّ

² موسوعة شعراء العصر الجاهلي، ص 329

³ ديوانه، ص 134، بعل: بعول

⁴ شعراء أمويون، ص 386-387

أين أين الفرارُ مما سيأتي لا أرى طائرًا نجا أن يطير¹
وقال عنتره بن شداد العبسي:

ذا كان أمرُ الله أمرًا يُقدَّر فكيف يفرّ المرء منه ويحذر²
وقال حارثة بن صخر القيني حينما فرّ من زياد:

فإنا لا نفرّ من المنايا ولا نخاش من ضرب النصال
ولكنا نُقيم لكم طعنا وضربًا يختلي هام الرجال³
وقال الحطيئة:

خافوا الجنان وفروا من مُسومةٍ يلوي بأعناقها الكنان والأبق⁴
وقال العباس بن الأحنف:

أين الفرارُ من الهوى ويلّي! ومنه عليّ خندق⁵
وقال تعالى: "كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ۖ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ۖ" (سورة المدثر)

وقال أيضًا: "قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۖ" (سورة الجمعة)

ولمعى الابتعاد قول هزيلة بنت مازن:

فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه فكونوا نساء لا تفروا من الكحل⁶

¹ ديوانه، ص 65

² شرح ديوانه، ص 78

³ شعر الخوارج، ص 47

⁴ ديوانه، ص 135، مُسومة أي خيل مُسومة

⁵ ديوانه، ص 191

⁶ موسوعة شعراء العصر الجاهلي، ص 323

وقول سويد بن أبي كاهل اليشكري:

فرّ مني حين لا ينفعه موقر الظهر ذليل المتضع¹

وقال الفرزدق:

وأني قد فررتُ إليه منكم إلى ذي المجد والحسب التليد

فراراً من شتيم الوده وردٍ، يفِرُّ الأسدُ خوفاً بالوعيد²

وقوله تعالى: "فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾

وَصَلْبَتُهُ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾". (سورة عبس)

فكان من الأفضل في ضوء هذا المبحث أن يعدّيه الإمام الفراهي بـ"من" لا بـ"عن".

ويؤيد قولي تعدّي الهروب بـ"من" لا بـ"عن" كما قال الخطيئة:

حمدتُ إلهي أنني لم أجدكما عن الجوع مأوى أو من الخوف مهرباً³

وقال حذيفة بن أنس الهذلي:

وقد هربتُ منا مخافةً بأسنا جذيمةً من ذات الشباك فمرت⁴

وقال أبو جلدة اليشكري:

جبتاً وما من موردٍ الموت مهربٌ ألا قبحتُ تلك النفوسُ الشحائح⁵

¹ ديوانه، ص 34

² ديوانه، ص 133

³ ديوانه، ص 51

⁴ الحماسة الشجرية، ص 163

⁵ شعراء أمويون، ص 386-387

ولا يتعدى بـ"عن" إلا مع الباء كما قال العباس بن مرداس السلمي:
وإن دُعيتَ لغدرٍ أو أمرتَ به فاهربْ بنفسك عنه أية الهرب¹
19. آسى إليه: قال الإمام الفراهي: والقلب يحسّ بعبوديته وأصله، فيتحنّ إلى
مولاه الحقّ، ويحسّ بما يجب عليه من المواساة إلى جميع الخلق".²
آسى يعني: عزّاه وهو لازمٌ ومتعدٍّ بنفسه فقال سويد بن حدّاق العبدي:
صفيّ وابنُ أمّي والمُواسي إذاما النفس شارفتِ الوريدا³
وقال الأعشى:
وعضّ بما أبقي المواسي له من أمّه، في الزمن الماضي⁴
وقال مالك بن نويرة:
رأى أني لا بالقليل أهوره ولا أنا عنه في المواساة ظاهر
قربُ رباطِ الجون عني فإنه دنا الخبلُ واحتلّ الجميعُ الزعانف⁵
وقال الحارث بن خالد المخزومي:
إذاما بكى ذو الشجو أصغيتُ نحوه وآسيتُهُ بالشجو ما دام باكيا⁶
فتعدّيه بـ"إلى" من الإمام الفراهي تضمنين الإحسان كما قال كعب بن سعد الغنوي:
فإن تكن الأيامُ أحسنَ مرةً إليّ فقد عادتُ لهنّ ذنوب⁷

¹ ديوانه، ص 46

² تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 402-403

³ ديوان الشعراء المعمرين، ص 365

⁴ لسان العرب: عضض

⁵ مالك ومتّم ابنا نويرة اليربوعي، ص 74

⁶ شعره، ص 109

⁷ مختارات ابن الشجري، ص 110

وقال أعرابي:

لما الله دهرًا شره قبل خيره تقاضى فلم يُحسن إلينا التقاضيا¹

وقال نهار بن توسعة:

فشأنك إن الله إن سوتَ محسنٌ إليّ إذا أبقي يزيدًا ومخلدا²

وقال تعالى: "وَأَبْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾".
(سورة القصص)

20. جمد عليه: قال الإمام الفراهي: "... فهؤلاء لم يمجّدوا على إمام وشخصه كاليهود النصرى، بل صاروا مؤمنين بالحق مخلصين للرب".³ وقال أيضًا: "إنكارهم بالقرآن وهذا الدين، لأنه ينسخ بعض ما عندهم حسداً وجموداً على أمانيتهم وبعداً عن كتبهم".⁴

والجمود هو الجفاف فقالت الخنساء:

أعينيّ جوداً ولا تجمداً ألا تبكيان لصخر الندى⁵

ويأتي مجازاً كما قال الفرزدق:

فتى كانت يده بكلٍ عُرِفَ إذا جمَدَ الأكفُ تدققان⁶

¹ شرح ديوان الحماسة، 1: 446

² مجلة المورد، 97/4/4

³ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 18/1

⁴ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 45/1

⁵ ديوانها، ص 31

⁶ ديوانه، ص 638

وهو لازمٌ يتعدى بثلاثة أحرف وهي: على وعن ومن فحمد عليه: ضنّ عليه كما قال المغيرة بن حبياء التميمي:

لا يجمدان عليهم عند جهدهم كلاهما نافعٌ فيهم إذا افتقروا¹

وشرح هذا المعنى الحصين بن الحمام المري حيث قال:

صبرتُ على وطء الموالي وخطبهم إذا ضنّ ذو القربى عليهم وأجمدا²

وجمّد عنه: نفر عنه كما قال أعشى قيس يهجو الحارث بن ولة:

أتيت حريثاً زائراً عن جنابةٍ فكان حريثٌ عن عطائي جامدا

إذا ما رأى ذا حاجةٍ فكأنما يرى أسداً في بيته وأساودا³

وكذا يعني: جفّ كما قال مرة بن عمرو النهشلي:

وعافت عليّ النومَ عينٌ مريضةٌ إذا أشربَ النومَ العيونُ الصحاءُ

إذا جمدتُ عنك العيونُ وحادرتُ فيبكبك من عينيّ دمعٌ مُساحُ⁴

وجمّد منه: جفّ من أجله وضنّ بالدموع كما قال كثير عزة:

أقولُ لماءِ العينِ أَمَعِنَ، لعله بما لا يرى من غائب الوجد يشهد

فلم أدِرْ أنّ العينَ قبلَ فراقها غداةَ الشبا من لاجِ الوجد تجدُ

ولم أرَ مثلاً العينَ ضنّتْ بمائها عليّ ولا مثلي على الدمعِ يحسدُ⁵

¹ مجلة المورد، 1981/4-3/10 م ص 189

² مجلة المورد، 1988/3/17 م ص 107

³ الحماسة الشجرية، ص 444

⁴ كتاب الأشباه والنظائر للخالدين، 352/2

⁵ ديوانه، ص 437، أمعن: ازداد كي يصفي ويرى فيه ما لا يرى في غيره

والإمام الفراهي عني به العكوف على شيء فكأنه ضمن كما قال عمرو بن كلثوم:
تركتُ الطير عاكفة عليه كما عكف النساء على الدُّوار¹
وقال الفرزدق:

ترى حولنَّ المعتفين كأنهم على صنمٍ في الجاهلية عكَّف²
وقال تعالى: "قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى"³. (سورة طه)
21. جمعه به: قال الإمام الفراهي: "... بل الناس اليوم كما كانوا بل هم أسوأ لما
جمعوا القهر والاستطالة بالخدع والكذب وصاروا قليلي الاعتماد على العهود"⁴.
وقال أيضاً: "وقد جاء إتماماً ورعايةً لجمع الترغيب بالترهيب فحسن موقعه"⁵.
جمع يعني: قني ووحد. قال حسان بن ثابت الأنصاري:
ولو جمعتُ ما حوتُ مِذْجٌ من المجد ما أثقل الأرنبا⁶
وقال أيضاً:

أحتال للمال إن أودى فأجمعه ولست للعرض إن أودى بحتال⁷
وقال الكميّ الأسدي:
جمعتَ نزاراً وهي شتى شعوبها كما جمعتَ كفَّ إليها الأباخسا⁸

¹ ديوانه، ص 50

² جمهرة أشعار العرب، ص 705

³ إمعان في أقسام القرآن، ص 27

⁴ نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، 248/1

⁵ شرح ديوانه، ص 50

⁶ شرح ديوانه، ص 260

⁷ ديوانه، ص 225

وهو متعدّ بنفسه كما يتعدّى لمفعولين تدخل على المفعول الثاني الباء أيضاً فجمعه به: ضمّه إليه كما يعني: جمعه بواسطته. قال عمرو بن معديكرب الزبيدي:

ولقد أجمعُ رجليَّ بها حذرَ الموتِ وإني لفرور
ولقد أعطفها كارهةً حينَ للنفسِ من الموتِ هريز
كلّ ما ذلك مني خلقٌ وبكلّ أنا في الروعِ جدير¹
وقال الفرزدق:

بهم جمع الله الصلاة فأصبحتُ قد اجتمعتُ بعد اختلافِ شعوبها²
فاستعمال الإمام الفراهي موافق لما شاع في كلام العرب.

22. جَاهَدَ عنه: قال الإمام الفراهي: "... ثم تبيّنت هذه الصفات يوم بدر حين قاموا للجهاد عن بيضة الإسلام وبذلوا مهجهم لربهم بعدما تركوا الأهل والمال بالهجرة".³
جاء لفظ الجهاد في كلام العرب بمعنى: بذل أقصى جهده كما قال النابغة الذبياني:
إذا جاهدته الشّدّ جدّ، وإنّ ونْتَ تساقط لا وإنّ، ولا متخاذل⁴
وتبعه القرآن الكريم فقال تعالى: "وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" (سورة العنكبوت)

ولكن لما جاء الإسلام أصبح هذا مصطلحاً يعني قتال أعداء الله فقال حسان بن

¹ شعره، ص 117، "بها" أي: بالفرس.

² ديوانه، ص 56

³ نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (ط. الدائرة الحميدية، 2018م)، 80/1

⁴ ديوانه، ص 153

ثابت الأنصاري:

رحم الله نافع بن بديل رحمة المشتري ثواب الجهاد¹

وقال عمرو بن معديكرب الزبيدي:

ومضى ربيع بالجنود مُشرقاً ينوي الجهاد وطاعة الرحمن²

وقال القطامي:

وخير فاختار الجهاد وقد يرى لديه نساء مرشقات نواعم³

وقال تعالى: "وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ" (سورة العنكبوت)

وهو يأتي لازماً ومتعدياً بنفسه ويستخدم دون الخصوم فقال تعالى: "يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ" (سورة التوبة)

فاللازم يتعدى بحرفي جرهما الباء وفي جاهد به: قاتل الأعداء بواسطته كما قال تعالى: "لَا يَسْتَفْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ" (سورة التوبة)

وجاهد فيه: قاتل الأعداء في شأنه كما قال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَؤَلِيكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (سورة البقرة)

وقد جمع بينهما ابن الدمينه فقال:

جاهدتُ فيكم بها إني لكم ولدٌ أبغي مساويكم قدماً فاتياً⁴

¹ شرح ديوانه، ص 134

² شعره، ص 174

³ ديوانه، ص 130

⁴ كتاب الأشباه والنظائر للخالدين، 89/2

والمتعدّي كذا يتعدّى لمفعولين تدخل على المفعول الثاني الباء وفي جَاهَدَهُ به: قاتله بواسطته كما قال تعالى: "فَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا" (سورة الفرقان) وَجَاهَدَهُ فيه: قاتله في شأنه كما قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وجاهدتُ في الله أعداءه الذين بهم ربنا يحل¹
ولكن الجهاد بصلّة "عن" لم أجده لا في كلام العرب ولا في القرآن الكريم فلعل
الإمام الفراهي بناه على الدفاع والكفاح والقتال وأمثالها كما قال الفرزدق:
أنا الضامنُ الحاني عليهم، وإنما يدافعُ عن أحسابهم أنا أو مثلي²
وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحسان بن ثابت الأنصاري: "لا تزال مؤيداً بروح القدس ما
كأفحت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".³
وقال عمرو بن معديكرب الزبيدي:

ظلتُ كأني للرماح دريئة أقاتل عن أبناء جرم وفرت⁴
23. حَفَدَ إليه وعليه: قال الإمام الفراهي: "يتنهد له البرّ بغوره ونجده، ويحفد إليه
البحر بجزره ومده".⁵

وقال أيضاً: "فالمشي إلى المسجد ينبغي أن يكون على نهج العبد الذي يحفد على
مولاه، وقد دعاه".⁶

¹ ديوانه، ص 175، محل: مكر

² لسان العرب: قلى

³ لسان العرب: كفتح

⁴ ديوان الأصمعيات، ص 122

⁵ إمعان في أقسام القرآن، ص 3

⁶ مفردات القرآن، ص 195

حفَدَ يعني: أسرع في الخدمة كما أنشد الأزهري:

حفد الولائد حولهنّ، وأسلبتْ بأكفهنّ أزمّة الأجمال¹

وقال الشاعر:

فلو أنّ نفسي طاوعتني لأصبحت لها حفدٌ مما يعدّ كثير²

فالحفود المحشود الذي جاء في حديث أمّ معبد يعني مَنْ له خدم كثير.³

وهو كذا يتعدّى لمفعولين تدخل على المفعول الثاني الباء إذا جاء الأول مبنياً

للمجهول كما جاء في حديث أمية: "بالنعم محفود".⁴

ولمّا أجد له صلة غير هذه. ولعل الإمام الفراهي عدّاه بـ"إلى" آخذاً من "إليك نسعي

ونحفد".⁵ ومثله في هذا مثل ابن منظور الذي كتب أنّ الإحسان يتعدّى واستدلّ

بقول كثير التّالي:

أسبيّ بنا أو أحسني لا ملومةً لدينا ولا مقليةً إنّ تقلّت⁶

وأما الحرف "على" فقد أشار هو بنفسه إلى تضمينه السعي المتعدّي بـ"على"⁷ كما قال

أبو قيس بن الأسلت الأنصاري:

أسعى على جُلّ بني مالكٍ كلُّ امرئٍ في شأنه ساع⁸

¹ لسان العرب: حفد

² لسان العرب: حفد

³ لسان العرب: حفد

⁴ لسان العرب: حفد

⁵ صحيح ابن خزيمة، رقم الحديث: 1100 والسنن الكبرى للبيهقي، رقم الحديث: 3142

⁶ ديوانه، ص 101

⁷ مفردات القرآن، ص 195

⁸ ديوان المفضليات، ص 282

وقال المزرد:

وكائن ترى من أسره لي نصرها ومن أسره يسعي علي وفودها¹
وكذا يمكن أن نعلقها بالطواف والعود كما قال وضاح اليمن:
تُطيفُ علينا قهوةٌ في زجاجةٍ تُريك جبانَ القوم أمضى من الأسد²
وقال تعالى: "يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٨﴾".
(سورة الواقعة)

وقال الأعشى الكبير:

يروح فتى صدقٍ ويغدو عليهم بملء جفانٍ من سديفٍ يدقُّ
وعاد فتى صدقٍ عليهم بجفنةٍ وسوداءٍ لأياً بالمزادة تُمرق³
24. حاز به: قال الإمام الفراهي: "فلما حازوا بما يكفيهم".⁴

حازّه: جمعه نجاء في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "الإثم حوّاز القلوب".⁵

ومنه حصل عليه كما قال عبد الرحمن الأنصاري:

قد حازها مَنْ أصبحت عنده ينال منها الشمّ والريحا⁶

¹ ديوانه، ص 60

² ديوانه، ص 44

³ ديوانه، 476/2

⁴ أمثال آصف الحكيم، ص 58

⁵ لسان العرب: حوز، ومنه الحوّاز ما يحوزه الجعل من الدحروج كما قال الشاعر:

سمين المطايا يشرب الشرب والحسا قِطْر كحّواز الدحاريج أبتّر

لسان العرب: حوز

⁶ شعره، ص 20، "حازها" أي الكأس المذكورة من قبل

وحازَ المرأة: نكحها كما قال الشاعر:

يقول، لما حازها حوزَ المطي¹

وحازَ الإبل: ساقها إلى الماء. أنشد الأصمعي:

حوزها من برق الغميم

أهدأ يمشي مشية الظليم

بالحوز والرفق وبالطميم²

ولا تأتي للتلافي صلة فما يشيع في الحديث من الحائز على جائزة لعلها تضمن أي
الحاصل على الجائزة ولكن لا نجد شاهداً عليها في الشعر ولا في النثر فالأفضل أن
نحاز عنها ونقول: الحائز لجائزة أو الحاصل على جائزة.

ومنه انحاز: تلوى وانضمَّ بعضه إلى البعض كما قال القطامي:

فسلّمتُ والتسليم ليس يسرّها ولكنه حقّ على كلّ جانب

فردّت سلاماً كارهاً ثم أعرضتُ كما انحازتِ الأفعى مخافةً ضارب³

ومنه تحوز: تلوى كما قال القطامي:

تحيزّ مني خشية أن أضيفها كما انحازتِ الأفعى مخافةً ضارب⁴

وأما انحاز إليه فيعني: مال إليه كما قال تعالى: "وَمَنْ يُؤَلِّهْمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا

¹ لسان العرب: حوز

² الصحاح: حوز

³ ديوانه، ص 48، جانب: أجني

⁴ الصحاح: حوز، وأضافه: أنزل عليه ضيفاً. وفي لسان العرب (حوز):

تحوز عني خيفة أن أضيفها

لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾
(سورة الأنفال)

وفي حديث يأجوج: "فَوَزَّ عبادي إلى الطور" أي ضمهم إليه.¹

وفي حديث أبي عبيدة: "وقد انحاز على حلقة نشبت في جراحة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم أحد". أي أكب عليها.²

فحاز به الذي استعمله الإمام الفراهي أيضًا لم أجد شاهدًا عليه في كلام العرب وهو تضمين الفوز والظفر كما قال الشاعر الحماسي:

فَقَمْتُ إِلَيْهِ مُسْرِعًا فَنَغَمْتُهُ مَخَافَةَ قَوْمِي أَنْ يَفُوزُوا بِهِ قَبْلُ³

وجاء في حديث عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "من فاز بكم فقد فاز بالقِدَحِ الأَخِيبِ".⁴

وقال الأعشى الكبير:

وَسَوْفَ يُعْقِبُنِي إِنْ ظَفَرْتُ بِهِ رَبُّ كَرِيمٍ وَيُضُّ ذَاتُ أَطْهَارٍ

لَا سِرُّهُنَ لَدَيْنَا ضَائِعٌ مَذَقٌ وَكَاتَمَاتٌ إِذَا اسْتُودِعْنَ أَسْرَارِي⁵

وقال المقنع الكندي:

فَإِذَا ظَفَرْتُ بِذِي اللَّبَانَةِ وَالتَّقَى فِيهِ الْيَدَيْنِ، قَرِيرَ عَيْنٍ، أَشَدُّ⁶

¹ لسان العرب: حوز

² لسان العرب: حوز

³ شرح ديوان الحماسة، 931/2

⁴ لسان العرب: خيب

⁵ ديوانه، 425/2

⁶ شعره، ص 96

25. دَلَّ إليه: قال الإمام الفراهي: "ثم بعد ذكر حالهم أجاب بأنَّ دين اليهود والنصارى فرع دين إبراهيم عليه السلام. وهذا الدين أصل ملَّة إبراهيم لكونه على الفطرة، ودامغاً للشرك. وفي هذا الجواب دلالة إلى حكمة تبديا القبلة".¹ وكذا سَمَّى أحد مؤلفاته "دلائل إلى النحو الجديد والمعاني والعروض والبلاغة".² دَلَّ يَدُلُّ لازم ومتعدٍّ بنفسه فاللازم يتعدَّى بـ"على" كما أنَّ المتعدِّي يتعدَّى بها مفعوله الثاني فقالت الخنساء:

دَلَّ على معروفه وجهه يورك فيه هادياً من دليل³
وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إنَّ الدالَّ على الخير كفاعله".⁴
وقال الكميت الأسدي:

ألم يتدبَّر آيةً فتدَّله على ترك ما يأتي أو القلب مُفْقَل⁵
وقال ابن هرمة:

ويدلَّ ضيفي في الظلام على القرى إشرافُ ناري ونباحُ كلاي⁶
ومثله يتعدَّى بها الإفعال منه فقال أعرابي:
مُدِلُّ على مَينِ الطريق بلومه يرى طرده الأضيافَ غيرَ كبير⁷

¹ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 46/1

² إمعان في أقسام القرآن، ص و

³ ديوانها، ص 96

⁴ سنن الترمذي، رقم الحديث: 2670

⁵ ديوانه، ص 597

⁶ شعره، ص 79

⁷ كتاب الأشباه والنظائر للخالدين، 29/2

ومضى قول كعب بن معدان الأشقري:

رفعوا الوقود على الجبال ترفعاً أن يستدلّ عليهم بنباح¹
وقول العباس بن الأحنف:

نمّ دمي فليس يكتّم شيئاً ووجدتُ اللسانَ ذا كتمان
كنتُ مثلَ الكتابِ أخفاه طيًّا فاستدلّوا عليه بالعنوان²
ولعل الفراهي أورده على أسلوب التضمن للهداية أو ما يشبهها فقال تعالى: "وَمِنْ ءَابَائِهِمْ
وَدُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٨﴾". (سورة الأنعام)
وجاء في نفس السورة: "قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَهُ بِإِبْرَاهِيمَ
حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣٩﴾".

وقد سبقه أبو هلال العسكري في أحد مواضع كتابه "الفروق اللغوية" فقال: "والهدى
الدلالة فإذا كان مستقيماً فهو دلالة إلى الصواب والإيمان هدى لأنه دلالة إلى الجنة".³
26. تزكّى عنه: قال الإمام الفراهي: "فن شرب من تلك الأنهار وذاق من هذه
الثمار في الدنيا فهو الذي يذوقها في الآخرة، فيتمّ له ما يشتهي من اللذة العليا
التي لا يمكن التلذذ بها في هذه الحياة الدنيا قبل التزكّي عن كثافة الشهوات".⁴
تزكّى يعني: تطهّر وصلح كما قال تعالى: "... إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾". (سورة فاطر)
وقال أيضاً: "قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿١٩﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿٢٠﴾". (سورة الأعلى)

¹ مجلة المورد، 2/5/صيف 1976م، ص 92

² ديوانه، ص 282

³ الفروق اللغوية، ص 42

⁴ نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، 242/1

وهو يأتي لازماً ولم تذكر له صلة سوى اللام كما مضى قوله تعالى. وإذا أنه يعني العفة
فعده الإمام الفراهي بـ"عن" فإن العفة وما شابهها من الأفعال تتعدى بها كما قال
عنتر بن شداد:

لئن ألك أسوداً، فالمسك لوني، وما لسواد جلدي من دواء
ولكن تبعد الفحشاء عني، كبعد الأرض عن جو السماء¹
وقال رؤبة بن العجاج:

ح ما كنتُ من تكرم الأعراض
وانخلق العف عن الأقضاض
ولا الجدى من متعب حياض²

وقال الراجز:

فهو إذا ما اهتاف أو تهيّفا
ينفي الدوايات إذا ترشفا
عن كل مصقول الكساء صفا³

27. زينه إليه: قال الإمام الفراهي: "فإن من زين إليه الحق وعمل به وصبر له ازداد
به علماً وله حباً وعليه غضباً وأفرغ جهده لحياته".⁴
زين يعني: زانه، ويأتي متعدياً بنفسه كما قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

¹ شرح ديوانه، ص 22

² شرح ديوانه، 376/1

³ أساس البلاغة: صقل

⁴ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 404

ليس الجمال بأثواب تزينا إن الجمال جمال العقل والأدب¹
وكذا يتعدى مفعوله الثاني بثلاثة أحرف جر وهي الباء وفي اللام ومن فزينه به: زانه
به كما قال المرقش الأكبر:

تَزَلْنَ عَنْ دَوْمٍ تَهْفُ مَتُونُهُ مَزِينَةٌ أَكْفَاهُ بِالزَخَارِفِ²

وقال تعالى: "إِنَّا زَيْنًا لِّلْأَلَمِينَ بَزِينَةٍ الْكَوَكِبِ"³. (سورة الصافات)

وأما زينه فيه فيعني: أقره مزينا فيه كما قال تعالى: "بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ
وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا"⁴.
(سورة الفتح)

وقال أيضا: "وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ
اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ
أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّشِيدُونَ"⁵. (سورة الحجرات)

وزينه له فيعني: زانه له سلبيا وإيجابيا فثال التزيين السليبي قول خالد بن علقمة الدارمي
يهجو خنشوش بن مد:

جزى الله خنشوش بن مدِّ ملامةً، إذا زين الفحشاء للناس موقها³

وقال أبو البلاد:

تزين للفتى أخلاقه وتشينه وتكر أخلاق الفتى ولا يدرى⁴

¹ ديوانه، ص 16

² ديوان المرقشين، ص 60

³ لسان العرب: مدد

⁴ موسوعة شعراء صدر الإسلام والعصر الأموي، ص 28

وقال أيضاً: "وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (سورة الأنعام)
ومثال التزيين الإيجابي قوله تعالى: "وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ" (سورة الحجر)

وقول أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إِنَّ أَبَاهَا النعمان بن الجون أتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فزينا له حتى أمره أن يحيته بها".¹
وزينه منه: زينه به كما قال أبو دواد الإيادي:

ككَانَةِ الْعُذْرِيِّ زَيْنَ هَاهَا، مِنْ الذَّهَبِ الدُّلَامِصِ²
وأما تعدي مفعوله الثاني بـ"إلى" الذي أوجده الإمام الفراهي فهو على أسلوب المجانسة أو التضمين للتكرير والتحييب كما قال تعالى: "وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۖ فَضَلَا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (سورة الحجرات)
وقال ابن الدمينية:

فيا ربَّ حَبَّبَنِي إِلَيْهَا وَأَشْفِنِي بِهَا أَوْ أَرْحَ مَا يُقَاسَى فَوَادِيَا³
وقال تعالى: "وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ" (سورة الحجرات)
28. أشرف عليه: "كانت ظبية عوراء ترعى دائماً طرف جبل مشرف على البحر،

¹ ديوانه، ص 310

² لسان العرب: دلمص، وفي ديوانه (ص 120): "الزُّغْرِيّ".

³ كتاب الأشباه والنظائر للخالدين، 82/2

جاعلة عينها الصحيحة إلى البرّ حذراً من الصيادين، والعمياء إلى جانب البحر
الذي أمنت منه كلذ خطر".¹

أشرفَ يعني: بلغ العلى كما قال العجاج:

وعاصماً أدركه على شفاً عبدُ العزيز بعدما قد أشرفاً²
ويستخدم لازماً بمعنى تَعَالَى كما قال تأبط شراً:

ومَرْقِيَةٌ نَمِيَتْ إِلَى ذراها تُزِلُّ الطيرَ مُشْرِفَةً الْقَدَالِ
علوتُ بَرِيدَهَا طَفَلاً كَأَنِّي حِوَالَ اللُّطْفِ، مَكْسُورُ الشَّامِ
بَفْتِيَانٍ ذَوِي كَرَمٍ وَصِدْقٍ وَهَمُ أَهْلُ الْمُعَصَّبِ وَالثَّمَالِ³
وقد يأتي متعدياً بنفسه بمعنى علاه⁴ كما قال امرؤ القيس:

ومَرْقِبٍ تَسْكُنُ الْعُقْبَانُ قَلَّتَهُ أَشْرَفْتُهُ مُسْفِراً وَالنَّفْسُ مَهْتَابَهُ⁵
فَأَشْرَفَهُ إِلَيْهِ: أَلْحَقَهُ إِلَيْهِ كما قال امرؤ القيس:

يُدِيرُ قِطَاةً كَالْحَالَةِ أَشْرَفْتُ إِلَى سِنْدٍ مِثْلَ الْغَيْطِ الْمُدَّابِ⁶
وَأَشْرَفَهُ بِهِ: علاه به كما قال ابن الدميني:

أَيَا أَخَوِي بِالْمَدِينَةِ أَشْرِفَا بِي الصَّمَدَ أَنْظُرْ نَظْرَةً هَلْ أَرَى نَجْدًا⁷

¹ أمثال آصف الحكيم، ص 42-43

² ديوانه، 247/2

³ ديوانه، ص 252

⁴ لسان العرب: شرف

⁵ ديوانه، ص 46

⁶ ديوانه، ص 34

⁷ كتاب الأشباه والنظائر للخالدين، 65/2

وتدخل على اللازم منه ستة أحرف جرّ وهي إلى والباء وعلى وفي واللام ومن فأشرف إليه: وصل إليه كما قال الأصم الضبي:

فقلت لأصحابي قموا حين أشرفوا قليلاً لكي نبقي وقوفاً وننظر،
إلى بلد الشارين أضحت عظامهم تضمّنها من أرض قومس أقصر¹
وأشرف به: علاه كما قال توبة بن الحمير:

وأشرف بالقوز اليفاع لعني أرى نار ليلى أو يراني بصيرها²
وكذا يعني: أعلاه كما أنشد ثعلب:

جزى الله عنا جعفرًا، أشرفت بنا نعلنا في الواطئين فزلت³
وهكذا يعني: رفعه كما قال الفرزدق:

تداركه لي، بعدما أشرفت به على الهوة الغبراء زور المناكب⁴
وكذلك يعني الظرفية والسببية كما قال أعشى همدان:

وإني لطلاب التراب مُطلّب وبكل أسباب المنية أشرف⁵
وقال الفند الزماني:

كم قتلنا بخزازی منكم وأسرنا بعدها حلّ الحرار
من ملوك أشرفت أعناقها بوجوه نجبت فهي نُضار

¹ شعر الخوارج، ص 127

² أساس البلاغة: قوز، وفي الديوان (ص 34): بالأرض اليفاع

³ لسان العرب: شرف

⁴ ديوانه، ص 62

⁵ ديوانه، ص 140

حُرِّمَتْ كَأْسٌ عَلَى نَازِحِهَا فَلَقَدْ طَابَتْ بِأَنْ حَلَّ الْعُقَارِ¹
وَأَشْرَفَ عَلَيْهِ: علاه كما قال امرؤ القيس:

سَلِيمُ الشَّظَى عِبِلَ الشَّوَى شَنِجَ النِّسَا لَهُ حَيَاتٌ مُشْرِفَاتٌ عَلَى الْفَالِ²
وَأَشْرَفَ عَلَيْهِ يَعْنِي مَا يَلِي:

1. اطلع عليه من فوق.³ كما قال الكميّ لمسلمة بن هشام:

وعليك إشراف النفوس غدا وإلقاء الشرار⁴
2. وعلاه كما قال الفرزدق:

أَعْيَانُ إِنْ تُشْرِفَ عَلَى شِعْبِ ضَاكٍ تَجِدُ فِيهِ أَوْصَالَ الْقُعُودِ الْمُكَرَّدَسِ⁵
3. وأشفق عليه (من الشفقة) كما قال الشاعر:

ومن مضر الحمراء إشرافُ أنفسِ علينا، وحيّاها إلينا تمضرا⁶
4. ووقع عليه كما قال ذو الرمة:

تَرَى قُرْطَهَا فِي وَاضِحِ اللَّيْلِ مُشْرِفًا عَلَى هَلَكٍ فِي نَفَنٍ يَتَطَوَّحُ⁷
5. وبرز عليه كما قال الأغلب العجلي:

أَشْرَفَ ثَدَاهَا عَلَى التَّرِيْبِ لَمْ يَعْدُوا التَّفْلِيكَ فِي التُّوبِ⁸
والتريّب هنا الترائب، والتفليك من فلك الثدي والتوب هو النهود.

¹ عشرة شعراء مقلّون، ص 16

² ديوانه، ص 127

³ لسان العرب: شرف

⁴ أساس البلاغة: شرف

⁵ ديوانه، ص 335، عثيان: ذكر الضبع، شعب ضاحك: جبل باليمامة، قعود: ناقة.

⁶ لسان العرب: شرف

⁷ ديوانه، ص 45، الليث: صفحة العنق، نفنف وهلك: هواء وكلّ مهوى بين جبلين، وأراد أنها طويلة العنق.

⁸ لسان العرب: ترب وترب

6. وأشرف على الموت: قارب¹. قال ذو الرمة:

تري قُرطها في واضح الليث مُشْرِفاً على هَلَكٍ في نَفْنَفٍ يَتَطَوَّحُ²
وأما أشرف فيه فيعني: طلع من خلاله كما قال لبيد بن ربيعة العامري:
فكأنَّ ظُعنَ الحَيِّ لما أشرفتُ في الآلِ وارتفعتُ بهن حُزُمٍ³
وأشرف له يعني ما يلي:

1. سما له كما أنشد ابن الأعرابي:

غياثُ، إن مُتَّ وعشتَ بعدي وأشرفتُ أُمك للتصدِّي
وارتقتُ بالزعفران الوردي فاضربُ، فذاك والدي وجدِّي
بين الرعاثِ ومناطِ العقدِ ضربةً لا وإنِ ولا ابن عبد⁴

2. وحرص عليه كما جاء في الحديث عن سالم عن أبيه: "أنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
كان يعطي عمر العطاء فيقول له عمر: يا رسول الله أعطه أعطه أفقر إليه مني، فقال له
رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خذه فتموِّله أو تصدِّقْ به، وما جاءك من هذا المال وأنت
غير مُشْرِفٍ له ولا سائلٍ نخذه وما لا فلا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ ---".⁵ أي ما تشرف عليه.

والإشراف: الحرص كما قال الشاعر:

لقد علمتُ، وما الإشراف من طمعي، أنَّ الذي هو رزقي سوف يأتي⁶

¹ لسان العرب: شرف

² أساس البلاغة: نفنف

³ الصحاح: حزم

⁴ لسان العرب: رغن

⁵ لسان العرب: شرف

⁶ لسان العرب: شرف

3. وأشرف لك الشيء: أمكنك.¹ ومنه أربى له كما قال آخر:
وزيدٌ إذا ما سيمَ خسفاً رأيته كسيد الغضى أربى لك المتظالع²
وأشرف منه: أشرف من خلاله كما أنشد القناني:
ولو أشرفت من كُفّة الستر عاطلاً، لقلت: غزالٌ ما عليه خضاض³
وبالجملة فلم أجد الإشراف عليه بمعنى الإطلال عليه كما ذكره الإمام الفراهي، ولعل
ضمن الإطلال كما فعل بغيره من الأفعال.
29. اشتمله: قال الإمام الفراهي: "إذا أخذت الحق بالمعنى العام الواسع كان محبوباً
للعقل والقلب معاً، واشتمل العلم والعمل جميعاً".⁴
وقال أيضاً: "وإنما لم يصرح بهذا، لأنّ الإيمان ثم عمل الصالحات قد اشتمل عليه".⁵
اشتملَ يعني: حواه كما قال الأعشى الكبير:
ويزيدها حسناً إذا اشتملت ساقٌ تُبين لطافة القدم⁶
وهو لازمٌ ومتعدّدٌ بنفسه فشواهد المتعدّي بنفسه قول ذي الرمة:
هل تؤنسانِ حُمولاً بعدما اشتملت من دونهنّ حبالَ الأشيم القود⁷
وكذا قوله:
تنزو القلوبُ بها منها إذا اشتملت في الآل أعلامها خوفاً مع القور⁸

¹ لسان العرب: شرف

² ديوان الهذليين، 219/1

³ لسان العرب: خضض وعطل

⁴ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 402

⁵ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 404

⁶ ديوانه، 722/2

⁷ ديوانه، ص 67

⁸ ديوانه، ص 129

وأما اللازم فيتعدى بحرفي جرّهما الباء وعلى فاشتملّ به: أحاط به والتفّ كما قال القطامي:
وكأنما اشتمل الضجيعُ بريطةٍ لا بل تزيد وثارةً وليانا¹
واشتملّ عليه: حواه وهو عامّ كما قال مهلهل بن ربيعة:

وصار الليلُ مشتملاً علينا كأنّ الليل ليس له نهار²
وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

إذا اشتملتُ على اليأس القلوب وضاق لما به الصدر الرحيبُ
وأوطنتِ المكارهُ واستقرّت وأرست في أماكنها الخطوبُ
ولم تر لانكشافِ الضرّ وجهاً ولا أغنى بجيلته الأريبُ
أتاك على قنوط منك غوثٌ يمنّ به اللطيفُ المستجيبُ³

وجاء استعمال الإمام الفراهي وفق ما شاع في كلام العرب.

30. تَضَمَّنَ عليه: قال الإمام الفراهي: "وكتبُ العلوم الأخر من العقلية
والأخلاق لا تعطيك ما تَضَمَّنَ عليه القرآن من الحكم والأسرار".⁴

وقال أيضاً: "أي ليس كلّ شعر غواية، بل منه ما يتضمَّن على الحق والحثّ على الخير".⁵
تَضَمَّنَ يعني: شمل كما قال الأعشى الكبير:

جَعَلَ الإلهُ طعامنا في مالنا رزقاً تَضَمَّنَ لنا لن ينفدا⁶

¹ أساس البلاغة: وثب، وثابة: سمانه

² ديوانه، ص 31

³ ديوانه، ص 12

⁴ مفردات القرآن، ص 98-99

⁵ مفردات القرآن، ص 175

⁶ ديوانه، 486/2

وقال الفرزدق:

كَأَنَّ اللَّحْدَ يَوْمَ أَقَامَ فِيهِ تَضَمَّنَ صَدْرَ مَصْقُولٍ يَمَانِي¹

وقال الشمردل:

جَدَّثًا تَضَمَّنَ نَائِلًا وَعِفَافَةً أَسْقَيْتَ مِنْ جَدَثٍ كَذَاكَ نُجَارَ
كَالْلَيْثِ يُبْطِئُ عَنْ أَذَى جِيرَانِهِ وَيَكُونُ أَسْرَعَهُمْ إِلَى الْأَثَارِ²
وهو متعدي بنفسه ولكنه قد يأتي لازماً يتعدى بالباء كما قال معن بن أوس:

تَضَمَّنْتُ بِالْأَحْسَابِ ثُمَّ كَفَيْتُهَا وَهَلْ تَوَكَّلِ الْأَحْسَابُ إِلَّا إِلَى مِثْلِي³
ولعل على هذا عده الإمام الفراهي بـ"على"⁴ إذ كانت الباء أيضاً كافية بل وأبلغ من
"على" فإنَّ الباء للإحاطة وعلى" للاحتواء والاشتمال كما قال الفرزدق:

لَقَدْ ضَمَنْتُ أَرْضَ بِلَاصْطَخَرٍ مِيتًا كَرِيمًا إِذَا الْأَنْوَاءُ خَفَّ سَحَابُهَا
شَدِيدًا عَلَى الْأَدْنَيْنِ مِنْكَ إِذَا احتوى عليك من التراب الهيام حجابها⁵
وقال العباس بن مرداس السلمي:

إِنِّي حَوَيْتُ عَلَى الْأَقْوَامِ مَكْرَمَةً قَدِمًا وَحَذَّرَ بِي مَا يَتَّقُونَ أَبِي⁶
وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

إِذَا اشْتَمَلْتُ عَلَى الْيَأْسِ الْقُلُوبَ وَضَاقَ لَهَا بِهِ الصَّدْرُ الرَّحِيبُ

¹ ديوانه، ص 638

² كتاب الأشباه والنظائر للخالدين، 333/2

³ ديوانه، ص 95

⁴ والفراهي نفسه استخدم ما هو الصواب فقال: "إنَّ الحديثَ ربَّما يتضمَّن الحكمة". مفردات القرآن، ص 177 وقال: "ومن هنا تضمَّن القسمُ معنى الكفالة والضمانة". إمعان في أقسام القرآن، ص 15

⁵ ديوانه، ص 82

⁶ ديوانه، ص 46

وأوطنتِ المكارهُ واستقرّت وأرست في أماكنها الخطوبُ
ولم تر لانكشافِ الضرّ وجهًا ولا أغنى بجيلته الأريبُ
أتاك على قنوط منك غوثٌ يمنّ به اللطيفُ المستجيبُ¹
ولكن "على" في هذا الموضع أبلغ من الباء لأنها تملأ فراغ الإيقاع الذي لا تملأه الباء.
31. طابقَ به: قال الإمام الفراهي: "فلم يجئ المسيح إلا للبشارة بملكوت الله الذي
يأتي بعد. وضرب له أمثالًا تطابق بنبوءة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".²

طابقَ يعني: وافق كما قال مهلهل بن ربيعة:

قربًا مربطُ المشهرِ مني إنَّ قولي مطابقٌ لفعال³
وهو لازمٌ ومتعدٍّ بنفسه كما قال ليبد بن ربيعة العامري:
كسفينة الهنديّ طابقض درءها بسقائفٍ مشبوحةٍ ودِهانٍ⁴
واللازم يتعدّى بحرفي جرّهما الباء واللام فقال الجعدي:
وخيلٍ يطابقن بالدارعين، طباقَ الكلاب يطآن الهراسا⁵
وعلى هذا قال ابن الأعرابي: "أمعن به وأذعن به وطابق به".⁶ ووافقه ابن منظور.⁷
وأما تعدّيه باللام فقد مضى قول المهلهل.

¹ ديوانه، ص 12

² مفردات القرآن، ص 38 (ط. 1358هـ) وص 181 (ط. 3، 2012م)

³ ديوانه، ص 71

⁴ ديوانه، ص 208

⁵ ديوانه، ص 99

⁶ نوادر أبي زيد الأنصاري، ص 317

⁷ لسان العرب: طبق

فما في الأصل والطبعة الأولى صحيح إذ ما في الطبعة المحققة فهو سهو من المحقق.
32. اعتاد به: قال الإمام الفراهي: "... فيخشع لربه فصلي ويتحنن إلى العباد فينفق عليهم، ولا يتعصب لدين آبائه ولما اعتاد به. فيدعن لكل ما جاء من ربه".¹
فلو أني لم أجد صلة الباء لأعتاد ولكنها تأتي لعود وتعود كما قال عمر بن أبي ربيعة المخزومي:
فأجبتها: إنَّ المحبَّ مَعُودٌ بقاء من يهوى، وإن خاف العدى²
وقال عبيد بن الأبرص:

سقيناً امرأ القيس بن حجر بن حارث كؤوس الشجا حتى تعود بالقهر³
فيمكن أن الفراهي وجدها في نص أدبي قديم أو أنه ضمنه للإيلاع والاستأناس كما
قال جرير:

فإن ير سلمي الجن يستأنسوا بها وإن ير سلمي راهب الطور ينزل⁴
وقال الفرزدق:

الفرزدق: وكنا به مستأنسين، كأنه أخ أو خليط عن خليط تقترأ⁵
وقال امرؤ القيس:

جزعت ولم أجزع من البين مجزعا وغويت قلبا بالكواعب مولعا⁶

¹ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 18/1

² ديوانه (طبعة دار صادر، بيروت)، ص 19

³ ديوانه، ص 62

⁴ ديوانه، ص 367

⁵ لسان العرب: قتر، تقتر عنه: تنحى

⁶ ديوانه، ص 99

وقال حاتم الطائي:

وفتيانٍ صدقٍ لا ضغائن بينهم إذا أرملوا لم يولعوا بالتلاوم¹
33. اكْتَحَلَ به: قال الإمام الفراهي: "أما القبيل الأول فقد كثروا في هذا الزمان
لأنهم لما اكتحل عيونهم بالعلوم المحققة وجدوا في دينهم من الحمق والفسوق
ما تشمئز منه النفوس فرفضوه".²

اكْتَحَلَ يعني: وضع الكحل في العين كما قال الكميّ الأسدي:

لآلي من نُبَلَاتِ الصِوَا ر كُحُلُ المدامع لا تكتحل³
وهو لازمٌ يتعدى بالباء كما قال الراعي:
إذا اكتحلت بعد اللقاح نحورها بنسءٍ حمت أغبارها وازمهرت⁴
وقال المتنخل:

لا تفتأ الليل من دمع بأربعة كأن إنسانها بالصواب مكتحل⁵
وقال آخر:

إذا اجتحت عين البصير برأيه بداه بذعرٍ قبل أن يتضمّا⁶
وقال آخر:

خليلي طال الليل واكتحل القذى بعيني واستأنستُ برقاً يمانيا⁷

¹ ديوانه، ص 71

² حجج القرآن، ص 189

³ ديوانه، ص 263، صوار: بقر الوحش، نبالات: خيار

⁴ أساس البلاغة: كحل

⁵ أساس البلاغة: ربع

⁶ كتاب الأشباه والنظائر للخالدين، 94/2

⁷ الحماسة الشجرية، ص 588

وجاء استخدام الإمام موافقاً لما شاع في كلام العرب.

34. أَلْبَسَهُ عَلَيْهِ: قال الإمام الفراهي: "لفظ الفزع أول كلمة شرحها صاحب الكامل رحمه الله، وأخطأ فيه، وكذلك الأزهري، وألبس على الناس بلاغة آية 51 من سبأ".¹

أَلْبَسَهُ يَعْنِي: غَطَّاهُ كَمَا قَالَ النَّابِغَةُ الذِّبْيَانِي:

تَحَبُّ إِلَى النِّعْمَانِ حَتَّى تَنَالَهُ فَدَى لَكَ مِنْ رَبِّ طَرِيفِي وَتَالِدِي
فَسَكَّنَتْ نَفْسِي بَعْدَمَا طَارَ رَوْحُهَا، وَأَلْبَسْتَنِي نَعْمَى وَلَسْتُ بِشَاهِدٍ²
وَقَالَ عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ الْخَزَوَمِي:

كَأَنَّ الرَّبْعَ أَلْبَسَ عَبْقَرِيًّا مِنَ الْجَنْدِيِّ أَوْ بَزَّ الْجَرُوبِ³
وَقَالَ امْرَأُ الْقَيْسِ:

لَقَدْ طَمَعَ الطَّمَّاحُ مِنْ بُعْدِ أَرْضِهِ لِيُلْبِسَنِي مِنْ دَائِهِ مَا تَلْبَسَا
أَلَا إِنَّ بَعْدَ الْعُدْمِ لِلْهَرَاءِ قِنْدَةً وَبَعْدَ الْمَشِيبِ طَوْلَ عُمْرٍ وَمَلْبَسَا⁴
وَقُرِئَ قَوْلُهُ تَعَالَى: "قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ" (سورة الأنعام) من الإلباس.⁵

فالإلباس يأتي سلبياً كما يأتي إيجابياً. ومن هنا استفاد الإمام الفراهي وعدى مفعوله

¹ مفردات القرآن، ص 103-104

² ديوانه، ص 41

³ ديوانه (طبعة دار صادر، بيروت)، ص 22

⁴ ديوانه، ص 87

⁵ لسان العرب: لبس

الثاني بـ"على" وكذا أنّ الافتعال يتعدّى بها ويعني ذلك المعنى.
ولذا من لم يفتن به غيره بالافتعال كما فعلوا في قوله: "وكثيراً ما يكون بينهما فرق لطيف لا يفتن به غير الممارس باللسان، فيلتبس عليه بعض معاني الكلام".¹
35. نحله إليه: قال الإمام الفراهي: "ونعوذ بالله أن يقول رسول الله ما يخالف القرآن فلا أصدق من ينحل إلى رسول الله قولاً خلاف القرآن".²
والفعل نحَلَ بمعنى نَسَبَ يتعدّى لمفعولين كما قال طرفة بن العبد:
فدُعْ ذَا، وَانْحَلِ النِّعْمَانَ قَوْلًا كَنَحْتِ الْفَأْسِ، يُنْجِدُ أَوْ يَغُورُ³
جاء في حديث قتادة بن النعمان: كان بُشَيْرُ بْنُ أَبِيرقٍ يَقُولُ الشَّعْرَ وَيَهْجُو بِهِ أَصْحَابَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَنْحَلُهُ بَعْضُ الْعَرَبِ".⁴
ولعل الفراهي اختلط فيه العزو والنسب فقال المتوكل الليثي:
وَلَسْتُ بِقَانِجٍ مِنْ كُلِّ فَضْلٍ بِأَنْ أَعَزَى إِلَى جَدِّ هُمَامٍ⁵
وقال شريك بن حيان العنبري يهجو أبا نُحَيْلَةَ:
وَقَدْ سَأَلْنَا عَنْكَ مَنْ يَعْزُوكَا إِلَى أَبِي، فَكُلُّهُمْ يَنْفُوكَا⁶
وقال الكميت الأسدي:
أَكْرَمُ عِيدَانَا وَأَطْيَبُهَا عُوْدُكَ عُوْدُ النَّضَارِ لَا الْغَرْبِ

¹ مفردان القرآن، ص 101

² تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 8/1

³ لسان العرب: نحَلَ

⁴ لسان العرب: نحَلَ

⁵ ديوان شعره، ص 267

⁶ لسان العرب: أبي

ما بينَ حواءَ أنْ نُسبتَ إلى آمَنَة اَعمَّ نبتك الهَدَبُ¹
وقال المزرد:

وما نسبي في عبدٍ غنمٍ بضوِّلةٍ إلى عبدٍ غنمٍ أنتمي ثم أنتمي²
وأراه تضميناً جعله الفراهي وهو أروع تضمين.

36. أنساه عنه: قال الإمام الفراهي: "وإذا أدركته النعمة والرحمة أوقعهم الغرورُ
في اللهو واللعب وأنساهم الشيطانُ عن ذكر الرحمن".³

نسبي يعني: غفل عنه ولم يذكره كما قال عنتره بن شداد العبسي:
سكتُ فغراً أعدائي السكوتُ وطنوني لأهلي قد نسيتُ
وكيف أنام عن ساداتِ قومٍ أنا في فضلِ نعمتهم ربيتُ⁴
وقال حسان بن ثابت الأنصاري:

أقسمتُ أنساها وأترك ذكرها حتى تغيب في الضريح عظامي⁵
أي: لا أنساها.

ومثله أنساه كما قال الراعي النيمري:
قالت سليمي أئتوي أنت أم تغل وقد يُنسيك بعض الحاجة الكسل⁶

¹ ديوانه، ص 563

² ديوانه، ص 30

³ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 61/2

⁴ شرح ديوانه، ص 38

⁵ شرح ديوانه، ص 291

⁶ شعره، ص 111

وقال الراعي أيضاً:

رجاؤك أنساني تذّكر إخوتي ومالك أنساني بوهبين مالياً¹
وهو كذا يتعدّى لمفعولين كما قال الحطيئة:

أ فيما خلا من سالف العيش تذّكر أحاديث لا ينسيكها الشيب والعمر²
وقال جرير:

سأجعلُ نقدَ أمّك غيرَ دينٍ وأنسيك العتابَ فلا عتاباً
عَوَيْتَ كما عَوَى لي مِن شِقَاةٍ فذاقوا النارَ واشتركوا العذاباً³
وقال تعالى: "وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ"^(١٩). (سورة الحشر)

وهذا شائع.

ولا تدخل على مفعوله الثاني (عن) كما فعل الإمام الفراهي ولكنني وجدتُها مع
الثلاثي منه فقال المزرّد:

وما زودوني غيرَ حَشَفٍ مُرَمِّدٍ نسوا الزيتَ عنه فهو أغبر شاسف⁴
فإنساؤه عنه: إلهائه عنه. ويمكن أن نعلق به قوله تعالى "قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى
الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ وَمَا أَنَسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ
عَجَبًا"^(٢٠). (سورة الكهف)

ولكن النظائر تؤيد تعديّه لمفعولين كما قال تعالى: "وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا

¹ شرح ديوان الحماسة، ص 97

² ديوانه، ص 81

³ ديوانه، ص 57

⁴ ديوانه، ص 55

أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَهُ الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ^(١٤)".
(سورة يوسف) وقال أيضاً: "فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ^(١٥)". (سورة المؤمنون)

وثالثاً: الصلوات التي أخطأ فيها الإمام الفراهي

37. اسْتَدَلَّ مِنْهُ: قال الإمام الفراهي في تفسير سورة الحج: "وَإِذْ بَوَّأْنَا ... وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ^(١٦)" الاستدلال من تاريخ أمر المسجد الحرام على أنه للمؤمنين¹.
وقال أيضاً: "واستدللنا على هذا الفرق من تتبع استعمال الكلمتين معاً، ومما علمنا من استعمال "الكتاب" للأحكام"².
والواقع أنَّ الاستدلال لا يتعدى بـ"مِنْ" بل يتعدى بالباء كما قال كعب بن مُعدان الأشقري:

رفعوا القوود على الجبال ترفعاً أن يستدلَّ عليهم بنباح³
وقال العباس بن الأحنف:

نَمْ دَمْعِي فَلَيْسَ يَكْتُمُ شَيْئاً وَوَجَدْتُ اللِّسَانَ ذَا كِتْمَانٍ
كَنتُ مِثْلَ الْكِتَابِ أَخْفَاهُ طِيٌّ فَاسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِالْعِنْوَانِ⁴
ولعل هذا خطأ مطبعي فقد قال في تفسيره لسورة البقرة: "وأما الكلم فني معنى الكلمة ومادتها وصورتها، والاستدلال فيه بالقرآن وكلام العرب"⁵.

¹ نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (ط. الدائرة الحميدية، 2018م)، 415/1

² مفردات القرآن، ص 175

³ مجلة المورد، 2/5/صيف 1976م، ص 92

⁴ ديوانه، ص 282

⁵ نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (ط. الدائرة الحميدية، 2018م)، 61/1

وقال في نفس الصفحة: "وفي ذلك معظم الاستدلال بالقرآن وكلام العرب".¹
38. رحم عليه: قال الإمام الفراهي: "وجد فلاح في قردودة الشتاء حيّة، كأنها ميتة من شدة البرد، فرحم عليها ورفعها وضمها ب صدره".²
وقال أيضاً: "إن الله تعالى قضى بالعدل في الأمم السابقة فعذب المفسدين ورحم على المؤمنين".³

الفعل (رَحِمَ) يعني: لطف به وحنا عليه. ويأتي لازماً ومتعدياً بنفسه فشاهد المتعدي بنفسه قول حسان بن ثابت الأنصاري:

رَحِمَ اللَّهُ نافعَ بن بُدَيْلٍ رَحْمَةً المشتري ثوابَ الجهاد⁴
وأما اللازم فيتعدى بأربعة أحرف وهي: إلى والباء وعلى واللام فرَحِمَ إليه يأتي طبقاً للصلة (من) كما قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "ثم بعثت إلينا رسولاً رحمة منك إلينا وفضلاً منك علينا".⁵

وَرَحِمَ به يعني لطف به وهو كثير شائع وهو يضمن الرأفة فقال الأسود بن يعفر:
وضبةُ المشتري العار بنا وذاك عمُّ بنا غيرُ رحيم⁶
وقال تعالى: "--- إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٦٦". (سورة الإسراء).

وَرَحِمَ عنه: صفح عنه كما قال معاوية بن أبي سفيان:
إن تناقش يكن نقاشك يا ربِّ عذاباً، لا طوق لي بالعذاب

¹ نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (ط. الدائرة الحميدية، 2018م)، 61/1

² أمثال آصف الحكيم، ص 11

³ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 53/2

⁴ شرح ديوانه، ص 134

⁵ ديوان أبي بكر الصديق وجمهرة خطبه ووصاياه ورسائله، ص 365

⁶ ديوانه، ص 69

أو تجاوزُ فأنت ربّ رحيمٌ عن مُسيءٍ ذنوبُهُ كالتراب¹
ولكني أرى الصلة ألحق بالتجاوز من الرحمة. فقال الأعشى الكبير:

لم ينقص الشيبُ منه قتلَ مِرَّتِهِ وقد تجاوز عنه الجهلُ فانقشعا²
وقال أبو الأسود الدؤلي:

فكنتُ إذا المولى بدا لي غِشَّهُ تجاوزتُ عنه واستدمتُ به غدا
لتُحكَمَ الأيامُ أو لتردّه عليّ ولم أبسطُ لساناً ولا يدا³
وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "--- فهلاًّ احتججتم عليهم بأنّ رسولَ الله
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصّى بأن يُحسَنَ إلى مُحسنهم، ويُتجاوزَ عن مُسيئهم".⁴

وَرَحِمَ لَهُ: حنا له كما قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله،
أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، إلى الناس
كافة، رحمةً لهم، وحجةً عليهم".⁵

وأما تعدّيه بـ"على" فهو أيضاً شائع فقالت عائكة بنت زيد عن زوجها عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
جسدٌ لُفِفَ في أكفانه رحمةُ الله على ذاك الجسد⁶
وقال عبد الله بن الزبير الأسدي عن بشر:

حليمٌ على الجهّال منّا ورحمةٌ على كلّ حافٍ من مَعَدٍّ وناعل⁷

¹ ديوانه، ص 53 كالتراب: كثير ولكن العرب لم يعبر بالتراب عن الكثرة.

² ديوانه، 289/1

³ ديوانه، ص 91

⁴ نهج البلاغة، ص 98

⁵ ديوان أبي بكر الصديق وجمهرة خطبه ووصاياه ورسائله، ص 413

⁶ شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص 169

⁷ شعره، ص 112

ولكنه لا يتعدى إذا كان فعلاً إنما يتعدى إذا كان مشتقاً. فقد قال الإمام الفراهي وقال في مكان آخر من كتابه "أمثال آصف الحكيم": "... فتضرع اللقلق إلى الفلاح وقال يا سيدي! ارحمني وخلي هذه المرة".¹

39. صدر منه: قال الإمام الفراهي: "لن نستطيع منها صدراً".²

صدر يعني: نقيض ورد كما قالت الخنساء:

والناس سابلةٌ إليك فصادر بغنى ووارد³

وقال كعب بن مالك الأنصاري:

وما جعلوا من دون أمرٍ رسولهم لدن آزروه من ورود ولا صدر⁴

ولا تدخل عليه سوى (عن) كما قال ليبد بن ربيعة العامري:

فلو أني ثمرتُ مالي ونسله وأمسكتُ إمساكاً كبخلٍ منيع

رضيتُ بأدنى عيشنا وحمدتنا إذا صدرتُ عن قارص ونقيع⁵

وقال مروان بن أبي حفصة:

وما الناس إلا واردٌ لحياضكم وذو نهلٍ بالريّ عنهنّ صادر⁶

وقال مالك بن عويمر المتنخل:

شربتُ بجمةٍ وصدرتُ عنه وأبيض صارمٍ ذكرٍ إباطي⁷

¹ أمثال آصف الحكيم، ص 11

² أمثال آصف الحكيم، ص 54

³ ديوانها، ص 36 سابلة: الذهاب على الطريق

⁴ ديوانه، ص 211

⁵ ديوانه، ص 86

⁶ ديوانه، ص 54

⁷ ديوان الهذليين، 26/2، جمة: ما اجتمع في البئر من الماء

وبها يتعدى الإفعال منه كما أنشد ابن الأعرابي:

أصدرها، عن طثرة الدآث، صاحب ليل، خرش التبعاث¹
فصدّر منه لا يؤيده الشائع في كلام العرب.

40. اضطرّه عليه: قال الإمام الفراهي: "... ولذلك كفّ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن سلّ
السيف على المسلمين، وصبر صبراً أولي العزم من الرسل. وأما عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
فضطّروه عليه. ثم ماجت الدماء وصار الإسلام مثل الكفر".²

الفعل اضطرّ يعني: أجبره كما قال القطامي:

ألم تر هماماً فتى تغلب الذي تعاوره الأيام واضطرّه الدهر
بنى بين حيّ وائلٍ بصنيعةٍ فلا تغلبُ لامت أخاها ولا بكر³
وهو متعديّ بنفسه تدخل على مفعول الثاني (إلى) فيعني: أجبره على كذا كما قال أبو
الأسود الدؤلي:

فلا ذنب لي لو كنتُ اضطرّ ضيعتي إلى جولٍ رسٍ من حجا متماسك⁴
وجاء في حديث يحيى بن يعمر: كتب عن يزيد بن المهلب إلى الحجاج: "إنا لقينا العدو
ففعلنا واضطّررناهم إلى غرّة الجبل ونحن بحضيضه".⁵

ولكن ما وجدته متعدياً بـ"على" ولعله من سبق قلم الفراهي ولم يجد الفرصة لإعادة النظر
فيه إذ عاجلته المنية فبقي التفسير مخطوطاً نشره من نشره ممن لم يكن له إلمام بالعربية.

¹ لسان العرب: دأث

² نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (ط. الدائرة الحميدية، 2018م)، 101/1

³ ديوانه، ص 125

⁴ ديوانه، ص 263

⁵ لسان العرب: حضّ.

والحمد لله أني وجدته يستخدم "اضطره إليه" فقال: "لما كانت الموجودات لا تحصى اضطر إلى أن يضع لها ألفاظاً مشتركة فيم تكون متشابهة".¹

وقال: "ولا بدّ من طريق لمعرفة هذا المنتهى ولكنه قد تركه فاضطرّ الناس إلى محض دعوى البدهة فيه وطال فيه النزاع بينهم".²

41. انطوى عليه: قال الإمام الفراهي: "وذلك ينطوي على إطاعة هديه كما نبينه".³

وقال أيضاً: "وهذا ينطوي على الطاعة إجمالاً".⁴

فالانطواء لازمٌ يتعدى بـ"على" أيضاً⁵ فقال ابن أحمر:

كأنها من نقا العزاف طاويةً، لما انطوى بطنها واخروط السفّر
ماريةً لؤلؤانُ اللون أودها طلّ، وبسّ عنها فرقدٌ خصرُ⁶

وقال الضحّاك بن عمرو الشيباني:

سقاها فروّاها من الدّم فانطوتْ على علّقٍ في ثعلبٍ متهضمّ⁷

فهذا الفعل لازمٌ ليس بمتعدٍّ بنفسه ولكن ما جاء في كتابه "جمهرة البلاغة" من "وهذه الأمور تنطوي أبواباً من الأساليب".⁸ فهو خطأ مطبعي لم ينتبه له أيّ من المحققين ولا الناشرين فجاء في كافة طبعات البلاغة "تنطوي أبواباً" والصواب:

¹ حجج القرآن، ص 35

² حجج القرآن، ص 40

³ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 55/1

⁴ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 91/1

⁵ قلت: أيضاً لأنه يتعدى كذلك بـ"في واللام".

⁶ لسان العرب: بنس

⁷ كتاب الأشباه والنظائر للخالدين، 98/1

⁸ جمهرة البلاغة، ص 82

"تنطوي على أبواب".

42. عطش إليه: قال الإمام الفراهي: "... فإن من عرف أن لا ناصر له ولا مالك إلا الله، وأن لا حكم إلا له، وأنه لا بد من لقائه، غشيته الخشية، والتمس طرق التقرب إليه، وعطش إلى هداه الذي يرسل به أنبياءه".¹ وقال أيضاً: "فمنهم من اطمأن قلبه بالإيمان وانطفأ عطشه إلى الشهوات".²

العطش هو الغلة. عداه ابن منظور بـ"إلى" واستدل بقول الشاعر:

وإني لأمضي الهمَّ عنها تَجَمَّلاً، وإني، إلى أسماء، عطشانُ جائعٌ³
ولكنه ليس بصحيح إذ "إلى" هنا صلة للجوع وهو تعدي الجوع بـ"إلى" شائع كما قال قيس بن الحداية:

وإني لأنهي النفسَ عنها تَجَمَّلاً وقلبي إليها الدهرَ عطشانُ جائعُ
كأنَّ فؤادي بين شقين من عصا حذارٍ وقوع البين، والبين واقعٌ⁴
وقال بعض المهذلين:

وإني لأمضي الهمَّ عنها تَجَمَّلاً وقلبي إلى أسماء ظمآنُ جائعٌ⁵
ولعلَّ الفراهي وهمه أفعال تشبه العطش وتتعدَّ كلها بـ"إلى" فالظمأ والغلة والجواد والوجد والوله وحتى الجوع الذي هو عطش البطن. فقال نابغة بني شيبان:
أحلاَّتِ النفوسَ لتقتلها وهنَّ إلى مناهلكم ظمأءٌ⁶

¹ نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (ط. الدائرة الحميدية، 2018م)، 101/1

² نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (ط. الدائرة الحميدية، 2018م)، 241/1

³ لسان العرب: عطش

⁴ عشرة شعراء مقلون، ص 39

⁵ أساس البلاغة: جوع

⁶ ديوانه، ص 43

وقال الشاعر الحماسي:

وإنّ بنا لو تعلّمين لغةً إليك كما بالحنائمات غليل¹

وقال دوسر بن ذهيل القريعي:

وحنّت قلوصي من عدان إلى نجد ولم ينسها أوطانها قدّم العهد

وإنّ الذي لاقيت في القلب مثله إلى آل نجد من غليل ومن وجد²

ولك أن تلحق (إلى) بالوجد أم بالغليل.

ومنه ما يأتي بمعنى العطش مثل الجواد فقال الباهلي:

ونصرك خاذلٌ عني بطيء كأنّ بكم إلى خذلي جواد³

وجاء في المثل: "إلى أمّه يلهف اللهفان".⁴

بل معظم الأفعال التي لها معنى التوق تدخل عليها (إلى) مثل تاق إليه واشتاق إليه.

43. غنم به: قال الإمام الفراهي: "فلم ير الأعراي إلا أن يلقى التمر في الماء ويعود

بسفينة خالية غائماً بحياته".⁵

غنم يعني: وجد غنيمة كما قال زهير بن أبي سلمى:

حتى تأوى إلى لا فاحشٍ برمٍ ولا شحيح، إذا أصحابه غنموا⁶

¹ شرح ديوان الحماسة، 100/2

² ديوان الأصمعيات، ص 150

³ الصحاح ولسان العرب: جود

⁴ مجمع الأمثال، 22/1

⁵ أمثال آصف الحكيم، ص 43

⁶ ديوانه، ص 117

ويأتي لازماً ومتعدياً بنفسه فقال الأعشى الكبير:

فأصبْتُ من غير الذي غنموا إذا اقتُسمتْ نهباً¹
وقال الحماسي:

فقتُ إليه مُسرِعاً فغنمته مخافة قومي أن يفوزوا به قبل²
وقال عبيد الله بن الحر الجعفي:

إذا نطقوا لم يُسمع اللغو بينهم وإن غنموا لم يفرحوا بجزيل³
ولم أجده يتعدى بالباء كما ذكره الإمام الفراهي. ولعله التبس عليه قول امرئ القيس التالي:

وقد طوّفُ في الآفاق حتى رضيتُ من الغنيمة بالإباب⁴
ولكنّ الباء في عجز البيت تتعلق بالرضى.

44. انْفَلَتَ إليه: قال الإمام الفراهي: "وثالثهم مَنْ يعبد الله واقفاً على طرف من العبودية، غير داخلٍ فيها ولا مطمئن بها. فإذا أصابته مصيبة انفلت إلى أئمة الكفر وما جعله الله تعالى من شركاء".⁵

أَفَلَتَ يأتي لازماً ومتعدياً بنفسه فاللازم يتعدى بـ"من" كما أنّ المفعول الثاني للمتعدّي بنفسه يتعدى بها فقال امرؤ القيس:

وهراً تصيد قلوب الرجال وأفلت منها ابن عمرو حجر

¹ ديوانه، 567/2

² شرح ديوان الحماسة، 931/2

³ الحماسة الشجرية، ص 108

⁴ ديوانه، ص 43

⁵ نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (ط، الدائرة الحميدية، 2018م)، 419/1

رمتني بسهم أصاب الفؤادَ غداة الرحيل فلم أنتصر¹
وقال عبيد بن الأبرص:

إنّ أمامك يوماً أنت مدرّكه لا حاضر مفلّت منه ولا بادي²
وأشدّ ابن السكيت:

وأفلتني منها حماري وجبّتي، جزى الله خيراً جبّتي وحماريا!³
وكذا الافتلات كما قال قيس بن ذريح:

إذا افلتت منك النوى ذا مودّة حبيباً، بتصدّاع من البين ذي شغب
أذاقتك مرّ العيش، أو مُتّ حسرةً، كما مات مسقيّ الضياح على ألب⁴
والتفلّت يتعدّى بثلاثة أحرف منها "من" أيضاً كما جاء في الحديث: "تدارسوا القرآن
فلهو أشدّ تفلّثاً من الإبل من عقلها".⁵

والانفعال منه أيضاً يتعدّى بـ"من" كما قال النابغة الذبياني:

إمّا عصيتُ فإني غيرُ منفلتٍ مني اللصّابُ فجنباً حرّة النار⁶
وقال جرّان العود:

إذا انفلتت من حاجزٍ لحقّ به وجبّتها من شدّة الغيظ ترشّع⁷

¹ ديوانه، ص 69

² ديوانه، ص 55، يوم: يوم الموت

³ لسان العرب: فلت

⁴ ديوانه، ص 59 وفي لسان العرب (فلت): "على الألب". الضياح: عسل والألب: سمّ.

⁵ لسان العرب: فلت

⁶ ديوانه، ص 124

⁷ ديوانه، ص 6

ولم أجد تعدي بـ"إلى" كما ذكره الإمام الفراهي.

45. اقتربه: قال الإمام الفراهي: "فلما اقتربوه ذعرت الضفادع".¹

اقتربَ يعني: قرب فقال ابن الدمينّة:

ثم اقتربنَ إلى المناهل وانقضى زرعُ المصيف من البطون الضاهل²

وهو لازم يتعدّى بثلاثة أحرف وهي: إلى واللام ومنْ كما قال مالك بن الرّيب:

فإنْ تُصِفونا آلَ مروانِ نقتربُ إليكم وإلا فأذنوا بتعادي³

وقال الفرزدق:

وملحمةٍ شهدتْ ليومَ بأسٍ، تزيد المرءَ للأجل اقتراباً⁴

وقال ربيعة بن مقروم:

إذا حاربتَ حاربَ منْ تعادي وزاد سلاحه منك اقتراباً⁵

وما وجدته متعدياً بنفسه كما أورده الفراهي رحمه الله.

46. عنوان الإمام الفراهي أحد مباحث كتابه "جمهرة البلاغة" بـ"قصد السبيل

إلى البلاغة".⁶

لم يغيره أيّ من المحققين والناشرين وهو عندي وهم منه فإنّ الطريق أو السبيل عندما

¹ أمثال آصف الحكيم، ص 50

² ديوانه، ص 73

³ مجلة معهد المخطوطات العربية، 1/15، ص 99

⁴ ديوانه، ص 76

⁵ ديوانه، ص 20

⁶ جمهرة البلاغة، ص 8

يسير أحد فيه تأتي لهثلاث صلوات وهي: الباء وعلى وفي كما قال مسكين الدارمي:
وبينهما المضطر يلتبس التي جميعهم فيها بكل طريق
فذاك تدانيه فتدنيه مرة وتجنّفه أخرى منك فعل رفيق¹
وقال كعب بن زهير:
أرعى الأمانة لا أخون أمانتي إنّ الخوون على الطريق الأنكب²
وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
تمنى رجال أن أموت وإنّ أمت فتلك سبيلي لست فيها بأوحد³
ولكن الطريق ينتهي إما "إلى" أو "اللام" كما قال أبو كبير الهذلي:
أم لا سبيل إلى الشباب، وذكره أشهى إليّ من الرحيق السلسل⁴
وقال طرفة بن العبد:
وكيف تضلّ القصدَ والحقّ واضحٌ وللحقّ بين الصالحين، سبيل⁵
وأما الصلة "عن" فتستخدم للجور كما قال زبّان بن سيّار بن عمرو المري:
أبني منولة قد أطعتُ سرائكم لو كان عن حرب الصديق سبيل⁶
ولكن نجد صلة للبلوغ وهي "على" كما قال زهير بن أبي سلمى:
وأقصرتُ عما تعلين وسُدَدْتُ عليّ، سوى قصد السبيل، معادل⁷

¹ ديوانه، ص 55

² ديوانه، ص 11

³ ديوانه، ص 39

⁴ ديوان الهذليين، 89/2

⁵ ديوانه، ص 67

⁶ ديوان المفضليات، ص 350

⁷ ديوانه، ص 88

وقال لبید بن أبي ربيعة العامري:

مضوا سَلَفًا قَصْدُ السَّبِيلِ عَلَيْهِمْ بهيَّ من السَّلَافِ ليس بجيدر¹

وقال جرير:

نَفَضْتُ النِّطَافَ لِيَعْمَلَاتٍ نَوَاشِطَ حِينَ يَسْتَغْطِي الْبَرِيرُ

فَسَافَتْ ثُمَّ أَدْرَكَهَا نَجَاءٌ عَلَى الْبَصَرَاتِ يَقْصِدُ أَوْ يَجُورُ²

فبدا من هذه الشواهد أنَّ القصد إذا أضيف إلى الطريق أو السبيل يتعدى بـ"على" لا بـ"إلى" كما قال تعالى: "وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ" ﴿٥٠﴾.

(سورة النحل)

فكأنَّ القصد يتعدى بـ"على" فقال أبو الأسود الدؤلي:

لعمري لقد أوصيتُ أُمسٍ بِحَاجَتِي فَنِيَّ غَيْرَ ذِي قَصْدٍ عَلَيَّ وَلَا رَوْفَ

وَلَا عَارِفًا مَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَمِنْ خَيْرٍ مَا أَدْلَى بِهِ الْمَرْءُ مَا عَرَفَ³

وحتى أنَّ اللفظ المضادَّ والمرادف للقصد أيضًا يتعدى بها كما قال قيس بن زهير:

وَمَارَسْتُ الرِّجَالَ وَمَارَسُونِي فَمَعُوجَّ عَلَيَّ وَمُسْتَقِيمَ⁴

وقال الكميّ الأسدي:

أَخَذُوا الْقَصْدَ وَاسْتَقَامُوا عَلَيْهِ حِينَ مَالَتْ زَوَامِلُ الْآثَامِ⁵

فالعنوان الصحيح يكون "قصد السبيل على البلاغة" وهذا أراد به شيخنا الفراهي.

¹ ديوانه، ص 70

² ديوانه، ص 179، البصّرات: حجارة رخوة.

³ ديوانه، ص 128

⁴ شرح ديوان الحماسة، 1/164

⁵ ديوانه، ص 499، أخذ القصد: اقتصد فالأخذ زائد

47. أنزله به: قال الإمام الفراهي: "ولما عاهده الأسد على عدم الإضرار به، ذهب إلى الحمار وساقه إلى شفا حفرة عميقة وزور الكلام حتى أنزله بها".¹

أنزل يعني: أسقطه وأبلغه كما قال أوس بن حجر:

ألم تر أنّ الله أنزل منزلةً وعُفِرَ الظباء في الكاس تَمَعُّعٌ²
وقال تعالى: "وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ" (سورة الشورى)

ويأتي متعدياً بنفسه كما يأتي متعدياً لمفعولين فقال المخبل السعدي:

فأنزلهم دارَ الضياع فأصبحوا على مقعد من موطن العزّ أغبراً³
وهكذا تدخل على المفعول الثاني سبعة أحرف وهي: إلى والباء وعلى وعن وفي واللام
ومن فأنزله إليه: أبلغه إليه وأعطاه كما "لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ يَعْلَمُهُ
وَأَلْمَلْتِكُمْ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا" (سورة النساء)

وقال أيضاً: "وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا
عَلَيْهِ..." (سورة المائدة: 47)

ويأتي مجازاً كما قال تعالى: "فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ
إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ" (سورة القصص)

وقال الفرزدق:

وما طيئٌ إلا قبائلُ أنزلتُ إلى أهلِ عينِ التمر من كلّ جانب⁴

¹ أمثال آصف الحكيم، ص 13

² ديوانه، ص 57

³ المخبل السعدي حياته وما تبقى من شعره/ ص 125

⁴ ديوانه، ص 41

وَأَنْزَلَهُ بِهِ: فالباء هنا للمصاحبة كما قال كعب بن مالك الأنصاري:

فماكره فأنزله بمكر ومحمود أخو ثقة جسور¹
وقال تعالى: "وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٦٥﴾".
(سورة الإسراء)

وَأَنْزَلَهُ عَلَيْهِ: ألقاه عليه وأوحاه كما قال تعالى: "لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ
خَشِيْعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٦﴾".
(سورة الحشر)

وقال: "وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ
تَنْظُرُونَ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ
الْعَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٦٩﴾". (سورة البقرة) (أنزله عليه)

ويأتي مجازاً كما قال تعالى: "ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً
مِّنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ...". (سورة
آل عمران: 154)

وكذا يعني: اضطره إليه كما قال الراعي:

أنزلي الدهر على حكمه وأبكاني وأضحكني²
وَأَنْزَلَهُ عَنْهُ: أخذه يخفضه عنه كما قال جرير:

إذا قَدَرْنَا يوماً عن النار أَنْزَلَتْ، لنا مِقْدَحٌ منها، وللجار مِقْدَحٌ³

¹ ديوانه، ص 204

² شرح ديوان الحماسة، 102-101/1

³ لسان العرب: قدح

وَأَنْزَلَهُ فِيهِ: وَضَعَهُ فِيهِ كَمَا قَالَ عَنَتْرَةَ بْنِ شَدَّادِ الْعَبْسِيِّ:

أَنَاسُ أَنْزَلُونَا فِي مَكَانٍ، مِنْ الْعِلْيَاءِ، فَوْقَ النَّجْمِ يَعْلُو¹
وَأَوْحَاهُ فِي شَأْنِهِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَنْزَلَ اللَّهُ، وَالْكَتَابَ عَزِيزٌ، فِي عَلِيٍّ وَفِي الْوَلِيدِ قُرْآنَا
فَتَبَوَّأَ الْوَلِيدُ إِذْ ذَاكَ فَسَقَا وَعَلِيٌّ مَبِئُأَ إِيمَانَا²
وَقَالَ تَعَالَى: "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ³ وَلِلَّهِ
جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا⁴". (سورة الفتح)
وَكَذَا تَأْتِي ظَرْفِيَّةُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ⁵ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ⁶". (سورة الدخان)
وَهَكَذَا تَأْتِي حَالِيَّةُ كَمَا قَالَ أَمْرُو الْقَيْسِ:

كَأَنَّ التَّجَارَ أَصْعَدُوا بِسَبِيئَةٍ مِنْ الْخَصِّ حَتَّى أَنْزَلُوهَا عَلَى يَسْرِ⁷
وَأَنْزَلَهُ لَهُ: أَنْزَلَهُ لِأَجَلِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: "خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ
لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً⁸ أَزْوَاجًا يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ
ثَلَاثٍ⁹ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ¹⁰". (سورة الزمر)
وَأَنْزَلَهُ مِنْهُ: مِنْ هُنَا ظَرْفِيَّةُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: "الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً
وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً أَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا¹¹ لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ
تَعْلَمُونَ¹²". (سورة البقرة)

وَقَالَ أَيْضًا: "وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ¹³..." (سورة الأنعام: 99)

¹ شرح ديوانه، ص 115

² جمهرة خطب العرب، 23/2

³ ديوانه، ص 73، السبئية: نمر تباع بالمال، الخصى: حانوت الخمر.

ولم أجد "أنزله به" بمعنى: أنزله فيه.

48. ضَحِكَ عليه: قال الإمام الفراهي: "ولمَّا جاؤوا لإغاثته، ضحك عليهم لعنائهم".¹

ضَحِكَ ضد بكى كما قال الكميّ الأسدي:

وأضحكا بواكي أهل خوفٍ وأبكينا ضواحك آميننا²

وللضحك خمس صلوات كما وجدتها في نصوص عصور الاستشهاد وهي: إلى والباء وعن وفي واللام ومن. فضحك إليه يعني أقبل إليه مسروراً كما قال سويد بن منجوف السدوسي:

تعلم أنّ من تُتاجي وإنّ ضحكوا إليك، هم الأعادي³

وضحك به يعني ضحك عنه. والفرق بين ضحك به وضحك عنه أنّ الأول يدلّ على المصاحبة والالتزام بينما الثاني يدلّ على الإظهار والإبداء فقول ابن منظور: "ضحكتُ به ومنه على معنى".⁴ لا يصحّ.

قال الحسين بن مطير:

كلّ يومٍ بأقوانٍ جديدٍ تضحك الأرض عن بكاء السماء⁵

وأما ضحك عنه فيعني: أظهره كما قال العجاج:

بيضُ ثلاثٌ كنعاجٍ جمّ يضحكن عن كالبرد المنهم⁶

¹ أمثال آصف الحكيم، ص 26

² ديوانه، ص 449

³ كتاب الوحشيات، ص 98

⁴ لسان العرب: ضحك.

⁵ الأغاني، 282/16

⁶ شرح شواهد المغني، 503/2

وأما ضحكُ فيه فـ"في" هنا ظرفية كما قال عنتر بن شداد العبسي:
يضحكُ السيفُ في يدي وينادي وله في بنانٍ غيري نحيب¹
واللام في ضحكٍ له سببية كما قال تأبط شراً:
تضحكُ الضبعُ لقتلى هذيل وترى الذئب بها يستهل²
وأما ضحكُ منه فهو يعني سخر منه ويأتي كثيراً فقال تأبط شراً:
لإن ضحكك منك الإماء لقد بكّت، عليك، فأعولن، النساء الحرائر³
وقال الأعشى الكبير:
يا عجبَ الدهر متى سُويّا كم ضاحكٍ من ذا وكم ساخر⁴
وأما ضحكُ عليه الذي أورده شيخنا الفراهي فهو من استخدامات المتأخرين ويعني:
ضحك على أنه خدع الآخرين.

ورابعاً: ما اختلط على الإمام الفراهي من الصلات

49. أنفَ عنه: قال الإمام الفراهي: "والعرب تحبّ مدح الشاكر وذمّ الساخط
وتأنف عن مدح المتدلل".⁵ وقال: "لا يخفى أنّ هذه السورة من أوائل البعثة
حين أنفة الرؤساء عن مشاركة المؤمنين واستهزائهم منهم".⁶
أنفَ يعني: أصاب أنفه وأنكر، وهو متعدي بنفسه. قال أمية بن أبي الصلت:
من كان ذا عضد يُدرك ظلامته إنّ الدليل الذي ليست له عضد

¹ شرح ديوانه، ص 28

² ديوانه، ص 250

³ ديوانه، ص 82

⁴ ديوانه، 345/1

⁵ جمهرة البلاغة، ص 11

⁶ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 13/2

تنبو يده إذاما قلّ ناصرُه وتأنف الضيمَ إن أثرى له عضد¹
وقال آخر:

ودارَ هوانٍ أنفُتُ المقامُ بها فخلتُ محلاً كريماً²
ولكنه أيضاً يأتي لازماً يتعدى بـ"من" مما لم يذكره المعجميون فقال بشر بن عمرو بن مرثد:
فأنفُتُ مما قد رأيتُ وساءني وغضبتُ لو أتتُ أرى لي مغضبا³
وقال العطف بن أبي شفقة:

ولا تغضبوا مما أقول فإنما أنفُتُ لكم مما يقول المعاشر⁴
ولعل الفراهي اختلط عليه مرادفه "أبي" الذي يأتي متعدياً بنفسه ولازماً يتعدى
بـ"عن" فقال الفرزدق:

فلقد عززنا بعد ذلّتنا بك، بعدما نأبى عن القسر⁵
وقال عبد الرحمن الأنصاري:

وكنْتُ إذاما رأيتُ الصديقَ يأبى عن الوصل إلا انفتالا
وشاب الإخاء بشوب البلاء كشوبك بالملح عذباً زلالا
تنكبتُ عنه وألفيتُ لي منادحَ أعملُ فيها الجمالاً⁶
50. حَفِظَ عنه ومنه: قال الإمام الفراهي: "حَفِظَ اللهُ تعالى هذه الصلاة كما حفظ

¹ ديوانه، ص 548

² كتاب الأشباه والنظائر للخالدين، 195/1

³ ديوان المفضليات، ص 274

⁴ موسوعة شعراء العصر الجاهلي، ص 205

⁵ ديوانه، ص 233

⁶ شعره، ص 50

القرآن عن التبديل والتحريف".¹

وقال: "بل هذه الآية تزداد حجة وثقة بمور الزمان لاتفاق العلماء وترداد نظرهم فيها ... ولبقاءها محفوظة عن التغيير إذ لم يمتد حفظ الكتب السابقة إلا مدة يسيرة".²

وقال أيضاً: "في عرش كرمك لحفظنا عنبك من الناهيين".³

فالإمام الفراهي أورد صلتين لفعل الحفظ تدخل على مفعوله الثاني وعنى بهما نفس المعنى أي: حفظه منه. والحقيقة أنّ (عن) تعني: وعاه رواية عنه كما قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوصي أسامة بن زيد وجيشه حين سيّره إلى أبي: "يا أيها الناس! قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا ولا تغلّوا ...".⁴

وأما المعنى الذي أراده الفراهي فيؤديه (من) كما قال عدي بن زيد العبادي:

فنفسك فاحفظها من الغي والخنى متى تغوها يغو الذي بك يقتدي⁵
وقال ذو الرمة:

أما النبيذ فلا يذرك شاربُه واحفظ ثيابك ممن يشرب الماء
قوم يوارون عمن في صورهم حتى إذا استمكنوا كانوا هم الداء⁶
وقال الأقرع بن معاذ القشيري:

لا أحفظ البيت من جارات ربته ولن يحالف عرسي قبلك العدم⁷

¹ نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (ط. الدائرة الحميدية، 2018م)، 30/1

² نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (ط. الدائرة الحميدية، 2018م)، 169/1

³ أمثال آصف الحكيم، ص 76

⁴ ديوانه، ص 256

⁵ ديوانه، ص 104

⁶ ديوانه، ص 9

⁷ مجلة المورد، 1978/3/7، ص 197

وقال الشاعر:

لا همَّ، ربَّ الراكب المسافر،
احفظه لي من أعين السواحر،
وحيةً ترصد بالهواجر¹

وقال تعالى: "وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٣٧﴾". (سورة الحجر)

ولعل الفراهي التبس عليه صلة الصيانة فإنها تتعدى بكلا الحرفين كما قال طريح بن إسماعيل الثقفي:

إنَّ الذي صُنَّتْها عن معشرٍ طلبوا مني إلى الذي لم يُنجح الطَلَبُ²
وقال الشاعر:

يشتمني عبد بني مسمع فصنَّتْ عنه النفس والعرض
ولم أجبه لاحتقاري له من ذا يُعْضُ الكلبَ إنَّ عَضًّا³
وقال الخطيئة:

منعمةٌ تصونُ إليك منها كصونك من رداءٍ شرعي⁴
51. خلَصَ عنه ومنه: قال الإمام الفراهي: "ولمَّا كان أكثر هؤلاء المتأخرين مؤمنين

¹ لسان العرب: رصد

² شعره، ص 76

³ المقتضب، 30/1

⁴ مختارات ابن الشجري، ص 526

بالوحي طلبوا الخلاص من هذه الورطة ولكنهم لم يخلصوا عن طريقهم، فضعف
سعيهم وغمرهم الملحدون. ولا خلاص من أباطيل الفلسفة إلا بنبذها بالكلية".¹

خَلَصَ يعني: نجا وسلم وزكا كما قال متمم بن نويرة:

جَفَنُ من الغريب خالِصٌ لونه كدم الذبيح إذا يُشَنُّ مُشَعَّعٌ²
وقال أعشى همدان:

يا جُمْلُ ما حييَ لكم زائلٌ عني ولا عن كبدي نازح
حَمَلْتُ وُدًّا لكم خالصًا جدًّا إذا ما هزل المازح³
وقال إبراهيم بن هرمة القرشي:

ألم تر أنّ القولَ يخلص صدقُه وتأبى فما تزكو لباغٍ بواطله⁴
وتدخل على الفعل (خَلَصَ) ثلاث صلات وهي إلى واللام ومنْ فخلَصَ إليه: وصل
إليه كما قالت الشاعرة الجاهلية أسماء المرية:

أيا جبلي نعمانَ بالله حليًا نسيمَ الصبا يخلص إليّ نسيمها⁵
ولكن الفرق بين الخلاص إليه والوصول إليه هو أنّ الثاني يعطي معنى البلوغ إليه
بينما الأول يعني اختراق الطريق إليه.

¹ حجج القرآن، ص 48-49

² ديوان المفضليات، ص 52

³ ديوانه، ص 97، واللام في "ودًّا لكم خالصًا" للخالص لا للود كما يبدو من بيت ذي الإصبع العدواني:
نجمي الوشاة فلا نخطي مقاتلهم بخالصٍ من صفاء الود مكنون

ديوانه، ص 88

⁴ شعره، ص 188

⁵ شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص 62

وأما خَلَصَ له فيعني: اختَصَّ له دون غيره كما قال الشاعر:
مَنَّا النبيّ الذي قد عاش مؤتمناً ومات صافيةً لله خُصّابنا¹
وقال تعالى: "وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَّيِّتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفُهُمْ إِنَّهُ وَكِيمٌ عَلِيمٌ" (سورة الأنعام)
وخَلَصَ منه يعني: نجا منه كما قال عروة بن أذينة:

لا يخلص الظبي من هضاء جمعهم ولا يفوتهم بالتبل ذو الثأر²
وقال الشاعر:

وضاقت خُطَّةً نخلصتُ منها خلوصَ الخمر من نسجِ الفِدام³
فتعدية الخلوص بـ"عن" من الفراهي مما التبس عليه الحرفان (عن ومن).

52. مازَه عنه ومنه: قال الإمام الفراهي: "ولا شك في أنّ النوع ربّما يكون له
فصول كثيرة تميزه عن غيره بل ربما يكون في مجموع ذلك ما يميزه".⁴

وقال أيضاً: "يقولون في حدّ الإنسان إنه حيّ ناطق مائت، ليميزوه من الملائكة والجن".⁵
مَازَ يعني: فرّقه وهو يأتي متعدياً بنفسه كما يتعدّى لمفعولين تدخل على المفعول الثاني
عن ومن فَازَه عنه: نَحَاه عنه كما قال حسان بن ثابت الأنصاري:
تغنّ في كلّ شعرٍ أنت قائلُهُ إنّ الغناء لهذا الشعر مضمار

¹ كتاب العين: خلص

² شعره، ص 209

³ نصوص محققة في اللغة والنحو (ما لم يُنشر من الأمالي الشجرية لابن الشجري)، ص 493

⁴ حجج القرآن، ص 41

⁵ حجج القرآن، ص 41

يُمِيزُ مُكْفَأَهُ عَنْهُ وَيَعْزِلُهُ كَمَا تَمِيزُ خَبِيثَ الْفَضَّةِ النَّارُ¹
وَمَازَهُ مِنْهُ: أَبْعَدَهُ مِنْهُ كَمَا قَالَ أَبُو دَهْبِلٍ الْجَمْحِي:

وَهِيَ زَهْرَاءُ مِثْلَ لَوْلُؤَةِ الْغَوَا ص مِيزَتْ مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونٍ²
وَقَالَ تَعَالَى: "مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذْكَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ³
وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ"⁴. (سورة آل عمران)

وَالاسْمُ مِنْهُ مَرْيَّةٌ وَهِيَ تَأْتِي بِصَلَتِي "الْبَاءُ" وَ"عَلَى" كَمَا قَالَ النَّابِغَةُ الشَّيْبَانِي:
الْمُشْتَرِي حَسَنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ فَلَهُ بِذَاكَ مَرْيَّةٌ وَرَبَاحٌ⁵
وَقَالَ الشَّاعِرُ:

وَإِنِّي أَمْرٌ لِلْخَيْلِ عِنْدِي مَرْيَّةٌ عَلَى فَارِسِ الْبَرْذُونِ أَوْ فَارِسِ الْبَغْلِ⁶
وَالْتَفْعَلُ يَتَعَدَّى بِ"مِنْ" بِمَعْنَى: تَقَطَّعَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: "وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ⁷
وَبِئْسَ الْمَصِيرُ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ⁸ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا
أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ"⁹. (سورة الملك)
وَالانْفِعَالُ مِنْهُ يَتَعَدَّى بِ"عَنْ" بِمَعْنَى: تَحَوَّلَ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ: "أَنَّهُ كَانَ إِذَا
صَلَّى يَنَازِعُ عَنْ مَصَلَّاهُ فَيَرْكَعُ"¹⁰.

وَالاسْتِفْعَالُ مِنْهُ أَيْضًا يَتَعَدَّى بِهَا وَيَعْنِي: انْفَصَلَ عَنْهُ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ إِبْرَاهِيمَ

¹ <https://www.aldiwan.net/poem21505.html>

² ديوانه، ص 69

³ ديوانه، ص 114

⁴ أساس البلاغة: فرس

⁵ لسان العرب: ميز

النخعي: "استماز رجلٌ عن رجلٍ به بلاءٌ فابتلي به".¹
وبالجملة فإذا عنى الميزُ التمييزَ بين الاثنين تعدّى بـ"من" لا بـ"عن" بل ونجد كلّ فعل
يعني التمييز بين الاثنين يتعدّى مفعوله الثاني بـ"من" كما جاء في الحديث: "بذهب لم
تُحصَل من تراها".²

وقال أبو جلدة اليشكري:

قبحْتُ لو كنتَ امرأً صالحاً تعرف ما الحق من الباطل³
وقال رؤبة بن العجاج:

سهلاً إذا أكدى البخيلُ المكدي
وما علمنا أحداً من أحد⁴

ولعل الإمام الفراهي اختلط عليه "عن" بـ"من". فنجده يصيب في مكان آخر من هذا
الكتاب فقال: "ولكنه ليس من طريق العلم في شيء وقصاراه تمييز المعلوم من
المجهول حتى يتوجّه إليه".⁵

53. حَذَرَ عنه: قال الإمام الفراهي: "... ولذلك حذر السلف عن الاشتغال به
ولكن أبى الناس إلا النظر فيه والولوع به والإخلاد إليه".⁶

"حَذَرَ يَحْذِرُ" يأتي متعدّياً بنفسه ولازماً فلهتعدّي بنفسه قول عنترة بن شداد العبسي:
احذرْ محلَّ السوء لا تحلّلْ به وإذا نبا بك منزلٌ فتحول⁷

¹ لسان العرب: ميز

² لسان العرب: حصل

³ شعره، مجلة المورد، 13/3/1984م، ص 104

⁴ شرح ديوانه، 1/162

⁵ حجج القرآن، ص 43-44

⁶ حجج القرآن، ص 20

⁷ شرح ديوانه، ص 119

مجلة الهند صلات الأفعال في كتابات الإمام الفراهي

وقوله تعالى: "... وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ
حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ". (سورة البقرة)

وتأتي له ثلاث صلات وهي على واللام ومن فحذر عليه: خاف عطفاً عليه كما قال أبو
بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

مرض الحبيب فعدته فرضت من حذري عليه
شفي الحبيب فعادني فشفيت من نظري إليه¹

وحذر له: حذر منه كما قال أبو قيس بن الأسلت الأنصاري شاعر مات قبل دخوله
في الإسلام:

أحفرها عني بذى رونق مهند كالمح قطاع
صدق حسام وادق حده ومجنأ أسمر قرأع
بز امرئ مستبسلى حاذر للدهر، جلد غير مجزاع
الحزم والقوة خير من الإ دهان والفكة والهامع²

وحذر منه: خافه كما قال عنترة بن شداد العبسي:

وقف لتنظر ما بي لا تكن عجلاً واحذر لنفسك من أنفاس نيراني³
ومنه حاذر منه كما قال ليبد بن ربيعة العامري:

كأن سحيله شكوى رئيس يحاذر من سرايا واغتيال
تبكي شارب أسرت عليه عتيق البابلية في القلال⁴

¹ ديوانه، ص 222

² ديوان المفضليات، ص 282-283

³ شرح ديوانه، ص 196

⁴ ديوانه، ص 108

ولعلَّ الإمام الفراهي اختلط عليه "عن" بـ"من" لأنهما تتوب بعضهما البعض.

54. يَنْسَ عنه: قال الإمام الفراهي: "فإنهم لو اهتمدوا لم يدعوه، فينسوا عن الحيلة...".¹ وقال أيضًا: "وأما أنه يسمع الدعوات فيما أنهم يفرعون إليه عند اليأس عن كلِّ شيء".²

يَنْسَ يعني: قنط كما قال عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

أُتْجِعُ يَأْسًا أُمَ تَحَنُّ صَبَابَةً عَلَى إِثْرِ هِنْدٍ حِينَ بَانَتْ وَتَرْجَعُ³

وهو ضد الرجاء والطمع كما قال عنتر بن شداد العبسي:

فسيري مسير الأمن يا بنت مالكٍ ولا تجنحي بعد الرجاء إلى اليأس⁴

وقال حاتم الطائي:

إذا ما عزمَتِ اليأسَ ألفتَه الغنى إذا عرفته النفسُ، والطمعُ الفقرُ⁵

وهو لازم يتعدى بـ"من" كما قال النابغة الذبياني:

فالرفق يمينٌ، والأناة سعادة، فتأنَّ في رفقٍ تنال نجاحا

واليأس مما فات يُعقبُ راحةً ولربَّ مطعمة تعود ذباحا⁶

وقال أبو زيد الطائي:

ساندوه حتى إذا لم يروه شدَّ أجداده على التسنيد

¹ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 42/2

² تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 57/2

³ ديوانه، ص 339

⁴ شرح ديوانه، ص 88

⁵ ديوانه، ص 111

⁶ ديوانه، ص 77

يئسوا منه ثم غادروه لطير عكف حوله عكوف الوفود¹
وقال مفروق بن عمرو الشيباني يرثي إخته قيساً والدعاء وبشراً الذين قتلوا في غزوة بارق:
أبكي على الدعاء في كل شتوة، وهفني على قيس، زمام الفوارس
فما أنا، من ريب الزمان، بجباً ولا أنا، من سيب الإله، بيأس²
وقال تعالى: "... أَلْيَوْمَ يَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ
أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ...".
(سورة المائدة: 3)

وقال: "... وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ" (سورة العنكبوت)

فاليأس لا يتعدى بـ"عن" كما استخدمه الإمام الفراهي.

خلاصة المقال: ظهر مما سردناه من النماذج أنّ الإمام الفراهي حالفه الصواب في
معظم صلوات الأفعال التي استخدمها في كتاباته، وأنه ممن يرى القياس غير السماع في
أمر الصلوات الفعلية فأوجد صلوات عديدة أبدع فيها التضمين، وأنّ الأخطاء التي
وردت في كتاباته بشأن الصلوات الفعلية هي من نوع سبق القلم أو لأنه لم يجد الفرصة
لإعادة النظر في كتاباته فعاجلته المنية قبل أن ينظر فيها من جديد فيقوم ما اعوجّ منها.
نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لمزيد الخدمة للغة كتابه المعجز.

¹ جمهرة أشعار العرب، ص 586

² لسان العرب: جباً

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. أساس البلاغة لأبي القاسم الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998م
3. أساليب القرآن للمعلم عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية ومكتبتها، سرائير، أعظم كره، الهند، ط1، 1389هـ
4. أسجاع الكُهان الجاهليين وأشعارهم، جمع وتحقيق ودراسة: ياسين عبد الله جمول، جامعة دمشق، العام الدراسي 2011-12م
5. أسلوب التضمنين وأثره في التفسير للدكتور زيد عمر عبد الله، د.ت.
6. إمعان في أقسام القرآن للمعلم عبد الحميد الفراهي، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1349هـ
7. تعليقات في تفسير القرآن الكريم للإمام عبد الحميد الفراهي، إعداد: د. عبيد الله الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، ط1، 2010م
8. تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان للإمام عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، الهند، ط1، 2008م
9. جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، تحقيق: محمد علي البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
10. جمهرة البلاغة للإمام عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، الهند، ط2، 2016م
11. جمهرة البلاغة للإمام عبد الحميد الفراهي، دراسة وتحقيق: د. محمد خالد

- الرهاوي والدكتور عامر الجراح، دار سنابل، تركيا، ط1، 2019م
12. جمهرة البلاغة للعلامة عبد الحميد الفراهي، اعتنى به: أ.د. أحمد حسن فرحات ود. محمد إقبال أحمد فرحات، المجلس الوطني للإعلام بدولة الإمارات، ط1، 2016م
13. جمهرة البلاغة للمعلم عبد الحميد الفراهي، مطبعة معارف، أعظم كره، الهند، 1360هـ
14. جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة لأحمد زكي صفوت، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط1، 1933م
15. حجاج القرآن للإمام عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، الهند، ط1، 2009م
16. الحماسة الشجرية لابن الشجري، تحقيق: عبد المعين الملوحي وأسماء الحميصي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1970م
17. خير المقال في صلات الأفعال للدكتور أرنك زيب الأعظمي، جمع وترتيب: د. محمد معتصم الأعظمي، مركزي بليكيشنز، نيو دلهي، يناير، 2022م
18. ديوان ابن مُقبل، تحقيق: د. عزة حسن، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، 1995م
19. ديوان أبي الأسود الدؤلي، صنعة: أبي سعيد الحسن السكري، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، دار ومكتبة الهلال، ط2، 1998م
20. ديوان أبي بكر الصديق وجمهرة خطبه ووصاياه ورسائله، صنعة: الدكتور محمد شفيق البيطار، مطبوعات مجمع اللغة السعيدة، الجمهورية اليمنية، صنعاء، ط1، 2020م
21. ديوان أبي ذويب الهذلي، تحقيق وشرح: د. أنطونيوس بطرس، دار صادر،

- بيروت، ط1، 2003م
22. ديوان أبي طالب بن عبد المطلب، صنعة أبي هفان المهزمي البصري وعلي بن همزة البصري التميمي، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط1، 2000م
23. ديوان أسامة بن منقذ، تحقيق وتقديم: د. أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، عالم الكتب، ط2، 1983م
24. ديوان أعشى همدان، تحقيق: د. حسن عيسى أيو ياسين، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ط1، 1983م
25. ديوان الأسود بن يعفر، صنعه: الدكتور نوري حمودي القيسي، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة، مطبعة الجمهورية، 1970م
26. ديوان الأصمعيات، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ط3
27. ديوان الأعشى الكبير بشرح محمود إبراهيم محمد الرضواني، وزارة الثقافة والفنون والتراث، إدارة البحوث والدراسات الثقافية، الدوحة، قطر، 2010م
28. ديوان الأفيشر الأسدي، صنعة: د. محمد علي دقة، دار صادر، بيروت، ط1، 1997م
29. ديوان الخطيئة، دراسة وتويب: د. مفيد محمد قبيحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993م
30. ديوان الخنساء، اعتنى به وشرحه: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، 2004م
31. ديوان الشعراء المعمرين، للدكتورة شمس الإسلام أحمد حالو، دار الكتب الوطنية، أبوظبي، 2010م

32. ديوان الطرماح، د. عزة حسن، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1994م
33. ديوان العباس بن الأحنف، شرح وتحقيق: عاتكة الخرزجي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1954م
34. ديوان العباس بن مرداس السلمي، جمع وتحقيق: الدكتور يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، ط1، 1991م
35. ديوان العجاج، تحقيق: د. عبد الحفيظ السطلي، مكتبة أطلس، دمشق، 1971م
36. ديوان الفرزدق، شرح الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م
37. ديوان القطامي، تحقيق: إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1960م
38. ديوان الكميث بن زيد الأسدي، جمع وشرح وتحقيق: د. محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط1، 2000م
39. ديوان المرقشين، تحقيق: كارين صادر، دار صادر، بيروت، ط1، 1998م
40. ديوان المزّرد بن ضرار الغطفاني، تحقيق: خليل إبراهيم العطية، مطبعة أسعد، بغداد، ط1، 1962م
41. ديوان المفصليات للمفضل الضبي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط6
42. ديوان النابغة الجعدي، جمع وتحقيق: د. واضح الصمد، دار صادر، بيروت، ط1، 1998م
43. ديوان النابغة الذبياني بشرح وتقديم: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م
44. ديوان الهذليين، الجمهورية العربية المتحدة، الثقافة والإرشاد القومي، طبعة دار الكتب، بيروت، 1996م

45. ديوان امرئ القيس، ضبطه وصحّحه: الأستاذ مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م
46. ديوان أمية بن أبي الصلت، جمع وتحقيق ودراسة: د. عبد الحميد السطلي، دمشق، 1974م، د.ت.
47. ديوان أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب، جمع وترتيب: عبد العزيز الكرم، ط1، 1988م
48. ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980م
49. ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، تقديم وشرح: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1994م
50. ديوان تأبط شراً وأخباره، جمع وتحقيق وشرح: علي ذو الفقار شاكّر، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1984م
51. ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1986م
52. ديوان حاتم الطائي، شرح: أبي صالح يحيى بن مدرك الطائي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1994م
53. ديوان حسان بن ثابت، شرح وتقديم: الأستاذ عبدأهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1994م
54. ديوان ذي الرمة، تقديم وشرح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995م
55. ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح وتقديم: الأستاذ علي حسن فاعور، دار التب العلمية، بيروت، ط1، 1988م
56. ديوان سويد بن أبي كاهل البشكري، جمع وتحقيق: شاكر العاشور، مراجعة:

- محمد جبار المعبيد، دار الطباعة الحديثة، بصرة، العراق، ط1، 1972م
57. ديوان شعر الحادرة، تحقيق وتعليق: د. ناصر الدين الأسد، مجلة معهد المخطوطات العربية، 2/15
58. ديوان شعر المتلمس الضُّبعي، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية، 1970م
59. ديوان طرفة بن العبد، شرح وتقديم: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2002م
60. ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، د.ت.
61. ديوان عبيد بن الأبرص، بشرح: أشرف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994م
62. ديوان عدي بن زيد العبادي، تحقيق وجمع: محمد جبار المعبيد، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، 1965م
63. ديوان عمر بن أبي ربيعة الخزومي القرشي، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر.
64. ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق وتقديم: د. فوزي عطوي، دار صادر، بيروت، 1980م
65. ديوان قيس بن ذُريح، شرح: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2004م
66. ديوان كُثَيَّر عَزَّة، جمع وشرح: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1971م
67. ديوان كعب بن زهير، تحقيق: الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م
68. ديوان كعب بن مالك الأنصاري دراسة وتحقيق، سامي مكي العاني،

- منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ط1، 1966م
69. ديوان ليبد بن ربيعة العامري، دار صادر، بيروت، د.ت.
70. ديوان مروان بن أبي حفصة، جمع وتحقيق وتقديم: د. حسين عطوان، دار المعارف، ط3، 1982م
71. ديوان مسكين الدارمي، جمع وتحقيق: عبد الله الجبوري و خليل إبراهيم العقبة، مطبعة دار البصري، بغداد، ط1، 1970م
72. ديوان معاوية بن أبي سفيان، جمع وتحقيق وشرح: الدكتور فاروق أسليم بن أحمد، دار صادر، بيروت، ط1، 1996م
73. ديوان معن بن أوس المزني، صنعة: د. نوري حمودي القيسي وحاتم صالح الضامن، دار الجاحظ، بغداد، 1977م
74. ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح وتقديم: طلال حرب، الدار العالمية، د.ت.
75. ديوان وضاح اليمن، جمع وتقديم وشرح: د. محمد خير الدين البقاعي، دار صادر، بيروت، ط1، 1996م
76. شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، جمع وترتيب: بشير يموت، المطبعة الوطنية، ط1، 1934م
77. شاعران من فرسان القادسية، د. نوري حمودي القيسي ود. حاتم الضامن، د.ت.
78. شرح ديوان الحماسة، كتب حواشيه: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م
79. شرح ديوان روبة بن العجاج، تحقيق: د. ضاحي عبد الباقي محمد، جمهورية مصر العربية، مجمع اللغة العربية، ط1، 2011م
80. شرح ديوان عنتر بن شداد العبسي للعلامة التبريزي، دار الكتاب العربي، ط1، 1992م

81. شعر إبراهيم بن هرمة القرشي، تحقيق: محمد نفاع وحسين عطوان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1869م
82. شعر أبي زيد الطائي، جمع وتحقيق: د. نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف، بغداد، 1967م
83. شعر البعيث المجاشعي، جمع وتحقيق: د. ناصر رشيد محمد حسين، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1974م
84. شعر الحارث بن خالد المخزومي، جمع وتحقيق: الدكتور يحيى الجبوري، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ط1، 1972م
85. شعر الخوارج، جمع وتحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1974م
86. شعر الراعي التميمي وأخباره، جمع وتقديم وتعليق: ناصر الحاني، دمشق، 1964م
87. شعر الفند الزماني للدكتور حاتم الضامن، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1986م
88. شعر المتوكل الليثي، تحقيق: د. يحيى الجبوري، مكتبة الأندلس، بغداد، د.ت.
89. شعر المقنع الكندي، جمع وتحقيق ودراسة: أ.د. أحمد سامي زكي منصور، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية الثانية والثلاثون، 2011م
90. شعر سعد بن ناشب، تقديم وجمع وتحقيق: حامد كساب عياط، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد: 89 للعام 2015م
91. شعر طريح بن إسماعيل الثقفي الأموي والعباسي، دراسة وجمع وتحقيق: د. بدر أحمد ضيف، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، 1987م
92. شعر عبد الله بن الزبير الأسدي، جمع وتحقيق: د. يحيى الجبوري، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1974م
93. شعر عروة بن أذينة، تحقيق: د. يحيى الجبوري، دار القلم، الكويت، ط2، 1981م
94. شعر عمرو بن معديكرب الزبيدي، جمع وتنسيق: مطاع الطرايشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط2، 1985م

95. شعر هدية بن الخشرم العذري، صنعة الدكتور يحيى الجبوري، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط2، 1986م
96. شعراء أمويون، د. نوري حمودي القيسي، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط1، 1985م
97. الصبح المنير في شعر أبي بصير، مطبعة آدلف هلزوسنين، بيانة، 1927م
98. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، 1956م
99. عشرة شعراء مقلّون، صنعة: أ.د. حاتم صالح الضامن، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، العراق، 1990م
100. علقة الفحل، شرح ديوان علقمة الفحل للسيد أحمد صقر، المطبعة المحمودية، القاهرة، ط1، 1935م
101. قس ابن ساعدة الإيادي للدكتور أحمد الربيعي، مطبعة النعمان، بغداد، 1974م
102. قصائد جاهلية نادرة، د. يحيى الجبوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1988م
103. كتاب الأشباه والنظائر للخالدين، تحقيق: د. السيد محمد يوسف، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د.ت.
104. كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق: د. إحسان عباس، د. إبراهيم السعافين والأستاذ بكر عباس، دار صادر، بيروت، ط3، 2008م
105. كتاب العين للخليل الفراهيدي، ترتيب وتحقيق: الدكتور عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003م
106. كتاب الوحشيات، أبو تمام الطائي، تحقيق: عبد العزيز الميمني الراجكوتي، وزیادة: محمود محمد شاكر، ط3، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1968م
107. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

108. لسان العرب لابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، د.ت.
109. مالك ومتمم ابنا نوية اليربوعي لايتسام مرهون الصفار، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1968م
110. مجلة المورد الفصلية الصادرة عن وزارة الثقافة والإعلام، دار الجاحظ للنشر، العراق
111. مجمع الأمثال لأبي الفضل الميداني، تعليق: نعيم حسين زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010م
112. المخبل السعدي حياته وما تبقى من شعره للدكتور حاتم صالح الضامن، د.ت.
113. مفردات القرآن للإمام عبد الحميد الفراهي، تحقيق وشرح: د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، الهند، ط3، 2012م
114. مفردات القرآن للمعلم عبد الحميد الفراهي، مطبعة إصلاح، سرائير، أعظم كره، الهند، 1358هـ
115. موسوعة شعراء العصر الجاهلي لعبد عون الروضان، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2001م
116. نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان للإمام عبد الحميد الفراهي، اعتناء: د. عبيد الله الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، الهند، ط2، 2018م
117. نهج البلاغة، ضبط نصه وابتكر فهرسه العلمية، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط4، 2004م
118. النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري، تحقيق ودراسة: د. محمد عبد القادر أحمد، دار الشروق، بيروت، ط1، 1981م

العرب ولغتهم عند إمام الهند الفراهي

- بشرى المحمدي¹

ملخص

ارتبطت فكرة المعرفة الإسلامية بالعرب لكون الدعوة جاءت في بلادهم، وهم أهل فصاحة وبيان، ولهم سمات خاصة، إلا أن الدارس لعلوم الشريعة واللغة، خاصة علم الحديث الشريف والتفسير والبلاغة، يجد أن هناك جهداً كبيراً جداً في التراث الإسلامي ساهم به أكابر العلماء من غير العرب، لكنهم تجرأوا في العربية أكثر من العرب. لكون اللغة هي وسيلة التفاهم وبيان المعاني والتواصل بين الشعوب، ولكون العربية هي لغة الدين الإسلامي التي ارتضاها الله سبحانه.

من هؤلاء العلماء عالم الهند المفسر والبلاغي صاحب المؤلفات العديدة والمفيدة عبد الحميد الفراهي، الذي ركّز كل عمره ساعياً للعلم والتعليم وخدمة القرآن الكريم، وفي هذا البحث ستم المحاولة على تبيان جزئية بسيطة من أعمال هذا العالم وهي نظريته للعرب ولغتهم، حيث إنه تعلّم العربية وعمل أستاذاً لها في المدارس ثم الجامعات، وبعد مدة تفرّغ للتفسير وعلوم القرآن.

وسنستدلّ على ذلك بكتبه التي ألفها وبقيت شاهداً على علمه وجهده وسنستهلّ البحث بنبذة عن حياته، ثم عن لغة العرب، وعن مكانة العرب. حتى لا نكون منغلّقين على البلاد العربية فقط، فالدين جاء لكل البشرية ونهض به هذا الرجل كما نهض من قبله أفذاذ في اللغة والتفسير والحديث.

¹ باحثة في مرحلة الماجستير، كلية العلوم الإسلامية، قسم الحديث الشريف، جامعة MARDİN .ARTUKLU

لقد فعل الفراهي كل ذلك بسبب عقيدته الإسلامية، ومن أجل فهم القرآن الكريم الذي نزل بلغة العرب، وقد أدرك الفراهي أنه لا يمكنه تذوق القرآن واستكشاف كنوزه إلا من خلال العربية، فانطلق يتعلمها بحماس منقطع النظير، وبتعمق قل أن يوجد مثله في أهل العربية، بل لقد سجل الفراهي على علماء العربية بعض الأخطاء والهفوات، وتكلم على بعض خصائص العربية التي لم يذكرها أحد غيره.

المبحث الأول: حياة الإمام الفراهي

العلامة الإمام عبد الحميد الفراهي (1863-1930م)، هذا العالم الهندي الذي صرف جهوده إلى القرآن ومعانيه وتديره. كان الإمام الفراهي عالماً متبحراً في اللغات كوسيلة مهمة للمعرفة كالعربية والفارسية والإنجليزية عدا عن الأوردية، وكان مشغلاً في علم الكلام والفلسفة والتعليم إلا أن مجاله المحبب كان هو القرآن. القرآن الكريم وعلومه ومعارفه هيمن على كيان الفراهي وغالبية مؤلفاته ودروسه، فكان عندما يرى أحد من طلابه مقبلاً على تدبر القرآن الكريم يسعد به، ويتلقى تساؤلاته بصدر رحب، ويشجعه على التساؤل، وسعى أن يتعلم طلابه تدبر القرآن الكريم، وكان يقول لهم: "تدبروا القرآن في آخر الليل سيفتح الله عليكم مكنونه"¹، وينصح من يريد أن يتدبر آية من القرآن أن يبحث في الآية التي تسبقها، وسياقها ومناسبة نزولها، ونظام السورة ونظمها، فللقرآن حقائق ومعارف متجددة، ويرى أن جهود المستشرقين كانت قاصرة عن فهم القرآن ومعارفه.

اشتغل الفراهي منذ يفاعته بطلب العلم، حفظ القرآن، وقرأ - كدأب أبناء العائلات

<https://islamonline.net/%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%B1%D8%A7%D9%87%D9%8A-%D9%88%D8%AA%D8%AF%D8%A8%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B1%D8%A2%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%B1%D9%8A%D9%85/>

¹ الفراهي وتدير القرآن، اسلام أون لاين،

الشريفة في الهند- اللغة الفارسية وبرع فيها، ثم انصرف إلى طلب العربية، فاستظل بعطف أخيه الشيخ شبلي النعماني- وكان أكبر منه بست سنين- فأخذ منه العلوم العربية كلها من صرفها ونحوها، ولغتها وأدبها، ومنطقها وفلسفتها.

ثم سافر إلى لكناؤ- مدينة العلم في الهند- وجلس في حلقة الفقيه المحدث الإمام الشيخ فيض الحسن السهارنفوري- شارح الحماسة وأستاذ اللغة العربية في كلية العلوم الشرقية بلاهور- فبرع في الآداب العربية، وفاق أقرانه في الشعر والإنشاء. قرأ دواوين الجاهلية كلها، وحلّ عقد معضلاتها، وقصص شواردها فكان يقرض القصائد على منوال الجاهليين، ويكتب الرسائل على سبك بلغاء العرب وفصحائهم.

ثم عرج على اللغة الإنجليزية- وهو ابن عشرين سنة- ودخل في كلية عليكره الإسلامية، ونال بعد سنين شهادة من جامعة الله آباد، وامتاز في الفلسفة الحديثة، ... كان الفراهي عالماً بالعلوم العربية والدينية، وفاضلاً في العلوم العصرية والإنكليزية، ثم عين معلماً للعلوم العربية، بمدرسة الإسلام بكراتشي عاصمة السند، فدرس فيها سنين، وكتب وألف وقرض وأنشد.

ثم انقطع إلى تدبر القرآن ودرسه، والنظر فيه من كل جهة. وجمع علومه من كل مكان، ففضى فيه أكثر عمره، ومات وهو مكبّ على أخذ ما فات العلماء، وتحقيق ما لم يحققوه، فكان لسانه ينبع علماً بالقرآن، وصدره يتدفق بحثاً عن مشكلاته، وقلبه يجري كشفاً عن معضلاته.

أما المناصب التي شغلها: فقد عين أستاذاً للغة العربية بكلية (عليكره الإسلامية)، وكان بها يومئذ أستاذ اللغة العربية المستشرق الألماني الشهير يوسف هارويز الذي استكمل العربية من الفراهي. وقرأ عليه الفراهي العبرية.

ثم عين أستاذاً بجامعة الله آباد، وبقي فيها أعواماً حتى انتقل منها إلى حيدر آباد الدكن، رئيساً لمدرسة دار العلوم النظامية، التي كانت تخرّج قضاة البلاد وولاتها.

وهو الذي عمل على تأسيس الجامعة العثمانية، والتي كانت من أحدث جامعات العالم سنًا، وأعجبها نظامًا، ثم استقال ولزم بيته، وانقطع إلى العلم.¹

وكتب "جمهرة البلاغة" من مؤلفات الإمام عبد الحميد الفراهي الذي انقطع إلى تدبر القرآن وسبر غوره والتفكير في معاني آياته ونظم سوره. وحاول التجديد في كل فن وتدوينه من جديد في ضوء القرآن الكريم فألف الكتب والرسائل في التفسير والحديث والفقه والنحو والفلسفة ومبادئ الدين حتى نجد في مؤلفاته محاولات المقارنة بين أديان العالم وذلك لأنه كان متضلعا من العربية والفارسية والإنجليزية والسريانية والسنسكريتية وغيرها من شتى لغات العالم. وكان باحثًا ومفكرًا وشاعرًا فانطلق يكتب أكثر من سبعين رسالة في آن واحد وترك إشارات وذكريات عنها إلا أنه لم يوفق إتمامها سوى العدد القليل منها، وهي تفسير بعض سور القرآن وإمعان في أقسام القرآن.²

انتفاع الناس بهدايات القرآن الوافرة حسب مبالغ تقواهم العربية بوابة فهم القرآن وقد قرأ الفراهي غالبية التفاسير، وتوقف عند تفسير الإمام الرازي، ورأى أن الرازي ماهر في هدم المبنى، ولكنه ليس بماهر في بنائه، أي أنه يفند آراء وحجج المخالفين ببراهينه القوية، ولكن القول الذي يريحه لا يكون قويًا، بينما الفراهي كان يجد في

¹ - انظر، أحمد حسن فرحات، المكتبة الشاملة، عبد الحميد الفراهي .

<https://shamela.ws/author/2553>

² د. أورنك زيب الأعظمي، الإمام عبد الحميد الفراهي وكتابه "جمهرة البلاغة" شبكة الألوكة، 12-25-2016.

https://www.alukah.net/literature_language/0/110803/%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%85%D8%A7%D9%85-%D8%B9%D8%A8%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%85%D9%8A%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%B1%D8%A7%D9%87%D9%8A-%D9%88%D9%83%D8%AA%D8%A7%D8%A8%D9%87-%D8%AC%D9%85%D9%87%D8%B1%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%84%D8%A7%D8%BA%D8%A9/

نفسه أنه يختلف عن الرازي من حيث معرفته ببناء المعنى أكثر من الهدم، أي أنه يجيد اختيار الرأي الأقوى ويرجحه. تميز أسلوب الفراهي العلمي في التعامل مع القرآن الكريم بالإيجاز، فعندما يتناول قضية قرآنية كان يحيطها علماً لمعرفته باللغة العربية وتاريخها وآدابها، وقد بلغ عدد مؤلفاته أكثر من ثلاثين كتاباً، فكان لا يكتب إلا إذا وجد شيئاً جديداً يستحق الكتابة، فينشغل بتدوينه، وكان يميل إلى العزلة، أما حديثه فكان موجهاً إلى العلم بعيداً عن اللهو.

المبحث الثاني: لغة العرب عند الفراهي

يرى الفراهي أنّ فهم القرآن الكريم هو طريق الهداية، لأنّ النفس تتزكى وتحسن بتدبر القرآن، ومن كتبه المهمة "جمهرة البلاغة" الذي قدّم فيه محاولة تجديدية للبلاغة العربية، معتبراً علم البلاغة من العلوم الخادمة للقرآن الكريم، ووجه انتقادات لكتاب "مفتاح العلوم" للسكاكي (ت 626هـ) وهذا الكتاب يعتبر من الكتب الرئيسية في فهم البلاغة العربية، فقد ظل منهج السكاكي هو المسيطر على دراسة البلاغة في القرون التي تلتها، ورأى الفراهي أنّ فن البلاغة العربية تأثر بفن البلاغة اليوناني خاصة "أرسطاطاليس" في نظرية المحاكاة، وهو ما جعل فن البلاغة العربية يبتعد عن القصد، لذا دعا أن يكون علم البلاغة منبثقاً من القرآن الكريم، وكلام العرب الأخّاح.

ويقول أيضاً في صفة كلام العرب وتفضيله على كل كلام آخر: "اعلم أنّ كلام العرب كله نمط أعلى من كلام الأمم التي اعتادت عليه، لأنّ العرب مولعون برزانة القول، وتهذيبه عن السخف، فهم يجردون كلامهم من كل رابطة، ولو ذكروا الروابط لكان عاراً على السامع، الذي يفهم الروابط بذكائه، فلذلك كثر في كلامهم الحذف. ألا ترى قولهم: "أنا ذاهب" كلمتان، وفي أكثر اللغات ثلاث كلمات، نحف عليهم بهذا الإيجاز.

إعمال المنطق، كأن كلامهم قد وضع حسب اقتضاء الفكر والفهم. فترى كلامهم مربوطاً

برابطة عقلية، وعليك أن تميز بين الروابط من كل قسم، فإنهم لا يصرحون بها ...
ثم إن الحذف في كلامهم، يجعل كلامهم شبيهاً بالوثبات فالكلام الذي لا حذف فيه،
لا محل فيه للعقل والنظر، وهو كديب النمل، والعرب لا تستجيده، ولا تتأثر به،
لذكائهم وسرعة فهمهم، وتنفرهم عن الفضول- وإن كان ضرورياً عند غيرهم-...¹
تساءل عن السبب وراء ورود بعض السور في القرآن الكريم في غاية الإيجاز مثل
سورة العصر، والكوثر، والإخلاص، ورأى أن الإيجاز جاء لتحقيق وعد الله
سبحانه في حفظ الدين. ومن ثم جعل الأصول الكلية الجامعة لهذا الدين على غاية
الإيجاز والوضوح، فإن أفراد الأمة إذا لم يستطيعوا حفظ الكتاب كاملاً، فإن تلك
السور القصار تحفظ الحدود الكلية لدينهم، فيقول: "السور القصار أسهل وأجلى،
فالقارئ ينظرها كالمسافر الذي ينتظر منزل طيب بهيج، أو كما توضع أحلى الأطعمة
على المائدة في آخر الوليمة، أو كما يترقى المرء من الأرض إلى السماء، فكما اقترب إلى
آخر القرآن اقترب إلى معاني الأمور، وأصول الدين".²

فكما أن القرآن نزل لبيان العقائد والشرائع والأحكام، فإنه أنزل لتعليم الحكمة، وتعليم
الحكمة يأتي باستعمال الفكر والعقل، وحثه العقل على النظر، اللغة هي الوسيلة لهذا
الفهم والتدبر، لذا كان في القرآن جانب واضح، وهناك جانب خفي يحتاج إلى
غوص لاستخراج فائده ومعانيه وغاياته، لذا دعا الفراهي لفهم نظام القرآن،
والعمود الذي تستند إليه كل سورة من القرآن، فقضى حياته في دراسة اللغة العربية

¹ دلائل النظام: 65 - 68

الفراهي وتدبر القرآن، اسلام أون لاين.²

<https://islamonline.net/%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%B1%D8%A7%D9%87%D9%8A-%D9%88%D8%AA%D8%AF%D8%A8%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B1%D8%A2%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%B1%D9%8A%D9%85/>

وبلاغتها وعلّمها، حتى تمكّن منها تمكنَ الواثق وألّف كتاباً سمّاه (نظام القرآن) وكان يرى أنّ "فكرة نظام القرآن الكريم هي الكيفية الإلهية التي تأتي من تلاوة القرآن الكريم ودراسته والتدبر فيه. كان الفراهي يرى أنّ تعلم اللغة العربية وآدابها مع معرفة علم الكتب السماوية ضروريّ لكل من يريد أن يخوض في مجال التفسير، وتعلم اللغة العبرية أيضاً، وحينما كان يلقي محاضرة حول القرآن الكريم كان يضع مباحث التوراة أمامه، فاهتمّ بدراسة العلوم التي تكون ضرورية لفهم القرآن الكريم مثل: الأدب الجاهلي وعلم البلاغة والنحو والصرف.

كانت رؤية الإمام العلية منشورة في اثني عشر كتاباً، وكان يرى أنّ الخطوة الأولى لتفسير القرآن هي المعرفة بالكلمة المفردة، لأنها البداية لمعرفة المعاني، لذا كان يستعين بمقدرته في اللغات لفهم بعض مفردات القرآن الكريم، وألّف كتاباً مهماً بعنوان "مفردات القرآن"، وفي هذا الكتاب قدّم الكلمات التي اختلف المفسرون في معانيها أو تحديد مدلولها، فحدّد المعاني نظراً إلى النظام القرآني، وكتب في مقدمة كتابه قائلاً: "الخطأ في معنى الكلمة وتحديد مدلولها ربما يصرف الإنسان عن تأويل السورة بأسرها"، وكان يرى أنّ مَنْ لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن أغلق عليه باب التدبر وأشكل عليه فهم الآية، وربما ذهب بفهمه إلى الجهة المقابلة، واعتبر أنّ جزءاً من سوء فهم بعض المعاني في القرآن يرجع إلى عدم التمكن في اللغة العربية وكلام العرب وفصيحهم، وناقش الكتاب (73) كلمة مثل: آلاء، الأبايل، الأيترو، أحوى، الحبك، حرد، سارب، الشوى، الشيطان، الضريع، الغناء، الغيب، الفتنة، القربان والكوثرو.

توفي الفراهي قبل أن يكمل تفسير القرآن الكريم، وكان يرى أنّ أول شيء يفسّر به القرآن هو القرآن نفسه، ثم يأتي بعد ذلك فهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، واعتنى في تفسيره بنظام القرآن أكثر من غيره، وكان يرى أنّ أغلب المشكلات التي تظهر في فهم آيات القرآن منبعها عدم التزام المفسرين برباط الآيات، أي بنظام

القرآن، لأنه متى تبين النظام كان فهم المعنى والمدلول أقرب.¹

قضية الإيجاز وعادة العرب فيها: يذكر الإمام أنّ "أهم الأمور في تأدية المعاني أنّ تصطفي من أحوال الشيء قليلاً يخبر عن كثير لم يُذكر فإنّ التخيل يكون جملة، كما أنّ إحساس الأشياء يكون بنظرة ووهلة، فإن طال الكلام خالف سنة الطبع وإن صوّرت شيئاً بتفاصيلها كان ذلك من التاريخ والأخبار، ويبعد عن البلاغة التي للكلام المحرك فإن ذكرت بعض الأحوال الذي أغنى غناء الكل فقد أبلغت ضميرك وإن تركت هذا البعض وجئت بكل تفصيل فذلك هو العي. وهذا القليل ضالة البلغاء يحومون حولها ولا يجدونها فإذا هي وُجِدَتْ قال كلهم هي هي. هذه التي كنت أبغي وكانت هي تجول في قلبي وكنت ألسها ولا أجد. فأعجبوا بها لا بعدها بل لشدة قربها فما كان منها أقرب كان أحسن. وهذه نقطة الاقتراق بين العرب والعجم وبين رؤساء الكلام في الغرب والمشرق (كهوميروس وغيره) وعامتهم الذين طلبوا كل نادرة بعيدة من القافية والتشبيه والبديع. فكان تعجبهم لتصنع المتكلم لا لحسن الكلام فاجتمع لهم من محاسن الكلام أسماء سَمَّوها وفازت العرب منها بشيء واحد لا اسم له عند العجم وهو الصدق والتأثير وإنّ هذا هو الذي يبلغ القلب".

وفي كتاب "جمهرة البلاغة" في القسم الثالث (مباحث متفرقة) ينطق عن الجملة المعترضة وروح البلاغة وسرّها وكما لها ومحاسن كلام العرب ومذهب العرب في نقد الكلام وغيرها من المباحث المهمة.² حاول الإمام الفراهي من خلال رسالته هذه أن يكشف القناع عن بلاغة القرآن في ضوء كلام العرب القح وكلام الرب تعالى

¹ معراج أحمد معراج الندوي، العلامة حميد الدين الفراهي وإسهاماته في علوم القرآن، مجلة نقيب الهند، نيسان، 2018م

² الفراهي، عبد الحميد، جمهرة البلاغة، تحقيق: محمد الرهاوي وعامر الجراح، دار سنابل اسطنبول، 2019م، ص 239 وما بعد.

ذاته، فلم يحوّلها إلى بلاغة العجم التي لا صلة لها ببلاغة العرب ولا سيما ببلاغة القرآن الكريم. هذه محاولة بديعة وناجحة.

المعروف ما عرفته العرب صالحاً، والمنكر ما أنكرته:¹ في مقدمته الحادية عشرة يقول: فاعلم أنّ العرب في الجاهلية لم تكن كأهل الوحشة، غير فارقين بين البر والفجور. وإنّا نرى من جهة الأخلاق أدهم أفضل مما كان في أبلج أيام اليونانيين والهند. وتصدق قولي إن جمعت أشعارهم وسرحت فيها النظر، غير ملتفت إلى من شوه تاريخهم من الناس، حتى أنّ امرأ القيس، مع كونه ملكاً، سمي بالضليل لميله إلى الشهوات. فأورد في هذه المقدمة طرفاً من كلامهم (في ضميمته) ليتبين أنّ لم يكن المعروف عندهم إلا مكارم الأخلاق ولم يخاطبهم القرآن إلا بما يتم ما عندهم من المكارم، لا ما يهدمه، وهكذا نجد في أحاديث رويت عنه عليه السلام. ولذلك جلب قلوب المتقين منهم ولم ينازعه إلا الأشرار وكبرائهم الذين خافوا على إمارتهم لكونه نبياً، كما خالف كبراء اليهود عيسى عليه السلام حسداً وبغياً. ألا ترى أمية بن أبي الصلت، مع إيمانه بالحنيفية خالف النبي حسداً.

ثم النبي نفسه الذكية منبع لمعرفة المعروف والمنكر فيأمر الأمة بإلهامه فيما لم ينزل فيه وحي حتى ينزل، لمنصبه ولما أمره الله تعالى: "وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ" (سورة الأعراف: 199)، وأمر الله الأمة باتباعه في كل ما يأمرهم به من المعروف. ومع ذلك كان من الشرائع الإلهية بقايا في عهده كالحنج، والنحر، والصلاة من الحنيفية، وما كان من السنن عند أهل الكتاب. ثم لم يأمر الله تعالى النبي الكريم بجزئيات الأحكام أولاً، بل ما هو المعروف: كالأمر بالصلاة، والذكر، والصدقة، والشفقة على اليتيم، وبمكارم الأخلاق. ثم لما نزل الله تفصيلاً في أمر صار هدى الله أصلاً للمعروف ولم يبق النظر إلى

¹ الفراهي، عبد الحميد، دلائل نظام القرآن، دراسة وتحقيق: خالد الرهاوي وعامر الجراح، دار شرفات، ماردين، 2021م، ص72.

المعروف. وربما أمر بالمعروف في أمر حتى نزل البيان، فنسخ المعروف فيما نزل فيه شيء وبقي فيما لم ينزل، كوصية المحتضر في الوالدين نسخت، وفي الأقربين الذين لا وراثة لهم بقيت.

ثم لم يرد الله أن يثقلنا بجزئيات يهتدي إليها العقل والصلاح، ولو فعل كان إبطاً لقوة التقوى والصلاح، فترك قانون المعروف كما ترى في كثير من الآيات. فإثبات المعروف ودعوة الناس إليه أكرم النبي الكريم صلى الله عليه وسلم قانون الملك ورسومه الحسنة ولم يرد الانقلاب والهدم، بل التهذيب والتكميل. فجاء مصداقاً لما بين يديه من الأديان إجمالاً، ونفى عنها الأباطيل وردّ الناس إلى قديم أمرهم وهدى الله في فطرهم من لدن آدم عليه السلام.

إنّ كتاب "مفردات القرآن" من الكتب الخمسة الرئيسية التي ألفها العلامة الفراهي تمهيداً للسبل إلى معرفة أسرار القرآن ولتكون خير مرشد للقارئ إلى بواطن الحكم القرآنية الدقيقة الغامضة التي لا يتكشف عنها إلا اللبيب الحاذق البصير، ولعلك على علم بأنّ الألفاظ للمعاني بمثابة اللباس من الجسد والقشر من اللب، فلولا القشر لما صان اللب، ولولاه لما حلا التمر، فعرفة الألفاظ المفردة هي البداية لمعرفة المعاني المستمدة من مجموعها، والاطلاع على الحكم والأسرار التي حصل من بطونها، وكتاب الفراهي هذا من خير الكتب وأعزّها لديه وأكرمها عنده.

صرح المؤلف - رحمه الله - أنّ هناك روابط تجمع مؤلفاته القرآنية في اتجاه خاص وهدف محدد، يقول: "أما بعد! فهذا كتاب في مفردات القرآن جعلته مما نحول إليه في كتاب "نظام القرآن" ليجلّا نحتاج إلى تكرار بحث المفردات إلا في مواضع يسيرة يكون فيها الصحيح غير المشهور فنذكر بقدر ما تطمئن به القلوب السليمة، ولا نورد في هذا الكتاب من الألفاظ إلا ما يقتضي بياناً وإيضاحاً، إما لبناء فهم الكلام أو نظمه عليه، فإنّ الخطأ ربما يقع في نفس معنى الكلمة فيبعد عن التأويل الصحيح أو في بعض وجوهه

فيغلق باب معرفة النظم وأما عامة الكلمات فلم تتعرض لها وكتب اللغة والأدب كافلة به، ومع ذلك تجد هذا الكتاب- إن شاء الله تعالى- محتويًا على جلّ ما يقتضي الشرح".¹ ثم أشار المؤلف إلى هدف الكتاب والفكرة الأساسية المسيطرة عليه عند تأليفه كما أشار أيضًا إلى أهمية فهم الألفاظ المفردة في تدبر كتاب الله عز وجلّ فقال:

"لا يخفى أنّ المعرفة بالألفاظ المفردة هي الخطوة الأولى في فهم الكلام ... فمن لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن غلق عليه باب التدبر وأشكل عليه فهم الجملة، وخفي عنه نظم الآيات والسورة ... وربما ترى أنّ الخطأ في معنى كلمة واحدة يصرف عن تأويل السورة بأسرها... وهكذا ترى الخطأ في حد كلمة واحدة أنشأ مذهبًا باطلاً، وأضلّ به قومًا عظيمًا، وجعل الملة الواحدة بددًا... فإنّ معظم القرآن الحكمة، وهي الأصل، ولا سبيل إلى فهمها من القرآن دون الاطلاع على معاني كلماتها المفردة.

لا ريب أنّ المعرفة بمعاني الكلمات المفردة تلعب دورًا رئيسيًا في فهم مقصود الآيات القرآنية وبدون العلم بمعاني الألفاظ لا يقدر الإنسان على التدبر في القرآن والتوصل إلى كنه الحكم اللطيفة المختفية في طيّ النظام القرآني، وربما يتغافل عنها الكثير، ولا يعتنون بأهميتها حتى الاعتناء أكّد المؤلف- رحمه الله- على أهميته وجلالة قدره لذكر هذه الحقيقة مرتين فقال:

"والخلاص من ذلك بأمرين: الأول معرفة معنى الكلمة ووجوهه وأحواله، والثاني الاعتصام بنظم الكلام ... فوضعت هذا الكتاب للأمر الأول، وفيه عون على الأمر الثاني، فإنّ مَنْ عرف معنى الكلمة وأحاط بوجوهه، وما يتعلق به من الأحوال مكّنّه أن يطلع على ما هو أكمل رباطًا وأحسن تأويلًا".²

¹ مفردات القرآن، ص4

² المرجع السابق، ص8.

مكانة العرب عند الفراهي: من خلال وصف الإمام الفراهي للعرب في نصوص كتبه نستدل على مكانتهم ومحبتة الجلية لهم، لحفظهم لوعاء القرآن (اللغة) تراه قد يغفر لهم بعض زلاتهم، فيما يقوله بحقهم:

"وإنما كان القرآن معجزاً للعرب لما أنهم تأثروا له، فإنّ العرب على علاقتها كانت على سذاجة الفطرة، وحبّ المعالي: من الجود، وصلة الرحم، والغيرة، والشكر، لاسيما أختيارهم، حتى أنّ سيئاتهم نبعت من الخيرات، فعاقرتهم الخمر، ومقامرتهم الميسر جاءت من الجود، وحروبهم من أداء حق المقتول، والغضب للقسط، وظلمهم من إباء النفس عن الدنية، ولذلك رحموا الضعفاء والأرامل، ولم يقتلوا في الحرب الإماء ولا الأطفال، ولم يرهقوا المنزمن.

وإنما بقوا على الفقر وسوء العيش، لإبائهم عن الطاعة لملك يجمع أمرهم، إلا من لا يتكبر عليهم، ويعدل بينهم، ويكون كأحدهم كما كان الشيخان وذوو أمرهم في الجاهلية فأملكهم وأقهرهم وأعد لهم كما كان عمر بن الخطّاب - رضي الله عنه - فلم يرد إلا أنه يقهرهم بكامل عدله.¹

ويرى الفراهي أنّ سبب تأثر العرب بالقرآن، يرجع أولاً وقبل كل شيء لدعوته إلى مكارم الأخلاق التي كانوا يجدون صداها في نفوسهم، والتي كانوا يشعرون بها بفطرتهم. وفي ذلك يقول:

"والقرآن دعاهم أولاً إلى هذه المكارم التي قد عرفوها، فتأثر له ذوو النہی منهم، لصدقه في الدعوة إلى المعالي، حتى إذا دانت له جماجمهم، بين لهم أنّ هذا الكلام لا يكون إلا صدقاً وهو كونه قدسياً، وهدي ونوراً، فلا يقدر عليه كاذب، بل يكون إيحاءً من جانب القدس، ولذلك لم يجيء التحدي به في أول الدعوة حتى علموا أثره.

¹ الفراهي، عبد الحميد، القائد إلى عيون العقائد، الدائرة الحميدية، 2010م، ص 181

وكونه أهدي، هو أثره الذي أحيا أمة تشتت أركانها، وتهدم بنيانها، وبعدت عن المدنية لشدة إباطها وحميتها، وصعوبة قيادها، كأنّ القرآن أخرج أمة متمدنة من الأسود الضواري، قال تعالى: "لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِينَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (سورة الأنفال: آية 63).

والعرب قد جربوا ذلك، وعرفوه في أنفسهم- وأتمتهم وذوو العقول والتدبير، وأولو الأمر والنهي منهم، أعلمهم بعجزهم عن تحويل العرب إلى التمدن- وقد أعجزوا الأمراء إلا الشيخين، وعادوا بعد مدة قصيرة إلى بغيمهم، وتطاول بعضهم على بعض، وهم إلى الآن على حالهم قانعين بفقرهم وبؤسهم، مفتخرين بحريتهم القديمة، إلا الذين شربوا من التمدن الحديث الذي هو هلاك بني آدم".¹

ويرى الفراهي في فضائل العرب التي يتصفون بها سبباً لحمل رسالة الإسلام، ذلك أنّ بناء الإسلام إنما قام على جلدتهم، وفي ذلك يقول الفراهي:

"لعل اختيار أمة العرب، هو الصبر المحض، وهو جماع الفضائل، وهو أحسن ورائة إبراهيم عليه السلام. وأرض العرب أصلح لتربية هذه الفضيلة حتى ترى حيواناتها وأشجارها أصبر من بني نوعها في سائر الأرض.

ولما كان بناء الإسلام على الصبر، كان الإسلام أصلح لفطرة العرب، ولما كانت أرض العرب صالحة لطباع أهلها، فإذا خرجوا منها أسرع الفساد إلى طبائعهم. فكان الترف هلاكهم، ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما معناه: "إنه يخاف عليهم كثرة المال".²

ويتحدث الفراهي عن ميزة الحذف هذه في كلام العرب في مكان آخر فيقول:

ومن أساليبهم: الحذف وهو: إسقاط الفضول عن القول والفضول: ما يفهم الكلام

¹ المرجع السابق، ص 181-183

² دلائل النظام، ص 37.

بدونه، ويتأثر منه السامع. فإنّ الغرض من الحديث ليس إلا الإفهام والتأثير. فكلما زاد على هذين أذهل وأبعد وأثقل.

ولما كان المستمعون على مراتب متفاوتة من الذكاء والتأثر. فقد اختلفت الألسنة في مقدار الحذف فيها. أما العرب فلذكائهم، وتوقد أذهانهم، فقد كان أنجح الأقوال عندهم ما قلّ وكفى. فإنّ الكلام إذا لم يهذب عما لا فائدة فيه، ولا يغني شيئاً. سقط عندهم، ومجّته أسماعهم. وذلك لاعتقادهم أنّ المسهب في الكلام:

- إما أنه أحقّ أو يحقّق المستمع. وعلى هذا كان أمر الحذف في كلامهم، من بعض تنجياهم، وكأنهم طبعوا عليه، فلذلك تراهم يخالفون السنة الأمام بأمر:

لم يشكّلوا كلامهم إلا لأجل العجم وكذلك العبرانيون إخوانهم.

جردوا الكلام عن الروابط: كالإضافة، والخبر، والتمييز، والظرفية، وغيرها. وهذه درجة عالية من ارتقاء اللسان- والبحث المشبع عليه في باب على حدة-.

أسقطوا من القصة والحجة، أجزاء وقضايا، لا يكاد يحذفها غيرهم. فلذلك صعب على العجم درك حديثهم.

أسقطوا- في كلامهم المركب- من هيآت الحروف أكثرها، فسبقوا كل أمة بخطهم البديع التركيب".¹

ويذكر أيضاً عن خصائص لسان العرب وخطهم فيقول:

خصائص لسان العرب وحظهم منها كثرة الحذف، اعتماداً على فهم السامع. فإنهم لذكائهم كانوا يعدون الإطناب عيًّا، حتى أنّ لسان العرب قد بني على الإيجاز- خلاف سائر اللغات- فأنواع الكلم مصوغة من المواد، وليست مركبة من السوايق والواحق،

¹ أساليب القرآن، ص 25-26.

مثلاً كلمة "فاعل" ليست مثل "كارنده" (الفارسي). وميكرو Maker (الإنكليزي) وما في العربية من الحروف الزوائد، وكذلك هذب كلامهم عن فضول الروابط - فلا تجد فيه رابطاً، وأشكل على علماء أوروبا فهمه، لتعودهم على الإطناب. قد علمنا أنّ اللسان حمولة الخيال، وكذلك الخط حمولة اللسان. وقد علمنا ما في الخيال من السرعة، ثم ما في اللسان. فهما كان اللسان أبطأ، كان قيّداً وثقلاً على الخيال. وهكذا الخط إذا كان بطيئاً كان قيّداً على الكلام النفسي، فيتبدل الخيال، فذلك كلما كان اللسان والخط أوجز، كان أحسن وأعون. ولذلك في هذا الزمان احتاجوا إلى الخط السريع لضبط الخطب. والعرب لسرعة فكرهم، لم يرضوا بالخط البطيء - الذي لم يترق منه قوم إلى الآن - والمتعود بالخط العربي، يحقر سائر الخطوط، ويحسبه خط الجهلاء والحمقاء - لا أثر عليه من الصنعة والعقل. فالفكر الذي وضع لهم لساناً مهذباً عن الفضول، أعطاهم خطأ على غاية من الصنعة وجودة التركيب.

وكما أنّ خطّهم يساعد الكاتب فيلقي خياله بسرعة التخيل والكلام النفسي، كذلك هذا الخط يساعد المتعلم، وذلك لأنّ الألفاظ فيه صورة واحدة، ترسم بلحظة واحدة في الخيال، وتبقى كصور الأشخاص، وأنت تعلم أنّ البصر لشدة تمرنه، يقدر على حفظ الصور أكثر من سائر الحواس فإنك لا تزال ترى حتى في النوم. ولا تسمع، ولا تشم، ولا تطعم، ولا تلمس، إلا بعض الأوقات فإذا رأيت ألفاظاً مثل: شمس، قمر، نجم: أسد، نخل، رجل، فكأنما رأيت صور أشخاص.

وأما سائر الخطوط - من خطوط النصرى والهنود - ففيها كل حرف صورة على حدتها، وفي كل كلمة تحتاج إلى حفظ الصور المختلفة الطويلة العريضة، وزاد على

ذلك رسم الحركات.

ثم في الخط الأوروبي: الحركات ربما تربو على الحروف مثل: فايت (قتال) فإنه عندهم: ف - ي - ج - ص - ط، أعني Fight.

فالخط الذي وضعته العرب أسهل لتعلم الألسنة. ولذلك ترى الفرس، والترك، والأفغان، وأكثر الأمم المسلمة - مع حفظهم ألسنتهم - تركت خطوطها

ويتحدث في مكان آخر عن عدم تغير اللسان العربي، وثباته واستمراره فيقول: إنا نرى اللسان يتغير بالزمان، إذا لم يكن له وازع عن التغير. ولكنك ترى اللسان يسلم عن التغير إذا شاع التعليم، واتخذوا كتباً خاصة، فكل صبي ينشأ ويتربى على لسان واحد - كما نرى الفارسية، والعربية، في الهند لم تتغير - فإن القرآن صار كالمرکز لكل ما تعلموا في العربية - وكتاب السعدي والحافظ وأمثالهما، حفظوا اللسان في فارس والهند.

والسبب القوي للتغير: هو تبدل الحكم من قوم، إلى قوم مختلفين في لغاتهم - بخلاف لسان فارس والهند - والآن نرى أثر لسان الإنكليز في الهند. وهذان أمران ظاهران.

فإذا توجهنا إلى حال لسان العرب قبل الإسلام: علمنا أنهم حفظوا لسانهم لأجل الرواية، وجمعهم في مواسمهم وأسواقهم، وتخالطهم لكثرة الترحال، فكانت أشعارهم أسفارهم، ومواسمهم مدارسهم. فلا نرى في قديم كلامهم وجديده تفاوتاً.

فإذا جاء القرآن ودونت لغتهم، استقرّ لسانهم، ولكن العامة نبذوا العلم، فتغير لسانهم. ومع ذلك إذا رجعوا إلى التعليم: رجع لسانهم إلى أصله - كما ترى اليوم المصريين والشاميين راجعين إلى العربي الصحيح ...¹

هذه بعض أقوال الفراهي في العرب والعربية، وهي إن دلّت على شيء فإنما تدلّ على

¹ المرجع السابق، ص 4-5.

عظمة الإسلام الذي جعل رجلاً مثل الفراهي يعيش في أقصى الهند بعيداً من العرب والعروبة، يتقن لغتهم، ويتعمق في دراستها، ويخوض لأجل ذلك مفاوز الشعر الجاهلي، ويستنبط منه أخلاق العرب وأحوالهم، ويتحدث عن خصالهم ومحاسنهم حديث الحب العاشق.

لقد فعل الفراهي كل ذلك بسبب عقيدته الإسلامية، ومن أجل فهم القرآن الكريم الذي نزل بلغة العرب، وقد أدرك الفراهي أنه لا يمكنه تذوق القرآن، واستكشاف كنوزه إلا من خلال العربية، فانطلق يتعلمها بحماس منقطع النظير، وبتعمق قل أن يوجد مثله في أهل العربية، بل لقد سجل الفراهي على علماء العربية بعض الأخطاء والهفوات، وتكلم على بعض خصائص العربية التي لم يذكرها أحد غيره، وكانت له ملاحظات واستدراكات في علوم النحو والبلاغة وغيرها، كما كانت له نظرات صائبة في ما ينبغي أن تكون عليه علوم اللغة والشريعة.¹

هكذا فعل القرآن بالفراهي، وهكذا يفعل بكل مسلم غيور، فأين موقف الفراهي هذا من مواقف كثير من العرب المعاصرين الذين ينتسبون إلى العروبة اسماً، ولكن يؤلون وجوههم شطر الغرب، فيستقبلون قبلته، ويدورون في فلكه، بعد أن أداروا ظهورهم للعربية والقرآن، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ألم يقرأوا قول الله تعالى في قرآنهم العربي: "لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" وقوله تعالى: "وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ"؟!

¹ د. أحمد الفرحات، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، افتتاحية العدد: 13، نيسان 1989م، ص 4.

المراجع

1. الفراهي، عبد الحميد، جمهرة البلاغة، تحقيق: محمد الرهاوي وعامر الجراح، دار سنابل، أسطنبول، 2019م
2. الفراهي، عبد الحميد، دلائل نظام القرآن، دراسة وتحقيق: خالد الرهاوي وعامر الجراح، دار شرفات ماردين، 2021م
3. الفراهي، عبد الحميد، القائد إلى عيون العقائد، الدائرة الحميدية، الهند، 2010م.
4. الفراهي، عبد الحميد، دلائل النظام، المطبعة الحميدية، الهند، 1388هـ.
5. الفراهي، عبد الحميد، أساليب القرآن، الدائرة الحميدية، الهند، 1389هـ.
6. د. فرحات أحمد، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، افتتاحية العدد: 13 نيسان 1989م.
7. 8- الندوي، معراج أحمد معراج، العلامة حميد الدين الفراهي وإسهاماته في علوم القرآن، مجلة نقيب الهند، نيسان، 2018م.
8. روابط الإنترنت:
9. الفراهي وتدبر القرآن اسلام أون لاين.

ال رابط:

<https://islamonline.net/%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%B1%D8%A7%D9%87%D9%8A-%D9%88%D8%AA%D8%AF%D8%A8%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B1%D8%A2%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%B1%D9%8A%D9%85/>

10. انظر أحمد حسن فرحات المكتبة الشاملة عبد الحميد الفراهي. الرابط:

<https://shamela.ws/author/2553>

11. د. أورك زيب الأعظمي، الإمام عبد الحميد الفراهي وكتابه "جمهرة البلاغة"،

شبكة الألوكة 2016-12-25.

12. https://www.alukah.net/literature_language/0/110803/

%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%85%D8%A7%D

9%85-%D8%B9%D8%A8%D8%AF-

%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%85%D9%8A%

D8%AF-

%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%B1%D8%A7%D

9%87%D9%8A-

%D9%88%D9%83%D8%AA%D8%A7%D8%A8%

D9%87-

%D8%AC%D9%85%D9%87%D8%B1%D8%A9-

%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%84%D8%A7%D

/8%BA%D8%A9

13. الفراهي وتدير القرآن اسلام أون لاين.

<https://islamonline.net/%D8%A7%D9%84%D9%81>

%D8%B1%D8%A7%D9%87%D9%8A-

%D9%88%D8%AA%D8%AF%D8%A8%D8%B1-

%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B1%D8%A2%D

9%86-

%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%B1%D9%8A%D

/9%85

أضواء على
تعقيبات الشيخ المعلمي على العلامة الفراهي
في تفسير سورة الفيل

- د. محمد فضل الله شريف¹

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً والصلاة والسلام على
رسوله محمد بن عبد الله الذي فسّر القرآن تفسيراً وعلى آله وصحابه الذين اهتدوا بهديه
واتخذوا القرآن أثيراً، أما بعد!

فإنّ القرآن الكريم بما فيه من علوم كثيرة لم يزل موضع عناية واشتغال دراسة
وتفسيراً لدى المسلمين في كافة العصور، وكان ممن اهتم بدراسة واستخراج العلوم
والأحكام من سوره وآياته في العصر الحاضر في الهند علامة الزمان الشيخ عبد الحميد
الفراهي الذي قضى حياته في دراسة القرآن وتدبر آياته فألف عدة كتب نفيسة منها
"إمعان في أقسام القرآن" و"الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" و"تفسير سورة الشمس"
و"تفسير سورة الفيل" وغيرها من الكتب العلمية.

فأما تفسيره لسورة الفيل فقد جاء فيه العلامة المحقق بتفردات غريبة تخالف صريح
قول الجماهير مما جعل بعض العلماء والمحققين تنبهوا لها واتخذوها بالتعقيب عليها
وانتقادها، وأبرز هؤلاء العلماء الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني
المولود سنة 1312هـ في اليمن، المتوفى سنة 1386هـ بمكة المكرمة، والذي مكث في

¹ رئيس هيئة الدراسات العربية الشرقية بالجامعة العثمانية سابقاً وأستاذ مساعد بكلية إيه كيه إيم الشرقية
التابعة للجامعة العثمانية

الهند موظفًا في دائرة المعارف العثمانية بجيدراآباد لمدة خمسة وعشرين عامًا فقام بتحقيق نحو أربعين مجلدًا، كما ألف عددًا من الكتب القيّمة. ثم ارتحل الشيخ إلى مكة المكرمة وقضى فيها خمسة عشر عامًا منقطعًا إلى البحث والتأليف والتحقيق والتدريس، قائمًا بوظيفته في مكتبة الحرم المكي خير قيام من مساعدة الباحثين وتدير شؤون المكتبة إلى أن توفي في مكة المكرمة عام 1386هـ.

تعقيب الشيخ المعلبي على تفسير سورة الفيل للعلامة الفراهي

لم يخالف الشيخ المعلبي العلامة الفراهي على مجرد خلافه إذا كان له دليل فإنه سنة يحمدها الإسلام ولكن تعقيبه عليه لمخالفته صريح قول الجماهير، فيقول: "ثم وقفت أخيرًا على تفسيره لسورة الفيل، فألفيته قد جرى على سنة من الإقدام على الخلاف إذا لاح له دليل، وتلك سيرة يحمدها الإسلام، ويدعو إليها أولي الأفهام، غير أنّ الخلاف هنا ليس لقول مشهور ولا لقول الجمهور ولكنه قول صرح به الجماهير، ولم ينقل خلافه عن كبير ولا صغير".¹

وتعقيب الشيخ المعلبي على العلامة الفراهي يتثل في أمرين: الأول فيما يتعلق بالقصة رواية ودراية، والثاني في تفسير السورة.

أما ما يتعلق بالقصة رواية ودراية فهو في ثمانين قضايًا:
الأولى: قضية تقدير الكنيسة.

والثانية: سؤال عبد المطلب أبرهة أن يردّ إليه دون الكلام في الإنصراف عن هدم البيت.
والثالثة: رد العلامة الفراهي قصة ترك قريش قتال أبرهة.
والرابعة: زعم العلامة الفراهي بأن أهل مكة قاتلوا أبرهة.

¹ رسالة في التعقيب على تفسير سورة الفيل للعلامة عبد الحميد الفراهي، تأليف: الشيخ عبد الرحمن المعلبي، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ص 3-4

والخامسة: كلام العلامة الفراهي على روايات رمي الطير.

والسادسة: الباعث للعلامة الفراهي على دعوى أنّ أهل مكة قاتلوا أهل الفيل.

والسابعة: الباعث له على إنكار رمي الطير.

والثامنة: زعم العلامة الفراهي أنّ رمي الجمار تذكّار لرمي العرب لأصحاب الفيل.

وأما تفسير السورة فهو يتمثل في بابين: الباب الأول في تفسير السورة على ما أفهم وفاقاً لأهل العلم. والباب الثاني في البحث مع العلامة الفراهي في قوله تعالى: "ترميم".

هذا هو ملخص جدول تعقيبات الشيخ المعلبي على العلامة الفراهي فيما يتعلق بسورة الفيل. وسأقف عليها بالتفصيل بإذن الله تعالى.

القضية الأولى: قضية تقدير الكنيسة: جاء في قصة أبرهة كما رواها ابن إسحاق أنّ أبرهة حين بنى بصنعاء كنيسة وأراد منها أن يحجّ العرب إليها وكتب ذلك إلى النجاشي فلما سمع رجل أتاها وقعد فيها، فأغضب ذلك أبرهة حتى عزم على هدم البيت.¹

أنكر العلامة الفراهي قضية القعود في الكنيسة، وذكر قول أهل العلم: إنّ ابن إسحاق يأخذ عن اليهود وعمّن لا يوثق به، وجزم بأنّ القصة من أكاذيب الأعداء، قصدوا بها عيب العرب، واختلاق عذر لأبرهة.¹

ثم جاء الشيخ المعلبي يعقب بأنّ رواية ابن إسحاق ليست غريبة بل جاء مثل ذلك عن الواقدي وابن الكلبي ما يشهد لقضية تقدير الكنيسة. وأما ما رآه العلامة الفراهي في ذلك عيباً للعرب فقد نفاه الشيخ المعلبي قائلاً: إنّ فعل رجل واحد لا يعدّ ذنباً لجميع العرب حتى لو أذنب جميع العرب لا يعدّ ذنباً لبيت الله. إلا أنّ الشيخ المعلبي اعترف أخيراً بعدم ثبوت القضية من جهة الرواية.¹

وعلى كل حال إذا كانت الرواية مروية من جهة أخرى يزول الضعف فلا بأس

¹ راجع تفسير سورة الفيل للعلامة الفراهي، ص 16

بالاعتماد على الرواية، كما أنّ ما يتعلق بالدراية لا ينفي ثبوت الرواية.

القضية الثانية: سؤال عبد المطلب أبرهة ردّ إبله دون الكلام في أمر بيت الله: جاء في أهل رواية ابن إسحاق ما يصرح بأنّ عبد المطلب حين ذهب إلى أبرهة بعدما استدعى سيّد أهل مكة، فأكرمه وأجلّه حتى نزل عن سريره وأجلسه بجانبه، ثم قال لترجمانه: قل له: حاجتك، فقال: حاجتي أن يرد على الملك مائتي بعير أصابها لي.¹

قال العلامة الفراهي ناقدًا: "فهل يمكن أن يترك عبد المطلب التكلم في أمر البيت بعدما رأى وسمع من أبرهة ما يستيقن به أنه لو سأله الانصراف عن هدم البيت لفعل، ثم إنه لم يترفع عن المجيء إليه والسؤال لإبله".¹

جاء الشيخ المعلبي معقباً على فهم العلامة الاستيقان، وقال: ليس في القصة ما يدلّ على الاستيقان حتى الظن أيضاً، ثم يبرر لعدم سؤال عبد المطلب الانصراف عن الهدم بأنه ربما رأى سبب احترامه استماتته لإرضاء الهدم حتى يسهل لأبرهة إظهاره للهدم، كما أنّ عبد المطلب كان متوكلاً على الله في هذا الأمر فلا يريد أن يكدر توكله بهذا السؤال، ومن الممكن أن يرى أنّ ترك السؤال في أمر البيت أبلغ في تخويف أبرهة.

وأما سؤال عبد المطلب وردّ إبله فلم يكن شخاً بالمال، وإنما كان ذلك لإرادة تقليدها وجعلها هدياً كما تشير إليه بعض الروايات. ثم ساق الشيخ المعلبي رواية جيدة السند أخرجها الحاكم عن ابن عباس تدل على أنّ عبد المطلب حين استقبل أصحاب الفيل طلب منهم أن ينصرفوا عن البيت ولكنهم أبوا فنزل عليهم ما نزل.²

المشكلة أنّ العلامة الفراهي رمى رواية ابن إسحاق بالضعف والوهن ثم شكك فيما جاء فيها من الأجزاء. إلا أنّ تعقيبات الشيخ المعلبي في أجزاء هذه القضية أقوى.

¹ راجع: سيرة ابن هشام (هامش الروض الأنف)، 49/1

² انظر: رسالة في التعقيب، ص 10-12

القضية الثالثة: ردّ العلامة الفراهي قصة ترك قريش قتال أبرهة: قال ابن إسحاق: "فلما نزل أبرهة المغمس بعث رجلاً من الحبشة يقال له: الأسود بن مقصود على خيل له حتى انتهى إلى مكة، فساق إليه أموال أهل تهامة... فهتّت قريش وكثانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك وبعث أبرهة وحناطة الحميري إلى مكة، وقال له: سل عن سيّد هذا البلد وشريفه ثم قلّ له: إنّ الملك يقول لك: إني لم آت لحربكم، وإنما جئت لهدم هذا البيت... فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك منه طاقة. هذا بيت الله الحرام... فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة، والتحرز في شعف الجبال والشعاب، تخوفاً عليهم من معرة الجيش... والتطلق هو ومن معه إلى شعف الجبال فتحرزوا فيها..."¹

ردّ العلامة الفراهي هذه القصة بأمور:

الأول: أنّ ابن إسحاق كان يأخذ عن كل أحد.

الثاني: أنّ القصة لم تثبت من جهة الرواية.

الثالث: ورود خلاف ذلك بروايات أخرى.

الرابع: ما عرف عن العرب من النجدة والحمية.

الخامس: أنّ العلم بأنّ البيت بيت الله يقتضي الدفاع عنه، لا إسلامه.

السادس: أنّ أهل السير يروون أنّ القبائل قاتلت أبرهة في طريقه، فكيف جنبت قريش ومن معها، وهم أهل البيت وشرفه.

السابع: أنّ أهل السير يذكرون أنّ قدوم أبرهة كان في موسم الحج، وساق العلامة الدلائل على ذلك، فإذا كان في موسم الحج فكيف يقاتل بعض قبائلهم في الطريق، ولا يقاتل جميعهم عند البيت؟

الثامن: أنهم عابوا ثقيفًا لفرارهم عن حماية الكعبة، وأتى بدليل من الشعر، ثم قال: إن الروايات متفقة على موافقة ثقيف بأبرهة، ورجم قبر أبي رغال الثقيفي الذي صار دليلاً لجيشه. فلو فرّت العرب كلها مثل ثقيف لما عابوا ثقيفًا، ولا لعنوا رئيسها.¹ هذه خلاصة ردود العلامة الفراهي في هذه القضية.

وقد عقب على كل هذه الردود، الشيخ عبد الرحمن المعلمي بالتفصيل فأما ما قال العلامة أنّ هذه الرواية لم تثبت، فقال الشيخ المعلمي: إن ما يدل على عزم قريش أن لا يقاتلوا لم ينفرده ابن اسحاق، بل وافقه الواقدي عن شيوخه وغيره، وحديث ابن عباس الذي أخرجه الحاكم أيضًا يؤيد هذا الرأي، وكل ذلك يدل على ثبوت الرواية. وأما ورود روايات أخرى مخالفة لذلك فلا توجد إلا ما في "السيرة الحلبية" وبيانها بصيغة "يقال" أو "قيل".¹

وأما ما قال به العلامة الفراهي أنّ نجدة العرب وحميتهم معروفة، فقال الشيخ المعلمي هذا حق لا شك فيه ولكن لكل شيء حد، فأبرهة كان ملكًا كبيرًا وتوسع نفوذه في البلاد، وكان معه من الأحباش حوالي ستين ألفًا من الجيش فلم يمكن لقريش قتالهم، ثم ساق الشيخ المعلمي فيما قال أدلة من أقوال أبي عمرو الشيباني وابن قتيبة وأبيات وقصائد واكتشافات أخيرة منقوشة على سد مأرب تدل على قوة ملك أبرهة وعظمته. هذا وكانت العرب يومئذ متفرقين متمزقين، والكثير منهم في طاعة أبرهة حتى فريق منهم في جيش أبرهة. فكل ذلك يدل على قوة أبرهة وسعة ملكه ونفوذه في المناطق، وعدم استطاعة قريش قليلة العدد والعدة لمواجهة أبرهة وجيشه.

وما قال به العلامة أنّ هجوم أبرهة كان في موسم الحج فيقول الشيخ المعلمي إنّ عامة أهل الأخبار يذكرون أنّ قدوم أبرهة كان في نصف محرم، وقد عاد أكثر الحجاج إلى

¹ تفسير سورة الفيل، ص 16-19

أوطانهم. وإن صحّ ما ادعاه العلامة أنّ قدوم أبرهة كان في أيام الحج، فلا بد أن يكون الحاج عامئذ قليلاً، لأنّ الكثير من العرب في طاعة أبرهة، ومن حج منهم فإنهم يحجون في الأشهر الحرم غير مستعدين للقتال.

وما جاء في الروايات يصرح بأنّ أبرهة لا يريد القتال، وإنما يريد هدم البيت وكان قریش وثوق بالله عزّ وجلّ أن يحيي بيته. وأخيراً يقول الشيخ بعدما فصل الكلام مدلاً: إذا أمعنت النظر فيما تقدم عرفت أنه لا بُد في إجماع قریش عن قتال أبرهة، وأنه لا عار يلزمهم لذلك، ولا غضاضة، ولا منافاة لما عرف منهم من النجدة والحمية.¹ وأما ما قال به العلامة إنّ العلم بأنّ البيت بيت الله إنما يقتضي الدفاع عنه، لا إسلامه، فيجيب عليه الشيخ المعلمي قائلاً: قد يصحب العلم بأنه بيت الله وثوق متمكن بحفظ الله له، فإذا حصل هذا الوثوق ضعفت داعية القتال، وقد تكون قوة العدو عظيمة جداً بحيث تقتضي العادة أنه لا فائدة للقتال إلا هلاك المدافع. وتلك حال قریش كما تقدم، فقد رأوا أنّ ذلك العدو أكثر منهم عدداً وعدة. فأروا أنه ليس من العقل ولا الشجاعة الإقدام على قتاله. وهم مع ذلك واثقون بحماية الله تعالى لبيته فكأنهم قالوا: لا نرى أنّ الله عزّ وجلّ يكلّفنا القتال في هذه الحال وعندنا وثوق بأنه سيحمي بيته فإن حماه وكفانا الأمر فهو على كل شيء قدير، وإن مكّنهم من هدمه أمكننا أن نعيد بناءه.

وأما ما نقل العلامة من أهل السير أنهم يروون أنّ القبائل قاتلت أبرهة في طريقه فكيف جنت قریش؟ فيرد عليه الشيخ المعلمي أولاً أن هذه الروايات ينكرها العلامة فكيف يستدل بها؟ ثم يرد قائلاً إنّ ما جاء في هذه الروايات فهو ذكر قبيلتين: قبيلة ذو نفر، وقبيلة خثعم، وقتالهما لا يستغرب لأنهم ليسوا مجتمعين في بلد حتى يخاف خرابه ولا لهم تجارة يخشى انقطاعها، وأما قریش فكان يختلف أمرها من ذلك. وأما ما قال به العلامة أنّ قدوم أبرهة كان في أيام الحج، واستدل عليه بذكر ابن

¹ انظر: المرجع السابق، ص 16-19

إسحاق شعراً جاء فيه التقليد، وتقليد الإبل لا يكون إلا إذا كانت هدياً، وإنما يساق الهدى في موسم الحج. فقد رد عليه الشيخ المعلمي بأنّ دعوى أنه كان في أيام الحج لا حجة فيه، وخاصة المشهور من الروايات أنه كان في النصف الثاني من محرم.

وأما ما استدل به العلامة في الشعر في أنه أيام الحج فإنّ التقليد لم يكن خاصاً عند العرب بالهدى، فكانوا يقلدون البهم من لحاء شجر الحرم يحونها بذلك من النهب والسرقة، فإنّ العرب كانت لاحترامها الحرم تتجنب نهب الإبل وسرقتها إذا كانت مقلدة بلحاء شجر الحرم، يرون أنها في حماية الحرم. واستدل الشيخ كذلك على ذلك بتفسير ابن جرير.

وأما ما استدل العلامة على قدوم أبرهة في أيام الحج بكلمة (كيد) الذي جاء في القرآن في أصحاب الفيل أنّ الكيد هو المكر والتدبير الخفي، وإنما يتحقق ذلك بقدومهم في الأشهر الحرم رجاء أن لا يقاتلهم العرب، فيجيب عليه الشيخ المعلمي بأنّ الكيد هو التدبير المحكم الذي يكون فيه غرابة، ثم ساق في إثبات ذلك آيات من القرآن الكريم وردت في معرض الكيد ثم قال: يكفي في تقرير كيد أبرهة سوقه الفيل لإدخال العرب في قلوب العرب، وقدومه في محرم لأنّ من شأن العرب أن يتأثّوا من القتال في محرم كما لا يبقى في هذا الشهر بمكة إلا أهلها.

وأما ما استدل العلامة على تحقق قتال قريش بأنهم عابوا ثقيفاً لفرارهم عن حماية الكعبة كما قال ضرار بن الخطاب:

وفرت ثقيف إلى لاتها بمنقلب الخائب الخاسر

واتفاق الروايات على موافقة ثقيف بأبرهة، ورجم قبر أبي رغال الثقيفي الذي صار دليلاً لجيشه، فيقول الشيخ المعلمي أنه لم يثبت عيب منهم لثقيف على ذلك. وإنما اغتر العلامة ببيت ضرار بن الخطاب. و سبب اغتراره أنّ ابن هشام ساق القصة عن ابن إسحاق إلى أنّ ذكر وصول أبرهة إلى الطائف. فقصود ابن هشام إنما هو الاستشهاد على

ما ذكره ابن إسحاق أنّ اللات كانت لثقيف، فظن العلامة أنّ البيت قيل في شأن ثقيف في قصة الفيل، وليس الأمر كذلك، وإنما هو في فرار ثقيف في حرب الفجار التي كانت بين قريش وسائر كنانة، وبين ثقيف وسائر قيس عيلان. وذلك بعد أن بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أربع عشرة أو خمس عشرة أو عشرين سنة.

وأما أبو رغال فلم يكن رئيس ثقيف، بل كل ما يثبت بسياق القصة أنه كان رجلاً منهم وإنما رحمت العرب قبره لأنه خرج طائعاً، فلم يثبت أنه كان دليل أصحاب الفيل.¹ وأرى أنّ في تعقيبات الشيخ المعلمي على العلامة الفراهي حاول إثبات قتال قريش ضد أبرهة قوة وتحيصاً من ناحية الدلائل والاستدلال بسياق القصة والآيات القرآنية.

القضية الرابعة: زعم العلامة الفراهي أنّ أهل مكة قاتلوا أبرهة: زعم العلامة الفراهي أنّ أهل مكة قاتلوا أبرهة وقتلوه، وساق لذلك طرفاً من الأدلة منها تفسير قوله تعالى: "تَرْمِيهِمْ" بأنّ معناه: ترميهم أيها المكي. ومنها بيان المناسبة لرمي الجمار كما أشير إليه، فهذان الدليلان سيرد عليهما الشيخ المعلمي في موضوع تفسير السورة. ومنها ما جاء قتل أبرهة في بيت ذي الرمة:

وأبرهة اصطادت صدور رماحنا جهاراً وعُثْنُونُ العجاجة أكردُ
تنحّى له عمرو فشكّ ضلوعه بنافذة نجلاء والنخيل تضبر

هذا ملخص ما ادّعه العلامة الفراهي في إثبات أنّ أهل مكة قاتلوا أبرهة وقتلوه.¹ وقد ردّ الشيخ المعلمي عليه في قضية قتل أبرهة وقتال أهل مكة أبرهة. فأما قتل أبرهة الذي أثبتته العلامة ببيت ذي الرمة الذي صرح فيه أنّ أبرهة قتل، فقد رفض الشيخ أنّ أبرهة الذي جاء ذكره في بيت ذي الرمة هو أبرهة أصحاب الفيل، وإنما هو غيره فلو كان هو لم يسكت عن بيانه عامة علماء الأخبار وعلماء الشعر. ثم قال

¹ راجع: رسالة التعقيب للمعلمي، ص 25

الشيخ أنّ التسمي بأبرهة كان معروفاً في اليمن قديماً، فهناك شخصيات كثيرة سميت بأبرهة، والمراد بأبرهة الذي جاء في بيت ذي الرمة هو أبرهة بن الصباح ملك من ملوك اليمن قبل استيلاء الحبشة بمدة أو جدّ أبرهة بن شرحبيل، إن كان غيره، أو آخر من أقيال اليمن فإنهم كثير. وقد كانت الحرب متواصلة بين نزار واليمن، قد يكون أحد الأبارهة قتل في بعضها، وقدم العهد، فلم يصل إلينا من خبر القصة إلا بيت ذي الرمة. وقد لا يكون قتل، وإنما أصابته طعنة، وقد يكون المقتول أو المطعون آخر، فأشيع أنه أبرهة، ووصلت هذه الإشاعة إلى ذي الرمة.¹

وأما زعم العلامة بأنّ أهل مكة قاتلوا أبرهة فقد رفضه الشيخ المعلمي وساق على أنّ أهل مكة لم يقاتلوا أبرهة عدة دلائل، منها روايات علماء الأخبار كابن إسحاق والواقدي والكلبي ورواية ابن عباس التي أخرجه الحاكم وصحّحه، وروايته الأخرى التي رواها ابن مردويه وحسّنها ابن حجر في فتح الباري. ومنها أنّ العرب كانوا حريصين بشدة على رواية أخبارهم وتقييدها بالأشعار فكيف يعقل مع هذا أن يكونوا قاتلوا أبرهة وقتلوه في المعركة ثم لا يوجد لذلك في أخبارهم وأشعارهم أثر؟ مع أنّ ذلك لو وقع لكان أعظم واقعة تعهدتها العرب في أرضها، فإنة لا يعهد في أيامها قبل الإسلام ملك أجنبي غزاها في قلب بلادها بجيش عظيم، وأفياح عديدة، فقاتلوه وقتلوه في المعركة، وهزموا جنده. فلو وقع ذلك لكان أحق الوقائع بأن تتواتر أخباره، وتكثر أشعارهم فيه، وافتخارهم به، وتنازعهم في القاتل من هو، وورثاء قتلهم وغير ذلك. ومنها أنّ جماعة من التابعين وأتباعهم حكوا القصة وأعلنوا بها مصرحين بأنّ أهل مكة أحجموا عن القتال، وتحرزوا بشعف الجبال، ولم يقع قتال البتة، فلا يقوم أحد من العرب بالردّ عليهم، ويبين خلاف ما قالوه. ومنها أنّ تجارة قريش إلى اليمن والحبشة لم تزل مستمرة، ولو كانوا قاتلوا أبرهة وقتلوه، لانقطع متجرهم إلى اليمن والحبشة. ومنها أنهم قد قالوا أشعاراً في الواقعة نرى طرفاً منها في

سيرة ابن هشام وليس فيها أمراً لقتال ولا قتل، بل كلها ثناء على الله عز وجل في حمايته بيته ومنها قول طالب بن أبي طالب:

ألم تعلموا ما كان في حرب داحس وجيش أبي يكسوم إذ ملؤوا الشعبا
فلولا دفاع الله لا شيء غيره لأصبحتم لا تمنعون لكم سرباً¹
هكذا ردّ ردوداً تفصيلية على زعم العلامة الفراهي بأن أهل مكة قاتلوا أبرهة وقتلوه،
ولا شك أنّ هذه الردود والآراء للشيخ المعلمي مبرهنة أقوى من العلامة من حيث
الاستيعاب ودقة الخوض.

القضية الخامسة: زعم العلامة بأنّ الطير لم ترم أصحاب الفيل: ذهب العلامة الفراهي
إلى أنّ الطير لم ترم أصحاب الفيل، وإنما أرسلها الله عز وجل لأكل جثث موتاهم؛
كيلا يتغير الهواء بجيفهم، واضطره ذلك إلى دعوى أنّ قول الله تعالى في السورة
"ترميمهم" خطاب، أي ترميمهم أيها المكي. ويرى الشيخ المعلمي أنّ العلامة الفراهي
تصرف في الروايات المصرحة برمي الطير برد بعضها، وتغليط بعضها وحاول
الاحتجاج على أن لم ترمهم وعلى أنها أكلت جثثهم.

أما الكلام على قوله تعالى: "تَرْمِيهِمْ" فيأتي في تفسير السورة.

وأما الروايات، فزعم أنّ الرواة فريقان مختلفان: فريق في روايته ستة أمور، وفريق في
روايته خمسة أمور. ورجح ما نسبته إلى الفريق الأول، ثم ساق بعض الروايات من
تفسير ابن جرير، ثم ذكر أشعاراً للجاهليين تتعلق بالقصة، واستخلص منها أربعة أمور،
يؤيد بها ما نسبته إلى الفريق الأول.¹

هذا ملخص ما زعمه العلامة الفراهي ورأى أنّ الطير لم ترم أصحاب الفيل.

وقد جاء الشيخ المعلمي يعقب على رأي العلامة واستدلالاته بالتفصيل فتدبر تلك

¹ انظر: المرجع السابق، ص 30-32

الروايات والأشعار وقابلها بما ذكر العلامة أنه نلّصه منها فرأى فرقاً كبيراً، والإيضاح ذلك ساق الشيخ الأمور التي ذكر العلامة وذكر مع كل أمر ما يوافقه من الروايات التي في تفسير ابن جرير.

فالأمر التي نسبها العلامة إلى الفريق الأول هي:

1. "أن الطير كانت جوارح كباراً"

يقول الشيخ المعلمي: لم أره صريحاً، ولكن في رواية ابن عباس: "كانت طيراً لها خراطيم تخرطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب".

وفي رواية لعكرمة: "كانت طيراً خضراً، خرجت من البحر، لها رؤس كرؤوس السباع، كانت ترميهم بحجارة معها، قال: فإذا أصاب أحدهم خرج به الجديري".

2. "أن لها لوناً وشكلاً كذا أو كذا".

مرّ في رواية عكرمة: "كانت طيراً خضراً" وجاء في رواية سعيد بن جبير: "طير خضر، لها مناقير صفر، تختلف عليهم".

3. "وأنها أكلت أصحاب الفيل".

استنبطه العلامة من الأمر الأول ومن قول سعيد بن جبير الذي سبق.

4. "وأن الحجارة أصابتهم من كل جانب".

لم أره في شيء من الروايات.

5. "وأنها أحدثت الجدري بإصابتها أجسامهم".

نقل الشيخ المعلمي الروايات التي جاء فيها هذا الذكر.

6. "وأنهم أهلكوا حيناً فحيناً في فرارهم حتى تساقطوا على كل منهل".

وهذا أيضاً سبق ذكره في بعض الروايات السابقة.

ثم ذكر الشيخ المعلبي الأمور التي نسبها العلامة إلى الفريق الثاني وهي:

1، 2. "أنّ الطير كانت ترميهم بالحجارة، وأنها حملت هذه الحجارة بمناقيرها وأظافيرها". وهذا أيضاً جاء ذكره في الروايات السابقة والذي جاء في رواية سعيد بن جبير "تختلف عليهم" فالظاهر منه إرادة الرمي، لأنّ الاختلاف مجمل، يترك تفسيره لظهوره، والظاهر إنّما هو الرمي لظهور دلالة القرآن عليه واشتباره بين الرواة، بخلاف أكل الجثث، فإنه لم يصرح به في شيء من الروايات، بل ولا دلّت عليه رواية من الروايات دلالة قوية، بل ولا أعلم أحداً قبل العلامة ذكر أنّ تلك الطير أكلت جثثهم. ثم ساق الشيخ طائفة من الآيات تدلّ على أنّ الطير رمتهم بالحجارة.

3. "وأنّ هذه الحجارة نفذت في أجسام الراكبين، حتى نفذت في أجسام الفيل".

يقول الشيخ المعلبي: ليس في تفسير ابن جرير شيء من ذلك، غير أنّ هناك روايات أخرى كثيرة جاء فيها مثل هذه الأمور.

4. "ولا بدّ أنهم هلكوا حيث كانوا".

يقول الشيخ المعلبي: ظاهر هذه العبارة أنّ هذا استنتاج من الأمر الثالث.

5. "وأنّ سيلاً جاء، فذهب بجثث القتلى". جاء هذا في بعض الروايات.

ثم حاول الشيخ المعلبي الجمع أو الترجيح فيما اختلفت فيه الروايات في النقاط التالية:

1- اختلفت الروايات في صفة الطير ولونها وقد جمع بعض أهل العلم بين ذلك فلا حاجة إلى الترجيح وساق في ذلك أقوال العلماء.

2- رواية التجدير وما في معناه من الحصبة والحكة والنفط أرجح. والجمع بينها وبين الهشم ممكن.

3- عامة الروايات التي وصفت الحجارة بينت أنها كانت حصى صغاراً نحو الحمص. وأخيراً

قال الشيخ المعلمي بعد دراسة واستعراض ما تلخّصه العلامة من الروايات المختلفة: "وهب أنه ثبت أنّ تلك الطير التي أرسلها الله تعالى أكلت من جثث الهلكى، فمن أين يلزم من ذلك أنها لم ترمهم؟ بل نقول حيثئذ: إنّ الله تعالى أرسلها العذاب أصحاب الفيل بأن ترميهم بالحجارة، كما اقتضته السورة، وصرحت به معظم الروايات، وأطبق عليه الناس، ففعلت ما أرسلت له، ثم بقيت حتى أكلت جثث الموتى¹. هذه تعقيبات الشيخ المعلمي على العلامة الفراهي في رفضه رمي الطير، ولا شك أنّ تعقيباته قوية مدللة بالدلائل العقلية والنقلية.

القضية السادسة: الباعث للعلامة الفراهي على دعوى قتال أهل مكة قتال أهل الفيل: إنّ ما دعا العلامة إلى الزعم بأن أهل مكة قاتلوا أهل الفيل أمران:

1- استبعاده أن ينكلوا عن القتال دون البيت لما لهم من حسن الاعتقاد والشرف والغيرة. وقد تكلم الشيخ المعلمي على هذه النقطة فيما سبق.

2- استشعاره أنّ اعتقاد نكول قريش عن القتال قد يؤدي إلى عييبهم، وقد يتخذ بعض الكفار والملحدين ذريعة إلى عيب خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم لأنهم قومه.

يقول في ذلك الشيخ المعلمي: "لا حاجة إلى الوقوع في مثل هذه المباحث فإنه لا يجدي نفعاً، بل يكفي القول في ذلك أنّ الحق أعزّ وأظهر من أن يضطر المنتصر له إلى الخروج عنه من جهة أخرى"¹.

القضية السابعة: الباعث له على إنكار رمي الطير: إنّ الباعث للعلامة الفراهي - كما يبدو - على أنكار رمي الطير أمور:

الأول: أن يتبأ له دعوى أنّ قوله تعالى: "تَرْمِيهِمْ" للخطاب فيستدل بذلك أنّ أهل مكة قاتلوا.

¹ راجع للتفصيل: المرجع السابق، ص 32-58

والثاني: ما ذكره بقوله: "من ينظر في مجارى الخوارق يجد أنّ الله تعالى لا يترك جانب التحجب في الإتيان بها، كما هي سنة في سائر ما يخلق، لأنّ حكمته جعلت لنا برزخاً بين عالمي الغيب والشهادة، وسنّ لنا التشبث بالأسباب مع التوجيه إلى ربها، ليبقى مجال للامتحان والتربية لأخلاقنا.¹

والثالث: من البواعث على إنكار رمي الطير: أنّ بعض فلاسفة الإفرنج وكّابهم وأذئابهم من الملحدّين ينكرون الخوارق، ويسخرون منها، ويعدون ذكرها في القرآن برهاناً على اشتماله على الكذب. وعلماء المسلمين شديدو الغيرة على القرآن، والحرص على تبرئته عن المطاعن، فقد يحمل بعضهم ذلك على أنّ يتأول بعض النصوص القرآنية، ويحمّله على معنى لا ينكره القوم.¹

هذه هي البواعث على إنكار رمي الطير.

جاء الشيخ المعلمي ليرد على هذه الأمور، فالأمر الأول يتكلم عليه في التفسير. وأما الأمر الثاني فقد فصل الشيخ في الرد عليه بحث في حكمة الخلق مؤداه أنّ رأس العبادة معرفة الحق، فلو جعل سبحانه حجج الحق مكشوفة لما كان في معرفتها مشقة، فلا تكون عبادة ولا كمالاً، فلم يكن بد أن يكون دون حجج الحق حجاب.

ثم يقول الشيخ المعلمي بعد بحث طويل: الرمي في واقعة الفيل لم يكن المقصود منه إقامة حجة، لا على أهل مكة، ولا على الحبشة. أما أهل مكة فإنهم لم يقصدوا بها، وكانوا مصدقين بقدرة الله عزّ وجلّ، وحرمة البيت. وأما الحبشة فكانوا يعلمون قدرة الله تعالى، ويرى العلامة أنهم كانوا يعرفون حرمة البيت.

ثم يقول: فاتضح بما تقدم أنّ الرمي لم يكن لإقامة حجة، وإنما كان آية عذاب، ومثل ذلك لا يستدعي الحجاب. كما أنّ الرمي لم يكن معجزة ولا كرامة لأهل مكة أو

¹ المرجع السابق، ص 60

لواحد من أحيائهم حتى يحتاج إلى مباشرة منهم كما في رمي النبي ﷺ يوم بدر، ورمي موسى بالرماد، ومديده للجراد.¹

وأما ردّ الشيخ المعلمي على الأمر الثالث فيرى أنّ الحقّ أحقّ أن يتبع، وأعزّ من أن يضطر المنتصر له إلى ترك بعضه. فالواجب على أهل العلم أن يبحثوا عن مستند القوم في إنكار الخوارق، فيهدموه بالحجة والبرهان. فأما ترضيهم بتأويل بعض النصوص نفطل من الرأي.¹ هذا الرأي من الشيخ المعلمي هو مبني على أنّ الدين إن لم يكتشف أمره عند أهل العلم فيجب البحث عن حكمته دون الإسراع إلى التأويل. وهو رأي صائب.

القضية الثامنة والأخيرة: اختيار العلامة من رمي العرب لأصحاب الفيل مناسبة لرمي الجمار: استنبط العلامة الفراهي مما اختاره من رمي العرب لأصحاب الفيل مناسبة لرمي الجمار، وصاغ ذلك صياغة تصلح أن تكون استدلالاً على ما اختاره، قال: "قد دلّت الأمارات الكثيرة على أنّ رمي الجمار بمنى كان تذكرة لرمي أصحاب الفيل، ولكن الروايات الضعيفة ضربت أسداً دونه".²

ثم ذكر بعض الروايات، ثم قال: "ولم أجد في صحاح الأخبار ذكراً في سبب سنة رمي الجمار، فلو ثبت فيه شيء من طريق الخبر لأخذنا به، وقرّرت به العينان، ولكنه لم يثبت، وأمر الدين ليس بهين، وقال النبي ﷺ: "كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع". فعمدنا إلى طريق الاستنباط، فإنّ المستنبط من الصحيح الثابت أولى بالصواب من الصريح الذي لم يثبت".

فكان العلامة استنبط هذه المناسبة لرمي الجمار بناء على أمرين: الأول: وجود أمارات، والثاني: عدم وجود الروايات الصحيحة التي تدين أو تشير إلى المناسبة.

¹ راجع: المرجع السابق، ص 61-79

² تفسير سورة الفيل، ص 35

فجاء الشيخ المعلبي وتحدث عن الأمرين بالتفصيل فقال عن الروايات: إنّ العلامة ذكر بعضها وكأنه لم يقف على الروايات الجيدة، ثم ساق الشيخ المعلبي طائفة من الأحاديث منها صحيحة صحّحها علماء الحديث، ومنها جيدة يعتمد عليها في الأحكام، ومؤدى هذه الأحاديث فيما يتعلق ببيان سبب رمي الجمار هو تعرض الشيطان للصد عن معرفة المناسك.¹

أما الأمارات التي أشار إليها العلامة فذكر أربعاً:

الأولى: أنه لم يجد في أشعار الجاهلية ذكراً لرمي الجمار، قال: "فالأقرب أنه أمر جديد، ولم يكن إلا بعد واقعة الفيل. وأبقاه الاسلام لما فيه تذكّار نعمة عظيمة، وآية بينة".¹ الثانية: أنّ أصحاب الفيل رموا بموضع رمي الجمرات، واحتج بقول نفيل - وهو ممن شهد الواقعة-:

ردينة لو رأيت ولم تريه لدى جنب المحصب ما رأينا
قال: "وفي لسان العرب: قال الأصمعي: المحصب حيث يرمي الجمار، وأنشد: (أقام ثلاثاً بالمحصب من منى) ... ونجد هكذا في قول عمر بن أبي ربيعة: (نظرت إليها بالمحصب من منى)".¹

الثالثة: مناسبة اسم الجمرّة، قال: "... الجمرّة: اسم لجماعة مستقلة لم تنضم إلى أحد من القبائل، لا اعتمادها على قوتها وبأسها: فعلى هذا نقول: إنّ جيش أبرهة كانت أولى بهذا الاسم، فإنها جاءت مخالفة لجميع العرب ولم تنضم إلى أحد من القبائل، والجمرات عند منى لما كانت علامة لهم سميت بذلك الاسم".²

الرابعة: أنه روي أنّ العرب رجّموا قبر أبي رغال، لأنه كان دليل أصحاب الفيل قال:

¹ المرجع السابق، ص 36

² المرجع السابق، ص 39

"فهذا نظير رجم أصحاب الفيل، وحمل الأمور على النظائر أولى. وإنما ترك رجم قبر أبي رغال لأنّ الإسلام ترفع عن رجم القبور.."¹

هذا هو ملخص بيان العلامة الفراهي في الأمارات التي يجعل على أساسها مناسبة لرمي الجمار من رمي العرب لأصحاب الفيل.

فجاء الشيخ المعلمي وناقش هذه الأمارات واحدة واحدة بالدلائل المبسطة.

قال: أما الأمانة الأولى فهي ضعيفة، لا تصلح لبناء هذا الأمر العظيم المخالف للحجج الواضحة، بل ما احتج به العلامة ببيت نفيل (لدى جنب المحصب) إذا كان المراد بالمحصب موضوع رمي الجمار فهو يهدم هذا الأمانة، وإن كان يأتي بمعنى اسم المفعول، لأنه لم ينقل أنّ الناس نقلوا الحصباء إلى موضع الجمار، وفرشوه بها، فالمحصب اتفاقاً اسم مكان حقيقي، وعبرة الأصمعي واضحة في ذلك، إذ قال: "المحصب حيث يرمي الجمار" فثبت بهذا أنّ رمي الجمار كان معروفاً قبل واقعة الفيل، حتى اشتهر اشتقاق اسم المكان منه فاستعمل نفيل.¹

وأما الأمانة الثانية كما رآها العلامة الفراهي أنّ أصحاب الفيل رموا بموضع رمي الجمرات فقد نقدها الشيخ المعلمي بدراسة كهات (المغمس) و(المحصب) وعلاقتها بهلاك أصحاب الفيل في كتب البلدان والسير ثم قال أخيراً:

"وبالجملة فالمشهور أنه بوادي محسر، ووادي محسر بجانب المحصب، وهو منى وقد رأيت في شعر عمر بن أبي ربيعة ذكر وادي المغمس فلعله كان يقال لمحسر، أو لموضع منه: "المغمس" ثم أشهر بمحسر. ولعل المغمس هو أعلى الوادي قريباً من مزدلفة، والصفاح خارج الحرم. فما ادعاه المعلم (العلامة) أنّ أصحاب الفيل رموا عند الجمرات لا أصل له ولا دليل، بل الدليل خلافه.¹

¹ انظر: رسالة في التعقيب، ص 88-89

وأما الأمانة الثالثة التي يراها العلامة الفراهي مناسبة اسم الجمره فيرد عليه الشيخ المعلمي قائلاً: فالذين ذكروا جمرات العرب ذكروا أنها قبائل مخصوصة منهم، كل منها ذات نجدة وشدة ومنعة، لم تحالف غيرها. وجيش أبرهة ليسوا من تلك القبائل، ولا هم قبيلة، ولا كانوا خالصين، بل فيهم من الحبشة وكندة وحمير وخثعم وغيرهم كما في كتب الأخبار، فلا وجه لتسميته جمره. فالصواب هو المشهور: أنها سميت جماراً باسم الحصى، فإنّ الحصى يقال لها: جمار.¹

وأما الأمانة الرابعة فقال في الرد عليها الشيخ المعلمي: فقد اختلف في أبي رغال، وقد أخرج الحاكم في المستدرك من طريق عاصم بن عمر بن قتادة عن قيس بن سعد بن عبادة.. فذكر الحديث، وفيه: "فقال له رسول الله ﷺ... ولا تكن كأبي رغال. فقال سعد: وما أبو رغال؟ قال: مصدق بعثه صالح...". فذكر القصة، وفيها قتل أبي رغال. قال: "فأتى صاحب الغنم صالحاً النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأخبره، فقال صالح: اللهم العن أبا رغال...".

قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. فتعقبه الذهبي قال: عاصم لم يدرك قيساً.¹ يقول الشيخ المعلمي: وعلى كل حال فهذا الحديث أحسن ما في الباب. وأكثر الحكايات في شأن أبي رغال تدل على أنه قديم. وعلى هذا فلم يرجم قبره لأنه حُصِبَ في حياته، وإنما رجم إشارة إلى لعنه، فإن اللعن - كما قال الراغب - هو الطرد والإبعاد على سبيل السخط.

فتطبيق الجمار على هذا أن يقال: إنه هلك في مواضعها، أو رأي عندها من يستحق اللعن والسخط. والأول قد رده المعلمي رَحِمَهُ اللهُ بِحَقِّ، إذ قال: "إنّ الإسلام ترفع عن رجم القبور" فتعين الثاني. ولا يمكن أن يكون من أصحاب الفيل، وإلا لزم أن

¹ المرجع السابق، ص 94-95

ترجم طريقهم كلها من اليمن إلى حيث بلغوا، فتعين أنه الشيطان كما جاءت به الروايات واشتهر بين أهل العلم وغيرهم وهو أحق بالرجم.¹

فهذه الأمارات التي جعل العلامة الفراهي منها دليلاً على تسمية رمي الجمار مناسبة لرمي العرب أصحاب الفيل قد رد عليها وأبطلها الشيخ المعلمي بالدلائل العقلية والنقلية. وبجانب هذه الأمارات فقد ذكر العلامة الفراهي أربعة أوجه أخرى، يبين بها أن مناسبة رمي الجمار لرمي أصحاب الفيل أظهر من مناسبتها لرمي الشيطان:

الأول: إن النحر تذكّر لسنة قربان إبراهيم بابنه، فلو كان أصل الرمي رمي الشيطان لكان النحر في اليوم الثالث أو الرابع، فلماذا يرجم الشيطان في اليوم الثاني والثالث وقد طرده إبراهيم عليه السلام قبل ذلك؟

والثاني: يقول: في اليوم الأول لا ترمي إلا الجمرة التي تلي العقبة، وهي أقرب الجمرات إلى مكة، وهذا أحسن مطابقة بحال تقدم أصحاب الفيل إلى مكة في اليوم الأول.

والثالث: الجمرة التي ترمي في اليوم الأول هي أكبرهن. وهذا أحسن مطابقة بحال الجيش، فإنهم لما أصيبوا وضعفوا قلّ عدد المتقدمين منهم، أما الشيطان فهو الذي تراءى لإبراهيم في اليوم الأول، فبعد أن يكون علامته متفاوتة في الحجم.

والرابع: بعد الرمي في اليوم الأول والثاني استقبال إلى الكعبة، ووقوف ودعاء طويل، فلو كان الرمي على الشيطان لم يكن هذا الاهتمام بالدعاء في اليومين، وتركه في الثالث، فإن إبراهيم عليه السلام قد صمم العزم، وأما جيش أبرهة فإنه كان جيشاً عظيماً فالتضرع إلى الله وطلب النصر منه على هذا الجيش أقرب إلى المعقول.¹

وقد ردّ الشيخ المعلمي على هذه الوجوه وأبطلها بالدلائل العقلية والنقلية. فقال في الرد على الوجه الأول إن الذي ثبت بالروايات الجيدة هو أن تعرض الشيطان

¹ انظر: المرجع السابق، ص 95-97

لإبراهيم عليه السلام لم يكن لصده عن ذبح ابنه، وإنما كان ليدخل عليه الخلل في تعلم المناسك. هذا وقد فصل الشيخ الكلام فيه ردًا على هذا الوجه.

وقال الشيخ ردًا على الوجه الثاني والثالث: إنَّ الاقتصار يوم النحر على رمي جمرة العقبة، وتقديم وقته، فن الحكمة فيه- والله أعلم- التخفيف عن الحاج، فإنه متأذ بطول الإحرام، وعليه في هذا اليوم أعمال كثيرة، سوى الرمي، كالنحر والحلق والتنظف وصلاة العيد وطواف الإفاضة وغير ذلك. كما أنَّ المقصود في شرع رمي الجمار لا يتوقف على مشابهة رمي إبراهيم عليه السلام للشيطان من كل وجه. وإذا لم يكن كذلك، فأَيُّ غرابة في أنَّ تنصرف الحكمة فيما اقترن بالرمي من وقت وكيفية وغير ذلك؟

كما ردَّ الشيخ على الوجه الرابع قائلاً: "فقد علمت وهم المعلم (العلامة) رَحِمَهُ اللهُ، وأنَّ المشروع هو أن لا يوقف للدعاء عند جمرة العقبة، لا بعد رميها وحدها يوم النحر، ولا بعد رميها بعد أختيها في أيام منى، وأن يطال الوقوف والدعاء عند القصوى وعند الوسطى في سائر أيام منى، فانهدم بناء المعلم".¹

هذه هي أهم تعقيبات من الشيخ عبد الرحمن المعلمي على العلامة عبد الحميد الفراهي فيما يتعلق بقصة أصحاب الفيل. وكان الشيخ متأدبًا ومتحليًا بآداب النقد متخذًا في كل تعقيب منهج الاستدلال بالدلائل النقلية والعقلية.

تعقيبات على ما يتعلق بتفسير السورة

قسم الشيخ عبد الرحمن المعلمي هذا القسم من تعقيباته على مقدمة وباين:

أما المقدمة فقد تعرض الشيخ فيها لذكر ربط سورة الفيل بالتي قبلها والتي بعدها، وقد ساق بيان الارتباط على الوجه الذي رآه حقًا دون التعرض لما يَبْنِيهِ العلامة الفراهي، إلا أنه بعد انتهاء بيان الارتباط مرَّ سريعًا ببعض المواضع من كلام العلامة الفراهي ببعض التعقيبات.

¹ انظر: المرجع السابق، ص 98-104

فقال الشيخ بعد بيان ارتباط السورة: "فهذا الذي قرّره هو الذي يتبين به حسن الانتظام، وقوة ارتباط الكلام. وهذا هو المقصود الأعظم للمعلم رَحِمَهُ اللهُ حتى سَمِيَ تفسيره: "نظام القرآن". ولكنه رَحِمَهُ اللهُ ضَحَّى بهذا المقصد في سبيل نفي الرمي عن الطير، فتعسف وتردد، فإنه ذكر أولاً فصلاً يقرّر به أنّ الخطاب في قوله تعالى: "ألم تر" ليس للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ". ثم صرح في كلامه أنّ الخطاب لشخص معين وهو أبو لهب عنده. ثم عمم الخطاب بقوله: "الواقعة كانت على غاية الاشتهار". ثم عاد يخصّ الخطاب بأهل مكة، فكان له في الخطاب ثلاثة أقوال.¹

بعد هذه المقدمة بدأ الشيخ المعلمي الباب الأول وهو في تفسير السورة كما فسّرها عامة أهل العلم وفاقاً. فليس في هذا التفسير ما يعقب به الشيخ على العلامة الفراهي سوى ما رأى في المراد من الخطاب عند العلامة قد يشير إلى عموم الخطاب، وقد يخصّ الخطاب بقريش، وقد يخصّ بأبي لهب مما مرّت الإشارة إليه آنفاً.

ثم ذكر الشيخ المعلمي الباب الثاني بعنوان "في البحث مع المعلم رَحِمَهُ اللهُ تعالى في "تَرْمِيهِمْ". وقبل البدء في هذا البحث تحدّث طويلاً عن بعض الأحكام النحوية والبلاغية إحالة إلى العلماء النحويين والبلاغيين كما ذكر في الاستشهاد طائفة من الأشعار العربية وكل ذلك كمدخل للبحث مع العلامة الفراهي، وهذا المدخل يضم حوالي أربعين صفحة، ثم يبدأ البحث.

يرى العلامة الفراهي أنّ الخطاب في قوله تعالى "تَرْمِيهِمْ" إلى أفراد مكة وكلمة "تَرْمِيهِمْ" حال من المجرور في (عليهم)، أو جملة مستأنفة، والضمير في (عليهم) إنما هو مجرور لا فاعل ولا مفعول. فنقول: إنّما مراد النحويين أنّ الحال بين هيئة الشيء عند حدوث أمر، والحدوث يعبر عنه بالفعل، فإذا وجدوا الحال عن غير الفاعل أو المفعول فزغوا إلى تقديرات شتى.¹ ثم ذكر شواهد على مجيء الحال من المجرور.

¹ المرجع السابق، ص 183

جاء الشيخ المعلبي يعقب على العلامة قائلًا: إنَّ الذي رآه العلامة أنَّ الخطاب ههنا إلى أفراد أهل مكة، فيه أمران:

الأول: أنَّ العلامة نفسه رأى كما سبق أنَّ الخطاب متوجه إلى جميع من رأى هذه الواقعة أو أيقن بها. يقول الشيخ إنَّ هذا صحيح ولكن لا وجه لتخصيص الخطاب بأهل مكة. وعلى هذا فلو كان "تَرْمِيَهُمْ" خطابًا مبنياً على الخطاب في أول السورة كان معناه نسبة الرمي إلى كل أحد إلى يوم القيمة، وهذا واضح البطلان.

الثاني: أنه على فرض صحة ما رجع إليه العلامة من أنَّ الخطاب في أول السورة لكل أحد من أهل مكة عند نزول السورة، فبناء الخطاب في "تَرْمِيَهُمْ" على هذا لا يستقيم أيضًا، إذ على فرض وقوع الرمي من أهل مكة، فليس كل أحد ممن يصلح للخطاب عند نزول السورة ممن رمى.

فإن قيل: يمكن أن يحمل قوله "تَرْمِيَهُمْ" على معنى: يرميهم قومك.

قلت: الجواب عن هذا من أوجه:

الأول: أنَّ هذا الاستعمال مجاز، وإنما يحمل الكلام عليه حيث ظهرت قرينة، وليست في قوله تعالى: "تَرْمِيَهُمْ" قرينة ما.

والثاني: أنَّ المعروف استعمال المجاز المذكور في الخطاب بلفظ الجمع كما في الآيات، ولم أره بلفظ الواحد.

والثالث: أنَّ نسبة ما وقع للأبناء إلى الأبناء إنما يحسن فيما توارث نتيجته، أما في رمي أهل مكة لأصحاب الفيل بالحجارة، على فرض وقوعه لا تجد فيه ما يسوغ نسبة الرمي إلى أبنائهم.

والرابع: أنَّ التركيب على زعم الخطاب لا يجري على قانون العربية.

وهكذا تعقب الشيخ المعلبي على العلامة الفراهي في بيان كلمة "تَرْمِيَهُمْ" حال من المجرور في (عليهم)، وقوله: "إنما مراد النحويين... فإذا وجدوا الحال عن غير الفاعل

والمفعول فزعوا إلى تقديرات شتى" يقول الشيخ : يحتمل هذا أمرين: الأول أن يكون تساهل فأطلق "النحويين" ومراده بعضهم. الثاني: أن يكون إنما راجع من كتب النحو كافية ابن حاجب وظن أن الحد المذكور فيها متفق عليه بين النحويين، فليته سكت عن هذا ونظر إلى الوجوه الأخرى التي تبطل الحالية هنا:

الوجه الأول: ما تقدم من إبطال الخطاب.

الوجه الثاني: أن الحال لا بد أن تقارن عاملها في الزمان، فلو كان إرسال الطير إنما هو لأكل جثث الهلكى لكان الظاهر أن يتأخر إرسالها عن رمي أهل مكة، على فرض وقوعه، فعلى فرض تأخره تنتفي المقارنة.

والوجه الثالث: أن "تَرْمِيَهُمْ" يلي "طَيْرًا أَبَائِلَ" والأصل والظاهر أنه لها حالاً منها أو نعتاً لها. فلا يجوز أن يكون حالاً من الهاء في "عليهم" متعلقاً بالخطاب في أول السورة إذ لا قرينة على ذلك.

والوجه الرابع: أن "تَرْمِيَهُمْ" لو كان خطاباً على أنه حال من الهاء في "عليهم" لكان جازياً على غير من هو له، وإذن لوجب على قانون العربية أن يقال: "ترميهم أنت". والوجه الخامس: إنني أشك في صحة "مررنا بزيد تحذته" أو "تحذته أنت"، وإن صح فهو ضعيف، وهو نظير "ترميهم" حالاً من الهاء.

والوجه السادس: أنه لو كان المعنى "ترميهم أنت" لكان جملة "ترميهم" مستقلة عما قبلها ومناسبة لها. وهذا من التوسط بين الكمالين، وهو من مواضع الوصل، فحقه أن يقال فيه: "وأنت ترميهم".

وعلى كل حال، فالأصل في الحال هو المقارنة الواضحة، وإنما يحتمل على خلاف ذلك عند تعذر الأصل. ولم يتعذر الأصل في قوله تعالى: "ترميهم".¹

¹ انظر: المرجع السابق، ص 189-200

وهكذا عقب الشيخ المعلبي على العلامة الفراهي حين قال: "أو هي جملة مستأنفة، فيكون: كنت ترميهم، وقوله: "عسى أن يتوهم أن مقتضى المعنى أن يؤتى بالماضي و"تَرميهم" مضارع إلى آخر ما قال.

فقال الشيخ المعلبي: إن أراد بالاستئناف: الاستئناف البياني، وهو ما يكون جواباً لسؤال ينشأ من الجملة السابقة، فلا يصلح هنا على جعل "ترميهم" خطاباً. ثم فصل الشيخ الكلام في شرح هذا الموضوع.

وإن أراد الاستئناف النحوي، فقد شرح علماء المعاني في باب الفصل والوصل المواضع التي يصلح فيها، وليس منها موضع يصلح هنا.¹ وأما ما قال العلامة الفراهي من أن "حذف الأفعال الناقصة قبل المضارع أسلوب عام" فيقول الشيخ المعلبي تعقيباً عليه: إن هذا القول ليشمل دعاوي:

الدعوى الأولى: جواز حذف الأفعال الناقصة. وأئمة العربية لا يجيزون حذف ما عدا (كان) من النواسخ إلا في موضع أو موضعين ليس منها ما قاله العلامة في الآية التي استشهد بها، ويجيزون حذف (كان) في مواضع لا يصلح منها شيء في آية الفيل. الدعوى الثانية: دعوى الحذف قبل "تَرميهم" ومن الأصول المتفق عليها ما قال ابن هشام: "الكلام إذا أمكن حمله على التمام امتنع حمله على الحذف، لأنه دعوى خلاف الأصل بغير بينة.

الدعوى الثالثة: أن المحذوف "كنت". فلو صح حذف (كان) في هذا الموضع، وجوزنا الاستئناف، وقلنا: إن المضارع إذا وضع موضع الماضي كان بتقدير (كان)، فلنا أن نقدر (كانت). وبذلك يوافق ما عرف عن القصة، وما يفهم من السورة، وما مضى عليه الناس جميعاً قبل المعلم، وتخلص به الكلام عن الإلباس والإيهام وعن اللحن والكذب وغير ذلك مما تقدم.¹

¹ انظر: المرجع السابق، ص 203-206

هذه هي أهم الموضوعات التي عقب فيها الشيخ المعلّي على العلامة الفراهي، وكانت هذه التعقيبات علمية خالصة مراعية لأصول النقد متجنبّة عن العصبية، وقد استوعب الشيخ كل ما كان يحتاج إليه من تتبع الروايات والأخبار والشواهد من الأشعار العربية واستيعاب قواعد النحو والبلاغة، وأرى أنه لم يرد في ذلك إلا الوصول إلى الحق الثابت من القرآن والسنة.

المراجع

1. تفسير سورة الفيل للعلامة حميد الدين الفراهي، د.ت.
2. دلائل الإعجاز للعلامة عبد القاهر الجرجاني، طبعة محمود شاكر
3. رسالة في التعقيب على تفسير سورة الفيل للعلامة عبد الحميد الفراهي، تأليف: الشيخ عبد الرحمن المعلمي، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة.
4. سيرة ابن هشام بهامش الروض الأنف، طبعة السقا
5. مغني اللبيب مع حواشي الأمير، طبعة دار الفكر
6. المفردات، للإمام الراغب الأصفهاني، د.ت.

انعكاس القيم الأخلاقية والروحية في شعر الإمام الفراهي

- يوسف متقيان نيا¹

الملخص

تعمل القيم الأخلاقية كمبادئ توجيهية تشكّل سلوكنا وعمليات صنع القرار. إنها توفر إطاراً للتمييز بين الصواب والخطأ، وتعزيز التعاطف والرحمة والصدق والنزاهة. عندما يتمسك الأفراد بهذه القيم، فإنهم يساهمون في النمو الشامل للمجتمع وكرامته. على المستوى الشخصي، تلعب القيم الأخلاقية دوراً حاسماً في النمو الروحي للفرد. إنها توفر إحساساً بالهدف والمعنى في الحياة، وتساعد الأفراد على مواءمة أفعالهم مع معتقداتهم وقيمهم. ومن خلال الالتزام بالمبادئ الأخلاقية، يمكن للأفراد تنمية السلام الداخلي والرضا. علاوة على ذلك، تؤثر القيم الأخلاقية على كيفية تفاعلنا مع الآخرين. عندما يعطي الأفراد الأولوية للقيم الأخلاقية مثل اللطف والإنصاف في تفاعلاتهم مع الآخرين، فإن ذلك يخلق بيئة مواتية للتعاون والتآزر. عُرف الإمام الفراهي بأعماله البناءة والساعية لتطوير المجتمع وإصلاحه لا سيما في الجانب الأخلاقي. يسعى بحثنا هذا بناءً على المنهج الوصفي التحليلي أن يدرس الجوانب الأخلاقية في شعر الإمام الفراهي وتحليلها وتبيين الأفكار الخفية والطموح المتصلة بها. والجدير بالذكر أنّ الإمام الفراهي قد عكس القيم المعنوية في شعره بصورة مميزة حيث اعتمد على معتقداته الدينية والإسلامية. وقد صور قيماً مثل ذكر الموت والابتعاد عن الغفلة والتحليّ بالعلم والتخلي عن الجهل واتباع العقل والفكر والتحذير من ملذات الدنيا الفانية. انمزجت هذه القيم

¹ مترجم من في اللغة العربية والفارسية، طالب دكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة شهيد تشرمان اهواز، اهواز، إيران.

بالمعتقدات والموضوعات الدينية الإسلامية والقرآنية وهذا يدل على ثقافة الفراهي العالية وسلوكه الإسلامي. من هنا نرى نشأة القصائد عند الفراهي ترتبط غالباً بمعرفته الإسلامية وعلومه القرآنية. فالشاعر بفهمه العميق للعالم الفاني يتعرف على طبيعته العابرة وما يقدمه من أوهام. إنه يرى من خلال حجاب المادية والرغبات السطحية التي تربط البشرية، ويدرك أنّ الإنجاز الحقيقي يكمن وراء هذه المساعي الأرضية. في سعيه إلى الحياة الآخرة، يتجاوز الفراهي القيود التي يفرضها هذا العالم الخادع. فهو يسعى إلى تحرير نفسه من تشابكاتها، ليس بالانسحاب منها كلياً، بل بالتعامل مع تعقيداتها بمنظور منفصل. يصبح مراقباً، مدركاً تماماً للطبيعة العابرة للملذات والممتلكات الدنيوية.

الكلمات الدليّة: القيم الأخلاقية ، الإمام الفراهي، الدين الإسلامي، القرآن الكريم.

1- المقدمة: توفر القيم الأخلاقية والروحية أساساً لاتخاذ القرارات الأخلاقية وتوجيه الأفراد نحو الإجراءات التي تعزز رفاهية أنفسهم والمجتمع ككل. تساعد هذه القيم الأفراد على التمييز بين الصواب والخطأ، وتشجعهم على التصرف بطرق عادلة ورحيمة ومتعاطفة. وفي أوقات الأزمات أو الصراعات، غالباً ما تكون هذه القيم الأخلاقية والروحية بمثابة منارات للأمل، توجه المجتمعات نحو الحل والوئام. إنهم يذكروننا بإنسانيتنا المشتركة وأهمية معاملة الآخرين باحترام ولطف وإنصاف. ومن خلال تبني هذه القيم، يستطيع الأفراد تعزيز التفاهم والتعاطف والتعاون بين المجموعات المتنوعة، مما يؤدي إلى التعايش السلمي. علاوة على ذلك، تساهم القيم الأخلاقية في النمو الشخصي من خلال تشكيل شخصية الفرد. إنهم يغرسون صفات مثل النزاهة والصدق والتواضع والمثابرة- وهي صفات ضرورية لتحسين الذات وتحقيق السلام الداخلي.¹ عندما يتمسك الأفراد بهذه القيم في حياتهم اليومية، فإنهم يشعرون بالرضا والسعادة. إن اتباع القواعد واللوائح الاجتماعية غير ممكن دون دعم الأخلاق، والأخلاق هي

¹ ابن اثير، مبارك بن محمد (1367ش). النهاية في غريب الحديث والأثر، ج2، قم: اسماعيليان. ص 70

أفضل ضمان لتنفيذ القوانين واللوائح. ولذلك تعتبر القضايا الأخلاقية من أهم أهداف إرسال الأنبياء، وبدونها لن يكون للدين معنى للناس، ولن تنتظم دنياهم. وفي أهمية ومكانة الأخلاق الحميدة باعتبارها أداة بناء الإنسان التي تميز الإنسان عن غيره من الكائنات، ومع نمو الفضائل الأخلاقية وتميزها، يشرق نور الإيمان في قلبه، يكفي أنه يمكن الادعاء بأن الأخلاق الحميدة هي الغاية لبناء التعاليم والعبادات التي فرضها الإسلام، والإيمان بها هي أسس الإسلام، ليست إلا تمارين صحيحة وفعالة تهدف إلى غرس الأخلاق الحميدة والعلاقة الاجتماعية السليمة والمستقرة في الإنسان. وعلى هذا الأساس ينبغي تكرار هذه التعاليم والأوامر الإلهية دائماً من أجل اتخاذ الموقف والسلوك الصحيح في حياة الإنسان الاجتماعية. وهذه العبادات أشبه بالتمارين الرياضية المستمرة التي يلجأ إليها الإنسان بحماس ويسعى إلى الصحة والنشاط في الحياة الاجتماعية من أدائها المستمر. ولذلك فإن تعاليم الله وأوامره، مثل الصلاة والصيام والحج والزكاة وغيرها من العبادات التي هي جزء من تعاليم الإسلام وشعائره، كلها خطوات تقود الإنسان إلى مستويات مختلفة من الكمال الإنساني وكل منها هو مصدر الكمال. الطهارة والصلاح، التي تعني حياة الإنسان الشخصية والاجتماعية من الوقوع في الفساد والقبح الأخلاقي. إن الإمام الفراهي كان من العلماء الذين لهم بصمات فريدة في إرشاد المجتمع وأبنائه، من هنا نرى القيم الأخلاقية حاضرة وبقوة في أشعاره، فهو يسعى من خلال الشعر وآلياته الفريدة لأن يؤثر في قلوب الناس ويحببهم إلى الخير والفضيلة. يسعى الباحث باستخدامه المنهج الوصفي التحليلي أن يدرس القيم الأخلاقية والروحية في شعر الإمام الفراهي. ويحللها كي تتجلى الأفكار والآراء الكامنة خلفها. من هنا يحاول بحثنا الإجابة على السؤال التالي:

ما هي القيم الأخلاقية والروحية التي عكسها الإمام الفراهي في شعره؟

1-2. خلفية البحث: من الدراسات التي تناولت آثار الإمام الفراهي يمكننا أن نشير إلى: بحث تحت عنوان (الإمام عبد الحميد الفراهي ومنهجه في تفسيره) للباحث محمد يوسف

الشريجي في دمشق سنة 2004م، حيث ذكر الباحث نماذج تفسيرية وشرح أسلوب الإمام. وبحث آخر تحت عنوان (الإمام عبدالحميد الفراهي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن) للباحث محمد فريد راوي من ماليزيا سنة 2015م. وذكر الباحث مؤلفات الفراهي ومنهجه التفسيري ونقطة الوصل بين هذه المؤلفات والمنهج التفسيري. وبحث باللغة الفارسية بعنوان (روش شناسی تفسیر نظام القرآن و تأویل القرآن بالفرقان عبدالحميد فراهي) للباحثين مير أحمدي وحسيني اللذين تطرقا إلى الأسلوب التفسيري للفراهي. كما نشرت مجلة الهند في أعدادها الخاصة عدة بحوث عن الإمام الفراهي.

2- عبدالحميد الفراهي: ولد عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان بن تاج علي الفراهي الأنصاري الملقب بحميد الدين وأبي أحمد صباح يوم الأربعاء السادس من جمادى الثانية عام 1280هـ في أسرة علمية بقرية "فريها" واحدة من أكبر القرى الهندية. حفظ القرآن في سنّ العاشرة. خلال فترة 9 أشهر، تعلّم اللغة الفارسية بطريقة جعلت له ديوان شعر باللغة الفارسية. ثم تحول إلى تعلم اللغة العربية وأتقن هذه اللغة لدرجة أنه كتب "جمهرة البلاغة" في ردّ عبد القاهر الجرجاني. بعد أن أصبح أستاذاً لهاتين اللغتين، درس اللغة الإنجليزية في جامعة علي جره وكتب أطروحة باللغة الإنجليزية في دحض المعتقد المسيحي حول الشفاعة والكفارة. ثم، في نفس الكلية، درس العبرية على يد مستشرق يهودي اسمه جوزيف هورويتز. كانت هذه اللغة مؤثرة جداً بالنسبة له واستخدمها في المقارنة بين القرآن والتوراة، وكذلك في كتابة تفنيدات ضد اليهود والنصارى في بعض الأمور. على سبيل المثال، في كتابه "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح"، ردّ ثلاثة عشر سبباً للتوراة بأنّ الذبيح هو إسحاق عليه السلام. درس الفراهي الفلسفة الحديثة في جامعة علي جره مع المستشرق الشهير توماس أرنولد وسافر إلى لكناو لتعلم العلوم الفكرية والنظرية. كان بارعاً في معرفة القرآن. أطلق عليه معاصروه اسم ترجمان القرآن. توفي الفراهي أثناء تلاوة القرآن في التاسع عشر من جمادى الثانية 1349هـ في مدينة ماثورا بشمال الهند. من بين مؤلفات الفراهي المنشورة،

هناك 21 عملاً باللغة العربية، وأربعة بالفارسية، واثنان باللغة الأردية، وواحد باللغة الإنجليزية. كما أنّ له أعمالاً مخطوطة، خمسة منها في مجال القرآن وعلومه، واثنان عشرة في مختلف المجالات. من أهم هذه المؤلفات، هي: إمعان في أقسام القرآن، ومفردات القرآن، وتفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، وجمهرة البلاغة.¹

3- القيم الأخلاقية في شعر الإمام الفراهي: في هذه الفقرة من البحث نعتد على "ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي المكنى بأبي أحمد الأنصاري" الذي جمعه وحققه أورتك زيب الأعظمي ونشره في مجلة الهند. سنبحث في الأشعار الموجودة ثم نبين الوصايا والتعليمات الأخلاقية ونشبعها بالتحليل والتوضيح.

3-1. ذكر الموت والابتعاد عن الغفلة: عندما يكون المرء غافلاً، فهو في الأساس يسير معصوب العينين عبر متاهة الحياة المعقدة، غير مدرك للمزالق والعقبات التي تنتظره. فهذا يحاكي إبحار سفينة بلا بوصلة أو خريطة، تنجرف بلا هدف في المياه الهاضجة. لا تشمل الغفلة عدم وعي المرء بما يحيط به فحسب، بل تشمل أيضاً الفشل في فهم نفسه بشكل كامل. إنه الجهل الذي يعمينا عن إمكاناتنا، ويمنعنا من تحقيق هدفنا وشغفنا الحقيقي. وبدون هذا الوعي الذاتي، نصبح عرضة لاتخاذ خيارات لا تتوافق مع قيمنا وتطلعاتنا. علاوة على ذلك، فإن الغفلة تمتد إلى ما هو أبعد من مجرد اللحظة الحالية؛ ويتضمن تجاهل تجارب الماضي والعواقب المستقبلية. ومن خلال الفشل في التفكير في أفعالنا الماضية والتعلم منها، فإننا نخاطر بتكرار نفس الأخطاء مراراً وتكراراً. وبالمثل، من خلال إهمال النظر في النتائج المحتملة لقراراتنا الحالية، قد نعرض أنفسنا دون قصد لصعوبات مستقبلية. تطلعا سيرة الأمام الفراهي أنه عاش حياة العلم والزهد، لذلك بذل جلّ اهتمامه في سبيل توعية الناس ونشر الخير

¹ متقيان نيا، يوسف (2022م). الإمام الفراهي والرؤية المتجددة في تفسير القرآن (دراسة أسلوبية في تفسير نظام القرآن)، مجلة الهند، المجلد 11، العدد 4. صص 73-74

والمعارف الإسلامية، فمن هنا يحذرهم الغفلة ونسيان الآخرة والموت:

أَمَّا لِلنَّاسِ أَحْلَامٌ أَمْ هُمْ فِي السَّكْرِ نَوَامٌ
وَهُمْ وَرَادٌ حَوْضِ الْمَوْتِ أَصْرَامٌ فَأَصْرَامٌ
فَأَبَاءٌ وَأَبْنَاءٌ وَأَخْوَالٌ وَأَعْمَامٌ
وَإِخْوَانٌ وَخَلَّانٌ وَأَخْدَانٌ وَأَحْلَامٌ
فَخَانَتْهُمْ قَرَابَاتٌ وَأَنْسَابٌ وَأَرْحَامٌ¹

إمعان النظر في الآيات السابقة يكشف لنا مدى تأثير الفراهي بالتعاليم القرآنية فتراه في كل بيت يقتبس مفهوماً قرآنياً ليضمّنه الفكرة التي يريد إيصالها للقارئ. يلفت الإمام الفراهي انتباه القارئ باستخدامه ثنائية ضدية في مطلع شعرية فيضع الحلم أما الوهم والسكر. لأنّ الحلم لغوياً هو العقل. جاء في القرآن الكريم: "أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُهُمْ". أي: عقولهم وقد يُقَابَلُ به الجهل والسفاهة. قال زهير: وإن سفاهة الشيخ لا حلم بعده². والسكر يأتي في نقيض ذلك وهي حالة تصيب الناس فتنسبهم أهدافهم السامية وطموحهم العالية. ومنه: سُكْرُ الشَّابِّ، وَسُكْرُ الْمَالِ، وَسُكْرُ السُّلْطَانِ³. وكأنّ الفراهي يتعجب من الناس الذين ينسون الموت ويغفلون عنه، فيتساءل أما لهم عقول يفكرون بها أم أخذتهم سكرة النوم والجهل فباتوا غير مدركين ما هم عليه. ثم

¹ الأعظمي، أورك زيب (2019م). ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي المكنى بأبي أحمد الأنصاري، مجلة الهند، المجلد 8، العدد 2، صص 351-352

² شرتوني، سعيد (1416). أقرب الموارد في فصيح العربية و الشوارد، ج1، تهران: منظمة الاوقاف والشؤون الخيرية، دار الأسوة للطباعة و النشر. ص 711

³ ابن سيده، علي بن إسماعيل، وهنداوي، عبد الحميد (2000م). المحكم والمحيط الأعظم، ج6، بيروت: دار الكتب العلمية. ص 711

يعقب الفراهي بقوله أنّ الموت تشبه الشريعة والمنهل فلا بد أن يردّها جميع الناس جماعات جماعات. في ذلك الحين سيدرك الإنسان نفسه وحيداً ليس له صاحبة ولا معين. حيث يقول الله في محكم كتابه في سورة عبس: "يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِ ۝ وَأَبِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ ۝ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝". يأتي الشاعر بأهم الأسباب التي من الممكن أن تشتت الإنسان وتنسيه الموت والخالق، فكل ما ذكر من آباء وأبناء وأصحاب وطموح لا بد أن تعين الإنسان على معرفة الرب والاتصال به؛ أما إذا كانت غير ذلك فستصبح مصدراً للحسرة والتوجع. جاء في تفسير هذه الآيات المباركة "إشارة إلى شدة اليوم فالذين عدوا من أقرباء الإنسان وأخصائه هم الذين كان يأوي إليهم ويأنس بهم ويتخذهم أعضاءً وأنصاراً يلوذ بهم في الدنيا لكنه يفرّ منهم يوم القيامة لما أنّ الشدة أحاطت به بحيث لا تدعه يشتغل بغيره ويعتني بما سواه كائناً من كان فالبلبلّة إذا عظمت واشتدّت وأطلّت على الإنسان جذبته إلى نفسها وصرفته عن كل شيء".¹

بعد ذلك يصف الشاعر حالة المجتمع الذي يعيش فيه ويحاول أن يوقظهم من نوم الغفلة. فيستخدم الموت كحل أنجع لزوال غبار الغفلة والنسيان. يشعر الشاعر بالحيرة من السعي الدؤوب وراء الممتلكات والملذات الدنيوية التي يبدو أنها تستهلك حياة الناس. ويلاحظ كيف يتمسك الأفراد بلا كل بحبل العالم، متمسكين بشدة بكنوزهم كما لو أنّ وجودهم كله يعتمد عليه. ومع ذلك، في هذه المطاردة المتواصلة للثروة المادية والرغبات الأرضية، يفشلون في إدراك الجوهر الحقيقي للحياة. من الواضح بالنسبة للشاعر أنّ أفضل الأمتعة التي يمكن للمرء أن يحملها في هذه الرحلة المسماة الحياة لا تتكون من ممتلكات مادية أو متع عابرة. بل يكمن في تنمية التقوى الإلهية

1 الطباطبائي، محمد حسين (1974م). الميزان في تفسير القرآن، ج 20، مؤسسة الأعلي للمطبوعات - بيروت - لبنان. ص 210

في النفس. ويستمد نظرتة هذه من سورة لقمان الآية 33 حيث يقول الله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ" (٣٣). هذا الارتباط الروحي مع قوة أعلى يتجاوز الطبيعة المؤقتة للمساعي الدنيوية ويوفر إحساساً بالإنتاج لا يمكن العثور عليه في أي مكان آخر. يتأمل الشاعر كيف يتجاهل الناس في كثير من الأحيان أهمية رعاية أرواحهم والتركيز على أمور تتجاوز هذا العالم العابر. ويصبحون منشغلين جداً بإشباع رغباتهم المباشرة لدرجة أنهم يهملون الاستعداد لما هو أبعد من ذلك - الحياة الآخرة. ويضيف قائلاً بنبهته الوعظية:

حَبْلُ	الْمَوْتِ	مَمْدُودٌ	وَحَبْلُ	الْعَيْشِ	أَرَمَامُ
وَهُمْ	بِاللَّهِوِ	وَاللَّذَا	تِ	مَشْغُولُونَ	مَا دَامُوا
يَجْمَعُ	الْوَفْرِ	مَنْهُمُو	نَ	وَالْآثَامُ	هِيَامُ
لَهُمْ	بِالْبَغْيِ	تَهَمَامُ	وَبِالْفَحْشَاءِ		إِبْرَامُ
وَهُمْ	لَا بُدَّ	مَحْشُورُو	نَ	يَوْمًا	وَهُوَ أَيَّامُ
عَنِ	النَّعْمَاءِ	مَسْئُولُو	نَ	وَالسَّائِلُ	عَلَامُ ¹

يصور الفراهي حالة الذي نسي الموت وغفل عن الآخرة وأخذته الدنيا بزخارفها ومتعتها. والغرض من هذا التحذير ليس زرع الخوف أو اليأس في قلوب الناس. بل هو بمثابة التذكير بطبيعة هذا العالم العابرة وأهمية الاستعداد للحياة الأبدية التي تنتظرنا. تسلط كلمات الشاعر الضوء على حتمية الموت وحقيقة أن كل عمل نقوم به في هذا العالم له عواقب تتجاوز وجودنا الأرضي. ويؤكد أنه لا نهاية لعملنا إلا

¹ الأعظمي، المصدر نفسه، ص 353

يوم القيامة، حيث سيشهد الجميع نتيجة أعمالهم. إن ذكر ملك الموت المنتظر لأمر الله يذكرنا بأن زمننا على الأرض محدود وأنه لا ينبغي لنا أن نخدع بوهم الخلود. إنه بمثابة الدعوة للاستيقاظ لتحديد أولويات أعمالنا والسعي لتحقيق البر قبل فوات الأوان. ويحذر الإمام الفراهي كذلك من الانجراف وراء الرغبات والارتباطات الدنيوية، لأنها يمكن أن تضلنا عن هدفنا الحقيقي. والكلام قريب من خطبة الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة حين قال: "فَإِنَّهُ وَاللَّهِ الْجِدُّ لَا اللَّعْبُ، وَالْحَقُّ لَا الْكَذِبُ وَمَا هُوَ إِلَّا الْمَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيهِ وَأَعَجَلَ حَادِيهِ"¹. ثم يضيف «فَلَا يَغُرَّنَّكَ سَوَادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ، وَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ وَحَذَرَ الْأَقْلَالِ، وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ، طُولَ أَمَلٍ وَاسْتَبْعَادَ أَجَلٍ، كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَارْجِعْهُ عَنْ وَطَنِهِ، وَأَخْذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ»². فهذا الموت الذي تفرون منه هو قريب منكم. يتبين مما ذكرناه أن الفراهي يحث الناس على تذكر الموت والاتعاد عن الغفلة. وهو بذلك يوظف المفاهيم الإسلامية والقرآنية حتى يصل إلى قلب المتلقي ويدغدغ مشاعر القارئ. علاوة على ذلك فإن ثقافته الإسلامية العالية تساعده على طرح الموضوع بروح علمية وفنية.

جدير بالذكر أن الفراهي يحذر من تقلبات الدنيا وتحولها، فهي لا تدوم على حال من الأحوال. كما عبر عن ذلك الإمام علي عليه السلام بقوله: "الدَّهْرُ يَوْمَانِ يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ فَإِنْ كَانَ لَكَ فَلَا تَبْطُرْ وَإِنْ كَانَ عَلَيْكَ فَاصْبِرْ فَكِلَاهُمَا عَنْكَ يَمِضُ"³. فعلى الإنسان أن لا يغتر بماله وثروته إذا كان غنياً. ولا يقنط من رحمة الله إذا كان فقيراً. فهذه سنة الحياة لا تقف على حد بل تراها متغيرة متقلبة. يقول الفراهي:

العَيْشُ إِحْلَاءُ وَإِمْرَارُ والدَّهْرُ إِقْبَالُ وَإِدْبَارُ

¹ فيض الإسلام، سيد علي نقی (1326ش)، ترجمة وشرح نهج البلاغة، تهران: آذربادگان. الخطبة 123

² فيض الإسلام، المصدر نفسه. الخطبة 123

³ كراجکی، محمد بن علي، ونعمه، عبد الله (1410ق). كنز الفوائد، ج 1، قم: دار الذخائر. ص 61

بَيْنَا الْفَتَى يَرْفُلُ فِي ثَرْوَةٍ إِذْ نَابَهُ بُؤْسٌ وَأَقْتَارُ
وَكَمْ رَخِيَّ الْعَيْشِ فِي قَصْرِهِ يَفْغَمُهُ مِسْكٌ وَأَزْهَارُ
إِذْ رُفِعَ النَّعْشُ لَهُ بَعْتَةً فَضَمَّهُ تَرْبٌ وَأَحْجَارُ¹

إن تقلبات هذا العالم لا يمكن إنكارها. يحمل كل يوم تحدياته الجديدة ومنعطفاته غير المتوقعة. وفي خضم هذه الزوبعة، كثيراً ما ننسى الحياة الآخرة. يختلف مفهوم الحياة الآخرة باختلاف الثقافات والأديان، لكنه يشير بشكل عام إلى عالم أو وجود خارج حياتنا الأرضية. إنه الاعتقاد بأن هناك شيئاً في وجودنا أكثر من مجرد الوقت المحدود الذي نقضيه على هذا الكوكب. إن نسيان الحياة الآخرة يمكن أن يكون له عواقب وخيمة على الطريقة التي نعيش بها حياتنا. عندما نركز فقط على تقلبات هذا العالم، نصبح مستهلكين في المساعي المادية، والإشباع الفوري، والمكاسب قصيرة المدى. نحن نعطي الأولوية للثروة والقوة والنجاح بأي ثمن، وغالباً ما نهمل علاقاتنا وقيمنا ونفوسنا الشخصية. من هنا يسعى الشاعر أن ينبه المتلقي بأن أحوال الدنيا ليست ثابتة بل ستمتها التغيير والتحول. فالسعيد هو من يوظف الدنيا في سبيل السعادة الأخروية.

2-3. التحلي بالعلم والتخلي عن الجهل: معرفة الذات والعالم الذي يحيط بنا، أو بمعنى آخر الوعي الذاتي والوعي بالآخر، تعد من أهم خصائص الإنسان. بالوعي الذاتي، يستطيع الإنسان أن يعرف أشياء أخرى، ويتقرب إلى الله زلفى. وقد ورد الكثير في أهمية العلم والحث عليه في تراثنا الإسلامي حيث قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَطْلُبُ فِيهِ عِلْماً، سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضاً بِهِ، وَإِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لَطَالِبِ الْعِلْمِ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ فِي

¹ الأعظمي، المصدر نفسه، ص 355-356

الأَرْضِ حَتَّى الْخُوتِ فِي الْبَحْرِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ
النُّجُومِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَمًا،
وَلَكِنْ وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ مِنْهُ، أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ¹. فكما أنَّ للعقل والمعرفة آثاراً
قيّمة على الإنسان، والتعلم عمل ذو قيمة أخلاقية إيجابية، فإنَّ الجهل والغباء لهما
أضرار لا يمكن إصلاحها، وتجنب الجهل واجب أخلاقياً. ويروي القرآن الكريم
عن الكفار أنهم عندما يرون عذاب جهنم ويرون لهيب نار جهنم قالوا في أنفسهم:
"وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ" ².

من هنا يحاول الفراهي أن يخرج الأمة من لجة الجهل وينير طريقها بنور العلم
والمعرفة. ومن منطلق الإسلام والروح الدينية التي تربي عليها، يرى أنَّ أفضل هادٍ
ومرشد للأمة الإسلامية هو القرآن الكريم.

مَا أَلْبَغَ الْقُرْآنُ مِنْ دَاعٍ لَوْ كَانَ فِيكُمْ سَامِعٌ وَاعٍ
كَمْ حِكْمَةٍ فِيهِ وَكَمْ مَثَلٍ لِلنَّصِاحِ وَالتَّفَكُّيرِ جَمَاعٍ
يُعْمَى بِهِ الْغَاوِي وَيُهْدَى بِهِ عَبْدٌ عَلَى نَهْجِ الْهُدَى سَاعٍ³

القرآن هدى للناس، وشفاء لقلوبهم، ونور يكسر الظلمات. إن وضوح القرآن المتدفق
لن يرضي أهل عصر نزوله فحسب، بل سيشتع أيضاً الكثير من المتعطشين للمعرفة
والنور إلى الأبد. إنَّ هدي القرآن الكريم يرشد الناس من ظلمات الجهل والضلال
والكفر والشرك والنفاق والفجور والجشع إلى نور المعرفة والحقيقة والرخاء والإيمان
والتوحيد والخضوع والأخلاق والروحانية والصحة. لذلك يرى الفراهي أنَّ لا سبيل

¹ الكليني، محمد بن يعقوب (1387ش). الكافي، ج 1، قم: دار الحديث. ص 83

² سورة الملك، الآية: 10

³ الأعظمي، المصدر نفسه. ص 358-359

للتخلص من الجهل إلى التمسك بنهج القرآن وتعاليمه. لأنّ القرآن، باعتباره كتاباً إلهياً، يتمتع بقدرة هائلة على تغيير الأفراد والمجتمعات على حد سواء. ولا يقتصر توجيهها على وقت أو مكان محدد، بل يتجاوز الحدود ويتردد صداها مع الناس عبر الأجيال. في عالم يعاني من الارتباك والتشويش، يكون القرآن بمثابة منارة للنور، تنير الطريق نحو الصلاح والتنوير. إنه يبدد ظلام الجهل بنقل المعرفة والفهم. فمن خلال تعاليمه يستطيع الأفراد تمييز الحق من الباطل، والتمييز بين الصواب والخطأ. علاوة على ذلك، يتناول القرآن جوانب مختلفة من الوجود الإنساني، بما في ذلك الروحية والأخلاق والعدالة الاجتماعية والتنمية الشخصية. يقدم إرشادات شاملة تشمل جميع جوانب الحياة. ومن خلال الالتزام بمبادئه، يتم توجيه الأفراد نحو السلوك الفاضل والسلوك الأخلاقي.

3-3. إتباع العقل والفكر: العقل كالنور يضيء أعماق القلب فيمكنه من إدراك وفهم العالم من حولنا. ومن خلال هذا التفاعل بين العقل والقلب نكتسب المعرفة والفهم والحكمة. مثلما يكشف الضوء عن تفاصيل مخفية في الظلام، فإنّ العقل يضيء الوضوح على أفكارنا وعواطفنا. فهو يسمح لنا بالتحليل والتفكير وفهم تعقيدات الحياة. وبدون ضوء العقل المرشد، ستظل تصوراتنا غامضة، وتتركنا ضائعين في بحر من الارتباك. من هنا قيل: "العقل نور يُقَدَّف في القلب فيستعدّ لإدراك الأشياء، وهو من العلوم الضرورية"¹. علاوة على ذلك، فإنّ العقل ليس مصدراً للإضاءة فحسب، بل هو أيضاً علم في حد ذاته. ويشمل مختلف التخصصات مثل علم النفس وعلم الأعصاب والفلسفة والعلوم المعرفية. من خلال مجالات الدراسة هذه، نتعمق في عمل العقل - تعقيداته وقدراته وقيوده. من خلال استكشاف هذه العلوم، نفتح رؤى عميقة حول السلوك البشري، والوعي، وتكوين الذاكرة، وعمليات صنع القرار،

¹ مرتضى الزبيدي، محمد بن محمد (1994م). تاج العروس من جواهر القاموس، ج15، بيروت-

لبنان: دار الفكر. ص 505

وأكثر من ذلك بكثير. يقول الفراهي:

سِرْ مَعَ الْعَقْلِ أَيْمًا سَارًا دُرْ مَعَ الْحَقِّ حَيْثُمَا دَارًا
لَا تَهْوُلَنَّكَ لَيْلَةٌ عَكِرَتْ إِنَّ بَعْدَ الظَّلَامِ أَنْوَارًا
إِنَّ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَفِي الشَّمْسِ وَالنَّيِّرَاتِ تَذْكَارًا¹

العقل يرشد الإنسان إلى طريق الهداية من خلال توفير الإطار المنطقي والعقلاني لاتخاذ القرار. فهو يسمح للأفراد بتحليل المواقف بشكل نقدي، ووزن الخيارات المختلفة، واتخاذ خيارات مستنيرة بناءً على الأدلة والحكم السليم. عندما يتم تطبيق العقل على مسائل الأخلاق والأخلاق، فإنه يساعد الأفراد على اجتياز المعضلات الأخلاقية المعقدة من خلال النظر في عواقب أفعالهم والمبادئ التي تقوم عليها. العقل يمكن الأفراد من التمييز بين الصواب والخطأ، ويساعدهم على مواءمة سلوكهم مع المعايير الأخلاقية التي تعزز العدالة والإنصاف والرحمة. علاوة على ذلك، فإن العقل يمكن الأفراد من التشكيك في المعتقدات والتقاليد والأعراف المجتمعية القائمة. ويشجعهم على طلب المعرفة واستكشاف الأفكار الجديدة وتحدي العقائد التي قد تعيق النمو الشخصي أو التقدم المجتمعي. وباستخدام العقل كمبدأ توجيهي، يستطيع الأفراد أن يتحرروا من قيود الجهل أو الالتزام الأعمى بأيديولوجيات عفا عليها الزمن. يلعب العقل أيضاً دوراً حاسماً في تعزيز التعاطف والتفاهم بين الأشخاص من خلفيات متنوعة، فهو يسمح للأفراد بوضع أنفسهم في مكان الآخرين، والنظر في وجهات نظر مختلفة. لذلك ينصح الفراهي الجميع باتباع العقل وإرشاداته لأنه المنجى من هول الجهل والظلام.

3-4. التحذير من ملذات الدنيا الفانية: يميل الإنسان بطبيعته نحو المتعة والراحة، وهو ما يرتبط بالهروب من الألم والمعاناة. إن كدمات الطبيعة البشرية هي تذكير بضعفنا وقدرتنا

¹ الأعظمي، المصدر نفسه، ص 399

على الشعور بالألم والمتعة. إنها بمثابة تذكير دائم بأن الحياة ليست دائماً سلسلة، ولكن من خلال هذه الصدمات تتعلم ونمو. المتعة والراحة لحظات عابرة تجلب لنا سعادة مؤقتة. إنها توفر الراحة من مصاعب الحياة، وتسمح لنا بالهروب من الواقع للحظات. ومع ذلك، فمن المهم أن ندرك أن الإنجاز الحقيقي يكمن وراء هذه المتع العابرة. يشير المعنى القطري إلى الغرض أو الأهمية المتأصلة الموجودة داخل كل فرد. إنه شعور عميق بالهدف الذي يدفعنا إلى الأمام، ويحثنا على البحث عن الفرح والوفاء في جميع جوانب الحياة. وهذا المعنى القطري ينمو بداخلنا عندما نشعر بالمتعة والفرح، مما يدفعنا نحو فهم أعمق لأنفسنا وللعالم من حولنا. فالفراهي يحذرنا من الغرق في ملذات الدنيا ويعرفنا الدنيا على النحو التالي:

يَا بُؤْسَ الدُّنْيَا شَقِيًّا سَعِيدُهَا فَيَا وَيْلُ مَنْ يَسْعَى لَهَا يَسْتَزِيدُهَا
فَلَا يَرْجِعَنَّ إِلَّا إِلَى الضَّرِّ نَفْعُهَا وَلَا يَرْجِعَنَّ إِلَّا إِلَى الشَّحِّ جُودُهَا
فَسَيَّانٍ عِنْدِي عَدَمُهَا وَوُجُودُهَا وَصَنَوَانٍ عِنْدِي وَصْلُهَا وَصُدُودُهَا¹

الدنيا هي الحياة الحاضرة. ويقال: هو يعيش في دنيا الأحلام، ودنيا السرور.² يصور الفراهي نفسه من العارفين الذين تركوا الدنيا وطلقوها، لأن الدنيا عند العارفين ليست "عبارة عن الجاه والمال فقط بل هما حظان من حظوظهما، وإنما الدنيا عبارة عن حالتك قبل الموت كما أن الآخرة عبارة عن حالتك بعد الموت، وكل ما لك فيه حظ قبل الموت فهو دنياك، وليعلم الناظر أن الدنيا خلقت للهروب منها إلى الآخرة، وأنها مزرعة الآخرة في حق من عرفها، إذ يعرف أنها من منازل السائرين إلى الله".³ فهو يرى أن السعادة المثلى

¹ الأعظمي، المصدر نفسه. ص 400

² نجار، محمد علي، مصطفى، إبراهيم، زيات، أحمد حسن، وعبد القادر، حامد (1989). المعجم الوسيط، ج1، استانبول- تركيا: دار الدعوة. ص 299

³ طريحي، نغرا دين بن محمد، وحسيني أشكوري، أحمد (1375). مجمع البحرين، ج1، تهران: مكتبة المرتضوية. ص 2

والحقيقية هي السعادة الأخروية والدنيا دار زوال واضمحلال لا جودها جودٌ ولا كرمها كرم، من هنا يكون وجودها وعدمها عنده سواء. فهي لغوياً "مؤنث من الأدنى والأدنى" يحتمل أن يكون من الدنو لقربها من الناس والأخرى لتأخرها عنها ومن ثم قال بعض الصوفية الدنيا مادنا من قلبك فشغلك عن ربك وقال عز من قائل إذ هم بالعدوة الدنيا أي القربى وأن يكون من الدنيء المهموز ولين همزه والدنى الدون السفلة وسميت دنيا لدناءتها وتسفلها وقيل لميلها إلى السفلى والأدوان".¹ بهذه الصورة يحاول الشاعر أن يحذرنا من هذه الملذات الزائفة حتى لا نصير ضحية الطمع والجشع. وأن نسعى وراء الهدف الأسنى وهو الوصول إلى السعادة الأخروية والرضوان الحقيقي. ولا شك أن العاقل هو الذي يجهز نفسه دائماً للآخرة وينتقل من الدنيا إلى منزله الأبدى ويوفر أمتعة مناسبة لها، لأن الموت يأتي بغتة ولا يعلم الإنسان متى يذهب من الدنيا إلى الآخرة. وتجدر الإشارة إلى أن الحكيم لن يجد نفسه في مأمن من الموت وسيستعد للرحلة إلى الآخرة.

النتائج: زودت التعاليم الأخلاقية والروحية الأفراد على مرّ التاريخ، ببوصلة أخلاقية، ووجهتهم نحو الأفعال الفاضلة وساعدتهم على اجتياز المعضلات الأخلاقية المعقدة. علاوة على ذلك، توفر القيم الروحية فهماً عميقاً للترابط بين جميع الكائنات الحية والبيئة. إنهم يعلموننا أن ندرك مسؤوليتنا تجاه الكوكب وموارده. الإمام الفراهي من العلماء الذين عكسوا القيم الأخلاقية والروحية في أشعاره بطريقة فنية. وقد صور قيماً مثل ذكر الموت والابتعاد عن الغفلة والتحليّ بالعلم والتخلي عن الجهل واتباع العقل والفكر والتحذير من ملذات الدنيا الفانية. انمزجت هذه القيم بالمعتقدات والموضوعات الدينية الإسلامية والقرآنية وهذا يدل على ثقافة الفراهي العالية وسلوكه الإسلامي. من هنا نرى نشأة القصائد عند الفراهي ترتبط غالباً بمعرفته الإسلامية وعلومه القرآنية. فالشاعر بفهمه العميق للعالم الفاني يتعرف على طبيعته العابرة وما يقدمه من أوهام. إنه يرى

¹ عطاردي قوجاني، عزيز الله (1375). شرح نهج البلاغة، قم: عطاردي. ص 1

من خلال حجاب المادية والرغبات السطحية التي تربط البشرية، ويدرك أنّ الإنجاز الحقيقي يكمن وراء هذه المساعي الأرضية. في سعيه إلى الحياة الآخرة، يتجاوز الفراهي القيود التي يفرضها هذا العالم الخادع. فهو يسعى إلى تحرير نفسه من تشابكاتها، ليس بالانسحاب منها كلياً، بل بالتعامل مع تعقيداتها بمنظور منفصل. يصبح مراقباً، مدرّكاً تماماً للطبيعة العابرة للملذات والممتلكات الدنيوية.

فهرس المصادر

1. القرآن الكريم
2. ابن اثير، مبارك بن محمد (1367ش). النهاية في غريب الحديث والأثر، ج2، قم: اسماعيليان.
3. ابن سيده، علي بن إسماعيل، وهنداوي، عبد الحميد (2000م). المحكم والمحيط الأعظم، ج6، بيروت: دار الكتب العلمية.
4. الأعظمي، أورنك زيب (2019م). ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي المكتني بأبي أحمد الأنصاري، مجلة الهند، المجلد 8، العدد 2.
5. شرتوني، سعيد (1416). أقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد، ج1، تهران: منظمة الأوقاف والشؤون الخيرية، دار الأسوة للطباعة والنشر.
6. الطباطبائي، محمد حسين (1974م). الميزان في تفسير القرآن، ج 20، بيروت: مؤسسة الأعلي للمطبوعات.
7. طريحي، نضر الدين بن محمد، وحسيني أشكوري، أحمد (1375). مجمع البحرين، ج1، تهران: مكتبة المرتضوية.
8. عطاردي قوچاني، عزيز الله (1375). شرح نهج البلاغة، قم: عطاردي.
9. فيض الإسلام، سيد علي نقوي (1326ش)، ترجمة وشرح نهج البلاغة، تهران: آذربادگان.
10. كراجكي، محمد بن علي، ونعمه، عبد الله (1410ق). كنز الفوائد، ج 1، قم: دار الذخائر.
11. الكليني، محمد بن يعقوب (1387ش). الكافي، ج1، قم: دار الحديث.

مجلة الهند . . . — انعكاس القيم الأخلاقية والروحية في شعر الإمام الفراهي

12. متقيان نيا، يوسف (2022م). الإمام الفراهي والرؤية المتجددة في تفسير القرآن (دراسة أسلوبية في تفسير نظام القرآن)، مجلة الهند، المجلد 11، العدد 4.
13. مرتضى الزبيدي، محمد بن محمد (1994م). تاج العروس من جواهر القاموس، ج 15، بيروت - لبنان: دار الفكر.
14. نجار، محمد علي، مصطفى، إبراهيم، زيات، أحمد حسن، وعبد القادر، حامد (1989). المعجم الوسيط، ج 1، استانبول - تركيا: دار الدعوة.

أثر القرآن الكريم في شعر الفراهي

- د. عامر الجراح¹

- د. محمد خالد الرهاوي²

المخلص: يدرس البحث أثر القرآن الكريم في شعر الإمام عبد الحميد الفراهي، مهد بإشكالية البحث، ثم قدم لمحة عن حياته؛ ليتبين السبب في نشأته الدينية، ثم تناول المبحث الأول الأثر الفني للقرآن الكريم فيه، والذي تجلّى في الاقتباس، وقد تبين أنه لجأ إلى الاقتباس الحرفي، الذي جاء قصيراً أحياناً، وطويلاً في أحيان أخرى، وإلى الاقتباس الذي غير فيه، وربما يكون التغيير يسيراً، إلى جانب الأشعار الأخرى التي جمع فيها ألفاظاً من القرآن. وتناول المبحث الثاني أثر القرآن في اختيار موضوعات ذات طابع ديني إسلامي، وجعلها في ثلاث شعب: أولاهما في تمجيد الله والقرآن، والثانية في الوعظ والتّحذير من الدّنيا، والثالثة في الحديث عن أشراط الساعة، ثم ختم بالنتائج.

الكلمات المفتاحية: أثر، القرآن، الاقتباس، شعر، الفراهي.

إشكالية البحث: تزخر شبه القارة الهندية بالشعراء والأدباء الذين نبغوا في الكتابة باللغة العربية بدءاً من هارون بن موسى الملتاني وأبي عطاء السندي ومروراً بمسعود اللاهوري وعبد المقتدر الكندي الدهلوي قديماً، ومن المتأخرين عبد الحي الحسني اللكنوي والد أبي الحسن الندوي، والشاعر المفلّق والأديب البارع فيض الحسن السهارنفوري، والإمام الفراهي، وغيرهم كثيرون، وربما لا يكفي مجلد كامل لفهرسة تضم أسماءهم وترجمة يسيرة لهم، لكن رغم هذه الكثرة والتميز الذي اتسمت به كثير

¹ أستاذ مساعد، معهد اللغات الحية، جامعة ماردين أرتقلو التركية، تركيا

² أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة قطر

من تجاربهم الشعرية لم ينالوا في عالمنا العربي من الدراسة والاهتمام ما هم أهل له، بل ربما كانت الغالبية العظمى منهم لم يُسمع بأسمائهم على جلالة قدرهم علماً وشعراً، ولست هنا في معرض الحديث عن تعدادهم أو تقديم إحصاءات بأسمائهم، ولا الحديث عن تجاربهم الشعرية، بل للحديث عن جانب واحد من شعر الإمام الفراهي الذي عايشته كتبه ولازمته سنوات طوَّالاً، ونشرت بعضاً منها ضمن سلسلة إحياء تراثه، وهو أثر القرآن الكريم في شعره.

عبد الحميد الفراهي، لمحة من حياته

هو الشَّاعِرُ والأديبُ اللغويُّ والعلَّامةُ المُفسِّرُ الإمامُ عبدُ الحميد بن عبد الكريم بن قربان قنبر بن تاج علي، حميد الدين، الفراهيُّ، نسبة إلى قريته "قَرِيْبًا" التي ولد فيها صباح يوم الأربعاء في السَّادِس من جمادى الآخرة عام 1280هـ، وهي من قرى مديرية أعظم كره التي هي تابعة للإقليم الشمالي من الهند، ويُسمَّى الآن ولاية أترابَراديش¹.

ولد الإمام عبد الحميد لأسرة كريمة ثرية، لها مكانتها الاجتماعية، إذ إنَّ أهله من وجهاء منطقته وأعيانها، ولهم أيضاً منزلةٌ علميةٌ، فقد كان ابنُ خالِ العلَّامة شبلي النُّعمانيِّ، كلُّ ذلك هيَّا له أن ينشأ في رخاء من العيش، وأن يتفرَّغ لطلب العلم، بدأ تعليمه أولاً بقراءة القرآن على يد المؤدِّب الشَّيخ أحمد علي، فحفظه وهو ابنُ عشر سنوات، ثمَّ تعلَّم اللُّغة الفارسيَّة في تسعة أشهر في منزله على يد مهدي حسن،² وبرع فيها إلى درجة أنَّه كتَبَ في السَّادسة عشر من عمره قصيدة باري فيها الشَّاعر الفارسيُّ المشهور خاقاني الشَّرواني (595هـ)، فأبدع فيها، فوقعت من العلماء والشُّعراء وغيرهم موقع الإعجاب والقبول، ثم بدأ وهو ابن أربعة عشر ربيعاً بتعلُّم علوم العربية على يد ابن عمِّته العلَّامة شبلي النُّعمانيِّ من نحوٍ وصرفٍ ولغةٍ وأدبٍ وفلسفةٍ

¹ شعر الإمام عبد الحميد الفراهي ص 15-16.

² نفسه، ص 17.

ومنطقي حتى برع فيها، وألف معظم كتبه باللغة العربية.

وفي هذه الفترة أيضًا تلقى الفقه من الفقيه المحدث الإمام أبي الحسنات عبد الحي الكنوي 1304هـ بعد انتقاله إلى مدينة لكناؤ، مدينة العلم في الهند آنذاك، كما أخذ عن رائد المعقولات في زمانه الشيخ فضل الله بن نعمة الله الأنصاري 1312هـ بعض كتب المعقولات.

ثم غادر لكناؤ إلى لاهور، وعاد إلى دراسة علوم العربية على يد الأديب البارع والشاعر المفلح آنذاك فيض الحسن السهارنفوري 1304هـ وبعض كتب المعقولات، فقرأ عليه المعلقات والحامسة وكثيراً من دواوين الشعراء الجاهليين حتى صار يقرض الشعر بالعربية.

انتقل بعد ذلك وهو ابن عشرين ربيعاً إلى تعلم اللغة الإنكليزية والعلوم الحديثة، فالتحق بثانوية كرنل غنج في مدينة الله آباد، ثم التحق بكلية علي كره، فدرس الفلسفة الحديثة على يد المستشرق الإنكليزي توماس أرنولد، وكذلك تعلم اللغة الإنكليزية فيها.

بدأ بعد ذلك بالتدريس في مدرسة الإسلام في كراتشي عاصمة السند معلماً للعربية والفارسية، واستمر فيها تسع سنوات، كتب فيها وألف، ونظم كثيراً من الأشعار، ثم اختير عام 1907م لتدريس العربية في كلية علي كره، وظل فيها أعواماً أيضاً، وكان المستشرق الألماني يوسف هارويز (1931م) أستاذ العربية في تلك الفترة، فاستكمل تعلم العربية على يدي الإمام الفراهي، وعلم الإمام الفراهي اللغة العبرية حتى صار ماهراً فيها متقناً لها يرجع إلى مصادرها مباشرة ولا سيما في بحوثه القرآنية، كما درس الحقوق مدة سنتين، ولم يكمل تحصيله فيها؛ لثفوره منها.¹

انتقل من كلية علي كره إلى حيدرآباد الدكن رئيساً لمدرسة دار العلوم العربية الأميرية

¹ انظر ترجمته لنفسه المنشورة في مجلة الهند، ص 46.

النظامية التي كانت تُخَرِّج قضاة البلاد وولاتها، ثم سعى جاهداً من أجل تأسيس الجامعة العثمانية التي تُدرِّس العلوم الدينية والعصرية باللغة الأوردية، فكان له ما أراد، كما أسَّس مدرسة عربية دينية قريبة من قريته سمَّاها "مدرسة الإصلاح" بهدف تدريس علوم القرآن والحديث والفقه بعيداً عن العصبية المذهبية، إضافة إلى تعليم اللغة العربية وعلومها بأساليب معاصرة وطرائق مختلفة عن الطرائق التقليدية غير النافعة، كما أسهم في تأسيس دار المُصنِّفين تذكراً للعلامة شبلي النعماني، وترأس لجنة المُدريين فيها.

انقطع إلى التأمل والتدبر في القرآن الكريم والنظر فيه مستفيداً مما تلقى من علوم دينية ولغوية وعقلية مُعملاً عقله وذوقه، ففتح الله عليه بتدبراته وأفكارٍ عظيمة جعلته يشعر بالندم على الوقت الذي أضاعه في غير تدبر القرآن، يقول في ترجمته لنفسه: "ولما كانت هذه المشاغل تمنعني عن التَّجَرُّد لمطالعة القرآن المجيد، ولا يعجبني غيره من الكتب التي ملئت النظر في أباطيلها غير متون الحديث وما يُعين على فهم القرآن = تركتُ الخدمة، ورجعتُ إلى وطني وأنا بين خمسين وستين من عمري، فيا أسفاً على عُمرٍ ضيَّعته في أشغالٍ ضررها أكبرُ من نفعها! ونسأل الله الخاتمة على الإيمان".¹

يعدُّ القرآن الكريم مصدراً أساسياً مُلهماً للشعراء ذوي التوجُّه الإسلاميِّ عموماً، انطلاقاً من توظيفهم الشعر في خدمة مبادئ دينهم ونشرها، ومن جانب آخر فإنَّ القرآن الكريم هو الكتاب الذي يُنشأ عليه معظم أبناء المسلمين والفراهي واحدٌ من بينهم، فقد حفظ القرآن الكريم وهو ابن عشر سنوات² وتتكون ذخيرتهم اللغوية المثالية من مفرداته وأصاليه وبيانه؛ لذلك لا غرو أن نجد أثره في كتاباتهم وأشعارهم، من دون إرادة منهم أو بها، وكذلك الحال بالنسبة لمن نشأ في بيئة سياسية أو اقتصادية أو فنية، فإنَّ مفردات المجال الذي نشأ فيه المرء لا يمكنه إلا أن يكون حاضراً في كلامه وكتاباته، ذلك أنَّ هذه

¹ ترجمة الفراهي لنفسه في مجلة الهند، ص ٤٧.

² شعر الإمام عبد الحميد الفراهي، ص 17.

المفردات والثقافة هي التي شكّلت ذخيرته اللغوية، وأسهمت في تكوينه العقلي وملكته اللسانية؛ ولهذا تجد أدوات الحرف في أشعار أهل الصنائع والمهن، وهذا ما سمّاه رومان جاكسون بالوظيفة المهيمنة،¹ وهي التي تطغى أو تبرز على ما سواها من الوظائف الأخرى المحتملة دون أن يعني هذا انعدام هذه الوظائف، بل تظل في النص لكن بنسب تواترية متفاوتة،⁷ وقد بدا أثر القرآن الكريم في موضوعات شعر الإمام عبد الحميد الفراهي ومضامينه، كما كان الاقتباس منه على مستويات عدة: اللفظ المفرد، والتركيب، والجملة، والمعاني، كما تنوع هذا الأثر بين الاقتباس الحرفي الكلي، والاقتباس الجزئي، وتختلف درجة التصرف في كل منهما، كما بدا الاقتباس طويلاً جداً أحياناً، وقصيراً أحياناً أخرى، وذلك حسب النص ومناسبته وموضوعه، وكلُّ منها كان له أثره في شعره؛ إجادَةً أو تكلفاً.

المبحث الأول: أثر القرآن الكريم الفني في شعر الفراهي

يتجلى الأثر الفني للقرآن الكريم في شعر الفراهي من خلال أسلوب الاقتباس، والاقتباس "أن يُضمّن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث لا على أنه منه"،² ونبيّن أنّ أحسن الاقتباس ما كان وجيزاً، يمرّ إلماحاً سريعاً، ولا سيّما إذا اقتصر على كلمة أو كلمتين بشرط أن تكون أو تكونا ذات حمولة معرفية كبيرة، أو ذات دلالات واسعة، ونشير هنا إلى الأساطير أو الأمثال التي تحتلّ مكاناً كبيراً من المعارف والدلالات في كلمات قلائل، وقد غاب ذلك من شعر الفراهي أو كاد، ونذكر من اقتباساته من القرآن الكريم حرفياً أو الاقتباسات التي غير فيها:

أولاً: الاقتباس الحرفي: وقد يكون قصيراً نحو قوله:³

(وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ) فليَحْتَمِسْ

¹ مباحث في اللسانيات، ص 76.

² نفسه، ص 76.

³ الإيضاح في علوم البلاغة، ص 575.

اقتبسه من سورة الحج الآية الأربعين، وكذلك قوله:¹

يا قومنا إن تصبروا يأتكم (نصر من الله وفتح قريب)

اقتبسه من سورة الصف الآية الثالثة عشرة، وقد يكون الاقتباس طويلاً نحو قوله:²

فمثل الإيمان يلعب في قلب سليم للفتى راع
مثل سراج في زجاج كمثل الكوكب الدرّي الماع
في وسط مشكاة ويوقد من زيتونة في خير إقطاع
من البلاد لا بشرقية ولا بغربية أصقاع
كاد يضيء زيتها قبل أن تمشه النار لأشعاع
نور على نور ومن يهده الله له يهتد بإسراع

اقتبسه من الآية "اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ
الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيُّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ
لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ تُونُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي
اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (٣٥).

(سورة النور: 35)، وكذلك قوله:³

ومثل الكفار أعمالهم كيلج رقق بالقاع
يحسبه الظمان ماء فياً تيه باهراع وايضاع
حتى إذا ما جاءه لم يجد شيئاً سويّاً غير خداع
ووجد الله لديه فوق فاه جزاء الصاع بالصاع

¹ شعر الفراهي، ص 106.

² نفسه، ص 118

³ نفسه، ص 101-102

ومثلُ الكُفْرِ عَمَائِيهِ غَطَّتْ عَلَى قَلْبٍ وَأَسْمَاعِ
كظلماتِ البحرِ هاجتْ بِهِ أَلْ أَرْوَاحُ مِنْ هَوَجَاءِ زَعَزَاعِ
يَقْمِصُ بِالْفُلْكِ عَلَى لُجَّةِ دَفَاعُ مَوْجٍ بَعْدَ دَفَاعِ
فِي لَيْلَةٍ سَحْمَاءٍ قَدْ غَمَّهَا جَمَاعُ غَيْمٍ فَوْقَ جَمَاعِ
فَالْجُوْ فِي ظُلْمَاءٍ حَالِكَةٍ وَالْقَلْبُ فِي الْغَمَاءِ وَالْهَاعِ
قَدْ مَطَّتِ الظُّلُمَةُ أَطْرَافَهَا وَالطَّرْفُ لَا يَمْطُو مَدَى الْبَاعِ
مِنْ أَخْرَجَ الْكَفَّ لِيَصْرَهَا لَمْ يَرَهَا مَا ذَا بِمُسْطَاعِ
فَظْلَمَاتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ طُبِقَتْ لَيْسَتْ بِشَعْشَاعِ

مقتبس من الآيتين "وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَقَّعَهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾".
(النور: 39-40)، ونجد هذا التطويل قد دفع الشاعر إلى التكلف في سعيه للحفاظ على ألفاظ الآيات ما استطاع، فهذا نموذجٌ حيٌّ على أنَّ تطويل الاقتباس والالتزام بحرفيته ممَّا يفقد الشعر جماله وفنيته.

ثانياً: الاقتباس الذي غيّر فيه: وقد يكون التغيير يسيراً نحو قوله:¹

أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ الْأَفْضَالِ الْغَافِرِ الذَّنْبِ الشَّدِيدِ الْأَنْكَالِ
أخذه من قوله تعالى: "غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ". (سورة غافر: 3)،
فغيّر، فجعل الأنكال بدلاً من العقاب، وهذا تغيير يسير، وقد يكون التغيير كبيراً

¹ نفسه، ص 102-103

واضحاً نحو قوله:¹

عن النعماء مسؤولو ن والسائلُ علّامُ
اقتبسه من قوله تعالى: "ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ". (سورة التكاثر: 8)، ومن ذلك قوله:²

فدمرها وسبي أهلها وما كان إلا كلمج البصر
من قوله تعالى: "وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلَمَجٍ بِالْبَصْرِ". (سورة القمر: 50)، فوظف ذلك للتعبير عن شدة التدمير وسرعته.

وثمة أشعار أخرى جمعت ألفاظاً من القرآن ومن الشعر، ولا سيما الاقتباس غير الحرفي، من ذلك قوله في وصف الليل:³

وليلي خُداري بهيمٌ سُدُولُهُ منوطٌ بيومٍ قَطَرٍ عَبُوسٍ
فأخذه من بيت امرئ القيس الشهير:⁴

وليلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أُرْحَى سُدُولُهُ عَلَيَّ بأنواع الهموم لِيَتَلَي
والملاحظ أنّ الفراهي في بيته المذكور آتفاً اقتبس من قول امرئ القيس ومن الآية: "إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا" (سورة الإنسان: 10)، وهو توظيف جيد وزيادة على تصوير امرئ القيس.

وثمة كلمات استمدّها الشاعر من القرآن الكريم، والكلمات القرآنية كثيرة، ونجد أنّ

¹ نفسه، ص 95

² نفسه، ص 98

³ نفسه، ص 126

⁴ نفسه، ص 128

الشاعر يختار كلمات ويوردها في سياقات تتناسب مع ورودها في سياقات أخرى مماثلة سواء كانت السياقات قرآنية أم كانت غير ذلك، وهو كثير في شعره، ويتخذ من الاستدعاء وسيلة لربط الكلمات القرآنية التي خالف فيها تركيب القرآن الكريم ونذكر من ذلك قوله:¹

أعوذُ بالله العظيم الأفضالُ الغافرِ الذنبِ الشديدِ الأنكالِ
من همزاتِ النفس ذاتِ الإيغالِ ونفثاتِ كلِّ باغٍ مُحْتالِ
إنَّ قوله: (غافر الذنب) استدعى في ذهنه (شديد الأنكال)، وذلك من قوله تعالى: "غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ". (سورة غافر: 3)، وقوله: (همزاتِ النفس) استدعى (نفثات الشيطان)، والآيات في ذلك كثيرة، وقد اجتمعت في سورة الفلق؛ يقول تعالى: "وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِنْ شَرِّ اللَّفَّاعَتِ فِي الْعُقَدِ" (سورة الفلق: 4-5)، فالحسد همزة من همزات النفس، بل هو أخطرهما، والنفثات في العقد هنّ الساحرات، والنفث يكون من شياطين الجنّ ومن تابعيهم من سحرة الإنس، وفي النهاية كلُّ باغٍ ومُحتالٍ. ومن الاستدعاءات التي أحدثت تناسباً بين الكلمات:²

فالآن يا إخوانُ ما بالكم قد مسكم من الجهاد لُغُوبُ
فكلمة "لغوب" بمعنى الإعياء والتعب استدعت الفعل "مس"، وذلك من قوله تعالى: "وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ". (سورة ق: 38)

ومن تشبيهاته البديعة كذلك حديثه في قصيدته الوجدانية عن بيان حال الناس

¹ ديوان امرئ القيس، ص 18

² شعر الفراهي، ص 95

بأسلوب وعظي مؤثر في قوله:¹

وما النَّاسُ إِلَّا مِثْلُ زَرْعٍ وَشَطْئِهِ سَيِّمِدُ يَوْمًا كَالْحَصِيدِ الْيَبِيسِ
فصورة فناء الناس هذه بناها على تشبيه الناس بالزراع وفنائهم بمحصاده، وعلى المناسبة
بين الزرع والشطء والهمود والحصيد اليبس، وعلى الاقتباس من القرآن الكريم،
فأخذ اللفظ من قوله تعالى في وصف النبي صلى الله عليه وسلم والذين معه: "وَمَثَلُهُمْ
فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَكَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ". (سورة
الفتح: 29)، ومن قوله تعالى: "فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا
خَمِيدِينَ". (سورة الأنبياء: 15)، وأخذ المعنى من قوله تعالى: "وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلِ
الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ
الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا". (سورة الكهف: 45)، واختار تركيب
الحصر للتوكيد والتخصيص، نخرج من كذلك بصورة بديعة.

المبحث الثاني: أثر القرآن في اختيار موضوعات شعر الفراهي

كان الإمام الفراهي شاعراً وفيّاً لمبادئه في الدعوة إلى بلاغة أخلاقية كما يرى القارئ في
كتابه "جمهرة البلاغة"،² فقد كان كلامه في أشعاره يتركز حول الدعوة ووصف
الأحوال وما شابه ذلك من الموضوعات التي المهمة التي لم تخرج عن مقاصد الشاعر
ذات الطابع الأخلاقي، فإن وجدنا في قصيدته "ذكرى الأيام"³ ذكراً للصباح والخمر
فإن ذلك من قبيل تقليد الشعر الجاهلي الذي تعمق فيه الشاعر، فالشعر الجاهلي يعدّ
أساس الشعر العربي، وهو النموذج الأمثل الذي ينبغي أن يُحتذى، وكان تعمقه فيه إثر

¹ نفسه، ص 118

² نفسه، ص 106

³ صدر بتحقيقنا عن دار سنابل في إسطنبول، 2019م.

رحلته في شرح (مفردات القرآن) وتفسيره،¹ ونستشف من أشعاره حضور موضوعات هادفة تتعلق بموقف الشاعر من الأحداث التاريخية في زمانه، وبالذعوة إلى التفاؤل، واستشراف المستقبل بناء على الأحاديث، ونجد الزهد والوعظ وروح الأخوة الإسلامية، كما نجد العشق والشكوى والاعتبار؛ كأن الشاعر أراد أن يُعبر عن نفسه وكل ما يعتريها بهذه القصائد الخمسة عشر، فموضوعات شعره انقسمت وفق الآتي:

أولاً: موضوعات ذات طابع ديني إسلامي: يظهر الطابع الإسلامي في جميع القصائد بشكل أو بآخر، وثمة من ذكر أن الفراهي جعل حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي منه: "إن من الشعر لحكمة".² غاية ومعياراً لشاعريته، وجعله نصب عينيه قبل ولوجه حلبة الشعر والأدب، وهذا ما يفسر بروز الطابع الإسلامي المتمثل في النور والإيمان والحكمة والوعظ في شعره،³ غير أن منها ما كان ظهوره فيها أشد من غيرها، ولنا أن نشعب ذلك في ثلاث شعب: أولاهما في تمجيد الله والقرآن، وذلك في قصيدتين؛ هما (الاستعاذة) و(نور الحكمة والإيمان)، والشعبة الثانية في الوعظ والتحذير من الدنيا في ثلاث قصائد؛ هي: (غفلة الإنسان) و(تقلب الأيام بالناس) و(التحذير من الدنيا)، والشعبة الثالثة في الحديث عن (أشراط الساعة).

أ. القصائد التمجيدية: مجد الشاعر الفراهي الله سبحانه وتعالى في مطلع ديوانه في قصيدته التي بدأها بالاستعاذة؛ يقول:⁴

أعوذُ بالله العظيم الأفضالُ الغافرِ الذنبَ الشديدِ الأنكالُ
من همزاتِ النفس ذاتِ الإيغالِ ونفثاتِ كلِّ باغٍ مُحْتالُ

¹ شعر الفراهي، ص 127

² الإمام عبد الحميد الفراهي مفسراً وأديباً: مجلة الهند، ص 247-248

³ انظر: السنن الصغرى للبيهقي، 4/182 برقم 3369

⁴ العلامة عبد الحميد الفراهي وإسهامه في الشعر العربي: مجلة الهند، ص 533

وقصيدته هذه جاءت في مستهل الديوان كأنها حرزٌ وحصنٌ له من همزات النفس ونفثات الشيطان كما يقول في مطلع قصيدته المذكور آنفاً، ولعلّ ترتيب القصائد على هذا النحو من صنع الجامع؛ إذ ذكر أنّ قصيدته في تهنئة العلامة شبلي النعماني حين تلقب بشمس العلماء كانت باكورة أعماله الشعرية.¹ أما تجيد القرآن فجاء في القصيدة الأخرى (نور الحكمة والإيمان)، وفيها يقول:²

ما أبلغ القرآن من داع لو كان فيكم سامعٌ واع
كم حكمة فيه وكم مثلٍ للنصح والتفكير جماع
والشاعر يذكر في هذه القصيدة فضل القرآن، ويقتبس من نور آيات سورة النور في قصيدته، ومنها:³

فمثلُ الإيمان يلعُ في قلبٍ سليمٍ للثقى راع
مثلُ سراجٍ في زجاجٍ كمثلِ الكوكبِ الدرّيِّ للماع
في وسطٍ مشكاةٍ ويوقدُ من زيتونةٍ في خيرٍ إقطاع
بدا أنّ الشاعر كان حريصاً على اختيار موضوعاته، ففي قصيدته السابقتين كان تجيده لله وللقرآن، وسنعرض حسن اختياراته أيضاً في قصائده الوعظية.

ب- القصائد الوعظية: كانت الدعوة إلى سبيل الله المستقيم هاجساً يراود الإمام الفراهي، فراح يدعو الناس دعوة مشفق عليهم حريص على هدايتهم؛ يذكرهم بالموت والفناء، ويحذّرهم من تقلبات الدهر وسلوك مسالك الشر من لهُوٍ ولذاتٍ وغفلةٍ عن

¹ شعر الفراهي، ص 95

² العلامة عبد الحميد الفراهي وإسهامه في الشعر العربي: مجلة الهند، ص 531

³ شعر الفراهي، ص 101-102

الحساب مُستخدماً أسلوب الاستفهام الإنكاري؛ يقول:¹

أَمَّا لِلنَّاسِ أَحْلَامٌ أَهَمُّ فِي السَّكْرِ نَوَامٌ
وَهُمْ وَرَادُ حَوْضِ الْمَوْتِ إِصْرَامٌ فِإِصْرَامٌ

وله قصيدة أخرى في الوعظ يذكر فيها تقلب الأيام بالناس بين الحلاوة والمرارة،
والنعيم والشقاء، فيستحث العقول عبر أسلوب حجاجي؛ لتأمل في حقيقة الحياة
والموت؛ يقول:²

الْعَيْشُ إِحْلَاءٌ وَامْرَارٌ وَالْدَّهْرُ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ
بَيْنَا الْفَتَى يَرْفُلُ فِي ثَرْوَةٍ إِذْ نَابَهُ بَوَسٌ وَاقْتَارٌ
وَيَنْمُو الْمَرْءُ مَقِيمٌ إِذَا جَسَمَهُ لِلْبَيْنِ أَصْفَارٌ
وَكَمْ رَخِيَّ الْعَيْشِ فِي قَصْرِهِ يَفْغَمُهُ مِسْكٌ وَأَزْهَارٌ
إِذْ رُفِعَ النُّعْشُ لَهُ بَغْتَةً فَضَمَّهُ تَرْبٌ وَأَحْجَارٌ

وله قصيدة لا تخرج عن إطار التحذير من الدنيا بأسلوب تقريريّ مباشر؛ يقول فيها:³
يَا بَوَسَ لِلدُّنْيَا شَقِيًّا سَعِيدُهَا فَيَا وَيْلَ مَنْ يَسْعَى لَهَا يَسْتَزِيدُهَا
فَلَا يَرْجِعَنَّ إِلَّا إِلَى الضَّرِّ نَفْعُهَا وَلَا يَرْجِعَنَّ إِلَّا إِلَى الشَّحِّ جَوْدُهَا
فَسَيَّانٍ عِنْدِي عَدَمُهَا وَوُجُودُهَا وَصِنَوَانٍ عِنْدِي وَصْلُهَا وَصُدُودُهَا
هكذا تجلّى اختيار الموضوعات لدى الشاعر وتمازج مع اختيار الأساليب التي تنوّعت

¹ ktsi، ص 101-102

² نفسه، ص 97

³ نفسه، ص 99

بين الإنشائية والمجاجة والتقريرة، والأساليب سنتوسع في الحديث عنها في قسم الدراسة البلاغية.

ج- قصيدة في الحديث عن أشرط الساعه: نظم الشاعر قصيدة في علامات الساعه وأشرطها، ولعله لمس مم يحدث في زمانه شيئاً من تلك العلامات، ولا سيما ما حدث للروم في الحرب العالمية الأولى، فجعله بداية لعلامات تالية تتعلق بأحداث نبوية عن الشام والقدس؛ يقول:¹

لقد لجَّ بالروم إسطاطها فتعدو إلى الهلك أشواطها
وكم أهلك البغي من أمةٍ وخيرُ الأمور لأوساطها
فإنَّ صعدَ الروم ريبَ الدهو ر لن يعجزَ الله إهابها
و فقد خطَّ في زبرِ الأولى نَ أن تسقطَ الروم خطاطها
قُبيلَ القيامةِ ميعادها فقد قُربَ اليوم إسقاطها

نتائج البحث: إنَّ تأثير القرآن الكريم في رجل مثل الفراهي ليس بالأمر الغريب، وهو الذي صرف وقته وعلمه في سبيل الدعوة والعلم، وفي تفسير القرآن الكريم وتأويله ووضع أصولٍ لهما، وفي دراسة بلاغته ونظامه، وقد كان ذلك الأثر واضحاً في شعره من جهة تركيبه الداخلي المتمثل في اقتباسه من القرآن الكريم؛ سواء كان الاقتباس في تركيب قليل المفردات أو كثيرها أم في اختيار الكلمات التي انبنت عليها تراكيبه، وكان بين أن ينقل حرفياً وأن يتصرّف في ما ينقله أو يقتبسه، وظهر لنا أنه كان يحسن توظيف الاقتباسات في شعره، كما ظهر أنه أخلّ بشعرية كلامه حين أطل في الاقتباس، ولا سيما الاقتباس من سورة النور لما رأينا أن الإيجاز أبلغ من

¹ نفسه، ص 132

الإطناب في هذا المقام؛ إذ إنّ الإطناب مدعاة إلى التكلف والتصنع. كان الفراهي على قلة قصائده ينوّع في اختيار موضوعاته، وبدا أنه لم يكن ينشغل كثيراً في ذلك الاختيار، فجّل قصائده في المناسبات، والمتأمل لتلك الموضوعات يلمس تأثره بالقرآن وبالدين الإسلامي والدعوة إليه، فكأن شعره ثمرة ذلك كله، ويتجلى أثر القرآن الكريم في الموضوعات العامة لشعر الإمام، كما يتجلى في الموضوعات الفرعية؛ إذ كان يقفل جلّ قصائده بما يتداعى إلى ذاكرته من القرآن، كما يربط مفاصل قصائده بذلك.¹

¹ مع الشكر لحوليات الأدب واللغات (الجزائر)، 1-8/14/93-105

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. أبو العتاهية: أشعاره وأخباره، تحقيق: فيصل شكري، مطبعة جامعة دمشق، دمشق 1965م.
3. الإمام عبد الحميد الفراهي مفسراً وأديباً.
4. الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني، شرح وتعليق وتنقيح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة السادسة، 1985م.
5. جمهرة البلاغة: الإمام عبد الحميد الفراهي، دراسة وتحقيق: محمد خالد الرهاوي وعامر خليل الجراح، دار سنابل، إسطنبول، الطبعة الأولى، 2019م.
6. ديوان امرئ القيس: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، د.ت.
7. السنن الصغرى: البيهقي، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي، باكستان، الطبعة الأولى، 1989م.
8. شعر الإمام عبد الحميد الفراهي، دراسة وتحقيق: محمد خالد الرهاوي وعامر خليل الجراح، دار سنابل، إسطنبول، الطبعة الأولى، 2019م.
9. العلامة عبد الحميد الفراهي وإسهامه في الشعر العربي.
10. مباحث في اللسانيات: أحمد حساني، كلية الدراسات العربية والإسلامية، دبي، الطبعة الثانية، 2013م.
11. مجلة الهند، المجلد السادس، الأعداد 1 - 4، والمجلد السابع، الأعداد 1 - 2، يناير ديسمبر، - 2017م.

موقف الإمام الفراهي من الاستعمار الطلياني (قراءة في ديوان الإمام الفراهي)

- يوسف متقيان نيا¹

الملخص

الطليان استعمروا البلاد العربية بغية الهيمنة على مواردها الطبيعية والسيطرة على ثروات الأرض والبلد. هؤلاء المعتدون أخذوا يقتلون كبار والصغار والشبان والنساء فهم بعيدون عن الرحمة والإنسانية. راح الفراهي بأساليبه الواضحة ولغته السهلة يكشف عن وجه المستعمر ويعري سوء ما يسعى إليه. فهو يحث المسلمين على الوحدة والتكاتف حتى لا يطمع المعتدي في السيطرة عليهم ونهب ثرواتهم.

الكلمات الرئيسية: الاستعمار، الطليان، المسلمون، الامام الفراهي.

1. المقدمة: ليبيا دولة عربية في شمال إفريقيا، مع مصر والسودان وتشاد والنيجر والجزائر وتونس. وهي بلدة استعمرتها القوة الإيطالية، في بداية القرن العشرين، واستولت على الأجزاء الثلاثة من الأرض، كانت كل منها مستقلة. كانت هذه الأقسام الثلاثة: غوريني (كيرينا) في الشرق، طرابلس (التريبنتينين) في الغرب والجنوب. بعد احتلال الأجزاء الثلاثة، وصفتها إيطاليا بأنها "ليبيا الإيطالية". دخل الإسلام ليبيا منذ 1300 عام والثقافة العربية سيطرت على الكثير منها. ليبيا لها

¹ مترجم من وفي اللغة العربية والفارسية، طالب دكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة شهيد تشمران اهواز، اهواز، إيران.

هيكّل قبلي، واليوم هناك حوالي 140 قبيلة وقبيلة مختلفة أثّرت على الحياة السياسية والاجتماعية في ليبيا. مع تراجع الملوك المحليين لـ"الحلاق" في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، اجتذب الشريط الساحلي في شمال إفريقيا، المعروف باسم "بارباري" انتباه القوتين المتوسطيتين في ذلك الوقت، إسبانيا في الغرب وتركيا في شرق. استمرت المنافسة التركية-الإسبانية حتى القرن السادس عشر، لكن الأتراك فازوا في النهاية بطريقة غير عادية. كانت أداة النصر الخاصة بهم هي أنهم سمحوا للقراصنة الأتراك ببناء مرافق لأنفسهم على طول الساحل. أصبحت الأراضي التي يشغلها القراصنة قاعدة رسمية للإمبراطورية العثمانية. سيطرت الإمبراطورية العثمانية على الأرض من القرن السادس عشر إلى عام 1911م، وكانت إيرادات طبقاتها البارزة، التي كانت مقيمة في المناطق الساحلية، مستمدة من سرقة البحر، وكان على بقية القبائل والقبائل حلّ مشاكلهم الخاصة. إنّ التركيز على المأكولات البحرية ومهاجمة الأسطول الأوروبي، وكذلك الاشتباكات القبلية والعداء، وكذلك الاقتصاد القبلي على نطاق واسع، تسبّب في خسائر دائمة في الهيكل الاقتصادي في العصور القديمة. وسّعت طائفة السنوسية نفوذها في شمال إفريقيا منذ عام 1837م، باستخدام فراغ الطاقة والضعف المهيمن في هذه المناطق. كان جوهر قوة السنوس هو "زوايا" الدير الإسلامي ونشأ في المراكز الريفية والثقافية والتجارية.

1-1. بداية الاستعمار الليبي: في العقد الأول من القرن العشرين، كانت الجزائر وتونس تحت قيادة فرنسا، وكانت مصر بريطانية، وكانت ليبيا بين المنطقتين البريطانيّتين والفرنسيّتين حيث وسّعت إيطاليا مصالحها التجارية في عام 1900م، توصّلت حكومات فرنسا وإيطاليا إلى اتفاق سري. كان المغرب تحت سيطرة فرنسا وليبيا تحت السيطرة على الإيطالية، ولكل منهما الآخر، يمسك بيد واحدة في تلك المنطقة. منذ عام 1902م، زاد التأثير الاقتصادي الإيطالي على المناطق الساحلية في

ليبيا. في عام 1911م، تمنح إيطاليا إسطنبول إنذاراً مدته 24 ساعة ويدعو إلى وجود قوات إيطالية في طرابلس وسارة نايا لحماية السكان الأصليين الإيطاليين. بعد حرب بين العثمانيين وإيطاليا في الأعوام 1911-12م، نجحت الدولة الملكية الإيطالية في قهر طرابلس وغورنيا، وفي خريف عام 1912م، هبطت تركيا بالمشاكل التي واجهتها وتوقيعها من قبل المعاهدة في أكتوبر. لم تنشر الإمبراطورية العثمانية قوة في ليبيا، ونتيجة لذلك، كانت التيار الرئيسي لإيطاليا المقاتلين. كما قاوم السنوسيون، الذين، على الرغم من انتقاداتهم، معارضة الإمبراطورية العثمانية، الجيش الإيطالي وتمكنوا من استعادة الجزء الأكبر من الأراضي الليبية من خلال توحيد العديد من القبائل. في عام 1914م، احتلت إيطاليا منطقة في الجنوب الغربي تحت سيطرة الركبة وتشكلها ضم تربة "الفيضان" في ليبيا الحديثة. في عام 1917م، غيّر جزء من السنوسيين بقيادة إدريس المهدي السنوسي، حفيد مؤسس هذه الطائفة. نجح إدريس في تعزيز موقعها بمساعدة إيطاليا، تم تشكيل كيرنائيك، في طرابلس جمهورية مستقلة. على الرغم من إنكار إيطاليا، استخدم الفاشيون في ليبيا المعسكرات الأسيرة لإطاعة وقمع المقاومة الشعبية في Tripolitania و Sai Ronai SA والبحث عن عمليات الإعدام والنادي للمنزل. قصف الطيارون الإيطاليون الأشخاص الذين لا مأوى لهم، وفي السنوات عام 1927م، تم استخدام الغازات السامة ضد الشعب الليبي. في عام 1930م، كان حوالي 100000 شخص من Kurian Kornayika أسرى في الخيمات الإيطالية، مع بقاء نصفهم فقط. أما الشعر فيثير العواطف ويحرك الهمم قتره وسيلة لبث روح الأمل والمقاومة في أبناء الشعوب. كان الإمام الفراهي من العلماء الذين اهتموا بشأن الأمة الإسلامية ومسيرها، من هنا نجد أشعاره حافلة بروح الدفاع والمقاومة للمستعمر والحث على إدانته وإدانة جرائمه. يحاول بحثنا هذا أن يدرس أشعار الإمام الفراهي العربية من الجانب التاريخي والسياسي والاجتماعي.

1-2. سؤال البحث: كيف يبين الإمام الفراهي الاستعمار الطلياني في أشعاره وما هو دوره من هذا الاستعمار؟

1-3. هدف البحث: قراءة الاستعمار الطلياني من خلال أشعار الإمام الفراهي وتبيين أبعاده التاريخية والاجتماعية. لأنّ الشعر يعدّ وثيقة جبارة نستطيع من خلالها استكشاف أمور غابت عن المؤرخ والمفكر والسياسي والفيلسوف وعالم الاجتماع.

2. التاريخ والشعر: عندما ننقل إلى تاريخ وتطور الشاعر، يتم نقلنا إلى عالم غني بالتعبير الفني والأهمية الثقافية. لقد كان الشعر جزءاً لا يتجزأ من الحضارة الإنسانية في العصور القديمة، حيث كان بمثابة وسيلة لتوصيل المشاعر والقصص والأفكار. إذا نظرنا إلى الوراء في أقدم أشكال الشعر المعروفة، نجد الأملس في الحضارات القديمة مثل بلاد ما بين النهرين ومصر. هذه قصائد إيرلز تلاها أو شنها كانت متجذرة بعمق في الطقوس الدينية وتستخدم لتكريم الآلهة أو الأحداث المهمة المعلقة. مع تقدم الوقت، أصبح الشعر أكثر هيكلًا وبدأ في أخذ أشكال مختلفة عبر ثقافات الاختلاف. كان الشعر، على مرّ التاريخ، أداة قوية لالتقاط جوهر وقته. تمامًا مثل المرأة، فإنه يعكس الحقائق والخبرات الحالية المهمة التي تشكّل المجتمع. من الحضارات القديمة إلى العصر الحديث، استخدم الشعراء كلماتهم لتوثيقهم والتعليق على الأحداث التي تتكشف من حولهم. في اليونان القديمة، على سبيل المثال، قام الشعراء مثل هوميروس بتأليف قصائد ملحمية مثل الإلياذة والأوديسي. هذه الأعمال لا تروي القصص الأسطورية فحسب، بل قدّمت أيضًا نظرة ثاقبة على المناخ الاجتماعي والسياسي لعصرهم. تلقي الضوء على القيم والمعتقدات والصراعات التي حدّدت المجتمع اليوناني في ذلك الوقت. الماضي قدمًا في التاريخ، خلال فترات التغيير الكبير أو الاضطرابات، استمر الشعر في أن يكون بمثابة مسجل مختص للأحداث. استخدم الشعراء الرومانسيون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر آياتهم

مجلة الهند موقف الإمام الفراهي من الاستعمار الطلياني

للتعبير عن المشاعر العميقة وردود الفعل على التحولات المجتمعية الناجمة عن التصنيع والتحضر. وهذا الإمام الفراهي راح يوثق في شعره مجازر الطليان واستعمارهم حتى يحثّ الشعب على المقاومة والحرب عليهم وعلى أطماعهم.

3. الجانب التطبيقي: في هذه الفقرة نأتي بالشاهد ثم نشبعه بالتحليل والتوضيح من عدة جوانب.

أول ما يشدّ انتباه المتصفح في ديوان الفراهي هو تبيينه لجرائم الطليان وتعرية وجوههم الحقيقة، ففي قصيدة تكلم عن تطاول الطليان على طرابلس، يقول فيها:

كَيْفَ الْقَرَارُ وَقَدْ نَكَسَ أَعْلَامُنَا بِطَرَابُلُسَ
كَيْفَ الْقَرَارُ وَحَوَّلَنَا إِلَى أَعْدَاءِ تَرْتَقِبُ الْخُلْسُ¹
مِنْ كُلِّ² ذَنْبٍ إِنْ رَأَى مِنْ غِرَّةٍ فِينَا اخْتَلَسَ
أَوْ أَفْعَوَانٍ مُطْرِقٍ إِنْ لَمْ نُبَادِرْهُ نَهَسَ
نَبِيٍّ عَلَى إِخْوَانِنَا بَيْنَ الْقَتِيلِ وَمَنْ حُبِسَ
كَمْ مِنْ تَقِيٍّ طَاهِرٍ فِيهِمْ وَنَحْرِيْرٍ نَدَسَ
نَبِيٍّ لِرَبَّاتٍ الْخُدُو رِ شَرْقَنَ بِالْمَاءِ السَّلْسِ

نكست الأعلام في طرابلس وارتفعت أعلام الطليان؛ أي أنّ كرامتنا ديست بالعدوان فلا يمكن الهدوء والرضا بهذا الوضع، لا يمكن أن نسكت لما نرى من فجائع وآلام لأنّ العدو متربص بنا يحاول سرقتنا ويحاول الخديعة والمكر بنا. هذا العدو يحمل صفتين

¹ سلب الشيء بالمخاتلة والعجلة

² "الكل" لا يوجد في مكاتيب فراهي، ص 77

بارزتين فهو مثل الذئب يختلس ويتربص الوقعة بهذه الأمة، ولكنه لم يكشف عن أنيابه بل جاء بحلو ملهسه وحديثه حتى يغرينا بأكاذيبه وتلفيقاته فهو يشبه ذكر الأفعى فلهسها ناعم ولطيف لكنها تحمل السم القتال بين ظهرها وباطنها.

إنَّ حسَّ الإيثار والإنسانية لدى الشاعر لا يسمح بالامبالاة تجاه أبناء أمته وهذا الشعور قوي جداً عنده كما هو موجود عند كل البشر ويجب تعزيزه وتقويته. ووفقاً لطبيعتنا، لا يمكننا نحن البشر أن نكون غير مباليين تجاه بعضنا البعض، وانطلاقاً من حسَّ الإيثار، يجب أن نشعر بالمسؤولية تجاه بعضنا البعض ونحاول إنقاذ بعضنا البعض. الذي كان يجري من قتل وتهجير وتدمير كان يدمي قلب الشاعر ويؤذيه فهو يبكي على الأخوة الذين قتلوا وعلى الذين حبسوا، وعلى الحرائر وربات الخدور التي تبيت رهينة الخوف والقلق من فقدان.

الإمام الفراهي لا يرضى للمسلمين نومة الغفلة والرضوخ للمتعدي والمتجاوز، فيظهر كالقائد الذي يحثه جنوده مخاطبهم:

جَرَّتِ	الْحُتُوفُ	عَلَى	الْأُلُوِّ	فِ	مِنْ	الزُّحُوفِ	وَمَنْ	جَلَسَ
هُمْ	أَهْلُنَا	وَعَشِيرُنَا	أَفْيَالُونُ	وَلَا	نُحْسُ			
يَا	أُمَّةَ	الْإِسْلَامِ	يَا	أَبْنَاءَ	آبَاءِ	شُمُسُ		
هَلْ	تَتَعَسُونَ	وَحَصْمُكُمْ	عَنْ	كَيْدِهِ	مَا إِنْ	نَعْسُ		
هَلْ	تَرْتَضُونَ	بِذُلَّةٍ	وَالْأَمْرُ	لَيْسَ	بِمَلْتَبَسِ			
إِنْ	لَا	تَهْبُوا	الْيَوْمَ	فَالْ	إِسْلَامُ	يَتَعَسُ	بَلْ	تَعَسُ

العدو لا يرحم الصغير ولا الكبير ولا يرحم المقاتل ولا القاعد. فلا يحق لأحد أن يتكاسل أو أن يتنازل عن دماءهم بل على الجميع الثورة والطغيان ضد المحتل لأنَّ

"الأمة الواحدة كالجسد الواحد"؛ ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم، وقال: ويجير عليهم أقصاهم".¹ وهي من حيث اللغة أيضاً تعني الجماعة.² إن الأمة الإسلامية هي أمة تتمسك بعقيدة واحدة وهي التوحيد. إن أهم قضية تم التخطيط لها في المدينة وكتبها النبي صلى الله عليه وسلم في ميثاق المدينة هي أن المسلمين أمة واحدة، لأن عقيدتهم واحدة، وهذا الإيمان الواحد هو التوحيد، والمسلمون كلهم حول نبي واحد. وقد اجتمع دين واحد وقبله واحدة. الأمة الإسلامية لديها الكثير من القواسم المشتركة فيما بينها في القضايا الاجتماعية، ولكن لكل مجتهد وجهة نظره الخاصة في أمور الفقه والحياة. ومن ضرورات الإسلام المهمة والرسالة العظيمة لهذا الدين والأمة الإسلامية جمعاء، أن تكون للمسلمين كلمة واحدة في صف واحد على محور كلمة الله، وأن تكون في نفس الوقت مشاعرهم موحدة. فإذا لم تكن هناك وحدة بين صفوف المسلمين كوحدة الكلمة، فلا يمكن الحفاظ على عظمة المسلمين. من هنا على المسلمين التكاتف والتآلف والأخوة لمحاربة العدو والغازي وأن لا يغفلوا ولا يناموا في جهلهم بل يكونوا على وعي وفطنة حتى لا يكونوا هباءً منثوراً بيد الأعداء.

العدو لا يريد لنا الخير بل يريد طمس هويتنا لأنه لا يريد العلو والرفعة للإسلام، يذكرنا الفراهي بتاريخ المسلمين في أندلس وما جرى عليهم من مجازر وقمع وتهجير. يقول الشاعر:

قَدْ زُلْزِلَتْ أَرْكَانُهُ حَتَّى تَقَعَّعَتِ الْأُسُسُ
فَالْخَصْمُ يَجْهَدُ أَنْ يَرَى الْإِسْلَامَ فِي بُؤْسٍ بِلْسٍ

¹ ابن عثيمين، تفسير العثيمين الفاتحة والبقرة، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، 273/1

² الجوهري، إسماعيل بن حماد، وعطار، أحمد عبد الغفور، الصحاح، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان،

هَلْ لَا ذَكَرْتُمْ مَا أَصَا بَ الْمُسْلِمِينَ بَأْنْدُلُسْ
سَلْبُوهُمْ شَطَرَ الْبِلَا دِ وَمَا لَهَا مِنْ مُلْتَمَسْ
أَفْكَلَّ يَوْمٍ يَنْكِصُ الْإِسْلَامُ حَتَّى يَنْدَرَسْ
هَذَا وَلَمَّا يَنْكَأِ الْإِسْلَامُ الْقَطِيعُ بَأْنْدُلُسْ
هَلْ يَذْهَبُ الْحَقُّ النَّقِيذُ يِ وَيَغْلِبُ الْكِذْبُ الرَّجْسُ
هَلْ تَرْتَضُونَ بِذِلِّ دِي نِكْمُ وَلَيْسَ بِمِلْتَبَسْ
وَاللَّهِ لَا نَرْضَى بِهِ مَا دَامَ فِينَا مِنْ نَفْسْ
فَالْيَوْمَ إِنْ لَمْ تَدْفَعُوا فَلْيَاتِينَ يَوْمَ نَحْسْ
إِنِّي أَرَى فِتْنًا تَمُوجُ وَقَدْ ظَهَرَ لِنَ حَدْسْ
نَارًا تَأْجَّجُ فِي الْبِلَا دِ وَقَدْ تَلَهَّبَتِ الْأُطْسْ

يرمي العدو المسلمين بنار الحقد والعدوان ويحاول تقويض عماد مجدهم العتيق حتى لا يبقى للإسلام علم مرفوع ورأس شامخ، ليتمكن بعد ذلك من الهيمنة على الأرض وخيراتهم ويستعمر الثروات ويستعبد الناس. يدغدغ الفراهي مشاعر المسلمين ويذكرهم بالماضي والسيادة على الأندلس حينما كانوا الإسلام دين المجاهدين الباحثين عن الحق والعدل. دين من يريد الحرية والاستقلال. مدرسة المقاتلين والشعب المناهضين للاستعمار. لكنهم قدّموا الإسلام بطريقة مختلفة، وهم يفعلون ذلك. إنّ الفكرة الخاطئة التي نشأت عن الإسلام في أذهان الجمهور والشكل الناقص الذي يقدم في الحوزات العلمية هو بغرض أخذ صفة الإسلام الثورية والحيوية منه، وعدم السماح للمسلمين بالمحاولة والحركة؛ كن تحريراً، السعي إلى تطبيق أحكام الإسلام؛ إنشاء حكومة تضمن سعادتهم؛ فليعيشوا هذه الحياة التي تكون في كرامة الإنسان.

الطليان عندما دخلوا البلاد أخذوا ينهاون ويقتلون الجميع:

جَاءُوا عَلَى حَرْدٍ بِجَمْعِهِمْ فَضَاقَ بِنَا الْمَفَازُ
دَخَلُوا الْمَدِينَةَ يَقْتُلُوا نَ بِهَا الْمَشَاحِجَ وَالرَّعَارِغَ
قَتَلُوا الْمَرَاضِعَ فِي الْمَضَا جَعِ وَالضَّوَارِعَ فِي الشَّوَارِعِ
وَعَلَوْا بِطَيَّارَاتِهِمْ يَتَحَسَّسُونَ لَنَا الْمَوَاقِعَ
صَارَتْ تُحَلِّقُ فَوْقَنَا مِثْلَ الْغَرَائِقِ الطَّوَالِغِ
يَرْمُونَ مِنْهَا بِالْكُرْدِ نِ تَمُجُّ بِالزَّهْرِ الْقَوَارِغِ
لِيُذِدُّوا أَفْرَاسَنَا وَيَحْرِقُوا مِنَّا الْوَشَائِعَ
لَا دِينَ عِنْدَهُمْ وَلَا حِلْمٌ عَنِ الْعُدْوَانِ وَازِعُ

فهم يقتلون الكبار والطاعنين في السن والشبان القادمين على الحياة. هذا يأتي من معداتهم وطائراتهم التي تسبب لهم القوة والسيطرة. ومن أجل تحقيق أهدافهم الاستعمارية، وجد المستعمرون أنه من الضروري خلق أسباب لتدمير الإسلام. ولم يكن هدفهم صرف الناس عن الإسلام حتى تنضج المسيحية؛ لأنهم لم يؤمنوا بالمسيحية ولا بالإسلام؛ إلا أنهم، خلال هذه الفترة وأثناء الحروب، شعروا أن ما يشكل حاجزاً أمام مصالحهم المادية ويعرض مصالحهم المادية وسلطتهم السياسية للخطر هو الإسلام، وهو قواعد الإسلام والعقيدة التي عند الناس. ولذلك قاموا بالدعاية والتآمر ضد الإسلام بشتى الوسائل. فالدعاة الذين عملوا في المجالات الروحانية، والعاملون في الجامعات والمؤسسات الدعائية الحكومية أو دور النشر، والمستشرقون الذين خدموا الحكومات الاستعمارية، كلهم تكاتفوا، وعملوا على تشويه حقائق الإسلام.

فهؤلاء لم يكن همهم الدين والشرعة بل يسعون لمطامعهم غير الشريفة والتجاوزية.
يُدُونُ نَصْرَانِيَّةً زُورًا وَقَدْ رَفَضُوا الشَّرَائِعَ
بَلْ يَشْمِزُّ الْكُفْرُ مِنْهُمْ حَمًا يَرْكَبُونَ مِنَ الشَّنَائِعِ
الْبَغْيِ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَالْغَدْرُ سَيْطَ مِنَ الطَّبَائِعِ
غُرُوا بِأَنَّ الْبُعْدَ بَيْنَ نَ الْعَرَبِ وَالْأَتْرَاقِ شَاسِعِ
وَبَأَنَّ بَيْنَ قُلُوبِنَا صَدْعًا مِنَ الْأَضْغَانِ وَاسِعِ
يَا ضَلَّةً لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْخِلَافَةَ خَيْرُ جَامِعِ
فَلْيَبْذُلَنَّ لَهَا النُّفُوسَ وَدُونَ حَوَزَتِهَا نُدَافِعِ
مَا التَّرْكُ إِلَّا مِثْلُ كَفِّ فِ الْبَاسِلِ الْعَارِي الْأَشَاجِعِ
وَالْعَرَبَ مِثْلُ أَصَابِعِ لَا كَفِّ إِلَّا بِالْأَصَابِعِ

على مرّ التاريخ، حاول نظام الهيمنة السيطرة على أماكن أخرى بطرق وأنواع مختلفة من أجل الحصول على موارده ومرافقه. والعالم الإسلامي ليس بمستثنى من هذه القضية، فقد كان دائماً جشعاً وتلاعبت به القوى العظمى في نظام الهيمنة بطرق مختلفة. يحاول المؤلف في هذا المقال تقييم عصور الاستعمار وأساليبه في العالم الإسلامي وطريقة تعامل العلماء والناس معه، ودراسة استعمار القرانو (العولمة الغربية)، ودراسة علاقة الصحوة الإسلامية الحديثة بالسياسة.

النتائج: ظهر من هذا العرض الوجيز أنّ الطليان استعمروا البلاد العربية بغية الهيمنة على مواردها الطبيعية والسيطرة على ثروات الأرض والبلد. هؤلاء هم المعتدون الذين أخذوا يقتلون الكبار والصغار والشبان والنساء فهم بعيدون عن الرحمة

مجلة الهند موقف الإمام الفراهي من الاستعمار الطلياني

والإنسانية. قام الإما الفراهي بأساليبه الواضحة ولغته السهلة بتعزية وجه المستعمر والكشف عن سوء ما يسعى إليه. فهو يحث المسلمين على الوحدة والتكاتف حتى لا يطمع المعتدي في السيطرة عليهم ونهب ثرواتهم.

الشيخ بدر الدين الإصلاحي (أحد ناشري مدرسة الفراهي)

- محمد أكل الفلاحي¹

الملخص

مدرسة الفراهي من أهم مدارس الإحياء للفكر الإسلامي والتجديد في علوم الشريعة في العصر الحديث. الفكرة الرئيسية التي تقوم عليها مدرسة الفراهي هي فكرة نظام القرآن التي تقدّم منهجاً دقيقاً وفريداً بنوعه لفهم القرآن الكريم والتعامل مع علوم الشريعة كلها تابعة لهذا الفهم السليم للقرآن. مما تتميز به مدرسة الفراهي عن المدارس الأخرى الكثيرة في الإحياء والتجديد أنها تعتمد على المنهجية المستمدة من القرآن بالذات بدلاً من المنهجيات الجديدة المأخوذة من الخارج. فيحسن أن نقول إن مدرسة الفراهي هي نتيجة لمحاولات العودة إلى القرآن الكريم بالمعنى الصحيح الكامل. فهذه المدرسة لها دور كبير وأثر بالغ في تجديد العلوم الشرعية والفكر الإسلامي عن طريق روادها العظيمة. من أهم رواد هذه المدرسة بدر الدين الإصلاحي الذي قلّ ما اعتنت به الدراسات التي اهتمت بهذه المدرسة وإسهاماتها وإنتاجاتها وروادها خاصة باللغة العربية. فهذه الدراسة تحاول إلقاء الضوء على هذه الشخصية العظيمة ودورها في ازدهار ونشر هذه المدرسة القيمة.

الكلمات المفتاحية: مدرسة الفراهي، نظام القرآن، مدرسة الإصلاح، عبد الحميد الفراهي، بدر الدين الإصلاحي.

¹ مدرس في مركز إسلامي بوني وأستاذ في الجامعة الإسلامية شانتا برم كيرالا سابقاً.

المقدمة

من أهم مدارس الإحياء والتجديد التي نشأت وازدهرت في العصر الحديث هي مدرسة نظام القرآن أو مدرسة الفراهي التي نسبت إلى مؤسسها الإمام عبد الحميد الفراهي. مع أنّ المدارس التجديدية التي نشأت في العصر الحديث كثيرة ومتنوعة منتشرة في أقطاع الأرض كلها لكن مما تتميز به هذه المدرسة أنها نشأت على أساس العودة إلى القرآن والتعايش الحقيقي مع القرآن بخلاف كثير من المدارس الأخرى التي تدعو إلى ما هو أبعد من القرآن مما هو أقرب منه. فمن أهم إنجازات هذه المدرسة أنها قدّمت منهجية رائعة ودقيقة وعلمية للتعامل مع القرآن والعلوم الشرعية بصورة عامة. ظهرت هذه المدرسة في وقت ساد فيه الجمود العلمي والفكري والأزمة المنهجية في العالم الإسلامي بوجه عام وفي الهند خاصة في مجال العلوم الشرعية والدراسات الإسلامية فخرّكت هذه المدرسة هذا الماء الراكد وملأ الأفق العلمي بالحياة والنشاط. عندما ظهرت هذه المدرسة تعرضت لهجمات شرسة ومخالفات كبيرة من الأوساط العلمية السائدة في الهند- كما يكون الحال لكل محاولات النهضة والتجديد- لكن بسعي دؤوب وجهود مستمرة لرواد هذه المدرسة اضمحلت هذه المخالفات ووصلت صدى هذه المدرسة في جميع أنحاء العالم وأثّرت تأثيراً بليغاً في الأعمال التجديدية المعاصرة. مع أنّ هذه المدرسة كسبت خدمات جليلة لعديد من الرواد الذين ضحّوا بأنفسهم وحياتهم لخدمتها لكن لا يرى إلا أسماء قليلة جداً عندما يأتي الحديث عن هذه المدرسة. فمن أهم رواد هذه المدرسة بدر الدين الإصلاحي الذي بذل جهوداً كبيرة لنشر وإشاعة والحفاظ على إسهامات هذه المدرسة والقائمين عليها قبله من مؤسسه الإمام عبد الحميد الفراهي وتلميذه الجليلين العلامة أمين أحسن الإصلاحي صاحب تفسير "تدبر قرآن" والشيخ أختر أحسن الإصلاحي. يقول الأستاذ ضياء الدين الإصلاحي رحمه الله: "الشيخ بدر الدين الإصلاحي كان مبلغاً حقيقياً لأهداف (مدرسة الإصلاح) وشارحاً حقيقياً

وترجماناً لفكر الإمام الفراهي¹. وقال الأستاذ أيوب الإصلاحي رَحِمَهُ اللهُ: "إنه كان مثلاً جميلاً للعلم والحلم ولثقافة والشرف ولذكاء والفراسة. وكان يحمل أفكاراً سامية مثالية، وقيماً عالية ويفكر ويتكلم مثل الحكماء والفلاسفة وكان ذوقه وإحساسه مثل شاعر عظيم وأديب بليغ. وإنه لم يقصر قط عن مستواه العالي في الفكر والمواقف والسلوك وأسلوب المحادثة"².

فحاول في هذه المقال أن نقدّم نبذة عن حياة وخدمات الأستاذ بدر الدين الإصلاحي بحيث لا نجد شيئاً عنه بالعربية. وكل المعلومات الموجودة في هذا المقال مستفادة ومأخوذة من ثلاث مقالات بالأردنية تناولت بدر الدين الإصلاحي. مقال كتبه الأستاذ ضياء الدين الإصلاحي في مجلة معارف سنة 1996م ومقال كتبه الدكتور شرف الدين الإصلاحي في كتابه عن الإمام الفراهي سنة 2001م ومقال كتبه الأستاذ أيوب الإصلاحي في كتابه "متاع قلم". فهذا المقال ليس إلا تلخيصاً وتعريفاً لهذه الكتابات الثلاث القيمة بالأردنية مع إضافات قليلة.

حياة الشيخ بدر الدين الإصلاحي

ولد الشيخ بدر الدين الإصلاحي في قرية "نِياؤج" التابعة لمديرية أعظم كره (بولاية أترابرايش، الهند). فيما روى أكبر شيوخ القرية الأخ إلياس أن تاريخ ميلاد الشيخ بدر الدين الإصلاحي عام 1904م كما نقله الدكتور شرف الدين الإصلاحي. يدعى والد بدر الدين الإصلاحي الحاج نصر الله وكان اسم جدّه حبّ علي. رزقه الله ثلاثة أبناء وعدة بنات. أما أبناؤه فهم أبو حذيفة وأبو عبيدة وأبو هريرة.

تلقّى بدر الدين الإصلاحي التعليم السائد في بيته حيث تعلّم القرآن ودرس الكتب الأردية والفارسية.

¹ مجلة "معارف" الشهرية، يوليو 1996م، ص 71 (بتصرف)

² متاع قلم للشيخ محمد أيوب الإصلاحي، ص 34-38

أُلحق بمدرسة الإصلاح للتعليم العالي وتم قبوله في الصف الأول للعربي. حيث عني به شبلي متكلم الندوي (وهو تلميذ العلامة شبلي) عناية خاصة واتخذ لدراسته ترتيبات أساسية. وبعد ما استفاد من أساتذة المدرسة الممتازين، أكمل بدر الدين دراسته التي مدتها سبع سنوات في ثلاث أو أربع سنوات فقط.

بدر الدين الإصلاحي هو أحد خريجي مدرسة الإصلاح الممتازين الذين يمثلون السمة المميزة لها. وهو من السابقين الأولين. بل هو متفوق على أقرانه ببعض مميزاته. ومن المؤكد أنّ تعليمه وتربيته مع جوهره الشخصي يرجع تماماً إلى فضل مدرسة الإصلاح. من أساتذته المشهورين الشيخ أختر أحسن الإصلاحي والشيخ أمين أحسن الإصلاحي (وهما تلميذان رشيدان للإمام عبد الحميد الفراهي).

بعد تخرجه من المدرسة، سافر مرة إلى بورما (رانغون) حيث تم إنشاء مجمع للتعليم ودراسة القرآن وكان هناك حاجة إلى عالم القرآن العربي المتميز. فكتب المسؤولون رسالة إلى المدرسة فتم اختيار بدر الدين لهذا الغرض. وإنه مع ذكائه ومعرفته كان خطيباً بليغاً بالفطرة. فزاد احترامه في أعين الناس كثيراً. ولكنه لم يُقَمَّ هناك إلا سنة أو أكثر.

خدمات الشيخ بدر الدين الإصلاحي

قد جمع بدر الدين الإصلاحي بين خدماته العلمية والأدبية مع الأعمال المؤسسية والإدارية. كان مديراً لمدرسة الإصلاح وهي معهد علمي شرعي من أشهر وأقدم المعاهد الإسلامية في الهند تأسست في عام 1908م ومن أهم ميزات هذا المعهد أنه قام على منهج نظام القرآن ويمثل مدرسة الفراهي على مستوى المعاهد والمؤسسات. عندما جاءت مسؤولية مدرسة الإصلاح على كتفيه كانت المدرسة تمرّ بأوضاع حرجية وصعبة لكن سرعان ما تحسّنت الأوضاع وصلحت الأمور بعدما حمل بدر الدين الإصلاحي عبء هذا المعهد. فكان مديراً نعم المدير. في البداية صار نائب

مدير في عام 1945م ثم صار مديراً في 1958م وخدم هذه المدرسة بخبراته الإدارية العالية إلى أن توفي رَحِمَهُ اللهُ سنة 1996م.

عام 1936م تم إنشاء الدائرة الحميدية لنشر أعمال ترجمان القرآن الإمام عبد الحميد الفراهي وترجمتها إلى الأردية على أيدي التلميذين الجليلين للفراهي أمين أحسن الإصلاحي وأختر أحسن الإصلاحي كما يقول الدكتور أورتك زيب: "نظراً لإتمام ما بدأ به الإمام حميد الدين الفراهي وإبلاغ رسالته وفكرته عامة العلماء والمفكرين في البلاد وخارجها وبث الوعي فيما بين المسلمين وإيقاظهم من النوم الثقيل قام الشيخ أمين أحسن الإصلاحي وزميله في الدرس أختر أحسن الإصلاحي ومعالج الفراهي الطبيب حفيظ الله بتأسيس معهد علي سموه الدائرة الحميدية".¹

عندما غادر الشيخ أمين أحسن الإصلاحي المدرسة والدائرة الحميدية (إلى باكستان) عُني بدر الدين الإصلاحي مع أستاذه أختر أحسن الإصلاحي بالدائرة الحميدية بالغ العناية وحفظها من ضياعها وخرابها. وبعد ما توفي أستاذه الجليل، قاد هذه السفينة وحده بدون أي دفة وظل المدير العام للدائرة الحميدية حتى وفاته.

أولاً: مؤلفات الإمام عبد الحميد الفراهي التي قام بجمعها وتدوينها: عندما تولى بدر الدين الإصلاحي أمور "الدائرة الحميدية" بذل قصارى جهوده في سبيل القيام بجمع أعمال الإمام الفراهي وتدوينها ونشرها وإعادة نشر ما قد تم نشره ثم نفذه. وها هي قائمة أعماله:

1. ديوان حميد الدين الفراهي (1387هـ)

2. نوائ بهلوي (كلام فارسي) (1967هـ)

3. دلائل النظام (1388هـ)

¹ الدكتور أورتك زيب الأعظمي: الدائرة الحميدية، تاريخها ومساهماتها في تطوير العلوم والآداب، شبكة الألوكة، بتاريخ 2023/12/30م

4. التكميل في أصول التأويل (1388هـ)

5. أساليب القرآن (1389هـ)

6. في ملكوت الله (1391هـ)

7. القائد إلى عيون العقائد (1395هـ)

8. تفسير سورة القيامة (1403هـ)

وقد كتب للديوان العربي والمؤلفات العربية مقدمات بالعربية باسم "كلمة الجامع" و"نوائى بهلوي" مقدمة بالفارسية تحت عنوان "سر نامه" وكذلك كتب لسورة القيامة "مقدمة بلغة الضاد تحت عنوان "كلمة الناشر". وهذه الكتابات كلها دليل على قدرته العالية.

وما يدريك مدى صعوبة قراءة المخطوطات القديمة المكتوبة بقلم الرصاص ونسخها وفي بعض الأحيان الجمع بين الأوراق المبعثرة والمتنوعة بطريقة منظمة وتحريرها تقنياً وجعلها صالحة للطباعة ثم العناية بكتابتها وطباعتها وتقديمها للجمهور في شكل كتاب ... فإنه قام بهذا كله.

الواقع أنّ ما قدّم بدر الدين الإصلاحي من هذه الخدمة في تحقيق الغرض الأصلي للدائرة الحميدية بإخلاص فهو مثال ونموذج للأولين والآخرين.

وثانياً: أعماله العلمية: بسبب اشتغاله بالعلم والفن، كان يكتب أحياناً مقالات في بعض المجالات. بعد تأسيس الدائرة الحميدية لنشر أعمال ترجمان القرآن العلامة عبد الحميد الفراهي وترجمتها إلى الأردية صدرت عنها مجلة علمية شهرية باسم (الإصلاح) برئاسة الشيخ أمين أحسن الإصلاحي لتحقيق هذا الهدف. وهي نشرت مقالات عالية الجودة ومثيرة للفكر في مواضيع مختلفة وخاصة الدراسات القرآنية ولا تزال تستحق أن يطالعها طلاب القرآن الكريم. والشيخ بدر الدين الإصلاحي هو أحد الكتّاب البارزين لمجلة (الإصلاح).

ومقالاته الأردنية التي هي ذكرى له فقد نشر جلّها في مجلة "الإصلاح" الشهرية وبعضها في "معارف" وفي "نغار" وفي "صدق جديد". ويمكن معرفة مدى قيمتها وأهميتها من خلال عناوينها وموضوعاتها والتي نشرت في مجلة "الإصلاح" وتذكر هنا أسماءها فقط مقتبسةً من مجلة "معارف" وهي في ما يلي:

1. فتوى التكفير على شبلي النعماني
 2. جزاء العمل
 3. التأويل الصحيح لـ "مصدقاً لما بين يديه"
 4. حروف المقطعات
 5. تحقيق لفظ "آلاء"
 6. وآخر متشابهات
- تظهر من هذه المقالات قدرته على اللغة الأردنية وعظمة الأدب، وكان يكتب بلغة عالية مثل الكّاتب والأدباء.

مرضه ووفاته: توفي في 19 يونيو عام 1996م في قريته (نياوج) بعد صراع طويل مع المرض.
أخلاقه العالية

1. تحفيظه لقراءة المقالات: يقول الشيخ ضياء الدين الإصلاحي رَحِمَهُ اللهُ: ذات مرة نشر مقال للبروفيسور ضياء الحسن الفاروقي في مجلة (الجامعة) بعنوان (فرض الكفاية) فأحبه كثيراً وطلب مني قراءته قائلاً بأنه مقال جيد ومحفز للتفكير.
2. إيفاءه بالعهد: حافظ بدر الدين الإصلاحي وأستاذه أختار أحسن الإصلاحي على تعهد الخدمة للمدرسة طوال حياتهما، وبعد وفاة أستاذه بقي فرداً، لكنه استمر في رفع مستوى المدرسة طوال حياته.¹

¹ مجلة "معارف" الشهرية، يوليو 1996م، ص 73-77

3. احترامه لأستاذه: هو تأثر بشكل كبير بأستاذه أختار أحسن الإصلاحي. فقد استمر في احترامه والاستفادة منه حتى نهاية حياته، والجدير بالذكر أنّ الخلافات المستعصية التي كانت تحدث في إدارة المدرسة، حيث كان يحلها هو، فهناك كانت نصائح أستاذه أختار أحسن الإصلاحي الجميلة وآراءه القيمة أيضاً. وبسبب هذه العلاقة الخاصة واصل العمل ما استطاع فيما يتعلق بالدائرة الحميدية بناءً على تعليمات أستاذه.

ثناء أستاذہ علیہ

كان أستاذه الشيخ أختَر أحسن الإِصلاحي يقول: "إنَّ بدر الدين يتمتع بذكاء غير عاديٍّ وقُدرة عالية ممتازة، كما أنَّ خطابه وكتابه ممتازتان أيضًا".¹

خلاصة المقال

بدر الدين الإصلاحي لعب دوراً هاماً في تطوير وتوسيع مدرسة الفراهي أو مدرسة نظام القرآن التي تدعو إلى التجديد والإصلاح في العلم والفكر بالرجوع إلى القرآن الكريم. وبما تبين عنه من خلال هذه الدراسة المتواضعة أنه خدم هذه المدرسة الأنيقة بكل ما كان يملك. نغدم عليها وإدارياً. ونالت مدرسة الفراهي اهتمام كثير من الرجال الذين بذلوا قصارى جهودهم في خدمة هذه المدرسة وكان بدر الدين الإصلاحي من هذه الكوكبة النيرة. مع أنّ مدرسة الفراهي وأفكارها وصلت اليوم مشارق الأرض ومغاربها لكن الاهتمام بالشخصيات الذين حملوا لواء هذه المدرسة قليل جداً. حاولنا في هذا المقال أن نقدّم شيئاً عن هذا الرجل العظيم بالعربية وهناك شخصيات أخرى ما زالت تنتظر مَنْ يكتب عن خدماتهم في تطوير مدرسة نظام القرآن.

¹ متاع قلم، ص 35

البروفيسور عبيد الله الفراهي رَحْمَةُ اللَّهِ

(نظرة على خدماته العلمية)

- د. هيفاء شاكري¹

تمهيد:

حين بدأنا نكتب عن الإمام عبد الحميد الفراهي وإنجازاته وعلومه ومعارفه، والدور الذي قام به في ترويج العربية في الهند عمومًا وتفسيره وشرحه لمعاني القرآن الكريم، وما استفاد منه العالم أجمع في الفكر الذي قدّمه، وبيانه للنظام القرآن لم نكن نتوقع أن تصل سلسلة الأعداد الخاصة إلى هذا العدد، فهذا هو العدد التاسع من المجلة، وكانت الأعداد الخاصة السابقة تحمل من الصفحات والمعارف ما تجعلنا نتعجب من كمية العلوم المرتبطة بالفراهي. وحين قراءتنا عن هذا العالم، كمّا نتساءل، هل حمل أولاده وأحفاده من بعده علومه ومعارفه في صدورهم، وقدّموها أمام العالم، حيث علمنا أنّ كثيرًا مما كتبه الفراهي، بقي قيد الكتابة اليدوية دون الطبع والنشر.

وبعد السؤال والبحث، يظهر اسم الأستاذ الدكتور عبيد الله الفراهي وهو حفيد عبد الحميد الفراهي. في مقالتنا هذه سنلقي الضوء على هذه الشخصية التي كان لها دور كبير في تعريف العالم أجمع بعلوم الفراهي ومؤلفاته وأفكاره، حيث حمل مسؤولية نقل وتدوين وتحقيق ما تركه جدّه من ملاحظات وكتابات مبعثرة على هوامش الكتب والأوراق المتناثرة.

¹ مشارك في التحرير وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المالية الإسلامية، نيو دلهي

مولده ونشأته:

هو عبيد الله بن عباد بن عبد الحميد الفراهي، من قرية "پهريها" في أعظم كره (الهند)، والتي تحوّل اسمها في العربية إلى "فريها"، وإليها انتسب الإمام عبد الحميد الفراهي وحفيده كذلك فيما بعد. ولد الفراهي الحفيد في نفس القرية في 13 ديسمبر 1943م بعد وفاة جدّه بثلاث عشرة سنة، حيث توفي الإمام الفراهي عام 1930م. تعلّم العلوم الابتدائية في مدرسة الإصلاح الواقعة في منطقة سرائي مير في أعظم كره، ثم انتقل إلى لكناؤ والتحق بجامعة لكناؤ. حصل منها على شهادة العلوم الشرقية عام 1964م، وأكمل البكالوريوس عام 1968م، والماجستير في الأدب العربي عام 1970م، أما الدكتوراه فقد حصل عليها عام 1973م. وكانت أطروحته التي قدّمها للحصول على شهادة الدكتوراه عن دراسة نقدية مقارنة بين اثنين من أهم شعراء العصر العباسي بشار بن برد وأبي نواس. وقد عين أستاذاً في الجامعة نفسها في 15 سبتمبر 1972م، حيث تقاعد بعد أن بلغ 62 سنة في 30 من يونيو عام 2006م. وقد عاش حياة مليئة بالعمل والجد والنشاط سواء أثناء أدائه لمهام التدريس أو بعد التقاعد. بل إننا نرى أنّ ما قدّمه من أعمال جليّة بعد التقاعد ربما تفوق ما سبق من أعماله. حيث تفرغ لترتيب وتدوين مخطوطات جدّه العالم عبد الحميد الفراهي. وسيأتي ذكر التفاصيل في الصفحات القادمة بإذن الله.

توفي عبيد الله الفراهي في 29 من أبريل 2021م أثناء وباء كورونا الذي خطف كثيراً من العلماء، وقد تأثر بوفاته العمل الجليل والذي كان مشغولاً به إلى آخر يوم من حياته، وهو ما كان يسمّيه "عمل جدي"، أي تدوين وتحقيق وترتيب ما تركه جدّه من ذخائر علمية حاول أن يضعها أمام العالم للاستفادة منها، وقد نجح في هذا إلى حدٍّ ما، حيث يعتبر بجانب اثنين آخرين ساعداً في توصيل علوم الفراهي والكشف عن حقائق القرآن خاصة وهما اختر أحسن الإصلاحي وأمين أحسن الإصلاحي، يعتبر الركن الثالث الذي

قدم أماننا نفأس ما كتبه الفراهي وما تركه من رموز وأسرار تتعلق بالدراسات القرآنية.
صفاته وأخلاقه:

وقبل أن ندخل في صلب الموضوع ونتعرف على أهم الأهمال التي قام بها، لا بد أن نلقي نظرة على صفاته وأخلاقه وطريقة تعامله لكي يتضح لنا مدى ما كان يتحلى به من صبر ومثابرة والحرص على العمل الدؤوب، وهي من أهم الصفات التي يجب أن تتوفر في الشخص الذي يريد أن يغوص في عالم التحقيق والتدوين.

ورث عبيد الله كثيراً من الصفات عن جده، فقد كان شخصاً متواضعاً، صادقاً يغار على الدين، صاحب حياء وتقوى. لم يكن يتكلم كثيراً، وإذا تكلم يكون غالب حديثه في موضوعات علمية وخاصة ما يتعلق بالقرآن الكريم. كان يتميز بنقاء القلب وصفائه، لا يحمل لأحد ضغينة ولا كراهية. سهل الحديث لين الجانب، ولكن إن وجد شيئاً يقلقه أو خلاف ما يعتقده، يظهره بأسلوب واضح وفي بعض الأحيان بلهجة قوية، لكي يتضح موقفه أمام السامع. لم يكن يفضل نفسه على أحد، بل كان يحترم الآخرين ويستمع إلى آرائهم خاصة أصحاب الفكر والعلم. وكان كذلك يناقش الموضوعات التي يكتب عنها مع طلابه ويأخذ بآرائهم إن كانت صائبة في نظره.

كذلك كان يتصف بغنى النفس، فلم يكن يطلب مالاً أو جاهاً لنفسه، ولم يكن قصده أبداً من الأعمال التي قام بها شهرة أو ذكراً لنفسه على ألسنة الناس. كان دائماً يحاول أن يبعد عن نفسه هذه الصفات التي انتشرت بشكل واضح في المجتمع، بل لم يكن يحب ذكرها أمامه. وقد ظهرت آثار أخلاقه وصفاته الطيبة على كل جانب من جوانب حياته من قول أو فكر أو عمل سواء كان علمياً أو شخصياً. ومن الطبيعي أن تجتمع في أي فرد الصفات الجيدة بجانب بعض النقائص، ولكن هدفنا هنا من بيان هذه الصفات الجيدة التي كان يتصف بها هو ما سيأتي ذكره من الأعمال التي قام بها وكيف أثرت هذه الصفات على النتائج العليي نخرج أمام العالم صافياً نزيهاً من

كل الشوائب الدنيوية.

منهجه في التدوين والكتابة:

بدأ الدكتور الفراهي عمله الحقيقي بعد التقاعد، حيث تفرغ من مسؤوليات التدريس الجامعي وما يصحبه من أمور قد تصرف المرء عن العمل الأصلي من التأليف والتدوين، ولا حاجة لنا هنا من ذكر تلك الأمور التي تمر على كل من مارس التدريس الجامعي ومشاغله.

فبدأ يشتغل على "عمل جدي"، وهي جملة كان يستخدمها كثيراً، فبعد التقاعد وعندما كان يسأله أحد عن ما يشغله هذه الأيام أو ماذا يفعل، كان يرد مبتسماً: "مشغول بعمل جدي". و: "وماذا لدي غير ذلك؟".

وعندما كان يكتب أي شيء أو يترجم أو يدون شيئاً من مخطوطات جدّه كان يشاور زملاءه وحتى طلابه، وكان على اتصال دائم بأهل القرآن والعلم. وكان لا يفرض رأيه على الآخرين، إنما يستمع إلى آرائهم ولا يشعر من أمامه بأنه أقل منه شأنًا أو مرتبة أو علماً.

من أهم ما كان يميزه اطلاعه الواسع على الكتب وقراءاته العميقة لمختلف مجالات العلم، فكان له إلمام واسع بالعلوم القرآنية والإسلامية والأدب العربي والتصوف، إضافة إلى مهارة في اللغة الأردية والإنجليزية والبلاغة والفلسفة القديمة والجديدة. وكان لكل هذه العلوم والمعارف أثر كبير على كتاباته وتدويناته، ولكنه مع ذلك حافظ على خلوّ كتاباته من التكلف والثقل، مع لمسة مميزة للجمال الأدبي والجدية العلمية. وكان يستخدم أسلوب الإيجاز في الكتابة وكذلك في التحدث. كان يقوم بكل عمل بكل أمانة ويبدل في سبيل توصيل أعماله الكتابية والتدوينية إلى قمة الدقة والتكامل أقصى جهوده. لا يلتفت إلى طرق جانبية ولا يعتمد على مصادر ثانوية.

ويذكر عنه خاصة أنه لم يكتب شيئاً فقط لأجل الكتابة والنشر واكتساب الشهرة وإضافة اسمه في فهرس المؤلفين، إنما كان يبذل جهوداً حثيثة لتحقيق هدفه الذي كان يعينه من قبل أن يبدأ عمله. وكان دائماً يضع نصب عينيه الحصول على الإثباتات والدلائل التي تثبت فكره في كل مرحلة من مراحل التحقيق.

أعماله العلمية:

قام الدكتور عبيد الله الفراهي بأعمال جليلة أظهرت للنور ما خفي على العالم من العلوم والمعارف القرآنية والرموز الدينية والفلسفية الذي دونها جده الفراهي. ويمكن تقسيم أعماله الكتابية إلى قسمين:

1. ما كتبه الدكتور الفراهي عن موضوعات مختلفة تتعلق بما كان من مجاله واهتماماته.
 2. ما دونه ورتبه من مخطوطات جده وإخراج ما كان مكتوباً بخطه في هوامش الكتب، ثم تحقيقه وتدوينه وترتيبه، ثم إخراجه بصورة كتابية مطبوعة يستفيد منها عشاق الدراسات القرآنية والباحثون في أسرار كتاب الله الكريم. وهذه الجهود تتضمن إعادة طباعة كتب الفراهي المطبوعة من قبل، وتحقيق وترتيب ثم نشر مخطوطاته غير المطبوعة إضافة إلى ترجمة بعض أهم كتبه ورسائله.
- فإذا نظرنا إلى كتاباته من ناحية الكم فقد لا نجد لها كثرة، والسبب في ذلك مثل ما ذكر أنه لم يكن يكتب لأجل زيادة التأليف والكتابة، إنما كان يكتب لهدف كشف الحقائق العلمية والتحقيق.

من مؤلفاته ومنشوراته:

1. تصوف إيك تجزياتي مطالعة (دراسة تحليلية للتصوف): طبع هذا الكتاب أول مرة عام 1987م.
2. إمام فراهي حيات وأفكار (حياة وأفكار الإمام الفراهي) وهي مجموعة

المقالات التي قُدمت في الندوة الدولية التي نظمت عن جهود وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي في 8-10 أكتوبر 1991م. طبعت من الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح، 1992م.

3. رسالة في الدفاع عن النظرية التعليمية للعلامة شبلي 1988م.
4. رسالة بعنوان مكاتيب الفراهي، ترتيب الدكتور شرف الدين الإصلاحجي والدكتور حمد الله الفراهي. طبعت من الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح، 1994م.
5. نظم القرآن، إليك تعارف (تعريف بنظم القرآن) وقد رتبها بنفسه ولم يذكر اسمه.
6. رسائل الإمام الفراهي، المجموعة الأولى.
7. تفسير نظام القرآن (بالعربية والأردية) طبع 2008م.
8. الرأي الصحيح في من هو الذبيح (بالعربية والأردية)
9. حجج القرآن. الطبعة الأولى عام 2009م، الدائرة الحميدية.
10. تعليقات في تفسير القرآن الكريم في مجلدين و950 صفحة. الطبعة الأولى عام 2010م، الدائرة الحميدية.
11. تفسير نظام القرآن، سورة البقرة. الطبعة الأولى عام 2000م، الدائرة الحميدية.
12. حكمة القرآن. الطبعة الأولى عام 2007م، الدائرة الحميدية.
13. رسائل في علوم القرآن، المجموعة الأولى.
14. رسائل في علوم القرآن، المجموعة الثانية. وتشتمل على الرسائل التالية:
أ- الرائع في أصول الشرائع
ب- إحكام الأصول بأحكام الرسول
ت- أسباب النزول

ث- الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ

15. إمام فراهي کے قرآنی حواشی (الحواشی القرآنیة للإمام الفراهي)، الطبعة الأولى عام 2019م، الدائرة الحميدية.

16. دين وشريعت (الدين والشريعة) الطبعة الأولى عام 2020م، الدائرة الحميدية.

17. قرآن مجيد کے حقائق ومعارف (الحقائق والمعارف في القرآن الكريم) الطبعة الأولى عام 2020م، الدائرة الحميدية.

خدماته العلمية والقرآنية:

كما سبقت الإشارة فإنّ أعمال الدكتور الفراهي تشمل ما ألفه عن بعض الموضوعات والقضايا التي كان يهتم بها، وعنايته التامة بكل ما تركه جده عبد الحميد الفراهي من إرث علمي مطبوع أو مخطوط أو مدوّن على شكل الملاحظات والحواشي والتعليقات. وعمله هذا يعتبر أهم بكثير من عمل التأليف. وسنذكر جهوده بالتفصيل في السطور التالية بإذن الله.

وفي هذا السياق يذكر كتابه الذي ألفه لبيان حقيقة التصوف بعنوان (تصوف إليك تجزياتي مطالعة) الذي نشر لأول مرة عام 1987م. وهو يتحدث عن بعض قضايا التصوف، وبيان حقيقته وتصفيته من الشوائب التي علقت به سواء جاءت عن طريق الفلسفة أو الأفكار المضللة. وبين فيه كيفية إصلاح النفس بتطبيق كتاب الله وإحكام العقل وذكر نقائص التصوف وأثبتها بالأدلة والبراهين وقدم النظرية الصحيحة للدين عن التصوف والذي استخرجها من الآيات القرآنية والتعاليم الإسلامية الصحيحة. وقد ذكر أنّ التجارب الذاتية التي يتحدث عنها الصوفية يجب البحث فيها وقياسها على الأدلة والبراهين، وللغرد الحق بعد ذلك أنّ يقبلها أو يرفضها رفضاً تاماً. ومن أهم الأمور المتعلقة بالتصوف والتي ناقشها: تركية النفس والمجاهدة

والتوكل ومشاهدة الحق وعلم الباطن وغير ذلك من الأمور. وأكّد أننا يجب أن ننظر إلى كل قول بتطبيق قول الله وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك إلى كل عمل في ضوء أفعال رسول الله وأصحابه رضوان الله عليهم.

وله رسالة يتحدث فيها عن "نظرية التعليم عند العلامة شبلي"، حيث ذكر فيها الأفكار التي كان شبلي يريد تطبيقها في تعليم أبناء المسلمين في الهند، وكيف يمكن لهذه الأفكار أن تساعد في التقدم العلمي للمسلمين على الصعيد الديني والدنيوي. وكذلك ذكر جهود شبلي التي بذلها في دار العلوم بندوق العلماء لكناؤ، مما جعلها تصبح مركزاً علمياً يساري مقتضيات العصر ويجعل من خريجها أشخاصاً متعلّين يتمتعون بفلاح الدنيا والآخرة.

أما بالنسبة لجهوده في إبراز الأفكار العلمية لجده الفراهي وإخراجها إلى حيز الوجود فلا يمكن حصرها، ويطول الحديث عنها، لأنه كان حقيقة الوريث الذي استحقه عن جدارة. ويعتبر الدكتور الفراهي الشخصية التي بسببها وبمجهوداتها استطاع العالم أن يتعرف على الأفكار العلمية التي قدّمها جده، ومن أهمها نظرية نظم القرآن، حيث تدور حوله كلّ الدراسات والعلوم القرآنية. وهي فكرة كاملة بقيت طي الظلام والنسيان بعد وفاة الفراهي عام 1930م، وبقي دور الدائرة الحميدة محدوداً جداً في نشر تراث الفراهي، إلى أن قيّد الله لها أشخاصاً اهتموا بنشر تراث الفراهي ومنهم حفيده عبيد الله الذي نفخ روح النشاط واستعان بأصحاب العلم وتعاون معهم وبذل الغالي والنفيس في سبيل نشر وطباعة وتدوين وتحقيق مؤلفات الفراهي. فتحمل المسؤولية الكاملة للتحقيق والتدوين والطباعة والنشر، وقام بنقل جميع مخطوطات جده من مدرسة الإصلاح إلى منزله، وبدأ العمل عليها بكل جدّ ونشاط، وعملية التحقيق والتدوين وخاصة للعبارات التي كان يخطها جده الفراهي أو يضعها في شكل الحواشي والملاحظات المختصرة وفي كثير من الأحيان مبهمّة أو غير مفهومة، لم تكن هذه العملية سهلة كما قد يعتقد البعض، إنما تطلب ذلك جهوداً جبارة، خاصة

في الحواشي والملاحظات التي خطها الفراهي لنفسه أو وضع إشارة مبهمه ليعود إليها فيما بعد ولكنه لم تسنح له الفرصة لذلك.

فإذا نظرنا إلى جهوده في إعادة طبع كتب جده التي كانت قد طبعت من قبل، ولكنها لم تكن متوفرة في تلك الفترة، نراه ينشرها ويطلبها حسب مقتضيات العصر بعد تخرّج المراجع وتصحيح الأخطاء ومطابقتها بالأصول.

أما العمل الذي تطلب منه جهوداً جبارة وحثيثة وصبراً ومثابرة، فهو جمعه لتفسيرات الآيات القرآنية التي وضعها الفراهي تحت عنوان (تعليقات في تفسير القرآن الكريم) والذي ظهرت طبعته الأولى عام 2010م وطبع الكتاب من الدائرة الحميدية في مجلدين. وهي الملاحظات القرآنية التي تركها الفراهي، فقام الدكتور بجمعها ومقارنة ثلاث مخطوطات توفرت لديه على نفس الموضوع، والنظر في تفسير أي آية أو ملاحظة أو تعليق على أي آية وضعها الفراهي في موضع آخر، ثم جمعها مع بعضها البعض. وقد قام بمراجعة كل ورقة وقعت في يده ووجد عليها شيئاً مخطوطاً أو إشارة أو ملاحظة ولو بسيطة، ثم وضعها في مكانها المناسب حسب ما ذكر. قام كذلك بالتفريق بين ما خطه الفراهي كملاحظاته في مصحفه الشخصي، حيث كان يدون بعض الأمور أثناء التلاوة والتدبر، وبين ما كان يذكره من أقوال العلماء الآخرين. وقام كذلك بتخرّج الأشعار العربية التي ذكرت ضمن العبارات، فبحث كل هذه الأمور والتعقيدات الأخرى التي واجهته بكل دقة ومهارة ثم تقرّر نشرها. وتعتبر هذه التفسيرات مناراً لكل من يريد أن يفهم معاني آيات القرآن الكريم في ضوء نظرية الفراهي القرآنية.

اشتغل كذلك على تفسير سورة البقرة، وهو تفسير لم يبلغ إلا 62 آية من هذه السورة النيرة، والمؤكد أنّ الفراهي كان يريد أن يكملها ولكنه لم يتمكن من ذلك، ومع هذا فإنّ الآيات المفسرة تظهر وبكل وضوح المنهج التفسيري للفراهي، والطريقة التي كان يتبعها في بيان معاني الآيات القرآنية وتوضيحها، كما تشتمل على نكات تفسيرية جاء بها

الفراهي لأول مرة خلافاً للمفسرين السابقين. وبذلك نستطيع من خلال هذا التفسير التعرف على منهج الفراهي وطريقته في التفسير وكذلك المعاني الجديدة والمحتملة لمعاني الآيات القرآنية التي كان يريد للناس وخاصة المتعلمين منهم أن يدركوها.

ومن أهم ما قام به كذلك ترجمته لبعض ما دونه جده باللغة العربية، فقام بترجمتها إلى اللغة الأردنية لكي يطلع عليها من أبناء الأردنية ومن ليس لهم إلمام باللغة العربية ويريدون التعرف على منهج الفراهي وفكره. فقام بترجمة الحواشي القرآنية المشتملة على التعليقات والإشارات الموجزة، ومثل العمل السابق، تميز هذا العمل كذلك بالصعوبة حيث كان الفراهي يستخدم في أسلوبه لغة عربية قد تكون مبهمة وتتضمن كلمات غير متداولة، بالإضافة إلى الإيجاز الشديد، لأنه كان يكتب هذه الحواشي التفسيرية لنفسه. فترجمتها إلى لغة أخرى تتطلب جهداً ودقة واطلاعاً واسعاً على كتب وإفادات الفراهي الأخرى، حتى خرج لنا بترجمة دقيقة ووافية بعنوان (إمام فراهي كقارئ حواشي) طبعت عام 2019م من الدائرة الحميدية.

ومن الرسائل التي تعتبر ترجمة لأفكار الفراهي الدينية والقرآنية رسالتان بعنوان (دين وشريعة) و(قرآن مجيد كحقائق ومعارف)، وقد طبعتا عام 2020م من الدائرة الحميدية. وكذلك "رسالة في سلسلة نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وموقف أهل الكتاب"، و"رسالة في إصلاح الناس" و"رسالة التوحيد" و"رسالة الآخرة" وغيرها. وقد رتبها الدكتور الفراهي بعد الدراسة العميقة لكتب وتعليقات جده الفراهي، واستنباط الأصول والقواعد التي تعتبر أساس نظرية الفكر الفراهي.

كذلك كان الدكتور من أهم الشخصيات التي قامت بعقد ندوة دولية تعتبر تاريخية عن الفراهي ومجهوداته وفكره في 8-10 أكتوبر 1991م، واعتبرت هذه الندوة بمثابة قبس من نور تبعثها ندوات عديدة في المدن والمؤسسات الهندية المختلفة. وتعرف العالم على الإمام عبد الحميد الفراهي وفكره القرآني وتحقيقاته في هذا الميدان. وكتاب (حياة

وأفكار العلامة الفراهي) هو مجموعة المقالات التي قُدمت في هذه الندوة، وقام الدكتور الفراهي بجمعها واعتنى بطباعتها، يبلغ عدد المقالات 34 مقالة تدور كلها حول الأفكار والخدمة القرآنية للفراهي. وبجانب جمع هذه المقالات في مجموعة واحدة قام الدكتور الفراهي بترتيبها بطريقة منتظمة، فرتبها حسب الموضوعات وأهميتها. وأهم ما يميز هذه المجموعة هو أنه بخلاف مجموعات المقالات للندوات بشكل عام، قام في هذه المجموعة بوضع ملاحظاته وتعليقاته إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وكانت تعليقاته متوازنة مدللة يظهر فيها ذوقه النقدي ودقة نظره واطلاعه الواسع على المصادر الأولية.

وهكذا رأينا في السطور السابقة كيف بذل الحفيد أغلى سنوات عمره وخاصة وقته بعد التقاعد جهوداً جبارة لإحياء تراث جده، وإخراج ما خفي منه إلى النور لتقديمه أمام علماء العالم أجمع في صورة محققة ومرتبّة لتعريف العالم بهذا العالم الجليل (الإمام عبد الحميد الفراهي) وأفكاره ونظرياته التي كثيراً ما نجد لها مبتكرة وحاملة لمعانٍ جديدة أو خافية على العلماء الآخرين. وبذلك نجد المجال مفتوحاً أمام العلماء والباحثين والدارسين لدراسة هذه الأفكار ومناقشتها والتحقيق في الآفاق الجديدة التي كشفها الفراهيان أمام الجميع.

أصول التفسير عند العلامة الفراهي وعامة المفسرين (دراسة ومقارنة)

- د. محمد أجمل¹

الكتاب بأيدينا أطروحة الدكتوراة باللغة الأردوية التي قدّمها الباحث الحافظ أنس نضر من بانجاب (لاهور، باكستان)، لنيل شهادة الدكتوراة تحت إشراف الدكتور أبي الوفا محمود، الأستاذ المساعد في مركز الشيخ زايد الإسلامي بجامعة بانجاب (لاهور، باكستان) في عام 2010م.

تحتوي الأطروحة على ستمائة وخمسة وعشرين صفحة بما فيها ورقنا الغلاف الأمامية والخلفية.

تستهلّ الأطروحة بشهادة رسمية موقعة من قبل مشرف البحث، ثم يأتي إعلان رسمي يصرحه الباحث فيه أنه لم يقدم أحد غيره مثل هذا البحث وعلى هذا الموضوع والعنوان، ويوقع عليه بنفسه.

أهدى الباحث الأطروحة إلى والدتها؛ ويقول بهذا الصدد: إنها ربته بمنهج؛ عندما فتح عينيه الواعيتين فهو كان من أصحاب حفاظ القرآن الكريم. ثم تلي الصفحة التالية بكلمة الشكر التي وجهها إلى مشرفه وأساتذته وأصدقائه وأحبائه وإلى كلّ من له صلة في إخراج هذه الأطروحة.

¹ أستاذ مساعد، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي.

ثم تتقدم صفحات الأطروحة من مقدمة تحيط بها ستة أبواب، وثمانية عشر فصلاً، وكل باب يشتمل على ثلاثة فصول.

فالباب الأول بعنوان "الشيخ عبد الحميد الفراهي" ويشتمل هذا الباب على ثلاثة فصول؛ فالفصل الأول يتناول تعريفه ونبذة عن حياته، ويشتمل الفصل على ثلاثة عشر عنواناً ضمنيّاً. والفصل الثاني بعنوان "أساتذته وتلامذه وخدماته العلمية والقومية"، ويشتمل هذا الفصل على ستة وعشرين عنواناً ضمنيّاً. وأما الفصل الثالث فيبحث عن كتاباته وتأليفاته، ويحتوي هذا الفصل على سبعة وعشرين عنواناً ضمنيّاً.

والباب الثاني حول "أصول التفسير عند عامة المفسرين"، وهذا الباب أيضاً يشتمل على ثلاثة فصول وكلّ فصل منه يحمل عناوين مختلفة؛ فالفصل الأول يناقش تاريخ أصول التفسير وتدوينه وهو يشتمل على سبعة عشر عنواناً ضمنيّاً، والفصل الثاني يتناول التفسير بالمأثور ويشتمل على أربعين عنواناً ضمنيّاً، أما الفصل الثالث فهو يتكون من التفسير بالرأي ويحيط باثنين وثلاثين عنواناً ضمنيّاً.

والباب الثالث يعنون بـ"دراسة تحليلية لفكر الفراهي بخصوص نظم القرآن"، وهو يحتوي على أربعة فصول؛ فالفصل الأول يتناول موضوع: الشيخ الفراهي ونظم القرآن، وهذا الفصل يشتمل على سبعة عشر عنواناً ضمنيّاً، والفصل الثاني بعنوان "حدود الاستفادة من نظم القرآن"، ويعالج هذا الفصل ثمانية عناوين ضمنية. أما الفصل الثالث فهو عن "البلاغة القرآنية وفصاحتها والحكمة المتصورة"، يناقش هذا الفصل أربعة عناوين ضمنية. وأما الفصل الرابع فهو يتحدث عن "متفردات النظم في تفسير نظام القرآن"، وهو يتحور حول ثلاثة عشر عنواناً ضمنيّاً.

والباب الرابع عنوانه "الإفراط والتفريط والوسطية في الاستفادة من العلوم العربية" ويشتمل هذا الباب على أربعة فصول؛ فالفصل الأول بعنوان "الشيخ الفراهي

والأدب الجاهلي". يتناول هذا الفصل تسعة عناوين ضمنية، والفصل الثاني بعنوان "محو استدلال العلوم العربية"، ويتناول أربعة عناوين ضمنية، والفصل الثالث يتناول "مصطلح الصحابة في فهم القواعد العربية والقرآن"، وهذا الفصل يدور حول ستة عناوين ضمنية. وأما الفصل الرابع فهو عن "متفردات الأدب الجاهلي لنظام القرآن" ويحتوي على اثني عشر عنواناً ضمناً.

وبالباب الخامس يعني بـ"تفسير القرآن بالقرآن: دراسة بحثية وتحليلية"، ويشتمل على أربعة فصول؛ فالفصل الأول بعنوان "الشيخ الفراهي وتفسير القرآن بالقرآن"، ويشتمل هذا الفصل على خمسة عناوين ضمنية، والفصل الثاني بعنوان "أهمية السنة بتفسير القرآن بالقرآن"، ويحتوي على ستة عناوين ضمنية، والفصل الثالث بعنوان "قطعية دلالة القرآن الكريم"، ويتناول خمسة عناوين ضمنية، وأما الفصل الرابع فيتحدث عن "المتفردات بالإشارة إلى تفسير نظام القرآن"، وهو يناقش تسعة عناوين ضمنية.

وأما الباب السادس والأخير فهو بعنوان "تفسير القرآن لِمَا خَذَ الأحاديث" ويحتوي على ثلاثة فصول؛ فالفصل الأول يتحدث عن "الشيخ الفراهي والمآخذ الفروعية لتفسير القرآن"، وهذا الفصل يتناول عشرين عنواناً ضمناً، والفصل الثاني بعنوان "تفسير القرآن والأحاديث" ويناقش ثلاثة عشر عنواناً ضمناً. وأما الفصل الثالث فعنوانه: "الصحائف السماوية السابقة وأوضاع الشعوب المثبتة"، ويشتمل على أحد عشر عنواناً ضمناً.

وتنتهي الأطروحة على خاتمة البحث التي تذيّل بفهارس فنية مختلفة.

تحتلّ الأطروحة أهمية كبيرة بالنسبة للموضوع وبالنسبة لدالاتها على العلامة عبد الحميد الفراهي أحد أعلام شبه القارة الهندية.

ومما لا شك فيه أنّ القرآن الكريم دستور الحياة البشرية بأكملها ويعتبر معجزة كبرى للنبي الخاتم صلّى الله عليه وسلّم، فقد غير مجرى التاريخ بوحيه، ومن ثم فهو في شموله وعمقه

دليل للعقل والفكر الإنساني في كل عصر ومصر، لغته معجزة وأسلوبه لا نظير له ولا مثيل. إنّ القدر الذي كتب على شرحه وتأويله، والإعجاز والإظهار، والتاريخ والجغرافيا، وأسلوب سرده كل ذلك، إعجاز ومعجزة.

وقد خدمه المفسّرون في كل عصر حسب ذوقهم وبيئتهم الخاصة، ووضعوا أمامهم أساليب وأصولاً ومناهج محدّدة في البيان والتفسير.

وإذ ألقينا النظر على تفاسير علماء القرن الثاني وجدناها لا تحتوي إلا على أقوال الصحابة والمفسّرين مع تفسير القرآن الكريم، ولكن بعد ذلك هناك زيادة في العلم وتفسير القرآن الكريم، وقد انتشرت هذه العلوم في الوقت الحاضر بشكل كبير حتى أصبح من الصعب أن تشمل كعلم واحد، وقد اتخذت علوم التفسير شكلاً تطورياً حتى أصبحت مراجعتها التاريخية موضوعاً في حد ذاته.

وبغض النظر عن تطور هذه العلوم وتفصيلها، فإنّ الأمر الذي يجب النظر فيه هو ما هي العناصر والمصادر التي يمكن أن تساعد في تفسير القرآن والتي إذا لم تؤخذ بعين الاعتبار تجعل من الصعب في فهم القرآن الكريم وإدراكه وإتقانه؟

لقد استخدم عامة علماء التفسير المبادئ التالية بشكل عام في سياق تفسير القرآن الكريم، وأثناء ترتيبهم أوضحوا أيضاً أنّ النظر فقط إلى ترتيب هذه العناصر يمكن أن يؤدي إلى الكثير من الأخطاء والأغلاط. وحتى في العصر الراهن، فقد زادت أهميتها، ومن المهم بالنسبة لنا نحن المعاصرون أن ندرس القرآن في ضوء هذه المبادئ الأساسية حتى يصبح الطريق الصعب لفهم القرآن سهلاً.

كما ذكر أنّ تفسير القرآن بالقرآن أحد المواضيع المهمة في علم أصول التفسير. فمن خلال تلاوة القرآن ودراسته تتجلى هذه الحقيقة بأنّ القرآن قد كرّر حقائق معيّنة في عدة مواضع للتأكيد عليها، ولكن أسلوب الشرح يختلف في كل مكان. إذا كان

هناك إجمال في نقطة واحدة، ففي نقطة أخرى تم شرح نفس الشيء، ومن ثم هناك فرق كبير من حيث الغرض والمنطق والاستدلال. وفي سياق تفسير القرآن بالقرآن، فإن الاختلافات في التجويد والقراءات لها أيضًا أهمية خاصة، وقد كان الصحابة والتابعون يستغلون اختلاف القراءات والتجويد في تفسير بعض الآيات، ولا سيما قراءة عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهما كان لها أهمية كبيرة في سياق التفسير. ويقول الإمام مجاهد بن جبر: لو اعتمدت قراءة عبد الله بن مسعود لحلت كثير من الأسئلة تخطر ببالي دون الاستفسار من ابن عباس رضي الله عنه.

وكذلك تفسير القرآن بالحديث مهم جدًا في هذا الخصوص، ويمكن أن يتم الخوض في هذه الحلقة؛ لقد كانت سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي المرجع الثاني في سياق القرآن، لكن الأئمة المجتهدين اعترفوا بحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتفسير للقرآن، ولم لا، مع أن تفسير القرآن في الآية (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ) ¹ وصف بأنه أهم واجبات النبي.

وعلى هذا الأساس، اهتم العلماء أيضًا بكتابة الأحاديث النبوية، وإن رفض صحتها بمثابة فتح الباب للتأويل الخاطئ، وقد أوضح الباحثون أهمية السنة مع إنكار هؤلاء، وضرورة فهم القرآن، يقول الإمام الشافعي: ما أصدر من حكم فقد أصدره بعد أن فهمه من القرآن. ²

ثم يأتي تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين؛ إذا كانت هناك مشكلة في القرآن الكريم لا يحلها القرآن والحديث، فلا بد من الرجوع إلى أقوال الصحابة، لأن الصحابة كانوا يعرفون الأدب الجاهلي وأهل الكتاب، وعاداتهم وتقاليدهم وأسرار اللغة. والأهم أن الأحوال والظروف التي نزل فيها القرآن كانت أمام أعينهم وكانوا واعين بخلفيات الآيات، وكانت عقولهم أيضًا نظيفة وفارغة من الوسائخ التي يمكن أن تلوث داخلها وخارجها. وخاصة أنه لا يمكن أن تصرف الأنظار عن أقوال

¹ سورة النحل: 44: 16

² الرسالة، رقم 303.

الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب رضي الله عنهم أجمعين. ولما لم يكن التفسير موجوداً في القرآن، ولا في السنة، ولا في أقوال الصحابة، كان كثير من الأئمة في مثل هذا الوضع يراجعون التابعين الكبار، مثل مجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وعطاء، والحسن. البصري، ومسروق، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، وقتادة، والضحاك رحمهم الله أجمعين. وكان مجاهد بن جبير علامة الله تعالى على هذه الأرض في علم التفسير، كان يقول: عرضت المصحف من أوله إلى آخره ثلاث مرات على عبد الله بن عباس. وكنت أوقفه على كل آية وأطلب التأويل. وكان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير من مجاهد فهو حسبك.¹ وهكذا تقدم البحث إلى موضوع "تفسير القرآن باللغة العربية".

إذا لم يوجد معنى آية من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة الأخيار والتابعين الأبرار، حتى اختلف العلماء أيضاً في تفسيرها، فيتم اللجوء إلى القاموس والمصطلحات العربية، ولو ذلك ليس مصدرًا أو عنصراً، وخارج مصادر التفسير الأخرى، ولهذا السبب فإن العلماء الذين استخدموا المعاجم والمصطلحات في تفاسيرهم، وغربلوا أدلة التأويل الحرفي، يعتمدون أيضاً على السنة وأقوال الصحابة في تفاسيرهم، بل وضعوها في المقام الأول ورغم اعتراضهم وعقلايتهم إلا أنهم تلقوا المساعدة من الأحاديث وأقوال الصحابة.

هذه هي العناصر أو المبادئ الأساسية التي يجب استخدامها على التوالي في عملية فهم القرآن. وبصرف النظر عن ذلك، فإن معرفة أسباب الوحي وتاريخ الجاهلية وترتيب القرآن وأهميته والدراسات الإسرائيلية يمكن أن تساعد أيضاً في فهم القرآن.

تجربة العلامة عبد الحميد في أصول التفسير: لا يمكن إنكار خدمة الشيخ عبد الحميد الفراهي وأتباعه للقرآن الكريم، فقد جعلوا من تفسير القرآن الكريم وبيانه هدف

¹ جامع البيان، 40/1.

حياتهم وغاية مقاماتهم. وفي عملية تدبر القرآن الكريم، أولى هؤلاء السادة أهمية حاسمة لتفسير القرآن بالقرآن، وكذلك معرفة السياق القرآني واللغة العربية. وإذا راجعنا تفسير الشيخ عبد الحميد الفراهي لبعض السور وغيرها من المؤلفات، من الممكن أن نستنتج طرق تفسير القرآن الكريم التالية:

الأصول الداخلية للتفسير: هناك ثلاثة أصول داخلية للتفسير، ويزعم أنها منفصلة ولكن سيتم استخدامها معاً.

1. تفسير القرآن من خلال نظم القرآن: الأصل الأول للتفسير هو أن يفسر القرآن بآياته، فقد أعطى الشيخ الفراهي أهمية كبيرة لنظم القرآن حتى أنه أطلق على تفسيره للسور المختلفة اسم "نظام القرآن"، وقد سماها الخطوة الأولى والمبدأ الأساسي لتفسير القرآن. فإنه يقول إنّ النظم هو الشيء الوحيد الذي يحدد الاتجاه الصحيح، والذي يمكن من خلاله تصحيح أخطاء أهل البدع والضلال والمتحرفين في أصول الشريعة. وقد كتب الشيخ الفراهي عن النظم في القرآن الكريم إنّ غير المعترفين بالنظم هم الملاحدون ويقول: والشيء الآخر الذي حفزه هو اعتراض الملاحدين. لقد اتهموا القرآن بالتشويش، ورأيت أنّ العلماء في مجال علوم القرآن في الرد عليهم، بدلاً من إظهار الحقيقة ويكافح على هذا الاتهام من كتاب الله الحكيم، صاروا يقولون نفس الشيء بأنفسهم، ما كان يقوله الملاحدون. (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ)¹ (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)²، وفي هذه الحالة لم يكن من الممكن بالنسبة لي أن أنكر الحقيقة ويستمر في النظر إلى الباطل وأجلس بهدوء، وخاصة أنني شعرت وبقناعة تامة أنّ اعتراض الملاحدين كان خاطئاً تماماً.³

¹ سورة الكهف: 18: 5

² سورة النساء: 4: 141

³ مجموعة تفاسير فراهي، ص 31.

2. تفسير القرآن من خلال العربيّ المبين: يقول الشيخ الفراهي تحت عنوان "المصادر اللغوية للتفسير": كما وعد الله أنه سيحمي نص القرآن " (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)¹ وبنفس الطريقة، وعد بتفسير ذلك وبيانه (ثُمَّ إِنِّي عَلَيْنَا بَيَانُهُ)².

ولذلك هذا هو تحقيق ذلك الوعد بأن الله جعل اللغة العربية لغة حية ثابتة وحفظها من المحو والفناء.³

ويقول الشيخ الإصلاحي إن الأصل الأول هو يفسر القرآن بمعروف اللغة التي نزل بها. وليس المقصود بها اللغة العربية المشتركة التي تعتبر متداولة في أيامنا هذه، إنما يقصد بها لغة امرئ القيس وليد وزهير وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وغيرهم. وسيكون عليك أن تلتفت إلى ألفاظ خطب العرب الجاهلية، وسيكون عليك أن تمارس هذه الكلمة إلى الحد الذي ستمكن فيه من التمييز بين الأصل والمنحول. وأن تتمكن من فهم أساليبها وتعايرها جيداً، وأن تقدر من تحديد جمالها وقبحها، وأن تتمكن من معرفة أسلوبها، وأن تستطيع من الاستمتاع بتليحاتها وإيماءاتها. ومن الواضح أن هذه مهمة صعبة للغاية، ولكن أولئك الذين يريدون فهم القرآن الكريم، ما لم يسهلوا هذه الصعوبة على أنفسهم، فلن يتمكنوا من تجاوز راحة التفاسير والترجمات في فهم القرآن الكريم.⁴

3. تفسير القرآن من خلال القرآن: والقاعدة الثالثة الداخلية والقطعية في التفسير هي أن يكون تفسير القرآن من القرآن، وفي القرآن الكريم يأتي الشيء نفسه أحياناً بإجمال، وأحياناً بتفصيل، وأحياناً بأسلوب، وأحياناً بأسلوب آخر. وإن أكبر ميزة

¹ سورة الحجر: 9

² سورة القيامة: 75 : 19

³ مجموعة تفاسير فراهي، ص 41.

⁴ مبادئ تدبر قرآن، ص 191

للتوصل إلى العديد من جوانب الشيء نفسه هي أنه إذا لم يكن هناك شيء واحد غير مفهوم في مكان واحد، فإنه يُفهم في مكان آخر أو ثالث، وإذا كان جانب واحد منه غير واضح، ففي مكان آخر أو في سياق آخر يصبح واضحاً جلياً. ولهذا السبب فإن المصدر الأكثر موثوقية لتفسير القرآن هو القرآن نفسه. فإذا حاول الإنسان أن يحلّ مشاكل القرآن بالقرآن نفسه، فإن لم يكن ترتيب شيء واضحاً في مكان، فإن ترتيبه واضح في مكان آخر، حتى في بعض الأحيان تصبح الصعوبات التي يواجهها أسلوبه وتعايره واضحة بسبب الظهور المتكرر في سياقات مختلفة.

أخبار الآحاد والتفسير: يراد بأخبار الآحاد، أنه لا يمكن أن يوثق بها تماماً في كل موقف، ولكن بما أن الشك والريب متضمنان فيها، فيمكن أن يشاركها في تفسير القرآن بقدر ارتباطها بالقرآن. بشرط أن تكون متوافقة مع القرآن الكريم. فإن خالف أمر لها من القرآن ففي مثل هذه الحالة يكون الحاسم الفصيل هو القرآن، لأن الأصل الحقيقي هو القرآن وحده، ولا شيء آخر بهذه المنزلة.

تفسير القرآن بالأحاديث المتواترة والمشهورة: المصدر الأول هو الأحاديث المتواترة والمشهورة. يقول الشيخ الفراهي إنه عندما تكون هناك حالة من الكلمات الاصطلاحية التي لم يوضح الحد والنطاق الكامل لها في القرآن، فإن التصرف الصحيح هو الاكتفاء بالجزء الذي تتفق عليه الأمة جمعاء ولا تركز على أخبار الآحاد وإلا ستكون النتيجة أن تقع في الشك، وإدانة تصرفات الآخرين باعتبارها خاطئة، ولن يكون هناك شيء بينكم الذي يمكن لذلك أن يقرّر هذا النزاع.¹ والحديث ولو كان متواتراً لا يمكن أن ينسخ القرآن، إما أن يؤوله أو يتوقف عنه، ولكنه لن ينسخ القرآن من أجله.²

الأحاديث وآثار الصحابة: من المصادر المفترضة أشرفها وأطهرها هي أحاديث

¹ مجموعة تفاسير فراهي، ص 24

² نفس المصدر، ص 41.

الصحابة وآثارهم، وهي المصدر الثاني الخبري لتفسير القرآن، ولو كان هناك الرضا التام عن صحته لكان له في الشرح نفس الأهمية التي جاءت في السنة المتواترة، وبما أنه لا يمكن أن يتم الرضا تماماً على صحته، لذلك، بقدر ما يتم التوافق على مبادئه المعينة، سيتم الاستغلال عليه. فأولئك الذين يعلقون أهمية كبيرة على الأحاديث والآثار بحيث يجعلونها حاكمة للقرآن، هم في الواقع يؤذون القرآن ولا يضيفون أي كرامة للأحاديث. وإذا كان الحديث مخالفاً صريحاً لألفاظ القرآن الكريم وسياقه ونظمه، فينبغي أن يقف عند هذه المواضع ويترك الحديث في حالة لا يمكن التوافق بينه وبين كلمات القرآن في هذا الموضع.¹

الكتب السماوية القديمة وتاريخ الأمم: يقول الشيخ الفراهي إنه باعتبار القرآن هو الأصل، وهكذا أذكر الأحاديث بشكل عابر، بنفس الطريقة العابرة، فإني أعرض أيضاً شهادات الكتب التي نزلت قبل القرآن وهذا يعني مطابقتها للقرآن كإظهار المحجة والدليل على اليهود والنصارى من كتبهم إياها. ويجب أن نتذكر هنا أن القرآن الكريم لا يحتاج إلى هذه الفروع في تفسيره. فهو المركز والمرجع لجميع الكتب، وحيثما يوجد اختلاف يكون هديه هو الذي يزيل الخلاف. وهذا أيضاً صحيح، أنه ينبغي التمييز بين ما ثبت من القرآن وبين ما علم من الفروع، ولا ينبغي الخلط والمزج بينهما. لأن ما في القرآن ثابت قطعاً وفي فروعها مجال كبير للأوهام، فإذا كان الإنسان منكراً لأي فرع من الفروع، فلا يمكن أن يكون مثل منكري القرآن.²

لقد وصف القرآن الكريم تاريخ الأمم من جوانب عديدة، (في بعض الأماكن هلاك العرب السابقين كعاد وثمود وأمم لوط وغيرهم، وفي بعض الأماكن بعث سيدنا إبراهيم وإسماعيل إلى مكة واستيطانهم وبناء الكعبة، وقد تمت الإشارة في

¹ نفس المصدر، ص 37-39

² نفس المصدر، ص 40.

بعض الأماكن إلى الأحداث المهمة في تاريخ اليهود والمسيحيين)، ولكي يفهمها بوضوح لا بد من التعرف على تاريخ هذه الأمم وأحوالها، ولكل هذه المعلومات التاريخية، من هذا الجانب، نحتاج أن نفهم نسبة بعض إجمالات القرآن الكريم منها، ولكن بما أن الجزء المثبت منها قليل جداً، فيتم عمل الفرقان من القرآن الكريم إياه.

منهج البحث في هذه الرسالة: في منهجية هذا البحث، قام الباحث بتحليل البحث والمقارنة بين أصول تفسير الشيخ عبد الحميد الفراهي وأصول تفسير عامة المفسرين، وفيما يتعلق بالموضوع، فقد تم استخدام المصادر الأساسية قدر الإمكان، ولكن في حالة عدم توفر المصادر الأساسية تم استخدام المصادر الثانوية أيضاً، وهو أمر لا يذكر. لقد تم العثور على آراء الشيخ الفراهي في أصول التفسير من كتبه الأصلية ومنها:

- (1) فاتحة نظام القرآن (تفسير نظام القرآن)، (2) التكميل في أصول التأويل (3)
- دلائل النظام (4) أساليب القرآن (5) مفردات القرآن (6) جمهرة البلاغة (7)
- حكمة القرآن (8) الرأي الصحيح في من هو الذبيح (9) القائد إلى عيون العقائد
- (10) في ملكوت الله (11) إحكام الأصول بأحكام الرسول.

لقد قدم الشيخ عبد الحميد الفراهي وأتباعه خدمة كبيرة للقرآن الكريم. فإنه جعل تفسير القرآن وبيانه هدف حياته وغايات جولانه وصولاته، فقد اهتم اهتماماً كبيراً بتفسير القرآن بالقرآن وكذلك معرفة السياق القرآني وممارسة اللغة العربية. إذا تم تحليل وشرح تعليقات الشيخ الفراهي على بعض السور ومؤلفاته الأخرى، فيمكن استنتاج المبادئ التالية لتفسير القرآن: (1) تفسير القرآن من خلال نظم القرآن (2) تفسير القرآن من خلال العربية المبينة (3) تفسير القرآن من خلال القرآن.

ويضيف قائلاً: "لقد حدد الشيخ الفراهي الأصول الثلاثة أساساً ومصادر قطعية، ثم قام باستنتاج التفسير من بعض المصادر الإضافية وهي: (1) الأحاديث وآثار الصحابة (2) الصحف السماوية القديمة (3) تاريخ الأمم الثابت. لكنه قد صرح

للمصادر المذكورة هي من الآحاد والثانوية، بما هي مفترضة وليست قطعية وعنده لا يمكن أن يقتنع بها اقتناعاً كاملاً.

ويحلّ مضيئاً إلى: يمكن لأي شخص أن يضع مختلف الأصول والمناهج لتفسير القرآن، لكن التفسير الذي نقل وروى من الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأخيار يكون دليلاً وحجة، وما سوى ذلك، فإن جميع التفاسير الأخرى يمكن أن تكون نقاطاً علمية، يحتل فيها الصواب والخطأ معاً، لذلك لا يمكن أن يقرر لها أنه مقصود إلهي.

ما عدا التفسير المأثور، فإذا فسر شخص القرآن بالقرآن أو فسر القرآن بالحديث، فلا يعني ذلك أنّ هذا هو المعنى والبرهان الذي أراده الله. ومن ناحية أخرى، فإنّ المفسر في كثير من الأحيان يأتي بتفسير لآية تخالف الكتاب والسنة على أساس انخيازه الشخصي وانخيازه الديني وأهوائه وميوله. على سبيل المثال، قد اتخذ الشيخ الفراهي في سياق (إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)¹ بدلاً من معنى الرؤية، معنى الانتظار وقد استدل بآية القرآن الحكيم (فَنَظِرَةٌ يَمَّ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ)².

ومع ذلك، وحسب زعمه، هذا تفسير القرآن بالقرآن كما هذا قطعي، إلا أنّ الحقيقة أنه استند إلى انخيازه الشخصي في هذا التفسير، إلا أنّ الأحاديث الصحيحة قد بينت تفسير هذه الآية المباركة على لسان النبي صلى الله عليه وسلم لدى رؤيته لله رب العالمين.³ والخلاصة أنّ التفسير بالمأثور إنما هو ما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أو عن أصحابه بحيث نقلوه عند تفسير آية بقولهم: تفسير هذه الآية هو هذا.

ويقدّم ضرباً بقوله: وقد ختم الإمام ابن تيمية أيضاً مسألة التفسير بذكر نفس الأصول الأساسية، وقال إنه لما كان تفسير القرآن مبنياً على الوحي، فإنّ تفسيره بالرأي أمر

¹ سورة القيامة: 75 : 23.

² سورة النمل: 27 : 35.

³ الجامع للترمذي، كتاب صفة الجنة عن رسول الله، رقم الحديث: 2553.

خطير للغاية. وعلى عكس غيره من العلماء، فإنه لم يدرج حتى التفسير بالرأي المحمود في التفسير، لأنه في رأيه، التفسير هو فقط ما يصدر من لسان محمد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقد نقل في الصفحات الأخيرة عدة أقوال عن الصحابة الأخيار والتابعين الأبرار، استنكر فيها بشدة مثل هذا التفسير الذي لا يعرفه هو.

وأخيراً، قد أحاطت الأطروحة من خلال البحث الكثيف والدقيق من قبل باحثها بجمل محتوياتها وتناولت جميع جوانب علم التفسير شكلاً ومضموناً، كما عالجت آراء الشيخ الفراهي حول التفسير كذلك قارنت بين تفسير جمهور العلماء وتفسير الشيخ الفراهي مقارنة شاملة جامعة، وقدر مستطاعته، لم تترك إلا وتناول معظم نواحي التفاسير فيما يتعلق بالجمهور والعلامة عبد الحميد الفراهي.